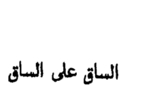
الساق على الساق

في ما هو الفارياق

أحمد فارس الشدياق

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان


الساق على الساق

السّاق على السّاق

في ما هو الفارياق

أو

أيّام وشهور وأعوام في عجم العربِ والأعجام

تأليف

أحمد فارس الشّدياق

قدّم له وعلّق عليه

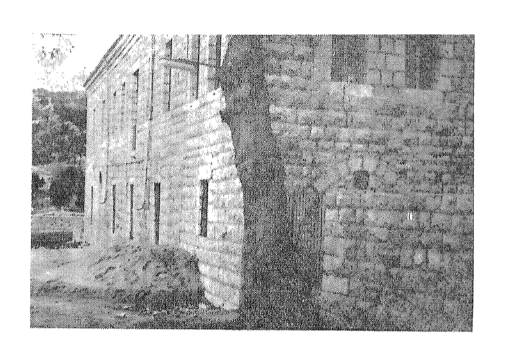
الشّيخ نسيب وهيبه الخازن

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

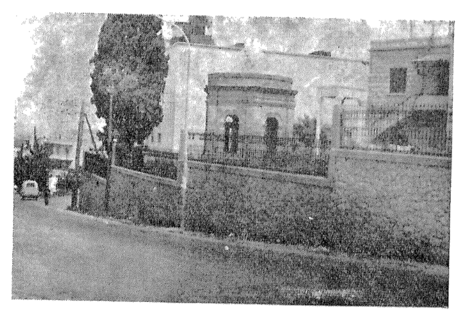


فارس يوسف الشدياق

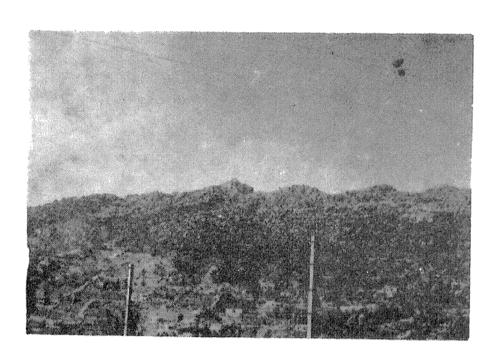
١٨٠٥ - ١٨٨٧



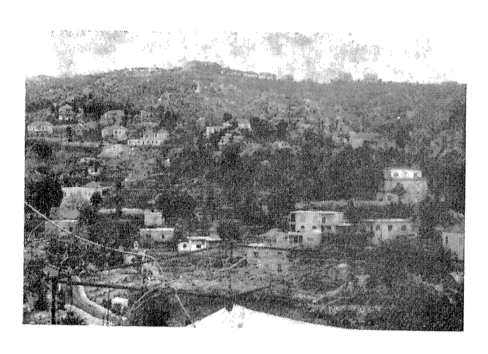
عشقوت: البيت الذي ولد فيه فارس هو البناء القديم حيث تظهر الاحجار، وهو الآن ، بعد إضافة جناحين وكنيسة ، وقف لآل مسعد



ضريح احمد فارس يعلوه الهلال بين قبور « الباشاوات »
من متصرفي لبنان وهم مسيحيون
الحازمية : بجوار « الحدث » على طريق الشام



عشقوت : فوق الجبل الشمالي قمة شاهقة يسميها السكان « كرسي القطّين »



عشقوت: فوق الجبل الجنوبي «كرسي المطرانية» تقابلها في الشمال كرسي القطّين»

كتاب

الساق على الساق في ما هو الفارياق

او

ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام

تاليف العبد الفقير الى ربه الرزاق فارس بن يوسف الشدياق

تاليف زيد وهند في زمانك ذا　　اشهى الى الناس من تاليف سفرين

ودرس ثورين قد شُدّا الى قرن　　اقنى وانفع من تدريس حبرين

طبعه بنفقته العبد الفقير الى رحمة ربه الموفّق رافائيل كحلا الدمشقي

وذلك في مدينة باريس المحمية سنة ١٨٥٥ مسيحية ١٢٧٠ هجرية

LA VIE ET LES AVENTURES

DE FARIAC

RELATION DE SES VOYAGES

AVEC SES OBSERVATIONS CRITIQUES

SUR LES ARABES ET SUR LES AUTRES PEUPLES

Par FARIS EL-CHIDIAC

PARIS

BENJAMIN DUPRAT, LIBRAIRE DE L'INSTITUT,

DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE, DES SOCIÉTÉS ASIATIQUES DE PARIS, DE LONDRES, DE MADRAS ET DE CALCUTTA, etc.

Rue du Cloître-Saint-Benoît, n° 7.

1855

في إهداء هذا الكتاب البديع

الحمد لله

لما جرت عادة المؤلفين من الافرنج ان يهدوا مؤلفاتهم الى من تميز في عصرهم بالفضائل والمحامد ورُويت عنه مآثر جليلة في اكرام العلم واهله رأيت هنا ان احذو حذوهم في اهداء هـــذا الكتاب البديع الى الجنـاب المكرم الخواجا بطرس يوسف حوا المقيم بلندرة اذ كان قد اتصف في عصرنا هذا بالمزايا الحميدة التي يتحلّى بها مدح كل مطرىء وقول كل مؤلف وهو الآن كبير هذا البيت المشهور من قديم الزمان بالحسب والفخر ورفعـــة القدر وكثيراً ما اعان على تحصيل الفضايل وامدّ بني جنسه وغيرهم بمـا افازهم بمنتهى الآمال وادرك بهم منتأى الاوطار فانثنوا عنه حامدين وعلى آلائه شاكرين هذا وان يكن مقامه الكريم يجلّ عن بعض جمل في الكتاب لكنه في الجملة جدير بأن يختص بـه فالمرجو منه قبوله واجازته وترويجه واجازته فان الحقـــير بالانتماء اليه يعود جليلا والناقص يكتسب تكميلا .

من الداعي لجنابه

فارس الشدياق

محتويات الكتاب

دراسة وتحليل

الكتاب الاول

– يقول الشدياق أن في استعمال كلمة قرن غموض . ان اكتشاف نصوص « أوغاريت » في سنة ١٩٢٩ في رأس شمرا ، قرب اللاذقية قد فسر أكثر ما في التوراة من غموض . ومن ذلك أن الثور من ألقاب الالوهة عند الكنعانيين (الفينيقيين) وقرنه رمز للقوة. وقد نقل العبريون هذا التعبير عن الكنعانيين، كما نقلوا عنهم أساليب التوراة وما فيها من القصص والأمثال والحكم والأناشيد والإلهيات(انظر كتابنا« أوغاريت » طباعة دار الطليعة بيروت سنة ١٩٦١).

٣ – « في نوادر مختلفة » صفحة ٩١

مكتبة والده – تهافت الفارياق على نظم الشعر والتقاط الالفاظ الغريبة– المطران جرمانوس فرحات – بلاهة شاعر – الناس يحاولون الشهرة في الادب – الشعراء المجانين – شعره الاول في الحب – كذب الشعراء .

٤ – « في شرور وطنبور » صفحة ٩٦

والده ضالع مع حزب درزي ذي بسالة وفقر – ما يقال عن الدروز – زهدهم وعفتهم – المؤامرة الفاشلة – الفرار الى دمشق – نهب بيت والده وطنبور الفارياق – الموسيقى في معابد الافرنج – صنعة الالحان والعزف مشينة في الشرق–عودة الفارياق ووالدته الى بيتها –موت والده في دمشق – حزن والدته – عودته الى النساخة .

٥ – « في قسيس وكيس وتحليس وتلحيس » ص ١٠٠

سخافة الاحاديث الاجتماعية – بعير بيعر « الامير حيدر المؤرخ »يحاكي لامارتين وشاتوبريان في مذكراته والفارياق ينسخ له – قسيس يتعاطى شؤون بعير..وامور زوجته ..–بعير يثق برجال الدين–اجرة النساخة وشح بعير .

٦ – « في طعام والتهام » ص ١٠٧

طنوس، اخو الفارياق الاكبر، كاتب عند امير درزي – زيارة الفارياق –

١١ «في الطويل والعريض» ص ١٢٩

رجوعه الى حرفة النساخة — حضوره دروس النحو مع اميرين فتيين ، المعاني والبيان ، ما تشتمل عليه هذه العلوم — البيانيون والنحاة ماتوا ولم ينهوا قواعد النحو والبيان : الفراء ،سيبويه ، الكسائي اليزيدي ،الزمخشري ، الاصمعي — قلة التأليف بسبب هذه الصعوبات — الاستعاضة بالفقر المسجعة .

١٢ — « في اكلة وأكال » ص ١٣٤

امتحان صبر القارىء — طال لسان الفارياق وبقي فكره قصيراً — يراعي الاحمق فيكتب سخافه ، والامير فيتأدب ، والقسيس والمطران فيتحفها بالركاكة— مروره على دير رهبان — بياته ليلته — شرط الرويهب لاضافته — اكلة عدس مطبوخ بالزيت — الرهبان لم يسمعوا بالقاموس — شعر — الخبز كاد يقلع سنه والعدس مناه بالحكاك وفي نصف الليل جاء وقت الصلاة — وفي الصباح نقاش : الرويهب : ادخله والداه الدير قسراً لفقرهما—اخلاق القساوسة في المجتمع — لا بأس في الرهبانية بشرط مجاوزة الخمسين سنة — الرويهب يهرب معه فيتخلص من ربقة الجهل .

١٣ — «في مقامة » ص ١٤١

مقامة يتكلف فيها السجع والتجنيس ويتناول كتاب ابن حزم في«موازنة الحالتين وموازنة الآلتين » ويعرضه على مطران كان معلم صبيان ، وقد نقص من عقله وفهمه ما زاد في لحيته وكمه ، فيوعز اليه بوزن كل حالة . ثم يعرض الكتاب على فقيه كبرت عمامته فيشير بعدّ الكلمات في كل حالة . ثم يقصد شاعراً يتلهوق ويتمشدق ولا يحسن سوى المدح والنسيب . ثم يسير الى كاتب الامير ويلحقه بالثلاثة . ثم يسأل الفارياق (اي نفسه) وهو مكب على النسخ في حالة البؤس، فيكتب له في الحال شعراً نذكر منه المقابلة بين « حالتي » اللذة والالم قوله :

وهل لمن يبرد وقت القر دِفءٌ بتذكار اوان الحرّ ؟

فليس دنيانا لاهل الخـــبر   سوى بـلاء دائم وخسر .

١٤ – في سرّ الاعتراف ص ١٤٦

مقامة اخرى يظنها تكون احسن ، كما ستكون المقامة الخمسون احسن من التاسعة والاربعين ولكنه لن يكتب سوى اربع مقامات– ويستطرد كعادته الى ان يتناول هنا سرّ الاعتراف ومـا جرى بينه وبين القسيس الذي يحسن وصف الحسان، ويعرض عليه ككفارة عن ذنوبه مدح رجال الدين ولا يؤاخذه على فعلته اذ أخرج رويهباً من الدير (انظر الفصل ١٢) – ولما كان القسيس من اهل الدعابة والظرافة فقد قص على الفارياق قصته .

١٥ – في قصة القسيس ص ١٥٠

(قصة القسيس كأنها قصة « كانديد » لفولتير) فالقسيس : كان حائكاً وكان قصر قامته الفاحش يوقعه في حفر النول ويقطع نفسه بالرغم من اتساع منخريه لما يكفي خمسين رئة وخمسين كرشاً.ثم اكترى حانوتاً ولكن منخاره وقف بينه وبين رزقه فشكا الى الله امره، اخذ يتساءل عن حكمة الله وكيفية تكوينه في بطن امـــه ، الى ان اقبلت عليه امرأة بانف ناتئ يضيق عنه وجهها .. ولم يبع من دكانه سوى لتلك ولم يمكنه ان يستعيض عن خسارته في البيعـة بقبلة لتلك الكرنيفة لأن المنخارين حالا بين صاحبيهما – النساء لا يشترين الا ممن كان فرهداً غيسانياً – إذ ذاك اختار القسيس **الرهبانية** .

في الدير حاول التسور على حائط لينفـــذ منه الى بيت فاقتلعت عينه قصدة من غصن شجرة ، وطرده الرئيس الماهر في التسور وقد تشاءم مما حل بالراهب . وفي دير آخر يصف القسيس حالة الرهبان وطعن بعضهم في بعض واثرة الرئيس وكبريائه وجهله وتفاخره بخطه الكرشوني ، ويخبر انه شـــكا مرة من قلة السمن في الارز فغطه الطباخ في خابية السمن ، واخذ يعصر انفه ليفرغ منه السمن ، ولم يجد من يشكو اليه الطباخ لأن الرهبان يتملقونه ليشبعهم من الثرتُـم ، وانتقل مرة ثانية الى دير ثالث .

١٦ - في تمام قصة القسيس ص ١٥٥

في الدير الثالث بدأ بمداراة الطباخ وساعده وعلمه الواناً من الطعام . ثم تلبس بالصلاح والتقوى وكتب صلوات ركيكـــة فاعجب الرئيس بخطه ثم ارسله لخدمة رعية في بلدة حيث دعاه تاجر الى منزله للاقامة عنده « ليفتح الله ببركته رحم زوجته كما تقول التوراة » .

انفق القسيس على الزوجة بسعة فطالبه الجاثليق بالحساب وعزله عن وظيفته فقصد جاثليقا آخر من اعداء الاول: « ان العداوة توجد بين الجثالقة كما توجد بين الزنادقة » . فارسله الى بلاد بعيدة في سفينة تشاءم قبطانها من شمخريـة القسيس مع ان اولئك القوم لا يتشاءمون ولا يتطيرون .. ومـــا عندهم .. سحر ولا ماقط ، ولا عاضـــة ولا مستنشئة ، ولا نفاثات في العقد ..» ويومئذ ايقن القسيس ان القنافيّ مكروه عند جميع الامم ، وان اوقية لحم زائدة في وجه الرجل تشقيه وتحرمه ، ورطلين في بتيـــلة المرأة يسعدانها ويفيزانها،فزاد تعجبي من هذه الدنيا المبنية على رطلين واوقيـــة من اللحم ومع ذلك لم يمكن لي الزهد فيها !»

سافر بعد ذلك الى تلك البلاد واتخذ له امرأة تخدمه ثم طلـــب من الجاثليق ان يزيد وظيفته فأبى وتوجـــه الى جاثليق محب للجاثليق الاول ويقول : « عندي ان مبادلة الجثاليق في هذا الزمان المسوف انفع من حجر الفيلسوف »

هنا يفسر الفارياق الالفاظ الغريبة التي جاءت على لسان القسيس ويرتبهـا ترتيباً ابجديا في خمس صفحات ، ومنها القليل الذي اوردناه في هـذا الملخص ككلمة «المستنشئة» اي الكاهنة ، و«النفاثات في العقـــد » اي السواحر ، و «الماقط» وهو المتكهن الطارق بالحصى ، و«العاضة» اي الساحر ، والعِضة هي السحر والكذب والبهتان ، الخ .. و«الثرتم» وهو مافضل من الطعـام او الادام في الاناء .

١٧ — في الثلج ص ١٦٤

يتحدث هنا عن الفصل السابق ويقول ان كلامهفيه قد يجده بعضالقارئين بارداً كالثلج — ويتحدث ملياً عن الشبه والاختلاف بين كلامه وبين الثلج — الى ان يقول بعد ثلاث صفحات كلاماً عن تأليفه ويتحدّى من يريد محاكاة اسلوبه ، ثم يقول : « على اني لست ازعم اني اول كاتب في الدنيا نهج هذه الطريقة ... انما انا مستقبل لما استحسنت . آخذ بناصية ما استظرفت . رافض مكلف العادة . »

١٨ — في النحس ص ١٦٩

ذم القسيس «الربيط» الذي خان بعير بيعر (انظر الفصل ٥) في عرضه وما تعرض له من جعل الرجل يربي النفول نفلاً — ويستطرد ويطيل — ثم يتحدث عن نحس الفارياق وهو نحس ملازم (انظر الفصل الاول) حتى في منامه (اربع صفحات عن احلامه) وفي مدحه الامراء وغضب احدهم — وهنا يفسر ما الح اليه في الفصل الاول عن نحس ساعة ميلاده وما تلا ذلك في حياته ومنها اعتناقه مذهباً يخالف مذهب مطرانه الضوطار (فسّر الكلمة في الصفحة الاخيرة من كتاب الساق فقال : الضوطار من يدخل السوق بلا رأسمال وعني بذلك رؤساء الدين الكاثوليك بينا لقب البروتستانت بالخرجيين — انظر الفصل العشرين (في الفرق بين السوقيين والخرجيين) وهنا صفحتان ونصف صفحة ينقل فيها المؤلف الحوار الدقيق الذي دار بينه وبينالضوطار، ومنه ان المطران الضوطار يهدده « بشيخ السوق » (يعني بهذا بابا روما) فينكر الفارياق سلطته ويهرول هارباً من غضب المطران الى « الخرجي » ويطلب منه ان يقبله من وظيفته او ان يحميه من المطران ، ويدور بينهما نقاش تأتي تفاصيله في الفصل التالي .

١٩ — في الحس والحركة ص ١٨١

اراد الخرجي ان يمتحن قلب الفارياق — لأن الناس ينسبون الاهواء الى

هذا العضو – وينهي الخرجي اسئلته بقوله : ليس لنا سوى الخرج من حرفة ولا شغل – وهنا يسأله الفارياق : هل عندكم معاشر الخرجيين سوق وشيخ للسوق ؟ فاذا به يتعجب من الجواب بالنفي ويقول في نفسه ان للكاثوليك شيخ سوق وما لهم خرج وان للبروتستانت خرج وليس لهم شيخ . ويحكم في النهاية لصالح الخرجي لاناته وحلمه ، وبأن المطران من الضالين لحدته وتترعه، ولاخذه من الدين ما يوافق غرضه وتأويله كما فعل داود وموسى وسليمان وهوشع وشاول .

عندئذ حرص البروتستاني على انقاذ الفارياق من ايدي العتاة وارتأى ان يرسله الى جزيرة تسمى جزيرة الملوط (مالطة) استئماناً له فيها . فركب الفارياق في سفينة شراعية صغيرة سائرة الى الاسكندرية وطفق يشكو من ألم البحر.

وتحت عنوان « **نوح الفارياق وشكواه** » يورد المؤلف الجزء الثاني من هذا الفصل فيتذكر حياته كنساخ وا كاري على حمار وصاحب خان ويقول «ليتني قلت ما قال الناس وعبدت معهم البعيم» وان المطران كان على حق في قوله اني لن استطيع تقويم ما لا يستقيم . ومالت السفينة فطفق يستغفر ويتوسل بحق لحية شيخ السوق التي عند الحلاقين (البابا حليق) ويستعين بالسلعة –والضواطرة والصعافقة (الكاثوليك) ولما خرج من السفينة تنـاول من الارض حصاة والتقمها وقال هذه امي . ثم توجه الى خرجي وادى اليـه كتاب توصية من الخرجي الآخر وانتظر سفينة تقله الى مالطة .

●

هنا يأتي الجزء الثالث من هذا الفصل بعنوان «**عرض كاتب الحروف**» وهو في قالب رسالة موجهة الى البطريرك المـاروني حيث يروي المؤلف قصة اخيه اسعد الذي سجن في قنوبين نحو ست سنين ، وموته ، مقارناً بين « شناعة » بطريرك الموارنة وسماحة باقي الطوائف الشرقية والغربيـة من كل دين ويأتي بأمثلة على طعون الطاعنين والفرنسيين منهم بوجه اخص بالبابوات فيما يقارب السبع صفحات . وينهي القول بأن البطريرك الماروني في وقت كتابته هـذا

الجزء ليس هو الذي سجن اخاه اسعد .. ويضيف «كنت اود لو اختم هذا العرض بعتاب اوجهه الى حضرة المطران بولس سعد (هو بولس مسعد) ابن خالي وخال اخي وكاتب اسرار البطريرك ولكني خشيت الآن من الاطالة .

(البطريرك المشكو منه هو يوسف حبيش) والمطران بولس مسعد ارتقى الى السدة البطريركية في ١٢ تشرين الأول ١٨٥٤ وتوفي في ١٨ نيسان ١٨٨٩ ودفن في بلدة عشقوت في كنيسة مار بطرس وبولس التي كانت داراً للشدياق بطرس وابن اخيه منصور . وبين وفاة البطريرك حبيش ١٨٢٣ – ١٨٤٥ الذي كان المطران بولس امين سره الى ان ارتقى المطران بولس السدة البطريركية تولى البطريرك يوسف الخازن) ١٨٤٥ – ١٨٥٤)

٢٠ - في الفرق بين السوقيين والخرجيين ص ١٩٥

الفرق بين الكاثوليك والبروتستانت – الكاثوليك احتكروا السلعة وهددوا الشاكين فاغتاظ هؤلاء وعقدوا مجلساً ثورياً وانفصلوا فكانت من اجتماعهم فئة البروتستانت .

الكتاب الثاني

١ – في دحرجة جلمود ص ٢٠١

بعد وصوله الى الاسكندرية عاد اليه نشاطه واستحسن ان « يدحرج جلموداً من اعلى قنة افكاره الى اسفل حضيض المسامع » . (قبل ان اطالع « الساق على الساق » كنت شبهت فارس الشدياق بصخرة تعلو القمة الشمالية من جبال عشقوت يدعوها الناس « كرسي القطين » كما شبهت ابن عشقوت الآخر « البطريرك بولس مسعد » ببقعة باسمة من عشقوت ، هي وادي « المسيلخ » حيث الدفء ونور الشمس حتى في زمهرير الشتاء والثلوج) .

استعراض ما في الارض وما في السماء : انواع النبات والحيوان ، والنجوم واختلاف سحن الناس ورؤوسهم واخلاقهم ، ومنهم اصحاب الصنائع الشاقة

والوعاظ المستريحين ، والاوليـــاء ، والكتاب الخ . الخ . واعجب الناس السوقيون والخرجيون . ثم يذكر اخطاءهم واختلافاتهم وخلطهم ، في ست صفحات . ويقول في النهاية ان الصبي الى ان يبلغ الاربع عشرة سنة يعيش مستغنياً عنهم بالغريزة وعن مماحكاتهم وجدالهم – تفصيل اعمـــال الخرجيين الذين يسافرون من بلاد بعيدة ليقولوا للناس انهـــم اعرف منهم باحوالهم ، وتفصيل اعمال السوقيين وسخافة الضواطرة منهم .

٢ – « في سلام وكلام » ص ٢١٤

وصف الاسكندرية وسكانها وألبستهم واغطية رؤوسهم، وحميرها وبغالها وجمالها وبراقع نسائهـا وكشف مسافرهن واشاراتهن و (مئات من الالفاظ اللغوية) – اما رجال الاسكندرية « فان للترك سطوة على العرب وتجبراً » فلا يحل للعربي ان ينظر الى وجه التركي ، وعليه ان يمشي عن يساره خاشعاً (عشرات من الالفاظ اللغوية) واذا عطس التركي قال له العربي رحمك الله واذا .. واذا .. » وقد سمع ان الترك سيتخذون مركبـــاً وطيئاً من ظهور العرب » بعد ان جربوا الحيوانات والمحامل (سرد عشرات منها) .

يقول : « لا ادري ما سبب تكبر هؤلاء الترك مع ان النبي كان عربياً ، والقرآن انزل باللسان العربي » الخ ...

ماء الاسكندرية قذر واكلها الفول الخ .. الواقع ان ماء الاسكندرية من نهاية قناة يلوثها اهالي القرى من موردها من النيل الى مصبها .)

هنا يتناول سيرة من يدعوه « قيعر قيعار» الذي حشر نفسه بين النصارى متقعراً في التفسير ومخطئاً في اللغة . ويأتي بنموذج مضحك من اسلوب الكهنة والمطارين في رسائلهم .

كان الاسكندريون كرماء قبـــل مخالطتهم ذوي البرانيط اي الاتراك كما سترى في الفصل الخامس بعد . حديثهم بات محصوراً بالكلام عن التجارة ، ينقضي نهارهم بالمكر وليلهم بذكره .

يذكر بعد ذلك ما جرى له بعد وصوله ونزوله عند خرجي سكيّرصديق قيعمر قيعار – واتفق له ان خرج في عشية من عشايا الصيف يفكر في اغترابه بسبب الخصام بين سوقي وخرجي ، وقد تبعه رجل عرف ما في الدفتر فاراد به سوءاً واهاج عليه الكلاب في مكان خالٍ فهجمت عليه هجمة السوقي على الخرجي ومزقت ثوبه وجلده والدفتر .. وفرح الخرجي بذلك لأنه ظن ان الفارياق اعطاه لاحد . عزم على ان يحمله عنده في مصلحة خرجية ولكنه رأى من الواجب ان يشاور صاحبه فابى هذا وقال لا بد من تسفيره الجزيرة (مالطة)

(يظهر ان « قيعمر قيعار » بروتستانتي متقعر كان يتفلسف على مسيحيي الاسكندرية ليحملهم على اعتناق مذهبه . والمؤلف كما ترى يتعمد الابهام ، ولا يصرح الا في النادر)

٣ – في انقلاع الفارياق من الاسكندرية ص ٢٢٤

السفر الى مالطة في « سفينة ريحية » قبل ان يعرف الافرنج « خاصيّة البخار. » سيسافر بعد ذلك في « سفينة النـــار » كما سترى في بدء الفصل الخامس من الكتاب الثالث انظر ص ٤٢٥)

انتقاد الانكليز للفظه بالانكليزية ، ومن ذلك قوله your hell اي جهنمكم بدلاً من to your health صحتكم – يأتي بعظة لاحد « المنابريين » الانكليز بلفظهم العربي وينهيها بكلام قبيح يقلد به نطق الواعظ الجلتين : فيقلب السين زاء والقاف كافاً والصاد سينا على طريقة الفرنجة –

رياء المنابريين وخبثهم وقولهم بافواههم ما ليس في قلوبهم – المطران اثناسيوس التتونجي الحلبي مؤلف « الحكاكة في الركاكة » وما تقرر في عقول النصارى من ان خواص دينهم ان تكون كتبهم ركيكة – لا يردد نواحه في سفرته الاولى ، انما يذكر في صفحتين انواع مراكب البحر – وصوله الى الجزيرة وذكر « الكرنتينة » في مرساهـــا – طبخ الخرجي يقتصر على لحم

الخنزير والفارياق يأكل الخبز والجبن لان نصارى الشام يحاكون المسلمين في معيشتهم – ثم يقلل من اكل الخبز حين يعلم ان خبز المدينة يعجن بالارجل ، ويقع من اضراسه اثنان واحد من كل جانب فيحصل بذلك « الموازنـــة في الجسم » .

وصف سكان مالطة من القسيسين والنساء – القسيسون كثيرون ، قبعاتهم مثلثة ، سراويلهم الى ركبهم ، سيقانهم مغطاة بجوارب سود ، وهم معلفون سمان يحلقون شواربهم ولحاهم . اما النساء فمتذكرات ، والحسن فيهن قليـل جداً ، وانقيادهن الى القسيسين غريب ، حتى الزواني منهن متهوسات في الدين –

سكان المدينة يبغضون الغريب ويحبون ماله – لغتهم قذرة طفسة منتنة – الهوس في التدين – ثبت عند الفارياق ان الخرجيين « على الهدى الا في اكل الخنزير » وان السوقيين على ضلال ما عدا استحسان نسائهم لغيساني الخرجيين .. ولست تجد شيئاً من الاشياء كاملاً » – لؤم « خرجي » شـكس الاخلاق ، اصفر الوجه ، ازرق العينين ، رقيق ارنبة الأنف ، كبير الاسنان – الفارياق تعلم بعض الفاظ تخص ترويج الخرج ولم يمكنه تعلم لسان الخرجيين – مرضه – الخرجي يسفره الى مصر بناء على اشارة الطبيب .

٤ – في منعة دونها غصة – ص ٢٣٣

من الاسكندرية سافر الفارياق الى مصر حيث انزله الخرجي في دار محاذية لدار « رجل من الشاميين » يجتمع عنده كل ليلة جماعـة من المغنين والعازفين فتذكر الشام (لبنان – وما زال المصريون يقولون « شوام » عن سكان مـا وراء سيناء) ونسي الفارياق ما تكبده في البحر وفي مالطة وتمتع ببهجـــة مصر ورونقها – وصف نسائها – ترديد المثل السائر « تراب مصر من ذهب ، وغيدها نعم اللعب ، وانها لمن غلب » (يعزى هذا القول لعمرو بن العاص) – يلاحظ بحق ان القلب اولع برؤية المتبرقعات ، منه برؤية المسفرات ، لان البرقع يهيج المخيلة الى ما لا نهاية ويحمل الخاطر الى التساؤل والتصور – هنا

بست صفحات عن التصورات تنتهي الى قول الفارياق ان الغرام البرقعي باض وفرخ في رأسه فاشترى طنبوراً من السوق وجعل يعزف به في شباك له مطل على رجل من القبط يعشق ابنته شاب مسلم يخدم الخرجي ما عتم ان هرب وتزوج بالبنت بعد ان اسلمت . « والحمد لله رب العالمين » .

٥ – في وصف مصر – ص ٢٤٢

وصف مصر – يجد بها الغريب ملهى وسكناً – نساؤها سمان والرجال كالخشف (الاخشف الجربان) – لاهلهـــا ظرافة وادب وكياسة – ماؤها عذب وخبزها تافه – بناتها اللائي يغسلن اقصتهن في المجاري يتعممن بقمصانهن بعد غسلهن ويمشين عاريات – يحملن على رؤوسهن وهن فرحـــات جامحات صادحات مادحات مازحات ، يغنين لمـا يحملن كأنهن سائرات في عرس – البرانيط في مصر تضخمت مع قرونها (يريد القول بان الاتراك في مصر تجبروا ولم يشهد ذلك في لبنان) اما هو فقد بقي رأسه مطربشاً – ضابط البلد يأمر السالكين طرقها ليلاً (من غير ذوي البرانيط) ان يتخذوا لهم فوانيس وان كانت الليـــلة مقمرة « خيفة ان يعثروا بشيء .. وإلا غُلّت ارجلهم الى ايديهم » – الحشيش – ضيق الطرقات وازدحامها .

٦ – في لا شيء ص ٢٤٦

استراحة : الفصل ثلاثة اسطر

٧ – في وصف مصر ص ٢٤٧

ملاحظات دقيقة عن المسلمين والقبط – في كلام المصريين من الرقـة ما يغني الحزين عن التطريب – مدح علمائها انتشر في الآفاق، بهم لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح ومعاشرة النصارى وربمـا قالوا لهم يا سيدي – المصري حلو المفاكهة والمطارحة ، يحب السماع واللهو والخلاعة – غناؤهم اشجى ما يكون . انهم فنانون بالفطرة بعكس ذلك اهل تونس فان غناءهم

اشبه بالترتيل –المسلمون اهل قناعة وزهد – في النصارى،وفي الغالب الغرباء، شره عظيم وفي دار نصراني من المتمولين بمصر وجد « عدة خوادم وخادمين ونحو عشرين قصبة للتبغ من اغلى ما يكون ، وقدر نصفهـــا من الاراكيل الثمينة وثلاث غرفات مفروشات ، وآنية فضة الخ .. وليس عنده كتاب.

دولة مصر كانت في الذروة ، والاسعار رخيصة والرخـاء عام « الا ان صاحبنا الفارياق لم يكد يدخل ارضاً سعيدة الا ويخرج منها وقد تغير حالها».

٨ – في إشعار أنه انتهى وصف مصر ص ٢٥٠

شاعر نصراني بالطبع يقول الشعر لباعث دون تكلف وانتظار للجائزة – اشار ظريف على الفارياق بأن يطلب مواجهته ويذكر له ما يعانيه ويستنجد به فيفوز منه بالآمال .

ويكتب الفارياق عشرين سطراً من المدح المبتـذل الى ان يقول : اما بعد يا سيدي فاني قدمت هذه الديار وانا حامل لخرج قد انقض ظهري وعيل به صبري ... وبعد ثمانية اسطر من طلب السماح له بأن يزوره يكتب العنوان على طريقة العصر كما كتب الرسالة ، بل هو يبالغ في تقليـــد كتاب الرسائل والعناوين على طريقة كاريكاتورية ساخرة، فيورد التشابيه المتكلفة والاستعارات التي «يلوك بها زيد ما لفظه عمرو ، ويضع عمرو ما قاله زيد منذ الف ومائتي سنة » .

٩ – فيما اشرت اليه ص ٢٥٥

فصل في ألقاب موروثة ، والقاب لمجرد الزينة كلقب المطران **اثناسيوس التتونجي** صاحب كتاب الحكاكة في الركاكة الذي قلده سيده هـــذا اللقب ليحكم به في مدينة طرابلوس الشام مع انها خالية من أهل مذهبه ليؤدوا له عشوراً او يطبخوا له طعاماً .

يلي ذلك شرح القاب معلم وخواجا وشيخ وامير بطريقة هزلية ، ثم ينتهي

الفصل بقول الفارياق ان الخواجا ينصر الذي راسله كان مؤهلاً للحصول على لقب لولا ميله بالطبع الى الادب .

١٠ — في طبيب ص ٢٥٨

اكلة كبيبة — طبيب الامير من باريس — الاطباء رسل عزرائيل — العلاج في ذاك الزمان — رقعة الحساب — التهديد برفع القضية الى القنصل .
(كانت الامتيازات في اوجها والاجانب يقاضون الاهالي في قنصلياتهم . بعد ذلك جاء عصر اسماعيل خديوي مصر فأسس المحاكم المختلطة للامور المدنية فأزال بعض الشر) .

١١ — في انجاز ما وعدنا به ص ٢٦٢

زيارة الخواجه «ينصر» — حديث عن « بحث المطالب » في علم النحو — كتب الكنيسة ، واخطاء رجالها — اخطاء في ترجمة كتب الدين — الخواجه ينصر يعنى بمعاش الفارياق فيوصي به احد السراة — الفارياق يخشى ان ينتقد المصريون شعره ولكن الخواجه يشجعه ويمدح اسلوبه — الفارياق يضمر مفارقة الخرجي .
(« بحث المطالب » هو كتاب في علم النحو وضعه المطران جرمانوس فرحات الماروني المتوفي سنة ١٧٣٢ ، وما زال مستعملاً في مدارس لبنانية ، وله ديوان وكتاب « القاموس » وقد اسس المكتبة المارونية في حلب الشهيرة بمخطوطاتها) .

١٢ — في أبيات سرية ص ٢٦٦

الفارياق يحمل طنبوره ويضع دواته في حزامه (كما في التوراة) ويناقش الخرجي فيذكره بالنبي بلعام وحماره الذي نطق (سفر العدد ٢٢/٢٨—٣٠) — يتوجه الى السريّ وينظم له بيتين يعترض عليهما اهل النقد — وهكذا طوال اربعة عشر يوماً وفي كل يوم ينظم شعرين في منتهى الظرف والطرافة — بعد

ذلك يزور الخواجه ينصر، وينشكره ويخبره انه اكترى داراً، واشترى حماراً واتخذ خادمة للدار وخادماً للحمار – الطبيب ينصح الفارياق بتجنب النساء .

١٣ – في مقامة مقعدة ص ٢٧٢

مقامة تتدرج الى حوار بين مسلم ونصراني ويهودي وامّعة « ما له اعتقاد ولا جحود »

الطلاق في نظر النصراني واليهودي والامّعة

١٤ – في تفسير ما غمض من هذه المقامة ومعانيها ص ٢٧٧

بحث في اللغة – الزواج ، احتياجات الانسان وجوعه وشبعه ، وأمر المرأة – كلمات في وصف النساء تحتل ١٠ صفحات مع وعد بان «سيأتي تتمة وصف الحسان في الفصل السادس عشر من الكتاب الرابع » – سليمان الحكيم ونساؤه الالف – شوق الانسان وتخيلاته في النساء ولو القيته في جب او انزلته في .. (هنا ٢٦ صفحة يعدد فيها المؤلف اسماء الامكنة ، والاطعمة ، والالعاب ، وآلات الموسيقى ، والفاكهة ، والمسكرات الخ) لعربد وزاد صراخاً وصياحاً وهو يقول المرأة المرأة – السر في ذلك – الخير والشر على يدي المرأة – لماذا لا يتخذ رؤساء الدين نساء .

١٥ – ... ص ٣٢٢

لا شيء سوى يد تشير الى الفصل التالي

١٦ – في ذلك الموضع بعينه ص ٣٢٣

رجوع الى وصف النساء بخلط بين المتبذل والطريف ووصف لعادات وملابس زالت في ايامنا : من ذلك وضع سلاسل الذهب في العنق مع القلادة بحيث تتدلى الى الخصر يعلق بها ساعة من ذهب ، وقد بقيت هذه العادة الى اوائل هذا القرن .

المرأة إذ تنظر الى الجواهر تقسم اهل المصر جميعـاً الى خمسة اقسام : القسم الاول في تهيئة الجواهر (ثلاث صفحات من التعريف باصناف الجواهر) -- القسم الثاني في عمل الحليّ (٤ صفحات) القسم الثالث في عمل الطيب واتخاذ المشموم (اصناف الطيوب في٥ صفحات) القسم الرابع في عمل الآنيةوالادوات والمتاع والفرش (٦ صفحات) القسم الخامس في عمل الثياب (١١ صفحة) .

تصنف المرأة الرجـال في مختلف اعمارهم — والفارياق يصنف النساء على هذا الاعتبـــار — قوة النساء وشموفهن وبراعتهن ..— ينتهي الفصل بقوله : « انتهى الكلام الآن على المرأة على ان عندي منه ما عند الفرّاء من «حتى» .

١٧ - في رثاء حمار — ص ٣٥٤

الفارياق يُفجع في حماره — يكتري منادياً بدرهم لينادي في الاسواق — قصيدة في رثاء الحمار—يعيب الناس على الفارياق تبذله في تعابيره — لذة المؤلف وحزنه على جهـــل الناس وضلالهم — معاناة الشعراء حين يمدحون — القاب المؤلفين والوجهـــاء ورجال الدين ونظرة الناس اليهم — احسن الالقاب عند المسلمين « البيك » وعند النصارى « القسيس » — الفارياق لا يصلح للقسوسية لانه لا يحب الركاكة ، وهو لا يصلح للبيكوية ، وما بقي له سوى الشيخيـة وهي اللقب اللائق بالمؤلفين .

(اطلق هـذا اللقب على بعض المؤلفين اللبنانيين بينما لقب البعض الآخر بلقب « معلم ») .

١٨ — في ألوان مختلفة من المرض ص ٣٥٩

حرص الفارياق على الاتسام بسمة شيخ—اصابته بالرمد—اتصل بعد شفائه بالشيخ مصطفى ليقرأ عليه النحو—اصابته بمرض الديدان وتمعصه—الشيخ يكتب اجازة اقراء «بحث المطالب» في لبنان «حيث تقرأه النصارى» فيجد الفارياق في كتابة الشيخ خطأ في اللغة والاعراب لأن علم الشيخ مصطفى « في صدره وعلى لسانه » فقط —

يتابع الفارياق دراسته فيصاب على التوالي بوجع العينين ثم بالحكة (الجَرَب) ويصف له الشيخ خراء الكلاب - الفارياق يقرأ كتاب السلّم للاخضري في المنطق على الشيـــخ محمود ويصاب بالهيضـــة (الهواء الاصفـــر) — انتشار الوباء في مصر — الفارياق يرحل الى الريف مـع خادمه وخادمته — الوالي يستدعي الفارياق فيعرف انه مدّاح السريّ ويتركه بعه ان يحتجز خادمه لما في الخادم من الطلاوة — الخادم يقول للوالي انه لا يكاد يفهـم كلام سيده حين يتكلم وانه قد يكون اعجمياً - رجوع الفارياق الى مصر واقامه دراسة المنطق — يعاوده الرمد ثم يدرس الفقه وعلم الكلام (أي الفلسفة) ويبدأ بالكنز وبالرسالة السنوسية — مرضه . .

١٩ — في دائرة هذا الكون ومركز هذا الكتاب - ص ٣٦٢

طبيب فرنسي « شهرته بمصر في دائه اكثر منها في دوائه » وقـد تزوج جارية صبية على كبر سنه واولد منها بنتاً وصبياً — الفارياق يعلم الصبي العربية والطبيب يطيل مدة العلاج — الطبيب يسمح للجارية باتخاذ خليل « كما هي العادة في فرنسا » — حوار معها يأتي خلاله وصفات لاعـادة القدرة والتغلب على العنّة ، وكلها لا فائدة منهـــا للزوج - تختار الزوجة قسيساً — تبرير اختيارها — الزوج يختـــار صديقاً خليفة له في زوجته — حوار ينتهي بقبول الصديق ويتلو ذلك تردد الصديق الى « دار الخلافة » — ملل الزوجة واهمالها الصديق الذي يفشي سرهـــا فيتعاقب الخلان ويتنبه الجيران ويظنون في تردد الفارياق لتعليم الصبي كل ظن فينقطع ويتعالج عند طبيب آخر ويشفى — ثم يسافر الى الاسكندرية حيث يجتمع بخرجي ويعود معه الى مصر — الفارياق يأخذ في قراءة « شرح الكافي » على الشيخ محمد — الطاعون في مصر — فرار الخرجي الى الصعيد (اي مصر الجنوبية ، وتسمى العليا بينما تسمى الدلتا مصر السفلى او بلاد الفلاحين) .

٢٠ - في معجزات وكرامات ص ٣٦٦

ترك الخرجي الهارب في منزله خادمة رعبوبة من اهل بلاده ، وارتأى

ان يضم اليها رجلاً نحيفاً من اهل بلاده لظنه خطـــأ ان القشعوم النحيف لا يستطيع ما يستطيعه السمين – عادات الوقاية من الطاعون – وكيل الخرجي رجل كان كافراً ثم انضم الى الخرجيين ابتغاء للرزق ، وظن نفسه في النهاية من اهل الكرامات والمعجزات – موت خادمـــه بالطاعون ومحاولة بعثه بطريقة النبيين الياس واليشاع – الفارياق يصاب بالطاعون (يظن الاصابة من الاضطراب والخوف وهذه عقيدة قديمة) وفي مرضه يشعر بالوحدة والموت غريباً – يفكر في الزواج والنسل – الضعف يغير العقل كما حصل للحكماء – الشفاء .

(انظر اقباله على الزواج في الكتاب الثالث ، الفصل الثاني)

الـكتاب الثالث

١ – في إضرام أتون ص ٣٧٣

مصائب بني آدم – (احدى عشرة صفحة من انواع التشويه والامراض والعيوب ؛ تبدأ بالجَنَأ اي اشراف الكاهل على الصدر وتنتهي باللوَىَ اي وجع المعدة واعوجاج في الظهر) – العمر قصير والهم فيه طويل كثـير – هموم تنتاب كل انسان من كل طبقة وكل مهنـــة – (صفحتان لتعداد ذلك) وفيها من العناء والجهد واللوعة– خشية القسيس من كتب الفلاسفة ، ورعب الراكب من السقوط عن ظهر دابته (هنا نشعر بان الشدياق مطلع على حركة الانسيكلوبيديين في القرن الثامن عشر ، كما نبتسم لخطر السقوط عن ظهر الدابة في عصر السيارات والطائرات والاقمار الاصطناعية) .

لم يكف الناس كل هذا فقال بعضهم ان درجات السماء مئة وخمس وقال غيره الا انها مئة واربع ، او ان قرن الشيطان ٣٥٠ ذراعاً ، او ٣٥٥ ذراعاً، وقال قوم بقطع الجليدة بحجر وقال الآخر بسكين ، وقال آخرون ان قطعها كفر الخ ... ثم حشد كل فريق بخيله ورجله .. وتناثرت الروس وجرت

الدماء – عظة : اتموتون وفي قلوبكم الحقد – الناس على الوان وجوههم بشر وفانون – لا تقولوا : هذه حرب الله ! – علماء الرياضة والهندسة لا يختلفون في ادلتهم ، وان اختلفوا لم يشبّوا النار لتحقيق نحلتهم ، دعوا النـــاس في شغلهم باسباب معيشتهم ولا تكلفوهم ادراك ما فوق طاقتهم – الزواج بين السوقي والخرجية – لا تختلفوا على الخالق بعد اتفاقكم على المخلوق .

٢ – في العشق والزواج ص ٣٩١

بنت الجار تحب الطرب فتصعد الى سطح دارها وتنصت الى عزف الفارياق – نفوره من الزواج – عامل الهوى يرجح على عامل الحذر – تبادل الاشارات بينهما – الزي المصري – سيدنا سليمان مدح العندلية بقوله : «فليروينـــك ثدياها في كل حين» – الفارياق يقنـــع نفسه بانـــه سيحسن التدبير ويهنـــأ بالزواج – نظم القصائد واختراع كلام جديد للتعبير عن غرامـــه – انواع المحبة حسب الاعمـــار – تحليل حالات الحب – الشريف الرضـــي وابن الفارض – العشق الافلاطوني هو عندنا الهوى العذري – احق النساء بالعشق – مذاهب العشاق في الخُلُق والخَلْق – احب الرجال الى النساء – الغيرة والافرنج .

الفتاة كاثوليكية وهي لا تبالي بالفرق بين مذهبها والمذهب البروتستانتي وتقول ان الفرق بين الكاثوليكي والبروتستنتية انما هو لمصلحة من اتخذ ذلك وسيلة للمعاش والجاه – الام تستدعي الفارياق وتشترط عليه ان «يتسوّق» اي يتكثلك ولو يوماً واحداً – ليلة الدُخلة في مصر وعادة اهل مصر في رؤية البصيرة» وهي الدم ، علامة البكارة – قصائد في ٩ صفحات نمسك عن تفاصيلها ونكتفي بايراد بيتين استهلاليين من القصيدة الثانية :

لمن اشكو وقلبي اليو م من اكبر اعدائـــي
لمن اشكو وعقـــلي اليو م معقول باهوائـــي

وفي البيتين ما يُنبىء عن الباقي .

٣ – في العدوى ص ٤١٤

محاكاة الافرنج بطريقة عمياء (كأنه يصف الجيل الحاضر من الشبان) – فضائل الافرنج – تسامحهم في اساليب الأدب – انتقاد المصريين (هنا يكتب الفارياق باللغة المصرية الدارجة ويذكر الفرق في مخاطبة النصراني والمسلم : الاول يا خواجا والثاني يا افندي (ما زال هذا الفرق قائماً الى اليوم !..) – تعنيت المؤلفين وفتاوى علمية واجوبة فقهية في النقد الادبي–

عدوى «البصيرة» (انظر الفصل السابق) سرت من النصارى الى اليهود – تضامن اليهود في كل بقاع ، واختلافات النصارى – العودة الى انتقاد عادة «البصيرة» المأخوذة عن اليهود .

– هل البصيرة كافية لاثبات بكارة البنت ؟

٤ – في الثورية ص ٤٢٢

الفارياق بعد زواجه – يبادر زوجته بعزمه على السفر الى جزيرة البُخر (اي الفم المنتن وهي كناية عن ركاكة لغة اهل مالطة) وذلك لأنه وعد الخرجي بالعودة اليه – الأم ترضى ولكن العروس تخشى العقم من جراء السفر في البحر – الطبيب يقول لها ان نصارى الشرق ينذرون للكنائس ليمن عليهن صاحب الكنيسة بالحبل بينما يصف الافرنج البحر لا سيما اذا كان ربان السفينة ذا رفق بالنساء !.. – **السفر الى الاسكندرية بطريق النيل من ميناء بولاق** (بولاق الآن هي من احياء القاهرة) – جمال السفر في القنج على النيل ، القرى على الطريق ، جمال الريف وعذوبة ماء النيل – الفارياق ينسى كل ما قاساه في مصر .

٥ – في سفر وتصحيح غلط اشتهر ص ٤٢٥

اقام الفارق في الاسكندرية في نزل انتظاراً لورود **«سفينة النار»** وقد قال في بدء الفصل الثالث من الكتاب الثاني ان سفره الاول الى مالطة كان قبل ان يعرف الافرنج خاصية البخار .

سخافة احاديث زوجته التي لم تعاشر سوى الخدم كما هي حال البنات «في مصر والشام» حيث يستعضن عن العلم بمعرفة الحيل والمكايد – وجوب اشغال البنات بأحد العلوم والفنون النافعة العقلية او اليدوية ليكن في مستوى الفتيان ولا يرى فيهن الشبان سوى وسيلة لقضاء وطرهن منهن ، بخلاف ما اذا كن ذوات فكر وعلم – الفارياقية ترفض الركوب في سفينة النار وتغضب ، تنام ووجهها الى الحائط - واستطراد طويل في خمس صفحات في التحدث عن الادباء، فيه الفحش والشعر وذكر اللغويين والادباء والشعراء واقوال العرب ، ووصف السنانير والعجائز ، ثم ثبت من صفحتين عن اسماء الدبر واوصافه وشرحها .

قبول الزوجة– سفينة النار تصل بعد خمسة ايام ويحل الركاب في«معتزل» الجزيرة (تسميه العامة «كرنتينا» من « كارنت» اربعين» بسبب عزل المسافرين ٤٠ يوماً في العادة) وقد بقي الفارياق وزوجته ٣٠ يوماً دخلا بعدها البلد .

٦ – في وليمة وأبازير متنوعة ص ٤٣٥

الفارياق وزوجته يطوفان في شوارع المدينة في زي اهل مصر فيلفتان الانظار ولا يتميز الناس الزوجة وهل هي انثى ام ذكر ، الا انكليزي فقيه اسمه استيفن يدعوهما الى الغداء يوم الأحد في داره عبر البحر –

في يوم الاحد يعتذر الانكليزي ويتركها لزوجته وبناته – وكان شاب يقبل احدى بناته امام الزائرين بلا تكلف ولا امعان – حوار يدور بين الفارياق وزوجته على انواع البوس ، والفرق بين الرضاب الذي لا يعرفه الافرنج والبصاق الذي يعرفونه – للانكليزي «الفرضي» سبع بنات وعدة صبيان (الفرضي الطاعن في السن) ، انتظر الجميع عودة استيفن ويبدو انه سكر في الخارج ولم يعد – فرجع الفارياق وزوجته الى الجزيرة قبل ان يفوتها ميعاد الزورق وتعشيا عشاء ضمنه غداء .

نقد بأسلوب حوار بين الفارياق وزوجته : حلق الرجال وجوههم ، وتمزيقهم السراويلات ، القسيسون يفوقون الشبان – نسبية الكمال والفساد

بنسبة المناطق – ما يعجب المرأة من الرجال – صفات الرجل ، والصفات الحسنة الموجودة في المرأة دون الرجل – الامام السيوطي الذي الف على الرجال والنساء اكثر مما الف في جميع العلوم – العرب يزعمون ان علم القراءة مفسدة للنساء – ينتهي الفصل بمرادفات كلمة «القوي» .

(استعمل الشدياق اسلوب الحوار لخفة وقعه على القارىء مع انه يقول ان احاديث زوجته كانت سخيفة) .

٧ – في الحرتة ص ٤٤٣

عنوان هذا الفصل «الحُرتة» وهي صوت قضم الدابة وقد استمد العنوان من قوله « لعل الجناب الكريم متأهب بعد حُرتة هذه الابازير الى الفراش». (يعني بالابازير ايضاً الزيادة في القول كما جاء في المثل: «لا تخفى عليّ ابازيرك».)

٨ – في الاحلام ص – ٤٤٤

في موضع التعبير الذي رُتّب للفارياق (اي في المكتب الذي عُيّن له للعمل في تعليم اللغة العربية وجعله الرئيس مكاناً للتعبير عن الاحلام) في هذا المكتب شرع الفارياق في تفسير احلام صاحب المعبر : في الحلم الاول رأى الهالج ، اي الحالم ، انه سافر الى بلاد الهند وركب فرساً ونبت له ستة قرون ، وانه كلما بات في خان يفقد عضواً من اعضاء الفرس حتى غابت بالكلية وزالت اربعة قرون من رأسه وبقي منها الاثنان المتقدمان .

فسّر الفارياق الحلم القرني هذا « لذاهول بن غافول» بان الفرس هي المرأة والقرون كناية عن الحالة الزوجية الخ .. فعاب عليه التفسير وقال ان المرأة عند الافرنج اعلى من زوجها، وان عبارة التفسير موجزة بخلاف عادة المعبرين.

٩ – في الحلم الثاني – ص ٤٤٧

الحلم الثاني : حلم صاحب المعبر حلماً ثانياً رأى فيه انه يكتب خطبة فلا يخط حرفاً او كلمة او جملة او صفحة الا وتناديه زوجته ليساعدها في لبسها او تمشيطها الخ .. ويعود فيجد كالة ما كتب مسطراً بيد خفية حتى اكتملت

له خطبة كان لها وقع عظيم يوم العيد ثم جمع كتباً على هذا النسق وسافر مع زوجته الى بلاد شرقية تكثر فيها الاعياد ولما اراد القاء الخطبة وجد الكتاب الاول ممحواً إلا من الحروف التي كتبها بيده .

وفسر الفارياق الحلم بأن خطب الرجل لا تصلح في غير بلاده ، وان بلاد الشرق معدن الاحلام ومنبت التعبير .

١٠ – في الحلم الثالث – ٤٥٠

الحلم الثالث : نصب القوم سلماً يشتمل على مئة درجة ليصعد اليه رئيس المعبر ويخطب فكان كلما صعد درجة قال فقرة ركيكة وانفضّ عنه شخص واذا هو فوق الدرجة المئة وقد انفضّ الناس كلهم عنه ولكنه مع ذلك تلا الخطبة . واتفق ان مرّ به رجل من الشعراء الغاوين واراد ان ينزله بالقوة لاعتقاده ان به لمماً وأخذ في قطع اوتار السلم فتقوض وسقط وسقط معه الخطيب ، وتهشم الشاعر والخطيب .

عبر الفارياق بالا ينبغي للخطيب ان يكون ثرثاراً وان المداومة على الثرثرة تسقطه سقطة تدق بها عنقه .

بعد ايام حلم صاحب المعبر بان رجلاً اهدى اليه قنبيطا مما ينبت في سهل الاردنّ فتعشاه وحلم انه دك اسوار مدينة في الجو . ثم توالت احلام الرجل وزوجته وفي كل مرة يفسر الفارياق الحلم ببيتين من الشعر الماجن الى ان تركاه لوقت .

١١ – في إصلاح البخر ص ٤٥٤

حاكم الجزيرة يسلم الفارياق وظيفة « علاج بَخَر » اهل الجزيرة اي اصلاح نطقهم المنتن – زوجته تقاسمه الكسب ؛ مرتب البخر لها ومرتب الهلج (الاحلام) له – شراء عقد للزوجة ومتاع وآنية للبيت –

الفارياق وزوجته في حفلة رقص عند الحاكم – حوار مع زوجته يصطنعه المؤلف لنقد مخاصرة الراقصين لغير نسائهم – حلم جديد لصاحب المعبر الذي

رأى في المنام وحشاً ذا قرون واذناب وبقع في جلده – نواح الفارياق على حظه – الزوجة تصف هموم المرأة ايضاً–الزوج يذكرها بحريتها في الجزيرة– الفرق بين نساء الافرنج ونساء النصارى في مصر من الاقباط والشوام

(الاقباط او القبط هم سكان مصر الاصليون ، واسمهم اسم مصر القديمة « هاكابتا » التي بقيت في اللغات الافرنجية « اجبت » بالجيم المصرية . امـا كلمة شوام فهي تطلق في مصر الى الآن على النصارى المشرقيين) نساء النصارى في مصر كالجواري ورجالهن مستبدون – حديث عن الرقيق(وقد كان رائجاً في ذلك العصر) .

١٢ – في سفر ومحاورة ص ٤٦٠

سفر «صاحب المعبر» الى سوريا مستصحباً الفارياق (نلاحظ استعمال كلمة الشام على طريقة المصريين)–الفارياق يودع زوجته ويوصيها بالامانة وبالعناية بابنه الذي يغادر عندها معه كبده»–السفر بسفينة الريح «لأن في سفينة النار رائحة الفحم التي تضر بالمصدورين» –الزوجة توصي الفارياق بدورها –«النساء اشوق مايكون اذا بكين » – اقلاع السفينة – ألم الفراق – فلسفة ومجون في مقال طويل واستطراد الى ذم الرهبان الذين لا يؤلفون كتبا مع ما هم فيه من لذة السكينة والتمتع بالمناظر الطبيعية – ابن المعتز – حديث بينه « وبين الخرجي صاحب المعبر » وزوجة الخرجي يذكر الزوجة خلاله بما قاله الشاعر الانكليزي بايرون عن خيانة الزوجة –

الوصول الى بيروت بعد اثني عشر يوماً من التعب والجوع والشحب والبؤس– ركاكة لغة المدينة – الثورة في الجبل على والي مصر (اذن كان وصولهم في سنة ١٨٤٠)– على طريق الجبل (الحدث)يلتقي الفارياق بـ «عسكر الاهلين» –

في قريته يلمس المفارقات بين ما تعوده في القرية وما يجده : النسـاء وسذاجتهن الطبيعية المنبئة عن سلامة ضمائرهن ، بساطة الامراء في جلوسهم

حفاة على الحصير ، ورقودهم على فراش واحد ، واكلهم ، ومعيشتهم الخالية من اللهو والانس – الا" من لعب الجريد المتعب – وصف خدامهم وفي حزام الخـادم ملعقة وعلى رأسه الخوان او على صدره القصعة والباطية – لا يأكلون مع نسائهم واولادهم – لا يغني لهم اولادهم في الصباح غناء اطرب من غنـاء معبد و .. (هنا سلسلة) من اسماء المطربين . . وهم لا يبأبئونهم اي يقولون لهم بابي انت ، ولا .. (وهنا صفحتان افعال التدليل).

ثم يتوجه بالفكر الى الحكام من مشايخ وكبراء ومطارنة داعياً الى الالفة وهو يقول : «ان فرق الآراء في الاديان لا يمنع من الالفة والمخالـّة » –

رجوعه الى **بيروت** وعزمه على « انشاء مقامة تسر" العزب والمتزوج » .

۱۳ – في مقامة مقيمة ص ٤٧٥

مقامـة : يلتقي باثنتي عشرة امرأة – وصف كل منهن وشعر– ثم يقصد جماعة من الشعراء يجتمون كل يوم وقد وجدهم على دكة عند البحر ، ويحدثهم عن النساء والزواج وخدمة الزوجات وتدليلهن ازواجهن –مترادفات–الى ان يقول احدهم : حسبنا يا قوم ما سمعنا وينفضون – وفي السوق يقول انه رأى الفارياق واستنشده في الزواج ويعود الى البيت مشتاقاً الى زوجته الدائبة على العمل في خدمته .

١٤ – في جوع ديقوع دهقوع – ص ٤٨٤

رأى الخرجي ان سكنى بيروت لا تصلح له فعزم على الشخوص منها الى الجبل واقنعـــه الفارياق **بالاقامة في دير للروم** – الدير منتدى لاهل القرى المجاورة ومستودع لامتعتهم بسبب خوفهم **من هجوم العساكر المصرية** – الرجال والنساء يعبثون باوراق الفارياق وفيها تفسير الاحلام .

الطرق معطلة بسبب الحرب وخبز الدير يجلب الدوار لأنـــه مخلوط بالزؤان ، والفارياق يسعى وراء الدجاج في القرى ويقارن بين الدجاجـــة وزوجته التي قد تكون ساعية في الجزيرة وراء ديك – ينظم الفارياق قصيدة

يبعث بها الى رئيس دير آخر ، ومنهـــا ذكر لبنان بدلاً من الشام هذه المرة حيث جاء :

ذهبت دولة الطبيخ وجاءت نوبة الجوع امهـــا لبنان

ومنها :

طال مكثي في الدير حتى كأني راهب ترضى بـــه الرهبان
اذا رأوني وحولي الكتب والاقـ لام ممـــا نهى عنه المطران

فبعث اليه الرئيس بارغفة لا زوان فيها ومعها بيتان :

وصلتني الابيات يا فريقان انمـا نحن في الدنيا رهبان
ما عندنا طعام كما تشتهي ولا نبيـذ ولا نسوان

فهرول اليه الفارياق ليعاتبه على تغيير اسمـه فرأى في الدير احدى نساء الامراء جاءت **استئناناً من العساكر** وقد دعت الفارياق الى الاركيلة .

واذ عاد الى الدير وجد الخرجي في هذيان وهو اذا سمع صوت الطبول من خيام العساكر قال الا تسمعون طبل الشيطان ؟ — امـــا زوجته فكانت لا تكترث لصراخه لأن حب « الغصن » لم يدع في قلبها موضعاً لغيره (سيظهر من هذه التورية عن الغصن ان زوجة الخرجي احبت شاباً — وسيلحق بهـا الى مالطة كما سترى) — **ثم انصرفت العساكر من البلاد** وامنت الطرق ورأى الخرجي ان يذهب الى **دمشق** ويمر **ببعلبك** .

١٥ – في السفر من الدير ص ٤٨٨

الطريق الى بعلبك وصعوبة ركوب البغال –(لا شيء عن بعلبك ولا عن الطبيعة ولا عن الآثار)– بلوغ دمشق ومرض الفارياق في غرفة في خان– الفارياق يزور اهل زوجته (بيت الصولي) ويكتفي بالقول انهم رحبوا به — يقول ان وصف البنات والماء والهواء ، وعدد السكان والامور السياسية ، كل هذا ليس من شأنه . انما هو يكتفي بوصف محاسن نساء دمشق فيقول:

دخلت دمشق وبي خمى صحبتني من بعلبك وما كدت أنقه حتى سافرت منها فلا استطيع وصف نسائها الا وصفا سقيما — نزلت في خان يسمى خان فارس ، لون النساء عموما مشرب بالحمرة ، الازار الابيض لا يحلو للعين كحبر نساء مصر — يذكر موت ابيه في دمشق ويتشاءم— اهل الشام ارق طبعا من اهل حلب واوفر كرماً — اخطأ المطران جرمانوس فرحات (الحلبي) بقوله ان اهل حلب أرق طبعاً ، وهل في قوله غير رغبة في السجع والتجنيس ؟

السفر الى بيروت مع الخرجين، ومنها الى يافا حيث استضافهم نائب قنصل الانكليز — الاقلاع الى الاسكندرية ثم الى الجزيرة — المعتزل الصحي — زوجة الفارياق تأتي وتعتزل معه .

١٦ – في النشوة ص ٤٩٢

سطران

١٧ – في الحض على التعري ص ٤٩٣

جنون الخرجي وتعريه وحضه الناس على التعري — «الغصن» (انظر الفصل السابق) يأتي من الديار الشامية ويقيم مع زوجة الخرجي—شاعر عجمي متنصر يسكن مع الفارياق ويحاول الاتصال بالفارياقية— الخرجي يسافر مع زوجته الى انكلترا ويأتي من يحل محله مؤقتا — قصيدة الفارياق في التعرّي.

١٨ – في بلوعة ص ٤٩٧

لجنة في بلاد الانكليز تكلف الفارياق بترجمة كتاب (هو كتاب التوراة الذي سيعرضه على الدكتور لي مدرس العربية في جامعة كمبردج كما جاء في كتاب « كشف المخبّا في تمدن اوربا» حيث يقول انه سافر من مالطه في الثاني من شهر ايلول سنة ١٨٤٨ وبلغ انكلترا بعد ٢٨ يوماً وقد اعتمدت الجمعية الدكتور لي ليعارض ترجمته بالاصل . ولكن المطران اثناسيوس الحلبي التنونجي مؤلف كتاب الحكاكة في الركاكة تعرف باللجنة وهو في انكلترا وقال ان لغة

الفارياق فاسدة وان النصارى يحبون الكلام المسلط والمسطل فسلم اعضاء اللجنة الترجمة للمطران لاعتقادهم انه عالم كسائر مطارينهم واقتصر كسب الفارياق على مرتبه من التدريس)

في الصيف جاءت البطالة المدرسية لمدة ثلاثة اشهر فعزم الفارياق على زيارة تونس ولم تصل السفينة الا بعد اثني عشر يوماً – وصف المدينة وسكانها وجمال نساء اليهود – العودة الى مالطة – الفارياق يرسل قصيدة يمدح بها أمير تونس المشير احمد باشا فيبعث اليه بهدية من الماس ومعها كتاب وزيره مصطفى باشا خزندار ، وتاريخ الرسالة ٢٤ ذي الحجة سنة ١٢٥٧ (١٨٤١م) قدوم المطران التتونجي الى مالطة – الفارياق يدعوه الى وليمة في داره ولم يكن عرف ما افتأت عليه عند الانكليز – مدير المطبعة يكلف الفارياق بتصحيح خطأ ترجمة المطران للتوراة) فيعرف الفارياق بمكايد المطران وسبب قدومه ويكتب الى اللجنة مبيناً لها اخطاء الترجمة .

قدوم سامي باشا الى الجزيرة – (من مصر كما سترى في الفصل ٢٠ بعد حوار بين الفارياق وزوجته التي ترفض ان ينضم الفارياق الى الباشا في المعتزل) الحوار طويل يستغرق ٤ صفحات من النقاش حول الرجل والمرأة والزواج ، وعدم السماح بالطلاق عند النصارى الذين يأذنون بالفراق لا بالزواج ، وان من يتفوق من ابنائهم بالكسل والركاكة يصير راهباً او مطراناً ، وان اهل مالطة ينفصلون عن ازواجهم ويعيشون بالسفاح الخ .. وينتهي الامر بأن يقضي الفارياق مع الباشا مدة الاعتزال ثم يذهب معه الى ايطاليا ويعوده محفوفاً بالاكرام والانعام » .

١٩– في عجائب شتى ص ٥٠٧

عنوان هذا الفصل : « في عجائب شتى » ، وفي الواقع ان العجائب الكبرى انما هي في اسلوب فاق كل ما تقدمه في المعميات والمجون ووحشي التعابير وغريبها . وقد كنت مررت على هذا الفصل وظننت محتوياته عرضاً

لعلم كاتبه وسعة اطلاعه اللغوي ودفعت الكتاب باكمله الى دار النشر ولكنني الآن، وانا ابعد طبع الكتاب الخص كل فصل لاقود القارىء في تيه ارجائه ومهالكه وتعرجاته ، الآن ارى تفاهة الست صفحات الاولى من هذا الفصل . امـــا الصفحتان الاخيرتان فهما استطراد الى موضوع يحز في نفس الفارياق ، الا وهو انتقاد المطران التتونجي لترجمة التوراة التي قام بها الفـــارياق . وهو يلصق بالمطران ، وبمدرسة عين تراز التي تخرج منها نعوت الجهل والركاكة، ويضيف الى ذلك سيرة المطران وعدم استقراره في مركز وظيفته في طرابلس الشام ، وتردده بين العواصم الاوربية للكسب ومنها انه استحضر فرقة مغنين ومغنيات من بيت «اشق باش» من حلب الى لونـدرة على نفقته ثم استرجع المبلغ الذي كان اداه ، فخسرت الفرقة خسارة فادحة .

وينهي الكاتب هذا الفصل بالاعتذار اذ يقول ان « ما حمله على ايراد كلام لا يليق بالنساء تجاوز فيه ابن ابي عتيق وابن حجـــاج» انه اراد اولاً ابراز محاسن « لغتنا هذه الشريفة» ، وثانيــاً تشويق القارئين ممن ملأوا حيطان ديارهم من قصب التبغ الى شراء كتاب في اللغــة . والمهم هنا ان نلفت نظر القارىء الى طريقة تدخين التبغ في ذاك العصر ، خلال قصبة تتصل بغليون قبل ابتكار اللفافات .

٢٠ – في سرقة مطرانية ص ٥١٥

سامي باشا وعد الفارياق بوظيفة في مصر فأرادت زوجته ان تسبقه لترى اهلها هناك – سفر الزوجة في سفينة النار .

الفارياق يعيد الكرة ويرسل للجنة نماذج جديـدة من اخطاء المطران في ترجمة التوراة – اللجنة تستدعي الفارياق الى انكلترا – المطران يسرق بعض ما كتبه الفارياق عن اهل مالطه ويعرضه على رئيس الفارياق ويفرّ من الجزيرة بعد هذه السرقة – الفارياق يكتب لزوجتـه ويطلب منها العودة لمرافقته الى انـكلترا ، «وها هو الآن يوعي القاموس والاشموني في صندوقه» يظهر من هذا الفصل ان الفارياق في مالطه كان موظفاً رسمياً وان رئيسه هو الحاكم الانـكليزي.

الكتاب الرابع

١ – في اطلاق بحر – ص ٥٢١

متاعب السفر في البحر – الحث على الاسفار واختبار الاقوام ، والمقابلة بين ما هو حسن عندهم وغير الحسن عندنا – استطراد في المقابلة،منها: تأليف كتب الرحلات ، تفضيل الكتب وتأسيس المطابع والمكتبات والمدارس على اقتناء الامتعة وقصب التبغ والاراكيل والكهرباء [1] .

٢ – في وداع – صفحة ٥٢٩

يعيد ذكر القاموس والاشموني اللذين وضعها في صندوقه استعداداً للسفر – وداع الزوجة وحوار مصطنع بين الفارياق وبينها يدور كالعادة حول الرجال والنساء يحتل ٨ صفحات وينتهي بقول الزوجة : « اني اعاهدك على ما كنا عليه من الحب والوداد من ايام السطح الى الآن » (السطح هو سطح بيتها في مصر حيث كانت ترى الفارياق ويراها قبل الزواج) « ولكن حين احس واشعر من هنا بانك تبدلت السطح بالشطح اقابلك بفعل مثل فعلك ، والبادي اظلم » .

٣ – في استرحامات شتى – صفحة ٥٣٨

براعة في تبرير ما كتبه في الفصل السابق على لسان زوجته ، ومن ذلك قوله ان جواب المرأة اسرع من جواب الرجل وان المشتغل بالعلم يكون ابطأ

---

(١) العنبر الاصفر المعروف الآن باسم كهرمان ، وفي اللغات الافرنجية electrum وهو من الجواهر الكريمة المعروفة قديماً وقد ورد ذكره في نقوش اوغاريت الكنعانية في القرن ١٤ ق.م. (انظر كتابنا « اوغاريت – اجيال واديان وملاحم » طبعة دار الطليعة – بيروت – ١٩٦١ حيث يعرض فابيل ملك الادوميين فيما يعرضه كهربا وذهباً وفضة ليفك ملك الصيدونيين كيريت الحصار عن مدينة ادوم – عند اكتشاف القوة الكهربائية ونورها اطلق الافرنج على اكتشافهم هذا الاسم المشتق من كلمة electrum كما اطلقناه ايضاً على ما نسميه الان كهرباء .

جواباً من غير المشتغل به – ثم يضيف قولاً قد يكون ورد في ضمير كل كاتب حيث يقول : « اني لم اقدر في نقل الكلام على نقــل الحركات التي تبدو من المرأة .. وان اصور عيوناً تغازل ، وحواجب تشير .. وخدوداً تتورد ، ويداً تومىء ، ونفساً يربو ويخفت ، وصوتاً يخفض وينبر .. وغير ذلك ممـا يزيد الكلام قوة وبلاغة . وهذه ثاني مرة ندّمتني على جهلي صناعة التصوير ، والمرة الاولى كانت في الفصل ١٤ من الكتاب الاول عند ذكري الحسان على اختلاف جمالهن . ويمكن ان اندم مرة ثالثة » .

بعد كل هـــذا يعود الى التحدث عن الاسفار ويستنكر وجوب موافقة قناصل الدول على جواز سفره وهم قنصل **نابلي** ، **وليكورنه** ، ومدينـــة في **مملكة البابا** ، وقنصل **جنوي وفرنسا** لأن سفينةالنار تمر على مراسي هذهالمدن – كلمة عن كل مدينة ، اما مدينة البابا فيقول عنها « انها انحس ما يــكون اذ ليس عليهـــا رونق الملك ولا الملكوت وما بها شيء يقرّ العين » – في مرسيليا يفتشون كراريسه في ديوان المكس (الجمرك) وهم يقصدون التفتيش « ليعلموا هل كان مدخراً شيئــاً من التبغ والمسكر » – وفي باريس يفتشون الفارياق وصندوقه ايضا في مكسها ويقيم ثلاثة ايام في دار سفارة الدولة العلية ويحظى بتقبيل ايدي الوزيرين المعظمين والمشيرين المفخمين رشيد باشا وسامي باشا – ثم يسافر الى لندن ، ومنهــا قرية في بلاد الفلاحين – (سيأتي وصف باريس ولندن) .

٤ – في شروط الرواية ص ٥٤٣

حلّ الفارياق في قرية موحشة لم يمضِ في مدى عمره مدة انحس واشقى منها – بعد شهرين انتقل الى كمبردج « مدينة القسوسة وعلم الكلام » حيث يتعلمون الالهيات والمناظرات كما في زميلتها اوكسفورد ، واكترى في كمبردج مسكنين ومكث يترجم بقية الكتاب (التوراة) – جاريــة تصلح فراشه وتبدو من ذوات الورع وتطلع كل ليلة الى غرفة احد السكان – جمـــال نساء الانــكليز وتأثيره – قصيدة .

٥ – في فضل النساء ص ٥٤٨

في كمبردج يسخر الناس من قبعة الفارياق الحمراء والكلاب تشم فروقه (معطفه) والجيران يؤاكلونه ولا يشركونه في طعامهم – بيتان من الشعر في كل من هذه الامور – احد طلاب العربية في الجامعة يدعوه للسكنى معه في ضاحية يصلان اليها في « سكة الحديد» – الطالب يؤاخذه على ذكره الاشتياق الى «امرأته» ويقول كان الاولى بك ان تقول «الى أولادي»– يجاوبه الفارياق نقلا عن التوراة – حوار : الانكليزي يعيب على العرب هياجهم على النساء – اللواط – واسبابه – الفارياق يُدعى الى مآدب ثم تقل الدعوات « لأن من نظر الى سحنته مرة لم يرد ان ينظر اليها مرة اخرى – تبرج عجائز الانكليز.

عودة الفارياق الى كمبردج – الطلاب في اوكسفورد وكمبردج وبنات القرى المجاورة – عودته الى لندن واقامته فيها نحو شهر. « وصف لندن او لندرة » ليس وصفاً بمقدار ما هو سجع وغزل .

٦ – في محاورة ص ٥٥٣

سفره الى باريس واقامته فيها ثلاثة ايام ، ومنها الى مرسيلية ، ومنها الى الجزيرة حيث يجد زوجته بعد ان ظن انها طارت مع عنقاء مغرب « ويبني بها هذه المرة السادسة» وكانت المرة الثانية بعد قدومه من الشام ، والثالثة بعد رجوعه من تونس، والرابعة بعد خروجه من المعتزل مع سامي باشا، والخامسة بعد رجوعه من مصر – ينشد في ذلك بيتين من الشعر ويصطنع بعدها حواراً يتناول مواضيع شتى واستطرادات طويلة –

تسأله زوجته بعد ذلك عن لندن – كلام عن النساء والرجال – سؤال آخر عن الاسواق – ذكر الملابس والالوان – العلم والمرأة .

٧ – في الطباق والتنظير ص ٥٥٩

ست صفحات مقسمة على حقلين : حقل بعنوان يا ليت ما عندي امرأة ،

وحقل بعنوان يا ليت عندي امرأة . تحت العنوان الاول فقرات تبدأ ب « اذا » وازاءها فقرات مضادة تبدأ ايضاً ب « اذا » .

ينتهي هذا السرد المتقابل في الفقرة الاخيرة من الحقل الاول من الصفحة وفي الحقل المقابل :

يا ليت ما عندي امرأة	**يا ليت عندي امرأة**
اذا وافى منزله وقت الغداء او العشاء ساغبا لاغباً فلم يجد شيئاً يأكله لان زوجته لهيت عن الغداء بتصليح ثيابها وتغيير زيها ، وعن العشاء بلبسها وجلوسها بالشباك لتنظر وينظرها المارّون .	اذا وافى منزله وقت الغداء او العشاء فوجد على مائدته كل ماتشتهيه النفس فاكل وشرب وطابت نفسه ، ثم رأى من شباكه جارته تلبس ثيابها وتنظر الى ما ورائها لتعلم هل الثوب والعجيزة هما كشنّ وطبقة او لا . وما اشبه ذلك .

٨ – في سفر معجل وهينوم عقمي رهبل ص – ٥٦٥

بمناسبة سفر احمد باشا والي ايالة تونس الى فرنسا حيث فرق على فقراء مرسيليه وباريس وغيرهما اموالاً جزيلة رأى الفارياق ان يهنئه بقصيدة ، « وقد بعث بها على يد من يبلغها لجنابه » فكان الجواب وصول ربان سفينة حربية يدعوه الى السفر على بارجته للمثول بين يدي مولاه – يقول الشدياق في هذا انه « ما كان يحسب الفارياق ان الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيه ولكن اذا اراد الله بعبد خيراً لم يعقه عنه الشعر ولا غيره » .

اما القصيدة فقد رأيت اثبات بعض ابيات منها اقتطفتها من« ديوان ابي العباس الشيخ احمد فارس افندي » أي أحمد فارس الشدياق وقد طبعت «في مطبعة الجوائب بالآستانة العلية سنة ١٢٩١ » (اي سنة ١٨٧٤) وهذا مطلعها:

زارت سعاد وثوب الليل مسدول فما الرقيب بغير النشر مدلولُ
..وشاحها مثل قلبي لم يزل قلقا وزندها اخرس الدملوج مجدولُ

..ما الحب الا غذاء الصب مكتهلا   وقبل ذلك نقـــل ثم تعليلُ

ويتخلص من هذا الاستهلال التقليدي وبعد ٢٢ بيتا، الى موضوع القصيدة اي الى مدح باي تونس لم نجد فيه طرافة .

اما المديح فاني قد خصصت به   في وصف احمد ما تتلى اقاويلُ
..ان كان في مصر يرجى النيل آونة   ففيك لي كل آن جوده نيلُ

سافر الفارياق هو وعائلته وكانت الريح مخالفة فلم يبلغوا « حلق الواد » الا بعد اثني عشر يوماً – ملاحظات الفارياق على كرم العرب بعكس الافرنج الذين لا يقبلون ان يأتيهم المدعو مع من لم يدعوه – تفضيل شعراء العرب على شعراء اليونان والرومان والطليان والنمساويين والفرنسيس والانكليز مع ذكر اسماء اكابر شعراء هذه الامم ومقارنة بين قصائد العرب وقصائد الافرنج– مواضيع الشعر العربي والشعر العجمي ووقعها في الامم .

الفارياق ينتقل الى المدينة حيث يحتفي به اهل الادب ويحظى بتقبيل يد « المولى العظيم » وينال منه الصلات الوافرة .

الوزير يسأل الفارياق عما اذا كان يعرف اللغـة الفرنسية فيجيبه انه تعلم الانكليزية فاثرت في لغته – زوجته تشمت به لأنه لم يعد عن الغزل بالنساء ويتعلم اللغة الفرنسية – حوار مصطنع حيث يبرر كلفه بالنساء .

رجوع الفارياق وعائلته في « سفينة النار » .

٩ – في الهيئة والأشكال ص ٥٧١

في مالطه يسألون الفارياق عن سفره فيسرّ الى معارفه ان نساء اليهود لم ينزل بهن مسخ كما تزعم النصارى بل نزل برجالهن – امرأته تسمع فتمتدح جمال الرجال – حوار مصطنع ومقارنة بين ازياء الرجال في مالطه ولبنان وشراويل اللبنانيين ، والجبة التي تكنس الارض ، ثم القول بان الناس لم يهتدوا الى زي حسن – نقد البرنيطة لأنها اشبه بالقفة او الزنبيل او..الخ..

والحبر (جمع حبرة) التي تلبسها نساء مصر ، وحزام الرجال ، والشريط الذي يربطون به سراويلهم — تفضيل المرأة المزينة على العارية — الشركة في الزواج — الفارياق يسأل عن الرجل الذي تفضله النساء — الحب والفائدة — الكاعب والمُعصر والعانس والنَّصَف والعجوز والاحداث والشبان والكهول — الحديث عن الشوارب واللحى .

اللجنة تستدعي الفارياق واهله الى انكلترا (لمتابعة ترجمة التوراة) .

١٠ في سفر وتفسير ص ٥٧٨

الفارياق يشترط الاحتفاظ بوظيفته في مالطة طوال سنتين فاذا عاد الى الجزيرة رجع الى وظيفته — قبول الشرط — اجراءات لختم الجواز في القنصليات — جنوى ومرسيلية وباريس حيث يجتمع الفارياق «**بمسيو لامارتين** Lamartine الشاعر المشهور باللغة الفرنساوية» — السفر الى لندن حيث تجد زوجته ان «الاحلام قصرت عن اليقظة — حوار جديد بين الفارياق وزوجته : استهتار النساء — تقول الزوجة : انت لا تستحي ان تطلب وانا استحي ان أطلب ، من الظالم والمظلوم ؟ — المرأة تنتصر اذا اجهشت — المجانين الذين في بيوتهم في الشام (تقصد لبنان) اكثر من الذين في اديار الرهبان — قال سننتقل من لندن الى الريف حيث النساء قلة — قالت : ان القليل من النساء كثير — السفر في «درب الحديد» — دروب الحديد في بلاد الانكليز مثل خطوط الكف .

١١— في ترجمة ونصيحة ص ٥٨٣

في القرية شرعت الفارياقية في تعلم لسان القوم — حوار : رياء الانكليز وتظاهرهم بالتقوى والصلاح — مجون سويفت واسترن وكليلاند وهم من رجال الدين فاق في الفحش ابن حجاج وابن ابي عتيق وابن صريع الدلاء ومؤلف كتاب الف ليلة وليلة — رابليه الفرنسي — الفارياق ينصح زوجته بالتكتم ، واظهار الورع ، ومن ذلك ألا تطبخ يوم الأحد — ذكر التوراة واليهود ويوم

السبت – يقول عليك بالتشبه بالانكليزيات – أداب المـــائدة عند الانكليز وكتم العواطف – قصيدة في ذلك – الاخلاق الحسنة عند الانكليز .

١٢ – في خواطر فلسفية ص ٥٩١

(في هذا الفصل ملاحظات سبقت ماركس وانكلز في عمقها وشمولهـــا النفسي) في بلاد الفلاحين لا انس للغريب ولا حظ في خضرة الارض – فلاحو انكلترا اشقى خلق الله – يوم الاحد وهـــو يوم فرح ولهو في جميع الاقطار ليس للفلاح فيه حظ سوى الذهاب الى الكنيسة حيث يمكث ساعتين كالصنم يتثاءب ساعة ويرقد اخرى – واكل المتمولين في الريف شواء وقلقاس – دأب الصانع في المدن كدأب الفلاحين في الريف ، فهو يشقى ويكـــد في النهار ولا حظ له في الليل سوى اغماض عينيه – المترفون في بطر وعتو يقتنون ما لا تلزم قنيته من خيول ومراكب واثاث ..

حتى البنات يجرين في لندن والمدن باخلاق من الشباب لا سيما النواشي اللائي لم يبلغن بعد من العمر خمس عشرة سنة .. لا تعنى بهن الدولة والكنيسة وهن على حالة السفاح لا يتولد منهن الا الخبـائث والرذائل ، او يسقطن جنينهن خوف الفقر .

الفقر المدقع يفضي الى الانتحار او الخنق وقد شاع ذلك في بلاد الانكليز – الزواج الفاسد المبني على الطمع بالمال .

كيف بني هذا العالم على الفساد وكيف يقع هذا الظلم في بلاد ضربت بعدلها الامثال ؟ – الفلاح والغني اسعد حـالاً في الشرق – الانكليز يجهلون لغتهم ولا يعرفون اسم بلادنا – الهواء عندهم منكر والجو داكن – جمال بلادنا وشوق الفارياق الى العيش في الشام او تونس او مصر بعد ان اختبر سوء حال الاجانب في بلادهم – الفارياق يصف انس الاحباب ويتداول السجع مع زوجته .

١٣ – في مقامة تمشية – ص ٥٩٩

مقامة عن الزواج تنتهي بشعر عن امور النساء .

١٤– في رثاء ولد ص٦٠٤

في رثاء ولد : لذة البنين – مرض الصغير اوجع لقلب الوالدين – يجب ان يتخصص بعض الاطباء بمعالجة الاطفال – نصائح في العناية بالاطفال.

الحنو على اطفال الغير لا يتأتى الا لمن رزق ولداً – كيف امر موسى بقتل اطفال مدين كما ذكر في الفصل ٣١ من سفر العدد –

الفارياق يتذوق مرارة الثكل بولده الذي بلغ السنتين– كان ينسي اباه اشجانه وهمومه–الصبي يصاب بسعال والمتطببون في الريف يشيرون بالاستحمام بالماء الساخن الا الرأس– وصف المريض بحنان ورقة – موت الطفل – قصيدة في ثلاث صفحات ، منها :

لهفي عليه وطرفه لي يشتكي
اذ كان لم يقدر على الاخبار

. . ان المنية والاماني بعده
سيان مستويان في استئثاري

الطفل يقضي مرة لكنما
يقضي ابوه قبله بمرار

١٥ – في الحداد ص ٦١٠

في الحداد : الحزن لم يمنع الفارياق من استعراض التعابير الغريبة والحديث عن السمراء والبيضاء ، والمليحة والقبيحة ،ومن تحليل حالات الزوجين وشؤون القلب ، والشعراء وعلماء الرياضة والهندسة – بعد كل هذا يتخلص الى الكلام عن الحزن والحداد ، والالوان ومنها الاسود الذي لا يمنع النساء من الازدهاء والطرب والضحك ، ليس فقط في حالة فقد الزوج ، وكيف يزدحم الرجال على التي تحدّ وكيف ان المرأة المحدّ تعلم ما يخطر ببال المشفق عليها فتقول له او في نفسها : ليتك الخ ..

١٦ – في وجود الانكليز ص ٦١٥

بعد فراغ الفارياق من عمله في كمبريج سافر الى لندره ليرجع منها الى مالطة ولكنه رأى الا يعود وقصد اكسفورد – العالم الذي قصده بتوصية لم يستقبله مع انه قال له «ما انا بمطران ولا راهب حتى تزعمني اني قدمت اليك متسولاً» – عودته الى لندن – الفارياقيـــة لا ترغب في الرجوع الى الجزيرة حيث اضاع الزوجان زهرة العمر – الفارياق يكتب الى كاتب سرّ الحاكم مستعفياً من خدمته ويرى ان المقام في باريس خير له ولزوجته المريضة –

وصف لندرة وما فيها من المحاسن «بعبارة وجيزة» تتجاوز ٦ صفحات في وصف جمال النساء وتخصيص ثلاث صفحات منها في ايراد نعوت وتفسيرها، تبدأ بالرعبوبة وتنتهي بالوعابية، وثلاث صفحات اخرى في وصف حركاتهن وصفحتين للوم الانكليز على معاملتهم لهن

١٧ – في وصف باريس ص ٦٢٣

عنوان الفصل : في وصف باريس – شوارعها – نساؤها – تسلط النساء على الرجال – الفرق بين نساء باريس ونساء لندن – الساديـــة والمازوشية والانحرافات الجنسية (يصفها الفارياق دون ان يعرف اسماءَها)– اصطلاح الباريسيين في امر المعاش، حريـــةالنساء: الدموازال – الرقص – المعاشرة الجنسية بالمشاهرة او بالمياومة – الفرق بين نساء باريس ونساء لندن – سذاجة الانكليزيات ووداعتهن– ثلاثة ارباع رجال باريس مسافحون المومسة الانكليزية متواضعة، اما البغي من الفرنسيس فعندها ان على الناس تكريمهـــا – ثورة ١٧٨٩ وإقامة امرأة عريانة على مذبح احدى الكنائس والسجود لها – شعر في لذات باريس وفي الراقصات –

١٨ – في شكاة وشكوى ص ٦٣٣

اختيار دار للسكن – وهم الناس ان مدينة باريس اجمل مدينة في الدنيا

– غيوب طرقها وقذارتها ، اختلال بلاط شوارعها وضيق برازيقها (هكذا يسمي الارصفة) قلة الانوار ورداءتها ، مراحيضها ، خلو مساكنها من النور والهواء ، بوابو العمارات (كل هذا مع ذكر افضلية لندن)– نهر « تامس » ، حدائق لندن ، انانية اهل باريس – صدق تجار لندن وجشع تجار باريس – مواضع التنزه في لندن – جمال نساء لندن – حشمة شبانها ووقاحة شبان باريس –

فرنسي يطرق الباب ويتفق مع الفارياق على تبادل التدريس باللغتين الفرنسية والعربية – زيارة عالم باريسي للفارياق يعرض عليه نظم قصيدة في محاسن باريس ومدح اهلها – الفارياق ينظم القصيدة ويسميها « الهرفية » لأنه مدح مجازفة ، كما ينظم قصيدة يسميها «الحرفية» مناقضة للاولى (انظر الفصل ٢٠ التالي) – العالم يترجم الهرفية ويبشره بان «جمعية العلم الاسيوية» ستطبع الاصل العربي في مجلتها – الفارياق يشتري المجلة بثلثي فرنك –

الفارياق يتعرف بالعلماء المشهورين كترمير Quatermère وكوسان دي برسيفال Caussin le Perceval ودي بوفور de Beaufort الذي يدعوه الى مأدبة – لطف المدعوات –

العامة في باريس لا يسخرون من الغريب بخلاف اهل لندن – انقلاب الزوجين الى تفضيل باريس .

مرض الفارياقية يشتد بها ، متطبب يصف لها اعشاباً ويطالب بخمسين فرنكاً (اي ليرتين انكليزيتين ذهبا في ذاك الوقت) ثم يرضى بخمسة وعشرين –طبيب نمساوي يداوي الفارياقية ويشير عليها بالسفر الى مرسيليا ولا يتقاضى شيئاً ، وكذلك تفعل اطباء لندن –

الشيخ مرعي الدحداح يوصي لامرتين Lamartine بالفارياق فيكتب اليه الفارياق فلا يجاوبه (كان الشيخ مرعي في مرسيليا وما زال اسمه علماً لشارع فيها)

مودة الفرنسيين يقطينيـة اي كاليقطين لا تلبث ان تذوي ، ومواعيدهم عرقوبية – بخلهم على غير المراقص – بلدهم اغلى اسعاراً من لندن – ذم اهل باريس – قذارة نسائها وصلفهن – النساء في بولون Boulogne وكالي Calais ودياب Dieppe وهافر Le Havre وغيرها من الفرض يحملن اثقـال المسافرين على ظهورهن – الى مصر الى مصر ! بلاد الحظ والارب، الى الشام الى الشام! معاني الفضل والادب ، الى تونس ! فيها اكرم العرب ، كفى من الافرنـج ما لقيناه !

١٩ – في سرقة مطرانية ووقائع مختلفة – ص ٦٤٦

نكبة نصارى حلب وطلبهم المدد من اوربا – ارسال **فتح الله مراش** مندوب الروم الارثوذكس،والمطران اتناسيوس التتونجي مندوب الملكيـين (اي من نسميهم الروم الكاثوليك) ومؤلف كتاب الحكاكة في الركاكة،ومعه شكري عبود لجمع التبرعات – في اوستريا ثم في باريس حيث يلتقي مراش وعبود بالفارياق ويأنس الفارياق بمراش لانه متعلم ومتزوج ، لان « العلم يلطف العقل والعيال ترقق القلب » – المطران لا يحضر الى باريس لانه سبق ان حُبس فيها وطرد منها « لارتكابه فيها اساءة الادب » – في لندن يجتمع المندوبون الثلاثة ويقدم المطران للجنة كتاباً للفارياق فيـه ما يسوء اللجنة ولكن اللجنة « ردت الكراسة على الفارياق » – لما انطوت عليه من الاخلاق الكريمة .

سفر الفارياقية بعد نقاهتها الى القسطنطينية حاملة كتاب توصية من زوجها الى « المولى المعظم سامي باشا » ومعها اصغر اولادها – شفاؤهـا التام في مرسيلية وتوجهها منها للقسطنطينية – الفارياق يرسل قصيدة بمدح ابن سامي باشا وكرمه ومعروفه ويرسل الى زوجته ابياتاً .

الفارياق ينتقل من منزله الى غرفته – ويكتب في كل يوم بيتين – قدوم **الامير عبد القادر** الى باريس– قصيدة في مدحه والمثول الى مجلسه – الوحدة

والملل والمقامرة « بالاوراق المزوقـــة » – حسد المستشرقين ولؤمهم ومنهم رئيس تراجم الدولة **الكونت ديكرانج** .

٢٠ – في نبذة مما نظمه الفارياق من القصائد والابيات في باريس ولندرة ووداع الفارياق – ص ٦٤٩

نبذة مما نظمه الفارياق من القصائـــد والابيات في باريس : المؤلف يودع الفارياق: ذا آخر فصل من كتابي الذي اودعته من اخبارك ما املني والقارئين.. اياك وكثرة الاسفار والتحرش بالقسيسين والنساء في الليل والنهار .

ذكر مــــا نظمه في « مدينة لندرة .. في مدح مولانا المعظم وسلطاننا المفخم **السلطان عبد المجيد** » – صدور الامر العالي بتوظيفه في ديوان الترجمة السلطاني – عزمه على طبع « الساق على الساق» قبل سفره الى القسطنطينية – **الخواجه رافائيل كحلا** يشير عليـــه بطبع الكتاب في باريس – سفره الى لندرة يؤخر الطبع .

القصيدة التي ارسلها الى السلطان بمناسبة الحرب بين الدولة وروسيا وهي تقع في اربع صفحات ونصف صفحة وتنتهي بتاريخ :

انشدت تاريخـــين هجريين في	ختمي مديحك وهو حظي الاوفر
عبد المجيد الله اركى ضده	سلطانـــا خير مجـــد ينصر
سنة ١٢٧٠	سنة ١٢٧٠

●

القصيدة الهرفية في مدح باريس وهي في ست صفحات .	القصيدة الحرفية في ذمها

●

القصيدة التي امتدح بهـــا الجناب المكرم الامير عبد القادر بن محيي الدين

المشهور بالعلم والجهاد .

وهي في ثلاث صفحات .

●

القصيدة التي امتدح بها الجناب المكرم النجيب الحسيب صبحي بيك في اسلامبول ، ومنها :

ولو انـــني راسين عصري فيهم
وملطن ما استقيت منهم سوى النشحِ

●

مدح الخوري غبرائيل جباره – ارسل القصيدةاليه من باريس الى مرسيليا « وهو اول شعر مدح به قسيساً » .

في ثلاث صفحات

●

القصيدة «القمارية» حيث يصف المقامرة في صفحتين

●

الابيات الطريفة التي نظمها في غرفته بباريس بعد سفر زوجته وهي في خمس صفحات نقتطف منها ما يعبر عن الفاقة والحاجة الى مدح العظماء :

تعالوا وافقهوا عنّي ثلاثاً تعلمكم مراعـــاة النظير
خلاقي ثم جسمي ثم بيـــتي صغير في صغير في صغـــير

ومنها .

اصبحت في غرفتي رهن الهموم فما يعتادني غير اشجاني واوطاري
ارى لكل امرىء انثى تؤانسه وليس عندي من انثى سوى النار

ومنها :

اصوغ القوافي في ليلتي وفي الصبح أستقبل المطبخا
لي غرفة ملأى من الكذب الذي انفقته في مدح كل بخيل
يا طالعاً درجات قدرها مئة إليّ ماذا ترجّي بعد ذا الدرج
للناس نار بلا دخان ولي دخان بغير نار
نعم لي غرفة عليا ولكن باسفل سافلين هبوط نجمي
فكيف اطيق اصعد مرتقاها واحمل حمل اشجاني وهمي

الفراقيات

اربع قصائد في فراق زوجته ، تقع في سبع صفحات ، منها :

افي الناس مثلي في مقام فؤاده وفي غيره جثمانه واجد الفقدِ
فان كان لي منكم كتاب لثمته واقررته من بعد ذاك على كبدي

•

سافرتم للبرء مما نالكم فمتى يكون بقربكم ابرائي
يا منكراً لحقيقة الغول اعتقد ان النوى هي في الحقيقة غول

•

وهكذا ينتهي الكتاب الرابع ويليه ما سماه المؤلف : « ذنب الكتاب » حيث ينتقد الشدياق في ٢١ صفحة « اغلاط الرؤوس العظام الاساتيذ الكرام مدرسي اللغات العربية في مدارس باريس »

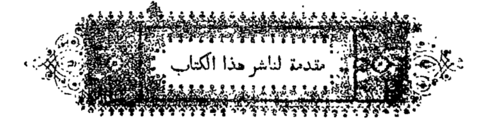
مقدمة الناشر

ان من غـــايات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر ان تبقى مجلية في كل مضمار يرتبط بالكتاب ، مهما اختلف نوعه ومنحاه ، شرط ان يكون ذا قيمة انسانية يسهم في البناء الثقافي العربي المعاصر . وقد الف القراء مفاجآت هذه المؤسسة النشيطة بكتب التراث العربي الضخمة أمثال « **الأغاني** » لأبي الفرج الأصبهـاني و « **محاضرات الادباء** » لابي القاسم حسين محمــد الراغب الأصبهاني و « مجمـع الامثال » للميداني و« عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن ابي أصيبعة،وأخيراً الموسوعة التاريخية الادبية الضخمة «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد . كما نشرت « معجم متن اللغة » للشيخ احمد رضـا في خمسة مجلدات . و « الضوء اللامع » للسخاوي و« الحلل السندسية » للأمير شكيب ارسلان مع عشرات الكتب المماثلة في الادب والفكر والتاريخ ، يقابلها ثروة من الترجمات العالمية لمفكرين أمثال : اشبنغلر ووايتهد وبرتراندراسل وجان بول سارتر وكامو وجون ديوي وكثيرين غيرهم في حقول مختلفة من اقتصاد وعلم وسياسة وفلسفة وفن الخ .. وغاياتها من هذا النشاط الرصين هي اغناء المكتبة العربية وتهيئة الجوار فيها للكتب العالمية ، الآمنة الجوار .

وهي اذ تقدم كتاب « **الساق على الساق** » في حلته هذه فانمــا تعتبره حلقة من سلسلة أعمال ضخمة تواصل بها رسالتها أمام تراث الحضارة العربية ولخدمة ثقافة العرب .

— دار مكتبة الحياة — بيروت

١٩٦٦



الطبعة الأولى — باريس ١٨٥٥

الحمد لله تعالى على ما اسبغ من نعمه علينا ووالى وبعد فيقول العبد الفقير الى رحمة ربه الحافظ الموقّي رافائيل كحلا الدمشقي انى لما طالعت هذا الكتاب المسمى بالساق على الساق رايته قد اشتمل على فوائد جزيلة من سرد الفاظ كثيرة من المترادف والمتجانس باسلوب رائق معجب وتمهيد شائق مطرب وخصوصا لاشتماله على اخص ما يلزم معرفته من الآلات والادوات واستيفائه لجميع اصناف الماكول والمشروب والمشموم والملبوس والمفروش والمركوب والحلى والجواهر مما لم يوجد في كتاب غيره على هذا النمط وما أُغفل من تلك الاشياء في بابه وهو قليل فقد ذكره المولف في الجدول المبيّن للالفاظ المترادفة وقد رأيت من محاسن هذا الكتاب ايضا انه اشتمل على نثر ونظم وخطب ومقامات وملاحظات حكمية وانتقادات فلسفية ومطارحات وكنايات وتوريبات وتوريات ومحاورات وعبارات مضحكة كيلا يملّ القارئ من مطالعته المرة بعد المرة * فمن ملح تلك المحاورات ما ذكر في الفصل

التاسع من الكتاب الاول وفي الفصل الثامن عشر والعشرين من الكتاب الثالث وفي الفصل الثاني من الكتاب الرابع وفي الفصل السادس منه وفي الفصل العاشر وفي غيره ومن الكنايات ما ذكر في الفصل الثامن عشر من الكتاب الاول وفي الفصل العشرين وفي خطبة الكتاب الثاني وفي الفصل الخامس منه وفي مواضع اخرى كثيرة فاما التوريات فانها لا تكاد تحصى كثرة فالمرجو من مطالعه ان يتصفحه بروية واعمال نظر ليتبين خفي ما اودع في فصوله المفصلة من النكات والمحاسن * ومن محاسنه ايضا انه اذا ذكر شيا استوفى كل ما امكن ان يقال فيه وراعى النظير له من جميع طرقه وبالجملة فاني اتجاسر على ان اقول ان المولف قد فتح باب هذا الاسلوب الغريب في التاليف ثم ما لبث ان قفله فلا يمكن تحديه من بعده لان الكتاب انطوى على اشهر ما يروم القارئ معرفته من غرائب اللغة * هذا ولما رايت ما فيه من جمّ الفوائد الادبية والنوادر اللغوية وثبت لديّ انه يكون مقبولا لدى اهل العلم والذوق الصحيح استخرت الله في طبعه واشتهاره ليعمّ نفعه ويسهل تحصيله فاما ما يظهر منه في بادى الامر من الاساآة في حق اشخاص صرّح المولف باسمآئهم فقد كنت اود لو ان هذه الاسمآ لم تكن شيا مذكورا الا انه اشترط عليّ قبل الشروع في الطبع ان لا انقص منه شيا كما انه اشترط ذلك ايضًا على جميع للقاوئين واليه اشار في الفاتحة بقوله او توتناي استعماله

محذوفا . فرايت ان قليل اللوم الذي ينشا عن اثبات تلك الاسماء
بالنسبة الى كثرة الفوائد التي تتحصل منه غير مانع من اشتهاره
وقبوله فدونكه ايها المطالع تحفة مبتكرة لم يسبق اليها وحدية نفيسة
يجب الحرص عليها فامعن عند تلاوتها النظر وادم عليها الفكر لتبرز لك
محجّبات معانيها وتنجلي عليك مُحْجِبات مبانيها ولا تعاملها معاملة ما
سواها مما قد اشتهر فانها بِذْعٍ عزّ عن ان ينظّر . ثم انّا نعتذر اليك عن
بعض غلطات وقعت في الطبع غالبها مقصور على شكل الفاظ غير مشهورة
على انها قليلة جدًّا ولا توجد في جميع النسخ المطبوعة فانّا تداركنا بعضها
بالاصلاح وقلّ ان يوجد كتاب في غريب اللغة خاليا من ذلك. فالمامول
من كرمك ان تقابلها على جدول التصحيح وتصلحها بالقلم والمولف
معترف بالقصور والاعتراف يمحو الاقتراف وليس الكامل الّا الله وحده ومنه
نستمد المغفرة والمعونة .

هذا الكتاب

« انت في ضحك اذا شئت ، وفي لهو اذا
ملّلت الجد » الجاحظ
٧٧٥–٨٦٨ م.

القى الشدياق في «الساق على الساق» كل ما في نفسه من جد وهزل، ومرارة ولهو ، ورقة وغلاظة ، وفكاهة وادب وتحليل عميق ومجون وفحش . وقد خلط بين الغث والسمين في ايجاز لم يخل احيـاناً من خلل ، واطالة واطناب جاوزا مواطن الملل .

ومع ذلك فقد جاء كتابه مؤنساً مغرياً ، دقيقـاً في الوصف وفي رسم لوحات ادبية واجتماعية وسياسية وعقائدية للحياة اليومية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، بين لبنان ومصر ومالطـة ولندن وباريس وتونس والاستانة .

●

لا نخال كاتباً جدّد عهد الجاحظ (القرن ٩) وابي حيان التوحيدي (القرن ١٠) كما فعل الشدياق (في القرن ١٩) مع ما هناك من الفوارق بين العهود ، وما تناوله الشدياق من الموضوعات المتصلة باسفاره في بلاد الحضارة الغربيـة الجديدة بحيث «بذر لغتنا الفصحى في كل الاقطار ، حتى بين اتراك الاستانة، ثم في العالم كله في «جوائبه» كما يقول مارون عبود (في القرن ٢٠) وهو أقرب الناس مادّة الى سلفه الشدياق. وفوق ذلك فان الشدياق في كتابه «الساق على

الساق» و«كشف المخبّا في تاريخ اوربا» قد اخرج العقل العربي، لا من دياميس الهمذاني والحريري وكهوف القاضي الفاضل (القرنان ١١ و ١٢) فحسب، بل من كافة الشوائب التي لحقت بالادب العربي بعد ذلك .

●

يعاب على الشدياق(١) استرساله في حشر المترادفات والغريب من الالفاظ، و(٢) استعماله التعابير الحوشية المنفّرة . ولكنّ لهذه الشوائب ظروفاً مخففة لا يسع الناقد العادل الا اخذها بعين الاعتبار .

الاولى ناشئة عن اضطراره الى مجاراة من سبقه من الكتّاب والشعراء والى تقليد اساليبهم ليتفوق عليهم في حلبة ميدانهم ، وهو الواسع الاطلاع ، الواقف على اسرار اللغة وقوفاً قلّما بلغه عالم في عصره. اضف الى هذا ميله الى اثبات مقدرته اللغوية لتبرير نقده واسناد ثورته الى اسس عميقة . ان هذا ليذكرنا بسقراط الفيلسوف الاعظم الذي قلّد اسلوب السوفسطائيين ليجعل نقده اوقع في النفوس واقرب الى الاصلاح .

اما ظروفه الثانية فهي النتيجة الحتمية لما اودعت مصائب ذويه ومصائبه في قلبه من المرارة؛ ولما قاسى من استبداد السلطتين المدنية والدينية، ولاشمئزازه من الرياء الاجتماعي ، والرغبة في كسر نطاق التقاليد التي أحاطت بالأدباء وسجنتهم مع ذوي الجاه من ممدوحيهم ضمن اسوار الوقار المصطنع واستار الفساد والظلم. وقد أراد التحرر من القيود اللفظية والزخارف البديعية ليغوص في تصوير الدقائق ، فجاء ابتذاله عنيفاً عنف رد الفعل الذي يطلق النفس المكبوتة الى ابعد من المدى اللائق ، شأن كل ردّ فعل وتجاوزه حدود المقابلة العادلة .

●

ازاء كل ما تقدم كان علينا ان نختار في هذا النشر بين أمرين :

١ – فأما ان نستبعد الحوشي والمترادف والعرض اللغوي الطويل ، او :

٢ ــ ندع النص الحرفي للكتاب كما هو .

هناك اساتذة منجامعاتنا اوردوا في كراريس محاضراتهم بعض مقتطفات من كتاب «الساق على الساق» بعد ان افرجت وزارة التربيــة عن الشدياق كما طالب مارون عبود حيث قال :

« ان الطائفيين اصحاب النفوذ السري الخبيث حـــالوا دون ذكر اسم الشدياق في منهاج الدراسات ، وان لبنان ما زال اشبه شيء بالقطيع لعـدة رعيان ، وكل راع ينتجع غيثاً» .

لذلك اراد اصحاب دار مكتبة الحياة ان يضعوا امام القراء النص الحرفي لهذا الكتاب الذي جاء فاصلاً بين عهدين من تاريخ الادب العربي ، وكان فاتحة لعصر جديد من تحرر وانطلاق ، ما زلنا اليها سائرين .

●

اعتمدنا في هذا النشر نسخة باريس المطبوعــة في سنة ١٨٥٥ كما ترى في الرسوم المأخوذة بالزنكوغراف .

اعيد نشر «الساق على الساق» في مصر مرتين، ولدينا نسخة من كلطبعة، احداهما نسخة مكتبة العرب لصاحبها يوسف توما البستاني وقد طبعت بمطبعة رعمسيس بالفجالة فيشهر مايو (ايار) منالسنة ١٩١٩ ، والثانية طبعتها المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي لصاحبها مصطفى محمد ، بمطبعة الفنون الوطنية بشارع كوبري قصر النيل وهي لا تحمل مقدمة للناشر ولا تاريخاً . ولكنها في الواقع منقولة عن طبعة البستاني لأنهـا تنقل اخطاءها المطبعية .

في الطبعتين المصريتيناهمل الناشران مقدمة الناشر في باريس وهو الاستاذ رافائيل كحلا الدمشقي ، مع ما في كلمته من طرافة وشمول وشبه اعتذار، خاصة عندما يقول : «رأيت ان قليل اللوم .. بالنسبة الى كـثرة الفوائد .. غير مانع من اشتهار .. تحفة مبتكرة لم يسبق اليها ..»وقد اثبتنا هذه الكلمة

نقلاً عن نسخة باريس المطبوعة في سنة ١٨٥٥ ونشرناها بالزنكوغراف امعاناً في الاحتفاظ بلونها المحلي والزمني .

من تاريخ اسرة المؤلف

الفارياق اسم منحوت من كلمتي «فارس» و«الشدياق» بأخـذ «فار» من فارس و«ياق» من الشدياق ، وقد جعله المؤلف اسماً لبطل كتابه «الساق على الساق» وكان في ذلك اكثر توفيقاً من اختيار فرنسوا ماري اروية لاسم فولتير او اورور دوبان بارونة دوديفان لاسم جورج ساند معاصرة الفارياق .

وفارس هو : ابن يوسف ابن منصور (ابن اخ الشدياق بطرس العشقوتي)

يقول شقيقه طنوس ، الابن البكر ليوسف الشدياق في كتابه « اخبار الاعيان في جبل لبنان» المطبوع سنة ١٨٥٩ ان بني الشدياق حلوا في عشقوت سنة ١٦٥٠ وان «الشيخ ابا شيبان الخازن دعا اليه الشدياق بطرس في سنة ١٧١٥ وسلمه محاسبة الاموال الاميرية في ولايته وجعله دهقانا على عقاراته لامانته ودرايته وبراعته في الحساب . وسنة ١٧٢٣ توجه الشيخ نمر ابو شيبان الخازن الى دير القمر ومعه الشدياق بطرس فطلبه الامير حيدر الشهابي الوالي من الشيخ ابي شيبان ، لما بلغه من براعته في الحسابات ، واقامه رئيساً على كتبته واحبه لأجل صدق خدمته وجعله مدبراً له. وفي سنة ١٧٣٠ لما تولى الامير ملحم بعد والده ابقى الشدياق مدبراً له حسب عادته عند والده. وسنة ١٧٣٧ طلب الامير ملحم من الشدياق ان يقرضه قليلاً من المال فاعتذر بأنه معسر . وفي غضون ذلك اشترت زوجة الشدياق بستاناً من ثمن مصاغها فقال احد حساده للامير ها ان الشدياق اشترى بستاناً [ودفع ثمنه بعد طلبك منه القرض فكيف يعتذر ويدعي الاعسار . فغضب الامير عليه مصدقاً كلام الوشاة ومن غير ان يسأله عن الكيفية وضعه في محرس منفرداً فاغتاظ الشدياق من ذلك جداً حتى انه ذات يوم وهو في الكنيف ضرب بطنه بسكين فخرقه فاغمي عليه . فلما ابطأ كشفه الحارس فوجده مطروحاً على الارض

فمضى مسرعاً فأخبر الامير فأمر ان يحضروا له طبيباً فحضر فعالجه فلم يشف بل توفي وله ولدان ظاهر وخطار. واذ لم يتأكد براءته قبض على **ولديه ظاهر وخطار وابن اخيه منصور** وضبط مالهم وخيلهم وسلاحهم ثم أمر باطلاقهم وارجاع بعض عقاراتهم.ووهب داري الشدياق وابن اخيه منصور في عشقوت **للشيخ ابي صليبي مرعب الخازن** . فارتحل منصور الى حارة حدث بيروت ببعض اقاربه فتوطنوها ثم توطن ولدا الشدياق بيروت . » (ص ١٨٦)

ويواصل طنوس الشدياق الكلام عن تاريخ اسرته فيذكر **خدمة ظاهر عند الشيخ شاهين ابن محمد تلحوق** (وفي الساق على الساق يذكر فارس زيارته لابن عمه دون ذكر اسمه)وتعاطي اخيه خطار مهنة التدريس في بيروت الى ان يستأنف الحديث عن منصور الشدياق جده الذي ارتحل في سنة ١٧٤١ بأهله الى بلاد بعلبك فخدم **الأمير حيدر الحرفوش** الى سنة ١٧٤٣ حيث استأذنه وانتقل الى البقاع فاستأجر من **الامير منصور الشهابي** والي لبنان والبقاع الارض المسماة بالبكليك ، واذ اجدبت الارض رجع منصور بأقاربه الى حارة حدث بيروت ، وفي سنة ١٧٤٤ توفي خطار في العشرين من عمره ولم يعقب وكان معلم الخط لاولاد مدرسة الموارنة في بيروت .

« وفي سنة ١٧٥٤ اشترى منصور من الشيخ جهجاه حماده نصف جبل موسى في مقاطعة الفتوح باربعمائة غرش . وفي سنة ١٧٥٥ اقامه **الامير ملحم الشهابي** مدبراً لابن اخيه **الأمير قاسم عمر** وارسله معه الى اسلامبول ليلتمس له ولاية جبل الشوف وكسروان فاستاء الامير منصور وأمر بقطع اشجار مزرعة منصور في الحازمية .

« وفي سنة ١٧٧٠ خدم منصور **الاميرين افندي واخاه الامير سيد احمد** الشهابيين ، ثم **الأمير يوسف شهاب** وباع نصف جبل موسى واوقف النصف الآخر على دير مار يوسف الحصن في غوسطا ودير مار عبدا هرهريا في جديدة غزير وكان ذلك على اثر مقاضاة الشيخ ظاهر الدحداح وطعنه بصحة البيع وفوز منصور في المحاكمة . وفي سنة ١٧٨٥ فرّ الامير سيد احمد الشهابي من

وجه اخيه الأمير يوسف الى حوران ورافقه منصور فقطعت اشجاره في الحازمية بأمر الامير يوسف .

ويواصل طنوس الشدياق تاريخه :

« وفي سنة ١٨٠٥ استدعى الامير حسن عمر الشهابي يوسف لخدمته وامره بان يتوطن في كسروان فاشترى يوسف دار ابيه ودار الشدياق (بطرس) في عشقوت من بنت الشيخ صليبي الخازن[1] ووالدتها ورحل اليها .

«وسنة ١٨٠٨ لما توفي الامير حسن أمر أخوه الامير بشير ان يكون فارس واخوه يوسف في خدمته فجعلهما من خواصه . وسنة ١٨٠٩ رجع يوسف بأولاده من عشقوت الى بيته في حارة حدث بيروت . وسنة ١٨١٠ باع يوسف داره وعقاراتها في عشقوت وحارته في حارة الحدث وبنى له حارةً شرقي تلك الحارة . وسنة ١٨١١ ارسل الامير بشير احد مشايخ الدروز وفارس منصور بجماعة الى الجبل الاعلى ليأتيا بدروز ذلك الجبل الى جبل لبنان فتوجها واحضرا معهما اربعماية عائلة من اولئك الدروز فتوطنوا بين الدروز المختلطين بالنصارى . وسنة ١٨١٣ ارسل الامير بشير رجالاً لقصاص بني الشدياق الذين اتهموا بالتعصب لاقاربهم الذين ضربوا نفرين من خدمه ففرّ فارس بولده انطون الى الشويفات ملتجئاً إلى الست حبوس الارسلانية وفرّ يوسف وولداه طنوس ومنصور الى قنوبين ملتجئين الى البطريرك حنا الحلو ، وفر باقي اولاد فارس ويوسف الى بعض الامراء الشهابيين . ولما بلغ الامير فرارهم أمر أن تحرق منازل أقاربهم الذين ضربوا النفرين وجرحوهما فتوسطت الست حبوس والبطريرك حنا أمرهم فطيّب الامير قلبهم فرجعوا الى أوطانهم ورجع فارس واخوه يوسف الى خدمة الامير كما كانا . وتسلم فارس قرية شمسطار في بلاد بعلبك وبسكنتا وتسلم يوسف الشوير ثم زحله لجمع الاموال .

---

(١) وقد اوقفتا ارضاً في عشقوت تدعى « جورة الرام » لينفق من ريعها على تعليم الاولاد وهي ما زالت وقفاً يستغله من يعلم الاولاد في البلدة .(الرام : المكان الذي يجتمع فيه الماء . وفي الآرامية : العالي ، والتسميتان تنطبقان على البقعة في « رويسات عشقوت » .)

(ولا يذكر طنوس شيئاً عن أخيه فارس قبل سنة ١٨٢٥) .

« وفي سنة ١٨٢٥ سافر فارس الى مصر وخدم عند محمد علي في القلعة لاجل اعراب الوقائع اليومية لطبع البلاطة ثم لحقه يوسف وصار كاتباً عند أحد التجار . وسنة ١٨١٧ (الصواب ٢٧) سافر غالب الى مصر وخدم عند محمد علي في القلعة كاتباً بين الحسّاب وشرع فارس يدرس النحو والبيان عند احد علماء الازهر ويعلم النحو أولاد جرمانوس البحري الحمصي الملكي الكاثوليكي . وسنة ١٨٢٨ رجع غالب من مصر الى وطنه . وفيها سافر فارس الى مالطة وجعل يصلح عربية الكتب للطبع . وسنة ١٨٣٧ سافر يوسف من مصر الى كردفان في بلاد العبيد واقام هناك رئيس كتبة عند واليها ».

اعتراض فارس الشدياق على تاريخ اخيه طنوس

كتب فارس الى اخيه طنوس من لندن ينتقد الجزء الاول من « اخبار الاعيان في جبل لبنان » جاء فيه : انكرت فيه عدة اشياء لا بد من ان اذكرها لكم الآن ولو على سبيل الاختصار :

«اولاً — انكم استنكفتم ان تذكروا مناقب اخينا المرحوم اسعد وما كان عليه من الشهرة في الفضائل والعلم وغير ذلك مما لا يخفى على احد ولا عذر لكم في عدم ذكر ذلك بأن تقولوا انه ترك مذهب آبائه فان تغيير المذاهب لا يسلب الانسان محامده .

«ان جميع المؤرخين اذا ذكروا مثلاً فولتير وروسو وفولني يوم يكتبون اثنوا عليهم بما هم جديرون به . فلا بد اذن من ان تعقدوا فصلاً على حدة في آخر كتابكم وتذكروا فيه ما لم تذكروه في الجزء الاول مما يختص باخينا المرحوم وغيره ، بل انكم لم تذكروا سنه وحليته وصفاته كما ذكرتم صفات غيره مع انكم تقولون قلتم خلا تاريخنا من كل ميل . وهذا هو عين الميل .

«والثاني — انكم نسبتم الي شيئاً يخجلني عند الخاصة والعامة ، بقولكم انني كنت اعلم النحو اولاد جرمانوس البحري مع ان ذلك نقيض قولكم اني كنت

في خدمة محمد علي باشا . فمن ذا الذي اخبركم بهـــذا ؟ ولمَ لم تسألوني عن الواقع ؟ لعمر الله ان الحرة تموت ولا تأكل بثديها .

«والثالث) انكم قلتم اني اخذت في قراءة النحو والبيان عند احد علماء الأزهر ، وهو نقيض قولكم انني استخدمت لتعريب الوقائع . ولو قلتم اخذ علم الفنون العربية لكان اسد واخصر . فاما شيوخي فكثيرون . وقولكم لطبع البلاطة في غير محله فان الوقائع انما كانت تطبع بالحروف.ثم لم يذكروا سبب قدومي الى هذه البلاد وهو ترجمة التوراة . وذلك مما يحق لي ان افتخر به .

«والرابع انكم لم تصرفوا الهمة في تنقيح العبارات والالفاظ فقلتم : أهلها اسلام ونصارى ، وحقه مسلمون . وقلتم اعرض والصواب عرض . ومهــاب وحقه مهيب . ونضر وحقه نظر . واشياء كثيرة لا بد ان تعينوا لها محلا في آخر الكتاب لاصلاحها.»

تاريخ الرسالة في ٧ نيسان لسنة ١٨٥٦ وقد طبع كتاب اخبار الاعيان في سنة ١٨٥٩ ولم يصحح طنوس مــا طلب منه أخوه فارس تصحيحه . وقد يفسر لنا اهمال طنوس ما يتعلق بأسعد الشدياق ، ما جاء في مقدمة الكتاب حيث يذكر طنوس مراجعه ،ومنها كتيب صغير وضعه البطريرك بولس مسعد حين كان مطراناً عن « انساب المشايخ الخازنية والحبيشية » وكان مسعد اذ ذاك سكرتيراً للبطريرك الخازني بعد البطريرك الحبيشي الذي حدث في عهده اضطهاد اسعد .

وهناك ملاحظة يجدر بنا ذكرها وهي ان فارس لم يخاطب الاكليروس بجرأة الا بعد ان حل في مصر لا عند وجوده في لبنان ، وانـــه مع ذلك لم يذكر اسماء الحكام الذين انتقدهم في كتاب الساق على الساق ، ولا رجـال الدين الذين هزأ بهم ،اما اخوه طنوس فكان له عذره لوجوده تحت سلطة الحكام الدينيين والمدنيين ، والبطريركيـــة اذ ذاك تنتزع الحكم من الخازنيين وتفلح وتحتكر السلطة المدنية .

التربة

أبصر فارس الشدياق النور في عشقوت سنة ١٩٠٥

انتجت تربة عشقوت قطبين كانا على شاكلتهـــا : فهي سوداء قاتمة في الغابات ، حمراء باسمة في كروم العنب والبساتين ، تتخللها حجارة بيضاء تميل الى اللون البنفسجي الفاتح في الصخور الشهاء او رجام بركانية سوداء تسند جدران الكروم او تتبعثر في ارجائها كالشامات في وجه وردي جميل . ونشأ الصبي في حدث بيروت التي تسلمته من عشقوت .

البيئة الجغرافية

قلب عشقوت سهل فسيح بين ثلاثة جبال : جبـــل ينتهي في الشمال الى قمة صخرية جبارة كأنها رأس تكلله عمامة مدرجة يسميها السكان كرسي القطين، وجبل في الجنوب المقابل ينوء تحت عمائر، اعلاها كرسي المطران .. القمتان تتقابلان ، الاولى بشموخ الطبيعة الحرة السائدة منذ الازل ، والثانية بمحاولة السيطرة التي ينشدها رجال الاديان منذ ستة آلاف سنة ...

في طفولتي كنت ارى في كرسي القطين الدرجة الموصلة الى السماء ، فهي معلقة بـــين السماء والأرض ، وهي اعلى من كرسي المطران ، واقرب الى الانطلاق الجمالي ، وارحب مدى للخيال . وهي موطن النسور وممر الغرانيق المبشرة بقدوم الربيع عندما تأتي من الشرق ، والعائـــدة في الخريف ، في اسراب حزينة مودعة .

البيئة الانسانية

ابن خال احمد فارس الشدياق ، وابن بلدتنا ايضاً ، هو البطريرك بولس مسعد . وفي البلدة المارونية الكسروانية مـــا زالت نماذج من كل منها تظهر

جيلا بعد جيل : الكنائس السبع المنتشرة في البلدة لم تحل دون سير جنازة مدنية للمرة الاولى في تاريخ الطائفة المارونية ...

البطريرك كان يؤرخ على طريقة بوسويه والبيزنطيين ، وقد رأى ان اسم عشقوت من الكلمة السريانية عسقتو اي الصعبة والوعرة . امـــا المؤرخون المدنيون فقد قارنوا بين اسطورة الربة العاشقة اليونانية افروديت ولقائها مع عشيقها في غابات عشقوت الظليلة التي تحمل الى الآن اسم الضليلات ... ربتنا الفينيقية عشتروت لم تعشق سوى تموز الذي يحمل عند جدودنا لقب ادون بمعنى السيد ، وبكت على موته حتى صبغت مياه نهر ابراهيم بـــلون الدم . هذه الربة الفينيقية الوفية العفيفة ضمها اليونانيون الى دينهم كزميلة لربتهم افروديت المتبذلة العمومية ، وسموا ادون ادونيس، ولم «تكن هذه اقل سرقاتهم» كما قال هيرودوتس .

مولد فارس الشدياق في تسلسل التاريخ

في سهل عشقوت الممتد بين ثلاثة جبال رابية تشرف على وادي «المسيلخ» المتصل باغوار البحور ، وفي اعلى التـــل صرح بني حوالي سنة ١٧١٥ اذ كان الشدياق بطرس محاسباً للشيخ ابي شيبان الياس الخازن ودهقاناً على عقاراته كما جاء في تاريخ طنوس الشدياق (الصفحة ٥٣ قبل) .

ابصر فـارس النور اذ كان والداه في عشقوت ، والقرن التاسع عشر في الخامسة من سنيه ، والاحوال في لبنان في تقلب واضطراب تناولا اسرته . وفي التاريخ نجد ان مثل هذا الجو يثير اصحاب العقول الراجحة والامزجة الرقيقة ويفتق اذان العباقرة من مؤسسي الاديان والفلاسفة ورواد الفكر .

في سنة ١٨٠٥ تبوأ محمد علي مركز القيـادة في مصر الرازحة تحت نير الاتراك والمماليك والفوضى والجهل ، وقد لاحظ محمد علي (١٧٦٩ – ١٨٤٩) كل ذلك ببصيرة ثاقبة فاهلك الزعامات وادخل مصر في رحاب العصر مستعيناً

بالفرنسيين الذين حاربهم قبل ذلك واجلاهم ولكنه قدر فيهم ميزات الفكر الحديث. وقبل محمد علي كان الشيخ عبد الرحمن بن حسن الحبشي الاصل والمكنى بالجبرتي نسبة الى رواق الجبرتية في الازهر ، وهو المؤرخ المفكر ، كان الجبرتي (١٧٥٤ — ١٨٢٢) يرسم في تاريخه « عجائب الآثار في التراجم والاخبار» لوحات حية من الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر ويعترف بمزايا الحضارة الفرنسية في مجالات العلم والسياسة والقضاء .

ومثل محمد علي والجبرتي ادرك نابليون خلال الثورة الفرنسية وما تبعها من الفوضى وتضارب الآراء وتلاطم القوى ، ادرك كنه العلل التي تشكو منها امته فسن القانون الذي نقلته عن فرنسا امم كثيرة فيما بعد ، وضم الزعامة الدينية تحت لواء الدولة ، واسس الامبراطورية في سنة ١٨٠٤ - وفي سنة ١٨٠٥ عينها انتصر على القوى الرجعية والمناوئة في روسيا والنمسا .

بين عشقوت والحدث

حلت اسرة فارس الشدياق في حارة حدث بيروت. وآل الشدياق في حدث بيروت ثلاثة بيوت الآن : بيت فارس ابي كنعان ، وبيت يوسف ابي حسين ومنه فارس ، وبيت سليمان ابي مروة .

يوسف منصور ابي حسين هو والد فارس . اما ابو حسين فكنية اتت من التشبه بيوسف الحسن ، او الحسين تحبباً . وقد تزوج يوسف من بنت زيادة مسعد من عشقوت، وكان لزيادة مسعد ثلاث بنات تزوجت الاولى منهن مخايل المعروف بابي منصور اده ، والثانية واسمها باديسة تزوجت ديب الحاج من عشقوت ، والثالثة تزوجت عباس ابا حيدر من عشقوت ثم ترملت فتزوجت يوسف ابا حسين وهو ابن منصور ابن أخ الشدياق بطرس .

فارس الشدياق لم يكن رومانتياً

فارس الشدياق لم يكن رومانتياً .

وفي رأينا ان طفولته القلقة في المحيط السياسي الذي اكتنف اسرته ، المتنقلة بين الجبال والساحل قبل ان تتسنى لها انطباعات عميقة تستدعي المكوث الطويل وخلوّ البال وتحليق الخيال ، كل هذا قد زجّ الفكر الصبياني البريء الساذج في تساؤل وحيرة خرج منهما الطفل الى الحداثة والشباب بتأثيرات اجتماعية مريرة شغلت ذهنه طوال سني حياته .

ففي البيئات الانسانية التي تنقّل في ارجائها الواسعة بين القارات الثلاث، لم يبحث فارس الشدياق عن الوسط الجغرافي ، ولا عن الاختلافات المناخية التي تؤثر على السكان وعلى المتنقلين ، بل هو تعمق في الدراسات السياسية والاجتماعية والثقافية التي عانى منها ما عانى في وطنه فوصف كل شعب حل في كنفه ، لا سيما الشعوب التي خالط افرادها وجماعتها في مصر ومالطة وانكلترا وفرنسا وتونس والقسطنطينية ، وقارن بين تلك الشعوب وقومه في لبنان والشرق .

الشدياق الانسيكلوبيدي

لم يصف الشدياق مدرسة القرية ، ولم يذكر عن المعلم سوى حرصه على ستر جهله فقال : « اشار المعلم على والد الفارياق ان يخرجه من المدرسة وأن ينسخ الكتب في البيت لأنه أوجس منه ان يربكه في مسائل تصعب عليه فينفضح بها » . اما كتاب الزبور (المزامير) فقد جال في موضوع ركاكته وغموضه وكرر جولاته وصولاته مراراً فيما يلي من كتاب الفارياق كما سنرى . ذلك لأن الشدياق لم يكن رومانتياً بل ناقداً اجتماعياً ولغوياً وعقائدياً .

كان الشدياق معاصراً للرومانتيين (ولد فارس بعد ٣٤ سنة من تاريخ انتحار الشاعر الانكليزي الرقيق شاترتون في الثامنة عشرة - وفي سنة وفاة

شيللر – وبعد ١٤ سنة من مولد لامارتين فعاصره واتصل به كا سنرى – وسنتين من مولد هوغو – و٦٤ سنة من مولد شاتوبريان وعاصره ٤٤ سنة واتصل به مراراً– وعاصر غويته زعيم الادب والشعر الالماني طوال ٢٨ سنة، –وغويته كما نعرفه عبّر عن كل نزعات البشر ولم يخضع لمدرسة من مدارس الفلسفة واللاهوت والآداب– كما عاصر اللورد بايرون طوال ٢٠سنة– وبايرون ثائر في كبرياء على التقاليد والاوهام–وعاصر ارنست رينان (١٨٢٣–١٨٩٢) الناقد الديني طوال ٦٤ سنة .

الروح الموسوعية (انسيكلوبيديك) التي سادت القرن الثامن عشر ، ظلت جاثمة في الاثير الى ان تلقح بها فارس الشدياق ، وكأن قول الفيلسوف ابن رشد-مصداق لمذهب القائلين بمادية الروح واثيريتها، وحلول الروح الانسيكلوبيدية، روح فولتير وديدرو ، على فارس الشدياق .

لم يتأثر الشدياق بروح جان جاك روسو النازعة الى الرومانتية ، ولذا فهو لم يستعض عن كتاب الزبور الركيك بكتاب الطبيعة السمحة ، ذاك الكتاب الذي نشرته الطبيعة منذ الازل ، مفتوحاً بين البحر البعيد والجبلين في « عشقوت » ومنبسطاً بين السفوح والبحر القريب ، في« الحدث».

فولتير وديدرو والشدياق

بين فولتير(١٦٩٤–١٧٧٨)وديدرو (١٧١٣–١٧٨٤) والشدياق (١٨٠٥–١٨٨٧) اوجه شبه لا تحصى بالرغم مما يبدو في حياة كل منهم من اوجه الاختلاف والتناقض مع الاثنين الآخرين المتأثرين بالبيئة الاجتماعية والوسط الطبيعي المختلفين .

ابصر فولتير النور في عاصمة النور، باريس . اما الشدياق ، وقبله ديدرو، فقد ولد كل منهما في قرية . الشدياق لم يذكر عن قريته سوى قريب له كان له تأثير في حياته ، وهو البطريرك بولس مسعد .

اما ديدرو فيقول عن اهل بلدته (لانكر) وعن بلدته التي تشابه عشقوت:
« اهل البلد اذكياء سريعو التحوّل كجهاز اتجاه الريـــح ولا اخال ذلك الا من تأثير التقلبات الجوية حيث تتناوب خلال ٢٤ ساعـــة احوال الصقيع والحرّ .. »

تعلم كل من فولتير وديدرو في مدارس الآباء اليسوعيين وهم نخبة فريدة مارست التدريس ١٦٠ سنة قبـل ان يولد فولتير . اما الشدياق فقد اقتصر برنامج دراسته على كتاب ركيك التركيب غامض المعاني ومحظور عليه فهمه كما يقول فكان بذلك اقل علماً من صبي بابلي مثل دانيال ومن صبي فينيقي مثل ايلملك الذي تعلم في مدينة «اوغاريت» الكنعانية قبل ٣٨٠٠ سنة ودوّن الملاحم الاوغاريتية (انظر كتابنا « اوغاريت »)

عصر الشدياق : احتضار العربية وفتوة الفرنسية

ظهرت اللغة الفرنسية في القرن الثاني عشر كما يبدأ كلام الطفل ، ولكنها ثبتت وبلغت اوج عزها في القرن السابع عشر ، ثم امتدت الى العلوم والفلسفة في القرن الثامن عشر ، وهو العصر الذي ينتمي اليه فارس الشدياق بالروح . اما من حيث الزمان فعصر الشدياق عصر امتداد العلم الفرنسي الى دراسة اللغات الشرقية والى النقد الديني. وقد عاصر رينان كما رأينا ، كما عاصر الرومانتيين الذين ذكرنا .

كانت اللغة الفرنسية اذن في حيويتها الشاملة بينما لغة العرب في آخر عمر امتد ١٣٠٠ سنة (انظر كتابنا L'épopée de la langue arabe)

من هنا جاء اضطرار فارس الشدياق على تحميل «الساق على الساق» اعباء الاصلاح اللغوي في ثورته على الجهل والتعصب والاستبداد . اكتملت الانسيكلوبيديا الفرنسية قبل ٣٢ سنة من مولد فارس الشدياق حاوية جميع العلوم التي توصل اليها الانسان بينما كان على الشدياق ان يبحث في معاجم العرب لنقدها واصلاح بعض اخطائها اللغوية وسد نواقصها .

الايمان واللادينية

اعتقد فولتير بوجود خالق لا سبيل لمعرفة شيء عن صفاته ، وانتقال الشدياق بين المذاهب والاديان دليل عملي وحسي على هذا الاعتقاد الفولتيري. اما ديدرو فلا يعتقد بوجود الله كما ان رينان لا يؤمن بالمذهب الكاثوليكي. ورينان خلع الثوب الاكليريكي بعد دراساته التاريخية واللغوية .

درس رينان النصوص الدينية في مراجعها الاصلية الآرامية والعبرية والاغريقية ولمس اخطاء الترجمات او محاولات المترجمين في التمويه والتعديل لنصوص التوراة . وكانت نتيجة ذلك انه في كلامه عن الآثار الاغريقية التي زارها قال ان السيد المسيح الذي تكلم بالارامية ، وهي لغة اطفال بالنسبة للغة الاغريق ، قد فاق في تعابيره كلما جاء على ألسنة اعظم بلغاء اليونانيين واسمى ما نطق به انسان .. بعد ذلك انقطع رينان الى الدراسات العلمية على اساس عقلاني وانحصرت عقيدته بالعلوم .

اما فارس الشدياق ، أو احمد فارس كما تسمى بعد ذلك ، فقد ترجم التوراة منذ سنة ١٨٥٧ للجنة انكليزية كما ترى في هذا الكتاب الذي بين يديك، وجاءت الترجمة - كما يقول المطران يوسف الدبس - « ادق ترجمة عربية للكتاب المقدس » وقد يكون اسلوبها هو السبب في اهمالها كما ذكر الشدياق . والى الآن لم يبرز النص الحرفي لكتاب التوراة في لغة من اللغات . وقد وضحنا ذلك في كتابنا « اوغاريت » .

تنبيه من المؤلف

الحمد لله الموفق الى السداد والملهم الى الرشاد . وبعد فان جميع ما اودعته في هذا الكتاب فانما هو مبنيّ على امرين احدهما ابراز غرائب اللغة ونوادرها فيندرج تحت جنس الغريب نوع المترادف والمتجانس وقد ضمنت منها هنا أشهر ما تلزم معرفته وأهم ما تمس الحاجة اليه عن نمط بديع ولو ذكر على اسلوب كتب اللغة مقتضباً على العلائق لجاء مملاً وقد راعيت سرده مرة على ترتيب حروف المعجم ومرّة نسقته بفقر مسجعة وعبارات مرصعة . ومن ذلك القلب والابدال كما في التورور والثورور والتوثور والترتور وتمطى وتمتى وتمطط وتمدد . ومنه ايراد الفاظ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى من حرف واحد من حروف المعجم نحو الغطش والغمش والبهز والبحز والبغز والحفز تنبيهاً على ان كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره وهو من أسراراللغة العربية التي قلّ من تنبه لها . وقد وضعت لهذا كتاباً مخصوصاً سميته منتهى العجب في خصائص لغة العرب . فمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط نحو الابتحاح والبداح والبراح والابطح والابلنداح والجح والرحرح والمرتدح والروح والتركح والتسطيح والمسفوح والمسمح في قولهم ان فيه لمسمحاً اي متسعاً والساحة والانسياح والشدحة والشرح والصفيحة والصلدح والاصلنطاح والمصلفح والطح والمفرطح والفشح والفطح والفلطحة الى آخر الباب . ويلحق به الفاظ كثيرة خفية الاتصال لا تدرك الا بامعان النظر نحو الاسجاح والتسريح والسماحة والسنح . ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة

والغضاضة نحو البراخدة والتيد والثأد والثمد والمثمعد والمثمغدوالثوهد والثهمد والخبنداة والخود والرادة والرخودة والرهادة والعبرد والفرهد والامـلود والفلهود والقرهد والقشدة والمأد والمرد والمغد والملد الى آخر الباب . ويلحق به من الامور المعنوية الرغد والسرهدة والجد وغير ذلك . وربما عادلوا في بعض الحروف أي راعوا فيها الاكثار من النقيض فان حرف الدال يشتمل ايضاً على الفاظ كثيرة تدل على الصلابة والقوة والشدة . وذلك نحـو التأدد والتأكيد والتأبيد والجلعد والجلمد والجمد والحديد والسحدد والسخدود والسمهد والتشدد والصفد والصلد والصلخد والصمغد والعجرد والتعجلد والعرد والعربد والعرقدة والعصلد والعطود والعطرد والعلد الى آخره . ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسرنحو أرم وأزم وثرم وثلم وجذم وجرم وجزم وجلم وحذم وحزلم وحسم وحطم وحلقم وخـذم وخرم وخزم وخضم الى آخر الباب . ويلحق به من الامور المعنوية حمّ الامر اي قضي وحرم وحتم وحزم فان معنى القطع ملحوظ فيها . ويكاثر في هذا الحرف ايضـاً معنى الظلام والسواد . ومن خصائص حرف الهاء الحمق والغفلة والرثء أي قـلة الفطنة نحو أله وأمه وبله والبوهة وتفه والتـوه والدله والسبه وشده لغة في دهش او مقلوب منه وعته وعله وغمه ونمه ووره . وقس على ذلـك سائر الحروف . ومن هذا الغريب ايضـاً كون بعض الصيغ يختص بمعنى من المعاني نحو اجرهدّ واسمهرّ وكل ذلك مشار اليه في هذا الكتاب فينبغي التفطن له.

وقد طالعت كتاب المزهر في اللغة للامام السيوطي رحمه الله مما ذكر فيه خصائص اللغة نقلاً عن الامام اللغوي ابن فارس فلم اجده تعرّض لهذا النوع بل ربما أورد من الخصائص أحياناً ما لاينبغي إيراده كجعله مثلاً اطلاق لفظة الحمار على البليد منها . ومن ذلك الغريب النوادر من الالفاظ وذلك نحو قولي اكهى في صفة الرجل المتقرقف من البرد قال في القاموس اكهى سخن اطراف اصابعه بنفس . ونحـو العنقاش للذي يطوف في القرى يبيع الاشيـاء . والضوطار وهو من يدخل السوق بلا رأس مال فيحتال للكسب والذنابةأي بقية الدين . وثرمل يقال ثرمل الطعام لم يحسن اكله فانتثر على لحيته وفمه ،

ويتكظكظ وهو ان ينتصب الانسان عند الاكل قاعداً كلما امتلأ بطنـــه . ونحو الجلهزة والتلحذ والوزم والارغال وغير ذلك مما فسر بعضه وترك الباقي فراراً من تكبير جرم الكتاب . والامر الثاني ذكر محامـد النساء ومذامهن فمن هذه المحامد ترقي المرأة في الدراية والمعارف بحسب اختلاف الاحـــوال عليها كما يظهر مما أثرت عن الفارياقية . فانها بعد ان كانت لاتفرق بين الامرد والحلوق اللحية وبين البحر الملح وبحرالنيل تدرّجت في المعارف بحيث صارت تجادل أهل النظر والخبرة وتنتقد الامورالسياسية والاحوال المعاشية والمعادية في البلاد التي رأتها أحسن انتقاد . فان قيل انه قد نقل عنها الفـــاظ غريبة غير مشهورة لا في التخاطب ولا في الكتب فـلا يمكن ان تكون قد نطقت بها . قلت إن النقل لا يلزم هنا ان يكون بحروفه وانمـا المدار على المعنى . ومن تلك المحامد ايضاً حركات النساء الشائقة وضروب محاسنهن المتنوّعة التي لم يتصوّر منها شيء الا وذكرته في هذا الكتاب لا بل قـــد اودعته ايضاً معظم خواطرهن وافكارهن وكل ما اختص بهن .

فاتحة الكتاب

هذا كتابي للظريف ظريفـــا   طَلِقَ اللسان وللسخيف سخيفا
أودعتـُه كلِماً وألفاظـاً حلت   وحشوته نقطـاً زهت وحروفا
وبداهةً وفكاهة ونزاهـــة   وخلاعـــة وقناعة وعُزوفـا
كالجسم فيــه غيرُ عضوٍ تعشق   المستور منه وتحمد المكشوفا
فصّلته لكن على عقلي فمـــا   مقياس عقلك كان لي معروفا
قعّرته بمحافر الافكار كي   يسع الكلام وسمته تجويفـا
لفـّقته وخصفته بيدي فقل   نِعمَ الكتابُ ملفقـاً مخصوفا
أفرغت فيــه كل حبرٍ راقـَه   وله بريت من اليراع ألوفـــا
وكأنمـا بيديّ قد نمقتـــه   حتى اتى مستحكماً مرصوفا
ألـّفته والليـل أسود حالك   فلذاك جاء مسخماً مسجوفـا
تبلته لك دون طاهي القوم بالرُّبـ   لات فهي تزيل منك خُلوفا
وتصخ ما بك من طُلاطلة ومن   ضرَسٍ فتلقم بعد ذاك الفوفا
يُغنيك عن مين الطبيب وسحله   ما من جراه تخازم الحتروفا
قد أنبتت غضراء ارض سطوره   روضاً وجنـّات تروق وريفا
فتشمّ منها عرف كل رجلة   دهساء يفتن حسنهـــا الغطريفا
وترى الملعظة الشناط يجنبها   والفارض القرطاس والسرعوفا
ووراءها وأمامهـــا مرمورة   وغرانق ما أن تزال انوفا
وإذا بدت لك من خلال حروفه   ردح وثائر فاخطبنّ رشوفـا

فاذا عجزت عن المؤونة واستقلـ ت وجدت في أعقابهن الهيفا
فاختر هداك الله ما تهوى ولا تتراخ عن ان تدرك الحرنوفا
غيري من الوصّاف في ذا صنفوا لكنهم لم يحسنوا التصنيفـا
إذ كان مـا قالوه مبتذلاً ولم ينقص منهم واصف موصوفا
لكن كتابي او انا بخـلاف ذا نكفي الحفي الحدّ والتعريفا
لا عيب فينا غير انك لا ترى صنواً لنا في فننا وحريفـا
فهو اليتيم المستحيل إخـاؤه وهو الفريد فكن عليه عطوفا
الفضل لي ولصاحب القاموس اذ من لجه قولي غدا مغروفـا
حبلت به راسي خلافـاً للنسا عاماً وكل العام كان خريفا
لكن تولـد في ٣ اشهر وحبا على عجل وشب لطيفـا
لم ادر هل رجلته او مخطتـه او بصقته او القتـه ثم كنيفا
عانيت فيه من الزحير اجازك الـ مولى عناء لا يُكال جزيفـا
وقطعت سرته على اهل الحجى وعلى اسمهم لا يـبرحن موقوفا
ما كان من ظئر له عندي سوى فكري ومع ذا خلته مسروفـا
قدمـاً عليه توحمت نفسي ولم يك شوقها عن نحوه مصروفـا
ورشحتُ لذّات قبيل نتاجـه حتى اذا باشرت عـدت نشوفا
اولدت لي ولدين لا لك ثم ذا لك ثالثاً لا لي فـَعْلُـهُ القوفـا
عهدي الى ولدي ان يتحدّيا اسلوبـه وبدفتيـه يطيفا
ليؤمناه من الحريق اذا احتمى احـد عليه لكونه حريفا
اني بريء منهما ان يعدلا عنه ويتخذا عليه حليفـا
من كان يرغب فيه فهو موفق أو لا فقد ضلّ السبيل وايفا
في الليل يسمع منه غطغطة يطيب نعاسه بدوامهـا وحجيفا
ولرُبّ نور ساطـع يغدو اذا قابلته يومـاً به مكسوفا
وكبير بطن ضاق عنه وفاتك ذي شِرّة عنه يخيم ضعيفـا
كالزئبـق الفرار ينظره ولا يسطيع يمسك من قفاه صوفـا
يهوي هويّ الريح في الوادي اذا مـا هيج ثم يسنم الشنعوفا

هو خير داحٍ للذي لم يرض من لعب الزمان ولهوه خذروفا
ان تتله يطربك حسن بُغامه او تُلغه يسمعك منه عزيفا
فيه ترى في البرد مشتى ثم ان ثارت خجوجاة السهام مصيفا
واذا ثقلت من الطعام وغيره تلقى به من ثقلة تخفيفا
واذا اتخذت حديقة فاغرس بها منه كليات تزدك قطوفا
تغنيك عن نصب الخيال بها فلو اضحى شظاظاً لصها لاخيفا
اني ضمنت لك الفدور فما ترى من بعده عزهاً ولا منجوفا
كلا ولا مستثقلاً نوماً ولا ارقاً ولا تشكو صدى وعجوفا
لا تقدمن على ركوب الصعب ان لم تتخذه صاحباً ورديفا
حتى اذا تُعتعت اصبح عاصماً لك ان تزل فتخطى الخرنوفا
اني لاعلم والسداد يدلني ان الجناب يرى الابيل مخيفا
فاخفه انت بكل حرف باتر قد خط فيه يكفّ عنك كفيفا
هو حصرم في طرف من يغتابه ما زال ان ذكر اسمه مطروفا
وهو الحديد القاطع الماضي الذي يبري العظام ويحسم الشرسوفا
ان شئت تلبسه على علاته فاهنأ به او لا فدعه نظيفا
ولقد اجزتك سفه أو لمقه او ان تخف قيئاً فخذه مدوفا
لكن حذار من الزيادة فيه او ان ترتأي استعماله محذوفا
اذ ليس فيه من محل قابل للحذف او لزيادة تثقيفا
لو كان يعشق جامد لجماله لغدا الورى طراً به مشغوفا
ولئن نزحت عن الانام فانه يمشي اليه حيث كان زحوفا
واذا تخاصم كاذبان فلحية الاشقى يغادر شعرها منتوفا
حتى كأنّ الشعر من لحييها قطن الحشايا ناعماً مندوفا
وحياة رأسك ان راسي عارف اني به لن استفيد رغيفا
كلا ولا اقطاً ولا حشفا ولا خزّاً على وتدي ولا كرسوفا
لكن بقرني حكة هاجت على اني اعالج مرة تأليفا
من كان يؤجر كي يؤلف خطبة فهو الخليق بان يعد عسيفا

ما راج من قولي فخذه وما تجد | من زائف فاتركه لي ملفوفا
لا بد ان تجد الصيارف مرة | بين الدراهم درهماً مزيوفا
ولربّ دينار يجر اليك من | تهوى بلحيته وليس مشوفا
لا يعلقن بزجاج عقلك ما ترى | فيه من الصدأ القديم كثيفا
من كان في بلد لطيفاً طبعه | يجد الغليظ من المحب لطيفا
لا ترفسن ما سرّ منه لاجل ما | قد ساء بل لا تولهِ تأفيفا
ان المصنف لا يكون مصنفاً | الا اذا جعل الكلام صنوفا
أوليس ان الضرب مثل الصنف في الـ | معنى وقرع عصا اليه اضيفا
حاشاك ان تقضي عليّ تهافتاً | من قبل ان تتحقق التوقيفا
فتقول قد كفر المؤلف فاحشدوا | يا قوم صاحبكم اتى تجديفا
فتهيج ارباب الكنائس هيجة | شؤمى فيخترطوا عليه سيوفا
بيني وبينك من صلات مودة | ما يقطع التفسيق والتسقيفا

لا تزبئرّ الى القتال ولا الى الشكوى ولا تك بيننا قذّيفا
ان كنتُ احساناً اتيت فدونك التحبيذ لي او لا فلا تقذيفا

لا تشتمن ابي ولا امي ولا | عرضي ولا تك لي بذاك أليفا
انمي على أنفي يناط مدللا | ما ان يصيب من العباد انوفا
ولربّ فسيق اللسان مباذىءٍ | يغدو وقد فسق العفيف عفيفا
ونزيه نفس ان يزر ذا زوجة | ويكون ان ضحكت له عتريفا
كلب الكواعب ليس يعدي غيره | ودواؤه كعب يليه منوفا
ماذا على مهدٍ الى اخوانه | شيئاً ألذّ من المدام طريفا
سهر الليالي محكماً تفصيله | وهم رقود يحكمون جحيفا
أرأيت ذا كرم يردّ هدية | ويسوم مهديها له تعنيفا
او ليس ان الدهر أصبح مازحاً | يهذي ويأتي المضحكات جنوفا
فاشتق من خرف الجنى خرفاً ومن | حصف تهي الاظفار منه حصيفا

دع عنك تعبيس الاسود وكن أُخاً لأبي الحصـــين مراوغاً يهفوفا
من اضحك السلطان صوت ردامه فهو الذي في الناس عدّ عريفـا
تمت بهذا البيت فاتحتي وقـد صيرتـه لبنائهـا تسقيفا
لا تقرأن من بعـده شيئاً ولو كلفت حرفاً واحـداً تـكليفا
فتكون قد ازلقت ثم تجاوزت بك رجلك اليسرى له تاريفا
اني ارى كالريـح في اذنيك عر فـنصيحتي راحت سدى وطليفا

*

الكتابُ الأوَّل

١

في إثارة رياح

مه صه اسكت اصمت انصت ابلَس اعقَم اسمع ائذن اِصخ اصغَ اعلم اني شرعت في تأليف كتيّبي هذا المشتمل على اربعة كتب في ليالي راهصة ضاغطة أحوجتني الى الجؤار قائماً وقاعداً حتى لم اجد لصُنبور افكاري ما يسدّه عن ان يتبعّق على ميزاب القلم في وجوه هذه الصحائف . فلما رأيت القلم مِطواعاً لأناملي والدواة مطواعاً للقلم قلت في نفسي لا بأس ان أقفو القوم الذين بيّضوا وجوههم بتسويد الطروس فان كانوا قد احسنوا فأنا أُعدّ ايضاً من المحسنين . وان كانوا قد أساءوا فلعل عدد كتبهم يحتاج الى تكملة فيكون كتابي على كل حال متّصفاً بالكمال . لأن ما كمل غيره كان جديراً بأن يكمل نفسه. فمن ثم لم اتوقف فيما قصدته ولم اتحاشَ ان اودعه من الالفاظ الشائقة الرائقة والمعاني الفائقة الآفقة كل ما خفّ على السمع ، ولذّ للطبع . مع علمي انه لا يكاد مؤلف يعجب الناس جميعاً .

وكأني بمتعنت يقول في نفسه او لغيره لو كان المؤلف أجهد قريحته في تأليف كتاب مفيد لاستحق ان يثنى عليه . لكني أراه قد اضاع وقته عبثاً بذكر ما لا ينبغي ذكره حيناً . وحيناً بذكر ما لا يجدي نفعاً . والجواب عن الاول : ومحترسٍ من مثله وهو حارسُ . وعاد الحيْس يحاس . وخذ من جِذْع ما أعطاك . وشحمتي في قلعي . واهتبل هَبلك . وعين الرضى عن كل عيب كليلة . وعن الثاني : اربع على ظَلعك . وارق على ظلعك . وارقأ على ظلعك . وقِ على ظلعك . وكأني بآخر يقول حديث خرافة يا أم عمرو . وجوابه وكم من عائب قولاً سليما . ثم كأني بجوقة عظيمة من الجلاذيّ والنهاميين والانهمة والوفقة والوفهة

والوهفة والابيلين والزرازرة والقهامسة وامامهم الجاثليق الاكبر وامام هـذا العسطوس الاعظم وهم يضجون ويعجون ويجأرون وينعرون ويلجبون ويصخبون ويزأطون ويلغطون ويتقـترون ويتوغرون ويتوعدون ويتهددون ويتذمرون ويتنكرون ويتنمرون ويتشذرون ويتشزرون ويتغذمرون وينحمون وينهمون ويلغمون . فأقول لهم مهلا مهلا انكم قضيتم عمركم كله في حرفة التأويل فما يضركم لو أوّلتم ما تنكرونه في كتابي من اول وهلة . وتمحلتم كما هو دأبكم لأن تجعلوا منه حسناً ما يظهر قبيحاً ومستظرفاً ما يلوح من خلال عبارته فاحشاً . فان أبا نواس قـد اوجب عليكم ذلك مذ مئين من السنين بقوله :

لا تحظر العفو ان كنت امرءاً ورعاً فإنّ حظركه بالدين ازراء

وبقوله :

كن كيفما شئت ان الله ذو كرم وما عليك اذا أذنبت من باسِ
إلا اثنتين فـلا تقربهما أبداً الشرك بالله والاضرار بالنـاس

فاما ان قلتم ان عبارته صريحة بحيث لا تقبل التأويل . فأقول لكم انكم بالأمس كنتم تخطأون وتحضرمون وتهرأون وتلحنون وتلكنون وتغلطون وتوهمون وتعفكون وتُلبكون وتلتكون وتلفتون وتعصدون وتخلطون وتخطلون وتهذون وتهذرون وتحصرون وتلخون وتلخلخون وتعجمون وتجعمون وتقدمون وتلفّون وتتبلتعون وتتلهيعون وتلغلغون وتلقلقون وتقلقلون وتترترون وتثرثرون وتحصرون وتفرفرون وتجمجمون وتمجمجون وتغمغمون وتمغمغون وتتعتعون وتتغتغون وتثعثعون وتثغثغون وتبعبعون وتبغبغون وتوتغون وتضغضغون وتعيون وتفههون فمتى جاءكم العلم حتى فهمتموها .

وان قلتم ان بعضها وهو السيىء مفهوم وبعضها غير مفهوم. قلت لعلّ ما لم تفهموه هو من الحسنات التي تذهب السيئـــات .فلا ينبغي لكم على أية حالة كانت ان تحرقوه . ولعمري لو لم يكن من شافع لقبوله واجرائه عند الادباء

وعندكم انــتم ايضاً مجرى كتب الادب سوى مرد ألفاظ كثيرة من المترادف لكفى . بــــل فيه من ذكر الجمال واهله ادام الله عزهن ما يوجب اعظامه وتقريظ مؤلفه حياً ثم تأبينه بعد مفارقته اياهن برغم أنفه .

على اني اعرف كثيراً من الوفهة الكرام المشهود لهم بالفضـــل بين الأنام لا يتحرّجون من قولهم شيء مجمج وشيء متدملـــك وشيء مفرّم وشيء أزَيب وشيء مهدف وشيء قازح وبَكبك . ومن ذكر الكَعثَب والكثعب والكثعم والجُلهوم والعركوك والاكثم والاخثم والخشيم والخزنبل والدعكنة والجدجد والنيزج والبوَص والنامــة والبلغص والقلدم والاكبس والضُّراطمي والعمارطيّ والحضر والهيدب والمحـــلوس والبوص والعِضرط والعضارطي والخيش والجشاء والبدّاء والفشوش واللطعاء والمهلوسة والمرصوفة والمستودفة والجالقة والحارقة والخبوق والخقوق والغقوق والربوخ والخربقة والسلقلق والشقآ والمتلاحمة والخجام والخجوم والاتوم والشريم والهوجل والمتكا والحلقية والمرفوغة والمصوص والمِنفاص والمِيراص والعضوض والمنخار والشفيرة والزخاخة والبخاخة والجخنة والشفلح والعنبلة والجليع ومن العلوز والقنب والنوف والخنتب والايل والبيظ والثعرورين والختار والاشعر والطبق والاسكتين والحسكلتين والعنتـل والقحقح والمأنة والجعب والطرث والعكبز والمعجرم والعجارم والوَبيل والفنجليس والفلطيس والحطاط والكوتعة والجوفان والمتك والحوقلة والكوشلة والقصعة والدلعة ومن الاقماد والتوتيد والاستعناد والتفشخ والشمذ والفهر والافهـار والوجس والنشنشة والاستخلاط والتشيط والهكاع والفخة والسغم والاكسال والدعم والزجـــل والهقق والنيطل والعتر والطروح والعجيز والفنخر والاختضار والترفغ والاصفآء والعصد والحمق والتعفيل والتبازخ والعروة والاسواع والسباع والالهاط والعصد والرفغ والعفل والقرنة والكين والطؤطؤة ومن ذكر الارزب والبزباز والفاعوسة والخرنوف والمشرح والغضارطي والمصوص والخاتقباق والزردان والطنبريز والفلهم والقباب واللهموم والحجوم والمزخــة والنغنغ والخشنفل والمعرنفط والمقرنفط والفوق والقوق

والركوة والقحفليز والعفلق وغير ذلك من ادوات النصب ومن البنودة والجعبي والحذافة والمحذفة والحوارة والحفاقة والعزاقـــة والمحسة والمحشة والخبنفثة والرماعة والصماري والرئم والطبيخة والحماء والعواء والعزلاء والجعماء والسحماء والفنقصة والفرقعة والصفارة والنبور والنباعة والنباغة والوباعة والجوانـــة والخوانة والصوانة والبرعث والبعنظ وغير ذلك من أدوات الجزم ومن الآداف والبيزار والجميح والجعثوم والاذامي والحوقـل والمطول والزلنقطة والخدرنق والسحادل والضبيز والعلعل والدوقل والقسطبينة والفنطيس والشاقول والقهبليس والعردل والقصطبير والجزاجز والقزميلة والمتمثر والدوسر والسمهدر وغـير ذلك من ادوات الجر ومن ذحّ وذحـــا ودح ودحبى ورصع ورطأ وشفتن وشكز وضهز وطعز وطنح وعزط وعزلب وقرفـط وقنطر وقسبر وقحطر وقمطر ولطز ولمج ولمذ ومشق ومتر ومهج ومعج ونيرج وزخزخ ودعـظ . وكنت احملق في وجوههم عند ذكرهم ذلك فلم أكن أرى عليها حمرة الخجل ولا صفرة الوجل بل كانت ناضرة مستبشرة مبتهجة مسفرة . فان أبى المنكر إلا عناداً وتقاضاني جدول اسمائهم قلت له هاك أوله يبتدىء بالألف وآخره بالياء . فاحسبوني اذاً وافهاً من هؤلاء .

ثم ان شرطي على القارىء ألا يسطر شيئاً من الألفاظ المترادفة في كتابي هذا على كثرتها . فقد يتفق ان يمر به في طريق واحـدة سرب خمسين لفظة بمعنى واحد او بمعان متقاربة . والا فلا أجيز له مطالعته ولا أهنؤه به . على اني لا أذهب الى ان الألفاظ المترادفة هي بمعنى واحد وإلا لسموها المتساوية وانما هي مترادفة بمعنى ان بعضها قد يقوم مقـام بعض . والدليل على ذلك ان الجمال مثلاً والطول والبياض والنعومة والفصاحة تختلف أنواعها وأحوالها بحسب اختلاف المتصف بها فخصت العرب كل نوع منهـا باسم ولبعد عهدهم عنا تظنيناها بمعنى واحد . وقس على ذلك انواع الحلي والمأكول والمشروب والملبوس والمفروش والمركوب . لا بل عندي ولا أخشى من ان يقال أولك عندهٌ انه اذا كان اسمان مشتقين من مادة واحدة وكانا يدلان على معنى واحد

كالخجوج والخجوجاة مثلاً للريح الشديدة المرّ فلا بدّ وان يكون الاسم الزائد في اللفظ زائداً في المعنى أيضاً . ان شئت أذعنت أولا فعاند .

هذا واني قد ألفته وما عندي من الكتب العربية شيء اراجعه واعتمد عليه غير القاموس . فان كتبي كانت قد فركتني فاعتزلتها ، غير ان مؤلفه رحمه الله لم يغادر وصفاً في النساء إلا وذكره . فكأنه كان ألهم ان سيأتي بعده من يغوص في قاموسه على جمع هذه اللآلىء في مؤلف واحد منتسق لتكون أعلق بالذهن وارسخ في الذكر .

ولولا اني خشيت غيظ الحسان عليّ لكنت ذكرت كثيراً من مكايدهن وحيلهنّ ومحالهن لكني انما قصدت بتأليفه التقرب إليهنّ وترضيهن به . واني آسف كل الأسف على أنهن غير قادرات على فهمه لجهلهنّ القراءة لا لعوص العبارة إذ لا شيء يصعب على فهمهن مما يؤول الى ذكر الوصال والحب والغرام . فهن يستوعبنه ويتلقفنه من دون تلعثم ولا قصور ولا ترج . وحسبي أن يبلغ مسامعهن قول القائل ان فلاناً قد ألف في النساء كتاباً فضلهن به على سائر المخلوقات . فقال انهن زخرف الكون . ونعيم الدنيا وزهاها . وغبطة الحيوه ومناها . وسرور النفس ومشتهاها[1] وعلق القلب . وقرة العين . وانتعاش الفؤاد . وروح الروح . وجلاء الخاطر . وتعلل الفكر . ولهو البال . وجنة الجنان . وأنس الطبع . وصفاء الدم . ولذة الحواس . ونزهة الالباب . وزينة الزمان .. وبهجة المكان والباءة بل اقول غير متحرج عرف الالاهة اذ لا يكاد الانسان يبصر جميلة الا ويسبح الخالق . بذكرهن يلهج اللسان . ولخدمتهن تسعى القدم . وتتحمل الاعباء . وتتجشم المشاق ويهون الصعب ويتجرع الصاب . ويقاسى الضر ولرضائهن يذل العزيز . ويبذل النفيس . ويذال المصون . وان خلاق الرجل من دونهن حرمان . وفوزه خيبة . وهناؤه تنغيص . وأنسه وحشة . وشبعه جوع . وارتواؤه ظمأ . ورقاده أرق . وعافيته بلاء . وسعادته شقاوة .

---

(١) حاشية قد غلط الفيروزابادي في اشتقاقه السرية من السر للجماع بل اشتقاقها من السر بمعنى السرور .

وطوبى له كالزقوم . والتسنيم كالغسلين. فاذا قدر الله بلوغ هذا الخبر المطرب سماع احدى سيداتي هؤلاء الجميلات وسرت به وفرحت. ورقصت ومرحت. رجوت منها وأنا باسط يد الضراعة ان تبلغه ايضاً مسامع جـارتها . وأملت من هذه ايضاً أن تطالع به صاحبتها حتى لا يمضي أسبوع واحد الا ويكون خبر الكتاب قد ذاع في المدينــة كلها . وكفاني ذلــك جزاء على تعبي الذي تكلفته من اجلهن. الا وليعلمن اني لو استطعت ان اكتب مديحهن بجميـــع اصابعي وانطق به بكل من جوارحي لما وفى ذلك بمحاسنهن . فكم لهن علي من الفضل حين بدون في افخر الحلل ومسن بأحسن الحلى. ونظرن إليّ شافنات. حتى أبت الى حفشي وانا أتعثر بأفكاري وخواطري . فما كادت يدي تصل الى القلم الا وقد تدفقت عليه المعاني وساحت على القرطـاس . فأورثنني بين الناس ذكراً وفخراً . ورفعن قدري على قدر ذوي البطالة والفراغ . نعم ان من بينهن من نفست علي بطيفها في الكرى. ولكنها معذورة في كونها لم تكن تعلم اني اتكلف النوم. بعد ان رأت عيني من جمالها ما يبهر العقل ويبلبل البال.

فأما اذا تعنت عليّ احد بكون عبارتي غير بليغة . أي غير متبلة بتوابل التجنيس والترصيع والاستعارات والكنايات. فأقول له اني لما تقيدت بخدمة جنابه في انشاء هذا المؤلف لم يكن يخطر ببالي التفتازاني والسكاكي والامدي والواحدي والزمخشري والبستي وابن المعتز وابن النبيه وابن نباتة . وانما كانت خواطري كلها مشتغلة بوصف الجمال . ولساني مقيداً بالاطراء على من انعم الله تعالى عليه بهذه النعمة الجزيلة . وبغبطــة من خوّله عزّ وجـلّ عزة الحسن وبرثاء من حرمه منه . وفي ذلك شاغل عن غيره . على أني أرجو أن في مجرد وصف الجمال من الطلاوة والرونق والزخرفة ما يغني عن تلك المحسّنات استغناء الحسناء عن الحلي ولذلك يقال لها غانية . وبعد فاني قد علمت بالتجربة ان هذه المحسنات البديعية التي يتهور فيها المؤلفون كثيراً ما تشغل القارىء بظاهر اللفظ عن النظر في باطن المعنى .

ولعمري انه ليس في هذا الكتاب شيء يعاب سوى وجـدانك الفارياق

فيه تارة يحشر في سرب الغواني. وتارة يدمق عليهن وهن آمنات في حجالهن أو في حديقة أو في زاوية أو على السرير . ولكن لم يكن لي بدّ من ذلك . اذ الكتاب موضوع على قص أخباره وعلم أحواله . فقد بلغني ان كثيراً من الناس أنكروا وجود هذا المسمى فقالوا انه من قبيل الغول والعنقاء. وبعضهم قال انه قد ظهر مرة في الزمان ثم اختفى عن العيان . وذهب غير واحد الى انه مسخ بعد ولادته بأيام. ولم يعلم بأي صورة تلبس والى اي شكل استحال. وزعم قوم انه صار من جنس النسناس . وقال غيرهم انه صار من نوع الجن. واثبت بعض انه استحال امرأة. فانه لما رأى ان المرأة أسعد حالاً من الرجل في هذه الدنيا المسماة دنيا النساء كان لا يبيت الا وهو جائر الى ربه بالدعاء لأن يصيره انثى . فتقبّل الله ذلك منه وهو على كل شيء قدير . فرأيت والحالة هذه من بعض ما يجب عليّ ان اعرّف هؤلاء المختلفين فيه بحقيقة وجوده على ما فطر عليه . ما عدا التغيير الذي عرض له عن جهد المعيشة وسوء الحال ومقاساة الاسفار ومخالطة الاجانب والاحتكال. وعلى الخصوص من تلفيع الشيب . والمجاوزة من حد الشباب الى سن الكهولة . فاذ قد علم ذلك فأقول[1]

كان مولد الفارياق في طالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها الى الجدي أو التيس والسرطان ماشٍ على قرن الثور ، وكان والداه من ذوي الوجاهة والنباهة والصلاح (مرحى مرحى) الا ان دينهما كان أوسع من دنياهما وصيتهما اكبر من كيسهما (برحى برحى) وكان لطبل ذكرهما دويّ يسمع من بعيد. ولزوابع شأنهما عجاج ثناء يثور في الجبال والبيد. ولتكرير العفاة عليهما واعتشاء الوفود لديهما . تعطلت سبل دخلهما . ونزحت بئر فضلهما فلم يبقَ فيها الا نزّازات يلقى فيها المخفق المحروم سدادا من عوز . فكانا يجودان به ايضاً من عوز السداد (وهٍ وه) فلذلك لم يعد في طاقتهما ان يبعثاه الى الكوفة أو البصرة ليتعلم العربية. وانما جعلاه عند معلم كتاب القرية التي سكنا فيها (ويح ويح)

(١) نهاية المقدمة – (الناشر) .

وكان المعلم المذكور مثل سائر معلمي الصبيان في تلك البلاد في كونه لم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب الزبور وهو الذي يتعلمه الاولاد هناك لا غير (افّ اف) وليس قولي انهم يتعلمونه موذنا بأنه يفهمونه . معاذ الله . فان هذا الكتاب مع تقادم السنين عليه لم يعد في طاقة بشر ان يفهمه (غُط غط) وقد زاده ابهاماً وغموضاً فساد ترجمته الى اللغة العربية وركاكة عبارته حتى كاد ان يكون ضرباً من الاحاجي والمعمى (رُط رط) وانما جرت عادة اهل تلك البلاد بان يدرّبوا فيه اولادهم على القراءة من غير ان يفهموا معناه . بل فهم معانيه عندهم محظور (تفّ تف) وكما انهم لا يفهمون معنى وحا وميم وقاف مثلاً . فكذلك لا يفهمون عبارة الكتاب المذكور اذا قرأوها (طيخ طيخ) .

والظاهر ان سادتنا رؤساء الدين والدنيا لا يريدون لرعيتهم المساكين ان يتفقهوا أو يتفقحوا . بل يحاولون ما امكن ان يغادروهم متسكعين في مهامه الجهل والغباوة (أع أع) اذ لو شاؤوا غير ذلك لاجتهدوا في ان ينشئوا لهم هناك مطبعة تطبع فيها الكتب المفيدة سواء كانت عربية أو معرّبة (سرّ سر) فكيف ترضون يا سادتنا الاعزّة لعبيدكم الاذلة ان تربى اولادهم في الجهل والعمه (عزوى عزوى) وان يكون معلموهم لا يعرفون العربية ولا الخط والحساب والتاريخ والجغرافية ولا شيئاً غير ذلك مما لا بدّ للمعلم من معرفته (تعزى تعزى) فكم لعمري من ملكات براعة وحذق منّ الله تعالى بها على كثير من هؤلاء الاولاد . غير انه لفقد أسباب العلم وعدم ذرائع التأديب والتخريج طفئت جذوتها فيهم على صغر بحيث لم يمكن ان يستقبها بهم نتف التحصيل على كبر (أوه أوه) هذا وانكم بحمد الله من المتمولين المثرين . لا يعجزكم ان تنفقوا كذا وكذا كيساً على انشاء مدارس وطبع كتب مفيدة (ايه ايه) فان لبطرك الطائفة المارونية دخلا له وقع عظيم ، وقدر جسيم ، بحيث يمكنه ان يجبي به قلوب طائفته هذه التارزة التي لا همّ لها في المنافسة والمباراة في شيء بين من سبقوهم الى كل علم وفضل (هيس هيس) وانما همهم

أن يتعلموا بعض قواعد في نحو اللغتين العربية والسريانية لمجرد العلم بهـا فقط من دون فائدة (آه آه) اذ لم يعلم الى الآن ان واحداً منهم ترجم كتابـاً او كراسة مفيدة في هاتين اللغتين ولا ان البطرك امر بطبع كتاب لغة فيهما (تغ تغ) ولو انه انفق نصف دخله في كل سنة على تحصيل اسباب العلم بدل هذه الولائم والمآدب التي يهيؤها لزواره . او لو كان كل من الامراء والمشايخ الكرام ينفل شيئاً معلوماً في كل سنة لاجل هذه المصلحة الخيرية او لو بعث من قبله الى البلاد الافرنجية وكلاء يجمعون من ذوي الخير والاحسان فيهـا مبلغاً يخصصه بما نحن بصدده . لاحمد كل من في الشرق والغرب فعله (جنح جنح) ولكن اذا تعنى احـد سادتنا هؤلاء لان يبعث الى اخوانه الافرنج حنا او متى او لوقا لجمع المال فانما يبعثه لبناء كنيسة او صومعة (آح آح) مع ان الانسان مذ يولد الى ان يبلغ اثنتي عشرة سنة لا يمكنه ان يدرك شيئاً على حقيقته من جهة الكنيسة والصومعة ويمكنه في خلال ذلك ان يتعلم مـا يفيده في مدرسة او كتاب (ثع ثع) فهل تعدونني يا سادة بانشاء مـكاتب وطبع كتب حتى لا أطيل عليكم هـذا الفصل . فان بقلبي منكم لحزازات حـاكة وبصدري عليكم ملامات صاكة (أخ أخ) لان خليصي الفارياق في دولتكم السعيدة لم يمكنه ان يتعلم في قريته غير الزبوروهو كتاب حشوه اللحن والخطأ والركاكة (اخ اخ) لان معربه لم يكن يعرف العربية وقس عليه سائر الكتب التي طبعت في بلادكم وفي رومية العظمى (هع هع) ومعلوم ان الغلط اذا تأصل في عقل الصغير شبّ معه ونمى فلم يعد ممكناً بعد قلعـه . فهل من سبب لهـذا الشين والعيب سوى اهمالكم وسوء تصرفكم في السياسة المدنية والكنائسية (افوه افوه) .

اتحسبون ان الركاكة من شعائر الدين ومعالمه وفرائضه وعزائمه وان البلاغة تفضي بكم الى الكفر والالحاد . والبدعـة والفساد (مطغ مطغ) ام حسبتم ان تلك الابيات العاطلة قد افحمت ذلك المسلم العالم عن المجادلة والمناضلة (يع يع) اما بعروقكم دم يهيجكم الى حب الكلام الجزل الفخم . والى البلاغة

والبلة . ونق العبارة على موجب القواعـــد المقررة . والافصاح عما يخطر ببالـكم دون الحشو المخلّ . والاعتراض المملّ . والتعقيـد المعلّ . والاخلاء المسل . وقولـكم في جوز الجملة الخ. وجعلـكم الفعل الثلاثي رباعياً. وبالعكس. واستعمالـكم ما يتعدى منه بالباء متعدياً بفي وبالعكس . واجرائكم المتعدّى لازماً وبالعكس . والمهموز معتلاً وبالعكس وعدم فرقكم بين اسمي الفاعـل والمفعول. فتقولون هم محسودون مني اي حاسدون لي وما اشبه ذلك(قـَه قه) وليس كتابي هذا درّة الثين في اوهام القسّيسين حتى استوعب فيه ذكر اغلاطكم واوهامكم (ايْحى ايحى) وانما المقصود من ذلك ان ابيّن لـكم ان ادمغتـكم قد سقيت اللحن والركاكة من وقت ذهـابكم الى الكتّاب وقراءتكم فيه كتاب الزبور الى ان تصيروا كهلا ثم شيوخاً (دح دح) وانه ما دمتم على هذه الحال فلن يرجى لـكم من ابلال (وَيْب ويب) .

ثم ان الفارياق اقام عند معلمه ريثما ختم الكتاب المذكور . وبعد ذلـــك أوجس منه المعلم ان يربكه في مسائل تصعب عليه فينفضح بها . فأشار على والده بأن يخرجه من الكتّاب ويشغله بنسخ الكتب في البيت (بَه به) فلبث على هذه الحالة مدة طويلة فاستفاد منها ما امكن لمثله ان يستفيد من تجويد الخط وحفظ بعض الألفاظ (بَدْ بد) وكان اهل البلاد يفضلون حسن الخط على كل ما تصنعه اليد . فعندهم ان من يكتب خطاً حسناً هو الذي افق بين اقرانه في الفضل . ومع اشتهار ذلك فلم يكن حاكم البـــلاد يستخدم من الكتّاب الا من بذأت العين خطه وعاف الذوق السليم كلامه (عِيط عيط) اشعاراً بأن الخط لا يتوقف الا على الحظ . وان ادارة الاحكام لا تفتقر الى تهذيب الكلام . (تع تع) وان كثيراً قد نالوا المراتب السامية والمناصب السنية وهم لا يحسنون توقيع اسمهم الشريف (حِسّ حس) غير ان الفارياق لم يكن قرير العين بهذه الحرفة. اذ كان يعتقد ان الرزق الذي يأتي من شقّ كشِقّ القلم لا يكون الا ضيّقاً(وَيْ وي) نعم ان كثيراً من الناس قد نالوا العيش الواسع الهني. والخير المتتابع الوفي . من مورد هو بالنسبة الى شق القلم رحب لكنـــه بالنسبة الى

شرههم وسرفهم ضيّق (واه واه) غير ان الفارياق وقتئذ كان غراً لا تجربة له ولا خبرة فكان يحكم على البعيد بالقريب . ولا شيء أقرب الى عين الكاتب من لسان قلمه وعارض قرطاسه . أو أدنى الى قلبه من الكلام الذي يكتبه واللبيب من قنع بالحرفة التي يتعاطاها ولم يشق عليه امت الشق ولم يشرئب الى ما ليس يحسنه (شع شع) .

★

٢

في انتكاسة حافية وعمامة واقية

قد كان من طبع الفارياق كما هو دأب جميع الاحداث ايضاً ان يحاكي في الزي والاطوار والكلام من كان متميزاً في عصره بالفضل والدراية . وانه رأى ذات يوم قرْزاماً معتماً بعمامة كبيرة مدورة. وكان هذا القرزام يحسب وقتئذ من فحول الشعراء فأحب الفارياق ان يكون له مثل هذه العمامة على صغر رأسه. فكان اذا مشى يميل رأسه منها يمنةً ويسرةً كالقاضي الذي يخرج في الأسواق بعد صلوة الجمعة ويسلم على النـاس . واتفق ان اباه سار مرة الى دار الحاكم واستصحبه معه واركبه مهرة له . وكان هو راكباً حصاناً. فمكثا هناك اياماً . فعنّ للفارياق يومـاً من الايام ان يركض المهرة في الميدان وكان الحصان مربوطاً في جانب . فأجرى المهرة نصف شوط حتى اذا قابلت مربط أليفها التفتت اليه كالمشيرة ان فارسها غير جدير بركوبها بين جياد الامير . فما كان من الفارياق الا أن سقط على أمّ رأسه. وأقبلت المهرة تجري الى الحصان وغادرته مجندلاً على الجدالة . ولو كان فارساً مجيداً لما تركته على تلك الحالة بل كانت تنتظره حتى يقوم .

ثم انه قام بعد ذلك يحمد الله على كبر عمامته فانها هي التي وَقَتْ رأسه عن احدى الشجات العشر وهي القاشرة الحارصة الباضعـة الدامية المتلاحمة السمحاق الموْضِحة الهاشِمة المنقّلة الآمة الدامغة. ولكنه قام محقوا ويومئـذ عرف ان لكبر العمامة فضلاً ومزيّة . وظن ان اتخاذ العمائم الكبيرة عند أهل بلاده انما هي لوقاية رؤوسهم فقط لا لتحسين وجوههم . فان العمامة الضخمة تخفي محاسن الوجه وتشوه الوجه الصغير فضلاً عن كونها توجع الرأس وتمنع

صعود الأبخرة من مسامّه كما نصّ عليه الساعور الاكبر فان قيل اذا كان سبب اتخاذ العمائم الكبيرة انما هو لوقاية الرؤوس لا للزينة والتحسين فما بال الذين يرقدون ليلا يتعممون فهل يخافون ان تتدحرج رؤوسهم عن مصادغهم فيسقطوا في مهواة في بيتهم . مع ان فرشهم تكون على الارض . قلت ان منشأ هذه العادة هو ان نساء تلك البلاد يتخذن في رؤوسهن هذه القرون التي يقال لها هناك طناطير . وهي تكون من فضة أو ذهب في طول الذراع وغلظ الرسغ . فاذا بات الرجل مع امرأته حاسر الرأس او كان على رأسه غطاء رقيق لم يأمن ان تنطحه بقرنها على قرنه فتمنيه باحدى الشجاج المذكورة . فان أبيت إلا اللجاجة وقلت ما سبب هذه القرون الحسيّة . هل هي دليل على التذكير بالقرون المعنوية عند مخالفة الرجل لامرأته . او عند تقتيره عليها او اجفاره عنها . او هي من قبيل الزينة او من بطر النساء وشرهنّ بحيث اذا شممن رائحة الأيسار من ازواجهنّ رأين ان كل مجَس من أجسامهن قمين بالحلى والزينة . إذ كن يعتقدن ان المستور منها عن عيون الناس غير مستور عن عيونهن وعيون بعولتهنّ . وان كان في المسألة خلاف عظيم ، وتحليل وتحريم . وان في التزين بحلي غير ظاهر للذّة عظيمة . فان مجرّد العلم باحراز شيء ثمين يسر صاحبه . كما لو أحرز انسان كنزاً في حرز محجوب فانه يفرح به من غير ان ينظر اليه . قلت اما التذكير بالقرون المعنوية فغير مظنون في نساء تلك البلاد لكونهن منذوات العِرض والتصاون. ولا سيا نساء الجبل . وفضلاً عن ذلك فانّ هراوة الزوج ومقامع أهله واهل امرأته وعيون الجيران ايضاً تمنعها عن الاتصاف بالصفة الزوجية التامة . أما في المدن فان هذه الصفة أقوى وأفشى . وانما كان اتخاذ هذه القرون في الأصل مناطاً للبراقع . وكانت في مبداها صغيرة قصيرة ثم طالت وكبرت بطول الزمن وكبر الدينار . وكلما زاد إيسار الرجل وماله زاد قرن امرأته طولاً وضخامة .

وهنا فائدة لا بد من ذكرها ، وهي ان لفظة القرن من الألفاظ التي اشترك فيها جميع اللغات كالصابون والقطّ والمزج وغيرها . وقد شهرت عند

جميع المؤلفين بأنها كناية عن كذا وكذا من طرف الزوجة في حق زوجها . إلا عند المؤلفين من اليهود فان الصفة القرنية في كتبهم من الصفات الحميدة . ولذلك فكثيراً ما تسمع في كتاب الزبور ارتفع قرني ، وأنت رافع قرني واني أنطح بقرني وما أشبه ذلك . وفي كلا الاستعمالين غموض وإبهام . اما غموض استعمال القرن عند المؤلفين من غير اليهود كناية عن خيانة المرأة زوجها فلان هيئة القرن لا تدل على عضو مخصوص من اعضاء الانسان . وحقيقته ايضاً لا تدل على حيوان مخصوص . فان الثور والوعل والتيس والكركدن في ذلك سواء ، ولفظه كذلك غير مشتق من فعل يشير الى خيانة أو ضمد . فما علّة هذا الاستعمال ، وقد استفتيت في هذه المسألة المشكلة كثيراً من المتزوجين الجرذين . فكلهم كان يتخيف ألواناً عند سؤالي له . ويجمجم في كلامه ويقوم من عندي وقد خجل ووَجَم . فان فتح الله الآن على أحد ممن يطالع كتابي هذا في فهم حقيقة ما يراد من هذا الحرف عرفاً واصطلاحاً. وفي بيان سبب استعماله كناية عن الضمد فليتفضّل بالجواب منةً وإحسانا . فاما استعماله من مؤلفي اليهود كناية عن العزة والقوة والمنعة والغلبة فانه يرد عليه ما ورد على الأول من ان كثيراً من الحيوانات قد اشترك فيه . ومنها ما هو غير ذي قوة ولا بأس . فانظر اختلاف الناس في لفظة واحدة ومعنى واحد .

أما العمامة ، فان اشتقاقها فيما أرى من عمّ بمعنى شَمِل لأنها تعمّ الرأس وهي على أشكال مختلفة . فمنها الحلزوني ، والكعكي والإطاري ، والمكوّري ، والمقوّري والقهقوريّ ، والقِرطَلّيّ والقَعبَلي . وكلها على أصنافها أحسن من هذه الأجران التي تلبسها رؤساء المارونية في الدّين فلينظروا وجوههم في مرآة جلية .

٣

في نوادر مختلفة

كان للفارياق ارتياح غريزي من صغره لقراءة الكلام الفصيح وامعان النظر فيه ولالتقاط الألفاظ الغريبة التي كان يجدها في الكتب : فان أباه قد أحرز كتباً عديدة في فنون مختلفة ، وكان أي الفارياق يتهافت منذ حداثته على النظم من قبل ان يتعلم شيئاً ممـا يلزم لهذه الصنعة . فكان مرة يصيب ومرة يخطىء، مع اعتقاده انالشعراء أفضل الناس وأن الشعر أجلما يتعاطاه الانسان. فقرأ يوماً في بعض الأخبار عن شاعر كان في حداثته أبله مغفلاً ، ثم صار أمره الى ان نبغ في نظم القصائد المطولة وأجـاد ، فما حكي عنه أنه سكر يوماً فقعد في نحو ناموس [١] وجعل يخطب منه خطبة أبي العِبَر طرد طبك طلندي بك يك نك من البلوعة . وأنه أراد يومـاً ان يتسوّر حائطاً ليتناول من بعض الثمر فوقع في فخ كان قد نصبه صاحب البستان للحيوانات.. وانه قال يوماً لأمه ان عند فلانة خادمة نظيفة غسلت اليوم باب دارها فجاء أسود يلمع . وانه رأى يوماً صبيـاً قد قلع أحد أضراسه فسار واقترض درهماً وقال للحجّام اقلع ضرسي أنا ايضاً فانه غير قاطع في الأكل ولعل ينبت لي في مكانه ضرس أحدّ منه . وقيل له يوماً قد دُوّنت عنك

---

(١) قد وهم المطران جرمانوس فرحات في قوله في كتاب باب الاعراب التامور الوعـاء والنفس والقلب وصومعة الراهب وقانون الرهبنة وعبـارة صلة وصومعة الراهب وناموسه فتوهم ان الناموس هنا بمعنى القانون او الشرع على ما اشتهر في عرف النصارى ومراد صاحب القاموس المعنى الاصلي وهو القُترة والعامة تقول ناووس وما اشتهر عندهم فهو اما تجوز عن صاحب السر او هو يوناني معرب .

حكايات من حمقك كثيرة فقال بودي لو أن احداً يقرأها عليَّ لأضحك ومرض اخوه يوماً فقال أبوه لزوجته قد أضره الطعـام الذي أكله أمس . فقال نعم قد أضره الأكل والخادمة معاً . فقال أبوه ما مدخل الخادمة ها هنا . فقال لعلها أعطته ما لم يحبّ . ورأت أمه على ثيابه دماً فقالت له ما هذا الدم. قال قد وقعت فجرى دمي وهو أحسن . فقد يقال من وقع وجرى منه دم صحَّ وتقوّى . وجرح يده بسكين فرمى بها وقال هذي السكين لا تساوي شيئاً . فقال له ابوه لو كانت كذلك لما جرحت يدك فقال كل انسان يجرح يده في الدنيا سواء كان بسكين او غيرهـا . وقال مرة قد رأيت في السوق جبناً ابيض كالزفت. وقيل له لم لا تغسل يدك اغسلها فتعود وسخة في الحال. ولست أقدر على تنظيفها لكون دمي وسخاً. ورأى ذات يوم رجالاً مصلوبين فقال لأمه يا أم اذا عاشت هؤلاء الرجال أيضاً أفيقدر الذين صلبوهم على صلبهم مرة أخرى . وكان قوم يسألون عن منزل شخص فقـال أنا أعرف مقرّه . قيل كيف عرفته . قال قد رأيت الرجل يمشي في السوق على رجليه . وقال يوماً من الثامنة الى التسعة يمضي الوقت أسرع من الستة الى السبعة . وقيل له أتحب اللحم أكثر أم السمك قال اظن اني احب هذا اكثر . وقال له أبوه اذا كنت تغيب عنا أفتحسن أن تكتب لنـا كتاباً . قال نعم أكتبه واجي به أوصله اليكم . وسمع أباه يثني على خزٍّ اشتراه وكان به فرحاً . فقال قد كانت ساعة سعيدة انكم لم تشتروه . ورأى أباه يكتب كتاباً فقال له هل تستطيع يا أبت أن تقرأ ما تكتبه. فقـال له كيف لا وانا الذي كتبته . قال أما أنا فلا أستطيـع . ورأى أباه يتأسف على طير فقده. فقال له بارك الله في الساعة التي طار فيها.فقال له يا أحمق انـّا نتأسف على فقده قال له ولم لم تبنِ له داراً. قال أو يُبنى للطائر دار. قال انما اعني عودين يجعلان من هنا وهناك. ووصف مرة حيوانات رآها فقال ورأيت أيضاً خنزيراً أكبر مني وشكا وجعاً في رجله فقال ليت هذي الرجل تبلى . وكان أبوه يفسر له معنى انقذ بأن قال له اذا وقع أحد في النار مثلاً وذهبت وأخرجته منها فذلك هو الانقاذ . قال ولكنه قد احترق فكيف أنقـذه . وعلى فرض اني وضعت هذا السّفود في النار ثم

أخرجته منها أفيكون ذلك أيضاً انقاذاً. وفسر له يوماً آخر معنى يلوم فقال اذا ابطأ عليك شخصفي شيء وقلت له لِمَ أبطأت لمتكاسلت فذلك يكون لوماً . فقال وأقول له أيضاً لمَ كبرت لِم صغرت لِم قصرت . ولامته أمه على نخره عند الكلام فقال لها ألا لا تلوميني ولكن لومي روحي. وأراد ابوه أن يخرج في يوم ماطر ثم عدل خوفاً من المطر. فقال لأمه يا أماه من عمّ الله انـّا لم نخرج اليوم فان الهواء كان طيباً . واشترت له امه ثوباً فلما فصّلته قال لها أو يزول لون هذا الثوب . قالت لا أدري . قال أرجو أن يزول فلعله يصير أحسن . وقالت له أوان الشتاء وهو لابس قميصـــاً فقط إلبس ثوبك فوق القميص . فقال لها لا لأني أبرد به أكثر . ولامه أبوه على قراءته بصوت صلق فقال له لمَ هذا الصلق في القراءة قال لا أقدر أن أصرخ أكثر . وخفي عليه يوماً معنى الزيارة فقالت له امه اذا سرت اليوم الى السيدة فلانة لأنظرهـا فقد زرتها . قال قد فهمت انك تسيرين اليها كي تخدعيها . وقالت له امه ان فلانة التي كانت تحسن اليك قد ماتت فسكت ساعة ثم قال . قد حزنتعليها كما حزنت على موت امي . الله يبعثها الى الجنة هي وزوجها حالاً . وقاليوماً لوالده ان معلمنا اليوم قد اشترى قضيباً ليضرب به الاولاد ولكنهم يغضبونه عمداً حتى يضربهم به فينكسر فاستريح انا ايضـاً . وقال لأمه وقد مرضت اذا جئناك بالطبيب ولم يشأ الله ان يشفيك فما الحاجة الى دواء .وقال لها مرة اخرى استعملي هذا الدواء فلعلك تمرضين . وأراد يوماً ان يوقـد النار فقال أردت ان اطفئها فما انطفأت . وقالت له امه سر الى فلانة وقل لهـــا لأي شيء تخافين من امي انما هي بشرمنبنيآدم مثلك.فقالأقول لها تقول لك امي لاي شيء تنفرين منها انمـــا هي من بني الحيوانات مثلـــك . وقـــال مرة في شيء أعجبه تبارك الله من كل عين . وقيل له يومـــاً ان فلاناً يريد ان يأخذك الىمدرسته ليعلمك. فقال بعثه الله الىالجنة قال له ابوه أتريد ان تميته. قال فكيف اقول اذاً . قال قل اطال الله عمره. قال طوله الله . وقال لامه أتعطينني الليلة من تلـك الحلواء . فقالت له ان عشنا الى الليلة . قال نحن نعيشِ الى غد فكيف لا نعيش الى الليل — انتهى .

فطالع بذلك احد الالبّاء في بلاده وقال له قد ظهر لي ان.هـذا كلام أبله مأموه . او مدله توه . او مسمّه مسبوه . او عَميه مشدوه. او نَعِه معتوه. فكيف صار بعد ذلك شاعراً . فقال له يحتمل ان كلامه هذا كان قد تعمده ليضحك به ابويه . او انه كان بليد البادرة ولكنه حديد الفاكرة . فان من الناس من يدهش للسؤال فلا يكاد يجيب الا خطا . فاذا أعمل فكره في خلوة احسن كل الاحسان . او انه قصد بذلك ان يكون نَبَها مشهوراً بين الناس ولو بحماقة ورقاعة . فان اكثر الناس يحاول الشهرة باي وجه كان . فمنهم من يتعاطى الترجمة للكتب والتعليم وهو لا يدري شيا . ولكنه يفرح بان يضع اسمه في اول الكتاب. وبان يحشيه بعبارات ركيكة وأقوال سخيفة من عنده او بان يروى عنه فيقال قال فلان كذا وكذا ويكون قوله خطأ وهذراً . ومنهم من يتربع في صدر المجلس بين اخوانه واقرانه ويطفق يحكي لهم حكايات عن بلاد بعيدة ويخلط كلامه ببعض الفاظ تعلمها من لغة العجم . فيقول لهم مثلا صان فاصون . وباردون موسيو . ودنكوي . وفاري ول . إشارة الى انه أطال السياحة في بلاد فرنسا وايطاليا وانكلتره وتعلم لغاتهم وهـو يجهل لغته التي نشأ عليها . ومنهم من يتخذ له عمامة كبيرة يضاهي بها بعض العلماء . فان كبر العمامة يدل على كبر الرأس . وكبر الرأس يدل على جودة العقل وصواب الرأي . ومنهم من يتكلف محـــاكاة لهجة ما ممن عرفـــوا بالفصاحة فتراه يتشدق ويجم ويستعمل الفاظاً في غير محلها .

وبعد فلا ينبغي ان يكون الشاعر عاقـــلا او فيلسوفاً . فان كثيراً من المجانين كانوا شعراء . او كثيراً من الشعراء كانوا مجانين . وذلك كأبي العبر وبهلول وعليان وطويس ومزبد. وقد قالت الفلاسفة ان اول الهوس الشعر وأحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام . فان شعر العلماء المتوقرين لا يكون الا مكرزماً .

فلما سمع الفارياق ذلك زهد في الشعر ورغب عنه الى حفظ الالفاظ الغريبة لكنه لم يلبث ان رجع الى خلقه الاول . وذلك ان أباه أخذه معه الى بعض

القرى البعيدة ليجبي المال المضروب على سكانهـــا الى خزنة الحاكم . فانزله اهلها منزلاً كريمـاً . وكان بالقرب من منزله جارية بديعـــة الجمال فجعل الفارياق على صغره ينظر اليهـــا نظر المحب الراني جرياً على عادة الأغرار من العشاق . من انهم يبتدئون العشق في جاراتهم استخفافاً للطلب واستشفاعـــاً بالجارية . كما ان عادة الجارات تهنيد جيرانهن وتغميرهم اشارة الى انه لاينبغي البحث عن الطبيب البعيد اذا امكن التداوي عند القريب . غير ان المحنكين في الحب يبعدون في الطلب ويرودون انزح منتجع . لانهم لما جعلوا دأبهـــم وديدنهم اشباع النفس من هواها كان عندهم السعي في ذلك فرضاً واجبـــاً . ووجدوا في الابعاد والنصب لذة عظيمة . اذ من فتح فاه رجـاء ان تتساقط الاثمار فيه لم يعدّ الا مع العاجزين . والحاصل ان الفارياق هوى جارته لانـه كان غراً . وانها هي استهوته واطعمته لكونها جارة . ولان منزلته من حيث كونه مع ابيه كانت تميل الناس اليه . غير ان مدة اقامته هناك لم تطـــل . واضطر الى الرجوع مع ابيه وقد بقي كلفاً بالجارية . فلما حان الفراق بكى وتحسر وتنفس الصعداء . ونخره الوجد لان ينظم قصيدة يعبر بها عن غرامه فقال من جملة أبيات :

افـــارقها على رغم واني أعادر عندها والله روحي

وهي اشبه بنفس شعراء عصره الذين يقسمون ايماناً مغلظة بانهم قد عافوا الطعام والشراب شوقاً وغراماً . وسهروا الليالي الطويلة وجـــداً وهياماً . وانهم ناسمون وقد ماتوا وكفنوا وحنطوا ودفنوا . وهم عند ذلك يتلهون باي لهوة كانت . ثم انه لما اطلع ابوه على تلك الابيات الفراقية لامه عليها ونهاه عـــن النظم . فكأنما كان قد اغراه به . فان من طبع الاولاد في الغالب الخـلاف لما يريده منهم آباؤهم ثم انه فصل من تلك القرية حزيناً كئيباً متيماً مفتوناً .

٤

في شرور وطنبور

قد كان ابو الفارياق آخذاً في أمور ضيقة المصادر . غير مأمونة العواقب والمصاير . لما فيها من إلقاء البغضة بين الرؤس . وشغب أهل البلاد ما بين رئيس ومرؤوس . فقد كان ذا ضلع مع حزب من مشايخ الدروز مشهور بالنجدة والبسالة والكرم . غير انهم كانوا صفر الأيدي والاكياس والصندوق والصوان والهميان والبيوت . ولا يخفى أن الدنيا لما كان شكلها كروياً كانت لا تميل الى احد إلا اذا استمالها بالمدوّر مثلها وهو الدينار . فلا يكاد يتم فيها أمر بدونه . فالسيف والقلم قائمان في خدمته . والعلم والحسن حاشدان الى طاعته . ومَن كان ذا بَسطة في الجسم وفضلٍ في المناقب فلا يفيد طوله وطوله بغير الدينار شيأ . وهو على صغر حجمه يغلب ما كان كبيراً ثقيلاً من الأوطار ولُبانات النفس . فالوجوه المدوّرة المدنّرة خاضعة له ايّان برز . والقدود الطويلة منقادة اليه كيفما دار والجباه العريضة الصليتة مكبّة عليه والصدور الواسعة تضيق لفقده .

فأما ما يقال من ان الدروز هم من ذوي الكسل والتواني وانهم لا ذمة لهم ولا ذمام فالحق خلاف ذلك . أما وسمهم بالكسل فأحرى ان يكون ذلك مدحاً لهم . فانه ناشيءٌ عن القناعة والنزاهة والزهد . غير ان الصفات الحميدة التي يتنافس فيها الناس متى جاوزت الحد قليلاً التبست بنقيضها . فالافراط في الحلم مثلاً يلتبس بالضعف . وفي الكرم يلتبس بالتبذير . وفي الشجاعة بالتهور والمغامرة . لا بل الافراط في العبادة والتديّن يلتبس بالهوس والَخبال . هذا ولما كانت الدروز مفرطين في القناعة إذ لا ترى من بينهم

أحداً يقتحم القفار ويخوض البحار في طلب الازاء [١] وفي التأنق في الملبوس والمطعوم ولا من يُسَفّ للامور الخسيسة ويدنّق فيها . او من يباشر الصنائع الشاقة ظنّ فيهم الكسل والتواني . ومعلوم انه كلما كثر شره الانسان ونهمُه ، كثر نصبه وكدُه وهمّه . فالتجار من الافرنج على ثروتهم وغناهم أشقى من فلاحي بلادنا . فنرى التاجر منهم يقوم على قدميه من الصباح الى الساعة العاشرة ليلا . وأما ان الدروز لا عهد لهم ولا ذمة فانما هو محض افتراء وبهتان . اذ لم يُعرف عنهم انهم عاهدوا بشيء ثم نكثوا به من دون ان يحسّوا من المعاهد اليه غدراً . او ان اميراً منهم او شيخاً رأى امرأة جاره النصراني تغتسل يوماً فأعجبته بضاضتها وبَتيلتها وبوصها . فبعث اليها من تملّق لها او غصبها . وانت خبير بأن كثيراً من النصارى عائشون في ظلهم . ومستأمنون في حماهم . وانهم لو خُيّروا ان يتركوا مستأمنهم هذا ليكونوا تحت أمن مشايخ النصارى لأبوا . وعندي أن من كان يرعى حرمة الجار في حرمته كان خليقاً بكل خير . ولم يكن ليخونه في غيرها . فأما ما جرى من التحزّب والتألب بين طوائف الدروز وغيرهم فانما هي أمور سياسية لا تعلق لها بالدّين . فبعض الناس يريدون هذا الامير حاكماً عليهم وبعضهم يريد غيره .

وكان ابو الفارياق ممن يحاول خلع الأمير الذي كان وقتئذ والياً سياسة الجبل . فانحاز الى أعدائه وهم من ذوي قرابته فجرت بينهم مهاوش ومناوش غير مرة . وآل الامر بعدها الى فشل أعداء الامير . ففروا الى دمشق يلتمسون النجدة من وزيرها فوعدهم ومناهم . وفي تلك الليلة التي فرّوا فيها هجمت جنود الامير على وطن الفارياق ففر مع أمه الى دار حصينة بالقرب منها لبعض الامراء . . فنهب الناهبون ما وجدوا في بيته من فضة وآنية ومن جملة ذلك طنبور كان يعزف به اوقات الفراغ . فلما ان سكنت تلك الزعازع رجع الفارياق مع أمه الى البيت فوجداه قاعاً صفصفاً.

(١) الازاء هو سبب العيش او ما تسبب من رغده .

ثم رُدّ الطنبور عليه بعد أيام . فان من نهبه لم يجد في حمله منفعة ولم يقدر ان يبيعه إذ العازفون بآلات الطرب في تلك البلاد قليلون جداً . فأعطاه لقسيس تلك القرية كفارة عما نهب . فرده القسيس على الفارياق .

وكأني بمعترض هنا يقول ما فائدة هذا الخبر البارد . قلت ان وجود الطنابير في الجبل عزيز جداً كما ذكرنا . فان صنعة الالحان والعزف بالملاهي يسِمُ صاحبها بالشّين . لما في ذلك من التطريب والتصبّي والتشويق . والقوم هناك يَغلون في الدّين ويحذرون من كل ما يلذّ الحواس. لذلك لا يشاؤون ان يتعلموا الغناء والعزف باحدى آلات الطرب او يستعملوا في معابدهم وصلواتهم كما تفعل مشايخ الافرنج خشية ان يفضي بهم ذلك الى الالحاد. فعندهم ان كل فن من الفنون اللطيفة كالشعر والايقاع مثلا والتصوير مكروه . ولكن لو انهم سمعوا ما يتغنى به في كنائس مشايخهم المذكورين من الموشحات أو ما يُعزَف به على الأرغن من اللحون التي ولع الناس بها في الملاعب والمراقص ومحالّ القهوة استجلاباً للرجال والنساء ، لما رأوا في الطنبور اثماً . فان الطنبور بالنسبة الى الارغن كالغصن من الشجرة وكالفخذ من الجسم . إذ لا يسمع منه إلا طنطنة وفي الارغن طنطنة ودندنة وخنخنة ودمدمة وصلصلة ودربلة وجلجلة وقلقلة وزقزقة ووقوقة وبقبقة وفقفقة وطقطقة ودقدقة وقعقعة وفرقعة وشخشخة وخشخشة وجرجرة وغرغرة وخرخرة وقرقرة وبربرة وطبطبة ودبدبة وكهكهة وقهقهة وبعبع وبعبعة وزمزمة وهمهمة وحمحمة وغطمطمة وتأتأة ودأدأة وضاضاء ويأيأء وقأقاء وصَهْصَلق وجَلَنْبَلَق وغطيط وجخيف وفحيح وحفيف ونشيش ورنين ونقيق وطنين وعجيج وأرير ودوي وخرير وأزيز وهرير وصريف وصرير وشخب وصيّيٌ ومُوَا وغاق غاق وغق غق وطاق طاق وشيْب شيب ومي مي ء وطيخ طيخ وقَيْق قيق وخازباز وخاق باق . فاين هذا كله هداك الله من طن طن .فان قيل ان الرغبة عن العزف به انما هو لكونه يشبه الالية . قيل فما بال النساء يدخلن الكنائس وعلى رؤسهن هذه القرون الفضة وهي تشبه فنطيسة الخنزير اجلّك

الله عن ذكره . وفنطيسة الخـنزير أجلك الله عن ذكره تشبه كذا وكذا . فقد تبين لك ان اعتراضك غير وارد . وان ذكر الطنبور كان في محله . فان أبيت إلا العنـاد وتصدّيت لأن تخطئني وتعقبني بزلة وبغير زلة . وزمت أن تبدي للناس براعتك في الانتقاد عليّ أمسك عن إتمام هذا الكتاب. ولعمري لو انك علمت سبب شروعي فيه وهو التنفيس عن كربك وتسلية خاطرك لما فتحت فاك عليّ بالملامة في شيء فقابل الإحسان أصلحك الله بالاحسان واصبر عليّ حتى أفرغ من غزل قصتي . وبعد ذلك فان عنّ لخاطرك ان تلقي بكتابي في النار او الماء فافعل .

ولنعد الآن الى الفارياق فنقول انه أقام مع والدتـه في البيت يتعاطى النساخة . وانه لم يلبث ان ورد عليه نعي والده في دمشق . فتفطر قلبه لهذا الفجع وودّ لو بقي الطنبور عند ناهبه . وكانت امه تنفرد في كل صباح وتندب زوجها وتتحسر عليـه وتذرف المدامع لفقده . فانها كانت من الصالحات المتحببات لازواجهن عن خلوص وداد وصدق وفاء . وكانت تظنّ ان ابنها لا يراها في انفرادها حتى لا يزيد حزنها برؤيتها اياه يبكي لبكائها . لكن الفارياق كان ينظرها في خلوتها ويبكي لوحشتها ووحدتها أشد البـكاء . فاذا رجعت كفكف عبراته وتشاغل بالكتابة أو بغيرها. ومذ ذلك الوقت عرف انه لا ملجأ له بعد الله غير كدّه فعكف على النساخة . غير ان هذه الحرفة مذ خلق الله القلم لا تكفي المحترف بها ولا سيا في بلاد لوقّع قرشها طنين ورنين . ولرؤية دينارها تكبير وتعويذ الا ان ذلك جوّد من خطه ورقق من فهمه .

٥

في قسيس وكيس وتحليس وتلحيس

من قرأ آخر الفصل المتقدم ثم أتاه خادمه يدعوه للعشا فترك الكتاب وقام يستقبل الكاس والطاس والقدح والكوب مما اختلفت أشكاله وتفاوتت مقاديره . ثم أقبلت عليه اخوانه يسامرونه فمنهم من قال له اني ضربت اليوم جاريتي ونزلت بها إلى السوق على عزم أن أبيعها ولو بنصف ثمنها . وذلك لأنها اجابت سيدتها جواباً سخيفاً . ومنهم من قال له وأنا أيضاً ضربت ابني أشد الضرب لأني رأيته يلعب مع أولاد الجيران ثم حبسته في الكنيف وهو باق الى الآن فيه . وبعضهم قال وأنا أيضاً حرّجت اليوم على زوجتي بأن تطلعني على جميع ما يخطر ببالها ويخلج صدرها من الأفكار والهواجس . وبما تحلمه أيضاً في الليل من الأحلام التي تنشأ عن امتلاء الدّماغ من بخار الطعام . أو من دخان الغرام قبل النيام.وقلت لها انلم تخبريني باليقين أضربت بك أبانا القسيس فيكفّرك ويحظر عليك ثم يستخرج منك كل ما تكتمين وتضمرين ويطّلع على كل ما تسترين وتخفين وتصونين وعلى ما تحذرين منه ، وتحرصين عليه ، وترتاحين له وتميلين إليه وتكلّفين بـه . وقد خرجت من داري غضباناً متنمّراً وجزمت بأن لا أصالحها إلا اذا كانت تقصُّ عليّ أحلامها . وبعضهم قال ان مصيبتي في بنتي أعظم . وذلك انها بعد أن تمشطت اليوم وتعصّبت وتعطّرت وتطيبت وتطوّست وتبرقشت وتزينت وتبرجت ، وتزيغت وتضرجت وتزخّفت وتزبرجت وتشوّفت وتسرجت وتنقشت وترقشت وتزهنعتوتبرقت وتحفلت وتزوقت وتقينت وتزلقت وتزيرقت وتألقت جلست بالشباك لتنظر الواردين والصادرين . فنهيتها عن

ذلك فانصرفت ثم خالفتني فرجعت الى موضعها . واوهمتني انها تخيط هناك بعض ملبوس لها . فكانت كلما غرزت بالابرة غرزة تنظر نظرتين . فقمت اليها مستشيطاً غيظاً وجبذتها بشعرها الذي مشطته وضفرته وعقصته فطلع بيدي منه خصلة وها هي معي. وهيهات ان تنتهي عن غيها ولو نتفت شعرها كله . فانها كالمهرة الجامحة بغير عنان . لايردها لكم بالأكف ولا ضرب بعيدان نعم ان من ملأ اعصاله بالوان الطعام واذنيه بمثل هذا الكلام فلا بد وان يكون قد نسي .

ما جرى على الفارياق من الوقوع الحسي والمعنوي ومن فجعه بنعي أبيه . ومن اقباله على نسخ الكتب واكتسابه من ذلك جودة الخط فمن ثم اضطررت الى الاعادة . وازيد هنا ان اقول :

انه لما شاعت براعته في النسخ ارسل اليه من اسمه على وزان بعير بيعر يستدعيه لنسخ دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمانه . وليس الغرض من ذلك افادة احد من العالمين . وانما كان امساكاً للحوادث من ان تتفلت من مدار الايام . او تنفك من سلسلة الاحوال . فان كثيراً من الناس يرون ان احضار الماضي وجعله حالاً منظوراً من الامور العظيمة . ولذلك كانت الافرنج حراصاً على تقييد كل ما يقع عندهم . فخروج عجوز من بيتها صباحاً وعودها اليه في الساعة العاشرة وهي تقود كلباً لها . والريح عاصفة والمطر واكف لا يفوت اقلامهم ولا يعدو خواطرهم. ففي مقدمة ديوان Lamartine أعظم شعراء الفرنساوية الموجودين في عصرنا وهو الديوان الذي سماه التأمل الشعري ما ترجمته . وكانت العرب يدخنون التبغ في قصبات لهم طويلة وهم ساكتون وينظرون الى الدخان متصاعداً كأعمدة زرقاء لطيفة الى ان يضمحل في الهواء اضمحلالاً يشوق الرائي. والهواء اذ ذاك شفاف لطيف الى ان قال : ثم ان صحبي من العرب جعلوا الشعير في مخال من شعر المعزي ووضعوها في اعناق الخيل وهي حول خيمتي . وارجلها مربوطة في حلق من حديد وهي غير متحركة. ورؤوسها مخفوضة الى الارض مظللة بنواصيها الشعثة. وشعرها

اشهب براق يخرج منه دخان تحت اشعة الشمس الحامية وكانت الرجال قد اجتمعت تحت ظل زيتونة من اعظم ما يكون . وفرشوا تحتهم على الارض حصيراً شامياً واخذوا في الحديث والحكايات عن البادية وهم يدخنون التبغ وينشدون اشعار عنتر وهو من شعراء العرب الذين اشتهروا بالحماسة والرعاية (اي رعاية البهائم) والبلاغة وقد بلغت اشعاره منهم مبلغ التنباك في الاركيلة . وحين كان يرد عليهم من الابيات ما يؤثر في حسهم اكثر كانوا يرفعون ايديهم الى آذانهم ويطرقون برؤوسهم ويصرخون تارة بعد تارة الله الله . الى ان قال في وصف امرأة رآها تبكي عند قبر زوجها وكان شعرها مسدلاً من عند رأسها ملتفاً عليها ومماساً للارض . وكان صدرها مكشوفاً كله على ما جرت به العادة عند نساء تلك البلاد من بلاد العرب . وحين كانت تتطأطأ للثم صورة العمامة على رجال القبر او تصغي اذنها اليه كان ثدياها البارزان يمسان الارض ويرسمان في التراب شكلهما كالقالب . اه صفحة ٢٤ وسائر هذه المقدمة على هذا النمط مع انه سماها مقدور الشعر اي ما قدره الله تعالى على الشعر والشعراء .

وفي رحلة « شاتوبريان » الى اميركا وهو ايضاً من أعظم شعراء عصره ما صورته . وكان منزل رئيس الدول المتحدة عبارة عن دار صغيرة مبنية على أسلوب انكليزي في البناء مندون خفرة عندها من العسكر ولا حشم داخلها. فلما قرعت الباب فتحت لي جارية صغيرة فسألتها هل الجنرال في البيت فأجابت نعم . فقلت ان عندي رسالة اريد ان أبلغه إياها . فسألتني عن اسمي وصعب عليها حفظه فقالت لي بصوت منخفض ادخل يا سيدي(وأورد هذه العبارة باللغة الانكليزية Walk in sir تنبيهاً على معرفته لها) ثم مشت أمامي في ممشى طويل كالدهليز . ثم دخلت بي الى مقصورة وأشارت إليّ أن أجلس فيها منتظراً الخ صفحة ٢٥ . وفي موضع آخر انه رأى بقرة عجفاء لامرأة من هند اميركا فقال لها وهو راث لحالها : ما بال هذه البقرة عجفاء ؟ فقالت له انها تأكل قليلاً وأورد هذه العبارة ايضاً باللغة الانكليزية وهي

(She eats very little) . وفي موضع آخر ذكر انه كان يرى كسف السحاب بعضها في شكل حيوان وبعضها في شكل جبل أو شجرة وما أشبه ذلك .

فإذ قد عرفت هذا فاعلم ان اعتراضك عليّ في إيراد ما هو غير مفيد لك لكنه مفيد لي لا يكون إلا تعنتاً . فان هذين الشاعرين كتبا ما كتباه ولم يخشيا لومة لائم ، ولم يعترض عليهما أحد من جنسهما . وقد اشتهر فضلهما وصيتهما حتى أن مولانا السلطان أدام الله دولته أقطع لامرتين في أرض أزمير إقطاعات عظيمة . ولم يُسمع عن ملك من ملوك الافرنج انه أقطع شاعراً عربياً أو فارسياً أو تركياً مقدار جرّيب واحد في ارض عامرة . ولا غامرة . فأما كون وزان بعير بيعر قد حاكى الافرنج في تاريخه وهو عربي وأبواه أيضاً عربيان وعمّه وعمته كذلك عربيّان . فما لم أتيقنه الى الآن. ولعلي اعلمه بعد انجاز هذا الكتاب فاخبر به القارىء ان شاء الله . وانما أرجو أي القارىء ألا يقطع قراءته لجهله سبب هذه المحاكاة وان يكن العلم به مهمّاً .

ودونك مثالاً مما كان يكتبه الفارياق في أساطير بعير بيعر . في هذا اليوم وهو الحادي عشر من شهر آذار سنة ١٨١٨ قصّ فلان ابن فلانة بنت فلانة ذنب حصانه الأشهب بعد ان كان طويلاً يكنس الأرض . وفي ذلك اليوم بعينه ركبه فكَبا به . فان قلت ما سبب النسبة الى الأم دون الأبِ قلت أن بعير بيعر كان من المتديّنين ، المتورّعين المتقين . فنسبة الولد الى أمه أصح وأصدق من نسبته الى أبيه . فان الأم لا تكون إلا واحدة بخلاف الأب ولكون الجنين لا يمكنه الخروج إلا من مخرج واحد ، ومن ذلك اليوم نظرت سفينة في البحر ماخرة فظُن انها بارجة قدمت من احدى مراسي فرنسا لتحرير أهل البلاد ، لكنه عند التحقيق ظهر انها كانت زورقاً مشحوناً ببراميل فارغة وكان سبب قدومه للاستقاء من عين كذا . فان قيل ان هذا خلاف المعهود ، فان من شأن الكبير ان يبدو للعين عن بُعد صغيراً لا

عكسه . قيل ان الانسان اذا أعطى نفسه هواها رأى الشيء بخلاف ما هو عليه . فمن أحبّ مثلاً امرأة قصيرة لم ير بها قِصَراً . ومن خلا بمحبوبته في فترة رآها أوسع من صرح بلقيس . وبعدُ فـانا نرى النور الصغير عن بُعدٍ كبيراً . فلا غرو ان يبدو الزورق بارجة أو شَونة . فان القوم هناك مـا زالوا يحلمون بان رؤوسهم قد تبرطلت ببراطل الفرنساويـة ولحوا عِرضهم بعرضهم حتى يروا نساءهم كما قال الشاعر :

تصيد ظباؤنا الأسْدالضواري   بلحظ او بلفظ في المسالك
وغزلان الفرنج تصيد أيضاً   بذَيْن معا وبالايدي كذلك

وكان بعير ببعرستُنهَا جَعْظَرا أُحرُقـّه . لكنه كان حليماً يحب السلم والدّعة . وكان من التغفّل على جانب عظيم . فكان مفوضاً اموره المعاشيـة الى رجل لئيم شرس الاخلاق عَيْدَهٍ به كِبر وعُنجُهيّة وعجرفة وتفجُّس وغطرسة . وكان تمضي عليه الساعة والساعتان وهو لا يبدي ولا يعيـد . فيظن الغِرّ انه معمل فكره في تدبـير الدُّولَ . او تلخيص النِحَل . فقد جرت العـادة بان الرجل اذا كان ذا منزلة رفيعة فان كان عييا مفحماً عُدّ رزيناً وقوراً . وان يك مهذاراً عدّ فصيحاً . فاما اموره المماديّة فانهـا كانت تعلو وتسفل وتضوي وتجزل وتُفتـَق وترتق بتدبير قسيس ذي دعابة وفكاهة وبشاشة وهشاشة . قصير سمين . أبيض بـدين . وكان هذا القسيس الصالح قد تمكن من حريمـه تمكناً لا يباريه فيه النسيم . وألقى عصاه عند احدى بناته وكانت ذات وجه وسيم ومنطق رخيم . وكانت تزوجت برجل قد جُنّ وتخبّل فخلـّته وجنونه واعتصمت بعقوة أبيها فكان القسيس آمراً عليها مطاعاً . ناهياً وزّاعاً فكانت كلما دخل فيها شيء او خرج منها شيء تطالعه به لانها كانت ممن قَفَـط قُطرَي الدين والدنيا معاً . وكانت تعترف له بجرائرها في الخلوة.وهو يسألها عن كل زلة وهفوة . فيقول لها هل تتذبذب أليتاك ويترجرج ثدياك عند صعودك الدرج أو عنـد المشي . وهـل يحـدث فيك هذا الارتجاج من لذة . فقد ورد في بعض الاخبار ان بعض الجلامظـة

كان يرتاح الى اي ارتجاج كان . حتى كان كثيراً ما يتمنى ان تتزلزل الارض من تحته . وتمور الجبال من فوقه. وهل يمثّل لك في الحلم ضجيع يكافحك . وخليع يصافحك اذ لا فرق عند الله بين اليقظة والمنام . وان اعظم الحقائق انما ُبني على الاحلام . وهل وسوس اليك الوسواس الخناس فاشتهيت ان تكوني ُخنثَى ، اي ذكراً وانثى لا ذكر ولا انثى كما تقول العامة . فان هذا القول لم يرتضه المحققون من الرّبانيين اللاّاتين وغير ذلك من المسائل التي يضيق عن تفصيلها هذا الفصل . وكان ابوها لا يسيء به الظن لما تقرر عنده من ان كل من لبس السواد فهو من الفاطمين اهواءهم عن اللذات الخاصين انفسهم عن الشّهوات حتى انه نظر يوماً في بعض الكتب هذا البيت وهو :

وذموا لنا الدّنيا وهم يرضعونها   أفاويق حتى ما تدّر لنا ثعل

فظن انه تعريض بهم وتلميح اليهم . فأمر باحراقه فأحرق وذرى رماده. ورأى يوماً آخر بيتين في كتاب آخر وهما :

ما بال عيني لا ترى من بين من   لبس السواد من العباد نحيفا

ما كان من لحمٍ وشيء غيره   فيهم فاصلب ما يكون وقوفا

فأمر أيضاً باحراق الكتاب . وبعث جواسيس في البلد يتجسّسون عن مؤلفهِ ونودي في الروابي والوهاد . ألا من دلّ على مؤلف كتاب كذا فانه يجزى أحسن الجزاء . ويَرقى الى رتبة سنّية . فلما سمع المؤلف بذلك اضطرّ الى الاختفاء مدة حتى نُسي اسمه . فان قلت ان هذا الفعل خلاف ماوصفته به من الحلم قلت ان عادة أهل تلك البلاد أن الحلم يكون محموداً في كل شيء إلا في أمرين حُرَمة العِرض وحرمة الدين فان الاخ ليُبسِل اخاه الى الهلكة من اجلها .

ثم ان الفارياق أقام عند هذا الحليم مدة لم يحصل فيها على طائل . وكانت نفسُه عزيزة عليه فلم يرد أن يسأله. فمن ثمّ جمع ذات ليلة حطباً وتبناً كثيراً وأطلق فيها النار فانبعث اللهيب نحو مقصورة بعير بيعر ، فظن ان النار قد

سرت في قصره . فاستوشى القيام والقعود فاقبلوا يتسابقون الى موضع النار . فرأوا عندها الفارياق يزيدها من الحطب الجزل فسألوه عن ذلك فقال ان هذه النار من بعض النيران التي تنوب عن اللسان . وان لم يكن لها صورة لسان . ومن فوائدها انها تنبّه الغافلين وتنذر الباخلين . ان وراءها لقولاً شديداً ولساناً حديداً . فقالوا ويحك انما هي من بدعك او يكلم احد بالنار . لقد سمعنا ان الانسان يكلم غيره ببوق او بقرع عصا او باشارة أصبع او بغمز عين او برمز حاجب او برفع يد من عند الابط . فأما بالنار فبدعة وضلال . وكادوا ان يبدّعوه ويكفّروه وينسبوه الى التمجّس ويطرحوه النار . لولا أنْ قال قائل منهم . ردوا الجواب على مرسلكم. ولا تفعلوا شيئاً عن تهوّك . فلما أخبروه بما رأوا وسمعوا . استرآه واستنطقه عن ذاك الاجبج . فقال أصلح الله المولى . وزاده فضلاً وطولا . قد كان لي كيس لا ينفعني ولا أنفعه . وللاكياس ولما جاء على وزنها ورويها عادة مخالفة لسائر العادات وهي انها اذا خفّت ثـُقلت . واذا ثملت خفت . فلما خفّ كيسي في جوارك السعيد أي ثـَقـُل أحرقته بهذه النار . وانما جعلتها عظيمة هكذا لاني كنت أتوهمه كرضوى في جيبي . حتى انه كثيراً ما منعني عن النهوض والخروج لحاجة مهمة فلما سمع قوله ضحك من خرافته ورضخ له من كفّه الجامدة شيئاً يقابل ما كتبه له الفارياق في اسفاره في الخساسة . فاقبل يحنبش الى بيته وآلى ان لا يكتب شيئاً بعد ذلك الا ما طاب موقعه . وجل نفعه . رجاءَ ان تكون الاجرة على قدر العمل . وهيهات فان اكثر الناس نفعاً وشغلاً . أقلهم أجراً وجُعلا . ومن لم يحسن الا التوقيع . احل المحل الرفيع . ولـُقِمت يده وقدمه كما يلقم الثديَ الرضيع .

٦

في طعـــام والتهام

بينا كان الفارياق رأسه ورجلاه في البيت كان فكره يصعّد في الجبال . ويرتقي التلال . ويتسوّر الجدران . ويتسنم القصور ويهبط الاودية والغيران ويرتطم في الاوحال . ويخوض البحار . ويجوب القفار . اذ كان أقصى مراده أن يرى منزلاً غير منزله وناساً غـير أهله . وهو أول عناء الانسان في حياته . فعنّ له أن يزور أخاً له كان كاتباً عند بعض أعيان الدروز . فسار وحقائبه الامـاني . فلما اجتمع به ورأى ما كان عليه القوم من الخشونـة والتقشف ومن الاحوال المغايرة لطباعه . انكر بعضها ووطّن نفسه على تحمل البعض الآخر . ولم يشأ وشك الرجوع من دون تقصّي معرفتهم ولو كـان رشيداً لـصَرف نفســه عن هواها من أول يوم . اذ ليس من المحتمل ان أهل مدينة أو قرية يغيرون أخلاقهم وما ربوا عليه لأجل غريب دخـل فيهم ولا سيا اذا كانوا شياظمة ذوي بسطة وبأس . وكان هو قميئا.ولكن الانسان كلما قل شغله كثر فضوله فـلا يكتفي بمجرد ما يسمع باذنه حتى يرى بعينه. وكان الفارياق كلما زاد بهؤلاء القوم خبرة ونقداً . زاد اعراضاً عنهم وزهداً لانهم كانوا غلاظ الطباع . بهم جفاء وافظـاع . وسخِي الوساد والملبوس . ملازمي الضَعَف والبؤس . وأقذرهم كان طباخ الامير فان قميصه كان أنتن من المِحاة . وقدميه أقلتا من الوسخ ما لا تكاد تكشطه عنه المِسحاة . وكانوا اذا قعدوا للطعام سمعت لهم زمزمة وهمهمة . وقعقعة وطعطعة . فخلتهم وحوشاً على جيفـة يثرمـلون ويرهّطون وينهسون ويتعرقون ويتمشّشون ويتلمّظون ويتمطّقون ويلوسون ويلطعون ويتنطعون وكل ذلك في فرشطة

خفيفة . فكنت ترى في جبهة كل منهم مضمون مـــا قيل من َلفلـَف . لم يتقصف . فاذا قاموا رأيت الرُزّ مزروعـــاً في لحامم والوضر متقاطراً من كساهم . فكان الفارياق اذا آكلهم قام جوعاناً . ومعت عليه امعاؤه في الليل. فبات سهراناً. فكان يقول لأخيه عجباً لمن يعاشر هؤلاء الناس . من الاكياس. مـا الفرق بينهم وبين البهائم . سوى باللحى والعمائم . لا جرم انهم عائشون في الدنيا لسدّ بصائرهم وافكارهم . ولفتح أفواههم وأدبارهم لا يـكاد أحد منهم يظن ان الله تعالى بشراً الا ّ وكان دونه وما يدرون ان الانسان ليس له بمجرد النطق فضل على العجماوات ومزية على الجمـادات . فان الكلام انما هو مادة لصورة المعاني . ولا تنفع المادة وحدها اذا لم تحلّ فيها الصورة التي هي الوجود الثاني . وقد يقال ان الرقين . تغطّي أفن الافين . وهؤلاء قد حرموا من العقل والنعمة . ورضوا من الكون كله بالنسمة . كيف تطيق ان تعاشر هؤلاء الهمَج وفضلك بين الناس قد بلج . فقال له أخوه ان كثيراً ليحسدونني على مكانتي عنـد الأمير . واني لكيد حسادي اصبر على العسير كما قيل

وكم اشياء يحسبها اناس لفاعلها نعيم وهي بؤسُ
ولولا ان يكيد بها حسوداً لانكر ذكرها وبه عبوسُ

وفضلاً عن ذلك فان القوم ذوو نخوة ومروؤة . وشهامة وفتوّة . وانهم وان يكونوا سيئي الأدب على الطعام . فهم متأدبون في الفعـال والكلام . لا ينطقون بالخنى ولا ُيعرف بينهم لواط ولا زنا .

غير ان الفارياق كان يرى الادب كله في المأدبة فكأنه كان قد تخرج على بعض الافرنج او كان له فيهم نسبة . فمن ثم استدعى بقريحتـــه على هجوم فلبّته . ونادى القوافي لوصفهم فاجابته . فنظم فيهم قصيدة بيّن فيهـا سوء حالهم وخشونة بالهم . من جملتها

في ثغر كل منهم سكـّينة وسلاحه الماضي فأين المـُطعِمُ

ثم عرضها على اخيه وكان مشهوداً له بالادب . وعـــلم لغة العرب .

فاستحسنها منه على صغر سنه . واعجب ببراعة فنه . ثم لم يلبث أن اشتهر أمرها وشاع ذكرها . وذلك لأن أخاه من شدة اعجابه بها تلاها على كثير من معارفه فبلغها بعض الحساد الى أمير الناد . وكان هـذا المبلغ نصرانياً فأن الحسد لا يكون الا عند النصارى مع ان كثيراً ممن تليت عليهم من الدروز كانوا داخلين في عداد المهجوّين .

فلما سمع الامير بذلك استاء جداً وقال لأخيه . تالله لقد جاء أخوك امراً فرياً . كيف يهجونا وهو ضيفنا وقد أنزلناه منزلاً كريماً . وسقنا اليه رزقـاً عميا . لعمر الله لئن لم يتدارك هجوه بقصيدة مدح لأغيظنّنه. وكان هذا الأمير متصفاً بصفات العرب في الفروسة والنجدة . وفي شراء الحمد جهده غير انه كان يكل الامور الى المقدور . ولا يهمه ترتيب حـاله . والنظر في ماله . ثم خشي من ان يكون هذا الوعيد ادعى الى زيادة الهجوم اذا فصل عنه الفارياق وهو مغيظ . فرأى ان الاغضاء أجلب للارضـاء . وان التملق أوفق للتلفق . فمن ثم سار صديقاً له من علماء ملته وفضلاء نحلته ان يصنع مأدبة ويدعوه اليها والفارياق وأخاه . فلما جمعهم النادي . وجيء بالحلواء على أطباق كالهوادي . أقسم الامير قائلاً والله لا أذوقن من هذا شيئاً او ينظم ابو دلامة يعني الفارياق بيتي مديح ارتجالا . فابتدر وقال بديها

قد كان طبع ابي دلامة انه يهجو لأن الهجو وفق جنانه
لكنما هـذا الخبيص نهـاه اذ مُزِجَت حلاوته بمر لسانه

فجن الحاضرون استحساناً لها . حتى الامير لم يتمالك ان صافح الفارياق وقبّله بين عينيه فانعقدت بذلك الموادعة ورجع كل راضياً . وقفل صاحبنـا الى بيته . وآلى ان لا يعقد فيما بعد ناصيته بذنب أحد من كبراء الناس . وان يسد أذنيه عن صوت صيتهم وان غلب على الاجراس .

٧

في حمار نهّاق وسفر واخفاق

ثم لبث الفارياق يتعاطى حرفته الاولى ومل منها ملل العليل من الفراش . وكان له صديق صدوق يراقب أحواله. فاجتمع به مرة وخاضا في حديث افضى الى ذكر المعاش . والتظاهر بين الناس بأحسن الريش فقرّ رأي كل منهما على ان الانسان في عصرهما لا يعدّ انساناً بفضله ومزيّته . بل ببزّته وزينته . وان الناس المولودين من الخزّ والحرير والقطن والكتّان المعلقين في أوتاد حوانيت التجار أعظم قدراً من الناس الماشين العارين عنها . وان المرء اذا كان ضيّق الصدر والرأس بحيث يكون واسع السراويلات واللباس كان هو النبَه الآفق المشار اليه بالبنان . المحمود بكل لسان . فأجمعا رأيهما على ان يستبضعا بضاعة ويقصدا ترويجها في بعض البلاد استطلاعاً لحال أهلها وتفرّجاً من كرب بالهما . فاكتريا حماراً لحمل البضاعة وهو لا يستطيع حمل جثته من الهُزال والضَّوَى فضلاً عن علاوته . ولم يكن قد بقي فيه شيء شديد سوى نُهاقه وزُقاعه . فالاول للاستعلاف . والثاني لمن ينخسه او يلقي عليه الاكاف . ثم سارا وهما يفصّلان ثوب النجاح على قامة الآمال . ويقدّران بساط الفوز على مُندحة الآجال . فما بلغا طيّتهما الا والحمار على شفا جُرفٍ هارٍ من رَمَقه . والفارياق أيضاً زاهق الروح من تعبه وقلقه . نادم على ترك القلم الضئيل. مع ما كان ينفث به من الرزق القليل . ويومئذ عرف عاقبة الجَشَع وتبِعة الرَّتَع. وظهر له سَفاه رأيه في الشراهة الى ما يوجب نَصَب الابدان . وبَلبال الجنان . غير ان اللبيب من استخرج من كل مضرة منفعة . ومن كل مفسدة مصلحة . حتى ان في فقد الصحة لنفعاً لمن رشد . وخيراً لمن

قصد . اذ العليل وهو ممدود على وسادة . تقصر نفسه عن التمادي في فساده .
وفي شهواته المنكرة وأهوائه الموبقة . فتقوى بصيرته والمرض ناهكه . ويملك
سداده والالم مالكه . ويُرضي الله والناس بما هو سالكه وهكذا كانت
حال الفارياق . بعد مقاساته تلك المشاقّ . فانه لمـــا أحسّ بضنك السفر .
ولقي منه ما لقي من الضرر . تبين له ان شق القلم أوسع من حقائب البياعة .
وان سواد المداد أبهى من ألوان البضاعة . وان في ترويج السّلعة لمَعرّةً دونها
معرّة الغُدّة والسِّلعة . فجزم بأنه عند الاياب الى وطنه يرضى بلين العيش
وخشنه . ولا يبالي ان لم يكن ذا شارة رائعة او طَلالة رافعة . او معيشة
واسعة . بحيث لا يجوب أمصاراً . ولا يتـلو حماراً . أما وصف الحمـار على
أسلوبنا معاشرَ العرب فانه كان زبوناً بليداً . حروناً عنيداً . تارزاً قديداً .
لا يكاد يخطو الا بالهراوة . واذا رأى نقطة ماء في الارض ظنّهـــا بحراً ذا
طُفاوة فأجفل منها اجفال النعام . ووَجل كما يُوجل من الحمام . وامـــا على
الطريقـة الافرنجية فانه كان حماراً ولد حمار وأمّه أتان من جيل كلهم حمير .
وكان لونه يضرب الى السواد . ومسّ شعره كمسّ القتاد مصلّم الاذنـين ولا
نشاط . اعسم الرجلين بادي الامعاط . ادرم أفوَه . أد لم أقره . يفركـح
في بسّه . ويرفس عند نخسه . ويكرف ويتمرغ . ويشغّ ويبدغ لا تحيك فيه
العصا ولا يعمل فيه الزجر اذا عصى . ولا يتحرك الا اذا أحسّ بالعَلَف
وان يكن زؤاناً.ولا تظهر فيه الحيوانية الا اذا رأى اتانا . فيريك ح سُموهاً
واستناناً . ونشاطاً وصَميَانا ، حتى كثيراً ما كان يقلب حمله . ويفسد عدله .
وفيه خَلّة اخرى وهي انه كان دائم الاحـــداث على قلة إعمال ضرسه !
مواصل الغَفَق في النجوة والخفض زيادة على نحسه . فان منشأه كان في بلاد
يكثر فيها الكرنب والفجل والسلجم . واللفت والقنبيط كبعض بلاد العجم .
فلهذا اعتاد على اخراج هذه الرائحة من صغره . وزادت فيه بازدياد عمره .
فكان لا بد للماشي خلفه من سد أنفه والاكثار من أفّه . وفي كلا الوصفين
فان رفقة هذا البهيم لم تكن أقل أذى من السفر الاليم .

وانه بعد جولان عدة قُرى ليس فيها من مأوى ولا قِرى . وبعـــد

مجادلات مــــع الشارين طويلة . ومحاولات ومصاولات وبيلة قنع الفارياق وشريكه من الغنيمة بالاياب . ورضيا باللّفاء والعود الى المآب . وعلما ان البئر الفارغة لا تمتــلىء من الندى . وان التعب في تجارتهما يذهب سُدى . فتسبّبا في بيع البضاعة بقيمتها كيلا يشمت بهما من ينظرهما راجعين بماهيتها . وباتا تلك الليلة خالي البال من القيل والقال . فان من الناس من لا يعجبــه شراء شيء الا بعد تقليبه . وبعد تحميق بائعه وتكذيبه . فلا بدّ للبائع من ان يكون عن مثل هؤلاء متصاماً متغافلا متعامياً متساهلا . وتلك خلـّة لم تكن في الفارياق ولا في صاحبه . فان كلاً منهما كان يحاول استمالة الكون الى جانبه . ثم انهما رجعا بثمن البضاعة وبالحمار وسلـّما المال لصاحبه . فعرض عليهما سلعة اخرى فأبيا . وتواعدا ان يجتمعا مرة احرى للشركة في مصلحة أهم . وآثرا ان تكون في البيع والشراء . وقد جرت العادة بين الناس بانه اذا تعاطى أحد عملاً ولم ينجح به أول مرّة لجّ به الشرَه الى معاطاته مرة اخرى . اذ ليس أحد يرضى لنفسه نحس الطالع وشؤم الجَـدّ . وانما ينسب حرفـَه فـيما احترف به الى بعض عوارض وطوارىء حدثت له . فيقول في نفسه لعلّ هذه العوارض لا تقع هذه المرّة . وعلـّة ذلك كله اعتماد الانسان على رشد نفسه وثقته بسعيــه والركونُ الى حدسه . وقد تهوّر في ذلك كثير من الخلق . واكـــثرهم جنى على نفسه في التهافت على الرزق .

٨

في خان واخوان وخِوان

ثم انه بعد مذاكرة طويلة بين الفارياق وصاحبه قرّ رأيها على ان يستأجرا خاناً على طريق مدينة الكعيكات . حيث ترد القافلة منها الى مدينة الركاكات فاستبضعا ما يلزم لهما من الميرة والادوات ولبثا فيه يبيعان ويشتريان بما تيسر لهما من رأس المال وذنبه . فلم تمض عليهما برهة وجيزة حتى انتشر صيتهما عند الواردين والصادرين .وعرف رشدهما جميع المسافرين . فكان الناس يقصدونهما لاقتصادهما . وكثيراً ما انتاب خانهما أهل الفضل والبراعة ، والوجاهة والاستطاعة . حتى كأنه كان حديقة يتفرّج فيها الميكروب .

وعادة أهل ذلك الصقع انهم لا يكادون يجتمعون في محل الا ويتنازعون كاس البحث والمناظرة . ويخوضون في امور الدنيا والآخرة . فان اثبت أحد شيئاً نفاه الآخر . وان استحسنه استهجنه وزعم انه من المُنكَر . فيتحزب القوم احزاباً قِدَداً . ويمتلىء المكان صخباً وإدّدا . وربما انتهى البحث الى التفاخر بالنسب ، والتكاثر بالحسب . فيقول احدهم مثلاً لقرينه : أتردّ عليّ وأبي نديم الامير سميره واكيله وشريبه وجليسه وأنيسه وخصيصه ونجيّه . لا يقضي ليلة من الليالي الاّ ويستدعي به لمسامرته . ولا يحكم بشيء الاّ بعد مشاورته . وقد عرف أهلي من قديم الزمان بانهم سُفراء البلاد ، ونواميس الامجاد . وما احد من الناس ماجَدَهم ولا شارفهم ولا كاثرهم ولا فاخرهم ولا فاضلهم الا وعاد ممجوداً ومشروفاً ومكثوراً ومفخوراً ومفضولاً وربما اعملت بعد ذلك الهراوات . وقامت مقام البينات . فيتنمر منهم من لم يكن يتنمر ويعربد من سكر ، ومن لم يسكر . فينتهي الامر

الى أمير الصقع . فيبعث عليهم مصادرين ذوي صقع . وويل لمن يكون قد ذكر اسم الأمير وقت الجدال. فان عفوه حينئذ من المحال . فأما في الحوادث العظيمة فان المتعدّي اذا فرّ من القصاص أُخذ بذنبه أحد اهله أو جيرانـــه أو ماشيته أو ماعونه وقطع شجره وأحرق منزله . غير أن زمرتنا هــذه لم تكن تتعدّى حدّ الجدال الى القتال . فان الفارياق وصاحبه كانا يقومان فيهم مقام فيصل . فمن هذه الحيثية كثر الوفود عليها . وكثيراً ما بات عندهمـا اصحاب العيال والراح عليهم دائرة . والاغـــاني متواترة . والوجوه ناضرة والعمائم متطايرة . فكان ذلك داعياً الى خصام النساء مع بعولتهن . ومن طبع النساء عموماً انهنّ اذا علمن أن أحداً يعوق أزواجهنّ عنهنّ أضمرن أن يتقرّبن الى ذلك العائـق ببعض حيلهن . فان كان ممن يعشقن صفقن له حالاً على المقايضة والمبادلة أخذاً بثأرهن . فجعلن من كل عضو منه بعلا . ومن كل شعرة خِلاًّ . وان كان ممن تبذأه العين رمينـــه بداهية وتحيّلن في خلاص بعولتهن منـــه وردّ بضاعتهنّ اليهنّ . غير ان نساء تلك البلاد لا يخاصمن بعولتهن وهن مضمرات خيانتهم أو مستحلاّت استبدالهم . فـانهنّ رَبَين على محبة آبائهن وعلى طاعـة بعولتهن . وما خصامهن لهم الاعتاب . وكم في العتاب من لذّة ولم يسمع عن واحدة منهن الى الآن انها خاصمت زوجها لدى حاكم شرعي أو أمير أو مطران . مع ان كثيراً من هؤلاء الأصناف الثلاثـة يتمنون ذلك في بعض الأحـوال اما للافتخار باجراء العـــدل والانصاف في رعيتهم أو لعلة اخرى .

ومن طبع هؤلاء المخلوقات المباركات سلامة النيّة وصفاء العقيدة والتقرب الى الرجال لا عن فجور فترى المرأةمنهنمتزوجةكانت او ثيبةتجلسالىجانب الرجل وتأخذه بيده وتلقي يدها على كتفه وتسند رأسها على صدره وتبسم له وتؤانسه في الحديث . وتتحفه ببعض ما تصل اليـه يدها . كل ذلك عن صفاء نية وخلوص مودة . وأحسن مـــا يرى فيهن البلاهة والغريـّةفانها في النساء خير من النُكـْر والدّهاء.هذا اذا كان في غير ما يشين العرض وينتهك الحرمة . فاما في وقت الجد فلا تصح البلاهة . هذا ولما كان من دأبهـن أن

يكشفن عن صدورهن ولا يرفعن اثداءهن من صغرهن بشيء كان اكـثرهن ُهضْلاً اي ذوات اثـداء طويلة . واكثرهن يعتقد ان في طول رضاع الولد زيادة صحة له . فمنهن من ترضـع ولدها عامين تامين . ومنهن من تزيد على ذلك أمـا محبتهن لاولادهن ورفقهن بهم وشوقهن اليهم فيجلّ عن الوصف . وأعرف كثيراً من البنات كنّ يبكين يوم زواجهن على فراق آبائهن وامهاتهن وأخواتهن كما يبكي غيرهن في المأتم او أشد .

فاما ما يقال من ان البعولة يأكلون وحدهم دون نسائهم فكلام لا أصل له. وانما يكون ذلك اذا كان عند الرجل ضيف غريب حتى لو أراد حينئذ ان تقعد امرأته مع الضيف لتأكل معه لأبت ورأت ان ذلك يكون استخفافاً بها وانتهاكاً لحرمتها . وفي الجملة فانهن لا ُيعبن بشيء الا بالجهل وهن في ذلـك معذورات . فاما الجاهلات من الافرنج فانهن يضفن الى الجهل مكراً وخبثاً . وناهيك بذلك من سبّة . واني ليحزنني جداً ان اسمع ان هؤلاء المحبوبات قد مللن من هذه الفضائل وتخلقن باخلاق اخرى • فيجب عليّ والحالة هذه ان اغيّر ما ما وصفتهن به من المحامد او ان آذن للقـارىء في ان يكتب على الحاشية كذب كذب او هذين البيتين :

ان النساء حيثما كنّ سوى   يملن من حيث أتاهنّ الهوى
لا يغرُرَنّ الغِرّ منهنّ تقَى   ولا ُهدى ولا نهَى ولا حيَا

أو هـذين

َسرٌ َمضربِالارضفيطولوفيعرض   ترى النساء يبعن العرض كالعرض
بالرجل يصفقن عند البيَع لا بيَد   وكلّ قـاض على تسجيله يمضي

أو هـذين

واذا رأيت من الخرائد غادة   تبدو وتخفَى فارجونّ وصالها
واذا دعتك لحاجة عنّت لهـا   لتكون قاضيها فرج مبا ....

او ما قاله دعبل

لا ُيؤيسنـّك من مخـدّرة   قول تغلظه وان َجرَحـا
عسر النساء الى ُميـاسرة   والصعب يمكن بعد ما جمحا

واعلم ان البلاد التي يتجر فيها بعرض النساء بغير مانع الا بمكس عليه قليل يدفع لبيت المال لبناء معابد وغيرها دون اعتبار لقول من قال اطعمة الأيتام الخ.يقلّ فيها التغزل بهن . فان الرجل هناك ايان خطر بباله ان رؤية الوجه الصبيح تنفي همّه وتزيل بلباله . وتخفف اثقاله . وتنفس عنه كربه وتجلو صدى قلبه وتصفي دمه . خرج فوجد ضالته تنتظره وراء الباب . فلا يحتاج عند ذلك الى شكوى وعتاب وتواُجد . والى قوله أرق على أرق ومثلي يأرق . وكفى بجسمي نحولا انني رجل . وذبت وجداً وغراماً ونحو ذلك . فاما البلاد التي يحظر فيها هذا الاتجار فتجد الكلام في النساء متجاوزاً به وراء الحد . ولذلك كان في شعر الافرنج الأقدمين من المجون ما تجده في كتب العرب . وما ذلك الا لأن هذه البياعة كانت وقتئذ ممنوعة . فلما كثرت قلّ عندهم المجون . أما في الجبل فانك لا تجد لهم بياعة ولا مجوناً . وحكى عن الفارياق انه هوى واحدة من اولئك اللائي كن يترددن عليه ولم يكن يحظى الا بلثم اخمصها فكان اذا اصبح يقول لصاحبه .

ان المقبل رجلها ليجل عن	تقبيل راحة قسّه واميره
هن الفواتن للخلي فشعرة	منهن خير من كنوز غروره

٩

في محاورات خانية ومناقشات حانية

لا بأس في ان نذكر هنا مثالاً لما كان يقع بين تلك الزمرة من المحـــاورات فنقول اجتمعت زمرتنا هذه مرة والكاس تدار عليهم . والسرور يرقص بين ايديهم . فقال أفصحهم مقالاً وألدهم جدالاً اي النـــاس فيما علمتم أنعم بالاً واحسن حالاً فقال من بيده الكاس هو من كان على مثـل هذه الحالة . وفي راحته ذي الآلة . فقال له ليس ذلك على الاطلاق . ولم يقع عليه اتفاق . فان هذه الحالة لا يمكن كونها دائمة . فتكون غبطتها غير تامـة . وانما هي بعض من كل وجز من ُجل . وبقي النظر في الباقي . ولا خفاء ان مداومة المدام تورث السقام وتقهي عـن الطعام . ولذلك سميت القهوة ولا يعتادهـا انسان الا حلت به الشقوة .

فقال آخر ان انعم النـاس بالاً أمير يجلس على اريكته وتحفه جماعة من حشمته وحفدته يأتيه رزقه رغداً . ويكفيه رازقه في المعيشة جهداً فاذا أوى الى حريمه خلا بأزهر امرأة على اوطأ فراش فصدق فيه قولهم . اعجب الاشياء وثـْر على وثـر . هذا وانّ أكله المرازمة . وثيابه الناعمه . وأمره مطاع . وحكمه مقابل بالاتباع . فقال بعضهم ليس الامر كذلك . وما الحقّ فيما هنالك . فان الامير لا يخلو بامرأته الا وهو مشغول الخاطر مكـّدر السرائر اذ لا يزال يفكر في كونه مخوّنـاً بماله . مغشوشاً من عماله . يأكل رهطه رزقه ويذمونه . ويأتمنهم فيخونونه . ويعطيهم فيبخلونه . وهو مـع ذلك مرصود منهم فيما يفعله . منتقد عليه بما يتعمله . وانه لا يود السفر ولا يتاح له ويتمنى رؤية غير بلاده ولا يدرك أمـــله . فهو يحسد من يمشي في

الارض سبهلا . ويغبط من يعتسف في الطريق ضللاً .

فقام بعض النقاد . وقال سمعاً يا أهل الرشاد . ان اسعد خلق الله راهب لزم كتابه في صومعته وتفرغ عن الشغل بعقاره وضيعته . فهو يأكل منأرزاق الناس . ويعوضهم عنه دعاء يطفح من اصبار الكأس.ويغنيهم في الدياجي عن النبراس . ويركب مالديهم من النجائب . فهو كما قيل اكل شارب راكب . ثم ما عليه بعد ذلك ان خرب الكون او عمر . وان مات الخلق او نشر.فقال بعض ذوي الرشاد . ما هذا القول من السداد . فان الراهب وأمثاله اذا رأى الناس مقبلين على أعمالهم . مشتغلين باشغالهم . لم يرض الدناءة لنفسه ان يعيش من كدهم.ويستريح على تعبهم وجهدهم.ويتحين أوان رفدهم . بل يود لو كان شريكالهم في اتعابهم . أحرى من ان يكون شريكاً في مصوناتهم . هذا اذا كان نزيه النفس . كريم القنس . صادق السعي. ضابط الوعي ثم ان له عند رؤية الرجال مع نسائهم وأولادهم لغصات . وحسرات وأي حسرات . ولا سيما اذا خلا في الصومعة . ورأى ان سمنه ذاهب سدى من غير منفعة . وان غيره ممنأضواهم الكد والنصب . وأجاعهم الجهد والتعب أقدر منه على بلوغ الارب .مما اصطلح عليه سائر خلق الله من عجم وعرب .

فقال من استصوب مقاله . وارتاح لما قاله . هذا لعمري هو الحق المبين . فان الراهب ومن أشبهه حري بان يعد مع الشقيين .

وانمـــا يظهر لي ان أسعد الناس عيشاً هو التاجر يقعد في حانوته بعض ساعات من يومه فيكسب بايمانه المغلظة في ساعة واحدة ما ينفقه في شهره . يجعل الكاسد من سلعته بتكرير كلامه نافقاً . والمكروه شائقاً . والدون فائقاً . ثم هو ان آوى الى منزله ليلا . أصاب في خدمته دعد وليلى . فهو في نهاره كساب للمال . وفي ليلته منفقه على ربات الحجال . فقال من انتقـد كلامه . وتبين ذامه . ان التاجر لا تمكن له هذه العيشة الراضية . ولا تهنؤه هذه النعمة الوافية . الا اذا كان قازبا ذا معاملات في البلاد القاصية.وركوب للاخطار . واقتحام للاوطار . ومتى كان كذلك نقص من رغده وافرتجشمه

وكُده . ونغص من لذاته تعدد بغيائه . وملأ خاطره أشجاناً . ما حاوله ليرضى به زبوناً واخواناً فكلما هبت ريح خشي على سلعته في البحر . وكلما جشر صبح أوجس من ورود قادم يخــبره بشر . أو مألكة تنبي عن تلف وخسر . وكساد وحظر . فهو لا يزال في اعمال نظر . وتجرع اسف وكدر. فقال بعض السامعين انك لمن الصادقين . أما أنا فلا أود ان اكون ذا اتجار . ولو ربحت في كل يوم مئة دينار . لما يعقب هــذه الحرفة من القيل والقال . والتكذيب والمحال . والمحاولة والمكر . والمداهاة والنكر.فضلا عن اقتصاري في الحانوت ربع عمري . ولا علم لي بما يجري في وكري.فلعل رقيباً يخالفني الى داري . وأنا إذ ذاك أكذب على الشاري واماري وأجامل وأداري .ففي عنقي حبل الاثم بما افعل في محترفي . وبكوني صرت وسيلة لارتكاب الحرام في مألفي .

وانما أظن ان أحق الناس بأن يغبط على عيشته . ويبارك له في حرفته ومهنته . انما هو الحارث الذي يسعى لنفع نفسه وغيره فيما يحرثه . فيكسب به صحة بدنه ومؤونة عياله وذلك خير ما يبرثه .وان زوجه تراوحه على عمله وترفق به في عسره وعطله . ان مرض مرضته بنفسها وقامت بأمر مربعه . وان غاب رعت له ذمة وباتت تنتظر وشك مرجعه . هذا والتعب يستطيب طعامه . ويستحلي نيامه . الا ترى ان أولاد ذوي السعي والكد . اصبح ابداناً واذكى فهما من اولاد ذوي الترفه والجد . وما ذلك الا لانهم يرقدون عن نعاس ويأكلون عن جوع ويشربون عن ظمأ . فأجابه اقرب من وليه . ان فيما قلت لنظرا . فانك لم تر الصورة الا من جهة واحدة وفاتتك الجهــة الاخرى . فلعمري ان الحارث مع كد بدنه . اسير همه وشجنه . وضجيع قلقه وحزنه . اذ هو عبد العناصر . ورقيق الحوادث والاكابر . ان عصفت ريــح خشي على ثمره ان يتساقط فيسقط قلبه معه . وان كــثر المطر أو قل وجل من ان يتلف ما زرعه . وان مــات كبير في بلده . اشفق من كساد ما تحت يده وان يكن ذا بصيرة وحجى . ساءه ما يرى أهله فيــه من العرى والوجى . والذل والاستــكانة .

والابتئاس والمهانة. وتحسرهم على الطيب من المأكول والناعم من الملبوس . وعلى كونه لا يحسن تربية ولده كما يشاء . ولا يمكنه رؤية بلد غير الذي فيه نشا . فهو مهده وقبره وسجنه وحجره . ومع ذلك فهو غرض لاغراض امـامه في الدين . وعصا يتوكأ عليها من هو فوقه من المثرين . والسائدين والمسيطرين . فما يكاد يتخلص من ورطة أحدهما الا ويقع في شرك الآخر . ولا يفوته شر الا واستقبله شر أكبر . وهو مع إصره وجهله . لا يجد مخلصاً له ولا لأهله . ولو أنه رام أن ينهج لأهله منهجاً ارتضاه لنفسه واستصوبـه . ولم يك على وفق مرام إمامه وأميره أو آخر ذي مرتبة . لم يأمن غرامة منهما او حسم عرتبة . أو قصم رقبة. ولم يلبث ان يرى أصحابه له أعداء واخدانه ألِدّاء . فهو على هذا رهين الخضوع . وأسير القنوع . فقال قرين له . وقد صدق على ما فصله . نعم ان هذا لهو الحق الواضح . وما بعد الرق ذل فاضح .

واني أرى بعـد امعان النظر والتروّي ، والتحقق والتحري ، ان اسعد الناس حالاً رجل رزقه الله مالاً . واصلح له بالاً . فجعل دأبـه السفر في البلاد الغريبة . والمشاهدة للكائنات العجيبة . فهو كل يوم في شأن . وله في كل معان أوطان واخوان. فقال قائل قد استوعب فحوى مقاله . واعتقد ما ذهب اليه أنه من فنده وضلاله . لقد زعت قصداً . ولم تقل رشداً . أو ليس المتعرض للسفر . بلو عناء وخطر . اذ كثيراً ما يمنيه بأمراض شديدة . تغيير الهواء عليه والاحوال غير المعهودة . واضطراره ان يطعم ما يعافه . ويشرب ما به أدنافه . فيكون آكلاً لما يأكل بدنه . ويذهب وسنه . هذه الافرنج تأتي الى بلادنا فينغصهم عدم وجود الخنزير فيها .وخلوها عن السلاحف والارانب وما يضاهيها . اذ يزعمون أنهم يخلطون شحم الخنزير ودمه في كل صبة وحسو وحلواء . ويتخذون من لحم السلاحف مرقاً به شفاء من كل داء. ويعيبون علينا أن لبننا غير ضيح ولا ممـذوق . وخبزنا مملوح وطعامنا غير مزعوق . وان ماءنا غير ممزوج بالجير . وخمرنا غير مصبوغة بالعقاقير . وانّا نذبح الحيوانات ذبحاً ونأكل لحمها غريضاً . وهم يخنقونها خنقاً ويأكلونه دائداً أنيضاً . وان جونا غير ذي دجن . ومطرنا غير دائم الهتن . وان سماءنا غير

محلسة وأرضنا غير مطلي وجهها بالرجيع والروث وسائر الاشياء المنجسة . فبقولنا غير مسيخة . وأثمارنا غير مليخة . وان شتانا لا يدوم ثلثي العام . وصيفنا لا يسمع فيه رعد ذو إرزام . فاذا جاء أحدهم الى بلادنا ليتعلم لغتنا ومكث بين أظهارنا عشر سنين . ثم رجع وهو فيها من أجهل الجاهلـــين . أحـــال الذنب على الهواء . فقال انه مني منه بالحمى والجوى . او بالاسهال المفرط . والسعال المقنط . هذا وان من جهل لسان قوم وهو فيهم لم يمكنه ان يعرف عاداتهم وأخلاقهم . واستوى عنده ظاهرهم وخافيهم . فيرى عندهم ما يرى دون علم . ويسمع ما يسمع من غير فهم . فلم يكن لذي السياحة بدٌّ من اتخاذ ترجمان . واعــتماده عليه في كل خطب وشأن . ولا يلبث ان يسيء به الظن . ويرى ان له عليه المن . ولو انه حاول أن يستغني عنه لفاتـــه معرفة الاحوال . وبات بين القوم ذا وحشة وبلبال . وربمـــا حن الى رؤية أهله . والاجتماع بشمله فأدنفه الحنين . وأضناه بين الخدين . وانما يطيب السفر ما اذا اتفق انسان مع ند له نوي . وصديق نجي . وكانا عارفين بلغات كثيرة . وقلوبها خالية من علاقة الحب بالقلب والبصيرة . وهيهات ان يتفق اثنان على رأي واحد . وان تتم لذة من دون مانع جاهد . وهمٌّ عاصد .

فقال أقل الحاضرين رشداً وفضلاً . واكثرهم هزلاً . يا قوم . اني قائـــل قولاً ولا لوم . ان اسعد الناس وأحظاهم . وأترفهم وأرضاهم . البغي الجميلة التي تفتح بابها لقاصدها . وتبيح نفسها لمراودها . فانها تغتنم انس زائرهـــا وماله . وتتبله بحبهـــا حتى يرى ذله فيها عزاً له . ومتى تمكنت من نفر يبذلون لها العين . ويكفونها مؤونة الاطيبين . فلا تحتاج بعدها الى البحث عن مراود في المسالك . والتعرض للمكاره والمهالك . فاذا هي شاخت وجدت مما ادخرته في صباها ما تنفق منه عن سعة . وما تكفر به عن سيئاتهـــا السالفة فتعيش في دعة . ويثني عليها الناس بالتوبة الناصعة . والمعيشة الواسعة والانسان مطبوع على النسيان . لا يبالي إلا بما هو كائن لا بما كان . ولا سيما اذا كان الحاضر يجدي نفعاً جزيلاً . ويسراً مأمولاً وكفى بأئمة الدين اذا نالوا منهـــا العطايا الوافرة . والصلاة المتواترة . ان ينشروا عليها أحسن الثناء

ويبرئوها من كل فحش وخنى . فلهـــا منهم على كل صلة صلوات . وعلى كل دعوة دعوات . فمن ما رآني في ذلك فليسأل قرينته . ويكظم ضغينتــه . ريثما أقيم له على ذلك البراهين . ممن غبر وبقي من العالمين . فلما سمعت الجماعة دعواه . ولحنت مغزاه . ضحكوا من هذيانه . ورأوا ان الجواب على بهتانه. على طريقة الجدال إنما هو من وضع الشيء في غـــير صوانه . فأضربوا عنه صفحاً . وقالوا له قبحاً لرأيك وشقحاً فلو كان أهل صقع على رأيك لفسدت الارض . وبار العرض . ولم يبق من الصلاح اثر ولا برض . وانمـــا اللوم على الكأس التي ذهبت بلبك . وكشفت عن فساد مذهبك . وقبح اربك.ولعلك تهتدي الى الرشاد اذا افقت من خمارك . وتبين لك فظاعة هترك واستهتارك. فرأى ان السكوت له اسلم عاقبة من المحاورة والمجاوبة . والمناقرة والمغاضبة. وان الجمهور يغلب الفرد . وان كانوا على ضلال . وكان هو على هدى وقصد. فاستقفّ تفنيدهم . وخشي وعيدهم . وتفرقوا ولم يجمعوا رأيهم على أي الناس اسعد . وأي عيش أرغد . اذ رأوا دون كل حرفة نغصاً . ومـــع كل حالة غنصاً . وفي كل أكلة مغصاً . وقد فاتهم من احوال الناس كثير ممـــا ضاق وقتهم عن ذكره. كما ضاق هذا الفصل عن احصاء كل ما اوردوه وعن حصره فقف على هذا القدر الذي ذكرته . وسر معي الى استئناف قصة من غادرته وعليكم السلام .

١٠

في اغضاب شوافن وانشاب براثن

السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي . فينبغي لي ان لا اتوكأ عليه في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه . او يرميني في ورطة لا مناص لي منها . ولقد رأيت ان كلفة السجع اشق من كلفة النظم . فانه لا يشترط في ابيات القصيدة من الارتباط والمناسبة ما يشترط في الفقر المسجعة. وكثيراً ما ترى الساجع قد دارت به القافية عن طريقه التي سلك فيها حتى تبلغه الى ما لم يكن يرتضيه لو كان غير متقيد بها . والغرض هنا ان نغزل قصتنا على وجه سائغ لأي قارىء كان . ومن أحب ان يسمع الكلام كله مسجعاً مقفى ومرشحاً بالاستعارات ومحسناً بالكنايات فعليه بمقامات الحريري أو بالنوابغ للزمخشري . فنقول ان صاحبنا الفارياق بعد اقامته مدة على الحالة التي ذكرناها جرى بينه وبين جده من النزاع والمناقشات ما اوجب عليه ترك ما كان فيه واقتفاء طريق آخر من طرق المعاش . فتاح له ان يكون معلماً لاحدى بنات الامراء وكانت ذات طلعة بهية . وشمائل مرضية . تامة الظرف . ناعسة الطرف ولكن ليس المراد بذلك انها كانت لا تبصر من يحبها كما يكون من به نعاس . وانما المعنى انها ذابلته . حتى ولا هذه العبارة مفصحة بما اريد ان اقوله . فانها توهم انها كانت ذابلة مع انها كانت غضة بضة . بل المقصود ان نقول انها كانت كأنها تنظر عن تحشيف . ولكن مادة حشف لا تعجبني فان فيها معاني اليبوسة والخساسة والرداءة وشيء آخر تجل الملاح عن ذكره . بل المراد انها كانت تكسر جفنيها عند النظر . ولا الكسر ايضاً لائق لها . فلا ادري كيف الحن للقارىء ما اردت . ولعل الاوفق ان يقال انها كانت ترمي

بسهام عن عينيها . ولم يكن صغر سنها مانعاً من تتبيل من ينظرها . فان القلب يعلق بهوى الصغيرة الجداء كما يعلق بهوى الكبيرة الوطباء. اذ ليس كل عشق مؤدياً الى الدعارة . فقد عشق الناس الرسوم والاطلال والآثار . والاشكال والديار . ومنهم من عشق لرؤيته كفاً مخضباً او عقيصة شعر او ثوباً او سراويلات او تكة او نحو ذلك . واعرف من احب هرّة امرأة فكان يلاعبها . ويخيل له الغرام انه ملاعب صاحبتها . وكثيراً ما كانت تنشب فيه اظفارها وتدميه . وهو يستعذب ذلك ويستحليه . اما لاستعذاب العذاب في هوى المحبوب . او لاعتقاده ان مداعبة النساء ايضاً لاتخلو من خدش وادماء . فكون الجرح منهن اصالة او وكالة انما هو شيء واحد . وقد سئل احد العشاق عن مبلغ الوجد منه فقال كنت ارتاح للريح اذا مرت على نتن مقبلة من صوب المحبوب . هذا وان عشق اهل تلك البلاد اكثره على هذا النمط . اي ان العاشق منهم يكلف باثر من محبوبه كمنديل او زهرة او رسالة وخصوصاً بنصة شعر فيشمه ويضمه ويقبله ويقلبه ويعانقه كما قيل

الشّعر مثل الشّعر داعية الهوى والشّعر مثل الشّعر ذخر يذخر
من غاب عنك فلست تنظره سوى بالشّعر او بالشّعر وهو الأكثر

فان قيل انهم انما عشقوا ذلك طمعاً في وصال الحبيب الذي تفضل بهذه النعم لا كلفاً بها من حيث هي هي . قلت ما المانع من ان تعشق الصغيرة طمعاً في ان تصير كبيرة . ما اضيق العيش لولا فسحة الامل . وربّ امل احلى من فوز . وقد علم اهل الدراية ان من حرمه الله من الجمال لغاية لايعلمها الا هو عوّضه عنه زيادة قصاص له بجدة الفكر والبصيرة وشدة التصور والتخيل ودقة الحدس فيكون أسرع الى العشق وأكثر حرصاً على اهل الجمال اذ الانسان كلما بعد عن الشيء المقصود كان توقانه اليه اكثر وتولعه بة اشدّ . والمراد من ذلك كله ان نقول ان الفارياق كان يعلم من صغره انه بمعزل عن الجمال . وانه من صبائه كان يعظم اهله ويميزهن على غيرهن وان القبيح معذور على عشق المليح كما قال الشاعر :

وقالوا يا قبيح الوجه تهوى مليحاً دونه السمر الرقاق
فقلت وهل انا إلا اديب فكيف يفوتني هذا الطباق

قالوا أو اقول انا عنهم . وقد يكون عشق الصغير كبيراً كما يكون عشق الكبير صغيراً . فان الصغير لما كان غير ذي رشد يرده عن الاسترسال والتمادي في هواه كان هذا الاسترسال معقباً للجموع دون حد . الا ترى أنالصغير اذا ولع بشيء من اللعب واللهو فانه يتهتك فيه وينهمك غاية ما يكون . فكيف به اذا جنح الى شيء هو اقوى من كل ما يستميل الطبع ويشوق النفس . نعم ان الكبير يقدر منافع ما يقصده من معشوقه اكثر من الصغير ولذلك يكون حرصه عليه ابلغ وطلبه له اكثر . غير ان عزّة نفسه وسورة طباعه ونهيته قد تمنعه من ان يسلم عنان مشيئته للهوى . فيكون في طريق ميله وتوقانـــه تارة مقدماً رجلاً وتارة مؤخراً اخرى . والصغير متى ما استرسل استسهل . وبعد فقد نذرت على نفسي ان اكتب كتاباً . وان اودعه كل ما راق لخاطري من القول سديداً كان او غير سديد فاني اعتقدت ان غير السديد عندي قـد يكون عند غيري سديداً كما تحقق لدي عكسه . فان شئت فاذعن اولاً فليس هذا الوقت وقت العناد والخلاف .

والحاصل ان الفارياق لبث يعلّم سيدته الصغيرة وجعل من دأبه ان يتوّدد اليها باغضاء النظر على اصلاح غلطها . بل لم يكن يرى ان صاحبة هذا الجمال يجوز ردّها . فتأخرت هي في العـــلم وتقدم هو في الهوس فمما قال فيهـــا .

بروحي من أعلمـــه وقلـــبي اسير هواه لن يسطيع صبراً
أغار عليه وجداً من حروف يفوه بهـــا فتلثم منه ثغـــراً

والحمد لله على كون اللغة العربية خالية عن اليا الفارسية والفاء الافرنكية والا لزادت غيرة صاحبنا وربما كان ذلك سبباً في جنونه. فان الغيرة والجنون يخرجان من مخرج واحد كما افاده المشايخ الراسخون في الزواج . وهنا دقيقة وهي ان بعض العتاول جمع عتول وهو من لا خير عنده للنساء يستثقل المؤنث

في الغزل والنسيب فيجعله مذكراً وبعضهم يضمره . وعليه قول الفـارياق اعلمه . والظاهر ان المقدر في ذلك لفظه شخص . فياليت هذا الحرف كان في لغتنا مؤنثاً كما هو في الفرنساوية والطليانية حتى لا يجد الناسب محيداً عن التأنيث .

فأما تعليم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندي انه محمدة بشرط استعماله على شروطه . وهو مطالعة الكتب التي تهذب الاخلاق وتحسن الاملاء . فان المرأة اذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكايد واختراع الحيل كما سيأتي ذكر ذلك . ولا بأس بالمتزوجات بقراءة كتابي هذا وامثاله · لانه كما ان من الوان الطعام ما يباح للمتزوجين دون غيرهم . فكذلك هي الوان الكلام . والظاهر ان اللغة العربية شرك للهوى اذ يوجد فيهـا من العبارات الشائقة المتصبية ما لا يوجد في غيرها .

فمن قرأت مثلاً في شرح المشارق لابن مالـك ان مراتب العشق ثمانية أدناهـا الاستحسان وينشأ عن النظر والسماع ثم يقوى التفكير فيصير مودة وهي الميل للمحبوب . (أي المحبوبه) . ثم يقوى فيصير محبة وهي ائتلاف الارواح . ثم يقوى فيصير خلة وهي تمكن المحبة في القلب حتى تسقط بينهما السرائر . ثم يقوى فيصير هوى بحيث لا يخالطه تلون ولا يداخله تغير . ثم يقوى فيصير عشقاً وهو الافراط في المحبة حتى لا يخـلو فكر العاشق عن المعشوق (أي المعشوقة) . وانه يقوى فيصير تتيما . وفي هذه الحالة لا ترضى نفسه سوى صورة معشوقه ، (أي معشوقته) . ثم يقوى فيصير ولهاً وهو الخروج عن الحد حتى لا يدري ما يقول ولا أين يذهب وحينئذ تعجز الاطباء عن مداواته . قلت وان من انواعه ايضاً الصبابة وهي رقة الهوى والشوق . والغرام وهو الحب المستأسر . والهيام وهو الجنون من العشق . والجوى وهو الهوى الباطن . والشوق وهو نزاع النفس . والتوقان وهو بمعناه . والوجد وهو ما يجده المحب من هوى المحبوب (أي المحبوبة) . والكلف وهو الولوغ. والشغف وهو إصابة الحب الشغاف أي غـلاف القلب أو حجابـه أو حبته

أو سويداءه . والشغف وهو ان يغشى الحب شغفة القلب وهو رأسه عند معلق النياط منه . والشعف وهو بمعناه . والتدليه وهو ذهاب الفؤاد عشقاً . لم تتمالك ان تحس بهذه المراتب السنية كلها حالاً بعد حال . بخلاف لغات العجم فانها لا يوجد فيها الا لفظة واحدة بمعنى المحبة يطلقونها على الخالق والمخلوق .

وقد يظهر لي ان كثيراً من الصّفات المحمودة في الرجال تكون مذمومة في النساء كالكرم مثلاً . فان كرم الرجل يغطّي جميع عيوبه وهو مذموم في المرأة . وقس على ذلك النّكر والدّهاء والاطراء والفروسة والشجاعة والحماسة والصلابة والخشونة والهمّة الى المراتب السّامية والامور الشّاقة والاسفار البعيدة والنّيات النّائية والمطامع المتعذرة وغير ذلك . والعلّة في ذلك كون المرأة تميل بالطبع الى الشّطط ومجاوزة الحد . ودليله في من تميل الى العبادة والنسك فانها لا تقف في ذلك على أمَد بل تتادى فيه حتى تتهوّس وتتخبّل فتدعي المعجزات والكرامات وتعمد الى الرّؤى والاحلام ويخيّل لها أن ملكاً يناجيها . وهاتفاً يناغيها . وانها تقيم بدعائها الأموات . وتحيي الرّفات . وربما قتلت أولادها على صِغَر ابتغاء دخولهم الجنة بغير حساب . أو ولدت توأمين فادّعت انها من غير أب . وفي من مالت الى الهوى فانها تترك أباها وامها اللذين ولداها وربّياها وتقبل تجري في أثر رجل لا تعرف من صفاته شيئاً سوى كونه ذكراً. فكل ما كلفت به المرأة كانت فيه اكثر تمادياً من الرجل .

فكلفهن بالقراءة لا أدري أين يكون مصيره . . والحامل لها على هذا الغلو والشّطط انما هو معرفتها من نفسها انها أقوى على اللذّات من الرجل . فزيادة اطاقتها لذلك زادت في تماديها فيه . ومنه سرى في غيره من الاطوار والشؤون والأحوال الطارئة وفي بعض الغريزية ايضاً . وذلك كالكلام والضحك والسّبح والحركة . وما قلّ منه فيها في بعض الاحوال فانك تراه زائداً في البعض الآخر زيادة فوق القياس .

ولعلّ كلامي هذا يسوء النساء اذا سمعن به وهنّ بين الرجــال . لكــنّي أعلم عين اليقين انهن يضحكن له في أكمامهن استحسانــاً وتعجبــاً . حتى كأني بهن يحسبن اني عشت برهة من الدهر امرأة حتى أمكن لي معرفـــة سرائرهن . ثم مسخني الله تبارك وتعالى رجلا . أو اني علمت ذلــك من هند وسعاد وزينب وميَّة حين كنت أشبِّب بهن وأنا فتىً وأكذب عليهن بقولي لهن اني حُرمت الكرى وأجريت على نواهن عِبراً . واني قد فُــتن لبي . وفارقني قلبي.لاجرم انه لم يفارقني قط . ولو فارقني مرة لما رجع اليّ أبداً . لاني طالما أدخلت عليه هموماً واحزاناً لم تكن لتهم أحداً من الناس في بلادي اذ كنت أحزن لتعّصي معنى من المعاني علي واحاول اختراع شيء من البديع لم يكن احد سبقني اليه . ظاناً انه يقوم للناس مقام هذه المخترعات التي يزهى بها الكون عصرنا هذا فلم يتهيأ لي فكنت أبيت الليل في يأس وكرب . معاذ الله لم تكلّمني وما كلّمت هند وانما عرفت ما عرفت من الأحلام الصادقة اذ كنت أبيت وانا مخلص لله الانابة والقنوت فان لم يصدقني فليبتن ليلة او ليلتين تائبات قانتات مثلي وانا ضامن لهــن انه يهبط عليهن من الاحلام الصادقة مــا يوقفهن على امور الرجال .

١١

في الطويل والعريض

فلنرجع الآن الى الفارياق فانه هو ايضاً رجع الى حرفته وهي النساخة وان كان ذلك على غير مراده . واتفق اذ ذاك ان فتَيَيْن من امراء ذلك الصقع ارادا ان يقرآا النحو على بعض النحاة وكان الفارياق يحضر الدرس وهو مكبٌّ على النسخ . وكان احد التلميذين بطيئاً عن الفهم سريعاً الى الجواب . يتثاءب ويتمطى . ويغرض ويخطا. ويتناعس ويتقاعس ويتفاسأ ويتعاطس. واذا خُيّل له انه َفهِم مسألة حكَّ تحت إبطه وشم رائحتها وكرف ثم تمطّق كما يتمطّق من اقنْطه . ثم عربد من افتتانه . وسلق من وَلِيَه بلسانه . وقال ألاَ قبحـاً لذوي الخواطر البليدة . والفطن البعيدة . كيف لا يتعلّم الناس كلهم فنّ النحو . وهو أسهل من حكّ ما تحت الحَقْو . أما والله لو كانت العلوم كلها مثله ، لما غادرت منها كبيراً ولا صغيراً إلا واستوعبته كله. لكني سمعت ان النحو انما هو مفتاح للعلوم ولا يعد منها فلا بدّ وان يكون غيره أصعب منه . فقال له معلمه لا تقل هكذا بل النحو أساس العلوم وكل العلوم مفتقرة اليه افتقار البناء الى الاساس. الا ترى انّ أهل بلادنا لا يتعلمون سواه ولا يعرّجون على غيره . وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها . ولذلك لا يؤلّفون الا فيه . وانما يحصل الخلاف بينهم في تقديم بعض الابواب على بعض . وفي توضيح ما كان مبهماً منه بأدلّة وشواهد . واختلفوا أيضاً في الشواهد فمن قائل انها مفتعلة ومن قائل انها ضرورة أو شاذّة بيد أن المآل واحد . وهو ان العالم لا يسمّى عالماً الا اذا كان متمكناً من النحو مستقصياً لجميع دقائقه . ولا يكاد يستتب أمر الا به .

ولو قلت مثلاً ضرب زيد عمر من غير رفع زيد ونصب عمرو فما يكون ضر به حقاً ولا يصح الاعتماد على هذا الإخبار . فان حقيقة فعل الضرب متوقفة على علم كون زيد مرفوعاً . وجميع اللغات التي ليس فيها علامات الرفع فهي خالية عن الافاده التامّة. وانما يفهم بعض الناس بعضاً من دون هذه العلامات عن دربة أو اتّفاق . فلا معوّل على كتبهم وان كثرت ولا على علومهم وان جلّت . واني وان كنت قد لقيت منه عَرق القربـــة وكثيراً ما بت وبالي مشغول بعَقَلة من عُقله وبداهية من عراقيله فكدت آرق ليلي كله ولا أهتدي الى وجه الصواب فيما عوص عليّ من ذلك الا اني استفدت منه فائدة عظيمة جعلتني ممنوناً لبنت أبي الاسود الدؤلي أبد الدهر فانها هي التي كانت سبباً في استنباطه . (قلت وكذا سائر البدائع كان أصل استنباطها مسبباً عن النساء) فقال له التلميذ ما هذه الفائدة يا أستاذي . قال قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس . فكنت أميل إلى ما قالته الفلاسفة من انه كل ما كان له ابتداء فهو متناهٍ . فلما رأيت النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه فزل عني والحمد لله ذلك الابهام .

. ومثله او اكثر منه في الصعوبة فن المعاني والبيان . فقال له التلميذ لم اسمع بذكر ذلك قط . قال اما انا فقد سمعت به واعرف كل مـــا يشتمل عليه . وهو المجاز والكناية والاستعارة والتورية والترصيع وغير ذلك مما ينيف على مئة نوع . وبيان ذلك مفصلاً يستفرغ اجلاً . وربما قضى الانسان عمره كله في علم الاستعارات وحدها . ثم يموت وهو جاهلها . او يكون قد نسي في آخر الكتاب او الكتب ما عرفه في اوله . وذلك ان من اخترع هـــذا العـــلم الجليل لم يكن سلطاناً حتى يمكنه اجبـار الناس جميعـاً على متابعته ومشايعته . بل كان فقيراً فأولع بهذا الشيء وشرح الله صدره لتقرير قواعد له فكان لا يقع بصره على شيء الا وخطر بباله طريقة من طرقه . فاذا نظر الشمس مثلاً طالعة قال كيف ينبغي ان يفهم هنا طلوع الشمس هل هو حقيقي او مجازي وهل المجاز هنا عرفي او لغوي . وكذا لو رأى البقل نابتاً في زمن الربيع قال كيف تأويل قول القائل انبت الربيع البقل . فهـل يصح اسناد

ذلك الى الربيع وهو انما نشأ عن دوران الارض حول الشمس فهو ولا شك مسبب عنها . ولا ريب ان مدير الارض انما هو الله عزّ وجلّ . فيكون قوله انبت الربيع البقل مجازاً بدرجتين . لان الربيع مسبب عن دوران الارض ودوران الارض مسبب عن تقدير الباري تعالى . وكذا قولهم جرت السفينة او الحجر . ومن المجاز ما له ايضاً ثلاث درجات ومنه ما له اربع . ومنه ما تفوق درجاته درج المأذنة . ومن هذا الدرج ما شكله قرقي ومنه حلزوني ومنه لولبي . ومنه غير ذلك ثم ما زال المستنبط يفكر في هذه البدائع حتى ادركه الاجل فمات وبقي عليه اشياء كثيرة لم يحكمها . فقام من بعده من اولع مثله بهذا الفن فاستدرك على سلفه مواضع كثيرة. وظل يباحثه ويعارضه الى ان قضى نحبه وقد ترك مجالاً لغيره . فجاء من بعده من اصلح بينهما في عدة مواطن وعاب على كل منهما ايضاً اموراً . ثم مات ولم ينه ما قصده . فخلفه من صنع به ما صنعه هو بغيره .

وهكذا بقيت ابواب النقد مفتوحة الى عصرنا هذا فمن قائل ان هذه العبارة من الاستعارة التبعية . ومن قائل انها من الترشيحية . قال بعض العلماء الاستعارة تنقسم الى مصرّح بها ومكنى عنها . والمصرح بها تنقسم الى قطعية واحتمالية . والقطعية تنقسم الى تخييلية وتحقيقية . وتنقسم ثانياً الى اصلية وتبعية . وثالثاً الى مجردة ومرشحة . وقال بعضهم وهذه تنقسم ايضاً الى عقيونية ومكائية ونبيصية وطعطعية وغميسية ولعلعية ويلميسة وعسعاسية . والعقيونية تنقسم ايضاً الى فرقعية وقرقعية ومقامقية. والفرقعيةالى جحلنجعية وشنطفية وعطروسية ودمحالية وشينقورية وكربرية . والقرقعية الى خعخعية وعهعخية وعهخغية وكشعشجية وكثعظجية . والمكائية الى معوية وعنتريـة وصفرية وعصلية وبلكية وصفارية وضغيلية وطرطبية وانقاضية . الى غير ذلك من التقسم . ويشترط في خطبة الكتاب ان تكون جامعة لجميع هذه الانواع . وان يراعى فيها وفي الكتاب كله نوع الطباق . مثال ذلك اذ قال القائل في فقرة طلع . فلا بدّ وان يقول فيها او في الثانية نزل . واذا قال أكل يقول بعده من غير تراخ تقيأ او — وفي الجملة فينبغي ان تكون الخطبة

عويصة ما امكن . وايـــة خطبة لم تكن كذلك كانت عنواناً على ركاكة الكتاب كله فلم يكن جديراً بالمطالعة .

فقال له التلميذ وقد امتقع لونه وهل النحاة أيضاً ماتوا ولم ينهوا قواعـد هذا العلم . وهل قراءتي له عليك تغني عن اعادته عند غيرك هنا . وهل يجب على الطالب في كل بلد سافر اليه ان يتعلم نحو اهله ام هو عـلم مرّة واحدة . فقال له الشيخ اما عن المسألة الاولى فأجيب انه ماجرى على البيانيين فقد جرى ايضاً على النحاة . فقد قال الفرّاء أموت وفي قلبي شيء من حتى . وقد مات سيبويه وبقي في قلبه من فتح همزة ان وكسرها اشياء. ومات الكسائي وفي صدره من الفاء العاطفة والسببية والفصيحة والتفريعية والتعقيبية والرابطـــة حزازات . ومات اليزيديّ وفي رأسه من الواو العاطفة والاستئنافية والقسمية والزائدة والانكارية صداع وأي صداع . ومات الزمخشري وفي كبـده من لام الاستحقاق والاختصاص والتمليك وشبه التمليك والتعليل وتوكيد النفي وغير ذلك قروح وأي قروح. ومات الاصمعي وفي عنقه من رسم كتابة الهمزة غدّة . وفي الجملة فان معرفة حرف واحد من هـــذه الحروف اذا تعمد الطـالب استقصاءها وجب عليه ان يترك جميع أشغاله ومصالحه ويعكف على مـا قيل فيه وأجيب عنه . وما قيل من الامثال . أعطِ العلم كلّك يُعطك جزأه الا لأجل ذلك . وأما قولك هل يلزم ان تقرأ النحو ايضاً على غير هنا أي في بلادنا فذلك غير لازم . فان اهل بلادنا كلهم لا يطالعون غير هذا الكتاب الذي تطالعه انت . بل قلّ من يطالعه ويفهمه أو يعمل بمقتضى قواعده . وأما عن سؤالك الثالث فأقول انه لا ينبغي إعادة هذا العلم في كل بلد ولكنك حيثما سرت وأيّان توجهت وجدت أناساً ينتقدون عليك كلامك . فان عبرت بالواو مثلاً قالوا الأفصح هنا الفاء او با وقالوا الاولى ام . وفي بعض البلاد اذا علم انك تنقط ياء قائل وبائع سقط اعتبارك من عيون الناس . فقد قرأت في بعض كتب الادب ان بعض العلماء عاد صديقاً له في حـــال مرضه فرأى عنده كرّاسة قد كتب فيها لفظة قائل بنقطتين تحت الياء فرجع في الحال على عقبه وقال لمن صار معه لقد أضعنا خطواتنا في زيارته .

وهذا هو سبب قلة التأليف في عصرنا . فان المؤلف والحالة هذه يعرّض نفسه للطعن والقدح والبـــلاء . ولا يراعي الناس ما في كتابه من الفوائد والحِكم . إلا اذا كان مشتملاً على جميع المحسّنات البديعــة والدقائق اللغوية ومَثَل ذلك مثــل رجل فاضل يدخل على قوم بهيئة رثة ورعابيـــل شماطيط . فالناس لا تنظر الى أدبه الباطني بل الى بزّته وزيه . والحمد لله على قلة المؤلفين اليوم في بلادنا ، إذ لو كثروا وكثر نقدهم وتخطئتهم لكثرت أسباب البغض والمشاحنة بينهم ، وقد استغنى الناس عن ذلك بتلفيق بعض فِقَر مسجّعة في رسائل ونحوها كقولك السلام والاكرام . والسنيّة والبهية . فأخفتّه ما كان ساكناً . فأما الشعر في عصرنا هذا فانـــه عبارة عن وصف ممدوح بالكرم والشجاعة أو وصف امرأة بكون خصرها نحيلاً ، وردفها ثقيلا . وطرْفهـــا كحيلا ومن تعمّد قصيدة جعل جلّ أبياتها غزلاً ونسيباً وعتاباً وشكوى وترك الباقي للمدح .

ثم ان التلميذ النجيب استمر يقرأ على شيخه الأديب في النحو حتى وصل الى باب الفاعل والمفعول فاعترض على ان الفاعل يكون مرفوعـــاً والمفعول منصوباً . وقال هـــذا الاصطلاح فاسد لأن الفاعـــل اذا كان مرفوعاً كان الذي عمل فيه الرفع آخر . والحال انه هو العامل . وبيانه انا نرى الفاعل في البناء يرفع الحجر وغيره على كتفه فالحجر هو المرفوع والفاعل رافع وكذلك فاعل الـ... فانه هو الذي يرفع الساق . فقال له المعلم مه مه لقد أفحشت ، فكان ينبغي لك التأدب في مجلس العـــلم فانه غير مجلس الامارة . ثم ختم التلميذان قراءة الكتاب ولم يستفيدا شيئاً وكأن الشرح كله كان موجهـاً الى الفارياق . ومذ ذلك الوقت أخذ في تجويد عبارته بمقتضى القواعد النحوية فصار يهوّل بها على رعاع الناس كما يظهر في الفصل الآتي .

١٢

في أكلة وأكال

لا بد لي من أن أطيل الكلام في هـــذا الفصل امتحاناً لصبر القارىء . فان أتى على آخره دفعة واحدة من غير ان تحترق أسنانه غيظاً أو تصطك رجلاه غيرة وحمية . أو ينزوي مـــا بين عينيه أنفة وحشمة . أو تنتفخ اوداجه وَغَـرا وهوجاً . أفردت له فصلا على حدته مدحاً فيه وعددته من القراء الصابرين . ولكون الفارياق في هـذا الوقت قد طال لسانه وان يكن فكره قد بقي قصيراً ، ورأسه صغيراً ناقصاً من عنـد قمَحْدُوَته . وقد نذرت على نفسي ان أمشي وراءه خطوة خطوة وأحاكيه في سيرته . فان رأيت منه حمقة جئت بمثلها. أو غواية غويت مثله. او رشداً قابلته بنظيره وإلا فاني أكون خصمه لا كاتب سيرته أو ناقل كلامه . وينبغي ان يعلق هذا الحكم في أعناق جميع المؤلفين . ولكن هيهات فاني ارى اكثرهم قد زاغ عن هذه المحجة . اذ المؤلف منهم بينا هو يذكر مصيبة أحد من العبـــاد في عقله او امرأته أو ماله اذا به تكلف لايراد الفقر المسجعة والعبارات المرصعة وحشى قصته بجميع ضروب الاستعـارات والكنايات . وتشاغل عـــن هم صاحبه بما انه غير مكترث بـــه . فترى المصاب ينتحب ويولولول ويشكو ويتظلم . والمؤلف يسجع ويجنس ويرصع ويوري ويستطرد ويلتفت ويتنـاول المعاني البعيدة . فيمد يده تارة الى الشمس وتارة الى النجوم . ويحاول انزالها من اوج سمائها الى سافل قوله. ومرة يقتحم البحار . واخرى يقتطف الازهار ويطفر في الحدائق والغياض . من اصل الى فرع ومن غوطة الى ربوة .

ما ذلك دأبي فاني اذا اوردت كلامـــاً عن أحمق انتقيت فيه له جميـــع

الالفاظ السخيفة . واذا نقلت عن أمير تأدّبت معـــه في النقل ما امكّن . فكأني جالس بمجلسه . او عن قسيس مثلاً او مطران اتحفتـه بجميع اللفظ الركيك والكلام المختل . لئـلا يصعب عليه المعنى فيفوت الغرض من تأليف هذا الكتاب .

فاعلم اذاً ان الفارياق بعد ان فار دماغه بحرارة النمو زيادة على ما كان له من الرغبة في النظم سار ذات يوم لقضاء مصلحة له . فمر في طريقه على دير للرهبان . وكان الوقت مساء . فرأى ان يبيت ليلته تلك في الدير فعرج عليه وطرق الباب فبرز له رويهب . فقال له الفارياق هل من مبيت عندكم لضيف فقال له الرويهب . اهلاً به ان لم يكن ذا سيف . ففرح الفارياق بهذا الجواب وعجب من انه يوجد في الدير من يحسن المساجلة . وانما قال له الرويهب مـا قال لأن الدير كان ينتابه كثير من اتباع الامـــير ليبيتوا فيه من كل سرطم قهقم لهم نهم وحم وخم هقم يسمع له هيقم . فكان احدهم اذا بات ثمّ ليـلة يكلف الرهبان من المطاعم الفاخرة ما لم يعهدوه . لأن هؤلاء الخلق يعيشون عيشة المتقشفين المقترين المتبلغين بادنى القوت . اذ هم ينظرون الى الدنيا والى لذاتها نظر العدو . فهي عندهم ضرة الآخرة. كلما تباعد عنها الانسان المخلوق فيها تقرب الى الجنة . حتى ان الخبز الذي كثيراً ما يأكلونه بغير إدام ليس كخبز الناس . فانهم بعد ان يخبزوه رقيقا يشمسونه اياماً متوالية حتى يجف وييبس . بحيث يمكن للانسان اذا أخذ بكلتا يديـه رغيفين وضرب احدهما بالآخر ان يخيف بقرقعتها جميع جرذان الدير. او ان يتخذهما متخذ الناقوس الذي يضرب بـه لأوقات الصلاة . ولا يقدرون على أكله إلا منقوعاً بالمـــاء حتى يعـود عجيناً . فأما تقلد تابع الامـــير بالسيف فانما هو تهويل وانذار بنكال المتهاون به . كتهويل الفـارياق على الرويهب بسؤاله . ومن لم يكن له سيف استعار سيف صاحبه . او اتخذ له خشبة رقيقة في غمد سيف . وليس في استعارة الماعون وغيره عند اهل الجبل من عار بل كثيراً ما يستعيرون حلياً ومعرضاً للعروس يزفونها به وللرجل ثياباً وعمامة يزينونه بها .

ثم انه لما حان وقت العشاء جاء ذلك الرويهب بصحفة من العدس المطبوخ

بالزيت وبثلاثة أصنج من ذلك الخبز وجعلها بين يدي الفارياق. فجلس للعشاء وتناول رغيفاً ودقه بالآخر حتى انكسر . فلما التقم اول لقمة نشبت شظية من الخبز في سنه وكادت ان تذهب بهـا. فجعل يسندها ويسد موضـع الخلل منها بالعدس . ولم يكد يتم العشاء حتى اشتدت حرارة العدس في بدنه فجعل يحك باظفاره وببعض قصد الرغيف حتي تهشم جلده . فساءه ذلك جـداً . وقال لقد خلخلت هذه الكسرة سني فلأقلعن سناً من اسنان هـذا الدير . ثم انه اعمل فكره في نظم بيتين في العدس تشفيا مما ناله منه جرياً على عـــادة الشعراء من انهم يتشفون بعتابهم الدهر مما هم فيه من النحس والقهر والشقاوة والضر . فالتبست عليه لفظة فقام في طلب القاموس فطرق باب جـــاره وكان من المتحمسين في الدين . فقال له هل عندك يا سيدي القامـوس . قال ما عندنا بالدير جاموس بل ثيران . فما حاجتك بـه الآن . فطرق باب آخر وكان أشد منه خشونة . فقال له هل لك ان تعيرني القاموس ساعة قـال اصبر عليّ الى نصف الليل فان الكابوس لا يأتيني الا في هـذا الوقت . فمضى الى غيره واعاد عليه السؤال . فقال له اي شيء هو هذا القاموص يا ماغوص فرجع الى صومعته وقال . لا بد من نظم البيتين . وسأترك محلاً فارغاً للفظة فقال :

أكلت العدس في دير مساء	فبت وبي أكال لا يطـاق
فلولا انـني أعملت ظفري	لقال الناس . . . الفارياق

فلما كان نصف الليل والفارياق نائم اذ باحـد الرهبان يقرع عليه الباب . فظن انه اتاه بالكتاب المطلوب . ففتح له وهو مستبشر بوجدان ضالته. فقال له الراهب قم الى الصلاة واقفل الباب واتبعني فتذكر عند ذلك ماقاله له جاره من ان الكابوس لا يأتيه الا في نصف الليل . فقال في نفسه لقد صدق الرجل فان هذا الداعي أشد على النائم من الكابوس . قبحاً لها من ليلة شؤمى لقـد كاد الخبز يقلع سني والعدس مناني بالحكة . وما كدت الآن أغفى حتى أتاني هذا القارع الاقرع النحس يدعوني الى الصلوة أكان أبي راهباً وأمي راهبة أم

وجب علي الشكر والصلاة من أجل أكلة عدس ؟ ولكن سأصبر الى الصباح.
فلما كان الغد جاءه ذلك الرويهب ليسأله عن حاله اذ كان قد دخل الدير مذ عهد غير بعيد فكان فيه بقية رقة ولطف . فقال له الفارياق سألتك بالله ان تجلس عندي قليلاً . فلما جلس قال له قل لي فديتك أفي كل يوم أنتم تفعلون هذا . فوجم الرويهب فظنّ به سوءاً ثم قال أيّ فعل تعني . قال أكلكم العدس مساء وقيامكم في نصف الليل للصلاة . قال نعم ذلك دأبنا في كل يوم . قال ما الذي أوجبه عليكم . قال التعبّد لله والتقرّب اليه . قال ان الله تبارك وتعالى لا يهمه ان كان الانسان يأكل عدساً او لحماً . ولم يأمر بذلك في كتبه . اذ ليس فيه مصلحة لنفس الآكل او للمأكول . قال هذا دأب النّساك العُبّاد اذ التقشّف في المعيشة ونهك الجسم بالرديء من الطعام وبقلة النوم ينفي الشهوات . قال لا بل هو مناف لما شاءه الله . اذ لو شاء ان ينهك بدنك ويخليه من الشهوات لخلقك ضاوياً دَنِفاً . ما قولك في من خلقه الله جميلاً . أيجوز له أن يشوّه وجهه بأن يبخق عينه أو يخرم أنفه أو يشرم شفته أو يقلع اسنانه كما اردتم قلع اسناني البارحة بخبزكم هذا اليابس. أو أن يسخّم سحنته . قال في ظني انه لا يجوز . قال أليس البدن كله على قياس الوجه . لعمري ما خلق الله الساعد الفعم الا وهو يريد بقاءه فعماً. ولا الساق المجدولة الا وشاء لها ان تكون كذلك دائماً . ولا حلل الطيبات من المآكل للناس الا وهو يريد أن يأكلوها هنيئاً مريئاً . نعم قد حرم هذه الطيبات بعض الاديان المشطّة . غير ان دين النصارى يحللها . وانما جاء التحريم من بعض شهارب طعنوا في السن فلم يكن بهم قَطَم الى اللحم ولا الى غيره . ما المانع من تناوله كل يوم ؟ قال لا ادري وانما سمعت علماءنا يقولون ذلك فقلدتهم . واني اقول لك الحق اني مللت من هذه العيشة . فاني ارى جسمي كل يوم في ذبول ونفسي في انقباض . ولو كنت عرفت من قبل ما أصير اليه لما سلكت هذه الطريقة غير ان أبي وامي فقيران وخشيا ان اكون من ذوي البطالة والتعطل ، اذ لا صنائع نافعة في بلادنا يمكن للانسان ان يتعلمها ويعيش منها فزيّنا لي الرهبانية . وقالا لي اذا واظبت على الطريقة في الدير بضع

سنين فربما ترتقي الى رتبة عالية فتنفع نفسك وإيانا وما زالا بي حتى أجبتهما ولو لم أجبهما طوعاً لأكرهاني على ذلك . فقال له الفارياق نعم ان الرهبانية هي ملجأ من البطالة فكل من كان عطلاً عن علم او صنعة يقصدها الا انك ما زلت مثلي حدثا فيمكن لك أن تقصد أحداً من أهل الخير والشفقة فيدلك على ما ينفعك . والله تعالى خلق الاشداق وتكفّل لها بالارزاق. وقد جعل في الحركة بركة هذا وانت تعلم ان الرهبانية مشتقة من الرهبة وهي خوف الله تعالى . فاذا تعاطيت حرفة ً وعشت بها بين الناس وتزوجت ورزقت ولداً وخشيت الله فانت ِ ح راهب . ليست الرهبانية بأكل العدس والخبز اليابس. أليس ان رهبان ديرك بينهم من الخصام والطعن والحقد ما لا يوجد عند غيرهم . فان رئيسهم لا يزال يحاول اذلالهم واخضاعهم له . وهم لا يزالون مدمدمين عليه شاكين منه . وبينه وبين رؤساء الاديار الاخرى من الحسد والمنافسة ما بين وزراء الدول . وأكثرهم ينال الرئاسة بالتملق للامير الحاكم او للبطرك . فاذا أحس بوشك انقضاء مدته وخشي العزل رأيته يجود بالهدايا والتحف لذوي الامر والنهي بما لا يجود به أكرم أهل بلادنا . وذلك حتى يقرّوه على رئاسته. وهؤلاء الرهبان المكرهون على التبلغ بالعدس وعلى التنحس اذا دعاهم أحد لمأدبة سمعت لاستراطهم دويّا. فيلفلفون ويلعمظون ويتلمظون ويتكظكظون ويشتفون حتى تجحظ عيونهم . وأضر ما يكون عليّ منهم انك لا تكاد تسلّم على أحد منهم الا ويمد لك يده لتبوسها . ربما كانت نجسة قذرة . فكيف الثم يد من هو أجهل مني ولا غناء عنده في شيء . انظر كم عندنا في بلادنا من دير وعلى كم تشتمل هذه الاديار من الرهبان . ولم أرَ أحداً منهم نبغ في علم ولا من أثرت عنه مكرمة . بل لا تسمع عنهم الا ما يشين الانسان في عقله وعرضه .

قد كنت في خدمة بعير بيعر مدة فرأيت أحد هؤلاء الكارزين قد تمكن من ابنته تمكن الزوج من امرأته . فكان يقول لها فيما يسألها عنه هل تتمجمج أليتاك ويترجرج ثدياك ؟ فما للراهب ولترعُّد ألايا النسوان

ورجرجة أثدائهن !؟ وآخر كان رئيساً في دير فعلق بنتاً في قرية بالقرب من الدير فلم تلبث ان علقت منه . غير انه لما كان أخوه وجيهاً عند الحاكم خاف أبو البنت من ان يخاصمه ويفضحه . بل قد تقرر في عقول الجهلاء من أهل بلادنا ان افشاء أمر مثل هذا مما يفتضح به عرض أحد هؤلاء النسّاك حرام . ايم الله ان الستر عليه حرام فان فضيحته تردع غيره . وأعرف آخر جاء الى قريتنا متماوتاً وقد طوّل كمّيه وأسبل قلنسوته حتى لم يكد يظهر من تحتها الا فمه ولحيته تظاهراً بالصلاح والتقوى . ثم أنزل نفسه منزلة خطيب في القوم . فجعل يخطب ويعظ وينذر بصوت جهير . وكان يبكي عند ذلك أشد البكاء ويذرف المدامع اذ كان جعل في منديله الذي يمسح به وجهه شيئاً ذا حرّ'ة لا أدري ما هو . ثم آل أمره الى انه يقضي أياماً وليالي مع أرملة حسناء شابة من نساء الامراء في خلوة استذراعاً بانها تعترف له اعترافاً عاماً. أي من يوم انتفخ ثديها ونبت شعرها الى ذلك اليوم. وأعرف آخر كان قد ذهب الى رومية وكان مغفلاً فكان ينام في فراشه بثيابه الرهبانية على طريقته في الدير ويوسخ الملاءة . فكان صاحب المنزل ينهاه عن ذلك. ثم لما رأى ان جميع قسّيسي رومية واعيان ائمتها من البابا الى الكردينال الى الراهب ينامون عريانين لا شيء يستر سوأتهم غير ملاء . الكتان الرفيع كفر بهم وصار يستحل الحلال والحرام معاً . فانظر الى هؤلاء العُبّاد من العباد فانك لا ترى فيهم الا خبيثاً منافقاً . او جاهلاً مائقاً . وندر وجود الصالح بينهم. اما العلم فهو محرّم عليهم كلهم .

لا بأس في الرهبانية تطوعاً لا بأس انما هي طريقة محمودة . ولكن بشرط مجاوزة الخمسين سنة . وان يكون الداخلون فيها من اهل الفضائل والمعارف . يشتغلون بالعلم وبتهذيب املاء اخوانهم ومعارفهم . ويحضون على مكارم الاخلاق والاتصاف بالمزايا الحميدة . ويؤلفون الكتب المفيدة وينهجون لقومهم المناهج المؤدية الى الخير والفلاح والفوز والنجاح . لا مثل هؤلاء الذين لا يعرفون شيئاً من الدنيا سوى التقشف والرثاثة . وناهيك دليلا على جهلهم

اني سألت اشدهم تحمساً ان يعيرني القاموس فظنته الجاموس . وآخر ظنّه الكابوس . وآخر القاموص . فبادر ياصاح وتخلص منهم هداك الله والا فتكون لا من اهل الدنيا ولا من اهل الآخرة . فان دين الجاهل عند الله ليس بشيء . واذا بلغت الستين سنة فها هي الرهبانية بين يديك .

فقال له كيف التخلص . قال ألك في الدير متاع فاساعدك على حمله . قال مالي سوى ما تراه عليّ . قال فامض بنا اذاً فان الرهبان الآن عاكفون على الصلاة . فخرجا من باب الدير ولم يعلم بهما احد . فلما بعدا قليلاً هنأ الفارياق صاحبه بخروجه من ربقة الجهل وقال له . لعمري لو كنت كلما اكلت اكلة عدس خلصت راهباً او رويهباً او بالحري راهبة او رويهبة لوددت ان لا آكل الدهر غيره وان أكل بدني . فجزى الله الدير خيراً .

١٣

في مقامة

أو مقامة في الفصل الثالث عشر

قد مضت عليّ برهة من الدهر من غير ان اتكلف السجع والتجنيس واحسبني نسيت ذلك . فلا بد من ان اختبر قريحتي في هذا الفصل فانه اولى به من غيره . اذ هو اكثر من الثاني عشر وأقل من الرابع عشر . وهكذا افعل في كل فصل يوسم بهذا العدد حتى افرغ من كتبي الاربعة . فتكون جملة المقامات فيما اظن اربعاً فأقول .

حدّس الهارس بن هشام قال ارقت في ليلة خافية الكوكب . بادية الهيدب . طويلة الذنب ملأى من الكرب . الى الكرب . فجعلت انام على ظهري مرة وعلى جنبي اخرى . واتصور شخصا ناعساً امامي يتثآب وآخر ينخر نخرا . وآخر يتهوم سكرا . فان التصور فيما قالوا يبعث على فعل ما ترغب النفس فيه . وينشط الى ما تصبو اليه وتشتهيه . ومع ذلك فما اكتحلت غمضا . ولا فتح فمي تثاؤب طولاً ولا عرضا. وكان يخيل لي ان اهل الارض كلهم رقود وانا وحدي من بينهم ارق . وان جميع جيراني في سكون وانا دونهم قلق . فقمت الى الشراب فحسوت منه حسوة . فلم تك الا غفوة . كانما كانت هفوة . فأفقت في اسوأ حال . وشر بلبال . والهموم قد انثالت عليّ من كل جانب . والافكار متطايرة على كل مقارب ومجانب . فكان يخطر ببالي كل ممكن ومحال ويعاودني ما كنت فكرت فيه من الاحوال مرة منذ احوال .

فلما علمت ان النوم قد ندّ عني. وان تناومت. وانه لا بد من ترقب الفجر ان أذعنت وان قاومت . مددت يدي الى كتـــاب أطالع فيه . وقلت ان لم يُنمني فينبهني ببعض معانيه . فتناولت أقرب ما وصلت اليه يدي . وأنا غير مؤثر أحد الكتب على غيره في خَلـَدي واذا به كتاب موازنـــة الحالتين . وموازنة الآلتين . للشيخ الامام العالم العامــل . الفاضل الكامل . أبي رشد نـُهْبة بن حزم. المشهور بالبلاغة في النثر والنظم . وهو كتاب لم يسبقه اليه احد من المؤلفين . ولم يجاره فيه كاتب من المجلّين . فقد وازن فيه بين حالتي بؤس المرء ونعيمه . وروحه وهمومه. ومنافعه ومضاره . وأحزانه ومسارّه. منذ كونه طفلاً . الى ان يصير كهـلاً . ثم شيخاً قحلا . وقد جعل ذلك في جدولين متقابلين. واسلوبين متفاضلين . الا انه لما كان الشيخ قدس الله سره. ورفع في أعلى عليين مقامه وقدره . على ما يظهر لي ذا عشية راضية. وسعادة وافية . وهمة ماضية . رجّح طرف اللذات على غيرها . واستقلّ شر الحياة بالنسبة الى خيرها . حتى انه زعم ان اللذة تكون عن الفعل والتصور معاً . بخلاف الألم فان الفكر لا يقع منه موقعاً وانه كان اذا امتثل خَوْداً يداعبها وتداعبه . هزّته نشوة طرب مال بها سريره ومركبه وكلكله ومنكبه. بيد اني ارتبت في كلامه في هذا المحل . وقلت سبحان الله لا بد لكل مؤلف من هفوة وان جلّ . وذلك اني لما تصورت الشخص المتهوم . والناعس والمتثائب وأنا متناوم . لم يغنني التصور عن الفعل نقيراً . ولا وجدت فيه لذة لا قليلا ولا كثيراً . على اني أذهب الى ما ذهب اليه بعض المجانين . من أن لذة اليوم لا تكون قبله ولا معه ولا بعده للنائمين . وهي عقـــدة للطبائعيين لا يمكنهم حلها بلسانهم وأفكارهم . ولا بسنانهم وأظفارهم . غير ان عبـــارة المصنف كانت من العلم والحكمة بحيث تخلب عقل الناقد الخبير . وتربك في تحري أحد القولين كل نحرير فلما اطلقت النظر فيها وعاد اليّ كليـلا واعلمت حد النقد ورجع مفلولاً . عزمت على أن استجلي هذه الأشكال . من بعض ذوي الدراية والجدال . فقلت في نفسي كما ان يدي نالت أدنى الأسفار . كذلك يكون مراوحي عليه ادنى الجار .

وكان يسكن بالقرب مني مطران يطريء قومه على حلْيته . ويعْظمون فضله وأدبه على طول لحيته . فقصدته ضحوة النهـــار . باديَ الاستبشار . فرأيته ذا بِكـْلة تروق . وبِزّة تشوق . فعرضت عليه الجدولين وقلت افتني في هذه القضية . ولك الأجر من رب البريـــة . فنظر فيهما ثم حرّك رأسه . وجعل يرمش ثم يشكو نُعاسه . وقال لي ما ترجمته اذ لم يكن ممن تسمو الى السّجع همّته ما لحنت مغزاهما. ولا دريت فحواهما ولو كانا بعبارة ركيكة. كان ذلك عليّ أسهل من الجلوس على هذه الاريكة . فقلت قد أخّره في العلم والشـَقـْف . تقدمه في الصف . ونقص من عقله وفهمه ما زاد في لحيته وكمه . فلاستعملنّ بعده أكثر الناس حمقاً وهَوَجاً . وما ذلك الا معلم الصبيان الهجا وكان في البلد مَن ِ اتـّصف بهذه الصفة . وهو مع ذلـــك ذو كبر وعجرفة . فقصدت نحله . والقيت عليه المسئلة . فاذا بـــه قام يصفق بيديه . ويراريء بعينيه . ويقول لقد سقطت على الخبير . واهتديت برأي بصـــير . ان شئت أن تعرف أي القولين أرجح . وأصدق وأصح . َفزِنِ الجدولين دون جلد الكتاب في ميزان . فما رجح منهما فهو الراجحما اختلف في ذا اثنان. فقمت من عنده غضبان نادماً . ولعنت الأرق الذي كان السبب في ان اكون لمعلمي الصبيان مكالماً . بعد ان قرأت في غير كتاب وسمعت من ذوي الألباب. انهم اسخف خلق الله عقلاً . واكثرهم جهلاً . وابعدهم عن الفهم واسفهم الى الوهم.

فسرت في ذلك اليوم.الى فقيه من جلة القوم . قد كبر عمامته وكوّرها. ووسع جبّته وزوّرها . فقلت افتني ايها الفاضل الاحذق . اي القولين عندك احق واصدق. فقال اما اذا جئتني مستفتياً.ورمت ان تكون برأيي مستهدياً. وبطريقي مقتدياً . فاني اقول لك بعـــد التروّي في هذا المذهب المتحوّي انا معاشر الفقهاء من اهل الكلام . القائمين بأحكام الاحكام. وتبيين المتشابه بين الانام . وانّ من دأبنا اظهاراً للحق ان نسهب في التعليل . ونكثر من قال وقيل . إذ لا بد من انتشاء عرف الصواب من الاسهـــاب . ومن الاهتداء الى بعض المذاهب . بفرض المستحيل ْوجعل المعدرم كالموجود الواجب . فعندي

انه لا بد من عد الفاظ القولين . واحصاء حروف الجدولين . فما كان منهما اكثر حروفاً فهو أرجح واحسن تأليفاً. والله اعلم . ففصلت من عند الفقيه كما فصلت من عند صاحبه السفيه . وقلت انما اللوم على مستفتيه .

ثم قصدت شاعراً كنت اعهده يتلهوق ويتشدق . ويتفصّح ويتمدّح . ويتبجح ويترنح ، وقلت له هاك ما تحرز عليه اجراً . ويكسبك بين الناس فخراً فأبن لي اي الاهلوبين ابدع. وبالحق فاصدع.قال أما انا فما لي من خلاق في الدنيا ولا نصيب غير المدح والنسيب . ففي الاول غُصتي وفي الثاني لذّتي . فاصبر علي ريثما اطالع ديواني كلّه . واتصفحه جُملة . فان وجدت المديح فيه اكثر من الغَزَل . كان الخير في الدنيا اقل . فألحقته بصاحبيه الفقيه والمعلّم وقلت كم من متكلّم مُكلّم . ثم سرت الى كاتب الامير . وكان مشهوداً له بالتحري والتحرير. فأثنيت عليه قبل السؤال مطرئاً. وقلت لم يكن غيرك في ذا مجزئاً . فقال ان سعادتي في الكون هي ان أرضى عن اميري ويرضى عني . وشقاوتي هي ان أغضب منه ويغضب مني. وقد نسيت كل ما جرى عليّ من الغضب والرضى . لكثرة المشادة والمقتضى فان صبرت عليّ في المستأنف شهراً . لاقيّد في دفتري ما ألقاه منه حلواً ومرّاً . ونفعاً وضراً . أفدتك الجواب فاقبل عذراً فصيرته رابع الثلاثة . وقلت لاستشيرن ذا حداثة . فان اهل المراتب والمناصب قد ذهبت صدارتهم بالبابهم . فلم يبقَ فيهم خير لقارع بابهم . فجئت الفارياق وهو مكبّ على النسخ . وفي طلعته مبادىء المسخ . فقد رأيت عينيه غائرتين . ويديه ذاويتين . وعظم خديه ناتئاً . وجلده كالظل زائناً . حتى رثيت لحالته . وكدت امسك عن الكلام اشفاقاً من بطالته . لكنه لما رآني قام اليّ . ثم أقبل عليّ . وقال هل من خدمة اقتضت سعي . او نجوى اوجبت وعيي.فقلت قد اقدمني كذا وكذا. فاكفني ذل السؤال كُفيت الاذى . فاخذ رقعة من تحت اسمال. وكتب فيها في الحال

أتيتني مستفتياً في امرٍ يعلمه كل امرىء ذي حِجْرِ

الخير ان قابلته بالشرّ في العمر كان قطرةً من بحر
الا ترى الاجرب كيف تسري عَدْواه في جميع اهل المصر
وليس من ذي صحة ويسر عدوى لمن داناه طول العمر
والطفل اذ يُثغركم من ضُرّ يَلْقَى ويُلْقَى عنده في قبر
وعند إشعارٍ ونبت ظفر ليس له من لذّة وسُرّ
وكل عضو لقبول الكسر أقرب منه لقبول الجبر
وما فساده سريعاً يزري كالعين لن تصلحه في دهر
ونعي طفل لابيه يفري فؤاده وكل عظم يبري
وليس في مولده من بِشر ندٍّ لحزن موته الاضرّ
وما تكون لذة عن فكر اذا تحققت ولا عن ذكر
وانما ذا هوس قد يجري في خاطر المغفّل المغتر
فهل تصوُّر الشفاء يبري ذا مرض أمرض منذ شهر
وهل لمن يبرد وقت القرّ دِفْءٌ بتذكار اوان الحرّ
فليس دنيانا لاهل الخبر سوى بلاء دائم وخسر
يُولدُ فيها العبد غير حرٍّ وهكذا يموت رغماً فادر

قال فلما اخذت الرقعة وتأملت فيها . وتحققت معانيها . علمت ان قوله هو الاسدّ . وان قول غيره هذيان وفنَد . فقلت له بورك في زمن جاد بمثلك . وهدى المستفيدين الى رشدك وفضلك . وقبحاً لاهل الثرا اذ لم يحلّوك ارفع الذرى . ثم انصرفت من عنده داعياً ولما قاله واعياً

١٤

في سرّ الاعتراف

هحم هحم الحمدلله. الحمدللهقد تخلصت من انشاء هذه المقامة ومن رقمها ايضاً فانها كانت باهظة . ولم يبقَ لي همّ منها سوى حث القارىء على مطالعتهـا . وهي وان تكن خشنة غير مهلهلة كسجع الحريري الا انها تـُلبَس على علاتها. وتحمد لافاداتها . وفي ظني ان الثانية تكون احسن منها . والثالثة احسن من الثانية . والرابعة احسن من الثالثة . والخمسين احسن من التاسعة والاربعين . لا تخف من هذا التهويل والتوهيل لا تخف. انما هي اربع لا غير كما وعدتك. والآن ينبغي ان أعصر يافوخي لاستقطر منه افكاراً ومعاني حسنة والفاظاً رائقة مع تجنب الثرثرة . فان العلماء يسمون ذلك فيما أظن اخـلاء . ولكن قف هنا حتى أسألهم . ماذا تسمون الكلامالذي يتدفق بالمعاني ويبلّ قارئه حتى آتيكم به . فان لم تسموه لي حالاً فلا تلوموني على نقيضه . فاني أنا من الموجود ودأبي ان أبحث عنه لا عن المعدوم . لمـا كان اسم الاخلا موجوداً ونقيضه معدوماً ناسبانااعدل اليه عن غيره. الى ان تتواطأوا على اسم ولكن لا بالخناق والتناوش . والنقار والتهـاوش . وبالجلاد والجدال . وبالتماسك بالجيوب والاذيال بل بالرزانة والوقـار . والأون والاستبصار . فان الرزين اذا وضع اسماً لشيء جاء ذلك الاسم رزينا مثله .فلا يمكن بعد انتقاله الى آخر . بل ربما وقرَ بالاسم المسمى وان يكن مما اتصف بالخفة والطيش . ألا ترى ان كلام الشاعر الرقيق يأتي رقيقاً . وكلام الضخم يأتي ضخماً . كما قيل كلام الملوك ملوك الكلام . وشعر المرأة يأتي خالباً للعقول لاعباً بالالباب مثلها . ويستثني من هذه القاعدة وضع الولد من قبل ابيه اي مـادة توزيع

الولد . لا ان الاب يحبل ويلد . وذلك ان الوالد قد يكون قبيحاً ويأتي ولده صبيحاً . وسببه ان الايلاد لما كان من الافعال التي لا تتم الا بمشاركة اثنين أعني رجلاً وامرأة اذ التغليب هنا لا يخلو ايضاً من الابهام . لم يكن للوالد مطلق التصرف في تهيئة ولده كما شاء . فقد يكون هو عند ذلك مقدراً له شكلا ارتضاه وتكون أمه حرسها اللهمقدرة له شكلا آخر بحسبما استحسنته وخلجصدرها إذ ذاك . فيأتي الولد خنفشارياً. لا يقال ان الرجل لا يستحضر عند ذلك صورة معلومة لذهوله بشاغل المادة . فان ذلك لا يصدق على من أَلِف شيئاً واحداً بخصوصه . فان طول الفة الانسان لشيء تعدّل هواه فيه فيباشره برشد وروية . فمَثَله كمَثل الطبّاخ الشبعان يطبخ خضض الطعام باتقان وإحكام بخلاف الجائع فانه يلهوج عمله ويلهوقه .

فاعلم اذاً بعد هذا الاستطراد البديع . والعضال المُجيع . ان الفارياق ذهب ذات يوم الى بعض القسيسين ليعترف له بما فعل وفكر . وقال من المُنكَر . فقال له القسيس فيما سأله به : قد سمعت عنك انك كلف بالنظم وبالالحان وهما من أعظم أسباب الفساد والغرام . فهل سوّل اليك الخناس ان تتغزل في الشعر بامرأة قاعدة النهد . مورّدة الخد . بيّنة الكحل . مرتجّة الكفل . نحيلة الخصر . مفلّجة الثغر . عَبِلة الساقين . مجدولة الساعدين . سوداء الشعر والحلمتين . نجلاء العينين . مخضبة الكفّين . رقيقة الشفتين . مزجّجة الحاجبين . مدوّرة السرّة . ذات عُكن مفترة . حلوة الابتسام . مهفهفة القوام . لها رُضاب عذب . ونكهة تسكر الصبّ . قال قد فعلت ذلك لكني ان اراك إلا حريفي في هذه الصنعة . فقد رأيتك تحسن وصف الحسان أيّ احسان . قال ليست حرفتي تلفيق الكلام. وانما هو شيء عرفته بالقياس والالهام . فان كل من تعاطى النظم يملأ دماغه بهذا الوصف المحرّم . وكيف كان فلا بد من ان تحرق غزَلك كله ، بالتفصيل والجملة . فانه يبعث الاغرار على المعاصي . فتجزى به يوم يؤخذ بالنواصي . وتعز التفاصي . قال كيف أحرق في ساعة واحدة ما سهرت فيه ليالي متعددة حرمت فيها من

الكرى. وكابدت بها جهداً ولا جهد الشّرى او السُّرى . فكنت اذا نظمت البيت من القصيدة يخيّل إليّ اني قطعت مرحلة الى محل المتغزل بها . وعند تمام القصيدة أتصوّر اني وصلت اليها ولم يبقَ بيني وبينهـــا سوى فتح الباب . فكان الختام عنـــدي افتتاحاً خلافاً لجميع الشعراء . ولذلك لم اكن اقصد القصائد الطويلة خشية ان تطول عليّ المسافة بطولها فهل من الرأي السديد ان يحبط عملي كله من اجل الاغرار . وبعدُ فاني لا أريد انهم يقرأون كلامي لأنهم إن لم يفهموه سألوا عنه أهل العلم فيذمه هؤلاء ويخطئونني ويفندونني . إذ لا يرون في كلام الصغير الوضيع حسنا . وان استحسنوه لم يكن جزائي منهم إلا قولهم أخزاه الله وقاتله الله وثكلته أمه ولا أب له ولا أم له . قال ان أبيت إلا الاصرار على العناد . والزيغ عن جادة الرشاد . أمسكت عنك مغفرة ذنوبك . ونددت في الكنيسة بعيوبك . قال لا تعجل فان العجلة من الشيطان . أرأيتك لو مدحتك بقصيدة طويلة تجعلها كفارة عن الذنب. وان شئت ان امدح فيها ايضاً جميع الرهبان والراهبات والعابدين والعابدات والزاهدين والزاهدات والناسكين والناسكات والقانتين والقانتات والمفردين والمفردات والمغبرين والمغبرات والمذكرين والمذكرات والذاكرين والذاكرات والمتقين والمتقيات والمتبتلين والمتبتلات والمتهجدين والمتهجدات والساجدين والساجدات والمخبتين والمخبتات والمسبّحين والمسبّحات فعلتَ . ففكّر ساعة وكأنه رأى ان ليس في التغزل كبير إثم . فان وصف المرأة مثلا بضخم الكفل وفعومة الذراع وتدملك الثدي اذا كانت في الواقع كذلك انما هو من قبيل قول القائل البدر طالع عند طلوعه او السحاب منقشع عند انقشاعه . وانما يكون افتراء وانما اذا وُصفت بذلك وكانت مسحاء مرداء وكانت تتّخذ الحشايا لتحسب عجزاء فصدقها ناظرها في ذلك وقال فيها ما قال مجازفة . فلما تدبر الامر ورازه بعقله قال . لا ينبغي ان تتخذ مدحي كفارة فاني أخشى ان تمسك بي ولا تعود تطلقني . اذ أرى من قوافيــك في الفاعلين والفاعلات انك مُسكَة عُلَقة نشَبة لزَمة . وانما تمدح أولياء الله والربّانيين الصالحين الذين زهدوا في الدنيا رغبة في الآخرة لوجه الله ولبسوا المسوح ولزموا السهر في طاعة الله وداوموا على التقشف حباً بالله . فمنهم من لم

يأكل مدة حياته كلها الا العدس والخبز جافاً صلبا . فقال الفارياق وأعقبه أيضاً كسر سن وحكة . قِف قِف . قد نسيت أن اذكر لك شيئاً أخطره الآن ببالي العدس . وذلك اني تسببت مرة في اخراج رويهب من ديره وتركه الطريقة ، وانما الذي أغراني بذلك ما قاسيته فيه ففعلت ما فعلت تشفياً . فقال ذنبك في التشفي وهو ضرب من الانتقام اكبر من ذنبك في اخراج الرويهب. فان اكثر الرهبان لا فائدة من اقامتهم في الدير لا لهم ولا لغيرهم . وما عدا ذلك فقد يحتمل ان هذا الرويهب يتزوج ويجعل من ولده رهباناً كثيرين.ولكن اذا مدحت الراهبات فاحذر من ان تذكر لهن اثداء واعجازاً اذ لا شيء لهن من ذلك . فان طول الاعتكاف والاحتجاب قد صيرهن مخالفات لسائر النساء . ونحن معاشر العباد أعلم بهن . فقال له الفارياق سألتك بالله معبود اهل السماوات والارض هل جميع القسيسين مثلك في الظرافة والدعابة .قال لا ادري وانما ادري اني انا وحدي شقيت بما عرفت واني لو بقيت جاهلاً مثلهم لكان خيراً لي ان من الجهل لراحة.فقال له وكيف ذلك . قال اعندك للسر مكان حريز . قال ان سري من دمي فلا أبوح به.(قلت بل باح به الآن) قال أتريد ان اقص عليك قصتي . قال اكرم بها قال اصخ سمعا.

١٥

في قصة القسيس

ثم طفق يقول . اعلم اني كنت في مبدأ امري حائكاً . ولما شاء الله تعالى من الازل ان يخلقني قبيحاً وقصيراً . حتى ان امي عند نظرها الي كانت تحمد الله على انه لم يخلقني بنتاً لم اكن اصلح للحياكة . لان قصري الفاحش منساني غير مرة في حفرة النول بالبهر والخناق . اذ كان جسمي كله يغيب فيها فينقطع نفسي . مع ان منخري بحمد الله يسعان من الهواء ما يكفي خمسين رئة وخمسين كرشاً . وكثيراً ما كان يغشى علي فيها وأوخذ منها على آخر رمق . فلما قاسيت من هذه الحرفة كل جهد وعناء رأيت ان التسبب ببعض ما يرغب فيه النساء أصلح . فاكتريت لي حانوتاً صغيراً وقعدت فيه فكانت النساء يمررن علي وينظرن الي ثم يتضاحكن . وسمعت مرة منهن من تقول لو كان الظاهر عنواناً صادقاً على الباطن لكان خرطوم هذا التاجر يشفع له في جثته ويروج سلعته فاعتمدت على كلامها وقلت لعل من القبح سعادة . فقد قيل في الامثال ان من الحسن لشقوة . ومكثت مدة على هذه الحال من غير طائل . فان انفي وقف بيني وبين رزقي . وبلغ كبره من الفحش بحيث انه لم يدع لغير الآباء والاعراض عني موضعاً . فقعدت يوماً افكر في خلق الله تعالى هذا الكون . وأقول يا لحكمة الله كيف تخلق في الدنيا انساناً ثم تخلق فيه شيئاً يمنع عنه رزقه وقوام معيشته . ما الفائدة من هذا الانف الضخم الذي لا يصلح لشيء الا لأن تضمن فيه اعجاز قفا نبك . ولمّ لم يقور منه شيء ويكور في جثتي . ومالي ارى بعض الناس جميلاً كالملك وبعضهم قبيحاً كالشيطان . ألسنا جميعاً خلق الله ؟ أليس سبحانه يعمهم كلهم بعنايته على

محـــد سوى . أليس الصانع الأرضي اذا أراد أن يصنع شيئاً فانه يتأنق فيه ويتقنه عند استطاعته ويأتي به من أحسن ما يكون . هل يصور المصور صورة قبيحة الا لكي يضحك الناس من المصور عنه . العل في ضخم الانف حسناً أو خيراً او نفعاً ونحن معاشر المخلوقين لا نعلمه . ثم اقوم الى المرآة وأتأمل وجهي فيها فانكره ولا أجد فيه موضعاً للاستحسان فأعود الى مذهبي الاول وأقول : ان كنت أنا لم أستحسن وجهي فهل يستحسنه آخر غيري . على ان الانسان يرى ذأم غيره فيه حسناً ورذيلته فضيـــلة أترى في الناس من يروق لعينه القبح . فقد يقال ان السود لا يرون في الابيض منا حسناً . غير ان لون السواد عندهم عامّ فلذلك يستحسنونه . وما أرى غيري من أقلّ أنفاً كانفي حتى اطمع في أنه يكون مستحسناً . اما اللون فاني لست من البيض ولا من السود فانا بين اللاعنين ألا ليت أهل بلدتي كانوا كلهم مثلي قنافيين فأتسلى واتأسى بهم . من أين ورثت هذا الجلمود وأنف ابي كان كانوف النـــاس . ليت شعري اين كان عقـــل ابي حـــين نقر في رأسه فكر انشائي في هذا الكون وفي أيّ طود أو طربال أو منارة كانت أمي تفكر ليلة راوحته على هذا العمل . الا ليتما غشي عليهما تلك الليلة فمـــا أفاقا . أو فدرا فما اطاقا . او سحرا فما تاقا . أو سكرا فماقا . وجعلت اجيل هـــذه الافكار في رأسي وأصوغها في قوالب مختلفة وأفانـــين متنوعة . واذا بامرأة متنقبة أقبلت عليّ وقد نتأ من تحت نقابها شيء شبيه بالقلة . فظننت انهـــا جعلت حنجور عطر عند أنفهـــا لتشمه عنـــــد مرورها على الجيف في اسواق المدينة . فسألتني عن شيء تريد شراءه فسعرته لها فكأنها استغلته فقالت لي اقصد فان تسعيرك هذا تسعير فقلت لهـــا وان شراءك لشرى . فضحكت وقالت لقد احسنت في الجواب ولكنك اسأت في الطلب فراع حقوق الشركة والجنسية فاني شريكتك ورفيقتك . فكان ينبغي لـــك ان تحابيني قلت أيّ شركة بيننا اصلحك الله وهذه اول خطوة شرفتـــني فيها بالزيارة . فرفعت النقاب واذا بانفها الناتىء يضيق عنه وجهها . وكأنه واجـــه أنفي ليحييه . فخطر ببالي حـ ما قيل عن ذلك الغراب الذي كان يخمع والف غراباً مهيض

الجناح . وأن احد الشعراء لما أبصرهما قال ما كنت ادري مـا أراده بعضهم بقوله ان الطيور على الافها تقع حتى رأيت هذين الغرابين . ثم اني بعتهـا اخيراً ما ارادت ان تشتريه . وحاولت ان اقبلها قبلة واحدة تعويضاً عمـا خسرته معها فما امكن لي . لان أنفينا حالا ما بيننا . ثم ذهبت ومكثت انا على تلك الحال مـدة . فلما تحققت اني لا اصلح للتجارة لان النساء لا يشترين الا ممن كان فرهداً غيسانياً تبركاً بجمال طلعته في انهن يتمتعن بمـا اشترين من عنده . وتذكراً لذلك النهـار السعيد الذي عرفنه فيه . واني مـنذ فتحت الدكان لم ابع الا لتلك الكرنيفية وكان ذلك بخسارة . عزمت على الرهبانية فذهبت الى دير ما وقلت للرئيس . وقد أقدمني الزهد في الدنيا والرغبـة في الآخرة . فـان الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئاً . وان اللبيب من اتخذ دنياه هذه مجازاً الى تلك . اذ لو كانت هذه وطننا الذي شاءه لنـا خالقنا لكنا نعمر فيها طويلا . على انا نرى ان من الناس من يولد فيها ويعيش يوماً واحداً فهذا دليل على أنا لم نخلق لها . واشباه ذلك من الكلام الذي جرى على السنة العباد . فقبلني الرئيس واعتقد فيّ الفضل . واتفق في اليوم القابل انه حاول التسور على حائط لينفذ منه الى بعض بيوت الشركاء فدخلت في احدى عينيه قصدة من غصن شجرة فذهبت بها . فرجع غضبان وقـد تشاءم بقدومي الى الدير . اذ كان قد الف التسور قبل مجيئي بمدة طويلة ولم يعرض له شيء قط فمن ثم طردني من الدير فدخلت ديراً آخر واعـدت الكلام الاول . فقبلـني رئيسه فأقمت ثم اياماً اقاسي فيها من قشف المعيشة والوسخ مـا لا يرضي الله ولا احداً من العالمين . هذا ما عدا ما كنت ارى من عناد الرهبان وتفرق ارائهم . وطعن بعضهم في بعض وشكواهم الدائمـة للرئيس من امور باطلة . وتكبر هذا عليهم وأثرته باشيـاء استخصها لنفسه من دونهم . وتنافسهم فيما يهدي اليهم النساء من نحو منديل وكيس وتكة . وزد على ذلك كله جهـل الجميع اذ لم يكن في الدير كله من يحسن كتب رسالة في معنى من المعاني. حتى ان الرئيس نفسه ادام الله عزه لم يكن يعرف ان يكتب سطراً واحداً بالعربية وانما كان يخط هذه الحروف السريانية المعروفـة عندهم باسم كرشوني . وكان

هذا الجاهل يتبجح بمعرفته لها ويحمل كل من دخل صومعته على اعظامها. حتى انه كان يدعو اياً ما كان لزيارته . فكانت الاغرار من الرهبان تعتقد ان ذلك من حسن اخلاقه وكرم طباعه. وكان قد كتب بها على بابه سطراً وعلى الحائط سطراً آخر. فكنت حين انظر ذلك اضحك. وهو من غفلته يظن اني اضحك اعجاباً بها . ومن كان خبّاً مخاتلاً من الرهبان على جهله (فان كثيراً من الناس قد جمعوا بين الختل والجهل) كان يتقرب اليه استجلاباً لرضاه بان يقول له وهو حاسر الرأس تواضعاً وخشوعاً اكرم عليّ يا سيدي بنسخة من خطك اصلح عليها خطي. فكان ذلك من احسن ما يدل به عليه. فلما اشتد عليّ الخطب من عشرتهم وخصوصاً من رداءة الطعام طفقت ادمدم واتضجر. فسمعني يوماً طباخ الدير اشكو من قلة السمن في الارز الذي كان يطبخه في بعض الاعياد العظيمة . وكان عتُلاً زنيا . فاستشاط مني غيظاً وحملني على كتفه كما يحمل الرجل ولده ولكن بلا شفقة . ثم ذهب بي الى ممار الدير وغطسني في خابية السمن وهو يقول . هذا السمن الذي أطبخ به الارز الذي لم يعجبك يا صاحب الخرطوم . يا سليل البوم . يا نصيب المحروم . يا ابن اللوم . يا أبا الكبائر والجروم . يا رائحة الثوم . يا ريح السموم . يا عُلجوم . يا منهوم . يا لهوم . يا وخوم . وصبّ عليّ قوافي كثيرة غير هذه . فبلغ مني تغطيسه عرضي في السب اكثر من تغطيسه رأسي في السمن . فتملصت منه بعد جهد ودخلت صومعتي حتى أغتسل واذا به يطرق الباب ويعجّ ويقول . لا بد من أن أعصر أنفك فقد دخل فيه من السمن ما يكفي الرهبان أياماً . ثم أهوى بيديه على منخري كأنها كلبتا حداد وجعل يعصرهما أشد العصر . حتى ظننت ان قد زهقت نفسي منها . فان الانف وحده دون سائر ثقوب الجسد محل دخول النفس وخروجها خلافاً لقوم . ولذلك يقال تنفّس الانسان . فلما شقّ عليّ ما قاسيته ولم أجد في الدير من أشكو اليه . اذ الرهبان كلهم يتملقون ويتوددون اليه حتى يشبعهم ولو من الشُرْتُم [1] .

---

١ — ما فضل من الطعام او الإدام في الاناء .

خرجت من الدير مبتئساً حزيناً قانطاً وقد ضاقت الدنيا عليّ برحبها .
وقلت أين أذهب بأنفي هذا الذي سد عليّ مذاهب الرزق أم أين يذهب بي
هو . فخطر ببالي أن أقصد ديراً بعيداً كنت أسمع عن رهبانه انهم صُلاح .
وان بعضهم يحسن الخط العربي ويحب الغريب ويكرم الضيف . فتوجهت اليه
فلما سلمت على رئيسه وطالعته بما عزمت عليه احمد رأيي وهشّ بي . لكنه لم
يتمالك ان نظر اليّ نظر المتعجب مني المستعيذ من شؤم تبعة تلحقه من أنفي
فمكثت في ديره ما شاء الله ان أمكث .

✱

١٦

في تمـــام قصة القسيس

وجعلت من همي مدة مكثي هناك بادىء بديء مداراة الطباخ ومساحنته والثنـاء عليه . فكان لا يحوجني الى شيء ممـا يمكن نيله في الدير . حتى اني جعلت جلّ مقامي في المطبخ . وكنت أحسن ايضاً طبخ ألوان من الطعـام لا يعرفها هو فعلّمته اياها فكلف بي . فكان رئيس الدير اذا استضافه احد عزيز عليه او اشتهى لوناً من الطعام بخصوصه كلفني بـه . فكنت أتأنق له في عمله ما أمكن حتى حظيت عنده . أعني اني كنت اسامره وأجلس بـين يديه . ثم اني تلبست بالصلاح والتقوى بين الرهبان . فكنت اسدل قلنسوتي حتى تبلغ قصبة انفي . ويا ليت العادة جرت بان يستر الانف بها كله . وكنت اذا مشيت أخفض رأسي الى الارض ولا انظر يميناً ولا شمالاً الا لمحا. واذا أكلت او شربت او رقدت او مشيت او غسلت وجهي اخبر عن ذلك كله حامداً لله ومثنياً عليه . فأقول مثلاً : قد خرجت اليوم من صومعتي ولله الحمد او ولله المجد وهي أحب الى الرهبان . او تناولت في هذا الصباح مسهلاً ان كان الله تقبل وما اشبه ذلك ممـــا عرف عند المتظاهرين بالتقوى . حتى اعتقد الرهبان فيّ جميعاً الصلاح والفضيلة . وكنت ايضاً قـــد كتبت بعض صلوات ركيكة للرئيس فاعجب بخطي ومدحني على ذلك . ووعدني بان يرقيني الى درجة تليق بي . اذ رآني متميزاً عن الرهبان بالعلم وجودة الرأي. وأخصّ ذلك بكوني غـَيْداراً (الغيدار هو السيىء الظن يظن فيصيب) .

ثم قدر الله رب الموت والحياة أن مـــات في بعض البلدان البعيدة بعض

القسيسين الذين يباشرون خدمة الرعية . أي الذين يأكلون ويشربون في بيوت الناس لا في الدير . والذين يختلطون برعيتهم خلافاً لعادة الرهبان . فان هؤلاء لا يخالطون الناس الا عند الضرورة . فتسبّب رئيس الدير في ان بعثني الى ذلك البلد في مكان القسيس المتوفي اي بدلاً منه لا اني دفنت معه . فلما وصلت تلقاني أهل كنيستي بالاكرام والترحيب . فأبديت فيهم الورع والعفة فشاع فضلي بينهم . حتى ان بعض التجار ممن كان حرمه الله من لذة البنين دعاني الى منزله لأقيم عنده رجاء ان يفتح الله رحم امرأته بسببي كما تقول التوراة فتلد له البنين . وكانت جميلة رشيقة القد قاعدة النهد . تحب الخلاعة واللهو . والقصف والزهو. (سبحان الله ما أحد يذكر النساء الا ويهيج خاطره للسجع) فاقمت عنده مدة في انعم عيش وجدة . ثم عنّ لي ان اغازل زوجته واناغيها . واعاشرها واراضيها . فاجابت الى مراودتي . ولم تبال بارنبتي . فان من طبع النساء الميل الى الوليّ . والاستغناء عنه بالقصي . وما أدراك ما اعتذرت به احدى النساء بقولها قرب الوساد . وطول السواد . فبرزت الدنيا لعيني ح في احسن صورة . ونسيت ما لاقيت في الدير من المشاق الكثيرة . وقلت لاعوضنّ عليّ ما دامت فرصة الحظ لي ممكنة . وشوارده مذعنة . كل ما فاتني منه ايام كنت حائكا . وطباخاً وناسكا . ثم فرضت على نفسي ان تقسم لذاتي معها على كل يوم غير مرة . كدأب المتزوج بحرّة . وعلى الحاضر . وهو الآن ايضاً في حيز الغابر . بحسب البواعث والبوادر . فبدأت بالعدد . حتى بلغت الامد . وكان الرجل ذا نية سليمة . وشيمة مستقيمة . فلم يكن يسيء بي الظن . ولا يعوقه عن شغله امر عن . فترك لنا قطوف اللذات دانية . وكؤوس المسرات صافية . ومن العجب . الذي ينبغي ان يدون في الكتب . انها كانت تخاصم الخادمة في حضرته وغيابه . وتشتمها بين يديه افحش الشتم منعاً لارتيابه . ولم تخش منها تبعة . ولا كانت من طردها جزعة . وقد طردت كثيراً من الخوادم لسبب ولغير سبب . بعد سبّهن كل السب . وحملهن على الحقد والغضب . وذلك من معجزات النساء وبدعهن الغريب الذي يعمي الرجال عن كنه سره العجيب .

والحاصل اني كنت اعجب بحسنها. كما كنت أعجب من فنها. واني اقمت معها على هذه الحالة في غاية السر . مفنقاً راتعاً ولا حظر [1] ومتزوجاً ولا مهر .. ثم استأنفت عدداً آخر . اطول من ذاك واكثر . فلما ابطرتني النعمة . وأمنت من الدهر كل نقمة . نقر في رأسي ان اجمع بين الكافين. فان بكثرة العين قرة العين. وقلما رأيت من انهمك في الاول . الا وتعاطى الثاني وما اشبه من العقل . وذلك كالقمار والجبخ والفشخ والحدج والجر والإجمار والندب والخطر والرشق والقرع والنجش والصبن والضغو والغذمرة والمحارضة والمناحبة والمراهنة والمجازفة والمحاقلة والمزابنة والاجباء والمداحلة والمعارضة والمنابذة والمبادة والمباخسة والمغابنة والموالسة والتدليس والتطويش والمقاطرة والمعاومة والمراوضة والمواصفة . فهطهبل وطهفل . ومحل وثطهمل . ودجل وزغفل . وابطل وتخبل. وعرقل وتبهلص وتبلهص وبهصل [2] فاجتمعت برجل كنت اسمع عنه انه يتعاطى هذه الصنعة . وقد تفرغ لها بجد وبذل فيها وسعه . وأوسع فيها بذله. وعقل بها عقله وفي الجملة والتفصيل . من ذون قافية وسجع طويل. تعاطيتها معه (انتهى سجع القسيس) قال فجعلت انفق فيها ما اجمعه من العجائز والاغرار برسم النفوس والارواح . وانا مع ذلك مواظب على الصنعة الاولى . بل كان ذلك داعياً لزيادة هيام كل مني ومن بزيعتي . فانها طمعت ح في الهدايا والصلات كما هو دأب النساء في كل امر يحدث لازواجهن وعشاقهن . فبلغ خبر صنعتي هذه الحديثة للجاثليق . فارسل يطلب مني المال الذي جمعته . فتعللت له بعلل أباها ولم يرضها . فتسبب في احضاري اليه وضبط ما كان عندي من متاع وغيره . ولم يشقّ علي فقد ذلك كله قدر ما شقّ عليّ انقطاع العدد الذي كنت شرعت فيه في بيت التاجر الصالح .

ثم اني تفلت من عكال الجاثليق بعد مدة كادت ان تنسيني لذّات الأيام الغابرة . وخرجت في طلب آخر نكاية لذاك فصرت الى جاثليق من اشدّ

«١» افنق الرجل تنعم بعد البؤس .

«٢» تبهلص الرجل وتبلهص خرج من ثيابه وبهصل خلع ثيابه فقامر بها .

الناس عداوة لجاثليقي القديم . اذ العداوة توجد بين الجثالقـة ، كما توجد بين الزنادقة . فأقمت عنـده مدة ثم خشي عليّ ان يرهقني من ذاك سوء فسفرني الى بلاد بعيدة في سفينة حرب . فما سرنا بعض ساعـات حتى تعطل بعض ادوات السفينة وخشي ربانها أن تغرق بهم . فرجع وقد تشاءم بي وقال لبعض الركاب انه انمـا جرى عليه ماجرى من شمختريتي فتعجبت اذ بلغني كلامه جداً . لأن اولئك القوم لا يرتسمون ولا يتشاءمون .ولا يتطيرون ولا يتفاءلون . ولا يتحتمون ولا يتيمنون . ولا يتسعدون ولا يتمسحون ولا يقلدون بعود الشبارق ولا يستعملون نبت العطف . وما عندهم هقعة ولا لجام ولا عاطوس ولا عاطس . ولا كابح ولا كادس . ولا قعيد ولا داكس . ولا بارح ولا سانح . ولا زجر ولا تحزي . ولا عيثرة ولا عيافةولا طرق ولا عرافة ولا هجيج ولا كهانة. ولا ابنا عيان ولا تنجي . ولا لمّة ولا حفوف. ولا لعطة ولا انتجـاء . ولا تشوّه ولا تعيّد . ولا طلاسم ولا تشهق . ولا عزائم . ولا رقي ولا تمـائم . ولا الينجلب ولا تولة . ولا حوط ولا غزّ . ولا تدسيم النونة ولا شدّ الحقاب . ولا رسع ولا صخبة . ولا قليب ولا كبدة ولا وجيه ولا سلوانة. ولا سلوان ولا نقره . ولا مجول ولا مهرة . ولا اخذة ولا عوذة . ولا هبرة ولا رأمة . ولا كحلة ولا هنمة . ولا جلبة ولا صرّة. ولا قبلة ولا نشزة . ولا قبلة ولا نفرة . ولا صدحـة ولا همرة . ولا زرقة ولا عطفة . ولا قطسة ولاصرفة . ولا غضار ولا كرار. ولا بريم ولا حرز. ولا خصمة ولا رتيمة . ولا اسحم ولا صهيم . ولا تذعب ولا صوت اللوف . ولا هامة ولا صفر . ولا أخذة النار ولا تنجيس ولا لحج ولا انكيس . ولا أس ولا شحيثا ولا طلب ولا تول . ولا سحر ولا مـاقط . ولا عاضه ولا مستنشئة . ولا نفاثات في العقـد ولا صدي . ولا شعبذة ولا نيرنج . ولا شعوذة ولا حابل ولا حاوٍ .

ويومئذ ايقنت ان القنـافيّ مكروه عند جميع الامم . وان اوقية لحم زائدة في وجه الرجـل تشفيه وتحرمه . ورطلين في بتيلة المرأة يسعدانهـا

ويفيزانها . فزاد تعجبي من هـــذه الدنيا المبنية على رطلين واوقية من اللحم ومع ذلك فلم يمكن لي الزهد فيها .

ثم اني سافرت بعد ذلك الى تلك البـلاد وأمنت فيها من مكر اعدائي . واستأجرت بيتاً واتخذت لي امرأة تخدمني . وقد جرت العادة في تلك البلاد وفي بلاد الافرنج ايضاً بان يتخذ القسيسون نساء للخدمة . فتأتي المرأة احدهم صباحاًوهو في فراشه الوثير وتقضي له ما يروم منها . فلما ذقت طيب العيش وسوس الى الوسواس ان اتزوج بنتاً فقيرة لكنها كانت جميلة غير اني لم اكن على يقين من نهود ثدييها ومع ذلك فقد كلفت بها . فطلبت من الجاثليق ان يزيد وظيفتي فأبى.فألححت عليه وهو مصر علىالمنع وأنا مصر على الاستزادة. ثم ناقشته وراغمته فرأى ان يردني من حيث جئت .

فسرت الى جاثليق محب للجاثليق الاول فسرّ برؤيتي وأنزلني عنـــده . فرجعت الى ما كنت عليه سابقاً . وهـا أنا مترقب فرصة اخرى تمكنني من المقايضة على هذا النحس الآخر ايضاً فانه جاهـل جداً . وعندي ان مبادلة الجثالقة في هـذا الزمان العسوف انفع من حجر الفيلسوف . انتهت قصـة القسيس وهذا تفسير ما اشار اليه آنفاً من الالفاظ الغريبة :

ابناعيان	طائران او خطان يخطها العائف في الارض ثم يقول ابناعيان اسرعا البيان الخ .
اخذة النار	بعيد صلاة المغرب يزعمون انها شر ساعة يقتدح فيها .
الاخذة	رُقية كالسحر او خرزة يؤخذ بها
الارتسام	التكبير والتعوذ والتحتم التفاؤل
الاسحم	الدم تغمس فيه ايدي المتحالفين
اس	كلمة تقال للحية فتخضع
الانكيس	في اشكال الرمل كالمنكوس
البارح	من الصيد ما مرّ من ميامنك الى مياسرك

البريم خيطان مختلفان احمر وابيض تشده المرأة على وسطها وعضدها، والعوذة

التحزي حزا حزواً وتحزى زجر وتكهن وحزّى الطير ساقها وزجرها

تدسيم النونة تدسيم نونة الصبي تسويدها كيلا تصيبها العين

التذعب تذعبته الجن افزعته

التشهق شهقت عين الناظر عليه أصابته بعين

التشوه يقال لا تشوه علي أي لا تصبني بعين

التعيذ تعيذ العاين على المعيون تشهق عليه وتشدد ليبالغ في إصابته بعينه ذكره الفيروزابادي في ع ود

التنجيس اسم شيء من القذر أو عظام الموتى أو خرقة الحائض كان يعلق على من يخاف عليه من ولوع الجن به

تنجى تنجيّ لفلان تشوه له ليصيبه بالعين كنجا له ونجأه بالهمز اصابه بالعين

التِّوَل تال يتول عالج السحر

التِّوَلَة السحر أو شبه وخرز تحبّب معها المرأة الى زوجها كالتِّوَالة.

الجُلبّة العوذة تخرز عليها جلدة

الحابل الساحر

الحِرز العُوذة

الحُفوف شدة الاصابة بالعين

الحوط خرزات وهلال من فضة تشده المرأة في وسطها لئلا تصيبها العين

الخَصْمة من حروز الرجال تلبس عند المنازعة أو الدخول على السلطان

الرأمة خرزة المحبة

الرَّتيْمة كان من أراد سفراً يعمد الى شجرة فيعقد غصنين منها فان رجع وكانا على حالها قال ان أهله لم تخنه والا فقد خانته وذلك الرَّتَم والرتيمة

الرسع رسع الصبيّ شد في يده أو رجله خرزاً لدفع العين
الزجر العيافة والتكهن .
الزَرْقة خرزة للتأخيذ
السانح ضد البارح
السلوان ما يُشرب ليسلّي أو هو ان يؤخذ تراب قبر ميت فيجعل في ماء فيسقى العاشق فيموت حبه الخ .
السلوانة خرزة للتأخيذ وخرزة تدفن في الرمل فتسود فيبحث عنها ويسقاها الانسان فتسلّيه
شد الحِقاب الحقاب خيط يشد في حِقو الصبي لدفع العين
الشَعْبَذة الشعوذة
الشَعْوذة أخذ كالسحر يُرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين
شحيثا كلمة سريانية تنفتح بها الاغاليق بلا مفاتيح
الصَخْبة خرزة تستعمل في الحب والبغض
الصَدحة وبالضم والتحريك خرزة للتأخيذ
الصَرّة خرزة للتأخيذ
الصَرفة خرزة للتأخيذ
الصِهْمِيم حُلوان الكاهن
صوت اللوف نبات له بصلة تسمّى الصرّاخة لان له في يوم المهرجان صوتاً يزعمون ان من سمعه يموت في يومه
الصَفَر حيّة في البطن تلزق بالضلوع فتعضها او الخ .
الطِب مثلثة الرفق والسحر
الطَّرق أن يخلط الكاهن القطن بالصوف اذا تكهن
العاضة الساحر والعِضَة الكذب والبهتان والسحر
العاطوس ما يُعطس منه ودابة يتشاءم بها والعاطس ما استقبلك من امامك من الظباء
العِرافة العَرّاف الكاهن والطبيب وصنعته العرافة وقد عرف ككتب

العَطَف   نبت يؤخذ بعض عروقه ويُلوى ويطرح على الفارك فتحب زوجها
العَطْفَة   خرزة للتأخيذ
العقَرة   خرزة تحملها المرأه لئلا تلد
عود الشَبارق   الشبارق شجر عال ويقلّد الخيل وغيره بعوده للعين
العيافة   عفتُ الطير أعيفها عِيافة زجرتها وهو ان تعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فتتسعد أو تتشاءم .
العَيْثَرة   عيثر الطَير رآها جارية فزجرها
الغز   غزّ الابلَ والصبيَّ علقا عليهما العهون من العين
غضار وكَرار   الغضار خزَف يحمل لدفع العين وكرار خرزة للتأخيذ تقول الساحرة يا كَرار كريه ويا همرة اهمريه ان أقبل فسرّيه وان أدبر فضرّيه
الفَطْسة   خرزة لهم للتأخيذ يقلن أخذته بالفَطسة بالثؤبا والعَطْسة
القبْلة   ضرب من الخرز يوخذ بها
القبُْلة   ما تتخذه الساحرة لتقبل به وجه الانسان على صاحبه
القُلَيب   خرزة للتأخيد
الكابح   ما استقبلك مما يتطيّر منه
الكادِس   ما يتطيّر به من الفال والعطاس وغيرهما والقعيد من الظباء وهو الذي يجي من خلفك ويتشاءم به ونحوه الداكس
الكَبْدة   خرزة للحبّ
الكَحْلة   خرزة للتأخيذ أو للعين
اللجام   ما يتطيّر منه
اللحج   لحجه بعينه أصابه بها
اللعطة   اسم من لعطه بسهم أوّ بعين أصابه
اللّمة   يقال اصابته من الجن لمّة اي مسّ أو قليل والعين اللاّمة المصيبة بالسوء
الماقط   الحازي المتكهن الطارق بالحصى

المُسْتنشئة الكاهنة

المُهرة خرزة كان النساء يتحبَّبن بها

النُّشْرة رقية يعالج بها المجنون أو المريض

النفّاثات في العقد السواحر

النُّفْره شيء يعلّق على الصبي لخوف النظرة

النِيرنج أخذ كالسحر وليس به

الهامة الصَدَى وهو طائر يخرج من رأس المقتول بزعم الجاهلية

الهَبره خرزة يؤخّذ بها الرجال

الهجيج الخطّ يُخط في الارض للكهانة

الهَقعة دائرة في الفرس يتشاءم بها

الهَمرة خرزة للتأخيذ

الهِنَّمة خرزة للتأخيذ

الوجيه خرزة م كالوجيهة . قلت الظاهر انها للوجاهة

الينجلب خرزة للتأخيذ أو للرجوع بعد الفرار

الحاوي رجل حَوّاء وحاوٍ يجمع الحيات . قلت هذا غاية مـا ذكره صاحب القاموس في ح ي ى والظاهر انه وواويّ ولكن ضعّفه في الواو بقوله قيل ومنه الحية لتحوّيها الخ وقوله يجمع الحيّات كانه لحظ فيه معنى حوى لا يناسب مـا قاله في تفسير الحِنفش وعبارته . أو حية عظيمة ضخمة الرأس رقشاء ركداء اذا حويتها انتفخ وريدها . فهو صريح هنا في الرقية وقـد ذكرت ذلك وما أشبهه في كتاب مفرد

١٧

في الثلج

لا غرو ان يجد بعض القارئين كلامي في هذا الفصل بارداً لاني كتبته في يوم عبوس قمطرير . ذي زمهرير . والثلج اذ ذاك ساقط على السطوح . وقد سدّ الطرق ودخل في البيوت والصروح . وكاد يطفي النار ويذهب بالاصطبار . ويمني بالقمر والقِمار . غير انه لا ينكر أحد ان شارب الثلج او آكله أو اللاعب به يحسّ منه بحرارة وكذلك قارىء كلامي فانه وان وجده بارداً فلا بدّ وان يحتمي عليّ من هذه البرودة فيكون قد حصل الغرض وهو تسخين دماغه . ولا سيا اذ كان قد بقيت فيه بقية غيظ وحدّة من الفصل المتقدم . ولكني لم أقصد فيما حكيته الا الصدق . ولو خطر ببالي أن آتي افكا وعضيهة لا وعيت ذلك في قصيدة وختمتها بدعاء ومدح لاحد البخلاء. ومن ماراني في ذلك فليسأل القسيس نفسه . الا ان الثلج يخالف كلامي من جهة انه يسقط على الاسود فيبيضه وكلامي قد سقط على القرطاس فسوّده . وكلاهما في ظني يروق العين وكلاهما يجتمعان في هذه الجهة . وهي ان الثلج لا تطلع عليه الشمس أياماً إلا ويذوب. وكذا كلامي فانه لايكاديبقى منه شيءفي رأس القارىء بعد تقمّره او عند ظهور بوح عليه. وهناك جهة اخرى تضمّهما. وهو انالثلج بعد سقوطه ينشأ عنه الصحو وانجلاء الجو. وكذلك كلامي فانه بعد تساقطه من رأسي ينشأ عنه انجلاء جوّ فكري وصحو بالي واستعداده الى ما يروق ويروع . فعلى كل حال تجد المشابهة هنا في موقعها وعذري في محله. وبعد فأني أرى الاغنياء المثرين يتخذون في ديارهم الفسيحة مساكن للصيف وأخرى للشتاء وكنّا للمبيت وآخر للاستحمام . ومن لم يكن له من غيرهم الا بيت

واحد ففير جدير بان يزار فيه الا حين يكون بيته موافقاً لوقت الزيارة . او يكون وقت الزيارة موافقاً لبيته. فبناء على ذلك ينبغي للعلماء اقتداء باكابرهم الاغنياء ان يتخذوا لهم في رؤوسهم الفيحاء مواطن متعددة مختلفة لما يأتي عليهم من الكلام البارد والفاتر والحميم . ففي وقت ثوران الدم وهيجان الطبع يقرأون البارد تقليلاً مما حركهم من بواعث الحرارة . وفي وقت السكون يتلون الحميم . او بالعكس على مذهب من يداوي الشيء بجنسه لا بضده .

لا يقال ان القارىء يضيع وقته في تمييز البارد والحميم من هذه الفصول . اذ لا يستوعب مضمونها الا اذا أتى على آخرها . بخلاف سائر الكتب فانه لا يتعمّد فيها الكلام البارد فهي على منهاج واحد . فاني اقول ان كل فصل من تلك الفصول له عنوان يدل عليه دلالة قطعية كدلالة الدخان على النار . فمن درى العنوان فقد درى الفصل كله . مثال ذلك اذا مرّ بك في احد الفصول ترجمة البالوعة او البلّوعة أو البلاّعة او البربخ او الاردبة فلا بدّ لك من ان تفطن الى ان حماراً من حُمُر الدير قد غطس فيها للتعريب او الترجمة . الا انه لا ينبغي للقارىء اذا درى مَغْزَى الفصل من العنوان ان يضرب عن قراءته . ثم يقول متبجحاً بين اقرانه وإخوانه قد قرأت كتاب الساق على الساق وفهمت معانيه كلها. فان ذلك يكون كقول مقنس [1] قد رأيت اليوم الامير أعزه الله وكلمته مع انه لم يكن رأى منه الا قذاله عن بعد . ولم يتح له تقبيل يده الشريفة . او كان ذلك الامير قد سأله عن شيء فتلعثم في الجواب او تروّى فيه فسبّ أباه واجداده ولعنه وتهدّده بالصلب او بسَمْل عينيه. او كقول هَبَنْقَع (المزهوّ الاحمق المحب لمحادثة النساء) قد رأيت اليوم فلانة . ولما ان واجهتني وقفت وتنفّست الصعداء . مع انها تكون قد وقفت لتبصق او انها تنفّست الصعداء بُهراً . بل الاولى ان ينوي القارىء عند افتتاحه هذا الكتاب ان يتصفحه كله من أوله الى آخره حتى حواشيه وعدد صفحاته . ويعتقد ان لكل مؤلف اسلوباً . وانه لا يمكن لاحد أن يعجب الناس كلهم . اذ الاهواء متفاوتة

«١» اقنس الرجل ادعى الى قنس شريف «أي اصل» وهو خسيس

والاراء مختلفة . ومن الاسرار التي بقيت مكتومة عني أنك تجد بعض المؤلفين فاتر الحركة غير ذي نشاط ولا مرح.قليل الارتياح الى ما يبعث على التهاوش والتناوش . متقاعس الهمة عن السَبْح والحركة . ناظر الى الحوادث كلهانظر المتوقع لها . وهو مع ذلك اذا أخذ القلم انبض كل عرق في القارىء وحرك كل ساكن . ومنهم من تراه نَزِقاً حركا ذا تترّع وتسرع وحفد وصَمَيان واقبال وادبار وسعي وتهافت. ومعاجلة ومبادرة ومزاحمة ومزاهمة ومسابقة ومحاشرة ثم هو ان قال شيئاً سقط من رأسه على ذهن القارىء سقوط الثلج حتى يكاد ان يخمد منه ذكاه. فلما تأملت في ذلك وتحققته ارتبت في كون سقط الثلج ناشئاً عن فرط برودة متكونة في الهواء وقلت بـل لعل سببه فرط حرارة حزّت في صدر الجو على سكان هذه الارض . ووافر وغر تكوّن في حشاه فلفظه عليهم ثلجاً انتقاماً منهم عما يأتونه في الليالي الباردة من المنكرات وذلك ان بعضهم يحاول عكس الطبيعة فيسخّن فراشه باداة فيها نار .وبعضهم باداة فيها ماء حميم . وبعضهم باداة فيها شراب.وآخرون باخرى فيها لحم.وربما كان من ذلك اللحم لحم خنزير اجلّك الله . فمن أجل ذلك أسقط الجوّ عليهم الثلج المتراكم منعاً لهم من الخروج من ديارهم لاستعمال هذه الادوات لكي يستريح من فسادهم ولو يومين . الا انه قـد فاته ان كثيراً من هؤلاء الناس يتخذون اداة للاداة او اداة لاداة الادوات . مثال الاول ما اذا تربّع الغني في دسته وتدثّر بفروته وقال لغلامه سرْ يا غلام الى محل كذا وائتني منه باداة لتسخين فراشي هذه الليلة . فيذهب الغلام يطأ الوحول والثلوج ورجل سيده نظيفة . ومثال الثاني ما اذا كان السيد جواداً سخياً فيبعث غلامه في موكب له او في آخر ممـــا يستأجر من الطرق . او اذا كان ذا سيادة وامارة ويريد ان يكتم سره عن غلامه .لان لذة الخادم انما هي القلب في عرض مخدومه وجعل نفسه أولى بالمخدومية منه فيستعمل ذلك السيد آخر او آخرين او أخَر في مكان غلامه . ويكون قد بعث اليهم من قبل بهدية على يد خادمه اظهاراً لمكارمه . او انه أعطاهم اياها من بعد . فيكون سقوط الثلج على اي حال كان سبباً في التسخين والحرارة .

لانه اذا اعتُبر في حق المخدوم كان سبباً في اتخاذه الاداة . وان اعتبر في حق الخادم وغيره ممن سدّ مسدّه كان موجباً للحسد . وهو من أعظم المؤثرات تسخيناً واحماء . ومع كونه اي الثلج يرى ساقطاً على كل موضع في المدينة دون أي تمييز دار عن دار فان لفظه في الحقيقة لا يصيب الا رؤوس بعض الناس . وكان الاولى ان يطرد حكمه فيعمّ لا مثل احكام اللفظ الارضي فانها تجري على قوم دون قوم . والفرق بين اللفظين هو ان الثلج لما كان سقوطه او لفظه من علو الى سفل كان المظنون به انه يتصوب على جميع الرؤوس بشدة . فيشمل الكبير منها والصغير والمسفّط منها والمسمرَط. فأما الاحكام والقوانين الارضية فمن حيث كان لفظها من سفل الى علو اي من رؤوس ناس مسودين الى رؤوس ناس سائدين . لم يكن من المحتمل ان يكون تبعتها قوياً حتى يبلغ ذوي الرفعة والعلاء الذين يمرّ السحاب من تحت قذُلهم . ثم ان الثلج معما يتبعه في الواقع من الضنك والمشقة لمن الفه فقد يروق لعين من لم يكن رآه . فقد بلغنا ان بعض الصعاليك كان مرة ضيفاً عند اناس لم يكرموه ولم يحتفلوا به اذ كان دونهم في المعارف والنباهة . وكان بلدهم لا يسقط فيه الثلج البتة . فلما فصل من عندهم الى بلاد اخرى رأى فيها الرزق وعاين بها الثلج كبّر لرؤيته وهلّل وأعجب به غاية الاعجاب . حتى زعم انه منة من الله خصّ بها ذلك الصقع تمزية له على غيره . كما انه تعالى حرم منها بلد مضيفه الاول .

وكذلك كلامي ههنا . فانه معما فيه من الاستطراد والحشر والالفاظ المضغوطة بين المعاني ومن المغازي المعقودة بالتلميح والتلويح . والتحويل والتمليح . فقد يروق لخاطر من لم يكن قد ألف هذا التخليط بل ربما يحمله الاعجاب به على تحديه ومحاكاته . ولكن هيهات فان الباب قد أغلق في وجوه المتحدّين. على اني لست أزعم اني أول كاتب في الدنيا نهج هذه الطريقة وأسمطها المتناعسين . الا اني رأيت جميع المؤلفين في سَهوة كتبي قد قيدوا

أنفسهم بسلسلة نَـفَس من التأليف واحده . لكنني لا أعلم الآن هل غيروا أسلوبهم أو لا . اذ قد مضى عليّ بعد فراقهم اكثر من خمس سنين . فـكأن العـارف بحلقة واحدة من تلك السلسلة قد عرف سائر الحَلَق حتى ان كل واحد منهم يصدق عليه ان يسمى حلقيّا . بنـــاء على انه مشى وراء القوم وحذا حذوهم . فـاذ قد تقرر ذلك فاعلم اني قد خرجت من السلسلة فما أنا بحلقي ولا بُسَتَنيهتي ولا اكون امام القوم فان الثـانية أنحس من الاولى . وانما انا مستقبل لما استحسنت . آخذ بناصية ما استظرفت . رافض مكلف العـــادة .

١٨

في النحس

لقد أرحت سن القلم من كدم اسم الفارياق قليلا بعد ان تركته مع القسيس الربيط وتلهيت بالكلام على الثلج لما داخلني من فرط الحدة عليهما معاً . أما على القسيس فلكونه خان صديقه الذي أواه الى منزله في حرمته . وكان ينبغي له ان يذهب الى مواجرة او يفعل كسائر القسيسين من أهل حرفته . اذ لو كان الله تعالى رزق ذلك التاجر ولداً على نيّته أي فتح له رحم امرأته كما تقول التوراة لكان أربعة أرباع هذا الولد من القسيس والباقي وهو اسمه من التاجر . فيكون قد أقام نفسه مقام من يربي النغول . مع ان أول ذكر فاتح رحم كما تقول التوراة مبارك ومعظم عند جميع الامم . ولهذا كان حق الوراثة عند الانكليز للبكر أي لفاتح الرحم . فكيف يحاول القسيس هنا جمع اللعنة والبركة على رأس مخلوق واحد . إن ذلك الا محال . وأما على الفارياق فلأنه هو الذي كان السبب في افشاء هذا السر بما أبداه من العناد والتصلّف في حفظ أبياته التي لا أشك في انه ارتكب فيها المين والغلو والمبالغة المردودة لغير نفع . وهو مع ذلك يحسب انه يحسن صنعاً . فأما مشابهة الولد أباه في الخلق هل هي دلالة قطعية على كونه ابنه فغير متفق عليها . فذهب بعض الى انها ليست علامة كافية . لان الام قد يحتمل في حاله كونها مسافحة ان تكون مفكرة في زوجها ومتصورة له فيأتي توزيع الجنين بحسب هذا التصور . وذهب بعض الاولاد الى ان الام وحدها لا فاعلية لها في التوزيع فقد يأتي بعض الأولاد مشابهاً لعمه او خاله او لآخر ممن لم تكن امه قد رأته قط .

والآن ينبغي لي أن استمر في القصة . وان اعرضها على مسامع القارىء من دون اجراض احدنا بغصة . فاقول قد تقدم في اول هـذا الكتاب ان الفارياق وُلد والطالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها الى التيس. والسرطان واقف على قرن الثور . فاعلم هنا ان النحس على قسمين نحس ملازم ونحس مفارق . فالنحس الملازم ما لزم الانسان في يقظته ومنامه وأكله وشربـه وغدوه ورواحه وفي كل ما يأتيه . والنحس المفارق ما خالف ذلك أعني ما لزم الانسان في حال دون حال. وأعرف ما يكون لزومه في الاحوال الخطيرة الشأن كالزواج والسفر وتأليف كتاب ونحو ذلـك . ثم ان ماهيات النحس الملازم مختلفة ايضاً . فمنه مـا يكون كالعقدة المحكاة . ومنه كالربقة ومنه كالمسمار . ومنه كالوتد ومنه كالمشبك . ومنه كالقفل بلا مفتاح ومنه كالغِراء ومنه كالغِمجار . ومنه كاللِجاذ ومنه كالشِراس . ومنه كالدبق والطِبق. او كالرومة او الثرْط واللزاق . ومنه كالجلد ومنه كالدم الساري في جميع أوصال الجسد ومفاصله . وجناجنه وسلائله . وسناسنه وشلاشله . وترائبه وتراقيه . وشراسيفه وبوانيه . وغضاريفه وحوانيه . وربَلاتـه ومذاخره . وعَضَلاته ونواشره . وعصبه وبوادره . واعصاله ومرادغه وسافينه وناعوره . ووريده ووتينه . واسهرَيه واخدعَيه . ومريئه وفليقه . وحلقومه ونخاعه . ونائطه ونخاعه . وأوداجه وذفراه. وثِفِنَته وشظاه. ورواهشه وشرايينه . ونسيسيه واشلائه . وغموده واشوائه . فنحس الفارياق كان من هذا النوع ، غير انه لا ينبغي ان يفهم هنا انه كان دموياً اي كثير الدم او محباً لسفكه او ولاّجاً فيه . فانه كان منزهاً عن هذه الصفات كلها . وانما كان نحسه كالدم من جهة انه كان ملازماً له في جميع احواله . فقد حكي وان يكن كاذباً فعليه كذبه انه بات ليلة وقد رأى في المنام انـه شرب مثلوجاً ثم شرب عقبه سخيناً فأصبح يشكو من وجع في أضراسه شديد ومن بحح في حلقه . وكان يحلم انه يتهوّر من قنة جبل او يسقط عن ظهر جمل فيغدو وظهره متقوّس . وكان اذا حلم انه أكل الكامخ مغسه في ليلته . او شرب اجاجاً او زعاقا قاء . او اشتمّ روائح كريهة غثت نفسه . وكان اذا حدثه أحد بانه رأى في حديقته

ربَحْلة رأى هو في المنام ليلته تلك انه في

وَيْل واد في جهنم او بئر او باب لها

اوفي المَوبِـق واد فيها .

او في الفَلَـقَ جهنم او جبّ فيها

او في بُولَـس سجن فيها

او في سِجّين واد فيها

او في أثام واد فيها

او في الحُطَـمة باب لها

أو في غي وادٍ فيها أو نهر

أو في الصَعُود جبل فيها . وحوله

لُبَيْنَـي اسم بنت ابليس

اوزَلنْبُور أحد اولاد ابليس الخمسة

اومِسوَط ولد لابليس يغري على الغضب

او السُرحوب شيطان أعمى يسكن البحر

او خَنْزب شيطان

او السَرفح اسم شيطان

او الجِمّ الشيطان او الشياطين

او نَهْم شيطان

او هَياه من اسماء الشياطين

او الحَباب اسم شيطان

او الأزَبّ اسم شيطان

او أزَبّ العقبة اسم شيطان

او الهِراء اسم شيطان موكّل بقبيح الاحلام

او الولهان شيطان يغري بكثرة صب الماء في الوضوء

او الخُبث والخبائث ذكور الشياطين وإناثها

او السَفِيف ابليس ويسمّى أيضاً المبطل وكنيته ابو مُرّة وابو قترة

أو عمرو أسم شيطان الفرزدق
او الفلوط من أولاد الجن والشياطين
او الشيطان والبلأز والقاز والخابل والخناس والوسواس والفتان والاجدع
وكان اذا بصر من كوة بيته بكمكامة مكماكة خيّل له في المنام انه
في خافية بها جن
او في البراص منازل الجن
او في البلوقة موضع بناحية البحرين فوق كاظمة يزعمون انه من مساكن الجن
او في البقّار موضع برمل عالج كثير الجن
او العازف ع سمّى لانه تعزف به الجن
او في الحوش بلاد الجن
او في وبار وبار كقطام وقد يصرف ارض بين اليمن ورمال يبرين
سميت بوبار بن إرم لما اهلك الله تعالى عادا ورّث
محلهم الجن فلا ينزلها احد منا
او في عبقر ع كثير الجن
او في جيهم ع كثير الجن . ولديه
الشيصبان قبيلة من الجن
او بنو هنام قبيلة من الجن
او بنو غزوان حي من الجن
أو دهرش اسم أبي قبيلة من الجن
أو أحقب اسم جني من الذين استمعوا القرآن
أو زمزمة قطعة من الجن
أو الشق جنس من الجن
أو شنقناق رئيس للجن
او العسل قبيلة من الجن
أو العسر قبيلة من الجن وهو ايضاً اسم ارض للجن
أو السعلاة والعيسجور والشهام ساحرة الجن

أو السَّعسلق   أم السَّعالي

أو العضرفوط   من دواب الجن

أو النظرة   الطائف من الجن

أو الزوبعة   رئيس للجن

أو الخافي والخافية والخافيا   الجن وكذا الخبل

أو التابع والتابعة   الجني والجنية يكونان مع الانسان يتبعانه حيث ذهب

أو العكنكع والكعنكع   الغول الذكر

أو الخيدع   الغول الخداعة

أو السِلْتَم والصيدانة والخيعل والخولع والخيتعور والسمرمرةوالسمَّع والعولق والعلوق والهبرعة والملد والعفرناة (كلها من اسماء الغول)

أو العتريس   الغول الذكر

أو التِمسح   المارد الخبيث

أو الدرقم   اسم الدجال وهو ايضاً المسيح كسكين

أو الطغموس المارد من الشيطان والخبيث من الغيلان

أو الزَّبانية   جمع زبنيَّة وهو متمرد الانس والجن ومثله العِكَبّ

أو الحيزبون وكان صاحبنا وهم في هذه فاني لم اجدها في القاموس فكيف يمكن رؤيتها في المنام ٠ واسمها غير موجود في قاموس الكلام . مع ان المص رحمه وزن عليها الحيزبور والخيتعور والقيدحور والعيجلوف والعيطبول والهيجبوس والجيهبوق والزيزفون والجيثلوط والعيضفوط . ثم انه كان اذا سمع خنبة تكلم رجلا بمنطق رخيم سمع في الليل عزيفاً وهساهس وتهويداً وزيزماً وهدهداً وزهزجاً وزي زي . (كلها من أصوات الجن) واذا رأى جارية تردي نصف النهار [1] جاءه في نصف الليل الكابوس والجاثوم والدوفان والنيدل والباروك والدئثان والديثاني . ورأى ليلة ما ان قد زفت اليه عروس فأتاه تجعل تيس وجعل ينطحه بقرنيه فاستيقظ فاذا بقرن

(١) ردت الجارية رفعت رجلا ومشت على أخرى تلعب

رأسه مرضوض . ورأى ليلة اخرى ان قد وجد على شاطىء نهر دنانير ودراهم فمدّ يده وأخذ منها خمسة عشر درهماً لا غير . فلما عبر الشط الثاني رأى شيخاً بيده كرة يديرها. فكان كلما أدارها أخذ الفارياق في ظهره وجع شديد كوجع الداء المعروف في بلاد الشام بالوثّاب. فلما رمى بالدراهم من يده من شدة ما أصابه سكن عنه الوجع ورأى ليلة اخرى ان رجلاً مغربياً اتحفه بشيء فتلقفه في الحال مشرقي وذهب به . قال والى الآن لم يرجع به مع انتظاري له كل ليلة . وقس على ذلك سائر أحلامه. ومما قاله في الحلم نظماً

كأنَّ همومي وهي تحت مخدّتي اذا بتُّ تغري بي الهراء لتُذرئه
تقول عليّ اليوم كان بُواله وانّ عليكَ الليل ذا ان تخرّئه

وقال

أسرّ اذا انقضى يومي لاني ارجّي فيه احلاماً تسرّ
فأحلم انني أسعى وأشقى فليلي مثل يومي أو أشرّ

وقال أيضاً

ويا رب حتى في المنام تروعني باضغاث أحلام تسوء وتزعج
فياليتني أشقى نهاري وفي الكرى أسَرُّ برؤيا من أحبّ وأبهجُ

وعنّ له يوماً أن يمدح بعض ذوي السيادة والسعادة . فلما حظي بلثم اعتابه الشريفة وأنشده القصيدة رجع القهقرى على عادة أهل بلاده من أن الصغير لا يري الكبير قفاه . اشارة الى انه لا قذال الا قذال الكبير . ثم جاءه الحاجب يقول ان الامير أدام الله دولته . وخلد صولته . وجعل الشمس والقمر نعلا لفرسه . وجعل يومه خيراً من أمسه . وجعل ظله ممدوداً على الارض ظليلاً . وجعل طرف الكون بتراب نعله مكحولاً. وجعل الثريا مقراً لرجليه والعيوق شراكاً لنعليه . وجعل الوجود باسمه مبتهجاً وبابه لكل لائذ رتجاً مرتجى . وجعل — فلم يتمالك الفارياق أن بادره وقال دعني من جَعَل يا جُعل . ماذا يقول الامير . قال يقول الامير المعظم.الخطير المكرم.

ذو الآلاء الغامرة . والنعم الوافرة . من اذا قـــال فعل واذا سئل أعطى فأجذل واذ تنحنح ألقى الرعب في قلوب اعاديه . واذا سعل خفقت فرقا أفئدة شانئيه. واذا مخط ارتج المكان لهيبته. واذا حبق تزلزل المجلس لحبقته. فقال الفارياق أف لهذه الرائحة الخبيثة يا خبيث قل ما يقوله الامير. وأرحني من هذا التقعير . لقد برّزت على الشعراء بهذا الغلو والاطراء . قال انه يقول لك انك قد احسنت في أبيات القصيدة وأبدعت مـــا شئت . لانك شبّهته بالقمر والبحر والاسد والسيف الماضي والطود الراسخ والسيل المنهمر ممـا هو خليق بالاتصاف به . الا" في بيت واحد جعلته فيه قواداً . قال كيف ذلك جل" الامير عن القيادة . قال نعم انك قلت انـه يجود بالمال والنفائس ويولي الابكار. وقلت في بيت آخر انه محمّد الذكر محمود المناقب وهو غير محمد ولا محمود . وبسبب هذا الخطأ الفاحش حرمك من رؤيته. قال هذه عادة الشعراء انهم لا يزالون يتلمّظون بذكر الخرائد والحامد . وليس المقصود بذلـك نسبة القيادة الى الممدوح . قال هذا غاية ما عندي فلا تطمع بعد في المثول بحضرة أميرنا المبجل . فمن ثم رجع الفارياق محروماً من هذا المغنم الهنيء . وبلغ منه الغيظ ان أضله عن الطريق المستقيم . فسار في طريق آخر ومـــا وصل الى منزله الا" بعد اللتيّا والتي . وأخذ يفكر في نحس طالعه وشؤم قلمه . فظهر لهوسه ان القلم أنحس شيء يتخذه الانسان سبباً لمصالحه . وان أشفى الاسكاف أنفع منه . وان تقديم النون عليه في قوله تعالى ن والقلم وما يسطرون ان هو الا اشارة الى النحس . وان ما قاله المنجم في طالعه صحيح . فأنه أوّل المرأة التي زفّت اليه في المنام بالعقرب . والجدي بالتيس الذي كان ينطحه . والسرطان بنفسه اذ رجع القهقرى من عند الامير فكاد ان يعثر بحصير مجلسه السامي لولا ان تمسك ببعض أوتاده الشريفة . وأوّل الثور بالامير الممدوح . الا ان العبارة الاولى وهي قول المنجم نحس النحوس غير محصورة في حادث واحد . اذ هي تستغرق جميع الاحوال والحوادث كما سيرد بيانه . وذلك ان الفارياق لما سمع من نجيّه الذي قايضه على الاعتراف ان المساومة في قبل وقال هي من البياعات الرابحة ، والاسباب الناجحة خلج في صدره أن يجرب تنفيق

ما عنده من البضاعة المزجاة.الا انه لم يعرضها من أوّل وهلة على أحد المشترين من الجثالقة كما فعل صاحبه . بل أخذ في تقليبها وتفليتها وتمشيطها وتنسيلها من جهة واستشفافها من أخرى . فظهر له انها قديمة قد ركّت بحيث لا يكاد أحد أن يرغب فيها .

واتفق وقتئذ ان قدم عنقاش يفدد على شراء السلع القديمة وعلى اصلاحها أو على مقايضتها أو على صبغها . وادعى انه يقدر أن يعيدها الى لونها الاول وانه لا يعجزه شيء من أحوالها بحيث ان صاحب السلعة نفسه اذ رآها بعد صبغها وتصليحها يتعجب منها غاية العجب ولا يعود يعرفها . وانه أي العنقاش لما بلغه في بلاده فساد تلك السلع أقبل حفداً الى تلك البلاد وهو يحمل خرجاً كبيراً فيه من الاصباغ والادوات ما يرفأ كل خرق ويعيد كل لون نافض . فسار اليه الفارياق عجلا الى المقايضة وواطأه على ابدال ما عنده من السلعة القديمة باخرى جديدة راقت لعينه . فقد يقال لكل جديد بهجة . ثم قفل الى منزله مسروراً بصفقته . فلما علم أهله وجيرانه بذلك استشاطوا عليه غيظاً وقالوا . لعمر ربّ الجنود ما جرت العادة في بلادنا بتغيير البياعات ولا بمقايضتها ولا باصلاحها ولا بصبغها . ثم لم يلبث الخبر ان بلغ مطران الصقع وكان من الضواطرة الكبار . فكأنما كان سكيناً سقط على حلقومه . أو خردلاً دخل في خرطومه . فهاج وأزبد. وأبرق وأرعد . وماج واضطرب . وضج وصخب . والسّب وحزّب . وبربر وثرثر . وأقبل وأدبر . وزجر ونهر . ووثب وطفر . وفتل لحيته من الغيظ حتى صارت كالمقرعة . وأغرى كل حنتوف مثله بان يهيج معه . ونادى يا خيل الله على الكفار . انهم صالوا النار . كيف تجرأ هذا الشقي المنحوس . المعتوه المهلوس . على ان يذهب مذهباً غير ما نهجه له جاثليقه . وسلكه فيه بطريقه . وكيف أقدم بوقاحته . وصفاقة وجهه وقباحته . على معاملة ذلك العنقاش اللئيم . ومبايعته ما ورثه من آبائه من الزمن القديم . أليس في بلادنا صُلْب . وادهاق ويلب . هلموا به مُهاناً . اجلدوه عرياناً . اطرحوه نيراناً . القموه حيتانا . اطعموه دمانا . اقطعوا منه

لسانا . اسقوه الزنانى ، عليّ به الآن الآن . فابتدر بعض الحاضرين وقال انا آتيك بهذا الجُعشوش بأسرع من رد طرفك اليك. ثم ولّى حفداً الى الفارياق فوجده مكبّا على قراءة الدفتر الذي فيه اثمان السلعة. فتناوله بالسيف فأصاب فروته . ثم سيق الفارياق الى الجزّار المشار اليه. فلما بصر به انتفخت أوداجه واتسع منخراه وتعقدت أسرّة جبينه واصفرت شفتاه . ورقص شارباه واحمرت حدقتاه . واحترقت أسنانه ودارت بينهما هذه المحاورة :

قال الضوطار ويلك يا مغبون ، ما دعاك الى المساومة في سلعتك ؟

الفارياق اذا كانت هي سلعتي كما أقررت فما الذي يمنعني من ذلك؟

الضوطار ضللت. هي سلعتك من حيث انك ورثتها من آبائك لا من حيث ان لك حق التصرف فيها

الفارياق هذا خلاف العادة والحق فان ما يرثه الانسان يحق له التصرف فيه

الضوطار كذبت . انك انما ورثتها لتحفظها لا لتضيعها ولا لتبادل بها

الفارياق هي ميراثي أفعل به ما أشاء

الضوطار قبحت اني أنا القيّم عليه الصائن له من الشوائب

الفارياق ما بلغنا عن احد انه تولى ميراث غيره الا اذا كان الوارث غير راشد

الضوطار غويت . انك أنت غير رشيد وأنا وليُّك ووصيُّك وكفيلك ووكيلك وحسيبك

الفارياق ما الدليل على اني لست من الراشدين ومن ذا الذي جعلك وصياً ووليا

الضوطار زغتَ . انما الدليل على غوايتك وضلالك هو انك تبدلت به متاعاً غيره . وأما كوني وصياً فان جميع أمثالي يشهدون لي به كما اني أنا أيضاً أشهد لهم بأنهم أولياء غيرك

الفارياق ليس تبديل شيء بآخر دليلا على الضلال والزيغ اذا كان المبدل والمبدل منه من جنس واحد . ولا سيما اني رأيت لون القديم يوشك ان ينصل وقد ركت رقعته فتبدلته بما هو أزمى وأقوى

الضوطار كفرت . انه غشي على بصرك فما تستطيع ان تفرق بين الالوان
الفارياق كيف ذلك ولي عينان ناظرتان ويدان لامستان
الضوطار عميت . فان الحواس قد تغش ولا سيما حاسة البصر
الفارياق اذا كانت حواسي قـــد غشت فكيف سلمت حواسك من الغش وانت بشر مثلي
الضوطار حِنثتَ . اني وان كنت بشراً مثلك لكني وكيل من طرف شيخ السوق . وقد أفادني مما أودع الله فيه من الاسرار العجيبة أن لا يطرأ عليّ غبن ولا غش الا وتبيّنته لانه هو منزّه عن الغش

فقال الفارياق وكان به فأفأة . وأين شيخ الفسوق هـــذا ثم استدرك كلامه وقال انما أردت شيخ السوق . فلا تكن زيادة هذه الثانين موجبة لحدّ الثمانين .

الضوطار لعنت . هو بعيد عنا بيننا وبينه ابحار وجبال . غير أن انفاسه القدسية تسري فينا
الفارياق كيـف به اذا مرض او جن او مسه طائف من الجن او اصابه برسام . فكيف يمكنه والحالة هذه تمييز المتاع الردي من الجيد
الضوطار هلكت . ما هو ببلو للعوارض لانه بواب رتاج عظيم وبيـده مزلاجان عظيمان لاحكام الباب من قبل ومن دُبُر
الفارياق ليس هذا بدليـل فان كل إنسان في العالم يمكنه ان يصير بواباً ذا مزلاجين
الضوطار فسقت وفجرت . انه هو وحـــده مستبد بهذه الخطة اذ قد فوضت اليه من المالك الآمر
الفارياق متى كان ذلك ؟
الضوطار صلبت مذ الفي سنة تقريباً
الفارياق أو عاش هذا الشيخ الفي سنة
الضوطار الحدت . انما انتقلت اليه بالوراثة

الفارياق	ممّن ورثها أمن ابيه وجده

الضوطار	نكلت . من انسان لا يعد في أهله

الفارياق	هذا أمر عجيب كيف يرث الانسان شيئاً من رجل غريب فان الغريب اذا مات عن غير وارث انتقل ماله الى بيت المال فهو أولى به من رجل على حدته

الضوطار	عذبت . هذا سر ليس لك ان تبحث فيه

الفارياق	ما الدليل على كونه سراً

الضوطار	أفحشت . هذا هو الدليل . وعند ذلك قام عجلاً واتى بكتاب وأخذ يقلب فيه من اوله الى آخره حتى يجد فيه مطلوبه اذ لم يكن كثير الدراسة له . الى ان وجد عبارة مضمونها ان المالك كان احب مرة رجلاً فوهبه هبات شتى من جملتها كأس وطست وعصا في رأسها صورة ثعبان وجبة وتبان ونعلان وباب له مزلاجان . وقال له قد وهبتك هذه كلها فاستعملها واهنأ بها

الفارياق	لعمري ليس في هذه الهبة ما يدل على سره هذا وقد مات كل من الواهب والموهوب له وفقد الموهوب كله . فكيف لم يبق الا المزلاجان فقط وقد ضاع الباب وهما لا ينفعان من دونه شيئاً

الضوطار	فنّدت . لم يبق لنا في غير المزلاجين من حاجة

الفارياق	بحق هذين المزلاجين عليك يا سيدي الا ما أريتني الكأس مرة في العمر وحسب . ولك عليّ بعد ذلك الامرة التامة . فلما ان

ضغط الضوطار بين السلب والايجاب استشاط وغراً وهم أن يلحق الفارياق بالباب والكأس لولا ان دعاه داع الى اللوس . فقام ناشطاً ووكل به الاوغاد وكان وقتئذ يتضوّر جوعاً فرأى ان رؤية قعر القدر في المطبخ أشهى اليه من النظر إلى وجه الفارياق . فتغافل عنه فتملص الفارياق من هذه الورطة وأقبل يهرول الى الخرجي وقال له .. لقد خسرت تجارتي معك فان البضاعة كادت تمنيني ببضع . فابتغي منك الاقالة . اولاً فان يكن عندك في الخرج رأس

يلائم جثتي حين تعدم هذا فارني إياه ليسكن روعي . اذ لا يمكن لي ان
أعيش بلا رأس . فاما ان لم يكن في الخرج غير اللسان فما لي به حاجة هذا
متاعك فضمه اليك . فقال له الخرجي ما هكذا حق التعامل ينبغي ان تصبر
على ما يلحقك من تبعة الصفقة كما هو دأب جميع المتبايعين عندنا . وتلك من
بعض خواص هذه التجارة . ولكن لا تخف فان من خواصها ايضاً ان تقي
الواقي لها وتحفظ المحافظ عليها . فيكون له بها غنى عن الرأس اذا نقف
وعن العينين اذا سملتا وعن اللسان اذا استل . وعن الساقين اذا غمزتا بالدهق.
وعن اليدين اذ غلتا بالكبل . وعن العنق اذا وقصت . والكبد اذا فرصت .
قال ما أرى ما ترى فان الاسف لا يحيي مائتاً .والندم لا يرد فائتاً . فان يكن
عندك مخزن آمن فيه من العدوّ على السلعة فآوني اليه . والا فهذا فراق بيني
وبينك . فاطرق الخرجي ساعة ثم دخـــل به حجرة صغيرة واغلق الباب .
وأخذ يمتحن الفارياق كما سيرد بيانه في الفصل الآتي :

١٩

في الحس والحركة

قد جرت عادة الناس جميعــاً بان يقولوا اذا احبوا شيئاً أو اشتاقوا الى شيء ان قلبي يحب هذا الشيء . أو يحسّ بمحبة هذا الشيء . أو يشتهي ذلك الشيء . ولست أدري علة هذا الاستعمال . فان القلب انما هو عضو في الجسم من جملة الاعضاء فلا يمكن ان تكون حاسّيتها كلها مجموعة فيه . وبيانه انّ من أحبّ مثلاً لوناً من الطعام بخصوصه فلينظر في أدوات الاكل الباعثة على اشتهائه . ومن أحبّ امرأة فلينظر في الاداة الباعثة على اشتهائها . وما يميل اليه الطبع وهو غير محتاج الى اعمــال اداة ظاهرة وذلك كحب الرئاسة والسعادة والدّين ينبغي ان يحمل على الرأس . اذ هي أمور معنوية لا علاقة لها بتلك البضعة أي القلب . وكما ان الطحال الذي هو وزير الميمنة لا تعلق له بهذه الامور . فكذلك كان وزير الميسرة أي القلب . الا انه لما كانت حركة القلب أسرع من غيره لكونه أقرب الى الرئة التي هي حرز التنفّس . ظن الناس ان القلب أصل في جميع اهواء الانسان وأشواقه . ومن عاداتهم اجتناباً للبحث عن كثرة الاسباب والعلل والتيقن للحقائق ان يقتصروا على سبب واحد من الاسباب المتعدّدة . وينسبوا اليه كل ما تسبّب عن غيره . كما تنسب الشعراء مثلاً دواعي النحس الى الدهر ودواعي البين والفراق الى الغراب .

وبناء على هذا الاعتقاد أي نسبة الاهواء كلها الى القلب أراد الخرجي ان يمتحن قلب الفارياق ليعلم هل نبض فيه حبّ السلعة الجديدة نبضاً قوياً أو لا. فجعل يقول له هل تحسُّ في قلبك بان السلعة الجديدة خير من الاولى . وهل يضطرب فرحاً وسروراً عند ما تسمع بذكرهــا ؟ وهل ينبسط ويتسع

ويتشرح عند خطور هذه ببالك . وينقبض ويضيق ويتضامّ عند ذكر تلك.
وهل عند قراءتك دفتر الاثمان يخيل لك أن قد طُبع فيه أي في قلبك كل
حرف من حروف الدفتر.حتى لو أعوزك وجوده سدّت تلك الحروف مسدّه
وهل يضطرم ويتوقد مرة ويذوب ويضمحل أخرى . ثم يعود أقوى مما كان
عليه كالسمندل المعروف . وهل تحس أيضاً بان ناخساً ينخسه . وواخزاً يخزه
وعاصراً يعصره . وراهصاً يرهصه . وممزقاً يمزقه . وضاغطاً يضغطه . فقال
له الفارياق أما الاضطراب والخفقان فانه دائماً على مثل هذه الحـــالة . وهو
عُرْضة لذلك في حالتي الفرح والترح فان أدنى شيء يؤثر فيه . وأما التوقد
والذوبان فلا أدري . فقال المراد بالتوقد هنا وبالنخز والعصر الحميّة والتحمس
والتهوّس وتخيّل ما هو معدوم موجوداً وما هو موهوم يقيناً . ومَثَل ذلك
مثل من يسافر في فلاة لا ماء فيها فيبلغ منه الظمأ ان يتصوّر السراب ماء وشعاع
الشمس نَقِزاً . ولا يزال يمُني نفسه بوجدان الماء حتى يقطع المفازة . فان
شدة التخيل والتهوس تعين الانسان على تحمـــل المكاره والمشاقّ . فيكون
رازحاً تحت ثقلها وهو يحسب انه من المتّكئين على الارائك . فيستوي بذلك
عنده المجاز والحقيقة والمحسوس وغير المحسوس . حتى يحسب الصَفَر خواناً
والنعش عرشاً والخازوق أو الصليب منبراً . وربما كان ذا زوجة وعيال
فيتخذهم متخذ الماعون من الخزف فيغادرهم ويجري في البلدان القاصية لترويج
السلعة . ويستغني عن أهله واخوانه ورهطه بما لديه في الخرج فيحمله على
كتفه مستبشراً مسروراً ويضرب في مناكب الارض طولاً وعرضـاً . فكل
من مرّ به من عباد الله عرض عليه الشركة والمضاربة . ولا يزال دأبه كذلك
حتى يقضي نحبه وطوبى له ان مات على هذه الحالة . الخرج الخرج . ما لنا
سواه من حرفة ولا شغل . السلعةَ السلعةَ . ليس لنا غـيرها من جُعل . ثم
طفق يبكي وينتحب .

فلما أفاق بعد حين سأله الفارياق هل عندكم معاشر الخرجيين سوق وشيخ
للسوق ؟ قال لا . قال ومن يقوّم لـكم المتاع قال كلٌّ منا يقوّم متاعه بنفسه

ولا يحتاج الى آخر . فتعجّب الفارياق وقال في نفسه ان في هـذا لعجباً . فان قوماً من هؤلاء الصعافيق لهم شيخ سوقٍ وما لهم خرج .وقوماً لهم خرج وليس لهم شيخ ولكن لعل صاحبي هذا على الحق . اذ لو لم يكن كذلك لما تكلف حمـل الخرج من أقصى البـلاد وتجشم اخطار السفر وغيره ثم نخزه الخناس ان الخرجي ربمـا لم يجد محترفاً في بلاده فجاء بما عنده لينفقه في بلاد اخرى . فان تاجراً لو استبضع من بلده مثلاً خزاً او كِرباساً الى بلد آخر لم يحكم له بأنه قدم الى هذا البلد حباً بأهله . فقد جرت العادة بأن المتسببين يطوفون في كل الاقطار . ثم فكر في أن أناة الخرجي وما هو عليه من الرزانة والصبر لا بد وان يكون قرينهـا الرشد والحزم بخلاف النزق والطيش فانه لا يكون إلا قرين الغواية والضلال. فمن ثم حكم بان الخرجي كان على هدًى وذلك لاناته وحلمه . وان المطران كان من الضالين لحدّته وتترعه . ثم قال للخرجي قد وعيت يا سيدي كل ما أوعيته أذني . وما أرى الحق إلا معك . واني مشايعـك ومتابعك وحامل للخرج معك . ولكن اجرني من هؤلاء الصعافيق فانهم كالاسود الضارية لا تأخذهم في خلق الله رأفة ولا شفقة . وعندهم أنّ اهلاك نفس غيرةً على الدين يكسبهم عند الله زُلفَى . وقد تمسكوا بظاهر أقوال من الانجيل فيما رأوه موافقاً لغرضهم وزائداً في جاههم وسلطانهم . فيقولون ان المسيح بقوله ما جئت لألقي على الارض سِلْماً لكن سيفاً انما رخص لهم في اعمال هـذه الاداة في رقاب الناس رداً لهم الى طريقة الحق . وقد نبذوا وراء ظهورهم خلاصـة الدين وجوهره ونتيجته . وهي الالفـة بين جميع الناس والمحبة والمساعدة وحسن اليقين بالله تعالى. وما صعب على من زاغ وعمي عن الحق ان يستخرج من كل كتاب وحيـاً كان او غير وحي ما يوافق غرضه وفساد عقيدته . فان باب التأويل واسع . أيجوز الآن لأمير الجبل اذا شاخ ولم يَعُد التدثُّر بالثياب يدفئه ان يتكوّى ببنت عذراء جميلة أي يتدفأ بها ويصطلي بجرّ جسدها كما فعـل الملك داود . ام يجوز له اذا حارب الدروز وانتصر عليهم ان يقتل نساءهم المتزوجات واطفالهم ويستحيي أبكارهم لتفجر بهن

لمخول جنده . كما فعـــل موسى بأهل مدين على ما ذكر في الفصل الحادي والثلاثين من سفر العدد . أم يجوز له ان يتزوج بألف امرأة ما بين ملكة وسرية كما فعل سليمان . ام يجوز لاحد من القسيسين ان ينكح زانية ويولدها النغول كما فعل النبي هوشع . ام يسوع لاحد من الولاة ان يقتل من اعدائه كل رجل وكل امرأة وكل طفل رضيع كما فعل شاول بالعمالقة عن أمر رب الجنود . حتى ان الرب غضب عليه لعدم قتله خيار الشاه والانعام لابقـائه على اجاج ملك العمالقة وندم على انه ملّكه على بني اسرائيل فقـــام صموئيل وقطّع الملك قطعاً امام الرب في جلجال . هذا واني قد قرأت في فهرست التوراة المطبوعة في رومية في حرف الهاء ما نصه : ينبغي لنا (أي لأهل كنيسة رومية ان نهلك الهراطقة . اي المبتدعين-أو المشاحنين . واستشهدوا على ذلك بما كان يجري بين اليهود واعدائهم من القتال والفتك والاغتيال على ما سبق ذكره .فان يكن دين النصارى يحلل قتل الرجال والنساء والاطفال والفجور بالابكار من النساء ويبيح التوثب على عقار الغير من دون دعوة الى الدين بل مجرد عتوّ وظلم كما كان يحلله دين اليهود فلأي سبب نسَخـه اذن وأبطل احكامه لكن دين النصارى مبني على مكارم الاخـلاق وغايته من أوله الى آخره ابقاء السلم بين الناس وحثهم على الصلاح والخير . وإلا فلنرجع يهوداً . فلما سمع الخرجي ذلك رأى ان وراء هذا الكلام لباقعة . فحرص على انقاذ الفارياق من أيدي العتاة . وارتأى ان يبعثه الى جزيرة تسمى جزيرة الملوط استئمانا فيها . فركب الفارياق في سفينة صغيرة سائرة الى الاسكندريه . فلما ان سارت به غير بعيد هاج البحر واضطرب بالسفينة فلزم صاحبنـــا فراشه من الدوار . وطفق يشكو من ألم البحر وينوح قائلاً :

نوح الفارياق وشكواه

ويلي من السفر وما اشتق منه ما كان اغناني عن مقاساة هذا الضر الاليم . ما كان اغناني عن هذه المساومة التي سامتني هذا الكرب العظيم . ماذا وسوس

إليّ حتى دخلت بين الضواطرة ولا عائدة لي من هذا الفضول الذميم لقد ولدت في الدنيا وعشت زماناً ولم يخطر ببالي ما اختلف فيه عبام وبعيم . فلأي شيء دخلت في هذه المضايق وتورطت في هذا الشر العقـــيم . هل كان يعنيني ما تهاتر عليه اهل المشرقين من فساد رأيهم وخلقهم اللئيم . لهفي على القلم وان يكن في شقه شق وحول مجاجه الونيم . لهفي على الحمـــار الذي كان يزقع ويرفس من لي بذلك البهيم . لعله الآن أحسن حالا مني ولعـله في نعيم مقيم وأنا اليوم بما فرطت مُليم . من لي بالخـــان والاخوان فيهم كل بزيع نديم زمانَ لا شغل الا معاقرة المدام والتطريب والترنيم . ليتني قلت ما قال الناس وعبدت معهم البعيم . (استغفر الله قد كفر صاحبنا) ليس كل وقت وقت جدال ومناقشة خصيم .لقد نصحني المطران بقوله ان الحواسّ قد تغش في الضئيل والجسيم . والغبي والحكيم . والجاهل والعليم .انه يعرف الحق ويقول غيره خوف كل عتلّ زنيم . اذ الجاهلون لا يعجبهم الا التضليل والتهييم . ألم يقل لي انك لا تقدر على تجديد القديم . وعلى تقويم ما لا يستقيم . نعم ان الحواس تغش وسيان في ذلك السفيه والحليم . والكريم واللئيم . ثم وقـــف قليلاً حتى يورد أمثلة على هذا واذا به يقول . ان القبيحة الشوهاء اذا نظرت وجهها في مرآة تقول ان كنت شوهاء عند بعض فاني حسناء عنـد آخرين . ولذلك قال صاحب القاموس الشوهاء العابسة والجميلة ضدّ . وان القناف اذا نظر جلمود انفه قال يحتمل ان بعض الحسان يرغبن فيه وما يرين به أمتاً ولا عوجاً . وان سادتنا القبـاح من الملوك والملكات وذوي السعادة والجـــدّ لا يصورهم المصوّرون الا حسانـــاً . وهم لا ينظرون انفسهم في العناس الا كما صورهم المصورون . واننا لنرى الشمس طالعة ولما تكن قد طلعت كما يقـول الرياضيون . ونرى العصا في الماء معوجة وهي غير ذات عوج . وان السراب يري الشخص اثنين . وان بعض الالوان يبدو بلونـين . وان السحرة يخيلون للناظرين انهم يمشون على الماء ويدخلون في النـار ولا يحترقون . ومن يك في سفينة ماخرة قبالة ديار وعقار فانه يرى ما يقابله في الارض متحركاً ماشياً وهو ساكن ثابت. ومن يقعد في شباك مناوح لشباك آخر مساو له في الارتفاع

لأنه ينظره أعلى من شباكه . ولعل صاحبي الخرجي كان بكاؤه لداع غيرداعي السلعة . فانه يبلغني عن اللاعبين واللاعبات في الملاهي انهم يبكون ويضحكون ايان شاءوا فلعل البكاء عندهم من الصنائع التي يتعلمونها على صغر . ماذا يفيدني الخرج الآن . أأدعوه ويتركني . أأحبه ويبغضني . أأحمله وينبذني . فلما ابتدأ هذه السفاهة التي تعدّ عند الخرجيين كفراً . وعند السوقيين تسبيحاً . وعند المتوسطين بينهم سفاهة ناشئة عن الجزع . اذ الناس لم يتفقوا الى الآن الا على الخلاف مادت به السفينة ميدة شديدة يحسبها الخرجيون انتقاماً من الرب . والسوقيون عارضاً من العوارض . فجعل يصرخ ويقول ألا يا شيخ السوق عفواً بحق لحيتك التي عند الحلاقين الا ما أجرتني . يا خرج . يا سلعة يا دفتر . يا ضواطرة . يا صعافقة . يا نساجي السلعة . يا صياغيها . يامسديها يا ملحميها يا منيريها يا مطرزيها يا موشيها يا رقاميها يا رفائيها يا شصاريها يا خياطيها يا كفافيها يا شراجيها يا نشاريها يا طوائيها يا قساميها[1] يا لفافيها يا ملفقيها . تداركوني بحقكم قد هلكت . فما كاد يتم هذا الدعاء الا ومالت به السفينة ميلة تدحرج بها رأسه الصغير كالبطيخة . فجعل يصرخ ويستغيث ويقول لقد عدّيت عن التقديد . هذا اثره ظهر من اول الطريق فكيف يكون في آخره . ثم غشي عليه وصار يهذي ويقول الخر الخر . فسمعه احد الركاب يكرر ذلك فظن انه يشكو من احد الاخبثين في فراشه . فلما لم يجد شيئاً قال هو يهذي من الالم وتركه . ثم قدر الله ان سكن البحر وصفا الجو وظهرت بعد ساعات ارض الاسكندرية . فجاء ذلك الرجل وبشر الفارياق برؤية الارض . فقام متجلداً وغسل وجهه وبدل ثيابه . فلما خرجوا من السفينة سبقهم الفارياق وما كاد يطأ الارض حتى تناول منها حصاة والتقمها وقال هذه أمي . واليها أمي . فيها ولدت وفيها أموت . ثم انه توجه الى خرجي كان في المدينة وأدى اليه كتاب توصية من الخرجي الآخر ولبث عنده ينتظر سفينة تسافر الى تلك الجزيرة . فلنهنئه بوصوله سالماً آمناً ولنقدم

---

(١) القسامي من يطوي الثياب اول طيها حتى تنكسر على طيه .

غرض حال للسدة الأميرية . والحضرة الملكية . حضرة بطريرك الطائفة المارونية كائناً ما كان . ثم نعرج قليلاً على السوقيين والخرجيين ونذكر الفرق بينهم .

عرض كاتب الحروف

قد تفلت الفارياق من ناديكم . وانملص من بين اياديكم . وعنجر في وجوهكم جميعاً واصبح لا يخاف لكم وعيداً وبقي الآن ان اذكركم ما اشططتم بـه من الظلم والطغيان والجور والعدوان على أخي المرحوم اسعد . اذ اودعتموه السجن في داركم الوزيرية بقنوبين نحو ست سنين . وبعد ان اذقتموه جميع ضروب الذل والهوان والبؤس والضنك في صومعة صغيرة لزمها فلم يكن يخرج منها الى موضع يبصر فيه النور او يستنشق الهواء اللذين يمن بهما الخالق على الابرار والفجار من عباده قضى نحبه وما كان سجنكم له الا لمخالفته لكم في اشياء لا تقتضي عذاباً ولا عتاباً . وما كان لكم عليه من سلطان ديني ولا مدني . اما الدين فان المسيح ورسله لم يأمروا بسجن من كان يخالف كلامهم وانما كانوا يعتزلونهم فقط . ولو كان دين النصارى نشأ على هذه القساوة الوحشية التي اتصفتم بها الآن انتم رعاة التائهين وهداة الضالين لما آمن به احد ، اذ لا احد من الناس يصبو الا اذا كان يرى الدين الذي خرج اليه خيراً من الذي خرج منه . وكل انسان في الدنيا يعلم ان السجن والتجويع والاذلال والتوعد والتأويق والتشنيع ليس من الخير في شيء . وناهيك ان المسيح ورسله أقرّوا ذوي السيادة على سيادتهم وامرتهم . ولم يكن دأبهم الا الحضّ على مكارم الاخلاق والامر بالبر والدعة والسلم والاناة والحلم . فانها هي المراد من كل دين عرف بين الناس. واما المدني فلان اخي اسعد لم يأت منكراً ولاارتكب خيانة في حق جاره او اميره او في حق الدولة . ولو فعل ذلك لوجب محاكمته لدى حاكم شرعي . فاساءة البطرك اليه انما هي اساءة الى ذات مولانا السلطان . لاننا جميعاً عبيد له مستأمنون في امانه وحكمه . وكلنا في الحقوق

سوأء اذ البطرك ليس لهحق في أن يخطف من بيتي درهماًواحداً لو شاءه فانى له ان يخطف الارواح وهب ان اخي جادل في الدين وناظر وقال انــكم على ضلال فليس لكم ان تميتوه بسبب هذا . وانما كان يجب عليكم ان تنقضواأدلته وتدحضوا حجته بالكلام او الكتابة اذا انزلتموه مـنزلة عالم تخشون تبعته . والا فكان الاولى لكم ان تنفوه من البلاد كما كان هو يطلب ذلك.بل اصررتم على عتوكم في تنكيله وزعمتم ان فراره من داركم مرة لنجاة نفسه كان زيادة في جنايته وجريرته فزدتم تجبراً عليه وظلماً . وكأني بكم معاشر السفهاء تقولون ان اهلاك نفس واحدة لسلامة نفوس كثيرة محمدة يندب اليها . ولكن لوكان لكم بصيرة ورشد لعلمتم ان الاضطهاد والاجبار على شيء لا يزيــد المضطهد وشيعته الا كلفاً بما اضطهد عليه . ولا سيما اذا علم من نفسه انه على الحق وان خصمه القاهر له على ضلال . او انه متحلٍّ بالعلم والفضائل وقرينه عطل عنها فقد فاتكم على هذا العلم الديني والسياسي . وعرضتم عرضكم للقذف والتسويد. وذكركم للمقت والتفنيد . مـا دامت السماء سماء والارض ارضاً . وان اخي رحمه الله وان يكن قد مات فذكره لن يموت . وكلما ذكره ذاكر من اهل الرشد والبصيرة ذكر معه ايضاً سوء فعلكم وافحاشكم وغلوكم وجهلكم وشناعتكم وقد لعمري اخرج عنكم بموته من شيعتكم هذه المتوحمة على سفك الدم اكثر مما لو بقي حياً . وحسبك بالخواجه ميخائيل ميشاقه الاكرم وبغـيره من ذوي الفضل والبراعة مثالاً . ألم تأخذكم يا غلاظ الاعناق رأفة في شبابـه وجماله . ألم تتأثر قلوبكم التارزة لصفرة وجهه حين حجبتموه عن النور والهواء . وحين ذوت غضاضة جسمه وبضاضته . وحين لم يبق من ترارته غـير الجلد والعظم وبخلتم عليه ايضاً ان تطلقوه بها . ألم تشفقوا عليه اذ رأيتم أنامله قـد ضنيت لعوز ما كان يتمتع به حمر ديركم ولقد طالما والله اخذت القلم فخطت مايعجب به الملوك . ولقد طالما والله صعد المنبر فخطب فيكم ارتجـالاً والعرق يتصبب من جبينه ذاك الصليت . ولا شد ما ابكى سامعيه تذكيراً وتزهيداً. وطالما الف وعرب لكم كتباً ركيكة وعلم حمقى رهبانكم واخرجهم من ظلمـــات الجهل. ألم يغز وجوهكم الصفيقة ما كان يترقرق في وجهه من ماء الحياة فكان

أشدّ خفراً من مخدّرة . وانه كان عزيزاً في أهله مكرماً عند الامراء محبباً الى الخاصة والعامة . نزيه النفس . كريم الخلق فصيح اللهجة . انيس المحضة أمثله يحبس ست سنين ويذل وينكل ويموت والله يعلم باي شيء مات. ما بال الكنائس الفرنسوية والنمساوية والانكليزية والمسكوبية والرومية الارثوذكسية والرومية الملكية والقبطية واليعقوبية والنصطورية والدرزية والمتوالية والانصارية واليهودية لا تفعل هذه الفظاعة والشناعة التي تفعلها الكنيسة المارونية . أم هي وحدها على الحق والناس أجمعون على الباطل .

ألستم تزعمون ان ملك فرنسا هو مجير الدين وناصره . والناس من أهل مملكته الكاثوليكيين ما زالوا يطبعون كتباً ينددون فيها بعيوب رؤساء كنيستهم وقبائحهم وسفاهتهم وفحشهم وشراهتهم والحادهم . بل ان كثيراً منهم قد ألفوا تواريخ خاصة بما كان عليه الباباوات من الفسق والفجور وسوء التصرف . وبكفرهم بخلود النفس والوحي وبالهية المسيح . فمنهم من قال ان البابا ارمديوس الثامن ويعرف بدوق صَفْوى رقي الى درجة بابا وهو عامي . ومنهم من قال ان مجمع باسيل انما كان انعقاده لخلع البابا يوجين وانهم حكموا عليه بالعصيان والارتشاء والشقاق والبدع ونكث اليمين . ومنهم من قال ان البابا نيقولاوس الاول كان قد حرم كنتيار مطران كولون لمخالفته له في المجمع الذي عقد في مَتز سنة ٨٦٤ . فكتب المطران المذكور رسائل الى جميع كنائسه يقول فيها . ان المولى نيقولاوس الذي اتخذ له لقب بابا ويحسب نفسه انه بابا وسلطان معاً وان يكن قد حرمنا فقد علونا على سفاهته . ومنهم من قال ان أمبروسيوس حاكم ميلان حصل على درجة مطران مع انه كان غير صحيح الاعتقاد بدين النصارى . ومنهم من قال ان البابا يوحنا الثامن ارسل نواباً من طرفه الى القسطنطينية . فعقدوا ثمّ مجمعاً اجتمع فيه أربعمائة أسقف وكلهم حكموا ببراءة فوتيوس وانه جدير برتبة مطران . ومنهم من قال ان البابا اسطفانوس السادس أمر بان تنبش جثة فرموسيوس أسقف بورطو من القبر لانه كان قد أثار شغْبا على سلفه البابا يوحنا الثامن ثم حكم عليه حالة كونه

ميتاً بقطع رأسه وثلاث من أصابعه والقيت جثته في طيبر [١] . وان البابا سرجيوس كان قد استوزر ثاودورة أم ماروزيا التي تزوّجت بمركيز طوسكاني. وانه أي البابا أولد ماروزيا هذه ولدا ربّاه عنده داخل قصره من دون محاشاة أحد من أهل رومية . ثم تزوجت ماروزيا بعد ذلك بهون ملك اولس وعملت على قتل البابا يوحنا العاشر لانه كان يهوى أختها. فخنقته بين فراشين واستبدّت بالامر . ثم احتالت ان ولّت ليو هذه الرتبة ثم قتلته في السجن بعد أشهر . ثم ولّت من بعده رجلاً خامل الذكر فولي بعض سنين ثم عزلته ونصبت يوحنا الحادي عشر وهو ابنها من سرجيوس الثالث وكان قد أتى عليه أربع وعشرون سنة لا غير . وشرطت عليه ان لا يباشر من الاحكام الا ما كان مختصاً برتبة البابوية. وانها سمّت زوجها ثم تزوجت بسلفها ملك لومباردي وفوضت اليه الحكم . فقام أحد ولدها من زوجها الاول وشغب عليها أهل رومية وحبسها وابنها البابا في صانت انجلو. وانه وَلِي بعده اسطفانوس الثامن. غير انه لما كان بغيضاً عند الرومانيين لكونه من جرمانية شوّهوا وجهه فلم يقدر بعدها على الظهور بين الناس . ثم انتخب ابن ولد ماروزيا المسمّى اكطافيانوس وله من العمر ثماني عشرة سنة وسمي من بعد ذلك يوحنا الثاني عشر . وكان خليعاً ماجنا فحّاشا مستهتراً منهمكاً في اللذات وهوى النفس مولعاً بركوب الخيل والفروسية . وانما لم يخل ذلك بامور الكنيسة لان اكثر الدول والكنائس كان على هذه الحال . وان أوثو الامبراطور لما علم ان هذا البابا قد أضمر العصيان وكان أهل ايطاليا قد استدعوا حضوره لاصلاح ما اختلّ من أحوالهم توجه من بافيا الى رومية . وبعد أن استتب له الامر في المدينة عقد مجمعاً حضر فيه البابا بنفسه وكثير من امراء جرمانية ورومية وأربعون اسقفا وسبعة عشر كردينالاً وذلك في كنيسة مار بطرس . وشكى البابا بحضرتهم أجمعين انه فسق بعدّة نساء وخصوصاً ايتَنّت التي ماتت وهي نَفَساء . وانه قلّد مطرانيّة طودى لغلام كان سنّه عشر سنين لا غير .

---

(١) طيبر اسم نهر يخترق مدينة روميه

وانه كان يبيع الرتب والدرجات الكنائسية بيعا وسمل عيـني أشبينه في المعمودية سملاً . وجَبّ أي خصى احد الكرادلة او الكردينالات جبّاً . ثم قتله . وانه لم يكن يؤمن بالمسيح وغير ذلك مما أوجب على الامبراطور خلعه ونصب ليو الثامن في مكانه.الا انه لم يكد الامبراطور يخرج من رومية حتى هاج البابا عليه أهل المدينة . وعقد مجمعا خلع فيه ليو الثامن وأمر بقطع يد الكردينال الذي كتب الشكوى عليه . وقطع أيضا لسان الكاتب الذي كان يقيّد الحوادث وأنفه واثنتين من أصابعه.ثم قتل البابا يوحنا الثاني عشر وهو معانق لامرأة . وكان القاتل له على ما قيل زوجها.ثم ان القنصل كريستتيوس ابن البابا يوحنا العاشر من ماروزيا جيّش أهـل رومية على اوثو الثاني وسجن بندكتوس وكان من حزب الامبراطور فمات في السجن . فلما بلغ ذلك مسامع أوثو ولّى يوحنا الرابع عشر . فقام عليه بونيفاس السابع الذي كان ولي الرئاسة من قبَل القنصل وقتله.وبقي القنصل مستقلاً بتدبير الامور ومباشرة الاحكام الى ان قام غريغوريوس ابن اخت الامبراطور وخلع اوثو الثالث . ثم احتال عليه الامبراطور وضرب عنقه وأمر بان تعلق جثته من القدمين . وسملت عينا البابا يوحنا الخامس عشر الذي كان انتخبه الرومانيون وقطع أنفه ثم رُمي به من ذروة قلعة صانت انجلو . ثم عرضت الرئاسة الباباوية على البيع فاشتراها كل من بندكتوس الثامن ويوحنا التاسع عشر واحـداً بعد واحد . وكانا أخوي مركيز طوسكاني ثم اشتريت لولد سنّه عشر سنين وهو بندكتوس التاسع . ثم انتخب باباوان آخران وكان أحدهـما يكفّر الآخر ويحرمه . ثم اصطلحا على ان يتقاسما دخل الكنيسة فيما بينهما وان يعيش كل منهما مع سرّيته . ومنهم من قال ان كنيسة رومية أصدرت مرة منشوراً حكمت فيه على بعض ملوك فرنسا بان يطلّق امرأته ويباشر دواعي التوبة سبع سنين . وانه لما شهر المنشور في المملكة سقطت حرمـة الملك من عيون الناس فتجنبته الخاصة والعامة حتى لم يبق عنده غير خادمين . ومنهم من قال ان البابا غريغوريوس السابع عقد مجمعاً في رومية على آنري الرابع سلطان جرمانية وقال فيه . قد خلعت آنري عن ولاية النمسا وايطاليـا

وأعفيت جميع النصارى من الطاعة له ونقضت عهدهم له . ولست آذن لاحد في ان يخدمه باعتبار انه ملك ذو سلطان . وان آنري لما ضاق بذلك ذرعاً اضطر الى الذهاب الى رومية . فلما قدم على البابا وجده خالياً بالكنتس ماتيلدة في كانوزا [1] فوقف السلطان يستأذن في الدخول لدى الباب ولم يكن معه احد يخفره . فلما دخل المقام الاول اعترضه بعض حشم البابا ونزعوا عنه حلته الملكية وألبسوه ثوباً من الشعر . ووقف ايضاً ينتظر الاذن في صحن القصر حافياً وكان ذلك في قلب الشتاء .ثم ألزم ان يصوم ثلاثة ايام قبل تقبيل قدم البابا . فلما انقضت الايام الثلاثة دخل به الى مجلس البابا فوعده بالعفو بشرط ان ينتظر ما يحكم به عليه في مجلس اغوسبرغ . الى ان قال ثم مات البابا المذكور وخلفه رئيس دير سُمّي اوربانوس الثاني . وكان مثل سَلفه في العتو والتجبر . فمن ثم جعل يحرّض ابني آنرى على قتال أبيهما . وهذه ثاني مرة هاج البابا فيها الابناء على آبائهم . فقاما عليه وأودعاه السجن ثم فرّ منه ومات في لياج مسكيناً ذليلاً . ومنهم من قال ان آنري السادس ولد فريدريك الثاني سار الى رومية ليتوّجه البابا سيلستانوس . ولما كان الامبراطور متطأطئاً لتقبيل قدمه وعلى رأسه تاج الملك رفع البابا رجله ورفس بها التاج عن رأسه فوقع على الارض وكان سن البابا وقتئذ ستاً وثمانين سنة . ومنهم من قال ان بعض الباباوات وأظنه اينوصنت الثالث حرم الملك لويس وأباه . غير ان مطارين فرنسا نسخوا حكمه وأمروا بالغائه . وان البابا اينوصنت الرابع عقد المجمع الثالث عشر على الامبراطور فريدريك الثاني وذلك في سنة ١٣٤٥ وحكم عليه فيه بكفره وبانه كان يتسرّى بجواري مسلمات . فناضل عن الامبراطور خطباؤه وحزبه وردّوا على البابا انه افتضّ بنتاً وارتشى غير مرة . ومنهم من قال ان البابا المذكور أغرى طبيب الامبراطور المشار اليه بان يدس له السم في طعامه . وان البابا لوقيوس الثاني وَلِي مرة حصار رومية بنفسه ومات من رمية حجر على رأسه . وان البابا

---

(١) الكونتس مؤنث الكونت من القاب الشرف عند الافرنج .

اكليمنضوس الخامس عشر كان يجول في فينا وليون لجمع المال ومعه عشيقته. وان راهباً من الدومينيقيين سم الامبراطور آنري عـن أمر البابا وذلك في القربان . وانه في سنة ١٢٠٠ تزاحم باباوان على الرئاسة وجمع كل منهما حزبه للقتال وعلى راية كل صورة المفاتيح . وان أحدهما تصرف في آنية كنيسةمار بطرس وأنفقها في أهبة الحرب . وان البابا اوربانوس كان يعذب كل منخالفه من الكرادلة او الكردينالات وفي ذلك الوقت أنكرت دولة فرنسا رئـاسة البابا واستبدت أساقفتها بامور رعيتهم . ومنهم من قال ان البابا يوحنا الثالث والعشرين شـكي بانه سم سلفه وباع الوظائف الكنائسية وقتل عدة ابرياء . وانه كان كافراً ولوطياً معاً . فمن ثم خلع بحضرة الامبراطور . الى غير ذلك مما يضيق عنه هذا الكتاب فاني لم أضعه في الدين وانما أوردت ما مرّ بك على سبيل الاستطراد .

فان كان ما قاله هؤلاء المؤلفون من الفرنساويين حقاً كان أبرّ من هؤلاء الائمة واتقى . اذ لم يُشْكَ قط بانه لاط او زنى او سم أحداً او هاج الابناء على آبائهم ليقتلوهم . او انه اختلس آنية الكنائس او طغى وتجبر علىسلطانه او ارتشى . وانما هي مماحكات جرت بينه وبين بطركه على أشياء غير مقيسة ولا معدودة ولا موزونة ولا مكيلة . فـانت تقول مثلاً ان دركات قنو بين المؤدية الى سجّين ثلاث. وهو قال ثلثمائة . وأنا أقول ثلاثة آلاف .فما مدخل السجن هنا والعذاب . وان كان ما قالوه كذبـاً وافتراء كان ذلك أدعى الى تنكيلهم والاقتصاص منهـــم . لافترائهم على أحبار الله وخلفائه فواحش لن يستطيع عبّاد الفتيش أن يأتوا بأفظع منها . مع انـّا لم نرَ أحداً منهم عُذّب او نفي او استفز من داره او أنف من محضره . بل قد طبعت كتبهم المرة بعد المرة . وسعرها في الاسواق كسعر كتب العلم .

ولعل قائلاً يقول ان عرضك هذا موجه الى البطرك المتولي الآن وهو من أهل الفضل والمكارم وليس هو الذي سجن أخاك وقتله وانما كان سلفه. قلت عندي علم ذلك . غير انه ما دام هو يعتقد بان ما فعله سلفه كان صواباً فهو

شريك له ولا يلبث ان يعامل من يقتدي بأخي معاملة سلفه . وكذلك يعم اللوم جميع المطارنة والاساقفة والقسيسين والرهبان ان كانوا يصوّبون ما فعله البطرك المتوفي . وكنت أودّ لو أختم هذا العرض بعتاب أوجهه الى حضرة المطران بولس مسعد ابن خالي وخال أخي وكاتب أسرار البطرك . ولكني خشيت الآن من الاطالة . وفيما قلت ما يغني اللبيب .

٢٠

في الفرق بين السوقيين والخرجيين

اعلم ان للسوقيين شهرة عظيمة في جميع الاقطار . وذلك انهم احتكروا السلعة منذ القديم في مخازن لهم . وقالوا كل من لم يشترِ من مخازننا أنزلنا به القصاص . ثم انهم أخفوا دفتر اسعار البياعات عن المشترين وغالوا بثمن الاصناف واشطّوا . فكانوا يتقاضون من المشتري أضعاف القيمة . ثم اتخذوا لهم معامل ومخازن في جميع الامصار وجعلوها مظلمة خالية عن الكوى ومنافذ النور . فكانوا يبيعون منها من غير ان يبدو حقيقة لون السلعة ورقعتها . وكانوا يجعلون ما يبيعونه من أصنافها ملفوفاً مظروفاً فيأخذه الشاري وينطلق به ولا يرى منه شيئاً . وكان عندهم من النساجين والخياطين والرفائين والصباغين ما يفوق العدد. فكان هؤلاء يصنعون لهم كل مايأمرونهم به . واتفق في بعض السنين ان وقع موات ذريع في الماشية وامحلت البلاد فقلّ الصوف والحرير عندهم وكانت الانوال والمعامل تتعطل . فارتأى رجل منهم من أهل الحصافة والحذق أن يستعمل الشعر وبعض أصناف الحشيش بدل ما أعوزهم من الحرير وغيره . وجاء عمله هذا متقناً محكماً حتى اشتبه على اكثر الناس . ثم ان نفراً من المعسرين الذين حملهم الضنك في المعيشة على توسيع دائرة الفكر والنظر في الامور والتمييز لها (فان جلّ العلماء والمستنبطين من الصعاليك) ذهبوا يوماً الى بعض المخازن لشراء ما لزم لهم وجاءوا بما اشتروه الى منازلهم ملفوفاً مصوناً على العادة . وكان أحدهم يهوى امرأة يريد ان يتزوج بها وقد اشترى لها منديلاً . فلما أهداها اياه بحضرتهم وكانت ذات استشراف واستطلاع واستكشاف للمستور كما هو شأن سائر

النساء . أخذت المنديل وقبل ان تشكره على معروفه ادنته من نور السراج اذ كانت زيارتها له في الليل . فرأت فيه خللاً كبيراً مع ان النور كان طفيفاً يوشك ان ينطفي . واذا بها صرخت تقول بئس من باعك هذا انه قد غبنك. ان فيه خللاً مثل الذي قد فتنك . فلما سمعوا ذلك تنبهوا فأخذ بعضهم ينسل حاجته . وصار الآخر يقيس ثوبه على قامته وهلمّ جرّا . فظهر لهم ان البضاعة ليست على وفق مرادهم . لان من ذهب ليشتري حاجة بلون أحمر وجدها سوداء . ومن اراد ثوباً طويلاً وجده قصيراً . ومن أراد حريراً وجده كرباساً فرجعوا بها في الغد الى الباعة وقالوا لهم قد بعتمونا ما لم نرده . وأوردوا لهم عللاً واسباباً للاقالة . فقال صاحب المنديل لقد كدتم تسودون وجهي عند محبوبتي البيضاء . وكادت تغاضبني لما اتحفتها من سقط المتاع لولا انها طمعت فيما يكون خيراً منه . فقالت لهم الباعة انما بعناكم ما طلبتم ولكن على أبصاركم غشاوة فلستم تبصرون اللون ولا الرقعة ولا تعرفون المقادير ولا المقاييس . فقال من اشترى الثوب كيف يمكن ان يجهل الانسان قامته ويعرفها آخر غيره . وقال صاحب اللون الاسود انما اردت اللون الاحمر وها ان ثوبك اسود ورفيقاي هذان يشهدان لي وها هو واضح لكل ذي عينين . فقال له البائع أنت أعمى لا تميز الالوان ثم ذهب ليأتيه بلماك ليكحله به فأبى ذاك وقال لا بل انت عَمِه أعمى.وقال من اشترى الكرباس بدل الحرير هب ان البصر يَغُشّ أفيخفى اللمس على الاعمى . فلجّ بينهم الجدال والعناد وملأوا المكان صخباً وضجيجاً . وفيما هم على ذلك اذا برجل أقبل يسعى وهو يلهث بُهراً وقد اندلع لسانه ووضع يديه على كشحيه . فما كاد يدخل الحانوت حتى سقط لايستطيع حراكاً وغدا يئن ويقول آه امرأتي آه امرأتي . ثم غشي عليه ساعة . فلما أفاق أدار نظره يمنة ويسرة فرأى غريمه . فلم يتمالك ان وثب من مجثمه وقال . يا أهل الفساد . ومروّجي الكساد . ومسبّبي الفتن بين المرء وزوجته ومفرقي الاب عن ابنه وابنته . وغابني الاغرار من الشارين ومبرقعي وجوه المبصرين . كيف جلّ لكم من الله ان تغشوني وتبيعوني ما لا حاجة لي به . اني اتيتكم بالأمس أطلب

منكم ان تبيعوني لحماً لأتخذ منه مرقاً لزوجتي لأنهـا عليلة مذ أيام . فبعتموني كِسَر خبز وقلتم لي انه لحم غريض .فلما اوقدت النار لأطبخه اذا به خبز . فباتت امرأتي من غير ان تذوق شيئاً وقد اصبحت لا حراك بها الا بلسانها . فهي لا تزال تلعن تلك الساعة التي رأتني فيهـا قبل الزواج . وتسب القسيس الذي كان السبب فيه . وقد حلفت انهـا اذا برئت من مرضها لَتأمرن النساء جميعاً بأن يكنّ مع أزواجهن ضجعـاً مفسّلات مناشيص [١] وكأنه لما قال ذلك فار دَمُه في دماغه فوثب من مكانـه وكاد أن يبطش بالبائع . لولا ان تداركه بعض الصنّاع في الحانوت .

فلما تملص البائع من يديه صعد منبراً وقال.اسمعوا أيها الخصماء.ولا تعجلوا الى اللوم فانه من دأب اللؤماء . ان عيونكم قد غشي عليها فهي تبصر الاحمر أسود . وذوقكم قد فسد فعندكم ان اللحم خبز مُفْتَأد . وعقلكم قد رَكّ وحرض فانتم تحسبون الحرير قطناً . والجوهر عهنا .فما ينصفنا الا قيّم السوق فهلموا اليه والا فانتم من أهل الكفر والفسوق . فلما سمعوا مقالته وعلموا ان محاكمته لهم عند شيخ السوق شطط لكونه أضعف منهم بصراً وبصيرة لهرمه. التهبوا غيظاً فجعلوا يركسون الامتعه ويشوشونها ويبعثرونها ويمزقون كل مـا قدروا عليه ويطأون ما أمكن لهم وطؤه ويكسرون كل ما أصابوا من معد وصندوق وكؤوس وأكواب وخرجوا وهم سامدون . ثم تواطأوا على أن يعقدوا مجلساً تلك الليلة ليتدبروا في أمورهم . فلما كان المساء اجتمعوا وقالوا قد اتضح لنا ان هؤلاء الباعة ظـالمون غابنون . وان حواسنا لم ترَ الشيء الا على ما هو عليه . فشكراً لله ولصاحبة المنديل التي هدتنا الى هذا . فتعـالوا نستقلّ بامورنا ونعمل لنا مخازن ومعامل كما عملوا هم . ثم اتخذوا لهم شيعـة واخدانا وأصحاباً وأعواناً . وأسقطوا عنهم من السعر ما أمـال اليهم كثيراً من الناس . وقـالوا لهم ان عهدنا اليكم ان نبيعكم البضـاعة برأى اعينكم ولمس

---

(١) الضجع جمع ضجوع وهي المرأة المخالفة لزوجها . قلت وهو غريب فان اشتقاقه من ضَجع فكان يقتضي ان يكون معناه الطاعة . والمفسلة المرأة التي اذا اريد غشيانهـا قالت انا حائض لترده والمناشيص جمع مِنشاص التي تمنع زوجها في فراشها .

ايديكم وذوق السنتكم . ومن لم يرض شيئاً اشتراه فانّا نبدّله له بما هو خير منه . ثم بحثوا عن الدفتر ونشروه في جميع البلاد واستعملوا لذلك وسائل مختلفة . وقالوا للناس هاؤكم الدفتر الانور . والدستور الاكبر . فلا تشتروا منا حاجة الا على مقتضى تسعيرة . ولا تذهبوا الى شيخ السوق فانه هالك في غروره . فرضي الناس بما اشترطه هؤلاء على انفسهم . وانفصلوا عن الشيخ المذكور وعن حزبه . وغدا كلّ من الحزبين يكذب حريفه ويسوىء عليه ويخطئه ويسفّهه ويحمّره ويفنّده ويحرّفه ويلعنه ويكفّره ويؤثمه ويفسّقه . وسبحان من يداول الايام بين الانام .

الكتابُ الثَّاني

١

في دحرجة جلمود

قد القيت عني والحمد لله الكتاب الاول وأرحت يافوخي من حمله . ومـا كدت اصدق ان اصل الى الثاني فاني لقيت منه الدُّوار . ولا سيما حين خضت البحر مشيّعاً للفارياق تفضلاً وتكرماً . اذ لم يكن مفروضاً عليّ ان ارافقـه في كل مكان وقد مضى عليّ حين بعد وصوله الى الاسكندرية والتقامه الحصاة من الارض ولسان قلمي يتمطق وثغر دواتي مطبق حتى عـاد اليّ نشاطي فاستأنفت الانشاء ورأيت ان ابتدي هذا الكتاب الثاني بشيء ثقيل ليكون عند الناس اكثر اعتباراً واطول اذكاراً . وكما اني ابتدأت الكتاب الأول بما يدل على السامي بشيء من العلويات ان كنت لما تنس ما مرّ بـك ، استحسنت الآن ان آخذ في شيء من السفليات لاجل المطابقة . هذا ولما كان الحجر من الجواهر المنيعة المفيدة راق لي ان ادحرج منه هنا جلموداً من أعلى قنة افكاري الى اسفل حضيض المسامع . فان وقفت تنظر الى تصوبه من دون ان تتعرض له . وتحاول توقيفه مرّ بك كما تمر السعادة عليّ . أي من غير ان يصيبك منه شيء . والا اي ان استسهلت حبسه عن منحدره كر عليك ودفعـك تحته . والعياذ بالله مما وراء هذا الدفع . فانظر اليه ها هو متحرك للسقوط . ها هو متصوب فالحذر الحذر . قف بعيداً واسمع من دويّه ما يقول .

ان من نظر بعين المعقول الى هذه الدنيا والى ما اختلف فيهـا وائتلف من الاحوال والاطوار والجواهر والاعراض . والاوطار والاغراض . والعادات والمذاهب . والمراتب والمناصب . وجد ان كل شيء يمر عليه منهـا يفوق

كنهه ادراكه ويفوت تأمله . وأن حواسنا وان تكن قد ألفت اشياء لم تغادر الالفة عليها محلاً للتعجب منها . الا ان تلك الاشياء لا تنفك في نفس الامر عن كونها معجبة محيرة ومن تبصر في ادنى ما يكون منها حق التبصر رأى نفسه كمن قد أهمل اداء فرض تعين عليه . انظر مثلاً الى اختلاف ضروب النبات في الارض فكم فيه من الازهار البديعة الصنعة العجيبة الكينة من دون أن نعلم لها منفعة خصوصية . والى اختلاف انواع الحيوان من دبابات وهوام وحشرات وغيرها . فان منها ما هو حسن الشكل ولا فائدة منه ومنها ما هو قبيحه والحاجة اليه ماسة . وانظر في السماء الى هذه النجوم درارئها كوكب دِرّيء ويضم متوقد متلالىء .

وخنسها	الخنس الكواكب كلها او السيارة أو النجوم الخمسة الخ.
وبيانياتها	الكواكب البيانيات التي لا تنزل بها الشمس ولا القمر .
وتوائمها	توائم النجوم واللؤلؤ ما تشابك منها .
وبروجها	معروف
وتنينها	التنين بياض خفي في السماء يكون جسده في ستة بروج وذنبه في البرج السابع الخ .
ومجرتها	باب السماء او شرجها .
ورجمها	النجوم التي يرمى بها .
وأعلاطها	أعلاط الكواكب الدراري التي لا اسماء لها :
وإناثها	الاناث صغار النجوم .
وخُسّانها	النجوم لا تغرب كالجدي والقطب وبنات نعش والفرقدين .
وأنْوائها	النوء النجم مال للغروب او سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق .

التي يرجع البصر عنها وهو كليل . والى اختلاف سحَن الناس ورؤوسهم . فانك لا تكاد ترى سحنة بشر تشبه سحنة آخر غيره . ولا تجد بين رؤوسهم اي عقولهم رأساً يشبه غيره . فمن عباد الله هؤلاء من اختار المخالطة والمفارقة.

والمحاشرة والمزاحمة والمضاغطة والمصادمة . والمباراة والمعاجمة . والملاهسة والمداحمة . والمجاحسة والمداغمة . والمزاعمة والمداهمة . والمساومة والمزاهمة . على اختلاف فيها . وذلك كالتجار والنساء . ومنهم من قابلهم بضد ذلك فاختار العزلة والانفراد كالنساك والزهاد . ومنهم من جعل دأبه التهافت على المين والافتراء . والغلو والاطراء . كالشعراء والمستأجرين لمدح الملوك فيما يطبعونه من هذه الوقائع الاخبارية – ومنهم من قابلهم بضده فآثر الصدق والتحرّي– والتحقيق والتروي. والقول الفصل والمطابقة بين الماضي والحاضر والآتي . وذلك كأهل الفلسفة والحكمة والرياضة . ومنهم من يعمل النهار كله ويكدّ بكلتا يديه وكلتا رجليه وربما لم ينطق بكلمة واحدة . وذلك كأصحاب الصنائع الشاقة ، ومنهم من لا يحرك يده ولا رجله ولا كتفه ولا رأسه وانما ينطق في بعض ايام الاسبوع بكلمات ثم يقضي سائر الايام مستريحاً متنعماً – مترفهاً متترفاً – وذلك كالخطباء والوعّاظ والمرشدين الى الدين . ومنهم من يفتك ويبطش ويجرح ويقتل كالجند . ومنهم من يعالج ويداوي ويشفي ويحيي كالأساة واولياء الله تعالى اهل الكرامات والمعجزات . ومنهم من يُستأجَر للتطليق . ومنهم للتحليل . ومنهم للايلاد . ومنهم الالحاد . ومنهم للتفريق. ومنهم للتأليف بين الآحاد . ومنهم من يتكوى في بيته فلا يكاد يخرج منه الا لضرورة . ومنهم من يصعد الجبال والادقال . والمنابر والاشجار . ومنهم من يهبط الاودية والبواليع والمراحيض . ومنهم من يسهر الليالي في تأليف كتاب . ومنهم من لا يذوق النوم حتى يحرقه . ومنهم من يسود ومن يُساد . ومنهم من يقود ومن يقاد . ومع هذا التنافي والتباين فمآل مساعيهم وحركاتها كلها الى شيء واحد . وهو ادخال الانسان خنابتيه غداة كل يوم في رائحة كريهة قبل ان يستنشق روائح الازهار . ويتمتع بتنوع النهار .

واعجب من جميع ما مرّ بك من هذه الأحوال حالتا اصحابنا السوقيين والخرجيين . فان حرفتهم لما كانت لا تتوقف إلا على استعمال اداتين فقط . اي المخيلة والقَسْم دون افتقار الى آلة اخرى . وكان مورد اقوالهم. ومصدر جدالهم . ومبنى انتحالهم . وجلّ راس مالهم قولهم يحتمل ان يكون

هذا الشيء من باب المجاز الاسنادي أو اللغوي. أو من مجاز المجاز او الكناية. او من حمل النظير على النظـــير . او النقيض على النقيض . او من باب ذكر اللازم وارادة الملزوم أو بالعكس . او من قبيل ذكر البعض . وارادة الكل أو بالعكس أو من نوع اسلوب الحكيم. أو من باب التهكم. او من طاقة التلميح. أو من كوّة الالتفات . او من خرق الحشو . أو من خرت الادماج . او من خصاص الاكتفاء . او من شق الاحتباك . أو من سم عكس التشبيه . او من خلل سوق المعلوم مساق غيره . أو من فتخات التجريد . أو من فرجـــة الاستطراد . او من ثقوب التورية . لم يكن من اللائق بهم ان يخلطوا هـــذه الأوّات وتلك اللـوّات بشيء .

من العَرّادات	العَرّادة شيء اصغر من المنجنيق .
والدَبّابات	الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها .
الدراجة	الدبابة تعمل لحرب الحصار تدخل تحتها الرجال .
المنجنيق	المنجنيق آلة ترمى بها الحجـارة كالمنجنوق معربة والمنجليق المنجنيق .
والنفّاطات	النفّاطة اداة من نحاس يرمى فيها بالنفط .
والخطّار	المنجنيق والذي يطعن بالرمح .
والسَبَطانات	السَبَطانة قناة جوفاء يرمى بها الطير .
والضَبْر	جلد يغشى خشباً فيها رجال تقرّب الى الحصون للقتال .
والقَفْع	جُنّة من خشب يدخل تحته الرجال يمشون به في الحرب الى الحصون .
والجُلاهق	الذي يرمى به ونحوه البراقيل والبنادق .
والحسَك	اداة للحرب من حديد أو قصب فيلقى حول العسكر تعمل على مثال الحسك المعروف .
والقُرْدُمانيّ	قباء محشو يتخذ للحرب وسلاح كانت الاكاسرة تدخرها في خزائنهم والدروع الغليظة .

والتجفاف	آلة للحرب يلبسه الفرس والانسان .
واليَلب	الترَسة او الدروع من الجلود .
والسَرْد	اسم جامع للدروع .
والدَرَق	التروس من جلود بلا خشب ولا عَقَب ونحوه الحجَف .
والحرْشف	الرجّالة وما يزيّن به من سلاح .
والعَتَلات	العَتَلة العصا الضخمة من حديد لها رأس مفلطح يهدم بهـــا الحائط .
والمِنسَفات	المِنسفة آلة يقلع بها البناء .
والفَلَق	مقطرة السجّان وهي خشبة فيها خروق على قدر سعة الساق
والخنازر	الخنزرة فأس عظيمة يكسّر بها الحجارة .
والعذراء	شيء من حديد يعذّب به الانسان لاقرار بأمر ونحوه .
والمقاطِر	المقطرة خشبة فيها خروق على قدر سعةارجل المحبوسين .
والمراديس	المِرداس آلة يدك بها الجائط والارض .
والدَهَق	خشبتان يغمز بها الساق .
والصاقور	الفأس العظيمة .
والمَلاطِس	المِلْطس المِعول الغليظ .
والمَقاريض	المقراض السكين المعقرب الرأس .
والملاوظ	المِلوظ عصا يضرب بها .
والمقامع	المِقمعة خشبة يضرب بها الانسان على رأسه .
والمقافع	المقفعة خشبة يضرب بها الاصابع .
والحدّأة	الفأس ذات الرأسين .
والمِنقار	حديدة كالفأس .
والمهامز	المِهْمزة المقرعة او العصا .
والعَرافيص	العِرْفاص السوط يعاقب به السلطان .
والمخافق	المخفقة الدِرّة او سوط من خشب .

ولا بالرماح الطاعنات والسيوف الباترات والنبـــال الصاردات والنصال

المدميات والمقادع المولمات والمقارع المضنيات والصُلُب المهلكات والخوازيق النافذات والاغلال المصلصلات والنيران المتأججات والغارات والغزوات والنكايات والكبسات والاستلابات والافتضاضات والاثكالات والعداوات والمشاحنات وآخر الجميع بالركاكات . فكم لعمري من دم سفكوا . وجند اهلكوا . وعرض هتكوا . وحرمة انتهكوا . وذي اهل ربكوا . وعزب همكوا . ونساء ايّموا وأولاد يتموا . وبيوت خرّبوا . واموال نهبوا . ومصون اذالوا . وحرز نالوا . ومستور فضحوا . وحرام اباحوا . فهل فعل ذلك من قبلهم سَدَنة .

الأنصاب الانصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهلّ عليها ويذبح لغير الله تعالى .

والكَعَبات الكعبات او ذو الكعبات بيت كان لربيعة كانوا يطوفون فيه

والربّة كعَبة لمَذحِج .

وبُسّ بيت لغطفان بناها ظالم بن اسعد لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة فذرع البيت وأخذحجراً من الصفا وحجراً من المروة فرجع الى قومه فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين فقال هذان الصفا والمروة واجتزأ به عن الحج فاغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالماً وهدم بناءه .

وعَبَدةمَرحَب صنم كان بحضرموت .

والعَبْعَب صنم .

والغَبْغَب صنم .

ويَغُوث صنم كان لمذحج .

والبُجّةوالسجّة صنمان .

وسَعْد صنم كان لبني ملكان .

وود صنم ويضم .

وآزر صنم .

وباَجر	صنم عبدته الأزدويكسر .
وِجهار	صنم كان لهوازِن .
والدوّار	صنم ويضم .
والدارِ	صنم سمّى به عبد الدار ابو بطن .
وسُعَير	صنم .
والأُقَيْصِر	صنم .
وكَشْرَى	صنم لجـــديس وطسم كسره نهشل بن الرئيس ولحق بالنبي ﷺ فأسلم .
والضمار	صنم عبده العباس بن مرداس ورهطه .
ونَسْر	صنم كان لذي الكلاع بارض حمير .
والشمس	صنم قديم .
وعُمْيانِس	صنم لِخوَلان كانوا يقسمون له من انعامهم وحروثهم .
والفِلْس	صنم لطيىء .
وجُرَيش	صنم كان في الجاهلية .
والخلَصة	صنم كان في بيت يدعى الكعبة اليمانية لخثعم .
وعوْض	صنم لبكر بن وائل .
وإساف	صنم وضعه عمر بن لحَيّ على الصفا.
ونائلة	صنم آخر وضعه على المروةوكان يذبح عليهما (فيقول).
والمحرِّق	صنم لبكر بن وائل .
والشارِق	صنم في الجاهلية .
والبعل	صنم كان لقوم الياس عم .
وسواع	صنم عبد في زمن نوح عم فدفنـه الطوفان فاستشاره إبليس فعبد وصار لهذيل وحُجّ اليه .
والكُسْعة	صنم .
والعَوْف	صنم .
وذي الكفّين	صنم كان لدوس .

ومناف	صنم
ويعوق	صنم لقوم نوح أو كان رجلاً من صالحي زمانه فلما مات جزعوا عليه فأتاهم الشيطان في صورة إنسان فقال أمثّله لكم في محرابكم حتى تروه كلما صليتم ففعلوا ذلك به وبسبعة من بعده من صالحيهم ثم تمادى بهم الامر الى ان اتخذوا تلك الامثلة أصناماً يعبدونها .
والاشهل	صنم ومنه بنو عبد الاشهل لحيّ من العرب .
وهُبل	صنم كان في الكعبة .
وياليل	صنم .
والبَعيم	صنم والتمثال من الخشب والدمية من الصبغ .
والأسحم	صنم .
ونهُمْ	صنم لمزينة وبه سموا عبد نهم .
وعائِم	صنم .
والضَّيْزن	صنم .
والمدان	صنم .
والجبهة	صنم .
واللات	صنم لثقيف سمى بالذي كان يلتّ عنده السويق بالسمن ثم خفف وهو في حديث عروة الرّبة .
وذي الشرى	صنم لدَوْس .
والعزّى	صنم أو سَمُرَة عبدتها غطفان اول من اتخذها ظالم بن أسعد فوق ذات عِرْق الى البستان بتسعة أميال بنى عليها بيتاً وسماه بساً وكانوا يسمعون فيها الصوت فبعث اليها رسول الله صلعم خالد بن الوليد فهدم البيت واحرق السمرة .
ومَناة	صنم .
والإلاهة	الحية والاصنام والهلال والشمس ويثلث كالاليهة .
والطاغوت	اللات والعزّى والكاهن والشيطان وكل راس ضلال والاصنام

وكل ما عُبد من دون الله .

والزَّوْن — الصنم وما يتخذ ويعبد – والموضع تجمع فيه الاصنام وتنصب وتزيّن .

والجِبْت — الصنم والكاهن والساحر والسحر والذي لا خير فيه وكل ما عُبد من دون الله تعالى .

او عَبَدة الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد وفُرْدود والفرقد والذيْخ والكَتَد والعوائذ والحضار والاحور والزُبْرة والأظفار والعُذر والمعَرّة والاعْيار والنَثرة والجوْزاء والبرْجيس والتياسين والمَيْسان والسُنَّيق والشَرَطين والفارَطين والأثافي والعَيّوق والعَوْهَقين والصَّرفة والطَّرْفة والابيض والضِباع والهقْعة والهنْعة والردْف والمَغلَف والناقة والنَسَقَين والسِماكين وسُهَيل والشَوْلة والعَوْكلين والمِرْزَمَين والسالم والبُطَين والقدْر والحيّة والتحايي والخرَاتَين والخِباء وسُهَي والشاة والعَوّاء وكُوَيّ .

فكان يجب عليهم ان يجمعوا رأيهم على امر واحد ويقولوا من حيث ان حرفتنا لا تحتاج بحمد الله الى قياس وعدد كحرفة الطبيعيين والمهندسين والرياضيين . فانهم ايّان طلب المناقش منهم دليلاً بادروا حالاً الى البرهان بالمقادير والمساحة والحساب . فانصبوا انفسهم وانفس سائليهم . كان حقاً علينا ان ننهج منهاجاً مريحاً يقرّبنا ومُعاملينا الى الغرض المقصود . وهو ان نيسر اسباب تعلّم هذه الحرفة لكل مضطر اليها منهم . فمن شاء بعد ذلك ان يلبس قباء او جبة مع سراويلات من تحتها او تبّان فليصنعها هو باي لون اعجبه وباي شكل راق له . اذ ليس من الرشد ان يعترض الانسان انساناً آخر مثله في كيفية لبسه او في ذوقه ومنامه . لان ابن آدم من يوم يستهل بالبكاء الى ان يبلغ اربع عشرة سنة يعيش مستغنياً عنا غير مفتقر الى ما رسمنا به عليه . اذ الغريزة تهديه الى ما يلائمه ويصلح له . الا ترى ان الطفل اذا خُلي وطبعه لم يلبس الكتان الرفيع في الشتاء وان كان مطرّزاً . ولا

الفرو في القيظ وان كان مزركشاً . وانه متى جـاع طلب الاكل . ومتى نعس نام . وان طربته بجميع آلات الطرب والانغام. ومتى ظمىء شرب . ومتى تعب استراح فهو في غنى عنا من اصل الفطرة . حتى انه يمكنه بحول الله تعالى ان يعيش مائة وعشرين عاماً وشهراً من دون رؤية وجه احد منـا او مشاهدة تاجه وحلته الفاخرة وخاتمه النفيس وعصاه المفضضة . فلنـدع الناس اذاً في دعتهم وسلامتهم وشغلهم . ولا نتطفل عليهم ولا نكلفهم ما لا طاقة لهم به . اذ لو شاء الله ان يحوج الطفل الينا لاوحى اليـه ان يسأل ابويه من وقت ترعرعه عن اسمائنا ومقامنا . وعمـا نحن عليه من المماحكة والجدال، والقيل والقال، والتشاحن والتشاجر ، والتناقر والتنافر ، والتلاعن والتهاتر ، والتدابر والتهاجر ، واحسن من تركه على هذه الحالة ما اذا عنينـا بتأديبـه وتربيته وتهذيبه وتعليمه صنعـة تنفعه في تحصيل معيشته ومعيشة والديـه . كالقراءة والخط والحساب والادب والطب والتصوير . ومـا اذا نصحنا له ان يسعى في خير نفسه وخير ابويه ومعارفه وجنسه وكل من صدق عليه انه انسان بقطع النظر عن هيئات اللباس وتفاوت الالوان والبلاد . لان اللبيب الرشيد لا ينظر الى الانسان الا لكونه متصفاً بالانسانية مثـله . ومن اعتبر الامور الطارئة عليه كالالوان والطعام والزي فانه يتباعد عـن مركز البشرية كثيراً . وانما يتم حسن صنيعنا هذا كله ما اذا صنعناه حسبة لوجـه الله تعالى . غير طالبي الجزاء والهدايا . ولا النذور والعطـايا . لان كثيراً من الاطباء يداوون المعسرين مجاناً . فترى احدهم يغادر طعامه وفراشه ويذهب الى مريض محموم او به جدري او طاعون احتساباً عند الله . اذ الناس كلهم عيال على الله . واحبّهم الى الله انفعهم لعياله .

هذا ما كان ينبغي ان يقولوه . وهذا ما اقوله انا . تأمل في خرجي أقبل يطوف البحار والامصار . ويجول في الجبال والقفار . ويعرّض نفسه ونفس من ينحاز اليه للسبّ والقذف والعداوة والمشاحنة وما ذلك الا ليقول للناس انه اعرف منهم باحوالهم . واذا سُئل عن دواء لعين رمدت او ساق قرحت

او أُدرة انتفخت او اصبع دميت . او اذا قيل له مـــا ترى في من كثرت عياله ، وقلّ ماله ، وعضّه زمانه ، وجــــار عليه سلطانه ، فمني بالجوع ، وحرم الهجوع . واصبح يمشي والناس ينظرون جهوته ، ويتجنبون خلطته . ولا يستعملونــه ولا يستخدمونه ، لمــا تقرر في عقولهم من ان الفقير لا يحسن عملاً . وقد اصبحت اولاده يبكون ويتضورون وامرأته تشكو وتسترحم ولا راحم لها لكون شبابها قد ذهب في تربية اولادها . او قيل له هل عندك من مأوى لضيف عرير ، ما له من نصير ؟ قال ما جئتكم لهذا وانمـــا قدمت اليكم لانظر في انوالكم التي تنسجون عليها بضاعتكم وفي الوانهـا التي لا تشاكل ما عندي في الخرج من اللون الناصع ، وما ان يهمني النظر فيما فيه راحتـــكم وانما الراحة فيما بـــه تعبكم . ولو تعطلت جميع معـاملكم لاقتصاركم على لوني الذي ابرزه لكم رامـوزاً وعنواناً واستوجبتم بذلك لوم التجـــار والحراث والحكام لم يكن عليّ في ذلك من شيء .

وهذا سوقي يضع احدى عينيه على فم جاره والاخرى على عينيـــه . ثم يغلّ يديه ورجليه . ويقول له اليوم يجب عليك ان تتنحّس[1] . لان شيـخ السوق اصبح متخماً يشكو وجعاً في معدته وامعائه واضراسه وهـو نحس . فينبغي ان نجانسه ونمسك معه . لا يحل لك اليـــوم ان تنظر . لان الشيخ المشار اليه اضر به طول السهر البارحة مع ندمائه ونديماته فغدا وباحـــدى عينيه الكريمتين رمد او عمش . لا يحل لك اليوم ان تعمل بيديك . ولا ان تحرك رجليك . ولا ان تسمع باذنيـــك . او تستنشق بمنخريك لان السوق اليوم لم تقم والبياعـــات لم تنفق . ثم هو اذا قيل له افلا تصلح بين زيـــد وزوجته فقد خاصمته بالامس بعد ان جاءت من حانوتك العالي وتماسكا بالشعور وحلفت المرأة لتمنينه بجيزبون او لتشكونه الى احـــد اصحابك الضواطره الكبار . او ان عمراً التاجر قد حُبس منذ يومـين لكونه دان بعض الامراء ولم يمكن له ان يحاكمه ويستوفي منه حقه . ففلّسه القاضي واركبه حمـاراً في

---

(١) التنحّس ترك أكل اللحم .

الاسواق ووجهه الى دبر الحمار . او ان فلاناً قد مرض ولزم فراشه لانه ناقش بعض خدّام الامير فنكل به الامير ضرباً بالعصي على رجليه وصفعاً بالنعال على القذال . فغدا لا حراك به وقد ورمت رجلاه وانتفخ قفاه . لم يكن منه الا قوله ما دام السوق وشيخه سالمين فالدنيـــا كلها سالمة . والمصالح مستتبة والسوق مرفوعة وقائمة . والبطون ملأى والافواه لاقمة . والاضراس خاضمة والمعد هاضمة والايدي غانمة . والافراح دايمة . والخيرات متراكمة. والرؤساء حارمة . والعناية عاصمة . والقادمات بالبذور متزاحمة . والوقوف شامــــلة عامة . وثغور الاماني باسمة . والسلامة خاتمـــة . الى السوق . الى السوق . فهو حرز العلوق . وذخر الحقوق . في الصندوق . في الصندوق . فهو اولى من الصبوح والغبوق . وقد طالما والله امتلأ هذا الصندوق ذهبـاً وجواهر ثم افرغ على تهاتر وترهات ومباحث فارغة وامور سخيفة . فقد بلغنا ان بعض ضواطرة السوق انفق في مدة ستّ سنين قضاها بالبحث والجدال على شكل قبّعة كذا وكذا بدرة من المال . وتفصيل ذلك انــه نظر نفسه ذات يوم في المرآة وكان قد تعلم مبادىء الهندسة والهيئة . فرأى رأسه مدوّراً كالبطيخة فراق له ان يتخذ قبّعة مدورة على هيئة رأسه . لان المدور يـلائم المدور كما تقرر في الاصول . فرآه بعض مزامليه من سوق آخر وكان اعظم منه قدراً ووجاهة واوفر علماً . فسخر منه وقال له من وسوس اليك يا ابن قبّعـــة ، حتى لبست هذه القبّعة [1] . مع ان شكل رأسك مخروط . فقال له قـــد ضللت بل هو اكثر استدارة من رأسك كما يشهد لي بذلك شيخ السوق . قال كذبت بل هو مخروط وان كنت كثير العَنَس اليه واني اهدى من شيخك واقوم طريقاً . قال كفرت وعميت عن معرفـة نفسك فانـّى لك ان تعرف غيرك . قال تبدّعت بل انت عمِه كمِه وقد حمقت وسفهت في عـدم قبولك النصح . فاليوم ترى الناس المدور من المخروط . والسارط من المسروط . ثم لجّ بينهما العناد وتقابضا بالازياق والجيوب والاقلاع . ثم بالجمم ثم بالاعراض .

---

(١) ابن قبعة وقابعاً وصف بالحمق .

فمزق كل منهما عرض صاحبه أي عدوه . ثم صاحـــا واستغاثا وتشاكيا لدى الحاكم وتباهلا وتهاترا . فلما ثبت للحاكم ان فعلهما فعل الشبازقة [1] رأى ان مداومتهما بغرامة رابية ، اولى من حصرهما في الزاويــة . فانصرف كل منهما وقد غرم كذا وكذا بدرة . ثم ان الضوطار الاول اتخذ له بعد ذلك قبّعـة بين بين . اي نصفهـا مدور ونصفها مخروط بحيث لا يقدر على تمييزهـــا الا الجهبذ النحرير ، والناقد الخبير وآب الى حانوته كمن قفـل من غزوة او اسر الدحية (رئيس الجند) او كذلك الديك الغالب . واول مـــا اطل على السوق أمر جميع القبّعيّين ان يخرجوا لملاقاتـــه بالتقليس لا بالتلقيس [2] . فخرجوا على تلك الحالة وهم يضجون ويقولون : اليوم عيد القبعة . اليوم عيد الفرقعة . يا امّعة يا امّعة . فبصر بهم اعوان الحاكم في ذلك الصقع فظنـــوا انهم خلعوا ربقة الطاعة . وشقوا عصا الجماعة . فبادروهم بآلات الازّ والبحز والبخز والبزّ والبغز والبهز والجرز والجلز والحزّ والحفز والخز والدغز والرز والرفز والزز والشخز والشرز والشفز والشكز والضخز والضفز والطعز والعرز والقحز والقـلز واللبز واللتز واللزّ واللكز واللقز واللمز واللهز والمحز والمرز والمهز والنحز والنخز والنغز والنكز والنهز والوخز والوكز والوقز والوهز والهبز والهرز والهمز والرهز . حتى جعلوهم عـبرة للمعتبر . وفرّ الضوطار بقبعته وقد اوقع قومه في الخزي والعار مما اصاب الرجال من الرزء ولحـــق النساء من الزيادة . ومع ذلك كله فلم يجده شيخ السوق المستعزّ به شيا . بل ظل مكبّاً على تعاطي الافيون لطول ارقــه وتبييته . وقد سد اذنيه ببعض اوراق دفاتر السوق لئلا يسمع صراخ المستجيرين به او يوقظه احد من سباته. فهو راقد الى هذا اليوم اي يوم تدوين هذه الواقعة . فان افاق فللقارىء ان يقيد ذلك في آخر هذا الفصل فقد تركت له محلاً .

انتهت دحرجة الجلمود والحمد لواجد الوجود

---

(١) الشبزق من يتخبطه الشيطان من المس .

(٢) التقليس استقبال الولاة عند قدومهم باصناف اللهو وان يضع الرجل يديـــه على صدره ويخضع . والتلقيس مبالغة لقسه أي عابه ولقبه .

٢

في سلام وكلام

عمت َ صباحاً يا فارياق ؟ كيف انت ؟ وكيف رأيت الاسكندرية ؟ هل تبيّنت نساءها من رجالها فان النساء في بلدكم لا يتبرقعن . وكيف وجدت مآكلها ومشاربها وملابسها وهواءها وماءها ومنازلها واكرام اهلها للغرباء ؟ الم يزل برأسك الدوار ؟ وعلى لسانك هجو الاسفار ؟ قال : اما موقع المدينة فانيق لكونه على البحر . وقد زادت بهجة بكثرة الغرباء فيها فترى روس ناس مغطاة بطراطير واخرى بطرابيش. واخرى بكمام وغيرها بقاعط . واخرى ببرانس وغيرها بعمائم · واخرى باصناع وغيرها بعصائب . واخرى بعمارات وغيرها بمداميج . واخرى بنِصاف وغيرها بقبّعات . واخرى بقلانس وغيرها ببراطل . واخرى بسبوب وغيرها باراصيص[1] . واخرى باراسيس وغيرها بخنابع . واخرى بقنابع وغيرها بدنيات واخرى بصواقع وغيرها بصُمُد واخرى بصوامع . وغيرها بشامذ واخرى بمشاوذ . وغيرها ببرانيط على شكل الشقيط والشبابيط والضفاريط والضماريط والقلاليط والعضاريط والعذافيط والعماريط والقماعيط . ومنهم من له سراويلات طويلة مفرسخة تكنس ما خلفه وما قدّامه ومنهم من لا سراويلات له فبعُثُطه باد والناس يتمسّحون بما امامه . ومنهم من له تبّان . ومنه من له إتب . ومنهم يوثر ومنهم بهميان ومنهم برجل (السراويل الطاق) ومنهم بأندروورد ومنهم بدِقرارة أو دُقرور . ومنهم من يركب الحمير والبغال . وغيرهم على الخيل والجمال . والابل في ازدحام والناس في التطام . فينبغي للسائر بينهم ان لا

(١) الارصوصة قلنسوة كالبطيخة

يقتر على الدعــاء بقوله اللهم أجِر . اللهم احفظ . اللهم الطف . توكلت على الله . استعنت بالله . اعوذ بالله .فاما براقع النساء فهي وان كانت تخفي جمال بعضهن الا انها تريح العين ايضاً من قبح سائرهن . غـــير ان تستر القبيحات اكثر . لان المليحة لا يهون عليها اذا خرجت من قفصها ان تطير في الاسواق من دون ان تمكّن الناظرين من رؤية ملامحهــا . لينظروا حسنها وجمالهــا ويكبروا لافترارها . فيقولوا ما شاء الله . تبارك الله . جل الله . الله الله . حتى اذا رجعت الى منزلها اعتقدت ان جميع اهل البلد قد شُغفوا بها حباً . فباتت تنتظر منهم الهدايا والصِلات . والاشعار والمواليات . فكلما غنى مغنّ انصتت الى غنائه وسمعت اسمها يتَشبّب به . فاذا بكرت في اليوم القابل الى الاسواق ورأت الناس مكبّين على اشغالهم تعجبت من بقائهم اصحاء قـادرين على السعي والحركة . فزادت لهم في كشف مسافرها ، وقسامتها، ومحاجرها وفتنتهم باشاراتها وايمائها . ورأرأتها وايبائها ورمزها ولمزها . وهجلها وغمزها وغنجها ودلالها . وتيهها وعجبها . وزهوها وشكلها . وتدعّبها وتصعيرها . ودعجلتها ودغنجتها وتبغنجها ودمجتها . وشزرها وخزرها وشنفهاوحدلقتها وشفونها وازلاقها . واستكفافها واستشفافها . واستيضاحها واستشرافهــا . وخلاعتها وخُيَلائها . وتمايلها وتهاديهــا . وتغدّنها وتعاطفها . وتثنّيهــا وتاوّدها . وتدكلها وتخوّدها . وتذيّلها وتعيّلها. وتفتّلها وتقتّلها . وتذبلها وترفلها . وتبخترها وتخطلها . وتفختها وتدهكرها . وتبهكنها وتهذخرها . وتخلعها وتفككها . وميْحها وحَككها . وتدأديها وتغطرفها . وتوذفهــا وتغضفها . ودألهــا وومازتها . والهــّـا وهوادتها . وخيزلاها وخيزراها . وزأنباها وأوزّاها . ومُطيطائها وكرْدَحائهــا . وهَبَيّخاها وعجّيساها . وهِرْبذاها وحَيَداهــا . وهَبصاها وجِيضاها . وفنجلاهـــا وهِبِلاّها . وخِبقاها ودِفقاها. وعرقلاها وهمقاها. وعمَيْثليّتها وقِمْطراها . وسِبَطراها وتبدحها وترنحها . وخندفتها وخزرفتها . وخظرفتها وبادلتها . وبحدلتهــا وبهدلتها . وذحذحتها وحرقلتها . وحركلتها وهركلتها . ورابلتها ورهبلتها . وقهبلتها وكسملتها . وقندلتها وحنكلتها . وعردلتها وهيقلتــها . وخذعلتها

ودربلتها . وزيحلتها ووكوكتها . وكوكوتها ووذوذتها. وذوذوتها وزوزكتها ورهوكتها وفرتكتهـــا . ومكمكتها ورهدنتها . وكتكتتها وبرقطتها . وقرمطتها وحرقصتها . وزهرمتها وحذلمتها . ودعرمتها وزهلقتها . وترهيها وتعمّجها . وتبهرسها وتهترسها . وتغطرسها وتهطرسها . وتكدسها وترهوكها وتهالكها وتهكيلها . وتفركها وتومزها . وتهيّمها وانفها . ورسمها وزوفها . وزيفها وهوجلها . وحتسكانها وعيكانها . وزيكانها وزوكانها . ورفلانها وملدانها وزيفانها وذالانها . وريسانها وكتفانها . وميسانهـا وترابيها . وهمدانيّهـــا وتثرطلها . وتمذقلها وتخزلجها . وحقطها وابطها . وبفزّهـا وقفزها ونقزها مقبلة مدبرة . وزاد طمعها ايضاً في الهدايا قال وقد نظمت في البرقع بيتين ما اظن احداً سبقني اليها وهما :

لا يحسب الغِرُّ البراقــع للنسا منعاً لهن عن التمادي في الهـوى
ان السفينة انمــا تجري اذا وُضع الشراع لها على حكم الهوا

فاما رجالها فان للترك سطوة على العرب وتجبراً. حتى ان العربي لا يحلّ له ان ينظر الى وجه تركي كما لا يحل له ان ينظر الى حرم غيره . واذا اتفق في نوادر الدهر ان تركياً وعربياً تماشيا اخذ العربي بالسنة المفروضة . وهي ان يمشي عن يسار التركي محتشماً خاشعاً ناكساً متحاقراً متصاغراً متضائــلا قافـّاً متقبضاً متقصيـــاً متقفصاً متشمصاً متحمصاً متحرفصاً مكتزاً متكاولاً متازحاً متقرفعاً متقرعفاً مقرعفاً متقفعاً متكنبثاً مقعنصراً متقوصراً مستزمراً معرنفطاً مقرنفطاً متجعشماً متجعثناً مرزئماً مرمئزاً مقمئناً مكبئناً متحنبلاً متقاعساً مراعزاً مكردحاً متضاماً متعصمصاً متزازئاً مقرنبعاً مدنقساً مطمرساً مطرمساً متكرفساً منقفشاً معقفشاً متحوياً معرنزحاً متخشلاً آزماً لازباً كاتماً كانعاً متشاجباً مصعنباً مجربزاً مجرمزاً متدخدخاً . فاذا عطس التركي قال له العربي رحمك الله . واذا تنحنح قال حرسك الله . واذا مخط قال وقاك الله . واذا عثر عثر الآخر معه اجلالاً له وقال نعشك الله لا نعشنا . وقــد سمعت ان الترك هنا عقدوا مجلس شورى استقر رأيهم فيه لدى المذاكرة على ان يتخذوا

لهم مركباً وطيئاً من ظهور العرب فانهم جربوا سروج الخيـل وبراذع الجمال واكفها واقتاب الابل وبواصرها وحصرها وسائر انواع المحامل من :

كِفِل	مركب للرجال .
وشِجار	مركب يتخذ للشيخ الكبير ومن منعتـه العلـّة من الحركة ،
وحِدج	مركب للنساء كالمحفـّة .
وأجلح	هودج ماله رأس مرتفع .
وحوف	شيء كالهودج وليس به .
وقرّ	مركب للرجال والهودج .
ومحِفـّة	مركب للنساء .
وفرفار	مركب من مراكب النساء .
وحِمْل	هودج .
وحِلال	مركب النساء .
وكدن	مركب لهن .
وقعْش	مركب كالهودج .
ومحارة	شبه الهودّج .
وقعَدة	مركب لهن .
وكتر	الهودج الصغير .
ومثرة	ج مواثر مراكب تتخذ من الحرير والديباج .
ورجازة	مركب اصغر من الهودج .
وعريش	كالهودج .
وعَبيط	مركب .
وحِزّق	مركب شبيه بالباصر .
وبُلبُلة	هودج للحرائر .
وحِقل	هودج .
وتوأمة	من مراكب النساء ج توأمات .
وفودج	الهودج ومركب العروس .

ومن رحـل وعجلة وعرش وشرجَع ومِزفـة ومنِصة وسرير ونعش فوجدوها كلها لا تصلح لهم . ورأيت مرة تركياً يقود جوقة من العرب بخيط من الكاغد وهم كلهم يقودون له . استغفر الله مرادي ان اقول ينقادون له ولم ادر ما سبب تكبر هؤلاء الترك هنا على العرب . مع ان النبي ﷺ كان عربياً والقرآن انزل باللسان العربي والائمة والخلفاء الراشدين والعلماء كانوا كلهم عرباً غير اني اظن ان اكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون ان النبي ﷺ كان يقول شويله بويله او بقالم قبالم او

غطالق قاب خي دلها	طغالق باق يخ بلهـا
صفالق باه خشت وكرد	فصالق هـاب دركلها
دخا زاوشت قلدي نك	خدا شاوزت قردلهـا
اشكارم كـبي والله	قـلاقلها بـلابلها

لا والله . ما هذا كان لسان النبي ولا لسان الصحابة والتابعين والائمـة الراشدين رضي الله عنهم اجمعين الى يوم الدين آمين وبعده آمين .

فاما ماؤها فما احسن رأسه وانجعه . الا انه قذر الذنب تنجسه حيوانات الارض باجمعها . وطيور السماء بجملتها . حتى ان سمك البحر اذا أصابتـه هيضة طفر الى رأس هذا الذنب فالقى فيه ما اثقـله . فاما اكلها فالفول والعدس والحمص والزن والدوسر والقريناء والخرفي والجلبان والباقلى والحنبل والدجر والخلر والبلس والبيقة والترمس والخرم والشبرم واللوبياء وكل مـا يجبنطي به البطن . وذلك ان اهلها لا يرون في الخمائص حسناً . حتى ان النساء فيما بلغني يتخذن معجوناً من الجعل ويأكلنه في كل غـداة لكي يسمن ويكون لهن عكن مطويات .

واضر ما لا قيت فيها قيْعَر قيعار . قـدم اليها من بعض البلاد الحميرية وتعرف بجماعة من النصارى فيها . فصار يدخل ديارهم ويسامرهم . فلما لم يجد عند احدهم كتاباً اقام نفسه بينهم مقام العالم فقال انه يعرف علم الفاعـل والمفعول وحساب الجمل . واتخذ له كتباً بعضها من غير ابتداء وبعضها بغير

لختام وبعضها مخروم أو ممحو . فكان اذا خاطبه احد في شيء عمد الى بعض هذه الكتب ففتحه ونظر فيه ثم يقول : نعم ان هـذا الشيء هو من الاشياء التي اختلف فيها العلماء . فان بعض مشايخنا في الديار الحميرية يتهجاه كذا . وبعضهم في الديار الشامية كذا. ولمّا يستقرّ رأيهم عليه فاذا استقرّ فلا بـد من ان يخبروني به . قال الفارياق وقد سمعت مرة من استفزّه باعث من الشغل يسأله عن الوقت . فقال له ساعة وخمس دقائق امـا الساعة فقد اشتق منها الساعي وعيسى . اما الساعي فلكون السعي كله يتوقـف على الساعات . اذ لا يمكن لاحد ان يعمل عملاً خلوّاً من الوقت فان جميع الافعـال والحركات محصورة في الزمان كانحصار – ثم ادار نظره ليشبهه بشيء فرأى كوزاً لبعض الصبيان . فقال كانحصار الماء في هذا الكـُوزّ . ثم رأى زنبيـلاً لصبي آخر فقال او كانحصار غداء هذا الولد في هذا الزّبيل. واما عيسى فلكونه اشتمل على جميع المعارف والعلوم اشتمال الساعـة على الدقائـق . ثم ان قولي خمس دقائق معناه اربعة بعدها واحد أو ثلاثة قبلها اثنان ولك ان تعكس . وانما قالوا خمس دقائق ولم يقولوا خمسة طلباً للتخفيف والعجلة في الكلام . فان بطول الالفاظ يضيع الوقت . وقولي دقائق هـو جمع دقيقة وهو مشتق من الدقيق للطحين. اذ بينهما شبه ومناسبة بجامع النعومة.ثم انهناكالفاظاً كثيرة تدل على الوقت وهي المساء والليل والصبح والضحى والظهر والعصر والدهر والابد والحين والاوان والزمن . اما الستّ الاولى ففيها فرق وامـا الاخيرة فلا . فاعترضه رجل من اولئك الكبراء وقال قد رابـني يا استاذنا ما قلت . فان كلاً من جاريتي وستها لها فرق . فضحك الشيخ من حماقته وقال له ان كلامي هنـا فيما حواه الزمان لا فيما حواه المكان . فسأله آخر قائـلاً اين جامع النعومة هذا الذي ذكرت ان فيه الدقيق . فضحك ايضاً وقال اعلم ان لفظة جامع تسمى عندنا معاشر العلماء اسم فاعـل اي الذي يتولى فعل شيء ايّاً كان . لكني طالما عزمت على ان اناقشهم في هذه التسمية لان من يموت او ينام مثلاً لا يصح ان يقال فيه انه فاعل الموت او النوم . فقـولي جامع على القاعدة المعلومة عندنا هو اسم لمن جمع شيئاً . حتى ان الكنيسة يصح ان

يطلق عليها لفظ الجامع لأنها تجمع الناس . فلما قـال ذلك اكفهرت وجوه السامعين . قال فسمعت بعضهم يجمجم قائلا : ما اظن الشيخ صحيـح الاعتقاد بدين النصارى . فقد اصابت اساقفتنا في حظرهم الناس ان يتبحّروا في العلوم ولا سيما علم المنطق الذي يذكره شيخنا . فقد قيل من تمنطق تزندق ثم انصرف عنه الجميع مدمدمين . وسأله مرة قسيس عن اشتقاق الصلاة . فقال هي مشتقة من الاصلاء ، لان المصلي يحرق الشيطان بدعائـه . فقال له القسيس اذا كان مأوى الشيطان سقر مذ الوف سنين ولم يحترق فكيف تحرقه صلاة المصلي . فتناول بعض الكتب ليقتبس منه جواب ذلك فاذا بـه يقول قال احد علماء الرهبان : الاحتراق على نوعين . احتراق حسّي كمَـن يحترق بالنار . ومعنوي كمن يحترق بحب العذرة . ثم وقف وتأوه قائلا : قد اخطأ سيدنا الراهب. لان العذراء يجب مدها . فقال : القسيس وقد حنق عليـه كيف يجب مدّها اذا لم تشأ . قال ويلي عليـك انت الآخر لا تعرف المدّ والقصر في الكلام واطفال الحارة في بلادنا يعرفون ذلك. قال بلى ان اقتصار الكلام مع من يخطـّي الرهبان مزية. ثم تولى من عنده مدمدماً . قال الفارياق وقال لي مرة قد يظهر لي ان حق استعمال دعا اذا اريد بـه معنى الصلاة ان يتعدى بعلى . فيقال دعوت عليه كما يقال صليت عليه . قال فقلت له لا يلزم على كون فعل يوافق فعلاً آخر في معناه ان يوافقه في التعدية . فغصّ بذلك ولم يفهمه . وشكا اليه مرة رجل من معارفه اسهالاً آلمه . فقال له يغالطه او يسليه احمد الله على ذلك ليتني مثلك . قال كيف هـو ان طال قتل واسال الجسم كله . فقال له انه منّة من الله . الم تسمع كل ملهوف يقـول يا رب سهل . فقال التاجر انا ما عنيت التسهيل بل الاسهال . فقال هما بمعنى واحد لان افعل وفعّل كلاهما يأتيان للتعدية . كما تقـول انزلته ونزّلته . ولان كلا من التسهيل والاسهال فيـه معنى السهولة . وكتب مرة الى بعض المطارين العظام . المعروض يا سيدنا بعد تقبيل اردافكم الشريفة . وحمل نعالكم المنيفة اللطيفة . الظريفة النظيفة الرهيفة العفيفة الموصوفة المعروفة المخصوفة . قال فقلت له ما اردت بالارداف هنا . فقال هي في عرف المطران بمعنى الراحة.

ثم لم يلبث ان بعث اليه ذلـــك المطران ببركة وكتاب اطرا فيــه على علمه وفضائله جداً فمما كتب اليه . قد قدم عليّ مكتوبكم الابني وانا خارج عـــن الكنيسة فما قرأته حتى دخلت الصومعة واولجت فيها . فلما اتيت على اخراه علمت انك صاحب الفضول . مولف الفصول . جامع بين الفروع والاصول . طويل اللسان . قصير اليدان (عن المحرمات) واسع الجبين . عميق الدين . عريض الصدر . مجوف الفكر . وكتب في آخره . أطال الله بقاك . وقباك وهناك ومناك . والسلام ختام والختام سلام . والبركة الرسوليـــة تشملكم اولاً وثانياً الى عاشراً . فجعل يبدي هـــذا الكتاب لجميع معارفه وخصوصاً لمن كانوا خرجوا من عنده مغضبين لتقريره عن لفظة الجامع . فلما وجدوها في كلام المطران زال عنهم الاشكال والريب في صحة استعمالهـــا . وزاد الرجل عندهم وجاهة وجلالاً .

فاما سؤالك عن كرم اهل هذه البلدة فانهم كانوا في ظهور آبائهم على غاية من السماحة والجود . الا انهم لما برزوا الى عالم التجارة وخالطوا اصحـــاب هذي البرانيط اخذوا عنهم الحرص والبخـــل واللآمة والرّتَع . بل برزوا على مشايخهم . وانهم اذا ضمهم مجلس لم يكن منهم الا الحديث عـــن البيع والشراء. فيقول احدهم قد جاءني اليوم جندي من الترك في الصبـاح ليشتري شيئاً فتطيرت من صباحه واستفتاحه . اذ لا يخفى عنـكم ان الجندي يستدين ولا يقضي دينه . واذا تكرم بنقد الثمن فما يعطي التاجر الا نصفه . فقلت له ما عندي مطلوبك يا افندي . وانما اردت تفخيمه بهذا اللقب ليتأدب معي . فما كان منه الا ان دخل الحانوت وبعثر البضاعة كلها واخذ مـــا اراد منها وما لم يرد . ثم ولى وهو يسبني . فيقول آخر وانا ايضاً جرى لي مــع سيدة من نساء الترك واقعة . وذلك انها بكرت عليّ اليوم وهي تنوء بحليّها. واقبلت باسمة اليّ وقالت هل عندك يا سيدي حرير مزركش . قلت وقـــد استبشرت عندي . فقالت ارني المتاع فاريتها اياه . فتداركتني بالخف وقالت امثلي يرى هذا . ارني غير ذلك : فاريتها ما اعجبهـــا فاخذته وقالت ابعث معي من يقبض الثمن. فبعثت غلامي فتبعها حتى دخلـت داراً كبيرة وأمرت

حاجبها بضرب الغلام وإيلامه . إلا أن الحاجب لما كان من الترك ورأى الغلام امرد لم يطاوعه قلبه على ضربه لكن انفذ فيه أمر سيدته بما اوصل من الاذى والألم . وهكذا ينقضي نهارهم بالمكروه وليلهم بذكره . واظن ان التاجر يطرب بمجرد ذكر البيع والشراء وان لم يكن فيه ربح .

فاما ما جرى لي بعد وصولي فاني نزلت عند خرجي من أصحاب صاحبي الأول . فتبوأت حجرة بالقرب من حجرته . فكنت أسمعه كل ليلة يضرب امرأته بآلة فتبدي الأنين والحنين والرنين والخنين. فكان يهيجني فعله الى البطش به . وكثيراً ما فكرت في ان أقوم من فراشي لكني خشيت ان يصيبني ما أصاب ذاك الاعجمي المتطبب الذي جاور قوما من القبط . وانه سمع ذات ليلة صراخ امرأة من جاراته فظن أن لدغتها عقرب وذلك لكثرة وجود العقارب في بيوت مصر . فقام الى قنينة دواء تابطها وأقبل يجري . فلما فتح الباب وجد رجلاً على إمرأة يعالجها باصبعه كما هي عادة القوم فلما رأى الطبيب ذلك دهش فوقعت القنينة من يده وانكسرت . وكان هذا الخرجي ابيض اللون ازرق العينين مع صغر واستدارة فيهما دقيق ارنبة الانف مع عوج في قصبته غليظ الشفتين . وانما تكلفت لوصفه لك ليبقى نموذجاً عندك تقيس عليه جميع من تراه من الخرجيين وغيرهم . وكان قد اتخذ فوق سطح منزله هرماً صغيراً مرصوفاً من قناني الخمر الفارغة . فكان سطحه أعلى سطوح الجيران . قال ثم عنّ له يوماً ان يكلفني انشاء خطبة في مدح الخرج لكي أتلوها في مخطب صغير كان قد استأجره . فلما فرغت منها عرضتها عليه فذهب بها إلى قيعر قيعار . فقال له ما مرادك ان تصنع بهذه الاحجيّة الخرجية . قال يتلوها منشئها على الناس فما رأيك فيها . قال هي حسنة إلا أن عيبها هو ان لا يفهمها أحد إلا أنا وهو . ونحن قد قرأناها فلا موجب لاعادتها . فعدل عن ذلك .

قال واتفق لي وانا مقيم عنده اني خرجت في عشية من عشايا الصيف البهيجة أمشي وحدي وبيدي نسخة الدفتر . ولما كان رأسي قد حفل

بالافكار فيما انا عليه من فرقة الأهل والأحباب وذكر الوطن . والتغرب عنه لغير سبب من أسباب المعاش سوى لخصام سوقي وخرجي على قال وقيل . اوغلت في المشي فانتهيت الى ظاهر المدينة وكان يتبعني رجل قد رأى نسخة الدفتر فعرفها فاضمر ليمنينني بداهية . فاقبل إليّ يكلمني ثم عطف بي يمنة ويسرة وهو يعللني بالكلام حتى انتهينا إلى مكان خال . فتركني هناك وقال لي أن عليّ أن أقضي هنا مصلحة . فحاولت الرجوع إلى مقري واذا بسرب عظيم من الكلاب جرت وهي تنبحني ودنت مني . فهوّلت عليها بالكتاب فهجمت عليّ هجمة السوقي على الخرجي . ثم تحاصّوا جسمي وثيابي والكتاب فبعضهم عضّ وبعضهم أدمى وبعضهم جرّ . وبعضهم تهدد في المرة الثانية . فما كدت أتملص من بين أيديهم إلا وثوبي وجلدي ممزق على ممزق . وقد مزّق الدفتر ايضاً اوراقه وجلده . فلما رجعت إلى منزلي ورآني الخرجي على هذه الحالة لم يكترث بشأني أو أنه لم يرني من فرط اشتغاله بالخرج . وإنما علم أني رجعت خلوا من الدفتر فاعتقد أني أعطيته لاحد . ففرح بذلك جداً ورغب في أن يجعلني عنده في مصلحة خرجية . لكن رأى من الواجب أن يشاور صاحبه فمن ثم كتب اليه في شأني . فابى ذاك وقال لا بد من تسفيري إلى الجزيرة . لأن النية استقرت على هذا من قبل . وما حسن تغيير النيات . فعزم مضيفي على إجراء ذلك وها انا منتظر السفينة.

٣

في انقلاع الفارياق من الاسكندرية

من نحس صاحبنا انه عند سفره إلى تلك الجزيرة لم تكن خاصية البخار قد عُرفت عند الإفرنج . فكان سفر البحر موكولا إلى الريح إن شاءت هبّت وإن شاءت لم تهب . كما قال الصاحب بن عباد

فانما هي ريح لست تضبطها   إذ لست انت سليمان بن داود

فمن ثم ركب الفارياق في سفينة ريحية من هذا النوع وكان في مدة السفر يتعلم بعض ألفاظ من لغة أصحاب السفينة مما يختص بالتحية والسلام . من جملة ذلك دعاءيقولونه عند شرب الخمر على المائدة وهو قولهم طابت صحتك. إلا أن لفظ الصحة عندهم يقرب من لفظ جهنم فكان يقول طابت جهنمك . فكانوا يضحكون منه وهو يسبُّهم بقلبه ويقول . قاتل الله هؤلاء العلوج انهم يقيمون في بلادنا سنين ولا يحسنون النطق بلغتنا . فيلفظون السين اذا سبقها حركة زايا وحروف الحلق وغيرها محالة ونحن لا نضحك منهم . وقد سمعت أن بعض قسّيسيهم الذين لبثوا في بلادنا سنين رام مرة أن يخطب في القوم فلما صعد المنبر ارتج عليه ساعة إلى ان قال : « ايها الكوم كد فات الوكت الآن ولكني أهتب فيكم نهار الأهد الكابل إن شاء الله » . ثم سار إلى بعض معارفه من أهل الدراية والعلم والتمس منه أن يكتب له خطبة يحفظها عن ظهر قلبه أو يتلوها تلاوة . وحشد الناس اليه فلما غصت بهم الكنيسة صعد المنبر فقال « بسم الله الرحمن » ثم كأنه انتبه من غفلته وعرف أن ذلك لا يرضي النصارى وان الكاتب انما كتب ذلك على طريقته . فاستدرك كلامه

وقال : لالا ما بدّيش أكول مسلماً بيكول الاسلام بسم الله الرهمن الرهيم بل كا تكول النسارى بسم الآب والابن والروه الكدس . يا اولادي المباركين الهادرين هنا لسماء هتبتي . وكبول نسيهتي وموهزتي . ان كنتم هدرتم وكلبكم مشكول بلزّات الآلم. اهبروني هتى اكسر من هتابكم فلا يتدجّر اهد منتُوله ولا يتألـّم . والا فهزي فرسة سنهت لي اليوم . ازكـّر فيها النساء والرجال تزكير من لا يكشى اللوم . وانزرهم يوم الهشر والهساب . يوم لا ينفع مـال ولا أسهاب . ولا سُهال ولا جواب . ايلموا رهمكم الله ان الدنيا زايـلة . ومتامهها باتله . وهالاتها هايله . ومهاليها سافله فكونوا منها على هَزَر . ولا يدلـّكم ما آجب منها وما سرّ . اسرفوا أنها نـَزَرَكم ولا تالكوا بها وتَرَكم. افهسوا فيها كلبكم كبل ان تسندوا روسكم الى المهدّة . ووازبوا الى السلوات في الديك والشدة . كدموا للكنايس نزوركم ولو كليله واستهينوا بالكديسين هال الفتيله. لتنكزوا من المِهَن والمسايب. وتتفسـّوا من الكرنب والنوايب[1] اهترموا كسّيسيكم واساكفتكم ووكـّروهم واكتدوا بهم . واركبوهم ولاهزُوهم ترشدوا بسايهم وركسهم ودابهم يا ايـّها النـّسارى ان ديننا هو الهـك . وواده هو الاسدك . وكـَبره هو الاكدك وسُوكه هو الانفك . لا تـكالتوا هؤلاء الكرجيـّين . الزين اندسـّوا فيكم مزهين . يتزّببون في ادلالـكم عن الزرات المستكيم . بما يزهرون لكم من الورا والكـُلـُك الهليم . الا انهم هم الزياب الكاتفة المتردية بلباس الهملان . الجايلون في كل كـُتـَر وسُك ينسبون الينا الزيك والبهتان . وهم ازيك من سلك تريكا . واكزب من كش ّ سديكا. وكان رفيكا . الى ان قال أيها الكاركون في بهار الهتايا . تجنبوا ما يفدي بكم اليهـا فان آكبتها اليكم بلايا ورزايا . ألا فاسرموا أزبابها سرماً . وكاوموا أركابها أزما . واستاسلوا جزرها رهزا . واكلاوا ُمكـْوياتها تنالوا ركزاً . الازباب الازباب .

فاكتأوا الازباب حتى تهلسوا في يوم الهساب. من الكساس والازاب(أي

---

(١) الكرنب مصحفة عن الكرب .

اقطعوا الاسباب حتى تخلصوا في يوم الحساب من القصاص والعذاب) ومع ذلك فلم يصفعه أحد من السامعين بل استمر الى آخر الخطبة على هذا النمط. الاّ أن امرأة لبيبة كانت قد تزوجت مذ عهد قريب لما سمعت الفقرة الاخيرة غضبت وقالت : ألا لابارك الله في يوم رأينا فيه وجوه هؤلاء العجم فقد احتكروا خيراتنا وأرزاقنا. وأفسدوا بلادنا وسابقوا ناسنا الى تحصيل رزقهم من أرضنا . وعلّموا من عرفهم منا البخل والحرص والطيش والسفاهة . وما لعمري حصلوا على هذا الغنى الجزيل الاّ لجشعهم وشحهم . فقد سمعنا ان الرجل منهم اذا جلس على المائدة مع أولاده يأكل اللحم ويرمي بالعظام اليهم ليتمشّشوها . ولكونهم حراميّين غبيّين في البيع غشاشين. وقد بلغني ان اخوانهم في بلادهم أنجس منهم وأفسق . وهذا النجس الآن يغري بعولتنا بارتكاب الفاحشة لتخلو له الساحة فيفعل ما يشاء . فاني أعلم عين اليقين ان هؤلاء المنابريّين انما يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم. وانهم ليعلمون الناس الزهد في الدنيا والجَبَنّ وهم احرص الثقلين عليها واقرب الخلق الى البغال . فما جزاؤه الان إلا قطع لسانه حتى يعرف ألم القطع . لعمري ان الانسان لا يهون عليه احياناً ان يقلّم اظفاره لكونها منه. ولذلك كانت اخواتنا نساء الافرنج يربّين اظفارهن ويفتخرن بها مع انها لا تلبث ان تنبت . فكيف يجوز قطع ما يعمّر به الكون (طيّب الله انفاسك يا حديثة عهد بالزواج وعتيقة نقد للاعلاج . ليت النساء كلهن مثلك وليتني الثم شفتيك) .

ثم لما خرج القسيس من الكنيسة اذا بالناس جميعاً اهرعوا لتقبيل يده وذيله وشكروه على ما أفادهم من المعاني البديعة بقطع النظر عن غيرها . لما تقرر في عقولهم من ان من خواص دين النصارى ان تكون كتبه ركيكة فاسدة ما امكن . لان قوة الدين تقتضيه لتحصل المطابقة كما افاده المطران اثناسيوس التتونجي الحلبي البُشكاني الشلاّ في الشوْلقي الانقافي النشّافي المقسقسي اللّطّاعي النَطّاعي المُصنوي الحُتفلي الا رْشمي الشَرتمَيّ القَديحيّ التخمّمي الامّعي في بعض مؤلفاته المسمّى بالحكاكه في الركاكه . قال الفارياق واذ قد ابتلاني الله بعشرة هؤلاء اللئام فلا بد لي من مجاملتهم ومخالقتهم الى ان يمنّ

عليّ بالنجاة منهم .

قلت وحيث قد مرّ ما قاله الفارياق في سفرته الاولى فلا موجب الآن لاعادة ذكر شكواه هنا من ألم البحر . وانما نقول انه في خلال معاناته ومقاساته حلف لا يركبنّ بعدها في شيء من مراكب البحر . من

الجفاء	السفينة الخالية ذكره صاحب القاموس في المهموز .
والمرْزاب	السفينة العظيمة او الطويلة .
والزَبْزَب	ضرب من السفن .
والبارجة	السفينة الكبيرة للقتال .
والخليج	سفينة صغيرة دون العَدَوْليّ .
والطـرّاد	السفينة الصغيرة السريعة .
والمُعبّدة	السفينة المقيّرة .
والغامِد	السفينة المشحونة كالآمد .
والدَسراء	السفينة تدسر الماء بصدرها ج دُسُر .
والزُرْزُور	المركب الضيّق .
والزَنبَريّ	الضخم من السفن .
والقُرْقور	السفينة الطويلة او العظيمة .
والكار	سفن منحدرة فيها طعام .
والهُرْهور	ضرب من السفن .
والقادس	السفينة العظيمة .
والبُوصيّ	ضرب من السفن .
والصَلغة	السفينة الكبيرة .
والنُهْبُوغ	السفينة الطويـلة السريعة الجري البحرية ويقال لهـا الدونيج معرّب .
وذات الرّفيف	سفن كان يعبر عليها وهي ان تنضّد سفينتان او ثلاث للملك .
والشُقْدُف	مركب م بالحجاز .

والحَرّاقة	ج حَرّاقات سفن فيها مرامي نيران .
والزَوْرَق	السفينة الصغيرة .
والبُراكيّة	ضرب من السفن .
والعَدَوْليّة	سفن منسوبة الى عدولي بالبحرين او —
والجَرْم	زورق يمني .
والجِنّ	السفينة الفارغة .
والشَوْنة	المركب المعدّ للجهاد في البحر .
والتَلَوّى	ضرب من السفن صغير ذكره في ت ل و .
والجُفاية	السفينة الخالية ذكره في ج ف ي .
والخَليّة	السفينة العظيمة او التي تسير من غير ان يسيّرها ملاح او التي يتبعها زورق صغير .
والشَذا	ضرب من السفن .
والرِكْوة	الزورق الصغير .
والقارب	السفينة الصغيرة .
والرَمَث	خشب يضم بعضه الى بعض ويركب في البحر .
والطَوْف	قِرَب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها .
والعامَة	عيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها في النهر ويقال لها ايضاً العامّة .

وانه بعد وصوله الى مرسى الجزيرة اعدّ له فيه مكان حسن لتطهير انفاسه به مدة اربعين يوماً . اذ قد جرت العادة عندهم بان من قدم اليهم من البلاد المشرقية وقد استنشق هواها فلا بد وان يُنثره في المرسى قبل دخوله البلد . فاقام فيها يأكل ويشرب مع اثنين من اعيان الانكليز ممن ركبوا في السفينة . وطاب له العيش معهما لانهما كانا قد ساحا في بلدان كثيرة من المشرق واخذا عن اهلها الكرم . ثم بعد انقضاء المدة جاء الخرجي واخذه الى منزله بالمدينة

وكان المذكور قد فقد زوجته من يوم نوي تسفير الفارياق اليـه . فلزم الحداد والتقشف . ولزمته الكآبة والتأسف . وان لا يأكل غير لحم الخنزير اعلى الله شأنك عن ذكره . وانما امر طباخه بأن يتفنن فيه . فيوماً كان يطبـخ له رأسه . ويوماً رجليه . ويوماً كبده . ويوماً طحاله . حتى يأتي على جميـع آرابه ثم يستأنف من الرأس . وانت خبير بان نصارى الشام يحاكون المسلمين في كل شيء ما خلا الامور الدينية . فمن ثم كان لحم الخنزير عندهم منكراً . فلما جلس الفارياق على المائدة وجاء الطباخ بارب من هذا الحيوان الكريه ظن ان الخرجي يمازحه باراءته اياه شيئاً لم يعرفه . فامتنع ان يأكل منه طمعاً في ان ينال من غيره . واذا بالخرجي قضى فرض الغـداء وشرع حالاً في الصلاة والشكر للباري تعالى على ما رزقه . فقال الفارياق في نفسه قـد اخطأ والله صاحبي . فانه وضع الشكر في غير موضعه اذ الثناء على الخالق سبحانه لاجل فاحشة او اكل سحت لا يجوز . وفي اليوم الثاني جاء الطبـاخ بعضو آخر . فالتقمه وشكر عليه ايضاً . فقال الفارياق للطبـاخ لمَ يشكر الله صاحبنا على اكل الخنزير . قال ولمَ لا وقد اوجب على نفسه ان يشكر له على كل حال وعلى كل شيء كما ورد في بعض كتب الدين. حتى انه كان يقضي هذا الفرض بعد ان يبيت مع زوجته . قال وهل شكر له على موتها . قال نعم فانـه يعتقد انها الآن في حضن ابراهيم . قال اما انا فلو كان لي امرأة لما اردت ان تكون في حضن احد . ثم ان دولة الخنزير اعـتزت وعظمت . ومصارين الفارياق ضويت وذوت . فكان يقضي النهار كله على الخبز والجـبن . ثم بلغه ان خبز المدينة يعجَن بالارجل ولكن بارجل الرجال لا النساء فجعـل يقلل منه ما امكن . حتى اضرّ به الهزال . وصدئت اضراسه من قلة الاستعمال . فوقع منها اثنان من كل جانب واحدٌ . وهذا اول انصاف فعله الجوع على وجه الارض . اذ لو كانا وقعا من جانب واحد لثقل احد الجانبين وخـفّ الآخر فلم تحصل الموازنة في حركات الجسم .

اما المدينة فان القادم اليها من بلاد الشرق يستحسنها ويستعظمها. والقادم اليها من بلاد الافرنج يحتقرها ويستصغرها . واعظم ما حمل الفارياق فيها على

العجب صنفان صنف القسيسين وصنف النساء . أما القسيسون فلكثرتهم فانك ترى الاسواق والمنازة غاصة بهم . ولهم على رؤوسهم قبعات مثلثة الزوايا لا تشبه قبعات السوقيين في الشام . وسراويلهم اشبه بالتبابن فانها الى ركبهم فقط . وسيقانهم مغطاة بجوارب سود . والظاهر انها عظيمة لان جميع القسيسين في هذه الجزيرة معلتفون سمان . وقد جرت العادة عندهم ايضاً بان القسيسين واهل الفضل والكمال من غيرهم يحلقون شواربهم ولحاهم . وانما يجب على القسيسين خاصة ان يلبسوا سراويلات قصيرة مزنقة حتى يمكن للناظر ان يتبين ما وراءها . فاما النساء فلاختلاف زيهن عن سائر نساء البلاد المشرقية والافرنجية . ولان كثيراً منهن لهن شوارب ولحى صغيرة ولا يحلقنها ولا ينتفنها . وقد سمعت ان كثيراً من الافرنج يحبون النساء المتذكرات . فلعل هذا الخبر الغريب بلغ ايضاً مسامعهن . كيف لا واهواء الرجال لا تخفى عن النساء . والحسن فيهن قليل جداً . وانقيادهن الى القسيسين غريب . فان المرأة منهن تؤثر قسيسها على زوجها واولادها واهلها جميعاً . ولا يمكن ان تتخذ طعاماً فاخراً من دون ان تهديه باكورته حتى اذا اكل منه اكلت هي.

وقد بلغني ان امرأة سوقية متزوجة أي من حزب شيخ السوق رأت رجلاً جميلاً من الخرجيين فاستخسرته فيهم . وقالت لو دخل هذا الرجل كنائسنا لزادت به بهجة ورونقا . فارسلت اليه عجوزاً تدعوه اليها فلبى الفتى دعوتها . لان عداوة السوقيين والخرجيين انما هي مقصورة على الضواضره والنجشيين والمحترفيين لا مبلغ لها عند الرجال والنساء . ففاضت معه في الحديث الى ان قالت له ان كنت تتبع طريقتنا فاني امكنك من نفسي ولا امنع عنك شيئاً . فقال لها الشاب اما الذهاب الى الكنيسة فاهون ما يكون عليّ لكونها قريبة من منزلي . واما الاعتقاد فكليني الى نيتي . فاني آنف من هذا الاعتراف الذي يكلفكم به القسيسون من اهل كنيستكم . وليس من طبعي الكذب والتدليس حتى اعترف للقسيس بالصغائر واكتم عنه الكبائر كما يفعله كثير من السوقيين . او اذكر له ما لم افعله واخفي عنه ما فعلته . فتأوهت المرأة عند ذلك واطرقت وهي تفكر وتحرك رأسها . ثم قالت لا

بأس انـّا ليكفينا مناك الظاهر كما افادنيه قسيسي ، ثم تعانقا وتعاشقا وجعل يتردد عليها وعلى الكنيسة معاً . حتى ان الزواني في هذه الجزيرة متهوّسات في الدين ، فانك تجد في بيت كل واحدة منهن عدة تماثيل وصور لمن يعبدونه من القديسين والقديسات . فاذا دخل الى احداهن فاسق ليفجر بها قلبت تلك التماثيل فادارت وجوهها الى الحائط لكيلا تنظر ما تفعله فتشهد عليهـــا بالفجور في يوم النشور .

قال ومن خصائص اهل هذه الجزيرة انهم يبغضون الغريب ويحبون ماله وهو غريب . فان مال الانسان عبارة عن حياته ودمه وذاته . حتى ان الانـكليز اذا سألوا عن كمية مايملكه الانسان من المال قالوا كم قيمة هذا الرجل . فيقال قيمته مثلاً الف ذهب . فكيف يتأتـّى لاحد ان يبغض آخر ويحب حياته ؟ وانهم يتجاذبون كل غريب قدم اليهم . فيأخـــذه واحد منهم بيده اليمنى ليريه النساء . ويمسكه الاخر بالاخرى ليريـــه الكنائس والدولة لمن غلب . ومن خصائصهم ايضاً انهم يتكلمون بلغة قذرة طفسة منتنة بحيث ان المتكلم يُشَـم منه رائحة البخر اول ما يفوه . والرجال والنساء في ذلك سواء. واذا استنكهت امرأة جميلة وهي ساكتة نشيت منهـــا عرفا ذكياً . فاذا استنطقتها استحالت الى بخَـر . ومنها انه اذا اصيبت احدى النساء بداء في احد اعضائها ذهبت الى الصائغ وامرته بان يصوغ لهـــا مثال ذلك العضو من فضة او ذهب لتهديه للكنيسة . ومن كانت معسرة صاغته من الشمع ونحوه. ومن ذلك ان حلق اللحى والشوارب مندوب وحلق ما سواهما محرّم . حتى ان القسيسين يلحّون على النساء في السؤال كثيراً حين يعترفن لهم عن قضيتي النتف والحلق ويحرزونهن من ارتكاب ذلك . ومنها ان لاهل الكنائس عادة ان يخرجوا في أيام معلومة بما في كنائسهم من الدمى والتماثيل على ثقلها وضخمها . يحملونها على اكتاف المتحمّسين في الدين فيجرون بها في الشوارع وهم ضاجّون. واغرب من ذلك انهم يوقدون امامها الشموع حين يود كل انسان ان يأوي الى كهف في بطن الارض من شدة توهج الشمس. وغير ذلك كثير مما حمل الفارياق على العجب . لان أهل بلاده مع كونهم سوقيين ولهم حرص زائد على عداوة

الخرجيين لا يفعلون ذلك . وحين ثبت عنده ان الخرجيين هم على الهدى الا" في اكل الخنزير . وان السوقيين على ضلال ما عدا استحسان نسائهم لغيساني" الخرجيّين . الا انه ليس من طريقة في الدنيا الا وفيها ما يحمد وما يذم. وان الانسان تراه في بعض الامور عاقلا رشيداً وفي غيرها جاهلا غويّا . فسبحان المتصف وحده بالكمال . وانما ينبغي للناقـــد المنصف ان ينظر الى الجانب الانفع ويقابله بغيره . فان رأى نفعه اكثر من ضره حـكم له بالفضل . لا ان يمنّي نفسه بأن يجد شيئاً من الاشياء كاملا . قال الشاعر:

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها   كفى المرء نُبْلاً ان تعد معايبه

هذا وكما ان الجوع اسقط من فـــم صاحبنا الضرس المستجيع ضرسين . كذلك اسقطت مشاهدة تلك الامور من راسه اعتبار السوقيين وبني عمّهم من كلا جانبي الدين والرشاد. فظهر له ان افعالهم احرى ان تكون افعال المجانين. فلهذا ضاق صدره في بلادهم وعيل صبره.مع احتياجه الى الطعام الطيّب الذي كان ألفه في الشام والى لباس يليق به . فان الخرجي" افاده ان المقدّدين على السلع الخرجية لا ينبغي لهم التحفّل بالملبوس . اذ المقصود من الخرج انما هو حمله فقط . مع ان السوقيين يحسبون ان الخرجيّين يستجلبون اليهم المقددين بالمال والهدايا . فلهذا كان الفارياق دائم الحزن والاسف . فلم يمكنه وقتئذ ان يتعلم لسان الخرجيين وانمـا تعلم منهم بعض الفاظ تخصّ ترويج السلعة فقط . هذا وقد كان عند الخرجي المذكور خُرينجي" لئيم . شكس الاخلاق اصفر الوجه . ازرق العينين دقيق ارنبة الانف كبير الاسنان . راى الفارياق يوما ينظر من طاقة له الى سطوح الجيران فنزغه الشيطان ان يسمّر الطاقـة ، فلما رآها الفارياق مسمرة تفاءل بانها خاتمة النحس ، وهكذا كان ، فانـــه مرض بعدها بايام قليلة فاشار الطبيب على الخرجي بان يسفره الى مصر . فسافر من ثم ومعه كتاب توصية الى خرجي آخر .

٤

في منصّة دونها غصّة

ما زال البحر بحراً. ما برحت الريح ريحا. ما انفك طالع الفارياق هابطا. ما فتىء لسانه فارطا. فلما بلغ إلى الاسكندرية وجد في محل الخرجي القديم خرجياً آخر قد دخل في مضايق ذميمة لم يرض الشيخ خليل بن ايبك الصفدي ان يدخل فيها . فتخلّف عمن تقدمه وخبثت ريحه بين اقرانه . والحامل له على ذلك انه رأى هواء البلاد شديد الحرارة عليه فارتأى ان يتخذ له هرمين يتسلقهما حين يحتر كما كان سلفه اتخذ هرما من الدنان . فافرغ عليهما من اللجين مـا يسيل به واد . فشاع اسرافـه هناك وملّه اصحابـه ثم سافر الفارياق من الاسكندرية الى مصر وادى كتاب التوصية للخرجي . فانزله في دار رفيق له وكانت محاذية لدار رجل من الشاميّين كان يجتمع عنده كل ليـلة جماعة من المغنّين والعازفـين بالات الطرب . فكان الفارياق يسمع الغنا من حجرته . فهاج به الوجد والغرام . وتذكر اوقاته بالشام . وحنّ وصبا الى مجالس الأنس . وخيل له انه انتقل من عالم الجن الى عالم الانس . واسفرت له الدنيا عن لذات مبتكرة . وشهوات مدّخرة . وافراح صافية . وأماني وافيه . فنسي ما كابده في البحر من الدُوار والفواق وفي الجزيرة من الجوع وتسمير الطاق . وما اصابه من بجنح التفديد . وترح التقليد . ورأى لدولة مصر بهجة ورونقا . وفي عيشها رغداً مغدقا . فكـان الناس كلهم مُعْرسون او مفاخرون ومنافسون .

ولنسائها كياسة وظرفاً وجمالاً . ولطفاً وليناً ودلالاً . وتيهاً واختيالا . يخطرن في الطرق بالحبر كالمنشئات فيجعلن مجموع الهمّ على القلب في شتات .

وما انا بأول واصف لهنّ انهن خلاّبات للعقول . غلاّبات للفحول . فقد وصفهن بذلك كل ناظم وناثر . وذكر محاسن كل من حاولهن من الاكابر والاصاغر . وفي المثل السائر. تراب مصر من ذهب . وغيدها نِعْمِ اللُعَب . وانها لمن غلب . واعجب ما يرى من احوالهن . حين يخرجن من حجالهن . ويتفلّتن من عكالهن ، ما اذا ركبن الحمير الفارهة العالية . واستوينا فوقها على منصّة مضمخة بالغالية . فترى عَرفهن قد ملأ الخياشيم . وحَورَ اعينهن يذكّر الناس بحور جنات النعيم . فكل من ينظر حورية منهن يكبّر عند رؤيتها . ويستصغر الدنيا بجمال طلعتها . ومنهم من يهلّل لالتفاتتها . ويسبّح عند حركتها . ومنهم من يتمنى ان يكون ممسكاً بركابها . او ماساً لجلبابها. او حاملاً لنعالها . او رافعاً لاذيالها او بطانة لحبرتها . او بواباً لحجرتها . او رسولاً بينها وبين عاشقها . او تبعاً لتبعها ومرافقها . او مشّاطاً يسوّي فرقها . او خياطاً يرقع خرقها . او صائغاً يصوغ لها سواراً . او حدّاداً يصنع لها مسماراً . او بلاّنياً يدلك بدنها . او هناً آخر يداني هَنَها . وهي من فوق تلك المنصّة تتعزّز وتتمنع . وتشفن وتتطلّع . فترمي هذا بنظرة فتدميه . وذاك بغمزة فتُصبيه وتسبيه . فتعطل على التجار اشغالهم .وتبلبل من ذوي البطالة بالهم . حتى كاّن الحمار من تحتها يعرف قدر من حمل . ويدري ما غرض من كبّر لرؤيتها وهلّل . فهو لا ينهق ولا يسمع له شخير ولا يكرف كسائر الحمير . بل يسمُد على الخيل كبرا . ويمشي الخيلاء زهواء وفخرا . اما قائد الحمار فانه يرى ان قائد الجيش دونه في المنزلة . وان الناس لفي افتقار اليه فهو الذي لا بدّ له من عائد وصلة . كيف لا وهو الموصوف بالسياسة والقيادة والفراسة . وهنا قضية نسيت ان اذكرها . فلا بد من ان اقيدها . في هذا الموضع واحررها . وهي ان القلوب برؤية المتبرقعات اولع منها برؤية المسفرات وذلك ان العين اذا رأت وجهاً جميلاً وان يكن رائعاً شائقاً غاية ما يمكن فان المخيلة تستقر عليه وتسكن . فاما عند تبصّر الوجه المحجوب مع اعتقاد القلب بان صاحبه من الجنس المحبوب. ولا سيا اذا قام الدليل عليه بحلاوة العينين ، وبالهَدب وبزجج الحاجبين، فان

المخيلة تطير بالافكار عليه ولا تجد لها من أُمَد تنتهي اليه . فيقول الخاطر (انتهى السجع لانه ملأ الصفحة) لعل هذا الوجه .

أثـعُبانيّ الاثعبان والاثعباني الوجه الفخم في حسن وبياض .
او ذوانسبات يقال في وجهه انسبات اي طول وامتداد .
او هو مُصفح المصفح من الوجوه السهل الحسن .
او مُثمعدّ المثمعد من الوجوه الظاهر البَشرة الحسن السَحْنة .
او مدنـَّر يقال دنـَّر وجهه تدنيراً تلالا .
او ملوّز الملوّز من الوجوه الحسن المليح .
او مخروط المخروط من الوجوه ما فيه طول .
او ساجِع الساجع الوجه المعتدل الحسن الخلقة .
او عنـْمَيّ الوجه الحسن الاحمر .
او فـَدْغم الفدغم الوجه الممتلي الحسن .
او ذو كلثمة الـكلثمة اجتماع لحم الوجه بلا جهومة .
او مَسنون يقال رجل مسنون الوجه مملـّسه حسنه سهله .

ولعله جامع لجميع سمات الوسامة فاشتمل على خدين اسيلين اسجحين او مكتـّلين وفي كل خدّ اذا ضحكت غمزة او هزْمة او شـَجْرة او عَكـْوة او غُرْمة او فحصة او فيهما .

علطة العلطة واللعطة سواد تخطه المرأة في وجهها زينة .

او في كل منهما خال عمّ حسنه وعزّ فتنه

او فيهما او في احدهما خداد (ميسم في الخد) او ترخ (الشرط اللين).

او وَحـْص او عُد او ظبـْظاب . الوحص بثرة تخرج في وجه الجاريـــة المليحة والظبظاب بثر في وجوه الملاح ومثله العُد .

واشتمل ايضاً على ثغر منصب . ذي شـَنـَب ورَتـَـــل وخـَبـَب . ثغر منصب مستوى النِبتة والشنب ماء ورقـّة وبرد وعذوبة في الاسنان او نقط

بياض فيها أو حدّة الانياب كالغَرْب تراها كالمنشار والرَّتَل بياض الاسنان وكثرة مائها والحَبَب تنضد الاسنان وما جرى عليها من الماء كقطع القوارير.

او على تفليج في ثنايا من الدرّ. ذات أُشُر ووَشْر أُشُر الاسنان وأشَرها التحزيز الذي يكون فيها خلقة اومستعملا يقال اشرت المرأة اسنانها واشرتها والوشر تحديد المرأة اسنانها وترقيقها .

او ان لها عترة . تتهالك في حبّها عِترة . العِترة أشَر الاسنان ودقة في غروبه ونقاء وماء يجري عليه – والريقة العذبة وهي ايضاً نسل الرجـــل ورهطه وعشيرته .

الادنون ممن مضى وغبر .

او ان بذقنها نونة تعوذ بسورة ن. او ان شفتها ريّا او حوّاء او نكِعَة او ان فيها لـَعَساً او ذَبَباً . او يتصبّب منها العسل تصبّباً .

او ان فيها ثُرْملة . تشفي من الوله . الثرملة النقرة في ظاهر الشفة العليا والنكعة من الشفاه الشديدة الحمرة .

او انفي طُرْمتها طِرْماً. الطـُرمة النبرة وسط الشفة العليا والطرم الشهد والزبد والعسل .

او أن لها تُرْفة . اشهى واعزّ من الترفة . الترفة هنة ناتئـة وسط الشفة العليـــا خلقة وهي ايضاً النعمة والطعام الطيب والشيء الطريــف تخص به صاحبك .

او ان لها عُرْعَرة . على مثلها تهـون الغرغرة . العرعرة بين المنخرين او خَوْرَمة .

تطيب بها النفس عن الخـُرّمة . الخورمة مقدم الانف او ما بين المنخرين والخرّمة واحدة الخرّم وهو نبت كاللوبيا بنفسجي اللون شمه والنظر اليه مفرح جداً ومن امسكه معه احبّه كل ناظر اليه ويتخذ من زهره دهن ينفع لما ذكر .

او نثرة . عليها تنثر البدرة . النثرة الخيشوم وما والاه او الفرجة بين الشاربين حيال وترة الانف .

او ان لمراعفها غَفْراً . يكسر شوكة الاجرا . المراعف الانف وحواليه والغفر زئبر الثوب .

او ان لها خُنْعُبة . تشدّ العظام الوربة . الخنعبة النونة او الهنة المتدلية وسط الشفة العليا او الشق ما بين الشاربين حيال الوترة ويقال فيها ايضاً الخُنْبعة .

او عَرْتُبة . تصح بها القلوب الوصبة . العرتبة الانف او ما لان منه او الدائرة تحته وسط الشفة او طرف وترة الانف .

او عَرْتمة . هي للحسن سمة.العرتمة مقدم الانف او ما بين وترته والشفة او الدائرة عند الانف وسط الشفة العليا ومثلها الهرتمة.

او ان على ملامظها وملاغمها لَغَماً . ينفي سدماً . ويشفي سقماً.الملامظ ما حول الشفة والملاغم ما حول الفم كالملامج واللغم الطيب القليل .

او لعل لها نبرة هي تمام النضرة . النبرة في وسط النقرة في ظاهر الشفة والنضرة الحسن .

او تفرة . يطيل الصب عليها زفرة . التفرة مثلثة الاول النقرة في وسط الشفة العليا .

او حثرمة . تذر القلوب بها مغرمة . الحثرمة الدائرة تحت الانف وسط الشفة العليا او الارنبة او طرفها .

او وتيرة تفدى بالف وثيرة . الوتيرة حجاب ما بين المنخرين .

او ان لها خيشومة يبرىء كمها . ويطري وَمَها . الخيشوم من الانف ما فوق نخرته من القصبة وما تحتها من خشارم الراس والومه شدة الحرّ .

او قسامة . يمضي بها العاشق اقسامه القسامة الحسن والوجه - او الأنف وناحيتاه او وسط الانف الخ

او ان لها ذلفا يصح دنفاً الذلف صغر الأنف واستواء الارنبة او صغره في دقة او غلظ واستواء في طرفه ليس بحدّ غليظ .

او خنسا تغيب له الخنّس . الخنس تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الارنبة وهي خنساء والخنّس الكواكب كلها او السيارة .

او كان انفها مصفحاً . المصفح من الانوف المعتدل القصبة .

او اشمّ . الشمم ارتفاع قصبة الانف وحسنها واستواء اعلاها وانتصاب الارنبة .

او ان به قنى . قنى الأنف ارتفاع اعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه او نتوء وسط القصبة وضيق المنخرين هو اقنى وهي قنياء .

او ان به غرضين . يلهيان عن التغريض واللجين . غرضا الأنف ما انحدر من القصبة من جانبيه جميعاً والتغريض اكل اللحم الغريض والتفكه .

او ان لها ناظرين . نفديهما بالناظرين . الناظران عرقان على حرفي الأنف . او ناحرتين . نذيل لهما النحور والمقلتين . الناحرتان عرقان في اللحى وضلعان من اضلاع الصدر او هما الواهنتان والترقوتان .

او حافزا . يشرح قلباً حالزاً ، ويتلحز له الشاعر تلحزاً . الحافز حيث يثني من الشدق وقلب حالز ضيّق والتحلّز تحلّب فيك من اكل رمانة حامضة ونحوها شهوة لذلك كالتلزّح .

او ان خنّابتيها . تحوم القلوب عليها . الخنابتان طرفا الانف .

او ان لها صامغين . هما قرة العين . وريّ الغين الصامغان والصماغان والصمغان جانبا الفم وهما ملتقى الشفتين مما يلي الشدقين وهما ايضاً السامغان لغة في الصاد والغين العطش . وياليت شعري هل يتكوّن فيهما صمغ شهد

حتى سميا بهذا وهل هما منطبقان او منفتحان وهــل يتلحّز لهما الشاعر المسكين كما تلحـّز من الحافزين الله اعلم .

ثم يقول او أن لها حترة . يديم الصبّ اليها حَترة الحترة مجتمع الشدقين والحتر تحديد النظر . فهل من تلزّح معه .

او ان لها ماضغين . يعوّذان من العين . الماضغان اصول اللحيين عنــد منبت الاضراس او ُغنْبة . تهنّسد الخليّ َسنْبه . الغنبة على ما في القاموس واحدة الغُنَب وهي دارات اوساط اشداق الغلمان الملاح. لكني رأيت ربّة البرقع اولى بها فلا ِعكاس ولا ِمكاس على هذا الاختلاس . والتهنيد التصبي والتشويق والسنبة والدهر .

ولعل عارضها : يتيّم معارضها . العارض صفحة الخد وجانب الوجه . او ان لها علاطاً يشغف من ناظره نياطا . العــلاط صفحة العنق والنياط الفــؤاد .

او ُبلدة . تفتن اهل البلدة . البلدة نقاوة مــا بين الحاجبين وثغرة النحر وما حولها او وسطها . او ان لها َمحاجر . تبــاع لها المحاجر . اِلمحَجر من العين ما دار بها والمحاجر الثانية ما حول القرية .

او اسارير . يعنو لهــا من جلس على السرير . الاسارير محاسن الوجه والخدّان والوجنتان.أو ان ُطْليتهاتبري الطَليـاء.الطلية العنق أو أصلها والطلياء قرحة كالقُوَباء . ولديْدَيْها اللُدود . اللديـدان صفحتا العنق دون الاذنين واللدود وجع يأخذ في الفم والحلق. ولزيزيها اللز،اللزيز مجتمع اللحم فوق الزور واللز الطعم . ومفاهرها أعز إلى ذي مغبة من الفهيرة . المفاهر لحم الصدر والفهيرة محض يلقي فيه الرضف فاذا غلا ذرّ عليه الدقيق وسيط .

وان سالفتيها تغنيان عن السلاف . السالفة ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط الى َقلت الترقوة .

ونحرها عن نحر النهار . نحر النهار والشهر اوله .

وترائبها عن الاتراب . الترائب عظام الصدر او ماولي الترقوتين منــــه والاتراب واحدها تِرب وهو اللِدة . ويصح ان تكون ايضاً بكسر الهمزة مصدر اترب الرجل اي كثر ماله فليسال القائل عن ايهما اراد .

الى غير ذلك من الاحتمالات التي لا بدّ منها لحصيف العقل المستحكم الرأي.

وانما اطلت الكلام هنا لكوني ناقلاً له عمن تبصّر الوجه المحجوب.ودهش عن الاصابة فسال فمه سعابيب .

وغاية ما اقوله انا ان من شاعر امرأة ليـــلا ولم يرها كما جرى لسيدنا يعقوب عمّا وقع له ما وقع لصاحبنا هـــذا المكثر من اللعلاّت والاِنـّات والاَوّات . ولقائـــل ان يقول ان هذه القضية معكوسة في شأن المرأة اللابسة . فان النظر اذا وقع عليها وهي متسترة وقفت معه المخيلة عند حدّ ما . بخلاف العريانة فان المخيلة والقلب عند النظر اليها يطيران عليهـــا ولا يقفان على حدٍّ فالمخيلة تتصور اشياء والقلب يشتهي اشياء اخرى . وللمجيب ان يقول ان ذلك انما نشا عن الفرق الحاصل بين الوجه والجسم . فان الجسم من حيث كونه اكبر من الوجه اقتضى طيران المخيلة اليه : وحومان القلب عليه . وردّ هذا القول جماعة منهم الصباباتي والمباعـليّ والالغزيّ وابو إرّبان كبر الجسم هنا ليس سبباً للطيران والحومان.اذ لو لم يبدُ منه الا موضع واحد لكفى . فبقي الاشكال غير مدفوع . واجيب بان العلة في ذلك انمـا هي لكون الجسم جسما والوجه وجهاً .وسُفّه هذا القول فانه تحصيل للحاصل وقيل انما هو لكون الوجه محلاّ لاكـثر الحواس . ففيه مخزن الشم والذوق والبصر وقريب منه مخزن السمع . وارتضاه جماعة منهم العَزِهي والتيتاي والذَوْذخي . وردّ بان هذه الحواس لا مدخل لها هنا . فان المراد من كونية المرأة لا يتوقف عليها اصالة فهي مستغنى عنها . وقيل انما هو لكون الجسم يحوي اشكالاً كثيرة ففيه الشكل القمقمي والرمّاني والقرموطي والاطاري والخاتمي والقبي والعمودي والهدَفي والصادي والميمي والمدرّج والمخروط والهلاليّ ومنفرج الزاوية .وردّ بانه كقول من قال انه اكبر من الوجه وجوابه

كجوابه . وقيل انما هو لكون العادة الاغلبية هي ان يكون الوجه حاسراً والجسم مستوراً . فاذا رأى الانسان مــا خالف العادة هاجت خواطره وطارت افكاره . وقيل غير ذلك والله اعلم . ويحتمل ان هذه القاعدة التي استدركت ذكرها غير صحيحة فياليتني نسيتها فان ذكرها اوجب المناقشة بين العلماء .

والحاصل ان الغرام البرقعي لما باض وفرخ في رأس الفارياق غرّدت اطياره عليه لان يتخذ له آلة لهْو . فما عتم ان تأبّط له طنبوراً صغيراً من السوق وجعل يعزف به في شباك له مطلّ على دار رجل من القبط وكان عندالخرجي خادم مسلم قد عشق ابنة القبطي فغار عليها من الطنبور فسعى بالفارياق الى سيده قائلاً اذا سمع المارُّون في الطريق صوت الطنبور من دارك ظنوا انهـا دسكرة او حانة او ثُكنة (مركز الاجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم الخ) لا دار للخرجيّين . لان هذه الآلة لا يستعملها غير الترك . فشكره الخرجي على ذلك واستصوب ما قاله واوعز الى الفارياق بالغاء الآلة فالغاها وجعـل يفكـّر في التملـّص من ايدي هذه الزمرة التي لم يبرح اذاها واصلاً اليه من كل شبّاك سواء في الجزيرة والارض ثم بعد ايام قليلة هرب الخادم بالبنت وتزوج بها بعد ان اسلمت والحمد لله رب العالمين .

٥

في وصف مصر

قد وصف مصر كثير من المؤرخين المتقدمين ومدحها جمّ غفير من الشعراء الغابرين وها انا اليوم واصفها ومادحها بما لم يسبقني اليه احد من العالمين فاقول انها مصر ، من الامصار . او مدينة من المدن او مَدَرة من المَدر. او كورة من الكُوَر او قصبة من القَصَب . او بَحْرة من البُحَر. او ماهة من الماهات او قرية من القرى او قارية من القواري او عاصمة من العواصم او صقع من الاصقاع او دار من الديار او بلدة من البلاد او بلد من الابلاد . او قطر من الاقطار او شيء من الاشياء. غير ان اهلها يقولون انها مصر الامصار ومدينة المدن وعاصمة العواصم وشيء الاشياء الى آخره. وما ادري فرق ذلك وكيف كان فانها مدينة غاصة باللذات السائغة متدفقة بالشهوات السابغة توافق المحرورين من الرجال خلافا لما قاله عبد اللطيف البغدادي . يجد بها الغريب ملهى وسكناً وينسى عندها اهلا ووطنا ومن خواصها ان ما يذهب من اجسام رجالها يدخل في اجسام نسائها فترى فيها النساء سمانا كالاقط بالسمن على الجوع والرجال كالحشف بالشيرج على الشبع ، ومنها ان اسواقها لا تشبه رجالها البتة. فان لاهلها لطافة وظرافة وادبا وكياسة وشمائل مرضية واخلاقا زكية واسواقها عارية عن ذلك رأسا . ومنها ان ماءها لا يشبه عيشها اي خبزها . فان الاول عذب والثاني تافه . ومنها ان العالم فيها عالم والأديب اديب والفقيه فقيه والشاعر شاعر والفاسق فاسق والفاجر فاجر . ومنها ان نساءها يمشين تارة على الارض كسائر النساء وتارة على السقف وعلى الحيطان. ومنها تذكّر المؤنث وتأنث المذكر مع أن اهلها متقنون للعلم وأي اتقان .ومنها

ان حمّاماتها لا تزال تقرأ فيها سورة او سورتان من القرآنفيها ذكر الاكواب والطائفين بها. فالخارج منها يخرج طاهرا وجنبا. واعجب من ذلك ان كثيراً من رجالها ليس لهم قلوب. وقد عوّض الواحد منهم عن قلبه بكتفين وظهرين وباربعة ايدي واربعة ارجل . ومن ذلك ان كثيراً من البنات اللائي يغسلن اقمصتهن في بعض مجاري النيل يتعمّمن بقمصانهن بعد غسلهن ويمشين عريانات . ومنها ان قوماً منهم بلغهم ان نساء الصين يتخذن او بالحري يُتّخذ لهن قوالب من حديد لتصغير ارجلهن عن المقدار المعهود. فجعلوا يشدّبون اصابعهم واعتقدوا ان اليد اذا كان بها اربع اصابع فقط كانت اخف للعمل وانفع لصاحبها. مع ان الاصابع والكفوف عندهم ليست مما يكسى حتى تقضي عليهم بزيادة النفقة. كما هو شأن الافرنج الذين لا يغادرون عضوا من اعضائهم الا ّ ويكسونه احتفالاً به وتفخيماً له او حذرا عليه من العدوى . ومن ذلك اي من الخواص لا من الاعضاء ان البنات اللائي يُستَخدمن في الميري لحمل الآجر والجبس والتراب والطين والحجر والخشب وغير ذلك ، يحملنه على رؤوسهن وهن فرحات جامحات راحات سابحات صادحات مادحات مازحات . غير آحّات ولا ترحات ولا دالحات ولا رازحات ولا كالحات ولا نائحات . ومن كان نصيبها من الآجرّ نظمت عليه موالا اجرّيا . او من الجبس غنّت له اغنية جبسية . كانما هن سائرات في زفاف عروس .

ومن ذلك ان فيها ديوانين عظيمين يقال لكل منها الديوان المخدّمي . فالديوان الاول قيّمه رجل يجهز للرجال ما يلزمهم لتبريد فرشهم من هو . والديوان الثاني وهو دونه في القدر والشأن قيمته امرأة تجهز لهم ما يلزمهم لتسخينهم من هي . وأصل منشيء الديوان الاول عجميّ. وقد صار الان من الشهرة والنباهة عند العرب بحيث انك لا تزال تسمع بذكره والثناء عليه في كل مقام ولا يكاد يخلو منه مجلس انس او غناء او ادب. ومن ذلك انالبرنيطة فيها تنمى وتعظم . وتغلظ وتضخم وتلسع وتطول وتعرض وتعمق . فاذا رأيتها على راس لابسها حسبتها شونة . قال الفارياق وكثيراً ما كنت اتعجب

من ذلك واقول : كيف صح في الامكان وبدا للعيـــان ان مثل هذه الروس الدميمة . الضئيلة الذميمة . الخسيسة اللئيمة . المـَهينة المُليمة . المستنـكرة المشئومة . المستقذرة المهوّعة . المستقبحة المستفظعة . المستسمجة المستشنعة . المسترذلة المستبشعة . تقل هذه البرانيط المكرمة . وكيف انماهـا هواء مصر وكبرها الى هذا المقدار. وقد طالما كانت في بلادها لا تساوي قارورة الفراش. ولا توازن ناقورة الفـَراش . وكيف كانت هناك كالترب . فاصبحت هنـــا كالتبر . يا هواء مصر يا نارها يا ماءها يا ترابها صيـِّري طربوشي هذا برنيطـة وان يكن احسن منها عند الله والناس وافضل . واجلّ وامثل . وللعـــين ابهى واكمل . وعلى الراس اطبق . وبالجسم أليق . وغير ذي قرون تتملـّق لتتلمـّـق . ويُزرق عليها لتزرق . قال فلم يغن عني النداء شيئاً وبقي راسي مطربشا. وطرف دهري مطرفشا. ومن ذلك ان قوما من الهُكـكاء المهاكيك فيها يرأون ويبرقعون لحاهم ويزاحمون ذوات البراقع على مورد الاناثية. فتراهم يتحفـّفون ويهجلون ويتبازون ويوكوكون ويوزوزون ويباغمون وهم اقبـح خلق الله . ومن ذلك ان لضابط البلد شفقة زائدة على اهلهـا تقرب من حد الظلم . وذلك انه يأمر جميع السالكين في طرقها ليلا ان يتخذوا لهم فوانيس وان كانت الليلة مقمرة . خيفةَ ان يعثروا بشيء في اسواق المدينة فيسقطوا في هوة او جبّ فتنكسر ارجلهم او تندقّ اعناقهم . ومن وُجد ليلا يطوف من غير ذوي البرانيط وليس بيده فانوس غُلـّت رجله الى يده . ويـده الى عنقه . وعنقه الى حبل . والحبل الى وتد . والوتد الى حائط . والحائط الى ناكر ونكير . وتصلية سعير . ومن ذلك ان لبني حنا فيها اسلوبا في الكتابة لا يعرفه احد إلا هم . ولهم حروف كحروفنا هذه إلا انهـا لا تقرأ إلا اذا ادخلها الانسان في عينه كذلك رأيتهم يفعلون. ومنها انه اذا مات منهم احد فلا يزال اهل الميت يندبونه وينوحون عليه حتى يؤوب اليهم ووطبه ملآن من الطريخ . ومن خصائصها ايضاً ان البغاث بهـــا يستنسر والذباب يستصقر . والناقة تستبعر . والجحش يستمهر . والهرّ يستنمر . بشرط ان تكون هذه الحيوانات مجلوبة اليها من بلاد بعيدة .

ومن ذلك ان كثيراً من اهلها يرون ان كثرة الأفكار في الراس يكثر عنها الهموم والاكدار او بالعكس . وان العقل الطويل يتناول البعيد من الامور . كما ان الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره . وان تلك الكثرة سبب في الاقلال . وهذا الطول موجب لقصر الاجال . واوردوا على ذلك براهين سديدة قالوا ان العقل في الرأس كالنور في الفتيلة . فما دام النور موقدا فلا بد وان تنفذ الفتيلة ولا يمكن ابقاؤها إلا باطفاء النور . او كالماء في الوادي . فاذا دام الماء جاريا فلا بد وان ينضب او ينصب في البحر فمتى حُقن بقي . او كالفلوس في الكيس . فما دام المفلس اي صاحب الفلوس يمدّ يده الى كيسه وينفق منه فني ما عنده . الا ان تربط يدهُ عن الكيس او يربط الكيس عن يده . او كالتيس النازي . فانه اذا دام نزوه نزفت مادة حياته فهلك فلا بد من نجفه . فمن ثم اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل في ميدان الدماغ حيناً من الاحيان ليتوفر لهم في غيره . وذلك بشرب شيء من الحشيش او بمضغة او بالنظر اليه او بذكر اسمه . فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ويحضر السرور . وتولي الاحزان . ويرقص المكان . فمن يرَهم على هذه الحالة ودّ لو يُكتب في زمرتهم ويدخل في دائرتهم وان يكن قاضي القضاة . ومن ذلك ان طرقها لا تزال غاصة بالابل المحمّلة فينبغي للسائر فيها اذا رآها مقبلة ان يخلي لها الطريق. او لا فلا يأمن ان يفقد احدى عينيه. وقد ينشأ عن هذا الزحام فوائد كما في حكاية المرأة التي سارت مع امها لتحضر عرس اختها فطالعها من محلها .

٦

في لا شيء

قد كنت اظن اني اذا تركت الفارياق واخذت في وصف مصر استريح فاذا هو هي او اياها . فينبغي لي الآن ان امكث في ظل هذا الفصل الوجيز قليلا لانفض عني غبار التعب ثم اقوم ان شاء الله تعالى .

٧

في وصف مصر

قد قمت حامداً لله شاكراً فأين القلم والدواة حتى اصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح من كل من رآها. لانها بلد الخير ومعدن الفضل والكرم. اهلها ذوو لطف وادب واحسان الى الغريب . وفي كلامهم من الرقة ما يغني الحزين عن التطريب . اذا حيّوك فقد احيوك. وان سلموا عليك فقد سلمّوك. وان زاروك زادوك شوقاً الى رؤيتهم . وان زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلا عن مجالسهم . اما علماؤها فان مدحهم قد انتشر في الآفاق . وفات فخر من سواهم وفاق . بهم من لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح وبشاشة الوجه ما لا يمكن المبالغة في اطرائه . ولكل نوع من الناس عندهم اكرام يليق به سواء كان من النصارى او غيرهم . وربما خاطبوهم بقولهم يا سيدي ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم خلافا لعادة المسلمين في الديار الشامية . وبذلك لهم الفضل على غيرهم . وكأن هذه المزية وهي حسن الخلق ورقة الطبع امر مركوز في جميع أهل مصر . فان لعامتهم ايضاً مخالقة ومجاملة . وكلهم فصيح اللهجة بيّن الكلام سريع الجواب . حلو المفاكهة والمطارحة . واكثرهم يميل الى هذا النوع الذي يسمونه الانقاط . وكأنه المجارزة وهي مفاكهة تشبه السباب وهو اشبه بالاحاجي . فان من لم يكن قد تدرّب فيه لا يمكنه ان يفهم منه شيئاً وان يكن شاعراً . وكلهم يحب السماع واللهو والخلاعة وغناؤهم اشجى ما يكون . فلا يمكن لمن أَلِفَهَ ان يطرب بغيره . وكذلك آلاتهم فانها تكاد تنطق عن العازف بها . واعظمها عندهم هو العود وقلّ اعتناؤهم بالناي . ولهم في ضرب العود طرق وفنون

تكاد تكون من المغيبات . غير اني أذمّ من غنائهم شيئاً واحداً . وهو تكرير لفظة واحدة من بيت او موّال مراراً متعددة حتى يفقد السامع لذة معنى الكلام . ولكن أكثر ما يكون ذلك من المتطفلين على الفن . وبعكس ذلك طريقة أهل تونس فان غناءهم أشبه بالترتيل وهم يزعمون انها كانت طريقة العرب في الأندلس .

ومما ينبغي ان يذكر هنا أن النصارى المولودين في بلاد الاسلام الناهجين منهج المسلمين في العادات والاخلاق هم ابداً دونهم في الفصاحة والأدب والجمال والكياسة والظرافة والنظافة الا أنهم أنشط منهم على السفر والتجارة والصنائع وأكثر اقداماً وجلداً على تعاطي الأعمال الشاقة . وذلك ان المسلمين اهل قناعة وزهد وفي النصارى شره عظيم الى اتخاذ الديار الرحيبة وقنية الخيل النجيبة والجواهر النفيسة . والمتاع الفاخر لا حد لها . فاذا دخلت دار نصراني من المتمولين بمصر رأيت عنده عدة خوادم وخادمين ونحو عشرين قصبة للتبغ من اغلى ما يكون . وقدر نصفها من الاراكيل الثمينة . وثلاث غرفات مفروشات باحسن ما يكون من القماش .وآنية فضة للطعام والشراب والرائحة واسرة عالية وطيئة وثياباً فاخرة وغير ذلك . ومع هذا فلا تجد عنده كتاباً ولو ان مشترياً شاء ان يشتري شيئاً من تاجر مسلم لوجد سعره ارخص من بضاعة النصراني بربع الثمن ولكن وجود هذه الشراهة انما هو في الغالب عند النصارى الغرباء . فاما القبط فانهم اشبه بالمسلمين . وقلّ من تعاطى المتجر منهم .

اما دولة مصر اذ ذاك فانها كانت في الذروة العليا من الابهة والعزّ والفخر والكرم والمجد . فكان للمتسمين بخدمتها مرتب عظيم من المال والكسي والشحن مما لم يعهد في دولة غيرها وكان واليها يولي المراتب العلية وسمات الشرف السنية لكل من المسلمين والنصارى ما عدا اليهود خلافاً لدولة تونس فان شرفها عمّ الجميع : ومع عظم ما كان يكسبه التجار واصحاب الحرف وما يناله اهل الوظائف من الرزق العميم فكانت الاسعار بمصر رخيصة جداً

فلهذا كنت ترى الناس قصريهم وعميهم مقبلين على الشغل واللهو معاً .
فالبساتين غاصة باهل الخلاعة والقصوف ومحال القهوة مجمع للأحباب .
والاعراس مسموع فيها الغناء وآلات الطرب من كل طرف . والرجال
يخطرون بالخز والديباج . والنساء ينوؤن بما عليهن من الحليّ . والخيل والبغال
والحمير مسرجة ومكسوة بالحرير المزركش . الا ان صاحبنا الفارياق لم يكد
يدخل ارضاً سعيدة الا ويخرج منها وقد تغير حالها . فارجع معي الآن
لنخلصه من ايدي الخرجيين . فاني تركته يحاول ذلك منذ حين .

٨

في اشعار انه انتهى وصف مصر

قد غادرنا اي انا وجماعة المولفين الفارياق يحاول ان ينفض الخرج عن ظهره . واني الآن من دونهم علمت انه بات ليلة وهو يفكر في ان كل شيء اثبتته الصنعة فلا بد من ان تقلقله الاحوال فمن عزم على القلقلة . فخرج في الصباح من معزفه واخذ يطوف في الاسواق . ويحرك كتفيه عند كل خطوة ويقول : لا قلبنّه لاطرحنّه . لاركسنّه لابدحنّه . انه انقض ظهري أي قرح أي عقر . هل انا اليوم حمار لحمار يا لنكر . فرآه بعض الظرفاء وهو يحرك منكبيه فقال لا بد لهذا من شأن فاقبل اليه ولطف له المقال حتى استخرج سرّه من سرّته . وعلم حاله وسبب سفرته . فقال له لا عليك فان مصر حرسها الله معدن الخير والبركة . ولكن لا بدّ للفوز بذلك من حركة. قال واي حركة اعظم مما ترى . قال بل الامر دون ذلك .ألك اذن واعيه. وفكرة مدركة وقدم ساعية . قال اجل . قال فاسمع اذاً ما اقول لك .

ان بهذا المصر شاعراً مفلقاً من النصارى له وجاهة ونباهة عند جميع الاعيان.قال ما هذه صفة شاعر وما ارى كلامك الا متناقض الطرفين.فكيف فك هذا المعمى وتأويل هذه الاحجيّة . قال لا تناقض فانه شاعر بالطبع لا بالصنعة . والفرق بين ذلك ان الشاعر بالصنعة هو من يتكسّب بشعره فيمدح هذا ويكذب على هذا حتى ينال منها شيئاً . فاما الشاعر بالطبع فانما هو الذي يقول الشعر لباعث من البواعث دون تكلّف وانتظار للجائزة . قال ليس هذا الفرق مما ذكره الآمدي . قال ابعث الآمدي الى آمد واسمع مني .

قال قد امدّته فما الرشد . قال نصحي لك ان تكتب كتاباً الى هذا العلامة وتلتمس منه فيما تطري بـــه مواجهته فــاذا تكرم بذلك فاذكر له ـ ح ما انت تعانيه واستنجد به . فلا بد من ان يجيبك . فــانه رجل متصف بمكارم الاخلاق ويحب دغدغة الافتخار . ولا سيما انه يرغب في مجالسة ذوي الادب وتيسير اسباب معيشتهم . فتلطف اليه في المقال . وانا ضامن لك ان تفوز منه بالامال . فشكره الفارياق على نصيحته ورجـع الى محـــله راضياً مستبشراً . فلما جنّ الليل اخذ القلم والقرطاس وكتب ما نصه .

اهدي سلاماً لو تحمله النسيم لعطر الآفاق .ولو جعل للبدر هالة لما اعتراه المحاق . ولو مزجت به الصهباء لما اعقب شربها صداعاً . ولو استفّه مريض او لعقه لما لقي برحاء واوجاعــاً . ولو عُلـّق على شجرة لزهت في الحـــال اوراقها ولو في الخريف . ولو سقيه الروض لانبت من كل زهر بهيج طريف. ولو جعل على اوتار عود لاطربت دون عازف.ولو تغُنـّي به في مجلس لاغنى عن المشموم والمعازف ولو علـّق في الآذان لكان شنوفاً . ولو صقل به سيف كليل لجاء رهيفاً . ولو مُثـّل لكان حدائق ورياضاً . وسلسبيلاً ومحاضاً .ولو نيط بالعمائم . لاغنى عن التائم . ولو تختم به ولهان لأجزأه مُجزأ السُّلوان . ولو كتب على رجام لالهى الثاكل عن النواح او على خصر هيفاء لقام لها مقام الوشاح . او على انف مزكوم لما احوجه الى السعوط او على ساق اعرج لكان له من قفزه سبق وفروط . او على لسان ابـكم لانحلت عقدته . او على كف بخيل لهان عليه في البذل ذهبه وفضته . او على اجـــاج لعاد فراتا . او على رمل لانبت الريحان نباتا . وتحيات فاخرة . ذكية عاطرة . ارق من النسيم. واحلى من التسنيم . واشهى من العافية على بدن السقيم . واجلى للعين من الاثمد واغلى للناقد من العسجد.واصفى من الماء الزلال. واعلق بالقلب من امل الوصال. واشغل للبال من هوى ذي دلال.وأزهر من نور الصباح وازهى من نور الافاح . واعبق من شذا الراح. واثمن من الجوهر النفيس واعز عند البستـّي من التجنيس. وعند ابي العتاهية من الزهديات .وعند ابي نواس من الخمريات .وعند الفرزدق

من الفخريات . وعند جرير من الغزليات . وعند أبي تمام من الحكم . وعند المتنبي من جزل الكلم . تهدي الى الجناب المكرم . المقام المحترم . ملاذ الملهوفين . مستغاث المضيمين . ثمال المظلومين . ملجأ المهضومين . منهل القاصدين . مورد الطالبين . ادام الله سعده . وخلد مجده .

وبعد يا سيدي فاني قدمت هذه الديار وانا حامل لخرج قد انقض ظهري وعيل به صبري . ولم اجد من يزحزحه عني ولو قليلا . ولست اجد بنفسي الى التخلص منه سبيلا . وقد هديت الى نور معروفك في جنح هذا العماس . وأنبئت انك انت وحدك معتقي من هذا الارتباس . دون سائر الناس . فهل تسمح لي بأن ازور ناديك الكريم . وابث اليك مشافهة ما بي من البث المقيم والضرّ الاليم . فانك اهل لان تأخذ بيد من لا ناصر له وان تصطنعه لك بالتفاتة تحقق امله . وتنيله ما امّله . وان تتخذه لك ما عاش رهين شكرك ممنون برّك . فهو يرجو ذلك منك رجاء من لاذ بعقوة فخرك . فان رأيت ان تفعل فذلك من احسانك وطول امتنانك . والسلام .

وكتب عنوانه يشرف بانامل سيدي الاكرم الاحسب الافخم الاوحد الافضل الاسعد الامثل الارشد الاكمل الامجد الأجلّ الخواجا فلان ادام الله بقاه بالعز والنعم .

فلما بلغت هذه الرسالة الى الخواجا المذكور وطالع ما في شرح السلام من التشابيه المتكلفة لم يتمالك ان ضحك منها وقهقه وقال لبعض جلسائه ممن الم ّ بالادب : سبحان الله قد رأيت اكثر الكتاب يتهوسون في إهداء السلام والتحيات للمخاطب كانما هم ممهدون له عرش بلقيس او خاتم سيدنا سليمان . فتراهم يشبهونه بما ليس يشبهه . ويغرقونه في الاغراق ويغـلونه في الغلوّ حتى يأتي مبلولاً محروقاً . وربما جاءوا بفقرتين متماثلتين في المعنى كقول صاحب هذه الرسالة الآن ثمال المظلومين ملجأ المهضومين . ثم اذا انتقلوا من السلام الى الغرض اجادوا الكلام الى الغاية . وما ادري ما الذي حسّن لارباب فن الانشاء ان يضيعوا وقتهم بهذه الاستعارات والتشبيهات المبتذلة وينظم الفقر

المتماثلة في المعنى مع ان العالم يتأتّى له ان يبدي علمه بعبارة واحدة اذا كانت رشيقة اللفظ بليغة المعنى . وهذه الف ومائتا سنة قد مضت وما زلنا نرى زيداً يلوك ما لفظه عمرو ، وعمرا يمضع ما قاله زيد . فقد سرى هذا الداء في جميع الكتاب اما تفخيم المخاطب في العنوان بالاجل والامجد والاسعد والاوحد وما اشبه ذلك فله وجه . وذلك انه لم تجر العادة في بلادنا بان يكون تبليغ الكتب على يد البريد . وانما تبعث مع اشخاص ليست لهم خبرة بالطرق ولا بالديار فانها كما لا يخفى عاطلة عن التسمية خطّا . فاذا حملها رجل لا يعرف القراءة طفق يسأل كل من لقيه في الطريق عن اسم المخاطب فان لم يكن العنوان دالا عليه التبس على القارىء فان كثيراً من الناس مشتركون في الاسماء وان كانوا مختلفين في المكارم والاخلاق وفضلا عن ذلك فقد يتفق ان مبلغ الكتاب بعد ان يكون قد سأل غير واحد عن اسم المخاطب ووجدهم كلهم اميين . وبعد ان يكون قد اضاع نصف نهاره في البحث عن الطريق فلا يكاد يهتدي اليه الا ويجد َعو ّنا يترصده حتى اذا لمحه تلقفه وبعثه الى احد الجهات التي اراد . فيبقى الكتاب عنده ثم ينتقل منه الى غيره . وربما لقيَ غيره ما لقيه هو فينتقل الكتاب الى آخر وهلم جرّاً فكان لا بد من الاستقصاء من العنوان عن صفات المخاطب فقال له جليسه اذن يجب يا سيدي ان يذكر في العنوان جميع الصفات فيقال للمخاطب مثلا اذا كان جميلا كيّساً غنيّا رشيق القد كبير العمامة عريض الحزام . الجميل الكيّس الغني الى آخره . فقال اما وصف انسان بالجمال والغنى فهو من الموبقات له . واما بغير ذلك ككبر العمامة وعرض الحزام فليس من الصفات المخصصة اذ الناس في ذلك سواء . وما خالف ذلك فما اولاه بالاستعمال وستراه عن قريب مستعملا ان شاء الله . وهو وان يكن احياناً من المضحكات وذلك كان تصف رجلا مثلا بالزبيبة والكثية والحنطاوية والشرنبثية والكرنيفية والزلهبية والزخزبية والسنطبية والعرزبية والعشجبية والعظيبية والجحوظية والأزطية والسناطية والفُسْحميّة والجهضمية والبرْطامية والحثرمية الا انه احسن من ايقاع اللبس في صفات المخاطب فقد بلغني ان

كثيراً من الكتب التي تضمنت مقاصد مهمة لما لم يدل عنوانها بالنص والتوقيف على ذات المرسل اليه فُتحت ليعلم صاحبها . فكانت سبباً في ضرر المرسل والمرسل اليه انتهت محاورتها.

واعلم هنا ان الخواجا المذكور لما بلغته الوكة الفارياق كان مريضاً فلهذا لم يجبه على الفور فبقي الفارياق ينتظر جواباً اياماً حتى اعتقد ان سجعه كله ذهب باطلاً . اذ لم يكن يعلم السبب وكان في خلال ذلك دائم الفكر والقلق فانا الان ادعه في هذه الحالة منتظر الجواب . وادع صاحبه يتداوى حتى يطيب. واعرّج قليلاً على منازل الالقاب والقاب المنزلة المتعارفة وقتئذ بشرط ان تسمحوا لي بان انتقل الى فصل آخر وهو :

٩

فيما اشرت اليه

حد اللقب عند المشرقيين انه هنة ناتئة او زنمة او علاوة رائدة متدلدلة تناط بكونيّة الانسان . وعليه قول صاحب القاموس العَلاقي الالقاب لانها تعلّق على الناس . وعند المغربيين أي الافرنج انه جُليدة تكوّر في الجسم . وشرح ذلك ان الهنة يمكن قطعها واستئصالها مع السهولة وكذا الزنمة وكذا العلاوة يمكن ركسها وقلبها . فاما الجليدة فلا يمكن فصلها عن الجسم الا بايصال الضرر إلى صاحبه . وحاشية ذلك اذ الشرح لا بد له من حاشية ولولاها لم يفهم له معنى . ان الزنمة عند اهل الشرق غير موروثة الا ما ندر فان لكل قاعدة شذوذاً . والجليدة عند الافرنج متوارثة كابراً عن صاغر . مثال ذلك لقب الباشا والبيك والافندي والاغا بل الملك انما هو محصور في ذات الملقب به فلا ينطلق منه الى ولده . فقد يمكن ان يكون ابن الوزير او الملك كاتباً او نوتياً.فاما عند الافرنج فلا يصح ان يقال لابن المركيز مركيز او مركيزيّ . وقد يجتمع مطلق الزنمة والجليدة في جهة بقطع النظر عن كون الاولى متناهية والثانية غير متناهية . وذلك ان اصل كل منهما في الغالب أكال يحدث في ابدان ذوي الامر والنهي لهيجان الدم عليهم . فلا يمكن تسكين هذا الهيجان وحك هذا الاكال الا باحداث الهنة والجليدة وبيانه ان الملك اذا غضب مثلاً على زيد من الزيدين لذنب اقترفه . ثم بعث اليه ذلك الزيد بشفيع عريان ليترضاه سكّن هذا الاستشفاع ثورة ذلك الغضب . واختلطت الكيفية الهيجانية بالماهيّة العربيّة فانتجتا جليدة لمن كان يخاف سلخ جلده . فتحلى بها بين اقرانه حلية موبدة ولم يخف من تداول القرون

عليه . والغالب في الجليدة ان تحتاج الى جسمين .جسم مغضوب عليه وجسم شافع فيه . والغالب في الهنة ان تحتـــاج الى جسم واحد فقط ومن الهنات هنات كنائسية وهي على نوعين ترابية وهوائية فالترابية ما كان لها مستقر او اصــل في التراب فتنمى فيه وتثمر وذلك كأن يكون جاثليق من الجثالقة مستقرّاً في دار او دير وله أمرة على اناس يؤدون اليه عشورا ونحوهفهو يأمر فيهم وينهي ويحكم ويقضي بحسب الاقتضاء او بحسب ما يعنّ له ولا بدّ وان يكون عنده كاتب يعي اسراره وطباخ يشد فقاره وخـــازن يخزن ديناره وسجن يحبس فيه من خالفه في رأيه او انكر عليه اطواره . وما اشبه ذلك والهوائية عكس ما تقدم وذلك كهنة المطران اثناسيوس التتونجي صــاحب كتاب الحكاكه في الركاكه فان سيّده قلّده في هذه المهنة ليحكم بها في مدينة طرابلوس الشام غير انه ليس في هذه المدينة احد من اهل مذهبه حتى يؤدي اليه عشوراً أو يطبخ له طعاماً او يكتب له رسالة فهو متقلد بها لمجرد الزينة فقط جرياً على عادة بعض المتقدمين الذين كانوا يطلقون هنة الامير على راعي الحمير . وزنمة الملك على شيخ قرية عَفِك . والغرض من ذلك كلــه انفراد شخص عن غيره بصفة ما . واذ قد عرفت ذلك فاعلم ان الخواجا والمعـــلم والشيخ ليست القاباً معدودة في الهنات ولا في الجليدات اذ ليس في تحصيلها ما يحتاج الى شفيع او اختلاط اكالّ بماهية عربية . وانما هي خرقة تستر عورة الاسم الذي اطلق على المسمّى وهي غير مخيطـة فيه ولا مكفوفة ولا مشرّجة ولا ملفوفة . بل هي كالبطاقة شدت الى لابسها ليُعرَف بها سعره . الا انه كثيراً ما يقع الغلط في الصاقها بمن ليس بينه وبينها من علاقة . فاهل مصر مثلاً يطلقون لفظة معلم على نصارى القبط .وكلهم غير معلم ولا معلم اذا قلنا انه مشتق من العلم . فاما اذا كان اشتقاقها من العلامة بلا مشاحة.ولفظة خواجا على غيرهم واصل معناها كالمعلم فبقي الاعتراض في محله . فامــا لفظ الشيخ فانه في الاصل صفة من اسنّ . ثم اطلق على من تقدم في العـلم وغيره مجازاً عمن تقدم في السن . فان الطاعن في السن يستحصف عقله ويستحـــكم رأيه وان انكره النساء . فنُقلت مزيّته الى من باشر العلم . والذي يظهر لي

بعد التأمل ان في الهنات والجليدات لضرراً عظيماً على من تحلى بها وخلا عنها، الدليل الاول ان المتصف بها يعتقد بمجامع قلبه انه افضل من غيره خَلقاً وخُلقاً. فينظر اليه نظر ذي القرن الى الأجمّ. ويستكفي بهذه السمة الظاهرة عن ادراك المناقب المحمودة والمزايا الباطنة، ويخلد بها الى البلادة واللذات الموبقة. الثاني انه لو نشبت فيه ربقة زحل يوماً من الايام ودارت به دوائره فان لم يجد ذات جليدة مثله لم يمكنه الجلد مع غيرها. وربما كان يهوى جارية عنده جميلة في المطبخ او في الاسطبل فيحرمه منها ابوه او منصبه او اهله او اميره فيقع تعطيل على اهل الجمال. وهو امر مكروه بل قد جزم بتحريمه جميع العلماء. الثالث انه قد يتفق ان يتزوج بذات جليدة معسرة مثله غير موسرة. فاذا ولدت له اولاداً لم يمكنه ان يحضر لهم شيخاً يعلمهم في داره. ويستحيي ان يبعثهم الى المكتب ليتعلموا مع جملة اولاد الناس. فتغدو اولاده من العجاوات ويتسلسل ذلك في ذريتهم الى ما شاء الله. الرابع ان الهنة والجليدة تقضيان على المتصف بهما بنفقات لاقّة. وتكاليف شاقة. تفضي به الى التفريط والاسراف. والتهالك والاشراف. وربما اوصلته أخيراً الى انشوطة حبل من مسد. الخامس ان الانسان من اصل الفطرة ليس له هنة ولا جليدة فاحداثهما فيه بعد ذلك امر مغاير للطبيعة. او في الاقل من الفضول او من البطر. وهناك ادلة اخرى اضربنا عن ايرادها خوف الاطالة. فقد تبين لك ان الخواجا المشار اليه كان غير ذي هنة ولا جليدة. ولعله كان يحصل على احداهما لولا ميله بالطبع الى الأدب. ولكن لكل شيء آفة.

١٠

في طبيب

مصح الله ما بك من السقم يا خواجا ينصر او مسح او مزح . على حـدّ من قرأ الصراط والسراط والزراط . ومن قال اجعلي فديتك بصاقاً او بساقاً او بزاقاً . انك غادرت الفارياق في وسواس وبلبال . فهو ينتظر الجـواب منك في الغدوّ والاصال. قال اني ليحزنني كثيراً ان قد بلغني كتاب صاحبك وانا محموم موجع الرأس فلم يمكن لي ان اعجل اليه بالجواب . وكان بودي لو افعل ذلك معماكنت اعانيه غير ان الطبيب رسولعزرائيلمنعني من الحركة . ولكن لا بدّ من ان تسمع قصتي مع هـذا القرنان . وهي اني اتخمت يوماً من اكلة برغل اخذتها بجذافيرها فاصبحت وبي غثيان .

واتفق ان زارني فيصباحذلك اليوم بعض الامراء الذين ينبغي ان يقال لما اثبتوه نعم في موضع لا ولمـا نفوه لا في موضع نعم . فرآني على تلك الحالة فقال ما بك ؟ فاخبرته الخبر . فقال عليك بطبيبي الساعـة فهو امهر الاطباء لانه قدم من باريس منذ ايام . ولولا ذلك لما اتخذته طبيباً لي ولأهلي . قلت من عادتي ان اصـبر على المرض الخفيف اياماً وأستعين على معالجته بالاحـتماء والتوقي، فقد يكون في ذلك ما يغني عن العـلاج . فاني ارى هؤلاء الاطباء يعالجون الامراض بالخرص والتخمين . فما يهتدون الى العلة والمعلول الا بعـد ان تبلغ الروح الحلقوم . فيجربون مرة دواء ومرة اخرى غـيره . قال لولا ان المرض قد بلغ منك ما قلت هذا الكلام فلا بد من احضاره الآن . ومـا زال بي حتى بعثت اليه خادمي حياء وخجلاً . ثم خطر ببـالي ان الآدِب

عندنا من فرط كرمه قد يجبر المأدوب على الاكل . وربما ألقمه بيده ما تعافه نفسه . ولكن لم اسمع ان احداً تكرم بان يجبر غيره على علاج . فلم اتمالك ان ضحكت . قال ما اضحكك . قلت لا شيء . قال ما احد يضحك من لا شيء فلا بد وان يكون هناك شيء . قلت فكرت في ذلك الطبيب الذي عاد مريضاً فقال لاهله آجركم الله في مريضكم . فقالوا انه لم يمت بعد . قال يموت ان شاء الله . فضحكت . قال لا عليك فان هذا الطبيب ليس مثال ذاك . وبعد فانك عزب ليس لك اهل حتى يقول لهم ذلك .

ثم ما عتم الخادم ان جاء به وهو اشد مني مرضاً ونحولاً . فالظاهر انه لم يكن له شغل حتى يخرجه من داره . فلما ان دخل جس نبضي ونظر الى لساني ثم زوى ما بين حاجبيه واطرق الى الارض وهو يهس اي يحدث نفسه . ثم رفع رأسه وقال لخادمي هات الطست. قلت ما تريد ان تفعل وانا صاحب جثتي افلا تشاورني . قال انه الفصد او الرمس . قلت هداك الله يا شيخ انها اكلة برغل مع اللحم مما تسميه الناس كبيبة. قال انا اعرف ذلك انا اعرف، انكم يا اهل الشام كلكم تموتون بهذه الكبة . فقد شيعت بها حين كنت في بلادكم اكثر من مئة جنازة . نعم هي الكبة . قلت في عجانك ان شاء الله . قال لا تدخل الكبة في عجيني مطلقاً . فالتفتُ الى الامير وضحكت فظهر لي انه هو ايضاً لم يفهم . وفي الاختصار فانه ما زال هو والامير يخطئان رأيي حتى استسلمت للهلكة ومددت يدي. فاعمل فيها مبضعه اعمال السكين في بطيخة . فخرج الدم متبعقاً حتى دخل في عينيه فاطلق يدي وذهب ليغسل وجهه . ثم جاء بعد هنيهة وقد غشي عليّ . فتداركني خادمي بماء الزهر وغيره والامير ناظر الى دخان تبغه والطبيب يساره . فلما افقت ربط يدي وخرج مع الامير وقالا احترز لنفسك فانا نعودك عن قريب . فقلت في نفسي لا اعادكما الله .

فلما كان الغد جاء الطبيب متأبطاً اعشاباً . فقلت ما هذه الاعشاب . قال حقنة . قلت تكفيني واحدة . قال ان الامير يقول لك ينبغي ان تحتقن

ان لم يكن لنفعك فلاكرامه . فقلت في نفسي لا بأس باكرامه في الحقنة . الا انه قد خالف العادة مرة اخرى فان عادة المزور ان يحلف الزائر باسم الله واسماء ملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر وبالبعث، ان يأكل اويشرب شيئاً على اسمه . وهذا زائر يلحُّ علي بالاحتقان . ثم استعملت الحقنة . ثم وافاني اليوم القابل ومعه حقة . فقلت وما بيدك . فقال مسهل مما اصنعه للامير . فاستففته .

ثم جاءني في الغد وليس بيده شيء . فاستبشرت وقلت له وقد وَهَنت مني القوى بقوة المسهل . قال ينبغي ان تتخذ اليوم حماماً في غاية السخونة لكي تعرق ، وقد جربته في ذوي الامير فوجدته بعد المسهل انفع ما يكون. ثم تولى هو بنفسه تسخين الماء وانزلني في مغطس كنت اتخذته لنفسي . فلما دخلته لفحني حرّه حتى غشي علي بعد ان سمط جلدي . فأخرجت منه على رمق من الحياة . فتداركني خادمي بالمشمومات حتى افقت .

ثم جاءني في الغد وليس بيده شيء ففرحت ايضاً وقلت لعله قد نفذ ما في وطاب علاجه ، وكان الحمام آخر ما عنده . فسألني عن حالي . فقلت هو كما ترى . قال عليل . قلت واي عليل . قال ينبغي ان تفصد . فسقط عليّ كلامه كجلمود صخر حطه السيل من عل . وقلت كأنك تهم باعادة ما صنعته اولاً فمتى ينتهي هذا الدور ؟ قال لا بد ان احد هذه العلوج (جمع علاج) يزيل ما بك . قلت اجل اما الاول فهو انت ، واما الثاني فهو دمي او روحي . ثم تجلدت وتمنعت وقلت له قل للامير اني والحمد لله عزب فلأي سبب يحاول تسفيري سريعاً فلم يفهم . وقال اني اريد ان افصدك لا ان انقل عنك . قلت فانا لا اريد فأرحني اراحك الله .

فاولاني كتفه وولى ثم لم يلبث ان بعث الي برقعة الحساب وتقاضاني فيه خمسمائة قرش . فانه زعم ان عنده ناساً في الريف من الفلاحين يجمعون له تلك الاعشاب مع انها مما ينبت على حيطان ديار القاهرة . وما كفاه ذلك حتي توعدني باني اذا تأخرت عن قضائه كما تأخرت عن الفصد الثاني يرفع

القضية الى ديوان قنصله . فنقدته المبلغ المذكور بتمامه ، وقلت لا بارك الله في الساعة التي ارتنا وجوه العجم وادبارهم .

وها انا اليوم والحمد لله احسن حالاً ومرادي ان اجتمع بصاحبك، ولكن لا بد من اكرامه قبل الزيارة . ثم امر غلامه بان ينتقي تختاً من الثياب الفاخرة وان يتوجه بها الى الفارياق فانه كان وقتئذ مبرنطاً ، ثم كتب له رسالة وجيزة مع ابيات قليلة تتضمن استدعاءه الى مجلسه في اليوم القابل وتفصيل ذلك يأتي في الفصل التالي .

١١

في انجاز ما وعدنا به

كان للفارياق صاحب من الديار الشامية يتردد عليه . فلما وفد الخـــادم بالرسالة وتحت الثياب كان هو حـــاضراً . فقال للفارياق انا اذهب معك الى الخواجا ينصر فقد سمعت بذكره غير مرة واحبّ ان اراه . فقال له الفارياق ولكن لعل في الازواء اساءة ادب في حق المزور . [1] فان المدعوّ لا يليق به ان يستصحب احداً معه . قال لا بأس فان هذه عادة الافرنج فاما في مصر فيمكن للمدعو ان يستصحب ايا شاء. وللمستصحب ايضاً اذا لقي واحداً في الطريق من معارفه ان يستصحبه ولهذا أيضاً ان يستصحب آخر وللآخر آخر حتى يصيروا سلسلة اصحاب بحيث لا يكون في السلسلة حلقة انثوية . وكلهم يكلمون المزور من دون محاشاة وينالون منه الاكرام ويترحب بهم . ولا يمكن ان يسأل احداً منهم فيقول له وانت ما حاجتك وايّ كتاب وصاة عندك اليّ . وما اسم زوجتك او اختك وما سنهن . وفي أي حـــارة يسكن كما تفعل اصحابك الافرنج . فلا تخش من الرجل جبهاً . وبعد فان لنا عليه دالة الادب . فهي تغنينا عن دالة النسب . فأجابـــه الى ذلك وسارا اليه معاً . والفارياق يرفل بثيابه وقد اتخذ له عمامة كبيرة . فتذكر يومئذ عمامته بالشام وسقطته تلك المشؤومة . فلما استقر بمجلس المشار اليه بعد الترحيب والتلقي بالبشر والبشاشة . وبعد معاقبـــة اوحشتنا لآنستنا . ومداركة آنستنا لا وحشتنا ، ومواترة سلامات طيبين، وموالاةطيبين سلامات ، كما جرت العادة

---

(١) أزوى الرجل جاء ومعه آخر .

عند الخاصة والعامة . قال الخواجا للفارياق . قـد سرّني قدومك الى هـذه الديار والله سبحانه وتعالى قد اسبغ عليّ نعمته لاشركك فيها . فقد قـال الشاعر :

قالوا البعال ألذّ شيءيشتهى فاجبتهم هذا ضلال بيّن
اسداء معروف الى ذي حاجة اشهى وابقى وهو امر هيّن

على اني لا اقول ان بك حاجة اليّ لكني لحنت من شكواك انك محتاج الى ذي مروؤة يواسيك او يسليك أو يتوجع . وقد وجب عليّ القيام بما يسليك ما انت معانيه . سواء كان ذلك بالمواساة او بالنصيحة . ولا سيما انه قد ظهر لي انك منشّم في طلب العلم . وقد عانيت القريض . ولكن في كلامك مـا انتقدته عليك . وليس هذا وقت نقد وتقييد .

وانما اسألك أي كتاب من الادب قرأت . فابتدر صاحبه وقـال قرأ كتاب بحث المطالب فقال له لقد عجلت في الجواب . فـان هذا الكتاب في النحو لا في الأدب . ألا انكم يا تلاميذ الجبل تحسبون أن من قرأ هذا الكتاب فكأنما قد استوعب العربية كلها دون افتقار معه الى شيء من كتب اللغـة والادب والشروح . وان الطالب منكم اذا أراد ان ينمق كتاباً أو خطبة فانما يستعمل بعض اسجاع مبتذله ساكنة الرويّ . خيفة ان يلتبس عليه المرفوع بالمنصوب . ويتطالل الى بعض استعارات باردة . وتشبيهات جامدة . حشوها الالفاظ الركيكة والمعاني المتقلقلة من دون معرفة ما يستعمل من الفعل ثلاثياً أو رباعياً . وما يتعدى به من حروف الجرّ .

فعند قوله هذا تذكر الفارياق قول المطران لقيعر قيعار واولجت فيهـا . فذكرها للخواجا المذكور فغلب عليه الضحك حتى فحص الارض برجله . ثم قال نعم واني لفي كتب الكنيسة كلها اغلاطاً فاضحة من هذا النوع . فقـد قرأت في كتاب منها عن بعض الرهبان انه كان من التواضع على جانب عظيم حتى انه كان كلما مرّ عليه رئيسه يقوم وينتصب عليه ، أي له . وعن آخر

أنه بلغه عن راهبة ما أنها كانت ذات كرامات ومشاهدات . فكان يستمني دائماً ان يراها ، اي يتمنى . وعن آخر انه كان خرج من ديره وغاب عنه مدة طويلة ثم رجع فوجد رئيسه الاول قد مات وولى رئاسته أحد أصحابه. وأنه بعد ان تفاوضا وتباشرا قلده الرئيس خدمة تهبيب الرهبان ليلاً . أي ايقاظهم من هبّ اذا قام . وعن بعض المطارنة انه كان اذا وعظ فيالكنيسة ينتعظ له كل من يسمعه ، أي يتعظ . وغير ذلك مما لا يحصى بل قد ورد في الانجيل وكلام الرسل كلام فاسد المعنى ومنشاه فيما أظن جهل المعرّبين . فمن ذلك ما ورد في انجيل متى خطاباً عن المسيح عم . احذروا لا يضلكم أحد فانه سيأتي باسمي كثيرون قائلين انا هو المسيح فلا تصدقوهم . والمراد انيقال ان كثيراً ينتحلون اسمي فيدّعي كل منهم بانه هو المسيح . وشتان ما بين الكلامين . وفي رسالة مار بولس الى طيموتاوس . ولتكن الشمامسة ازواج زوجة واحدة . ومقتضاه اشتراك الشمامسة في بضع واحد . معاذ الله ان يكون كلامي هذا ازدراء بالدين وانما أوردت ذلك شاهداً على جهل من عرب والـّف من أهل ملتنا . نعم ان بعض المطارنة قد الفوا تآليف مفيدة جوّدوا عباراتها وحرروا معانيها. الا ان الجمهور منأهلالكنيسةجهال اغبياء لايعجبهم الا الكلام الفاسد الركيك . ولقد افضى بنا هذا الاستطراد الى غير الغرض .

فلنعد الى ما كنا بصدده وهو اسعافك أيها الخدين بما يريحك من حمل الخرج . هل لك في ان تكون كاتباً عند رجل من السّراة الاغنياء يريد أن ينشي ممدحاً يكتب فيه بلغات مختلفة مساعيه ومعاليه . فيكون شغلك فيه في كل يوم نظم بيتين او اكثر بحسب الاقتضاء . قال فقلت اني يا سيدي ما بلغت من العلم ما يؤهّلني الى هذه الرتبة . ونحن هنا في بلد العلم والادب فاخشى ان يتصدى لي قوم يزيفون كلامي ويخطئونني . فاخجل والله بعدها من أن انظر الى وجه مخلوق من البشر . فاني رجل احب الخمول وان بضاعتي في ذلك لمزجاة . قال لا تخش من ذلك فان أهل مصر وان كانوا قد تقصّوا حدّ العلم وبرعوا في الفضل والادب على غيرهم . الا انهم لا يتعنّتون على الناظم

أو الناثر بلفظة يخل فيها عفواً . أو بمعنى يخطي فيه سهواً . فانهم أهل سماح ومياسرة . على أن من نبغ في الشعر ان لم يلق من ينتقد قوله مرة ومن يخطئه اخرى فلا يمكنه ان يصل إلى مرتبة الشعراء المجيدين . ولو بقي ينظم ابياتاً ويودعها سمعه فقط لما عرف الخطأ من الصواب قط . فلا يكاد احد يصيب الا عن خطأ . وقد جرت العادة بين الشعراء بان ما يستهجنه بعضهم من المعاني والالفاظ يستحسنه البعض الآخر . فلا يزال الشاعر والمؤلف بين اثنين عاذل وعاذر . ومخطّي ومصوّب . ومفسّق ومبرّي . ومعترض ومناضل . وراتق وفاتق . وممزق ورافيء. وخارق وراقع. وحاظر ومسوغ . ومضيق وموسّع وقائل لمَ وقائل لأن . حتى ترجع حسناته سيئاته . وتتداول الناس ابياته . وقد طالما حاول الشهرة اناس بالقول المردود . والكلام المقصود . فمنهم من نظم ابياتا مهملة اي عارية عن النقط فاهملت . ومنهم من التزم فيها الحبك بان يجعل في اول كل بيت منها حرفاً من حروف اسم الممدوح فتركت والغيت . ومنهم من جعل دابة التجنيس والتوريات البعيدة فردّت وزيفت . واكتفوا من ذلك بمجرد الشهرة بين قومهم ولم يبالوا بالتعرض للّوم والتفنيد.

واني اعيذك من ان تعدّ في جملة هؤلاء . فاني رأيت في انشائك نزوات افكار لطيفة تدل على قريحة جيدة . وسليقة متوقدة . وبعد فمن ذا الذي ما ساء قط . قال فقلت والله ان لك عليّ لمنتين عظيمتين الاولى عنايتك بمعاشي . والثانية تنشيطك اياي الى النظم . فقد كنت جزمت بان لا أقول الشعر الا مكتوماً عن الناس وها انا لك يا سيدي من الشاكرين . وبكرمك من الزائرين . ثم انصرف من عنده داعياً له وقد اضمر مفارقة الخرجي في اليوم القابل .

١٢

في ابيات سرية

لم يكن لصاحبنا الفارياق عند الخرجي من الاثقال الا جثته فقط . فلذا تأبّط طنبوره ووضع دواته في حزامه وقال له. قد اعانني الله واراني طريقاً غير التي طرقتها لي انت وحزبك الخرجيون . فانا اليوم مفارقك لا محالة . قال كيف تفارقني وما اسأت اليك في شيء . قال هذا الطنبور يشهد عليك بأنك سؤتني.قال ان العازف به لا تقبل له شهادة فكيف تصح شهادته هو مع كونه سبباً في جرح شهادة صاحبه . قال بل تصح كما صحت شهادة حجر ابائك . وانه لينطق بمساويك كما نطقت اتان جدّك . وبدك حصون عنقاشيتك كما دكّ المدن برق ربيبك . قال ما هذ الكلام . قال وحي والهام . قال لا باس في ان تعزف به فقد علمت ان الخادم عن حسد شكاك . قال بل اني عازف به عند من يقولون لي زِد ويعاد واحسنت والله . لا عند عجم لا يذكرون اسم الله الا في الابتهال . قال قد خلّطت واشططت . قال قد فرّطت وقسطت . قال انك كنود . قال انك من اليهود ثم ولّى عنه وهو سامد الرأس جاحظ العينين من الغيظ .

وسار واكترى محلا آوى فيه الطنبور وتوجه الى الممدح فما استقرّ به المجلس الا وورد بشير اليه وبيده رقعة فيها بيتان يراد ترجمتها.فلما عرضا على مترجمي اللغات العجمية وادّيت ترجمتها الى جهبذ الممدح انتهت النوبة اخيراً الى الفارياق . فأخذ القلم وكتب :

ركب السريّ اليوم خير جواده　　　يا ليته منا امتطى اكتافا

إذ ليس فينا رامح أو رافس بل كلنا يغــدو به رفافا

فلما قابل الجهبذ هذين البيتين بالاصل وجدهما يشتملان على المعنى اشتمال البطن على الجنين او الامعاء على العَفَج .مع عدم الحشو بالالفاظ التي يستعملها الشعراء غالباً لسد ما في ابياتهم من الخلل . فاعجب بها جداً وقال . همـــا حريّان بان يفضلا على الترجمة العجمية . فاني لا ارى فيها الا معاظلة الفاظ ولكن لعل هذه عادة القوم فدعهم وعادتهم . غير انه لما اشتهر البيتان عند اهل النقد اعترض بعض ان قوله رامح او رافس من الالفاظ المترادفة فتكون الاولى او الثانية لغواً . فالاولى ان يقال جامح او رامح وفيه مع ذلك سجع. واجيب بان للفظة رامح معاني كثيرة منها الثور له قرنان واسم فاعــــل من رمح اذا طعن بالرمح او صار ذا رمح.ورمح البرق لمع ورُدّ بان الثور ليس له مدخل هنــا بقرنيه . فان الناس لا تركب الثيران وان اشار اليه المتنبي في الغبب . واسم الفاعل بمعنى طاعن لا يناسب المقام . لان المركوب لا يكون طاعناً .

ثم ورد في اليوم القابل بشير ثان معه رقعة فيها بيتان اخران فقال الفارياق :

قام السري مبكّراً لصبوحه فارتجت الارضون من تبكيره
أو ما ترى ذي الشمس من شباكه مدّت اليه شعاعها لسروره

فاعترض على البيت الثاني انه غير لفق للاول . واجيب انه متفرّع عليه ومرتبط به . لان الارضين لما ارتجت وخشي العالمون سطوته ترضّته الشمس بشعاعها . وردّ بان ترضي الشمس كان متراخياً عن ارتجاج الارضين فلا يفيد. واجيب بان الترضّي حاصل على أي حال كان . فان الشمس لا يمكنها ان تطلع قبل وقت الطلوع . وضحك قوم من هذا التعليل .

ثم ورد في اليوم الثالث بشير آخر فقال الفارياق :

نام السريّ مهنئاً بالامس لم يخطر بخاطره الشريف هموم

ان نام نامت أمة الثقلين أو   أن قام قامت والكري[1] جريم

فاعترض على لفظة الثقلين انها ثقيلة . وان امّة حقها ان تكون امتاً . ورد بان اللفظة خفيفة ولا عبرة في كونها مشتقة من الثقل .

ثم ورد في اليوم الرابع بشير آخر فقال :

شرب السريّ فحلّ شرب المُسْكِر   فاستغن عن فتوى الفقيه المنكِر
واذا اصرّ على الخلاف محرّمٍ   فاعمد الى حدّ الحسام الابتر

فاعترض عليه انه مبالغة قبيحة تفضي الى الكفر وتعطيل الشرع . واجيب عنه بانه طبق الاصل .

ثم ورد في اليوم الخامس بشير آخر فقال :

خرج السريّ مع السرّية ماشيا   غلسا الى الحمام كي يتنعما
من كان يدعك مرّة جسميهما   خَلِقَت يداه على المدى ان تلثما

فاعترض عليه ان الاولى ان يقال ماشيين . ورد بانه لا محظور منه فان السري هو الاصل بدليل تغليب ماشيين . ثم اعترض ان الافصح ان يقال جسمها او اجسامها. واجيب بان الافصح لا ينفي الفصيح ثم قيل انه ارتكب ضرورة بحذف حرف الجر في المصراع الاخير اذ حق الكلام ان يكون خلقت يداه بان . على ان تثنية اليد هنا لا معنى لها فان الداعك لا يدعك بكلتا يديه . واجيب بانه لا مانع من حذف الجر مع ان . وان التثنية للايذان بان كل الجوارح مخلوقة لخدمة الممدوح .

ثم ورد في اليوم السادس بشير آخر فقال :

خلع السرّي اليوم نعليه على   متنٍ عليه مبالغ في مدحه
فاستبشروا يا عصبة الشعراء من   هذا السخاء بيمنه وبسنحه

فاعترض عليه بان اليمن والسنح بمعنى واحد . واجيب بانه كقول الشاعر والفى قولها كذباً ومينا .

ثم ورد في اليوم السابع بشير آخر فقال :

حلّ السريّ اليوم اسفل جسمه	بأظافر ظفرت بكل مؤمّل
فالناس بيــن مصفّر ومرتّل	ومدفّف ومزمّر ومطبّل

فاعترض عليه صرف اظ فر . واجيب بان ذلك غير محظور لا سيما وقد وليها قوله ظفرت .

ثم ورد في اليوم الثامن بشير آخر فقال :

طوبى لمن في الناس اصبح حالقا	رأس السريّ الاحلس الملحوسا
لا زال محفوفاً بلطف الله مـا	حلتت له شعراً شريفاً موسى

فاعترض عليه بان الملحوس غير وارد في صفة الرأس . واجيب بانه لا بأس به هنا للجناس . ثم قيل ان محفوفاً مع ذكر الرأس ثقيلة . واجيب بانها خفيفة بالنسبة الى رأس السري. قلت وكان الاولى ان يعاب عليه قوله طوبى لمن . فانه مطلق لا يفيد ان السري حلق رأسه في يوم معين. غير ان الجناس في المصراع الثاني شفع في البيت كله .

ثم ورد في اليوم التاسع بشير آخر فقال :

بَسَم الزمان عن المنى وتنوّرا	لما استحمّ سريّنا وتنــورا
ان المعـــالي من اسافله زهت	والشعر بالشعراء اكسب مفخرا

فاستحسن هذان البيتان جداً لما فيهما من المطابقة والجناس التام وغيره الا قوله مفخراً .

ثم ورد في اليوم العاشر بشير آخر فقال :

قحب السري واي شهم ماجـد	بـــين البرية مثـــله لا يقحب
ذي سنـــة فرضت على كل الورى	ان المخالف منــــهم ليصلب

فعيب عليه لفظة قحب واجيب بانها فصيحة بمعنى سعل .

ثم ورد في اليوم الحادي عشر بشير آخر فقال :

عطس السري فكلنا يبكي دماً وارتاعت الارضون والافلاك
حرس الاله دماغه عن عطسة اخرى تموت برعبها الاملاك

ثم ورد في اليوم الثاني عشر بشير آخر فقال :

فسّى الامير فايّ عرف عاطر في الكون فاح وايّ مسك ديفا
يا ليت اعضاء العباد جميعهم تغدو لنشوة ذا العبير انوفا

فعيب عليه قوله فسّى . اذ التكثير هنا لا معنى له . واجيب بان القليل المنسوب الى السريّ كثير . وعليه بظلام للعبيد . فان ادنى ما يكون من الظلم في حق الباري تعالى كثير .

ثم ورد في اليوم الثالث عشر مبشر فقال :

حبق السري اليوم في وقت الضحى والجو ادكن ليس يسفر عن شرق
فتعطرت ارجاؤنا باريجه فكان من حبق له عرف الحبق

فاستحسنا لما فيها من التجنيس :

ثم ورد في اليوم الرابع عشر مبشر آخر فقال :

قد اسهل اليوم السري فكلنا فرح ففي اسهاله التسهيل
فاستبضعوا خزاً اليه مطرزاً وتسابقوا ان البطيء قتيل

فاستحسن البيت الاول للجناس . وعيب عليه قوله مطرزاً . اذ التطريز هنا لا موجب له بل فيه ايلام . واجيب بانه طبق الاصل . وان حق الترجمة ان لا تزيد على الاصل المترجم منه في المعنى ولا تنقص عنه ولا سيما في الامور المهمة الخطيرة. وقد كان يجب ان يعاب عليه قوله فكلنا فرح وان علله بقوله ففي اسهاله التسهيل . اذ المتبادر ان التسهيل مسبب عن حتف الممدوح وكأن الجناس شفع فيه .

ثم ان الفارياق بعد انقضاء هذه المدة الذكية رأى من الواجب ان يزور

صاحبه ويخبره بما جرى له . فلما تشرف بمجلسه سأله الخواجا عـــن حاله . فقال له قد كنت اود يا سيدي ان ازورك قبل الان لكن خشيت ان يعلـق بناديك اثر من الرائحة التي شملتني . فقال له لا ضـــير في ذلك ولا سيما اذا تعودت عليها . وان ناديّي لا يبرح كل يوم يعبق به امثالها من زيارة امثـال السري وهذا شأن ام دفار . ولكن كيف حالك من جهة المعيشة . قال قد اكتريت لي داراً صغيرة واشتريت حماراً . واتخذت خادمة لتصلح لي الدار . وخادماً ليصلح الحمار . وانا الآن بجاهك وفضلك في احسن حال. ثم انصرف من عنده داعياً له .

(سر بيني وبين القارىء)

قد كان طبيب الجزيرة نصح للفارياق ان يجانب النساء اي يبتعد عنهن لا انه يلصق بجنبهن فان في قربهن حيناً له فالفى قوله كذباً وميناً .

١٣

في مقامة مقعدة

لا يمكن لي ان ابيت الليلة مستريحاً حتى انظم اليوم مقامة . فقد عودت قلمي في هذا الموضع موالاة السجع ، وترصيع الفقر الرائعة للعقل الرائقة للسمع الشائقة للطبع . فأقول :

حدّس الهارس بن هثام قال : بينما انا امشي في اسواق مصر واسرح ناظري في محاسنها . واتهافت على النظر الى جمال شوافنها . فتداركني جمال مدائنها . فالطأ بقرار حائط واضبأ بآخر . واجعل يدي تارة على عيني وتارة على ما هو اصغر منها او اكبر . اذ اومأ اليّ فتى من حانوت له . عليه لوائح هيبة ومنزلة وحوبة في الترائب متخلله ، غير متحلله . فقال ان شئت ان تصعد الى هنا الى ان ينفض زحام الابل . وتنساغ غصّة هذا الأزْل الأزِل. فانك لدينا من المقرّبين . واني باكرامك لقمين . فوجدت دعوته كدعوة الداعي بحيّ على الفلاح . وقلت ما يأبى السماح . الا من فاته الصلاح . وعَميِه عن النجاح . كيف لا وقد اوشكت جوارحي ان تعود مجروحة . وضاقت باحمال ابلكم الارض وهي فسيحة . فابتسم ابتسامة اسفرت عن لحن للقول سريع ، وطبع الى ايلاء المعروف ذريع . ثم صعدت اليه فوجدت عنده نفراً عليهم عمائم مختلفة . ولهم وجوه مؤتلفة. فلما سلمت متودّداً . وتبوأت ما بينهم مقعداً . قال رب الحانوت هل لك في ان تنتظم معنا في سلك جدال قد شغلنا من الضحى . وجعلنا له الآذان كثِفال الرحى.فهو دائر على كل منا بالمناوبة . ومستدرك ختامه باوّله بالمعاقبة . دون دَرك ومعاقبة . اذ ليس فيه افضاء الى البحث في الاديان . وانما هو امر مباح لكل انسان . فقلت ان

كان مرجعه الى العقل فقد كلفتموني ادّا . وشططتم في انتظامي معكم جداً .
اذ لست بصاحب اسفار ، بل حليف تطواف واسفار . وان كان الى الطبع
فان بي لطبعاً سليما ، وخُلقاً قويماً . قال هـــذا الثاني هو مركز دائرته .
وفيصل محاورته . قلت فاملأ اذني اذاً من جدالـــك . والق عليّ اعذال
عَذالك .

قال اعلم ، فرج الله عنك كل غم ، اني انا والحمد لله من المسلمين المؤمنين
بالله وبرسوله . وبوحيه وتنزيله . وان صاحبي هذا الودود . واشار الى احد
القعود ، هو من النصارى والآخر من اليهود . والآخر امّعة ما له اعتقاد ولا
جحود . وانـّا قد تنازعنا كاس البحث في الزواج . وافضنا فيه كما تفيض من
عَرَفات الحجّاج . اما النصراني فانه يزعم ان طلاق المرأة مفسدة من اعظم
المفاسد . ومندمة تمني المطلّق بالنَغَص والمكايد . ووجه فسادها على مقتضى
زعمه ، وقدر فهمه ان الزوجة اذا علمت انها تكون عند زوجها كالمتـــاع
المنتقل ، وكثوب المبتذل ، موقوفة على بادرة تفرط منهـــا . او هفوة تنقل
عنها . لم تخلص له سريرتها ولن تمحض له مودتها . بل تعيش معه ما عاشت
في انقباض وايحاس ووحشة وابتئاس ونكـــد ويأس وتدليس والباس واذا
انزلته منزل مبتاعها واعتقدت ان متاعه غير متاعها وانه لا يلبث ان يلاعنها
او يبارئها او يخالعها او يكسوها ثياب التّحمّة ويقول لهـــا الحقي باهلك
او استفلحي بامرك . او انت عليّ كظهـــر امّي او حبلك على غاربك .
وعودي الى كناسك . عند اهلك وناسك . فما انت لي باهـل . وما انا لك
ببعل . لم تحرص له على حاجة ولا على سر . ولم يهمّها ما ينزل به من الشرّ .
وربما خانته في عرضه وماله . وكادت له مكيدة فضحته بهـــا بين اقرانه
وامثاله وهناك محذور آخر ادهى وانكر وانكى واضر . وامضّ وامرّ .
وهو ان المرأة اذا فركت زوجها بان رأت منه ما تخاف غائلته . لم يهمها ان
تربّي عيّله او تستكفي عائلته . فان المرأة لا تحب ولدهـــا الا اذا احبت
بعلها . ولا تحب بعلها الا اذا أدام وصلها وآتاها سؤلها ومن كان له زوجة لم

يُولها فواده ولم ينخل لها وداده فاتخذتـه عدواً خصيماً . لا اليفاً حميا فهو جدير بان يرثى له شامته . ويرجع عنه سامته . فان صدره والحالة هذه مورد الشجون ، ورأسه منبت القرون ، ومنزله منزن الاكدار وحالته في الجملة حالة اهل النار . الا اني اعترض على مذهب من حظر الطلاق ، وتقيد بزوجته دون اطلاق ، بان الزوجة اذا علمت ان جسم زوجها قد أدغم فيها . واصبح سره في فيها . فصارا فرداً لا زوجاً . سواء هبطا وهدة او صعدا اوجاً . وانـه لا يُفك هذا الالتحام الا بمقراض الحِمام . ولا تحل عقدة هذه الكينة الا بانحلال جميع اجزاء الطينة . وانها اذا مرضت مرض هو معها . واذا رأت رأياً فلا بد له من ان يواطئها عليه ويجامعها . نشزت عليه وتنمرت . وطغت وتجبرت . فتارة تسومه شراء لباس وحُلىّ وتارة تتعنّت عليه بامر تذيقه فيه الصُلى . فويل له اذا حبا . ثم ويلان اذا أبى . وان غاب عنها ليلة قامت قيامة كيدها عليه . وان تشاغل عنها بامر له فيه نفع جرت جميع المضار اليه . فدأبه التودُّد اليها والتملـّق والمداراة والترفق ومجاملته لها اذا جفت ومخالقته اياها اذا انفت وتأنـّثه معها اذا تذكـّرت وتصعصعه منها اذا تشزّرت وهل يطيب عيش لمن علم انه طوع لهوى غيره . وان لا مناص له من ضيره . فاما شأن الاولاد . وهو الداعي الى تحمّل هـــذا الكـُباد ، فان الزوجين اذا كانا على حالة النفور والعناد . والخلاف واللحاد . لم تكن تربيتها لولدهما الا اغراء بالاقتداء بهما . وتدريباً على الفساد بسببهما . فيكون اهمالهم من غير تربية عند طلاق امّهم أوْلى . وان الوفاق هو المصلحة الاولى . على انا نعلم من التجربة منذ سنّ الله تعالى الزواج وحببه ان المرأة اذا علمت ان لزوجها استطاعة على طلاقها . وتملصاً من وثاقها . حرصت على ان تتحبّب اليه وتلاينه . وتيامره وتخادنه . وتخالقه وتداريه وتتلافاه وتراضيه . وتجامله وتسانيه . خيفة ان يتنغص عيشها بفراقه . او تحرم من خلاقه . فان لم يحصل بينهما الوفاق فالطلاق الطلاق .

ورأي صاحبنا هذا اليهودي قريب مما رأيت . فلا يخالف الا في اسباب

الطلاق وهي كيت وكيت فأما صاحبنا الامّعة . فانه متردد في هذه القضية المنكعة . فتارة يقول ان الطلاق ادعى الى الراحة . وتارة انه موجب لنكد العيش وصفق الراحة وطوراً يزعم ان المُتعة او الزواج الى اجل مسمّى اوفق. حتى اذا انقضى يجدد العهد بينهما ويوثق . الى ان يتفارقا عن تراض. ويقضيا لهما وعليهما ولا قـــاض . فهو اخف على الشّبَج . وانفى للحَرَج وان يكن يفعله بعض الهمج . وحيناً يقول بل التسرّي اسرّ. واهنأ واقر . ان لم يكن من القرينة مفرّ . وآونة يختار الاقتصار على خويدمة رُعبوبـــة. وآونة على وحدة العزوبة . والتناول مما تفيزه بـه الفرص المرقوبة . واخرى على جب الآلة . ان كان الجبّ ينجي من الحبالة . قال وذلك اني صعّدت في درجات هذه الخطة ونزلت في دركاتها . وعانيت ضروبـاً من اخطارها وهلكاتها . فوجدت عند كل درجة منها مهواة تغيب فيها الاحلام . وتضيع الافهـــام. وتهِن القوَى ويستطاب التوَى . ويصغر كل عظيم من البلا : حتى كأنّ هذه الحاجة ليست من الحوج في شيء . وما لها به من صلة لحيّ فهي داء لا أسى له. وثوب قشيب مسموم يسر ناظره وحامله . لكن يقرّح أوصاله ومفاصله. وكل امر في الدنيا فانما يصح قياسه على عقول الكيِّسَى من النـاس . ويعالج بالصبر أو اليأس الا هذه الحوبة فان المرجع فيهـا الى الطباع . ولا يفيد معه رشد ولا زماع . ثم أنّ أنين الثكـلى .

وقال واني ازيد على ما قاله الامعـة قولا . ولا اخشى من احدكم عذلا . فأقول ولـكم تصدعت قلوب من ذلك الصـــدع . واشتقت من ذلك الوُمّاح مشاقّ لا يطيقها طبع . وكم من رؤوس لأجـله دُعكت ورضّت . وعقول أفِنت وَحرِضت . واعناق دقّت . وعيون لقّت. واسنان هُشِمت. وانوف شُرِمت. وشعور ندفت . ولحى نتفت . وايدٍ قطعت . وانساب ضيّعت. وكتائب كتّبت وكتب كُتبت . (حاشية من جملتها هذا الكتاب) وخيل رُكضت . وسيوف ومضت .. ورماح شُرّعت. واحزاب تترّعت. وجبال دكّت ونسفت وبيوت اقوت وعفت . واملاك حربت . وملوك استخربت.

وبلدان خربت . بل امم تهـالكت وفنيت . وقرون اندرجت ونسيت . ثم تأوّه وقال وسلعة نفدت ودنانير ُنقدت . قال الهارس فعلمت انه قد صدعه الصدع بماله وعظّه بلهاته عند تغلغله فيه وايغاله. ولذاك كان يفيض في حديثه ويخوض فيه . ليعلم هل من مصاب مثله وعنده علم ما يشفيه . ثم التفت اليّ مستعبراً . وقال وانت فما ترى ؟

قلت والله انها لاحدى الكُبَر. ومعضلة تفيض لها العبر. قد طالما ارتبك فيها العالم النحرير وضل عن علمها اللبيب الخبير لا جرم ان معرفة الافـــلاك وكواكبها وايشاء معادن الارض وعجائبها واسرارها وغرائبها . لأهون عليّ من أن أقول فيهذه المسألة نعم أو لا فما أرى الا سكوتي عنها أولى ثم بينا هم يوجبون ويسلبون ويوجزون ويسهبون اذا بالفارياق مرّ علينا راكباً على حمار فاره . سامد سامه . فلما بصرت به قلت له نزال نزال . وحيّ على هـــذا العدال . فما نرى غيرك جديراً بايضاحه . وبشفائنا من ُصماحه . قال في أي امر مريـج كنتم تخوضون . وعن أي نكر مشيج انتم تجيضون . قلنا له في الزواج فهلمّ العلاج . فابتدر وقال على ارتجال .

مسألة الزواج كانت ثم لا	تزال طول الدهر أمراً معضلا
ان يكن الطلاق يوماً حلـّلا	للزوج ايـّان ابتغاه فعـــلا
فليس عندي رشد ان تحظلا	زوجته عنه ولا ان ُتعضَـــلا
ان لم يصيبا للوفـــاق سبلا	فدعها فليفعلا ما اعتـــدلا

ايان شاء طلـّقا وانفصلا

قال فضحكنا من افتحاره ما لم يذكر في الكتب . وقلنـا له الى حمارك عن كثب . فما نرى رايك الا ِبدْعا. ولقد اسأت إجابة بعد اناصبت سمعا. ثم تفرقنا كما اجتمعنا وعجبنا مما سمعنا .

١٤

في تفسير ما غمض من الفاظ هذه المقامة ومعانيها

ليس في لغتنا هذه الشريفة ولا في لغة أمة اخرى من الامم لفظة تدل على فاعل ومفعول او فاعلين اشتركا في فعل واحد للذتها ونفعها . واحتاجا الى من يدخل عليها ليتعرف منها أي رفع ونصب يجري بينها . وبيانه ان لفظة الزواج عندنا معناها ضمّ واحد الى آخر حتى يصير كل واحد منها زوجاً لصاحبه . ولكن من دون قيد مكان ولا زمان ، فلو تزوج زيد بهند في سهل أو على قنة جبل او في كهف في يوم الاحد او الاثنين او السبت بشرط التراضي بان يكتب الرجل للمرأة صكاً موذنا بزواجه بها او يشهد على ذلك رجلين لصحّ . هكذا كانت سنّة السلف المتقدمين من الانبياء وغيرهم كما هو مسطور في تواريخهم . بل لم يكونوا يقيدون انفسهم لا بالصك ولا بالشهود . اما لفظ النكاح فمعناه احراز امرأة على اي وجه كان . وذلك لان عرب الجاهلية لم يكن عندهم آداب للنكاح والطعام وغيرهما حتى جاء الشرع فعرّفه وميز الحلال من الحرام منه . قال ابو البقاء في الكليات — ولكن لم اجده في فصل النون فان رأيته في غيره انجزت ما وعدت به ، وكنت اريد استشهد بكلامه على ان اسم النكاح لم يزل الى الآن مستعملا وانه في كتب الفقه اكثر من ان يحصى . وهو حجة على من انكره من النصارى وعلى من استعاذ من ذكره . وانما استعملته العلماء من دون محاشاة لاسباب . الاول انه استعمل قديما من الجاهلية فاثبتته العاقلية . الثاني لوروده في القرآن . الثالث لاشتماله على اربعة احرف وفاقا للطبائع والعناصر والجهات ، الرابع لورودها في اسرار سور القرآن . فالنون في ن والقلم وما يسطرون والكاف في كهيعص او الالف

في ألم والحاء في حم. الخامس انك اذا قلبت هذه اللفظة بدا لك منها معنيان شريفان . الاول اسم فاعل من حي والثاني فعل امر من كان ، وبه برزت الموجودات الى العيان . وتجلت الحقائق لذوي العرفان . السادس لخفة اللفظ وحلاوته ، السابع لكون اوله يدل على آخره وآخره على اوله . وقد سمى هذا النوع بعضهم دلالة الاول على الآخر وبالعكس . قال وفائدته انه لو استشهد القاضي احدا على فاعله فنطق بالنون والكاف ثم غشى عليه او على القاضي تلحّزا لذلك . عَرَف من بقي غير مغشي عليه بالمجلس القاضوي ما اراده القائل . وكذلك لو طرأ عليه عند أداء الشهادة ما قطعه عن الكلام شوقا وهيبة فلم يسمع منه الا الالف والحاء لدل هذا الجزء الاخير مع قلة حروفه على جميع ما يراد من المدلول .

قلت وهو تعليل بديع غير ان هذه التسمية لا توجد في كتب البيانيين والبديعيين . ولست احب الالفاظ الطويلة فالأولى ان ينحت له لفظ من تلك الجملة بحيث يسلم الطرف . فان قلت بل قد استعملت الفاظاً طويلة جداً في وصف البرنيطة بقولك المستقبحة المستفظعة مع انه كان يمكنك ان تصفها بالفاظ قصيرة . قلت كان ذلك من باب مراعاة النظير. فان طول البرنيطة يقتضيه . فاما مدلول اللفظ الذي نحن بصدده فانه قصير . ثم اني كنت ابتدأت كلاما في اول هذا الفصل ولم انهِ فان القلم زلق بي الى معنى آخر على عادته. واظن ان الجناب الرفيع او الحضرة السنية لم يفهماه فمن ثم اقول الآن. انه اذا كان المراد من الزواج ان كلاًّ من الزوجين يزاوج صاحبه لنفسه لا لاهل البلد وللمعارف والأصحاب كما كان عليّان يأكل فخذ الدجاجة لامّ عليّ. لم يكن من المعقول ان يدمق عليهما ذو قُبُّعة فيقول للمرأة لا تتزوجي هذا لكونه لم يسمّ بطرس ثم يقول للرجل لا تتزوج هذه لانها لم تسمّ مريم . او ان يقول هذا يوم الاحد لا يصح فيه الزواج . وهذه حجرة لا يحلّ فيها البعال . والا لصح ان يقول لهما أرياني الميل في المكحلة . ومثل هذا الكلام لعمري لا يليق لاحد ان يقوله او يكتبه . ثم ان المرأة هي من الاشياء التي

لكثرة تكرر النظر اليها كالشمس والقمر لم يودّ العقل حق اعتبارها . وبيانه ان الله عز وجـــل خلق المرأة من الرجل لتكون بمنزلة معين له على مصالحه المعاشية ومؤنس له في وحشته وهمومه . الا انـّا نرى ان هـذه العلة الاصلية كثيراً ما تستحيل عن صيغتها الاولوية . حتى ان بلاء الرجل وهمه ووحشته ونحسه وشقاوته وحرمانه بـــل هلاكه يكون من هذه المرأة . فتنقلب تلك الاعانة احانة .

وتلخيصه ان الانسان ولد في هذه الدنيا محتاجاً الى اشياء كثيرة لازمـــة لحفظ حياته وذلك كالأكل والشرب والنوم والدفء . والى اشياء أخرى غير لازمة للحيوة وانما هي لتقويم طبعه حتى لا يختل . وذلك كالضحك والكلام واللهو وسماع الغناء واتخاذ المرأة . الا ان هذا الاخير مع كونـــه جعل في الاصل لتقويم الطبيعة . إذ يمكن للرجل ان يعيش حيناً ما من دونه . فقــد غلب على سائر اللوازم المعاشية التي لا بد منها . ألا ترى أن من يحلم بامرأة يجد منها في الحلم ما يجده في اليقظـة . وليس كذلك من يحلم بأنه أكل عسلاً أو شرب سلافاً . بل وقوع هذا نادر جداً حتى للجائع والعطشان . وقـــد طالما رضيت أصحابنا الشعراء بطيف الخيال من المحبوب . ومـــا احد منهم رضي على جوعه بأن يبعث اليه ممدوحه بكأس مدام في الحلم أو ثريدة. واذا تناول الانسان طعاماً طيبـاً لوناً كان أو لونين بقي عدة ساعات مكتفياً بما ناله غير مفكر في القِدْر ولا فيما يقتدر فيها . حتى يعاوده الجوع فيطفق حـ يفكر في تناول طعام آخر . ولكن لم يسمع عن احد من النـــاس في حالتي الجوع والشبـع انه كان كلما رأى طائراً في الجو اشتهى ان يقع على سفّوده في البيت حتى يسترطه . أو انه كان لا يزال يبصّص في دكاكـين الطباخين والبدّالين والزياتين ويلاوص من ثقوب اقفالهم ومن خصـاص ابوابهم وشقوق حيطانهم على ما عندهم من أصناف المأكول . نعم ان الجائع في بلادنا يحسب كل مستدير رغيفاً كما يقال . وفي بعض بلاد الافرنج ربما حسب أيضاً المستدير والمطاول وذا شق كظِلف الشاة وذلك لتفننهم في أشكاله . غير ان الجائع

الى النساء ليس له شكل ينتهي اليه . وكذلك قضية الشرب فان الظمآن بعد ان يروي غليله بالماء فاذا جيء اليه بكأس من التسنيم عافه. وكذلك البردان المحتاج الى الدفء فانه متى لبس ما يدفّئه من الثياب ويجمّله بين الناس لم يتطالل بعد ذلك الى كل ثوب ينظره في دكاكين التجار معرضاً للبيع . ولو رأى مثلاً قوس قزح او روضة مدبجة بالأزهار البهيجة لم يتمنّ ان تكون ألوانها في سراويله أو قميصه. وانما يراها ويستحسنها مجرّد استحسان من دون ان يشغل بها خاطره ولبّه . ولا يحلم ليلته تلك انه رأى روضة انيقة او يتصور وهو متوسّد على فراشه انها لو كانت حِيال مخدته لزاد ذلك في تنعيمه أو عمره. وقس على ذلك النائم اذا نام كفايته على فراش غير وطيء فان منظر الفراش الوثير بعده لا يهمه . والحاصل ان للانسان عقلاً في يافوخه يدله على ما ينفعه ويضره ويسوؤه ويسره . وان في كل من معدته وحلقومه ميزاناً قوياً يزن به ما هو محتاج اليه من الطعام والشراب . وبه يدري مضمون قولهم ربّ اكلة حرمت اكلات . فأما في أمر المرأة فالقانع العزوف يغدو شرهاً رغيباً . والرشيد غوياً . والحليم سفيهاً . والمهتدي ضالا . والحكيم عَمِهاً . والعالم جاهلاً . والفصيح عييّاً وبالعكس . والصَبُور جزوعاً ولا عكس . والفتى شيخاً ولا عكس . والغني فقيراً وبالعكس . والفظّ لطيفاً ولا عكس . والسمين نحيفاً وبالعكس . والمعافى مبتلى ولا عكس. والمتثبّت متغشمراً وبالعكس. والبخيل كريماً ولا عكس. والساكن متحركاً وبالعكس. والطرد عكساً وبالعكس . وهلم جرا . واذا رأى امرأة تبغضه فربما احبها. أو تجفوه كلف بها . أو تعرض عنه تعرّض لها . او تتملق اليه وتملثه فُتِنَ بها . او ترميه بجقيبتها على ثقلها جُنّ بها الا ولو حضر مجلساً كان فيه .

امرأة وضيئة   حسنة نظيفة .

وهيّئة   حسنة الهيئة .

ومُخبأة   الجارية المخدرة لم تتزوج بعد .

وذَبأة   الجارية المهزولة المليحة الخفيفة الروح .

وجرْباء الجارية المليحة .
وخِدَبَّة ضخمة .
وخُرْعُوب الشابة الحسنة الخلق الرخصة أو البيضاء اللينة الجسيمة . اللحيمة الرقيقة العظم .
وخَنِبَة الجارية الغنجة الرخيمة .
ورَطْبَة معروف .
وسَرْهَبَة المرأة الجسيمة الطويلة .
وشَطبة الطويلة الحسنة الخلق .
وشِطبة الجارية الحسنة الغضة الطويلة .
وشَنْبا ذات شنب وقد ذكر تحت البرقع .
وصَقبة الطويلة التارّة .
وصَهْباء الصَهَب حمرة او شقرة في الشعر كالصُهبة والصهوبة .
وعَجْباء المرأة يتعجب من حسنها .
وقَبّاء الدقيقة الخصر الضامرة البطن .
وكَبْكابة المرأة السمينة .
ومكدوبة النقية البياض .
وكاعِب التي نهد ثديها .
ولَعُوب الحسنة الدَلّ .
ووَطْباء العظيمة الثدي والوطب الثدي العظيم
وهَدْباء الكثيرة شعر الهدب .
وذات صُلُوته الصَلْت الجبين الواضح وقد صلت ككرم .
وصموت الخلخالين غليظة الساقين لا يسمع لهما حسّ .
وخَوْثاء الحَدَثة الناعمة .
وبَلْجاء البُلْجة نقاوة ما بين الحاجبين هو ابلج وهي بلجاء .

ومِبْهاج	حسنةٌ .
وجائعة الوشاح	ضامرة البطن ومثله َغرْثى الوشاح
وخَدَلَّجة	المرأة الممتلئة الذراعين والساقين .
ودَعْجاء	الدَعَج سواد العين مع سعتها .
ورَجْراجة	يترجرج عليها لحمها .
وزجّاء	الزجج حركة دقة الحاجبين في طول والنعت ازج وزجاء.
ومُعذلجة	المرأة الممتلئة الناعمة الحسنة الخلق .
ومفلّجة الاسنان الفلج تباعد ما بين الاسنان .
وَبَيْدح	بادن ونحوه بلدح
ودَحُوح	عظيمة .
وذات سجاحة	سَجِح الخدّ سهل ولان وطال في اعتدال .
ودُمْلُحة	الضخمة التارّة .
وصَلَنْدَحة	عريضة وكذا سلطحة وصلطحة .
وفُقّاح	المرأة الحسنة الخَلْق .
ووَضّاحة	البيضاء اللون الحسنته .
وبَيْدَخة	تارّة .
وبُلاخيّة	عظيمة او شريفة .
وصَمِخة	المرأة الغَضّة .
وطُباخيّة	الشابّة المكتنزة .
وفتخاء الاخلاف ناقة فتخاء الاخلاف ارتفعت اخلافها قبَل بطنها . ذمّ وفي المرأة والضّرع مدح .
وفِرْضاخة	ضخمة عريضة او طويلة عظيمة الثديين .
وقُفاخ	المرأة الحادرة الحسنة الخلق .
ولُباخيّة	لحيمة .

وهُبَيْخة الناعمة التارّة .

وبَخَنْداة المرأة التامة القصب كالبَخَنْدى .

وبُرَخْداة الجارية الناعمة التارّة .

ومُبْرَندة الكثيرة اللحم .

وثأدة المكتنزة الكثيرة اللحم .

وثَوْهَدة السمينة التامة الخلق وكذا الشَهْودة والفَوْهدة .

وثَهْمد السمينة العظيمة .

وجَدّاء الصغيرة الثديين .

وجَيْداء الطويلة الجيد الدقيقته .

وبَضّة المُتجرّد بضّة عند التجرُّد .

وخَبَنْداة جارية خبَنْداة تامة القصب او تارّة ممتلئة او ثقيلة الوركين وساق خبَنْداة مستديرة ممتلئة .

وخَرِيد الخريد البكر لم تمسس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة كالخريدة والخرود .

(تنبيه المرأة الجَشُوب الدِرْدِحة الضَمْزر اللهْبَرة العُكْبُرة القُعْسوس الجبّاعة الشَدْمة اكثر دلاً وغنجاً من جميع هؤلاء) .

ورِخوَدّة اللينة العظام السمينة .

ورِعْدِيد رخصة .

ورَهِيدة الشابة الرخصة الناعمة .

وعُبْرُد الجارية البيضاء الناعمة ترتجّ من نعمتها .

وعَضاد المرأة الغليظة العضد .

وعُمُدّة الشابة الممتلئة شباباً كالعُمدانيّة .

وغادة المرأة الناعمة اللينة البيّنة الغَيد .

وغيْداء	المتثنية ليناً .
ومَقصَدة	المرأة التامة العظيمة تعجب كل احد والتي الى القصر .
ومأدة	الجارية الناعمة .
وممسودة	مجدولة الخلق .
وأملُود	المرأة الناعمة اللينة .
وناهِد	كاعب .
وبُهَيرة	السيدة الشريفة والصغيرة الخلق الضعيفة وكذا البَهِيلة .
وبِشيرة	جميلة .
ومبشورة	الحسنة الخلق واللون .
وتارّة	ممتلئة الجسم .
وتُرّة	الحسناء الرعناء .
وجُحاشرة	الضخمة الحادرة الجسيمة العبلة المفاصل العظيمة الخلق .
وَجهراء	مؤنث الاجهر وهو الحسن المنظر والجسم التامّه والاحول المليح الحولة .
وحادرة	السمينة أو الحسنة الجميلة .
وأحْوَريّة	البيضاء الناعمة .
وَحواريّة	الحواريات نساء الامصار .
وحوراء	الحَوَران يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيض ما حواليها او الخ .
وذات تدهكر	ترجرج .
ومُدَهْمَرة	المرأة المكتلة المجتمعة .
ومزنّرة	طويلة جسيمة .
وزَهراء	المرأة المشرقة الوجه .

ومَسبورة	الحسنة الهيئة .
ومسمورة	الجارية المعصوبة الجسد غير رخوة اللحم .
وشَغفر	المرأة الحسناء .
وصيّرة	الحسنة الصورة .
وعَبقَرة	تارة جميلة .
وعبهرة	الرقيقة البشرة الناصعة البياض والسمينة الممتلئة الجسم كالعبهر والجامعة للحسن في الجسم والخلق .
وعجنجرة	المكتلة الخفيفة الروح .
ومُعصر	التي بلغت شبابها وادركت أو دخلت في الحيض او راهقت العشرين .
وغَرّاء	بيضاء وكذا فراء .
وذات افترار	افتر ضحك ضحكاً حسناً .
وفزْراء	الممتلئة لحماً وشحماً او التي قاربت الادراك .
وُقفاخرية	النبيلة العظيمة من النساء .
ومرمورة	المرمورة والمرمارة الجارية الناعمة الرجراجة .

ومَشرةالاعضاء ريّا .

ومطرة	لازمة للسواك أو للتنظف والاغتسال .
وذات مكرة	المكرة الساق الغليظة الحسناء .
وممكورة	المطوية الخلق من النساء والمستديرة الساقين او المدمجة الخلق الشديدة البضعة .
وماريّة	بيضاء براقة (من مار) .
وذات نَضرة	حسن وبهجة .
ووَثيرة	الوثيرة الكثيرة اللحم او الموافقة للمضاجعة .

(تنبيه المرأة الربسة الدِعفصة الدِنْقصة القُنْبُصة السَّعلة الطَّهمل الضَلَنفع السَضوكعة الرصعاء القَشوانة الكرواء اكثر دلاً وغنجا من جميع هؤلاء) .

وهُدَكر المرأة التي اذا مشت حرّكت لحمها وعظامها .

وَهيْدَكُور	الكثيرة اللحم والشابة الضخمة الحسنة الدلّ كالـُهدكورة .
وبلز	المرأة الضخمة او الخفيفة .
وعُكَموزه	الحادرة التارّة .
وغَمّازة	الجارية الحسنة الغمز للاعضاء .
وكناز	كثيرة اللحم صُلبة .
وآنسة	الجارية الطيبة النفس .
وَبَيْهس	الحسنة المشي .
وخروس	البكر في اول حملها .
وخَنْساء	تقدم ذكرها تحت البرقع .
ومُركس	الجارية طلع نهدها فاذا اجتمع وضخم فقد نهد .
وَعيطَموس	المرأة الجميلة او الحسنة الطويلة التارة كالعطموس .
وَعلطَميس	الجارية التارة الحسنة القوام .
وعانِس	التي طال مكثها في اهلها بعد ادراكها حتى خرجت من عداد الابكار .
وُقدمُوسة	ضخمة عظيمه .
وقرطاس	الجارية البيضاء المديدة القامة .
وكَنيسة	المرأة الحسناء .
ولعساء	من في لونها ادنى سواد .
ولميس	اللينة الملمس .
وعشّه	المرأة الطويلة القليلة اللحم او الدقيقة عظام اليد والرجل .
وخربصة	المرأة الشابة التارّة .

ودَخُوص		الجارية الممتلئة شحما .
ورخصه		معروف .
وبَضّباضة بَضّة الرخصة الجسد الرقيقه الجلد الممتلئة .
وخَريضه		الجارية الحديثة السن الحسنة البيضاء التارة .
ورَضراضه		في معنى رجراجه
وغضّة غضيضة الطرف الغضّة الناضرة والغضيض من الطرف الفاتر .
وفارض		ضخمة .
وفضفاضة		الجارية اللحيمة الجسيمة الطويلة .
ومُفاضة		الضخمة البطن .
وخُوطانة		وخوطانية كالغصن طولا ونعمة .
وسبطة الجسم حسنة القدّ .
وشَطّة		حسنة القوام طويلة .
وشِناط		المرأة الحسنة اللون والقوام .
وذات عَنَطوعيط طويلة العنق حسنته .
وذات شِناظ مكتنزة اللحم كثيرته .
ومُلعّظة		الجارية السمينة الطويلة الجسيمة .
وبتعاء		الشديدة المفاصل والمواصل من الجسد
وبَريعة		فائقة الجمال والعقل .
وبزيعة		ظريفة مليحة كيّسة .
ومُتلع		الحسناء لانها تتلع رأسها تتعرض للناظرين اليها .
وسَنيعة		الجميلة اللينة المفاصل اللطيفة العظام.
وشَبْعى الخلخال والسوار ضخمة تملاهما سمنا
وشَمُوع		مَزّاحة لَعوب .

وصَمْعاء	الصغيرة الأذن والاذن الصغيرة اللطيفة المنضمّة الى الراس.
وضَرْعاء	عظيمة الضرع .
وفرعاء	تامّة الشعر .
ولعّة	عفيفة مليحة .
ولاعة	التي تغازلك ولا تمكّنك (قلت لانها تلوع مغازلها بذلك) .
وأنوف	طيبة رائحة الانف .
وخَنضَرف	المرأة الضخمة اللحيمة الكبيرة الثديين .
وذلفاء	تقدم ذكر الذلَف تحت البرقع .
وذات سجَف	السجف دقة الخصر وخماصة البطن .
وسُرْعُوف	المرأة الطويلة الناعمة .
وَسيْفانة	الطويلة المشوقة الضامرة .
وظريفة	الظرف انما هو في اللسان او حسن الوجه والهيئة او يكون في الوجه واللسان او البزاغة وذكا القلب او الحذق او لا يوصف به الا الفتيان الازوال والفتيات الزولات لا الشيوخ ولا السادة .
وقِرْصافة	القِرْصافة من النساء التي تتدحرج كأنها كرة .
وقِصاف	المرأة الضخمة .
ولفّاء	واحدة اللُفّ للجواري السمان الطوال .
وحسنة المَعارف والموقفين	المعارف الوجه وما يظهر من المرأة والموقفان الوجه والقدم او العينان واليدان وما لا بد لها من اظهاره.
ومهفهفة	ضامرة البطن دقيقة الخصر .
وهيفاء	الهَيَف ضمر البطن ورقة الخاصرة .
وبَرّاقة	الحسناء لها بهجة وبريق كالابريق.

وبُهْلُق المرأة الحمراء جداً .
وحارُوق نعت محمود للمرأة عند الجماع .
وخِرباق الطويلة العظيمة او السريعة المشي .
ورشيقة حسنة القد لطيفته .
ورَقْراقة التي كان الماء يجري في وجهها .
ورُوقه حسناء تعجب .
وسَوْقاء الطويلة الساقين او الحسنتها .
وعَبِقة المرأة التي اذا تطيّبت بأدنى طيب لم يذهب عنها اياماً.
وعاتق الجارية أول ما ادركت .
وعشَنَّقة طويلة ليست بضخمة ولا مثقلة .
وغُبْرُقه العينين واسعتها شديدة سواد سوادها .
وغُرانق امرأة غرانق وغرانقه شابة ممتلئة .
وذات غَرْنقه غزل بالعينين .
وذات لمّة غرانقة ناعمة تفيئها الريح .
وفُنُق جارية فنق ومفناق منعمة .
ولَبقة الحسنة الدلّ واللبسة .
ومُلصقة الضيقة المتلاحمة .
ولَهفة شديدة البياض .

(تنبيه المرأة الطرطبة المتخبخبة الرّغابة العَكْباء ذات الحردبة والسنطبة البلعثة الخرْثاء الخُنظوب العُكبرة المُشَدّنة الخطلاء اكثر دلاً وغنجاً من جميع هؤلاء) .

ومشوقة خفيفة اللحم .
ورَوْدكة حسناء في عنفوان شبابها .

وضبرك	المرأة العظيمة الفخذين .
وضكضاكة	قصيرة مكتنزة .
وضُنْأكة	الصلبة المغصوبة اللحم .
ومُعْرَوْرِكة	متداخلة .
وعَكَوَّكة	القصيرة الملـّززة أو السمينة .
وعَضنّك	اللفاء التي ضاق ملتقى فخذيها مع ترارتها
وعاتكة	المرأة المحمرة من الطيب .
ومُفلّك	التي استدار ثديها .
ومكاكه	المكاكه والكمكامه القصيرة المجتمعة الخلق .
وهبركه	الجارية الناعمة .
واسيلة الخدّين	الاسيل من الخدود الطويل المسترسل .
ومبتلة	الجميلة كانها بتل حسنها على اعضائها اي قطع والتي لم يركب بعض لحمها بعضا وفي اعضائها استرسال .
وبهكلة	المرأة الغضة الناعمة .
وجمول جلاء	الجمول الثمينة والجلاء الجميلة والحسنة الخلق من كل حيوان .
وخدلة	المرأة الغليظة الساق المستديرتها او الممتلئة الاعضاء لحماً في دقة عظام كالخدلاء .
وخَـلّه	المرأة الخفيفة .
ودحمله	الضخمة التارة .
ودمحله	السمينة او الحسنة الخلق .
ومكسال	نعت للجارية المنعمة لا تكاد تبرح من مجلسها مدح .
ورخيمة	رخمت الجارية صارت سهلة المنطق فهي رخيمة ورخيم .
ورقيمة	المرأة العاقلة البرزة وفي ب ر ز امرأة برزة بارزة المحاسن او متجاهرة كهلة جليلة الخ .

وميسانة الضحى   مدح ونحوه نووم الضحى .

وحسنة الخفين اي صوتها واثر وطئها يقال اذا حسن من المرأة خفياها حسن سائرها

وغانيه   المرأة التي تُطلب ولا تطلب اوالتي غنيت بحسنها عن الزينة.

(تنبيه المرأة القرزح القيلع الخنجل الحزمل الحكه الخنثل الجبله الجهبله الخنكله القيعله اكثر غنجاً وتدعباً من جميع هؤلاء) .

وسيأتي تتمة وصف الحسان في الفصل السادس عشر من الكتاب الرابع اذ لم يبق لي من حراك وقوة لذلك واحسب القارىء نظيري .

وانما اقول . نعم لو كان في ذلك المجلس السعيد جميع هؤلاء الحسان على اختلاف الوانهن لودّ ان ينظمهن كلهن في سلك واحد ويجعله في عنقه كسبحة اولياء الله المفردين . ومن ما رآني في ذلك رجعته الى قصة سيدنا سليمان عم . فانه مهما اوتي من الحكمة . وما ادراك ما الحكمة . فقد كان سلكه يشتمل على الف امرأة . منهن ثلثمائة سُرّيات والباقي سُريّات . فكان له في كل يوم امرأتان ونصف وكسور ألا ولو انه اي الرجل رأى الشمس طالعة والبدر بازغاً والكواكب مضيئة لكان اول ما يخطر بباله ان يقول . لقد تزينت هذه السماء بهذه النيرات البهية . فمتى تزين حجرتي بواحدة من اخواتهن او باثنتين او بثلاث او بعشر او بالسبحة كلها . ولو رأى غوطة او ربوة او جبلين متناوحين او نَوْفا او حُشّة او هدفاً او شَقباً او قوزاً او دعصا او كوثلا او خوطاً يتأوّد او بحراً يتموّج او عوطباً او طاووساً او تفاحاً او رماناً او عقد درّ منظوم او شيئاً آخر يروق العين لسبق وهمه الى امرأة . بل ربما تصور واحدة لم يكن قد رآها قط ولا وجود لها في الاعيان ولو رأى سفينة ماخرة في اليم وعليها شراعها لشبهها بامرأة ترفل بثيابها في الطرق كما كان دأب احد الخرجيين المتورّعين . ولو رأى حمامتين تتزاقّان وتتلاسنان قال ليت لي الآن من أن ازقّها وتزقني والاسنها وتلاسنني وانقرها

وتنقرني . ولو رأى ابو بُرائل بين ضغادره يلقمهن مما لديـــه ويصفق لهن بجناحيه ويحثثل اليهن ويتجفل ثم يحلج بينهن لود ان يكون نظيره . وحسبك بذلك من دناءة وإهانة لهذه الصورة البشرية التي يقال فيها انهـــا خلقت على مثال الخالق تعالى عن الشبيه والنظير . الا ولو انك القيته في جب سيدنا يوسف ، وفي فلك سيدنا نوح ، وفي بطن حوت سيدنا يونس ، وعلى ناقة سيدنا صالح ، ومع اصحاب الكهف ، لصرخ قائلاً المرأة المرأة ، ومن لي بالمرأة ولو أنزلته في :

بُنانة الروضة المعشبة .

ورَقْمة الروضة وجانب الوادي او مجتمع مائه .

ودَقِيرة الروضة الحسناء العميمة النبات .

ووَدِيفة الروضة الخضراء .

وغَلْباء الحديقة المتكاثفة .

وعُلجوم البستان الكثير النخل .

ومَخْرفه البستان .

وحديقه الروضة ذات الشجر .

وفي حُجْرة وعِلّية وغرفة ومقصوره وخِدر وحَجَلة ومِنَصّة .

وسِدار شبه الخِدر والموصّد الخدر .

وحُشّة القبة العظيمة .

وجُنْبُذة كالقبة .

وعرش الخيمة والبيت الذي يستظل به كالعرش .

وكِرح بيت الراهب ومثله الركح .

وكوخ البيت المسنّم من قصب .

وصومعه بيت للنصارى .

ورِيْع الصومعة .

وفنزر	بيت يتخذ على خشبة طولها نحو ستين ذراعاً للربيئة .
وبَهو	البيت المقدم امام البيوت .
وحِلة	جماعة بيوت الناس او مئة بيت والمجلس والمجتمع .
وفُسْطاط	السرادق من الابنية ومثله المضرب .
وكِبس	بيت من طين .
وحِفش	البيت الصغير جداً .
وجَنز	البيت الصغير من الطين .
وخصّ	البيت من القصب أو — .
ورَدهه	البيت الذي لا عظم منه .
ومَجلوُه	البيت الذي لا باب فيه ولا ستر .
ووَأم	البيت الدفيء .
وأُقنه	بيت من حجر .
وطِراف	البيت من أدم .
ووَسُوط	بيت من بيوت الشعراء وهو اصغرها .
وَطنف	السقيفة تشرع فوق باب الدار .
ونُزُل	ما هيّء للضيف ان ينزل عليه .
ومَغنى	المنزل الذي غنى به اهله ثم ظعنوا او عامّ .
ومعهد	المنزل المعهود به الشيء .
ومَعان	المباءة والمنزل .
ونديّ	مجلس القوم نهاراً او — .
ومُرْتبَع	الموضع يرتبعون فيه في الربيع .

ومصيف ومشتى معروف .

ودسكرة	بناء كالقصر حوله بيوت او — .

ومُشْرقة	موضع القعود في الشمس بالشتاء .
ومضحاة	ارض مضحاة لا تكاد تغيب عنها الشمس .
وظُلّة	شيء كالصفّة يستتر به من الحر والبرد .
ومشربه	الغرفة والعلية والصفة .
وسُعنه	الزَفْن او مطلق المظلة .
ومظلة	الكبير من الاخبية .
وساباط	سقيفة بين دارين تحتها طريق .
وعرْزال	بيت صغير يتخذ للملك اذا قاتل الخ .
وكن	البيت .
وقيطون	المخدع .
وسَرَب	الحفير تحت الارض
ودِيْماس	الكنّ والسَرَب والحمّام .
وبُرج	معروف .
وصَهْوة	البرج في اعلى الرابية .
وصرح	القصر وكل بناء عال .
وعَقر	البناء المرتفع .
وطِربال	كل بناء عال .
وأزَج	ضرب من الابنية .
وإيوان	الصفة العظيمة كالازج .
ورواق	بيت كالفسطاط او سقف في مقدّم البيت .
وأجم	كل بيت مربع مسطح وبضمتين الحصن .
وكَعبه	الغرفه وكل بيت مربّع .
وأطُم	القصر وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح .

ووُشِيع	عريش يبنى للرئيس في المعسكر .
وسُنَّيق	بيت مجصّص .
وجَوسق	القصر .
ودوشق	البيت ليس بكبير ولا صغير او البيت الضخم .
وُقهقور	بناء من حجارة طويل .
وبُغبور	الحجر الذي يذبح عليه القربان للصنم .
وزُور	مجلس الغناء .
وبُدّ	بيت الصنم .
وزُون	الموضع تجمع فيه الاصنام وتنصب وتزيّن .
ومسجد	معروف .
وكنيسه	معروف .
وفهْر	مدارس اليهود تجتمع اليه في عيدهم . او -- .
ومدراس	الموضع يقرأ فيه القرآن ومنه مدارس اليهود .
وفي كوكبان	حصن باليمن رصع داخله بالياقوت فكان يلمع كالكوكب
والجَوْسق	دار بنيت للمقتدر في دار الخلافة في وسطها بركة من الرصاص ثلاثون ذراعاً في عشرين .
وقصر النعمان الذي بناه السنمار	هو رجل اسكاف بنى قصراً للنعمان بن امرىء القيس فلما فرغ القاه من اعلاه لئلا يبني لغيره مثله او هو غلام لاحيحة بنى أطـُمة فلما فرغ قال له لقد احكمته قال اني لاعرف فيه حجراً لو نزع لتقوض من عند آخره فسأله عن الحجر فاراه موضعه فدفعه احيحة من الاطم فخرّ ميتا .
والجعفريّ	قصر للمتوكل قرب سرّ من رأى .
والمارد	حصن بدومة الجندل .

والأبلق حصن بتيماء قصدتها الزباء فعجزت فقالت تمرّد مارد وعزّ الابلق .

وصِرْواح حصن بناه الجن لبلقيس .

ودار الخيزران بمكة بنتها خيزران جارية الخليفة .

وقصر بَهرامجور من حجر واحد قرب همذان .

وقصر غفراء بالشام .

والبديع بناء عظيم للمتوكل بسر من رأى .

وزُعيرة حصن قرب الكرك .

وقصر عسل بالبصرة .

والندّ حصن باليمن .

والغُفْر حصن بها .

وسمدان حصن بها عظيم .

والشَخَب حصن بها .

وثرَبان حصن بها .

وهِرّان حصن بها .

وشواحط حصن بها .

والمَوْهبة حصن بها .

والظُفير حصن يماني صنعاء .

ولَسيس حصن باليمن .

والنجير حصن قرب حضرموت .

وغُمدان قصر باليمن بناه يشرخ باربعة وجوه احمر وابيض واصفر واخضر وبنى داخله قصراً بسبعة سقوف بين كل سقف اربعون ذراعاً.

لما انفك ان يصرخ ويقــول المرأة المرأة . ومن لي بالمرأة . ولا عيش الا مع المرأة . ولو انزلته في

شعب بوان	احدى الجنان الاربع .
وصنعاء	د باليمن كثيرة الاشجار والمياه تشبه دمشق .
والسُغْد	بساتين نزهة واماكن مثمرة بسمرقند .
والشَعْران	جبل قرب الموصل من اعمر الجبال بالفواكه والطيور .
والوَهط	بستان ومال كان لعمرو بن العاص على ثلاثة اميال من وَجّ كان يعرش على الف الف خشبة شراء كل خشبة درهم .
وبَلَنْسية	د شرقي الاندلس محفوف بالجنان لا ترى الا مياهاً تدفع ولا تسمع الا اطياراً تسجع .
ومَرْسية	د اسلامي بالمغرب كثير المنازه والبساتين .
وثمانين	بلد بناه نوح عم لما خرج من السفينة ومعه ثمانون نفساً .
وجابَلص	د بالمغرب ليس وراءه انسي .
والراهُون	جبل بالهند هبط عليه آدم عماء .
والجوديّ	جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عماء .
وقاف	جبل محيط بالارض او من زمرد وما من بلد الا وفيه عرق منه وعليه مَلَك اذا اراد الله ان يهلك قوماً امره فحرّك فخسف بهم .
والقِيق	جبل محيط بالدنيا ومثله الفِيق .
والساهِرة	ارض يجردها الله يوم القيامة .

لما انفك يصرخ ويقول المرأة المرأة . ومن لي بالمرأة . ولا عيش الا مع المرأة . بل لو صعد الى

المِشريق	باب للتوبة في السماء .
وطوبى	شجرة في الجنة .
وعلّيين	في السماء السابعة تصعد اليه ارواح المؤمنين جمع عِلي .
والضُراح	البيت المعمور في السماء الرابعة .

وبُرقع اسم للسماء السابعة او الرابعة او الاولى .

والحاقورة اسم للسماء الرابعة .

والصاقورة اسم للسماء الثالثة .

والغُرفة السماء السابعة وكذا عَروبا وفيها سدرة المنتهى .

وعِقيون بحر من الريح تحت العرش فيه ملائكة من الريح معهم رماح من الريح ناظرين الى العرش تسبيحهم سبحان ربنا الاعلى .

والاعْراف سور بين الجنة والنار .

لاخذ يزعق بجامع حلقومه ويقول المرأة المرأة . فاني ما دمت بشراً لا بد لي من المرأة . ولو اريته من الغرائب

السَكينة شيء كان له رأس كرأس الهر من زبرجد وياقوت وجناحان.

والكِلواذ تابوت التوراة .

وقُرْطي مارِيَّة هي مارية بنت ارقم او ظالم كان في قرطها مائتا دينار او جوهر قوّم باربعين الف دينار او درّتان كبيضتي حمامة لم ير مثلهما قط فاهدتها الى الكعبة .

وقنطرة خُرّزاذا امّ ازدشير بسمرقند بين ايدج والرباط من عجائب الدنيا طولها الف ذراع وعلوها مائة وخمسون اكثرها مبني بالرصاص والحديد .

وتابوت تاحة هي تاحة بنت ذي الشُفْر قال ابن هشام حفر السيل عن قبر باليمن فيه امرأة في عنقها سبع مخانق من در وفي يديها ورجليها من الاسورة والخلاليل والدماليج سبعة سبعة وفي كل اصبع خاتم فيه جوهرة مثمنة وعند رأسها تابوت مملوء مالاً ولوح فيه مكتوب باسمك اللهم اله حمير انا تاحة بنت ذي شفر بعثت مائرنا الى يوسف فأبطأ علينا فبعثت لاذتي بمُدّ من ورق لتأتيني بمد من طحن فلم تجده فبعثت بمدّ من ذهب

فلم تجده فبعثت بمد من يجري فلم تجده فامرت به فطحن فلم انتفع به فاقتفلت فمن سمع بي فليرحمني وايـة امرأة لبست حلياً من حليي فلا ماتت الا ميتتي .

وذا الفَقار سيف العاص بن منبّه قتل يوم بـدر وكان كافراً فصار الى النبي صلعم ثم صار إلى عليّ .

والكَشُوح من السيوف السبعة التي اهدتها بلقيس الى سليمان عم .

والجِنّ حيّ من الجنّ منهم الكلاب السود البهم او سفـلة الجن وضعفاؤهم وكلابهم او خلق بين الانس والجن .

وأوْرَامالجَوْز قرية بحلب فيهـا اعجوبة وهي ان المجاورين لها من القرى يرون فيها بالليل ضوء نار في هيكل فيها فاذا جاءوه لا يرون شيئاً .

والرئىّ جنّي يُرَى فيُحب .

وفرس قاين الذييقال له هِجْدَم يقال اول من ركبه ابن ادم القاتل حمل على اخيه فزجر الفرس فقال هج الدم فخفف .

والعصافير شجر يسمّى من رأى مثلي له صورة كالعصافير كثيرة بفارس.

والنَسْناس جنس من الخلق يثب احدهم على رِجْل واحدة وفي الحديث ان حيّا من عـاد عصوا رسولهم فمسخهم الله نسناساً لكل انسان منهم يد ورجل من شق واحد ينقزون كما ينقز الطائر ويرعون كما ترعى البهائم وقيل اولئك انقرضوا والموجود على تلك الخلقة خلق على حدة او هم ثلاثة اجناس ناس ونسناس ونسانس او النسانس الاناث منهم او هم ارفع قدراً من النسناس او هم ياجوج وماجوج او هم قوم من بـني آدم او خلق على صورة الناس وخالفوهم في اشياء وليسوا منهم .

ودُغموصا رجل زناء مسخه الله دعموصاً لدويبة او دودة سوداء تكون في الغدران اذا نشّت .

وعَبّودا عبد اسود اول الناس دخولا الجنة .

وعامر بن جَدَرة اول من كتب بخطنا .

ومُرامرا اول من وضع الخط العربي .

وابا عِبْرْوة رجل كان يصيح بالاسد فيموت فيشق بطنه فيوجد قلبه قد زال من موضعه .

وطَخْمُورث ملك من عظماء الفرس ملك سبعمائة سنة .

والوَضّاح رجل ملك الارض وكانت امه جنيّة فلحق بالجنّ .

والرابضة ملائكة هبطوا مع ادم وبقية حملة الحجة لا تخلو الارض منهم .

واليَبروح اصل اللفّاح شبيه بصورة انسان .

وسُكَينة اسم البقّة الداخلة انف نمرود .

وطاخية نملة كلمت سليمان عم .

وعَينجَلوف اسم النملة المذكورة في القرآن .

والتُخَس دابة بحريــــة تنجي الغريق تمكنه من ظهرها ليستعين على السباحة وتسمى الدلفين .

والجَسّاسة دابة تكون في الجزائر تجسّ الاخبار فتأتي بها الدجال .

والرُخّ طائر كبير يحمل الكَرَكَدّن .

والكركدن دابة تحمل الفيل على قرنها .

والزَبْعَرَى دابة تحمل الفيل بقرنها .

والعَقام سمك وحيّة تسكن البحر ويأتي الاسود من البر فيصفر على الشط فتخرج اليه العقام فيتلاويان ثم يفترقان فيذهب كل منهما الى منزله .

وبنت طَبَق سلحفاة تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف وتبيض بيضة تنقف عن حية .

والفلتان طائر يصيد القردة .

والبُلَت طائر محترق الريش ان وقعت ريشة منه في الطير احرقته .

والسُمنْدل طائر بالهند لا يحترق بالنار .

والتّهبط طائر اغبر يتعلق برجليه ويصوت بصوت كأنه يقول انا اموت انا اموت .

والأنن طائر كالحمام صوته انين اوه اوه .

والزماح طائر يأخذ الصبي من مهده .

والهديل فرخ على عهد نوح عم مات عطشاً او صاده جارح من الطير فما من حمامة الا وهي تبكي عليه .

والقَرْقفنّة طائر يمسح جناحيه على عيني القنذع الديوث فيزداد لينا .

والقَقَنّس طائر عظيم بمنقاره أربعون ثقباً يصوت بكل الانغام والالحان العجيبة المطربة يأتي الى رأس جبل فيجمع من الحطب ما شاء ويقعد ينوح على نفسه اربعين يوماً ويجتمع اليه العالم يستمعون اليه ويتلذذون ثم يصعد الى الحطب ويصفق بجناحيه فينقدح منه نار ويحترق الحطب والطائر ويبقى رماداً فيتكوّن منه طائر مثله ذكره ابن سينا في الشفاء . لمدّ عنقه وجعل اصابعه في اذنيه واذّن صارخاً . هاي هاي المرأة المرأة. أروني المرأة. مايجزئني شيء عن المرأة. ولوانك لاعبته.

بالجنابي لعبة للصبيان .

وحَدَبْدَبى لعبة للنبيط .

والطبطابة خشبة عريضة يلعب بها بالكرة .

والقرطبى ضرب من اللعب ونوع من الصراع .

والكبكب لعبة .
والكوبة النرد او الشطرنج .
والهباب لعبة للصبيان .
وكتكتى لعبة .
والبُحَيْثَى لعبة بالبُحاثة أي التراب .
والكُثُكُثَى لعبة بالتراب .
والطَثّ لعبة للصبيان يرمون بخشبة مستديرة تسمى المِطَثّة .
واللُوثة خرقة تجمع ويلعب بها .
والأنبُوثة لعبة يدفنون شيئاً في حفير فمن استخرجه غلب .
والشطرنج معروف .
والخَرْيج لعبة يقال لها خَراجِ خراجِ .
والفَنْزَج رقص للعجم .
والقَجْقَجة لعبة يقال لها عَظم وضّاح .
والكُجَّة لعبة يأخذ الصبي خرقة فيدّورها كانها كرة .
والكَجْكجة لعبة تسمى است الكلبة .
والجُمّاح تمرة تجعل على رأس خشبة يلعب بها الصبيان .
والجَمْح رمي الصبي الكعب بالكعب حتى يزيله عن مكانه .
ودِحنْدِح لعبة للصبية يجتمعون لها فيقولونها فمن اخطاها قام على رجل وحجل سبع مرات .
والدّاح نقش يلوّح للصبيان يعلّلون به ومنه الدنيا داحة .
والرُجّاحه حبل يعلق ويركبه الصبيان .
والدُبّاخ لعبة .
والدُماخ لعبة للاعراب .
والمطخّة خشبة يلعب بها الصبيان .

والطرِيْدة لعبة تسميها العامة المَسّة والضَبْطه فاذا وقعت يد اللاعب من آخر على بدنه أو رأسه او كتفه فهي المسّة واذا وقعت على الرجل فهي الآسن .

والنَرْد معروف

والمواغدة لعبة وان تفعل كفعل صاحبك .

والباقر لعبة .

والبُقَيْرى لعبة .

والجِمِرّى لعبة للصبيان وهو ان يحمل الصبي بين اثنين على ايديهما .

والحاجُورة لعبة تخط الصبيان خطاً مدوراً ويقف فيه صبي ويحيطون به ليأخذوه .

والدِكْر لعبة للزنج والحبش .

والسَحّارة شيء يلعب به الصبيان .

والسُدَّر لعبة للصبيان .

والعَرْعرة لعبة للصبيان .

والشَعارير لعبة .

والمِنْجار لعبة للصبيان او الصواب الميجار .

والتُوْز خشبة يلعب بها بالكجة .

العَرْز عرز لفلان قبض على شيء في كفه ضاماً عليه اصابعه يريه منه شيئاً لينظر اليه ولا يريه كله .

والقُفَيْزى لعبة للصبيان ينصبون خشبة ويتقافزون عليها

والنُفّاز لعبة لهم يتنافزون فيها اي يتواثبون .

والبُكْسة الكجة .

والحوالِس لعبة للصبيان .

والدُسّة	لعبة .
والدَعْكسة	لعب للمجوس كالرقص .
والفِسْفسى	لعبة لهم .
والفاعوس	لعبة لهم .
والبوصاء	لعبة لهم يأخذون عوداً في رأسه نار فيديرونه على رؤوسهم .
والرَقاصة	لعبة .
والحُوْطة	لعبة تسمى الدارة .
والخطة	لعبة للاعراب .
والضّبْطة	لعبة لهم .
والتَّضَرفُط	وهو ان تركب احداً وتخرج رجليك من تحت ابطيه وتجعلهما على عنقه .
والمَقْط	مقط الكرة ضرب بها الارض ثم أخذها .
والضُرَيفِطيّة	لعبة لهم .
والمِرْصاع	دُوّامة الصبيان وكل خشبة يدحى بها .
واليَرَمع	الخذروف
وقَلوَبَعْ	لعبة لهم .
والجحفة	اللعب بالكرة .
والخذروف	شيء يدوره الصبي بخيط في يده فيسمع له دويّ ويسمى ايضاً الخُذرة والقرصافة والخذروف ايضاً طين يعجن يعمل شبيهاً بالسكر يلعب به الصبيان .
والزحلوفة	تزلج الصبيان من فوق التل الى اسفله .
والعياف	العياف والطريدة لعبتان لهم .
وقاصّة قرصافة لعبة لهم .

والحُزُقّة ضرب من اللعب .
والدَبّوق لعبة .
والزُحلوقة الارجوحة .
والشَفَلّقة لعبة وهوان يكسع انساناً من خلفه فيصرعه .
والعَفْقة لعبة .
والعُقّة التي يلعب بها الصبيان .
والقِرّق لعب السدّر .
والكُرك لعبة لهم .
ودبّى حجَل لعبة .
والدَخيلياء لعبة لهم .
والدِرَقْلة لعبة للصبيان .
والدِركلة لعبة للعجم أو ضرب من الرقص أو هي حبشية .
والفِئال لعبة للصبيان يخبّون الشيء في التراب ثم يقسمونـه ويقولون في أيهاهو .
والفيال لعبة لفتيان العرب .
والدمّة لعبة .
والدوّامة التي يلعب بها الصبيان فتدار وتسمى ايضاً المِرْصاع .
والمَرْغمة لعبة لهم .
والشَحْمة لعبة لهم .
وعظم وضاح لعبة لهم .
والمِهْزام عود يجعل في رأسه نار يلعبون به .
والبرْطَنة ضرب من اللهو كالبرطمة .
والتوْن خرقة يلعب عليها بالكجة .
والطُبَن لعبة لهم .
والقِنّين لعبة يتقامر بها .
والكبنة لعبة .

والدَّبَّة	لعبة للصبيان .
والجذاء	خشبة مدورة تلعب بها الاعراب .
والخاساة	خاساه لاعبه بالجوز فرداً أو زوجاً .
والقزة	لعبة .
والقلة	عودان يلعب بها الصبيان .
	لشحر فاه وشحاه وعجاه وزاد صراخاً وضجيجاً وهو يقول المرأة المرأة . الا فلاعبوني بالمرأة . ولو انك طربته .
بالرّباب	معروف .
والعرطبة	العود أو الطنبور او الطبل او طبل الحبشة .
والكُوبة	البربط والطبل الصغير المخصّر .
والدريج	شيء كالطنبور يضرب به .
والصنج	شيء يتخذ من صفر يضرب احدهما على الآخر وآلة باوتار يضرب بها معرّب والصيار صوت الصنج .
والوَنج	ضرب من الاوتار او العود او المعزف .
والعود	معروف .
والمزمار	ما يزمّر به ويقال له ايضاً الزمخر والزنبق والصلبوب والنقيب والقصابة والهبنوقة .
والمزهر	العود يضرب به .
والشبُّور	البوق ويقال له ايضاً القُبع والقشْع والقُنع والصُور .
والطنبور	معروف .
والكنّارات	العيدان او الدفوف او الطبول او الطنبور .
والكوس	الطبل .
والبربط	العود .
والشِياع	مزمار الراعي .
والهيرعة	اليراعة يزمر بها الراعي .
والدف	معروف .

والمِستُقة	آلة يضرب بها الصنج ونحوه .
والعَركل	الدف والطبل .
والصّغانة	من الملاهي معرّبة .
والطبن	الطنبور أو العود .
والقنّين	الطنبور .
والكران	العود أو الصنج .
والونّ	الصنج .

لظل فاغراً فاه وهو يزعق ويقـول المرأة المرأة . الا فطرّبوني بالمرأة . ولو اطعمته .

الجوذاب	طعام يتخذ من سكر ورز ولحم .
والقبيب	الإقط خلط رطبه بيابسه .
والكِباب	معروف .
والسَنّوت	الزبد والجبن والعسل وضرب من التمر .
واللـَفيتة	العصيدة المغلّظة او مرقة تشبه الحيس .
والنـَفيتة	طعام اغلظ من السخينة .
والعُلاثة	سمن واقط يخلط .
والغَبيثة	لت الاقط بالسمن كالعبيثة .
والسِكباج	معروف .
والطبَاهجة	اللحم المشرّح .
والناجِة	طعام جاهلي .
والاخيـِخة	دقيق يعالج بالسمن او الزيت .
والقـَفيخة	طعام يعالج بالتمر والاهالة .
والكامخ	ادام .
والثريد	معروف .
والرشيدية	طعام معروف فارسيته رشته .
والرّهيدة	البُرّ يدق ويصب عليه لبن .

والشّهيدة البَرَق المشوي .
والقديد اللحم المشرّر المقدّد .
والحَنِيذ حنذ الشاة شواها وجعـل فوقها حجارة محماة لينضجها فهي حنيذ .
والزُماوَرْد طعام من البيض واللحم ويسمى ايضاً الميسر .
والبرابير طعام يتخذ من فريك السنبل والحليب .
والبُورانية طعام ينسب الى بوران بنت الحسن بن سهل زوج المأمون .
والجاشِريّة طعام .
والَجعاجر ما يتخذ من العجين كالتماثيل فيجعلونها في الربّ اذا طبخوه.
والَحريرة دقيق يطبخ بلبن او دسم .
والَحكر السمن بالعسل يلعقها الصبي .
والمَخْبور الطعام المدسّم والُخبرة والثريـدة الضخمة — والطعام واللحم وما ُقدّم من شيء وطعام يحمله المسافر في سفرته وقصعـة فيها خبز ولحم بين اربعة او خمسة .
والَخزيرة شبه عصيدة بلحم .
والصَحيرة اللبن الحليب يغلى ثم يصب عليه السمن .
والغذيرة دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضف .
والفُرفور سويق من ثمر اليَنبوت .
والمُرّيّ ادام الكامخ .
والمَضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير .
والنَجيرة لبن يخلط بطحين او سمن .
والوَغير لبن يغلى ويطبخ .
والَخاميز مرق السكباج .
والَخنيز الثريد من الخبز الفطير .
والمُرزّز الطعام المعالج بالرز .
والبَسيسة لت الاقط المطحون بالسمن .

والحميسة القليّة .

والحَيس تمر يخلط بسمن واقط فتعجن شديداً .

والكسيس لحم يجفف على الحجارة فاذا يبس دق فيصير كالسويق .

والهريسة معروف .

والبَوش طعام بمصر من حنطة وعدس يجمع ويغسل في زنبيل ويجعل في جرة ويطين ويجعل في تنور .

والجَشيش السويق وحنطة تطحن جليلاً فتجعل في قدر ويلقى فيه لحم او تمر فيطبخ .

والرَشرش السمين من الشواء .

والقميشة طعام من اللبن وحب الحنظل ونحوه .

والمكرّشة طعام يعمل من اللحم والشحم في قطعة مكورة من كرش البعير .

والكوشان طعام من الرز والسمك .

والآمِص الآمص والاميص طعام يتخذ من لحم عجل بجلده او مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن .

والخبيص طعام من التمر والسمن ويسمى ايضاً البَروك .

والعَمُص ضرب من الطعام .

والكريص طبخ الحماض باللبن فيجفف فيؤكل في القيظ .

والمَصُوص طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل او يكون من لحم الطير خاصة .

والآقط شيء يتخذ من المخيض الغنمي .

والمبرقط طعام يفرّق فيه الزيت كثيراً .

والبَهط الارز يطبخ باللبن (معرب) .

والخليط الجدي اذا سلخ فشوي .

والسميط الجدي اذا نزع شعره فشوي

والسُرَيْطاء حساً كالحريرة .

والسُوَيْطاء مرقة كَثر ماؤها وثمرها أي بصلها وحمصها وسائر الحبوب .
والتَشييط لحم يشوى للقوم .
والحَديمة طعام لهم .
والخَذيعة طعام بالشام من اللحم مشتق من خذع أي حزّز وقطع والمخذّع الشواء .
والخَلْع لحم يطبخ بالتوابل في وعاء من جلد او القديد المشوي في وعاء باهالته .
والرَصيعة البُريدق بالفهر ويبلّ ويطبخ بالسمن .
والوَضيعة حنطة تدق فيصب عليها السمن فيؤكل .
والثميغة ما رقّ من الطعام واختلط بالوَدَك .
والخَطيفة دقيق يذر عليه اللبن ثم يطبخ .
والصفصفة السكباجة .
والطِحْرف حسا رقيق دون العصيدة .
والمُوخِف طعام من اقط مطحون يذر على ماء ثم يصب عليه السمن .
والألوقة طعام طيب او زُبد بُرطَب .
والحَروقة طعام اغلظ من الحسا .
والمدقّقة من الطعام (مولدة) .
والرَوْذَق الحمل السميط وما طبخ من لحم وخلط باخلاطه .
والزُريقاء الثريدة بلبن وزيت .
والسَليقة الذرة تدق وتصلح او الاقط خلط به طرائيث وما سلق من البقول ونحوها .
والسويق معروف .
والشُبارق ما اقتطع من اللحم صغاراً وطبخ .
والوشيق لحم يقدد حتى ييبس او يُغلَى اغلاءة ثم يقدد ويحمل في الاسفار .
والوليقة طعام يتخذ من دقيق ولبن وسمن .

والدَّلِيك طعام من الزبد واللبن او زبد وتمر ونبات وثمر الورد الأحمر يخلفه ويحلو كأنه رطَب الخ .

والربيكة اقط بتمر وسمن .

والسَّهيكة طعام .

والفَريك طعام يفرك ويلت بسمن وغيره .

واللّبيكة اقط ودقيق او تمر وسمن يخلط .

والوديكة دقيق يشاط بشحم .

والبَكيلة دقيق بالرب او بالسمن والتمر .

والحَذَل حب شجر ويختبز .

والطَفَيْشَل نوع من المرق .

والعَوْكل ضرب من الادام .

والزَوْم طعام لاهل اليمن من اللبن لذيذ .

وابا عاصم السويق والسكباج .

والهُلام طعام من لحم عجل بجلده او مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن .

والسَّخينة طعام رقيق يتخذ من دقيق .

والكُبان طعام من الذرة لليمنيين .

والتلبينة حساء يتخذ من نخالة ولبن وعسل .

والَجليهة تمر يعالج باللبن .

والارة القديد ولحم يغلى بالخل اغلاءة فيحمل في السفر .

والآصية طعام كالحسي بالتمر .

والاطرية طعام كالخيوط من الدقيق .

والكدى لبن ينقع فيه التمر تسمَّن به البنات . ولو اطعمته من انواع الكمأة الذُبَح والفرحانة والقرحان والغرد وبنات أوبر والجاميس والفقع والبرنيق والذعلوق والقعبل والعرجون والعرهون ومن انواع السمك القباب والهازبي والكنعت والكنعد والخباط وهي اولاده والبينيث والمدج والابدح

والقد والغوبر والزمير والزنجور والاشبور والطنز والانقليس والجوفي واللخم واللحم وابامَرينا .

والصِلِنباح	سمك طويل دقيق .
والحافرة	سمكة سوداء .
والجرّي	سمك طويل املس لا يأكله اليهود وليس عليه فصوص .
والصَرصران	سمك املس .
والغارّة	سمكة طويلة .
والقيصانه	سمكة صفراء مستديرة .
والشبّوط	سمك دقيق الذنب عريض الوسط لين المسّ صغير الرأس كأنه بَربط .
والجنيس	سمكة بين البياض والصفرة .
والضلعة	سمكة صغيرة خضراء قصيرة العظم .
والحفة	سمكة بيضاء شاكة .
والعُفة	سمكة جرداء بيضاء طعم مطبوخها كالارز .
والخذّاق	سمكة لها ذوائب كالخيوط .
والحاقول	سمك اخضر طويل .
والقتن	سمكة عريضة قدر راحة .
والغلاء	سمك قصير .
والهف	السمك الصغار الهاربة .
والبَلم	صغار السمك .
والصحناة	ادام يتخذ من السمك الصغار .
والصير	الصحناة او شبهها والسميكات المملوحة يعمل منها الصحناة .
والحريد	السمك المقدد .
والقريب	السمك المملوح ما دام في طراءته .
والطريخ	سمك صغار تعالج بالملح .
والحساس	سمك صغار تجفف .

والنشوط	سمك يقر في ماء وملح .
والأربيان	سمك كالدود .
والصُعقر	بيض السمك .
والسِكل	سمكة سوداء ضخمة .
والزجْر	سمك عظام
والبال	الحوت العظيم .
والأطوم	سمكة بحرية غليظة .
والجيذرة	سمكة كالزنجي الاسود الضخم .
والبنبك	دابة كالدلفين .
والجمل	سمكة طولها ثلاثون ذراعاً .
واللياء	سمكة تتخذ منها الترسة الجيدة وهوايضاً شيء كالحمص شديد البياض توصف به المرأة .
والتنخس	تقدم ذكرها في الغرائب . ومن المحار :
السُلج	اصداف بحرية فيها شيء يؤكل .
والدُلاّع	ضرب من محار البحر .
والقرثع	دويبة بحرية لها صدفة .
والجمّحل	لحم يكون في جوف الصدف . ومن انواع الخبز :
الطرموث	خبز الملّة ومثله المفتأد والمضبـاة والطرموس والإصطـكة والأصطـُكة . ومن الغرائب هنـا ان صاحب القاموس اورد التي بالكسر بعد ا ش م والتي بالضم بعد ص ط م .
والزلحلحة	الرقيقة من الخبز وكذا الصريقة .
واللحوح	خبز شبه القطائف .
والانبخاني	خبزة انبخانية ضخمة .
والخبرة	الثريدة الضخمة .
والمشطور	الخبز المطلي بالكامخ .
والسلجن	الكعك .

والخنيز		الثريد من الخبز الفطير .
والرشرش		اليابس الرخو من الخبز كالرشراش .
والهشاش		الخبز الرخو اللين .
والمربّقة		الخبزة المشحمة ونحوها المروّلة .
والرقاق		الخبز الرقيق .
والضغيفة		خبز الأرز المرقق .
والملّى		الخبزة المنضجة . ومن اجناس اللبن :
السّمعج		اللبن الدسم الحلو ومثله السملج والسمهج والسهمجيج .
والقطبية		لبن المعز والضأن يخلطان او لبن الناقة والشاه .
والشميط		مالا يدرى احامض هو ام حقين من طيبه .
والجلَعْطيط		اللبن الرائب الثخين ومثله ابن عُجْلط وعثلط وعذلط وعكلط وعلبط . تقدم نحوي بغيض كان يتكلم بالاعراب الى لبّان فقال يا لبان اعندك لبن عثلط علبط عجلط فقال له اللبان تنصرف او تُصفع .
والكفنخة		الزبدة المجتمعة البيضاء .
واللياخة		الزبد الذائب مع اللبن .
والقشْدة		الزبدة الرقيقة .
والقلدة		القشدة والتمر والسويق يخلص به السمن .
والنهيد		الزبد الرقيق .
والعكيس		اللبن الحليب تصب عليه الاهالة .
والثميرة		اللبن الذي ظهر زبده .
والنخيسة		لبن العنز والنعجة يخلط بينهما .
والامخاض		الحليب ما دام في الممخضة .
الحالوم		ضرب من الاقط او لبن يغلظ فيصير شبيهاً بالجبن الطري .
ومن الحلواء
الوطيئة		تمر يخرج نواه ويعجن بلبن والاقط بالسكر والكعك .
والعَبيبة		طعام وشراب من العُرفط حلو .

والبرت	السكّر
والضيح	العسل والمقل .
والمَلَخ	عسل في جلّنار المَظّ .
واليَعقيد	طعام يعقد بالعسل .
والفارد	ابيض السكر واجوده .
والقَنْد	عسل قصب السكر .
والفانِيذ	ضرب من الحلواء .
والصَقْر	عسل الرُطب والدبس.
والاكبر	شيء كأنه خبيص يابس ليس بشديد الحلاوة يجيء به النحل
والفالوذ	م ويسمى أيضاً الرعديد والمزَعزَع والزليل والكمص والمزعفر
والماذيُّ	العسل الابيض او الجديد او خالصه وجيده .
والمُسَيَّر	حلواء
واللوزّينج	معروف (معرب) .
والسَوخيز	ثريد العسل .
واللوّاص	الفالوذ والعسل .
والسرْطِراط	الفالوذ أو الخبيص .
والجبيع	تمر يعجن بلبن .
والقطائف	معروف .
والكُرسُفيُّ	نوع من العسل .
والطِبرم	الشهد والزبد والعسل .
والمَنّ	كل طلّ ينزل من السماء على شجر او حجر يحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ الخ .
والزّلابية	حلواء معروف . ومن الثمر .
الصربَة	شيء كراس السنور فيه شيء كالدبس يمص ويؤكل .
والعتُرب	شجر كالرمان يؤكل .
والبُوت	شجر نباته كالزعرور .

والرعثاء	عنب له حب طوال .
والجُوحِ	البطّيخ الشامي .
والصَدح	ثمرة اشدّ حمرة من العُنّاب .
والمُلاحي	عنب ابيض طويل ونوع من التين .
والعَنجَد	الزبيب او ضرب منه .
والفرْصاد	التوت او حمله او احمره .
والقَثَد	نبت يشبه القثاء او الخيار .
والكَشد	حب يؤكل .
والمرِيد	التمر ينقع في اللبن .
والمغَد	ثمر يشبه الخيار .
والخناذ	المشمش .
والصُفريّة	تمر يماني يجفف بُسراً فيقع موقع السكر في السويق .
والضمير	العنب الذابل .
والزِنبار	التين الحلواني .
والسُكَّر	من احسن العنب .
والزَعراء	ضرب من الخوخ .
والشّعْراء	ضرب منه ايضاً .
والمِغثَر	شيء ينضجه الثام والعُشَر والرِمْث كالعسل وكذا المِغفَر .
والغَوْفر	البطيخ الخريفي او نوع منه .
والقُبّر	عنب ابيض طويل .
والمَزْمار	الرمان الكثير الماء لا شحم له .
والنَهير	العنب الابيض والكُلافيّ عنب ابيض فيه خضرة .
والجَوْزة	ضرب من العنب .
والمِشْلوز	المشمش الحلو .
والبَلَس	ثمر كالتين .
والضّغابيس	صغار القثاء او نبات كالهليون .

والمَيس نوع من الزبيب .

والكِشْمش عنب صغار لا عجم له الين من العنب .

والضُرُّوع عنب ابيض كبار الحب .

والأقماعيّ عنب ابيض يصفرّ اخيراً حبه كالورس .

والمَيعة شجرة كالتفاح لها ثمرة بيضاء اكـــبر من الجوز تؤكل ولبّ نواها دسم يعصر منه الميعة السائلة (في قول) .

والغاف شجر له ثمر حلو جداً .

والباسِق ثمرة طيبة صفراء .

والرازِقيّ العنب المُلاّحي .

لزاد شحر فمٍ وزعيقاً ولغطاً وزياطاً وضجيجاً وهو يقول المرأة المرأة . الا فلحسوني المرأة . ولو انك سقيته من الشراب :

الرحيق ممزوجاً بالبند الرحيق الخمر او أطيبهـــا او الخالص أو الصافي . والبند الذي يسكر من الماء .

والسَلْسل ممزوجة بالسلسل السلسل الماء العذب ومن الخمر اللينة .

والمِسطار مزاجها العَضْرس المِسْطار الخمر الصارعة لشاربها والعضرس الماء البارد العذب والثلج .

والإسْفِنط مزاجها النَقِز الاسفنط المطيب من عصير العنب او ضرب من الاشربة او اعلى الخمر . والنقز الماء الصافي العذب .

والخرطوم ممزوجة بالماء الزلال الخرطوم الخمر السريعة وماء زلال كغراب سريـــع المرّ في الحلق بارد عذب صاف سهل سَلِس .

والمعتّقة مزاجها الفُرات المعتقة الخمر القديمة والفرات الماء العذب جداً .

والمثلّث شراب طبخ حتى ذهب ثلثاه .

والفَضيخ عصير العنب وشراب يتخذ من بُسر مفضوخ .

والفُقد شراب من زبيب او عسل الفُقدُد .

والمَقديّ شراب من عسل .

والداذِيّ شراب الفسّاق .

والجمهوريّ	شراب مسكر أو نبيذ العنب اتت علية ثلاث سنوات.
والخُسْرواني	شراب .
والسَّكَر	الخمر ونبيذ يتخذ من التمر .
والغُبَيْراء	السكركة وهي شراب من الذرة .
والمِزر	نبيذ الذرة والشعير .
والكَسِيس	نبيذ التمر .
والبِتْع	نبيذ العسل المشتد او سلالة العنب .
والسُقُرْقَع	شراب يتخذ من الذرة او من الشعير والحبوب .
والجعَة	نبيذ الشعير .
والفقّاع	هذا الذي يشرب لما يرتفع في رأسه من الزبد .
والباذِق	ما طبخ من عصير العنب ادنى طبخة فصار شديداً .
والخليطين	ما ينبذ من البسر والتمر معاً او من العنب والزبيب او منه ومن التمر ونحو ذلك .
والصريّ	الماء من البسر الاحمر والاصفر يصبونه على النبق فيتخذون منه نبيذاً .
والعَكيّ	سويق المقل .
والاطواق	لبن النارجيل وهو مسكر جداً سكراً معتدلاً ما لم يبرز شاربه للريح فان برز افرط سكره الخ .
والصَّعْف	شراب من العسل او يشدخ العنب فيطرح ثم يغلى .
والنبق	دقيق يخرج من لبّ جذع النخلة حلو يقوى بالدبس ثم يجعل نبيذاً .
والسليل	الشراب الخالص.
والمعّمول	المعمول من الشراب ما فيه اللبن والعسل .
والطِلاء	الخمر وخاثر المنّصف وهو الشراب طبخ حتى ذهب نصفه.

لعربد وزاد صراخاً وصياحاً وهو يقول المرأة المرأة .الا فاسقوني المرأة.

بل لو سقيته من الفحفاج والكوثر . ومن رحيق مختوم . مزاجه من تسنيم . وجعلته في جملة من يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب واباريق وكاس من معين . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير ممـــا يشتهون . في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة .لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . وعنده جنّتان . ذواتا افنان . فيهما عينان تجريان .فيهما من كل فاكهة زوجان . من دونهـا جنتان . مدهامتان . فيهـما عينان نضّاختان . فيهما فاكهة ونخل ورمان . فيهن خيرات حسان . فيهـا فاكهة والنخل ذات الاكمام . والحب ذو العَصْف والريحان . بين متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان . بين متكئين على فرش بطائنها من استبرق . وعلى فرش موضونة . يسقون فيها كاساً كان مزاجها زنجبيلا .عينا فيها تسمى سلسبيلا ويطوف عليهم ولدان مخـــلدون اذا رايتهم حسبتهم لولؤا منثوراً . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحُلوا اساور من فضة .

لما رأيته والحالة هذه راضياً من دون المرأة . فاعوذ بالله من هذا الانسان ومع ذلك اي مع كون وجود الطعام والشراب للرجل الزم من وجود المرأة اذ الاول مخلوق لحفظ الحياة والثاني لتقويم الطبيعة على ما سبق ذكره . فان وجود المرأة اصعب منها واكثر تعذراً واغـلى سعراً . اذ الطعـام والشراب يوجدان في كل مكان وزمـان . حتى ان اهل سقر لهم طعـــام من الزقّوم والمُهل والضريع . وشراب من غسلين . وظل من يحموم ولكن ليس لهـم نساء من مارج من النار أو من الشياطين ولا وجود للمرأة ايضاً في السفينـة ولا في دير الرهبان الا نادراً . ولا لراكب فرس او حمـار او جمل او بغل . ولا لساع على القدم . ولا لمباشر الحرب ولا لمسجون . ولا لقبيح الخلقة الا اذا كان جميل الدينار والجـلاء. ولا لشاعر ممـلق وان تملقهن وسهر الليالي في وصف محاسنهن والتشبب بها. ولا لمن به تشويلية وترويلية وزَلقِيّة وزُمالقية وزهلقية وتيتائية واذليلائية ونعنعية وهلوكية وشـــكازية وثيتلية وعنينية وحريكية وطمسلية ومنجوفية وحصوريـــة وسرسية وعجيريـــة وذوذخية

وحوقلية وهوذلية ووخواخية وعذيواطية وعضيوطية وعظيوطية وثتية وثموتية وصفيطية ومجيائية وعتولية . فان قيل ان الادرم لا خبز له ايضاً . قلت يمكن ان يدق له الخبز ناعماً فيمضغه ويجتزيء به . ولكن كيف السبيل الى مضغ المرأة مع التيتائية واخواتها .

ثم انه كما وقعت البلبلة عن ذات المرأة وحارت العقول في السر الذي اودعه الله فيها . من جهة انها اول الاسباب في عمران الكون وخرابه . اذ لا يكاد يحدث في العالم خطب جليل الا وتراها من خلله واقفة وراءه او بالحري مضطجعة . كذلك حصل التشويش والتخليط في اسمها . فالمرأة في لغتنا الشريفة مشتقة من مرؤ الطعام اذ صار مريئاً هنيئاً حميد المغبة . الا انها كثيراً ما تكون طعاماً ذا غصة وشجا وتخمة وتختير وتخثير . ثم ان همزها للوصل ووصلها للهمز . وجمعها من غير لفظ المفرد وهو متعدد . وفي بعض اللغات هي ويل الرجل . وفي بعضها سوأة . فاما الزوجة وهي المفهوم منها انها امرأة وزيادة او نصف امرأة ونصف رجل فقد خصت ترضّياً لها باسماء كثيرة . من ذلك القرينة واشتقاقها معلوم . والعازبة واشتقاقها من عزب اي بعدلانها تعزب عن ابويها الى زوجها او بالعكس او عنه الى غيره . والحُرمة واللحاف لانها تدفيء الرجل بحر جسدها كما سيأتي والحدادة والنِضر العِرس والحليلة واللباس والجثل والحال والخضلّة والشاعة والحنة والربض والنعل ولست ارضى بهذه فالأولى محوها . ومن الغريب انها سميت لباساً ولحافاً ولم تسمّ سروالاً .

قال بعض العلماء اذا اراد الله ان يقضي خيراً على الارض قيّض له امرأة فكانت الوسيلة الى اجرائه . واذا اراد الشيطان ان يقضي شراً توسّل اليه ايضاً بامرأة . وقد اختلفوا في تأويل هذا القول . فالخرجيون على ان دخول المرأة في قضية ملك الانكليز كان للخير المحض . والسوقيون على انه كان للشر الجهنمي . وكذلك قضية ملكتي الانكليز وقضية ايرين زوجة ليو الرابع وثيودورة زوجة ثاوفيليوس . وغير ذلك مما لا يحصى .

واعلم هنا انه لم تجر العادة بان يتخذ من النساء بابا او مطران او رئيس جيش او رئيس سفينة او قاض . وذلك لاتقاء بأسهن وسطوتهن . فان الرجال مستعبدون للنساء بالطبع خلواً من هذه المراتب العلية فكيف بهن اذا ولينها . فان قيل ان الافرنج يتخذون منهن ملكات ويفلحون . قلت قد تقرر عندهم انه اذا كان رئيس الدولة انثى كانت ادارة الاحكام والعمل كله لذكر . ولعل ذلك من مشاكل الامور الانثوية فان هذا التعليل يصدق ايضاً على كون البابا وغيره يتخذ من النساء . ولعلي قد اطلت الكلام هنا على النساء مع انه ربما يوجد فيهن قصار غير جديرات بالطويل منه . فينبغي لي الآن تطليقهن والعود الى ما كنت بصدده . وسأعود اليهن في موضع آخر ان شاء الله .

١٥

. . . .
. . . .
. . . . في ذلك الموضع

١٦

في ذلك الموضع بعينه

لم يطاوعني القلم على الانتقال من هذا الموضع الشهي الى الكلام في الفارياق وامثاله . بل لعله هو نفسه يروم ذلك ايثاراً له على ذاته . فلا بـــد اذاً من الرجوع الى وصف النساء من دون اعتذار اليه فاقــــول : قال بعض الفحول من العلماء ان المرأة اشرف من الرجل وافخم وانبل واحلم وافضل واكرم . اما وجه كونها اشرف فـــلأن شاهدي تأنيثها واقفان في محل مرفوع . بحيث يمكن لهـــا ان تراهما او تريهـــما ايان شاءت من دون تطأطيء رأس وانحناء . وفي ذلك من العز والشرف ما لا يخفـــى . الا ترى ان بعض الادباء قال ان من عزّ لا ان يقولها الانسان وهو رافع رأسه. ومن ذلّ نعم ان يقولها وهو خافضه . امـــا شاهدا الرجل فهما منكوسان في محل منخفض بحيث لا يقدران يراهما الا اذا تطأطأ وانحنى . واما وجه كونها افخم فلأن ساقيهـــا اللتين هما عمودان لهيكل الجسم ، وبطنها الذي هو منبت لتكوّن النسمة . وعجزها الذي هو مورد للاعجــــاز . تكون افخم من ساقي الرجل وبطنه وعجزه . واما وجه كونها انبل فلانها تنبل بما يلقى اليها مدة تسعة اشهر . واما وجه كونها أحلم فلانّ سِمَة الحلم ترى في شاهدي تأنيثها . واما وجـــه كونها افضل فلأنها خلقت من الرجل وعقبه . وهو خلق من تراب . لكنها اذا ماتت (معاذ الله من ذلك) تستحيل الى تراب كالرجل لا الى اصلهـــا الذي اخذت منه أي لا تصير رجلاً ولا ضلعاً واما وجه كونها اكرم فلأنهـــا ارق فؤاداً وارحم قلباً وألين طبعـــاً . فاذا رأت احداً محتاجاً الى شيء من عندها لم تضن به عليه . وناهيك ما جاء عن مادح السيدة زبيدة اذ قال :

ازبيدة ابنـــة جعفر　　طوبى لزائرك المثـاب
تعطين من رجليك ما　　تعطي الاكف من الرغاب

فلما انكر الوصفاء عليه ذلك وهمّوا بضربه انتهرتهم واحسنت اليه لعلمها انه لم يخطيء الوصف .

وقال فحل آخر ان المرأة تعمّر في الغالب اكثر من الرجل . وسبب ذلك انها لما كانت مفطورة على اللين والطفولة والنعومة كان لها ان تتلقى مايستقبلها من الحوادث بالصبر والتأني . فتكون به مَيْلعاً اي تارة تميل الى هذا الشق وتارة الى ذلك . فمثلها كمثل الغصن الرطيب يميل مع الريح فلا ينقصف . فاما الرجل فانه لما كان مفطوراً على القسوحة واليبوسة فمتى دهمه امر تصلب له واقتسح فلا يلبث ان يعطب به . فمثله كمثل الشجرة اليابسة اذا قويت عليها الريح . قال ومن خواصها ايضاً ان الخمرة لا تبلغ منها قدر ما تبلغ من الرجل واختلفوا في تعليل ذلك . فذهب قوم الى ان في دم المرأة قوة جاذبية تغلب على الخمر فتجذبه سفلا فلا يصعد الى دماغها . وزعم بعض ان في المرأة نوعاً من الخمر يسمى رضاباً وهو فيها قوي جداً . بحيث اذا خالطه الشراب ايّ شراب كان ذهب بقوته . والقطرة من هذا النوع تباع احياناً ببدرة واحياناً براس انسان او بعنقه . ومن خواصها ان شعرهـــا يكون اطول من شعر الرجل . وشِعرها ابلغ من شعره . وشعورها ادق . ومشاعرتها انفع . اما الاول فلم يختلف فيه اثنان . واما الثاني فلأنها اذا قالت شعراً فانما تقوله في رجل فهو يعجب الرجال ويبلغ منهم بالطبع . ويعجب النساء بالطبع والصنعة ايضاً . ولعل ذلك مشكل آخر من المشاكل الانثوية . فاني أرى هذا التعليل يصدق على الرجل فانه إنما يقول الشعر في امرأة . ويمكن ان يجاب بان الشاعر المجيد اكثر شعره يكون في غير الغزل . وذلك كاختلاق مدح يفتريه على امير . او وصف مجلس انس او حرب ونحوه . واما الثالث فلأنهـا اذا مرت مثلاً بحانوت بزّاز ورأت بزّاً شفافاً اترنجي اللون . فاول ما تلمحـــه تقول لك هذا يصلح للنّيل . وربما كان فكرك وقتئذ في كتاب تطالعه او في

شُراء حمار تركَبه. واذا رأت ديباجاً اخضر قَالت بيديها هذا يصلح للشتاء . او كتاناً ابيض فاخراً خصصته بالصيف . ثم اذا مرَّت بدكان جوهري او إذا تهوَّستانت واخذتها اليه قالت لك على الفور هذا الحجر الماس يصلح لان يجعل فصاً في خاتم للبنصر . وهذه الياقوتة في خاتم للخنصر . وهذه الزمردة في خاتم للمتوسطة . وهذا الفيروزج في خاتم للسبابة . وهذه الفريدة في خاتم للابهام . وهذه اللآلىء الكبيرة لقلادة في العنق . وهـذه الصغيرة لسوار . وهذه السلاسل الذهب المرصعة توضع في العنق مع القلادة وتدلَّى الى الخصر يعلق بها ساعة من ذهب . وهذه الشنوف الثقيلة للشتاءوتلك الخفيفة للصيف. وهذه المتوسطة للربيع والخريف . وفكرك لم يزل مشغولاً بالحمار فان قيل ان الكاف في فكرك خطاب مطلق لكل قارىءوربما تشرف كتابك هـذا بمطالعة امير او غيره من السادة العظماء فلا يصح توجيه الخطاب اليه . لان الامير لا يفكر في الحمير . قلت قد ورد في سفر التكوين في الفصل السادس والثلاثين ان عانة من ولد سعير الحوري كان يرعى حمير ابيه زبيون وكان اميراً . بل قد علّق عليه في بعض النسخ جِلا دوك وهو اعظم من الامير . ثم انها أي المرأة لم تلبث حالة كونها ناظرة الى تلك الجواهر ان تقسم اهل المصر جميعاً الى خمسة اقسام .

القسم الاول في تهيئة الجواهر

من التِجاب — ما اذيب مرة من حجر الفضة .

والمَشْخَلَبة — خرز بيض تشاكل اللولوا او الحليّ يتخذ من الليف والخرز وقد تسمّى الجارية مَشْخَلبة بما عليها من الخرز وليس على بنائها شيء . قلت وفي محفوظي ان ابن الاثير حكاها بتقديم الخاء على الشين دون هاء .

والضِبْب — حبُّ اللولو .

والقُصُب	ما كان مستطيلاً من الجوهر ...... والدرُّ الرطب والزبرجد الرطب المرصع بالياقوت .
واليَشَب	حجر معروف .
والبَهْت	حجر معروف .
والكبريت	الياقوت الاحمر والذهب او جوهر معدنه خلف التُبّت بوادي النمل وفي ت ب ت تبّت كسكّر بلاد بالمشرق ينسب اليها المسك الاذفر .
والياقوت	معروف .
والدَهْنَج	جوهر كالزمرد .
والزِبْرج	جوهر او الزينة من وشي .
والزبردج	الزبرجد .
والصّليجة	سبيكة الفضة المصفّاة .
والمَرْجان	م وتعريفه في القاموس انه صغار اللولوا .
والخَرايد	الخريدة اللولوة لم تثقب .
والفريد	الشّذر يفصل بين اللولو والذهب ج فرائد والجوهرة النفيسة والدر .
والجُذاذ	حجارة الذهب .
والبلّور	جوهر معروف .
والتِبرْ	الذهب والفضة اوفتاتها قبل ان يصاغا فاذا صيغا فهما ذهب وفضة او ما استخرج من المعدن قبل ان يصاغ ومكسر الزجاج وكل جوهر يستعمل من النحاس والصفر .
والسيراء	الذهب الخالص .
والشَذرْ	قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا اذابة او خرز يفصل بها النظم او هو اللولوا الصغار .
والسَمّور	الماس .

والعُمرة	الشذرة من خرز يفصل بها النظم .
والنـضار	الجوهر الخالص من التبر .
والخـرَز	الجوهر وما ينظم .
والفِلِزّ	نحاس ابيض – او جواهر الارض كلها او ما ينفيه الكير من كل ما يذاب منها .
والهِبْرِزِيُّ	الذهب الخالص .
والترامِس	الجُمان .
والخُصُّ	اللولوة ونحوها الخوضة .
والخِلاص	ما اخلصته من الذهب والفضة .
والدَّليص	ماء الذهب .
والخَضض	خرزبيض صغار يلبسها الصغار .
والشَّمْع	اللولو والصدف .
والجـزَع	الخرز اليماني الصيني .
والزَيْلع	ضرب من الودع .
واليَنَع	ضرب من العقيق .
والـزُخرف	الذهب وكمال حسن الشيء .
والصَّريف	الفضة الخالصة .
والسفائق	السفيقة الضريبة الدقيقة الطويلة من الذهب والفضة ونحوهما .
والعقيق	معروف .
والخَضْل	اللولو والدر الصافي وخرز معروف .
والخـُوْمة	البلور .
والجُمان	اللولو او هنوات اشكال اللولو من فضة او خرزبّيض بمـاء الفضة .
والمينا	جوهر الزجاج .
والمهو	اللولو وحصى ابيض والمهاة البلورة .

والنهاء	الزجاج ويقصر أو القوارير وحجر ابيض ارخى من الرخام — وضرب من الخرز .

القسم الثاني في عمل الحليّ

من البؤبؤ	رأس المكحلة .
والأربة	القلادة .
والارنب	حلى .
والمِعْقب	القرط ومثله الرعثة ج رعاث .
والحِبجّة	خرزة او لؤلؤة تعلق في الاذن .
والدملج	معروف .
واليارج	القلب او السوار .
والجانح	الجانح من الدر نظم يعرّض او كل ما جعلته في نظام .
والداح	سوار ذو قوى .
والسنيح	الدر او خيطه قبل ان ينظم فيه والحلي .
والوشاح	كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف احدهما على الآخر واديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها .
والوضح	حلي من الفضة .
والفتخة	خاتم كبير في اليد او الرجل او حلقة من فضة كالخاتم .
والخلدة	السوار والقرط .
والزارد	المخنقة .
والعضاد	الدملج كالمعضاد .
والعقد	معروف .
والقلادة	ما جعل في العنق .

والمنجد — حلى مكلل بالفصوص وهو من لؤلؤ و ذهب أو قرنفل .. يأخذ من العنق الى اسفل الثديين يقع على موضع النجاد ،
والمسجور — من اللؤلؤ المنظوم المسترسل ،
والسفيرة — قلادة بعرى من ذهب وفضة .
والشعيرة — هنة تصاغ من فضة او حديد على شكل الشعيرة الخ ،
والعِبَرة — قلادة تعجن بالمسك والافاويه ،
والعَمْر — الشنف .
والتقصار — القلادة ج تقاصير .
والكسبر — المسك من العاج كالسوار .
والقماز — او ضُرب من الحلى لليدين والرجلين .
والحِبس — سوار من فضة يجعل في وسط القرام .
والسلس — او القرط من الحلى .
والشمس — ضرب من القلائد .
والقداس — شيء يعمل كالجمان من الفضة .
والكبيس — حلى مجوف محشو طيباً .
والقلادةالمكرسة وهي ان ينظم اللؤلؤ والخرز في خيط ثم يضمّا بفصول بخرز كبار .
والنقرس — شيء يتخذ على صنعة الورد تغرزه المرأة في رأسها ٠
والخربصيص — القرط والحبة من الحلى .
والخرص — حلقة الذهب والفضة او حلقة القرط او الحلقة الصغيرة من الحلى .
والحوط — خيط مفتول من لونين اسود واحمر فيه خرزات وهلال من فضة تشده المرأة في وسطها لئلا تصيبها العين .
والسمط — قلادة اطول من المخنقة .
والعلطة — القلادة .
والقرط — الشنف او المعلق في شحمة الاذن .

واللط القلادة من حب الحنظل المصبغ .
والأنواط المعاليق .
والرصيعة حلية السيف المستديرة او كل حلقة مستديرة في سيف أو سرج او غيرهما .
والشنف القرط الاعلى او معلاق في قوف الاذن او ما علق في اعلاها.
والنطفة القرط واللؤلؤة .
والوقف سوار من عاج .
والحزاق السوار الغليظ .
والحلق خاتم من فضة بلا فص وهو ايضاً خاتم الملك .
والمخنقة القلادة وكذا المزنقة والمعنقة .
والخوق حلقة القرط والشنق .
والديسق كل حلى من فضة بيضاء خالصة .
والزنق كل رباط تحت الحنك .
والسوذق السوار والقلب .
والطارقية قلادة .
والطوق معروف .
والقلقي ضرب من القلائد .
والمسك الاسورة والخلاخيل .
والجديل الوشاح .
والحبلة ضرب من الحلى .
والحجل الخلخال .
والمرسلة قلادة طويلة تقع على الصدر او القلادة فيها الخرز .
والسدل السمط من الدر يطول الى الصدر .
والاشكال حلى من لؤلؤ او فضة يشبه بعضه بعضاً يقرط به النساء الواحد شكل .
والطمل القلادة كالطميل لانها تطمل اي تلطخ بالطيب .

والقُبُل	شيء من عاج مستدير يتلألأ ويعلق في صدر المرأة .
والقِرمل	ما تشده المرأة في رأسها .
والاكليل	شبه عصابة تزيّن بالجوهر .
والمحال	ضرب من الحلى .
والنخل	ضرب من الحلى .
والتهاويل	الالوان المختلفة وزينة التصاوير والنقوش الخ .
والبَريم	حبل للمرأة فيه لونان مزين بجوهر .
والتوائم	توائم اللؤلؤ ما تشابك منها .
والتومة	اللؤلؤة والقرط فيه حبة كبيرة.
والخاتم	معروف .
والعصمة	القلادة .
والكرم	القلادة ونوع من الصياغة في المخانق او بنات كرم حـلى كان يتخذ في الجاهلية .
والانظام	كل خيط نظم خرزاً .
والشكنة	القلادة .
والجمان	سفيفة من ادم ينسج وفيها خرز من كل لون تتوشحه المرأة .
والبُرة	الخلخال .
والريّ	القلادة او التي توضع في عنق الغلام .
والونيّة	العقد من الدر او اللؤلؤ .
الى الخشل	روس الاسورة والخلاخيل .

القسم الثالث في عمل الطيب واتخاذ المشموم

من الاناب	المسك او عطر يضاهيه .
والجلاب	ماء الورد .

والزرنب طيب او شجر طيّب الرائحة .
والكركب نبات طيب الرائحة .
والملاب عطر او الزعفران .
والشث نبت طيب الريح يدبغ به .
واليلنجوج عود البخور .
والرّباحيّ جنس من الكافور .
والمُرَنـّح اجود عود البخور .
والرَيْحان نبت طيب الرائحة او كل نبت كذلك .
والشيْح نبت طيب الرائحة .
والصَّيّاح عطر او غِسل .
والنَضُوح طيب .
والسَلِيخة عطر كأنه قشر منساخ ودهن ثمر البان قبل ان يربّب .
واللّبِيْخة نافجة المسك .
واللّخلَخة طيب م .
والسُّعْد طيب م .
والرّنْد شجر طيب الرائحة والعود والآس .
والزّباد م ويسمى الزُهْم .
والعَبْد نبات طيب الرائحة .
والقِنْديد العنبر والكافور والمسك وطيب يعمل بالزعفران .
والنَدّ طيب م .
والحَنِيذ دهن والغسل المطيب .
والكاذي شجر له ورد يطيب به الدهن .
والبَهار نبت طيب الريح .
والخَطّار دهن يتخذ من الزيت بافاويه الطيب .
والخُمْرة الوَرْس واشياء من الطيب .
والذَرِيرة عطر .

والزَّبْعر	نبت طيب الرائحة .
والإذْخِر	حشيش طيب الريح .
والسَّاهريّة	عطر .
والضَّيْمُران	الريحان الفارسي .
والمُطيِّر	العود او المُطرّىٰ منه .
والظُّفار	شيء من العطر كأنه ظفر مقتلف من اصله .
والعَبير	الزعفران او اخلاط من الطيب .
والعَبْهر	النرجس والياسمين ونبت آخر .
والعِطْر	الطيب .
والعَبهار	الريحان يزيَّن به مجلس الشراب .
والعنبر	روث دابة بحرية او نبع عين فيه .
والغَبرّاء	نبت طيب او هو الغُبَيْراء .
والفاغِرة	طيب او الكبابة .
والقُطْر	العود الذي يتبخّر به .
والكافور	نبت طيب نوره كنور الاقحوان والطلع او وعاؤه وطيب م يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين الخ .
والنِسْرين	ورد م .
والعَجُوز	ضرب من الطيب .
والبَلَسان	شجر صغار كشجر الحنّاء لا ينبت الا بعين شمس ظاهر القاهرة يتنافس في دهنها .
والقَلَسان	نبات طيب الرائحة .
والقمَنِس	نبات طيب الرائحة ويسمى ايضاً الراسن .
والهَبَس	الخيْري ويقال له المنثور والنام .
والمَرْدَقوش	طيب تجعله المرأة في مشطها .
والحُصّ	الوَرْس والزعفران .
والسَعيط	البان ودهن الخردل .

والقُسْط	عود هندي وعربي .
والضَياع	ضرب من الطيب .
والمَيْعة	عطر كالمائعة .
والنقوع	صبغ فيه من افواه الطيب .
والعوف	نبات طيب الرائحة .
والخلاق	ضرب من الطيب .
والرحيق	ضرب من الطيب .
والبُنك	طيب م .
والسُك	طيب يتخذ من الرامك .
والمسك المشموع	اي المخلوط بالعنبر .
والتتل	ضرب من الطيب .
والرعلة	اكليل من ريحان وآس .
والسنبل	نبات طيب الرائحة .
والقندول	شجر بالشام لزهره دهن شريف .
والمندل	العود او اجوده كالمندليّ .
والبشام	شجر عطر الرائحة .
والبهرمان	العصفر والحناء .
والثِوَمة	شجرة اطيب رائحة من الآس .
والجيهُمان	الزعفران وكذا الريهُقان .
والخزامى	خيريّ البر .
والضُرم	شجر طيب الريح .
والمكتومة	دهن يجعل فيه الزعفران او الكتم .
واللطيمة	المسك .
والمنشم	عطر شاق الدقّ او قرون السنبل .
والنمّام	نبت طيب .
والمهضومة	طيب يخلط بالمسك والبان .

والأشنة	عطر ابيض مما يلتف على شجر البلوط والصنوبر .
والبان	شجر لحب ثمره دهن طيب .
والجفن	شجر طيب الرائحة .
والخنثّون	الفاغية او نور كل شجر .
والرقون	الحِنا والزعفران .
والكثنة	شيء يتخذ من آس واغصان خلاف تبسط وينضد عليها الرياحين اصله كثنا او هي نوردجة من القصب والاغصان الرطبة الوريقة تحزم ويجعل جوفها النور قلت ونحوها الكنثة.
والميسوسن	شيء تجعله النساء في الغسلة لرؤوسهن .
والغالية	طيب م .
والفاعية	النامة وزهر الحناء والافعاء الروائح الطيبة .
والفاغية	نور الحناء او يغرس غصن الحناء مقلوباً فيثمر زهر اطيب من الحناء فذلك الفاغية .
والكباء	عود البخور او ضرب منه .
والكاذي	دهن ونبت طيب الرائحة .
واللوّة	العود يتبخر به .
والندا	شيء يتطيب به كالبخور .

القسم الرابع في عمل الآنية والادوات والمتاع والفرش

من الغرَب	جام من الفضة .
والشفارج	الطبق فيه الفيخات والسكرجات .
والصراجية	آنية للخمر .
والمطافح	المغارف .
والبهار	آناء كالابريق .

والطرجهارة شبه كاس يشرب فيه ونحوه الطرجهالة والفنجانة ويقال للفنجانة الصغيرة سوملة .

والشوارف وعاء الخمر من خابية ونحوها .

والاكواب والاباريق والقوارير والكؤوس والاقداح والطاس والصحون والعُتُد والخروس والصيعان والدنان والصحاف والقِصاع والزُلُح والقواري والجِفان والعلاب والبواطي والمآكل والقِعاب والنواجيد والعساس والعُسُس والفِدام والعسُوف .

والجَهمة القدر الضخمة .

والهَيْطلة القدر من صفر .

والمِرْجل القدر من الحجارة والنحاس .

والكفْت القدر الصغيرة .

والهلجاب القدر العظيمة وكذا البساط .

والتأمورة الابريق والحقة والتميمة المشدودة الرأس .

والقَعْن الجفنة يعجن فيها .

والجام م ونحوه الصاع .

والمُكَّوك طاس يشرب به .

والعَيزار ضرب من أقداح الزجاج .

والسُّعُوف الاقداح الكبار وامتعة البيت وكل شيء حاد وبلغ من مملوك او علق أو دار فهو سعَف وبالتسكين السلعة .

والوَرسيّ من اجود اقداح النضار .

والزوراء اناء من فضة .

والفاثور الطست او الخوان من رخام او فضة والناجود والباطية.

والمهضومة الخوان من فضة .

والدَيْسق خوان من فضة .

والقَرْقار انـــاء .

والمَنْبَذَة كيس تضع فيه المرأة مرآتها واداتها .
والعِكم نمط تجعل فيه المرأة ذخيرتها .
والقَشوة قفة من خوص لعطر المرأة .
والجُؤنة سفط مغشّى بجلد ظرف للطيب .
والعَتِيدة الطبلة او الحقّة يكون فيها طيب الرجل والعروس وكذا الشريط .
والدُرْج حفش النساء الواحدة بهاء .
والصوان ما يصان فيه الثوب .
والتَخْت وعاء تصان فيه الثياب ونحوه العَيبة والمبناة .
والأسْطان آنية الصفر .
والأبْزَن حوض يغتسل فيه وقد يتخذ من نحاس .
والشِجاب خشبات منصوبة توضع عليها الثياب .
والغُدُن الغدان القضيب تعلق عليه الثياب .
والقَفَدانة غلاف المكحلة وخريطة من أدَم للعطر وغيره .
والحناجيد الحنجود قارورة طويلة للذريرة ووعاء كالسفط الصغيرة ونحوه الُحنجور .
والبَزّ الثياب او متاع البيت من الثياب ونحوها .
والعَقار متاع البيت ونضده الذي لا يبتذل إلا في الأعياد .
والثَقَل كل شيء نفيس مصون .
والبَتات الجهاز ومتاع البيت ونحوه المحاش والاثلة والشذَب والزّلزل والأهرة والرهاط والسفاطة ويقال لقماش البيت خاش ماش وقاش ماش وقرَبشوش .
والنجْد ما ينجد به البيت من بُسط وفرش .
والنّضَد السرير ينضد عليه .
والنّضيدة الوسادة وما حشي من المتاع .
والبُوريّة الحصير المنسوج .

والمِسور	متكأ من أدم .
والعَبقريّ	ضرب من البسط .
والرّفرف	ثياب خضر تتخذ منه المحابس وتبسط – والفراش والوسادة والبسط .
والزليّة	البساط .
والنّمَط	ضرب من البسط .
والمِسْخيّة	نوع من البسط .
والارض	بساط ضخم من صوف او وبر .
والنُّسُج	السجادات .
والزّرابيّ	النمارق والبسط او كل ما اتكي عليه ، الواحد زِرْبيّ .
والرّحال	الطنافس الحيرية .
والنمارق	الوسادة والميثرة والطنفسة .
والدُرْنوك	ضرب من البسط .
والوِراك	ثوب يزيّن به المَورك وهو الموضع الذي يجعل عليه الراكب رجله .
والبَراطِل	البُرْطلة المظلة الضيقة .
والظُّلَل	الظُلّة الغاشية وشيء يستتر به من الحر والبرد .
والماطر	المِمْطر ثوب صوف يتوقى به من المطر كالممطر .
والأزْفان	الزِفْن ظلة يتخذونها فوق سطوحهم تقيهم من حر البحر ونداه .
والسُّرادقات	السرادق الذي يمد فوق صحن البيت والبيت من الكرسف

ولا بد كذلك من اتخاذ النَسيْفة للحمّام وهي حجارة سود ذات تخاريب يحك بها الرجل . ثم تزين تلك الدار السعيدة بالفُسَيْفساء والسُّرنج . الفسيفساء الوان من الخرز تركب في حيطان البيوت من داخل والسرنج شيء من الصنعة كالفسيفساء وبسُرُر مرمَّلة اي مزينة بالجواهر ونحوها وبحَجَلات ومِنَصّات وبارائك وعروش وكراسي وطوارق

من العاج (عظم الفيل).

والساج شجر .
والشِيْزَى خشب اسود للقصاع او هو الآبنوس او الساسَم او خشب الجوز
والسَّمُر شجر معروف .
والنُّضار خشب للاواني .
والعَيْزار شجر .
والضُّبار شجر البلوط .
والساسَم شجر اسود او الابنوس .
والشَّوَع شجر جبلي يسمو .
والشَّوْحط شجر تتخذ منه القسيّ او ضرب من النبع .
والضَّبْر شجر جوز البر .
والصَّومر شجر الباذروج .
والصَّنار الدُلب .
والسَّلام شجر . قيل لاعرابي السلام عليك قال الجنجاث عليك قيل ما هذا جواب قـــال هما شجران مرّان وانت جعلت عليّ واحداً فجعلت عليك الآخر .
والكَنَهْبل شجر عظام .
والبَقْس شجر كالاس ورقا وحبا او هو الشمشاذ .
والنَّشَم شجر للقسي .
والضّال السدر البري وشجر آخر .
والبَقْش شجر يقال له بالفارسية خوش ساي .
والنَّبْش شجر كالصنوبر ارزن من الابنوس .
والشحس شجر صلب .
والمَيْس شجر عظام .
والوَعْس شجر يعمل منه البرابط والاعواد .
والقَطَف شجر جبلي خشبه متين .

ثم تزين بقوارير من البلور .

والقِطر ضرب من النحاس .

والقِلِزّ النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد .

والفِلِزّ نحاس ابيض تجعل منه القدور المفرغة او

والبَلَنْط كجعفرشيء كالرخام الا انه دونه في اللين .

والبَلَق حجارة باليمن تضيء ما وراءها كالزجاج .

والحَكَك حجر ابيض كالرخام .

والنهاء حجر ابيض ارخى من الرخام .

والمُهْل اسم يجمع معدنيات الجواهر كالفضة والحديد ونحوهما .

والهَيْصَم ضرب من الحجارة املس .

ثم تمام زينة هذا المكان الشريف وثاب محشوٌ بالعُشَر والحُرَيْمَلة . الوثاب السرير والفراش . والعُشر شجر يحشى في المخاد ويخرج من زهره وشعبه سكر . والحريملة شجرة تنشقّ جراوها عن الين قطن ويُحشّى به مخاد الملوك غير اني ارتكبت هنا غلطاً فاحشاً في تأخيري في ذكر الفراش وهو اول ما يخطر ببال المرأة عند دخولها بلداً وهنا تمّ اثاث الدار . وفكرك لم يزل مشغولاً بالحمار .

•

القسم الخامس في عمل الثياب

الشُرقبيّة وهي ثياب بيض من كتان مصرية

والجلْباب القميص وثوب واسع للمرأة .

والسّكب ضرب من الثياب .

والسّلاب الثياب السود .

والقَصَب ثياب ناعمة من كتان .

والسّبيبة ثوب كالبقيرة .

والنُّقبَة ثوب كالإزار .
والبِـظْنَاج ما كان احد طرفيه محملا او وسطة نحمل وطرفاه منيَّران .
والمعرّجة المخططة في التواء .
والموثوجة ثياب رخوة الغزل والنسج .
والهَبْرَج الموشى من الثياب .
والمتَرَّحة المترح من الثياب ما صبغ صبغاً مشبعا .
والوَجيح الصفيق من الثياب .
والخوخة ضرب من الثياب اخضر .
والوَليخ ثوب من كتان .
والثفافيد ضرب من الثياب .
والجماد ضرب من الثياب .
والمعضَّدة المعضد ثوب له علم في موضع العضد .
والفِرنـْد ثوب م .
والمُقَرمدة ثوب مقرمد مطلي به الزعفران .
والمجسدة المصبوغة بالزعفران .
والمَقَديَّة ثياب [illegible]
والهُرْديّة المصبوغة بعروق الهند
والـلاذة ثوب حرير صيني .
والبُقْطرية الثياب البيض الواسعة .
والحَصِير ثوب مزخرف موشى اذا نشر اخذت القلوب مآخذه لحسنه
والخُسْروانية نوع من الثياب .
والدّثار ما فوق الشعار من الثياب .
والسّابريّة الثياب الرقيقة الجيدة .
والمُسَيّرة المسير ثوب فيه خيوط
والصُّدْرة ثوب م .
والصّدار ثوب رأسه كالمقنعة واسفله يغشي الصدر

والعَبْقرية	عبقر بلدة ثيابها في غاية الحسن .
والمِعجر	ثوب تعتجر به المرأة وثوب يماني .
والعُشاريّة	ثوب عشاريّ طوله عشرة اذرع .
والعُقار	ضرب من الثياب احمر .
والقُبْطرية	ثياب كتان بيض .
والمَرْمَر	ضرب من تقطيع ثياب النساء .
والمنيّرة	المنسوجة على نيرين .
والباغِزيّة	ثياب من الخز او كالحرير .
والتوّزية	منسوبة .
والمُمَرعَزة	المرعزّي الزغب الذي تحت شعر العنز .
والمطرّزة	المعلمة .
والمفروزة	ثوب مفروز له تطاريف .
والقرمزية	المصبوغة بالقرمز .
والقَهز	ثياب من صوف احمر كالمرعزي وربما يخالطها الحرير .
والتِنّيسيّة	تنّيس د تنسب اليه الثياب الفاخرة .
والمُدَمقسة	الدِمَقْس الابريسم او القزّ او الديباج او الكتان .
والقَسّية	منسوبة الى قسّ من ارض مصر .
والكِرْباس	ثوب من القطن الابيض .
والمُسلسلة	الموشّاة المخططة .
والنرسيّة	نرس ة بالعراق .
والمورّسة	المصبوغة بالورس .
والأكياش	الثوب الذي اعيد غزله مثل الخز والصوف .
والماجُشون	الثياب المصبغة .
والمقفّصة	المخططة كهيئة القفص .
والمحرّضة	المصبوغة بالإحْريض للعصفر .
والعَرضي	جنس من الثياب .

والمِعرَض	ثوب تُجلى فيه الجارية .
والرَيْطة	كل مُلاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة أو كل ثوب لين رقيق .
والسِجِلاط	ثياب كتان موشية وكأن وشيه خاتم .
والسُنْط	ثوب من صوف وبالكسر الثوب ليست له بطانة طيلسان .
والمقطعات	القصار من الثياب — او برود عليها وشي .
والمردّعة	التي فيها اثر طيب .
والصّديع	ثوب يلبس تحت الدرع .
والمضلّعة	المسيرة المخططة وما جعل وشيها على هيئة الاضلاع .
والنِصْع	ثوب ابيض .
والموشّعة	المعلمة .
والشُرافيّ	ثياب بيض .
والشّفّ	ويكسر الثوب الرقيق .
والبُنْدقية	ثياب كتان رفيعة .
والمحقّقة	المحكمة النسج .
والخُزْرانق	الثياب البيض .
والدّبيقية	دبيق د بمصر .
والرتاق	ثوبان يرتقبان بحواشيهما .
والرازقية	ثياب كتان بيض .
والمزبرقة	المصبوغة بحمرة او صفرة .
والعلقة	ثوب بلا كمين — او الثوب النفيس .
واللِفّاق	ثوبان يلفق احدهما بالآخر .
والمحبّكة	الموثقة المخططة .
والمِجّوَل	ثوب للنساء .
والخَمْلة	الثوب المخمل كالكساء ونحوه كالخميل .
والخال	الثوب الناعم وبرد يمني .

والدِرَقْل ثياب كالأرمنية .
والمُمَرْجِل ثياب فيها صور المراجل .
والمُمَرْجَل ضرب من ثياب الوشي (اورد صاحب القاموس التي بكسر الجيم في ر ج ل والتي بفتحها في مادة على حدتها .
والمرمّلة المرقرقة .
والسَّحْل ثوب ابيض من قطن ونحوه المسحل .
والمُسَلْسَلة ثوب مسلسل فيه وشي مخطط .
والعَقْل الثوب الاحمر .
والمفلفلة الموشاة كالفلفل .
والقَسْطلانية ثياب منسوبة الى عامل .
والوَصيلة ثوب مخطط يماني .
والمهلهَلة الرقيقة .
والآمّيّة منسوبة .
والمُبرَم جنس من الثياب والثوب المفتول الغزل طاقين .
والجَهْرميّة ثياب منسوبة من نحو البسط أو هي من الكتان .
والمرسمّة المخططة .
والمرقّمة المخططة والرقم ضرب من الوشي او الخز او البرود .
والعَقْم المرط الاحمر او كل ثوب احمر .
والقَدْم ثوب احمر .
والقِرام ثوب ملون من صوف فيه رقم ونقوش او ستر رقيق كالمقرم .
وابي قلمون ثوب رومي يتلون الوانا
والملحَم جنس من الثياب
والنّيْم كل ليّن من عيش او ثوب
والآخنيّ الثوب المخطط
والدَفَنيّ ثوب مخطط .
والارْجوان ثياب حمر .

والسُّبَنيَّة	ثياب من حرير فيها امثال الاترج ،
والشُّتُّون	اللينة من الثوب .
والشاذكونة	ثياب غلاظ مضربة تعمل باليمن .
والمُعَرجَنَة	المصوّر فيها اشكال العرجون .
والمعيَّنة	ما كان في وشيها ترابيع صغار كعيون الوحش .
والمفنّنة	ثوب مفنن فيه طرائق ليست من جنسه
والمفوّهة	المصبوغة بالفوّه (عبارة القاموس في ف وه والفوّه كسكر عروف رقاق طوال حمر يصبغ بها الخ. وفي ف وي الفوّة كالقوة عروق يصبغ بها) .
والقُوهِيّ	ثياب بيض
والنَهنه	الثوب الرقيق النسج
والمُلهَلهة	الملهله من الثياب كالمهلهل
والموجَّهة	ما كان لها وجهان .
والمحشأ	كساء غليظ او ابيض صغير يتزر به أو ازار يشتمل به
والسَّبيجة	كساء اسود
والخَسِيج	كساء من صوف
والاضريج	كساء اصفر والخز الاحمر
والمسبَّح	الكساء القوي الشديد ونحوه المشبح
والسَّيح	الكساء المخطط كالمسيّح .
والبجاد	كساء مخطط .
والبُرجُد	كساء غليظ .
وُالجودِياء	الكساء .
والأغثر	ما كثر صوفه من الاكسية .
والخميصة	كساء اسود مربّع له علمان .
والمرط	كساء من صوف او خز يؤتزر به مروط .
والشملة	كساء دون القطيفة .
والطمل	الكساء الاسود والثوب المشبع صبغا .

والماريّ كساء صغير له خطوط مرسلة .
والشرعبيّ ضرب من البرود .
والعصب ضرب من البرود .
المكعّب الموشى من البرود والاثواب والثوب المطوي الشديد الادراج .
والخِلاج ضرب من البرود المخططة .
والشِيْح برد يمني .
والقُرْدح ضرب من البرود .
والسّعيدية ضرب من برود اليمن .
والسَّنَد ضرب من البرود .
والبَقِير برد يشق فيلبس بلا كمّين كالبقيرة .
والحِبرّ ضرب من برود اليمن مفردة حِبرة كعنبة .
والحَبير البرد الموشى والثوب الجديد .
والسيراء نوع من البرود فيه خطوط صفر او يخالطه حرير .
والمطيّر ضرب من البرود .
والقِطر ضرب منها .
والمشيّز المخطط بحمرة .
والمريَّش البرد الموشى .
والفُوف ضرب مـن برود اليمن وبرد مفوّف رقيق او فيه خطوط بيض .
والنّصِيف الخمار ومن البرد ما له لونان .
والبِركة برد يمني .
والمَرْجل برد يمني .
والمرحّل ما فيه تصاوير رحل .
والتّحمة البرود المخططة بالصفرة .
والأتحميّ برد معروف .
والمسهّم البرد المخطط .

والقَطيفة	رداء مخمل
والمُطرَف	رداء من خز مربع له اعلام .
والجَنبيّة	رداء من خز .
والجِيم	الديباج .
والسُندس	ضرب من البزيون او ضرب من رقيق الديباج .
والاستَبرق	الديباج الغليظ او ديباج يعمل بالذهب او ثياب حرير صفاق.
والمشجّر	المشجرُ من الديباج ما كان فيه نقش كهيئة الشجر .
والسَّب	شقة رقيقة كالسبيبة.
والطريدة	شقة مستطيلة من الحرير .
والسَّرَق	شقق الحرير الابيض او عامة .
والبَتّ	الطيلسان من خز ونحوه .
والسُدُوس	الطيلسان الاخضر .
والطِلس	الطيلسان الاسود .
والطاق	الطيلسان او الاخضر .
والساج	الطيلسان الاخضر والاسود .
والصُتَيّة	الملحفة او ثوب يمني .
والشَوْذر	الملحفة والاتب .
والدُواج	اللحاف الذي يلبس .
والمشْمال	ملحفة .
واللِفاع	الملحفة او الكساء او النطع او الرداء وكل ما تتلفع به المرأة
والمُرجّل	ازار خز فيه علم .
والمُدارة	الازار الموشى .
والحَقْو	الازار ومثله الخصار .
والصداد	ما اصطدّت به المرأة وهو الساتر .
والفُوَط	ثياب تجلب من السند ومآزر مخططة .
والدّثار	ما فوق الشعار من الثياب .

والحُلَل	واحدتها حلّة وهي ازار ورداء وبرد او غيره ولا تكون حلة الا من ثوبين او ثوب له بطانة .

والسِّربال	القميص او الدرع او كل ما لبس .

والقُرْطَق	لبس م .

واليَلْمَق	القباء معرب يلمه .

والقَرْقَر	لباس المرأة .

والقُرْزح	لباس كان لنسائهم .

والمِفْضل	المفضل والمفضلة والفُضل الثوب الذي تتفضل فيه المرأة أي تتوشح .

والحِقاب	شيء تعلق به المرأة الحُلَى وتشده في وسطها كالحَقَب .

والنِّطاق	شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الاسفل الى الارض والاسفل ينجر على الارض الخ .

والمِجَن	الوشاح وقد تقدم في باب الحلى .

والأتب	برد يشق فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين والبقيرة ودرع المرأة .

والجَوْب	درع المرأة أي قميصها .

والأصدَة	قميص يلبس تحت الثوب .

والخَيْلع	القميص بلا كمّ .

والرادعة	قميص قد لُمّع بالزعفران او بالطيب .

والقُمُص السُّنبلانية	اي السابغة الطول او منسوبة الى بلد بالروم .

والشعار	ما تحت الدثار من اللباس وهو يلي شعر الجسد ويفتح .

والقِدْعة	المجول وهي الدُرّاعة الصغيرة .

والجِنْد	المدرعة الصغيرة .

والغِلالة	شعار تحت الثوب كالغلة .

والهَفّاف	الهفاف من القميص الرقيق الشفاف كالهفهاف .

والشَّليل	الغلالة تلبس تحت الدرع

والقَرْقَل قميص للنساء او ثوب لا كمّين له .
والغِطاية ما تغطت به المرأة من حشو الثياب كغلالة ونحوها .
والفَرْوة معروف .
والسَّبَنْجُونة فروة من الثعالب .
والشَّمْراء الفروة .
والمُسْتُقة فروة طويلة الكم .
والخَيْعل الفرو او ثوب غير مخيط الفرجين او درع يخاط الخ .
والمِعْقَب الخمار للمرأة .
والنِّقاب ما تنتقب به المرأة .
والخِمار النصيف وهو العمامة وكل ما غطّى الرأس .
والوَصاوِص البراقع الصغار .
والمِقْنعة ما تقنع به المرأة رأسها والقناع اوسع منها !
والعِصابة ما ُعصب به والعمامة .
والسِيْدارة الوقاية تحت المقنعة والعصابة .
والعَمارة كل شيء على الراس .
والعَمَر منديل تغطي به الحرّة رأسها .
والخُنْبُعة مقنعة صغيرة للمرأة .
والبُخْنَق خرقة تتقنع بها الجارية فتشد طرفيها تحت حنكيها لتتقي الخمار من الدهن والدهن من الغبار والبرقع والبرنس الصغيران
والصِّقاع البرقع — وخرقة تقي الخمار من الدهن كالصوقعة ونحوها الغفارة .
والقُنْبع خرقة تخاط شبيهة بالبرنس والخنبعة او شبهها .
والقُنْزعة التي تتخذها المرأة على رأسها كالقنذعة .
والهُنْبُع شبه مقنعة للجواري وقد خيط مقدّمها
والقُرْزل الشيء تتخذه المرأه فوق رأسها كالقنزعة .
والجُنّة خرقة تلبسها المرأة تغطّي رأسها ما قَبَل ودبر غير وسطه

وتغطي الوجه وجنبي الصدر وفيه عينان مجوبتان كالبرقع .

والتسّاخين	الخفاف وشيء كالطيالس .
والجَرامِيق	الجرموق الذي يلبس فوق الخف .
والكوْث	القَفْش الذي يلبس في الرجل اي الخف القصير .
والران	كالخف الا انه لا قدم له وهو اطول من الخف .
والجورب	لفافة الرجل وجوربته البسته اياه .
والقُفّاز	شيء يعمل لليدين يحشى بقطن تلبسها المرأة للبرد او ضرب من الحليّ الخ .

وتمام هذا كله ثلثمائة وخمسة وستون حِبْساً ومثلها مقارم . الحِبس سوار من فضّة يجعل في وسط القِرام . والمقرمة مَحْبس الفراش ومثلها سراويل من

الأرنبانيّ	الخزّ الادكن .
والسّنا	ضرب من الحرير .
والأرْدن	ضرب من الخز .
والطارُوني	ضرب منه والطرن الخز .
والقَتِين	الخز المطبوخ الابيض .
والبِرس	القطن او شبيه به او قطن البرديّ .
والشريع	الكتان الجيد .
والقَز	الابريسم وهو الدِمَقْس ويقال ايضاً الدمقس والمدقس .

وقد زل بي القلم هنا ايضاً زلة ثانية فان السراويل يجب تقديمها على جميع ما سواها ليطابق الذكر الفكر . ثم انك اذا اخذتها الى ساحات المدينة واسواقها حيث تزدحم الناس فاول ما تلمح فرهداً أغسّانياً غيسانيا تقول هذا يصلح لان يكون زير نساء ولان يركب الجياد ويتقلد السيف ويعتقل الرمح ويطعن به . او غلاماً مترعرعاً قالت هذا يصلح لان يربى في المدرسة الزيرية حتى ينبغ . او كهلاً قالت وهذا جدير بان يقعد في بيته ويتعاطى الغزل والنسيب ليجهّز ما يلزم لتلاميذ المدرسة منه . او شيخاً همّاً هرماً قالت وهذا قمين

بان يكون مشيراً في الامور التي تعسر على الاغرار من الخرّيجين فيكفيهم النصب في إيشائها . فان لم يلفَ عنده الرأي السديد فليدرج في كفن ويرمس هذا وفكرك لم يزل مشغولاً بالحمار او بالاكاف . فاما وجه كون مشاعرتها انفع فلأنه قد جرت عادة من شاخ من ذوي الامر والنهي انه اذا جفّ دمهم وضوى لحمهم حتى لم يعُد التدثر بالثياب يدفئهم شاعروا واحدة من هؤلاء النواعم فاستغنوا بحرها عن حرارة الدثار والنار والابازير والاحسن في ذلك ان تكون جارية عذراء . وقد اختلفوا في علة الحرارة ومأتاها . فبعضهم على ان نفسها من فيها هو الذي يدفيء المقرور . واعترض بان هذا النفس لا بدّ وان يختلط بالشنب فيبرد . وغيرهم على ان منفذ الحرارة انما هو من المسامّ التي ينبت فيها الشعر . فان المرأة لما كانت مفتوحة المسام كان صعود الحرارة منها ابلغ . بخلاف الرجل فان مسامه مسدودة بما له من الشعر . ورد بان الامرد مثل المرأة في كونه مفتوحها ولم يقل احد بان مشاعرته تدفيء . وذهب بعض الى ان الحرارة انما هي من النفس من انفها . وقال قوم من المتهافتين على الجناس انها من موضع آخر . قال في القاموس تكوّى الرجل بامرأته تدفّا واصطلى بحر جسدها . قلت ومع حرص المؤلف على جمع الالفاظ الغريبة النادرة لم يذكر فعلاً يدل على اصطلاء المرأة بحرارة جسد الرجل . ولهذا اي لاجل ان في جسم المرأة من الحرارة ما لا يوجد في جسم الرجل كان اخف ما يكون من الدثار يدفئها ولو في الصِرّ . والرجل اذ ذاك يُكهى ويقفقف ويقرعبّ ويتقرقف . ومثله غرابة ان اكلها يكون اقل من اكل الرجل ولحمها اكثر من لحمه . قال المتكلمون ووافقهم على ذلك الاطباء النطاسيّون .

ان مما فضل الله سبحانه المرأة به ان جعل فيها قوه على حج الخصم وهداية الضال الى الدين القويم . وأوردوا على ذلك شاهداً ما جرى لذلك المعتزلي مع امرأته . وذلك ان بعض المشاهير من علماء المعتزلة الذين يزعمون ان افعال العبد ليست مخلوقة لله كان يجادل اهل السنة ويورد لهم من الادلة والبراهين على تأييد مذهبه ما يربكهم به . فانبرت له امرأة لبيبة سُنيّة وقالت لقومها زوجوني به فاخصمه في ليلة واحدة ان شاء الله فبات معها تلك

الليلة على الحاده . حتى اذا قضى لها الفرض ثم تنقّل بعده وتطوّع وظن انه استحق الثواب وتخلّق بالاغتماض . قالت له واين الرابع والخامس والعاشر يا شِرْواض.فتجلّد لآخر ثم قال قد نفد ما في الوطاب . فلا ملام ولا عتاب. قالت امثلك من يبدي هذا الاعتذار.وانت تقول ان الافعال غير مخلوقة للواحد القهار.قال قد نبهت من كان غافلا.وهديت من كان ضالاً.اني عديت عن مذهبي القديم.وقد هداني الله الى الصراط المستقيم.قلت ويعلم من كتب التاريخ ان المرأة لها اعظم مدخل في دخول النصرانية في بلاد الافرنج .قال بعض الظرفاء من الادباء ان المرأة اذا رامت ان تشتري حاجة او تستقضي احداً شيئاً لم يلزمها ان تنقد البائع او القاضي مالاً . وانما تنقده العين من العين . قال ولذلك جاء هذا الحرف بالمعنيين . بخلاف الرجل فانه اذا اراد قضاء شيء ايا كان ولاسيا النشنشة فلا بد وان يحل عقدته بنفاثات الدرهم او الدينار . وانها ايضاً اذا توحمت على شيء تحبه وهي حبلى ظهر ذلك الشيء المتوحم عليه في الولد . فينبغي للاب ان يتفقد ولده ليعلم اي شكل من الاشكال بدا في اجسامهم . وما انكره منها فليكتمه قال وان القدرة الخالقية قد اوجدت لها من النبات وغيره اشكالاً كثيرة تقر بها عينها وينشرح صدرها اذا نظرتها او لمستها وليس للرجل شيء من هذه الخصائص .

وان امرأة واحدة اذا كانت في مجلس قد اجتمع فيه عشرون رجلا امكن لها ان تهنّدهم كلهم اجمعين . فتتصبى هذا بلفظة . وذلك بلحظة . وذا بغمزة . وذاك بهجلة. وآخر بخزرة وغيره بتحشيفة وآخر باسجادة . وغيره بزفرة . وآخر بالتفاته . وغيره بليّة جيد . وآخر بشمّة . وغيره بنزنزة . وآخر بعضّة على لسانها . وغيره باخراجه ونضنضته . وآخر بضم شفتيها وانفاصمها . وغيره بعَرْض عارضها. وآخر بتفييء شعرها . وغيره بابتسامة . وآخر بضحكة . وغيره بقهقهة . فيقوم الجميع عنها راضين . وابرع ما تكون المرأة ما اذا جلست بين زمرة من الفتيان يغازلونها ويداعبونها ويتملقونها . قال ومن خصائصها ايضاً انها تعرف ما في قلوب الرجال . فلذلك تفتنهم بوكوكتها وحركتها وتعمُدهم وتُصْبيهم . وتتبلهم

وتشجيهم . وتحسّرهم وتبلبلهم . وتطربهم وتشغلهم . وتعبّدهم وتهنّــدهم
وتتيّمهم وتهيّمهم . وتشوقهم وتروعهم . وتعوقهم وتــلوعهم . وتؤرّقهم
وتسبيهم . وتشرقهم وتشبيهم وتخلبهم وتسحرهم . وتحربهم وتبهرهم .وتبيعهم
وتشتريهم . وتجيعهم وتصديهم وتقلّبهم وتفأدهم . وتراهم وتصدرهم. وتكبدهم
وتطحلهم . وتمعدهم وتفخذهم . وتبطنهم وتستههم. فاما ما قيل في خصائص
فرنستها من انها تحسن اعمال البيت كالخياطة والتطريز وغيره فمذكور في كثير
من الكتب فعليك بمراجعتها . انتهى الكلام الآن على المرأة بغير مراء على ان
عندي منه ما عند الفراء من حتى .

قال بعض معاتيه العلماء المرأة كلها شرّ . وشر ما فيها انه لا بد منها .
قلت وهو كحلم جحى نصفه صدق ونصفه كذب . فالصادق منه قوله انه لا
بد منها .

١٧

في رثاء حمـــار

اهلا بك يا فارياق اين انت وفيمّ كنت هذه المـــدة الطويلة – في نظم الابيات السرية – ولكن هذا معلوم عندي ولم اسألك الاّ عن امر حديث – قد فجعت بالامس بحمار لي وسألت عنه الجيران فلم يقل احد منهم انه سرقه. فاكتريت منادياً بدرهم فجعل ينادي في الاسواق ألا قد فرّ اليوم حمار الفارياق وخـلى قيده في الوتد فهل منكم من رآه . فلم يجبه احد الاّ بقوله ما اكثر الحمير الآبقة اليوم من بيوت مواليها . فلما عاد اليّ بهذه البشرى بلغ مني الغيظ كل مبلغ . وآليت ان لا انظر بعدها في وجه حمار سواء كان حقيقيـــاً أو مجازياً . فقد قال بعض ائمة اللغة ان من خصائص لغتنا هذه الشريفة دون غيرها ان يقال للرجل الجاهل حمار . ثم اخذت ارثيه بهذه الابيات وهي :

راح الحمار وخـــلى القيد في الوتدِ ... ومـــا رأى اثره في الناس من احد

فهل انا راكب من بعده وتـــداً ... ام مجزني قيـده لو كان من مسد

ام كيف ادخل داراً كان لي سكَنا ... فيها وانزل عنـــدي مُنزَل الولد

سرهدته بيدي كالطفل من شفق ... كالطفل من شفق سرهدتـــه بيدي

وجئته بشعـــير لا يخالطـــه ... مـــاس ولا عسجد خوفاً من الدَرَد

وكان يوقظني منه النهـــاق اذا ... استثقلت نوماً بصوت مطرب غَرِد

كم حاد بي عن مضيق حين ابصر من ... حول الجمـــال تبلّ الارض بالزبد

وسار بي في طريق يـــلّ جانبها ... اهل الجمال بماء الورد وهوندي

وكم جرى فارها اذ لاح عن بعـــد ... زفاف خود اليهـــا بالغ الامد

واذ تبـــين نعشا للجنازة لم ... يمرر به مع اليم النخس في الكَتَد

ماضل يوما عـــن استقراء معلفه | اكان في روضـــة غنّاء ام جَرَد
قد رابني حذقـــه حتى ظننت به | مَسْخيّة مثل بعض الخلق عن احد
وما شكا قطمن وخز ولا ضعفت رجـ | ـلاه عن جوب وَعث طال او جَدَد
شُلت يدا مَن به وليّ وغادرني | امشي وانشب في اوحال ذا البلد
اعالمٌ انـــني من بعده جَزِع | وان فرقتـه نار على كبدي
وان صوت المنادي اليوم يزعق ان | البس إكافك في جنح الدجى وعُد
لا يَغرُرَنّك رَغْدانت واجده | عند الحرامي خصمي فيك من حسد
فانمـــا ذا الحِيْن انت تعلمه | ما دام شهرا على طِرْف ولا عَتَد
يفديك كل حمـــار ندّ من بطَر | اوضج من لَغَب او خار من جَهد
او حار من شَبَق قلاّب جحفـــلة | كرّاف بول قديم جفّ كالقِدَد
مصنبع الراس ممشوق القوائم لم | يحرن اذا سُمته خَسْفا ولم يحِد
أليّة انــه بالطرق أعْرَف من | مولاه ان لم يَعُقْــــه القيد ذو العقد
يا ليت لي خصلة من ذيــله أثراً | ارنو اليهـــا كما يُرنى الى الخُرُد

قال فقلت له لقد ضاع شعرك في الحمار العادي، كما ضاع الدرهم في المنادي. قال اما الدرهم فقد ضاع حقا وامـــا الحمار فلا . قلت كيف ذلك والدار منه بلقع . قال من عادتي اني اذا فقدت شيئا وذكرتـــه في الشعر خيّل لي اني عُوّضت عنه . فان لم اذكره بقيت متحسّرا على فقده . قلت او يقوم النثر مقام النظم قال ربما يقوم عند بعض الناس . فقد بلغني ان كثيرا من المؤلفين كانوا يحاولون ادراك اوطار حرمهم منها قلة ذات اليد فالفوا فيها كتبا واستغنوا بها عنها . قلت من قال ذلك ؟ قال هم قائلوه . قلت هذا محض كذب فاني الّفت في النساء كذا وكذا رسالة وما خطر ببالي قط اني عُـوّضت عن واحدة ممن وصفت . قال ولِمَ الّفتها اذاً . قلت لم يكن لي من شغل ولا حركة ، ووجدت الزمان عليّ طويلا ولا سيما الليالي من دون مباشرة شيء ما فلفقت ما كان يخطر ببالي . قال وهلاّ تفرح الان بتأليفك اذا قرأته او اذا سمعت ان الناس يقرأونه . قلت بل اضحك من سخف عقلي وقتئذ . فاني قـــد

عرّضت عرضي لالسن القادحين فضلاً عن كوني اضعت اوقاتي عبثاً فيما لم يجدني نفعاً . وقد بلغني أن كثيراً من المتزوجين ساءهم مــا قلته في النساء وذكر مكايدهن فاستظهروا عليّ بجماعة من العلماء عابوا عليّ تبويب كتبي وخطّأوني في عبارتها. وكنت ايضا حكيت كلاما عن بعض النساء بلفظه فقالوا لا ينبغي ان يحكى الكلام بلفظه في الكتب وغير ذلك مما ندّمني كثيرا . قـــال قد سمعت ان الناس لا يزالون يعادون المؤلف حال حياته . فاذا مات حرصوا على كلمة يأثرونها عنه كما قال الشاعر .

ترى الفتى ينكر فضل الفتى ما دام حيّاً فاذا مـا ذهب
لجّ بــه الحرص على نكتة يكتبها عنه بمــاء الذهب

قلت وما نفع هذا الحرص لمن مات . قال لا نفع منه غير اني ارى ان في النظم للذة عظيمة. ولا بدّ وان يكون النثر ايضا مثله فانهما كليهما يخرجان من مخرج واحد افلا تقول بصحة ذلك . قلت اني اقول باللذة في التأليف من جهة ان المؤلف يعرف شيئا جهله غيره . ولا شك ان في معرفة الحقائق لذة . غير انه يقابلها من الالم ما يرجحها . وذلك ان المؤلف اذا عرف مثلاً حقيقة واراد ان يعرّف غيره اياها وجد اكثر الناس قد صمّوا عن سماعها . ومَثَل ذلك مثل طبيب نصوح رأى اهل بلده يستحمّون بالماء البارد في حال كونهم محمومين . فنصح لهم ان لا يفعلوا ذلك فأبَوا وقالوا ان هذه البرودة تزيـــل الحرارة . فهو من جهة أنّه عارف بالحقيقة مسرور . ومن جهة انه يرى غيره في ضلال عنها محزون . وسروره لنفسه لا يوازن حزنه على غيره . الا ترى ان اهل العلم كلهم ضعاف ضاوون قليلو الكلام والنوم والاكل والضحك . وان الجهال سمان تارّون اصحاء كثيرو الاكل والنوم وغيره مما جعل لتقويم الطبيعة. قال فما بال الاطباء سمان ايضا وهم بمنزلة العلماء في كونهم يعلمون من المنافع ما يجهله غيرهم. قلت ان الطبيب لا يرى الناس حين يأكلون ويشربون ويباعلون . وانما يراهم حين يمرضون فلا تحزنه افعالهم . فاما العالم فانه في كل وقت ومكان يرى من العامة ما يدل على ضلالهم وجهلهم . فلا يمكنه والحالة هذه الا ان

يتأسف على ما هم فيه من الغباوة .والغفلة . قال أفتقول اذا بالجهـــل. قلت هنيئاً لمن رضي به .

قال وما قولك في الشعر . قلت ان كان هــو لمصلحة اي لشيء يعود الى القيام باَوَدك فنِعْم هو . وان يكن عن مجرد هوس وميـــل الى التجنيس والترصيع ايان رايت امرأة جميلة او وردة او روضة كما هو داب اكثرالشعراء يتكلفون للنظم في كل ما لاح لهم او كرثائك الحمار الآن فتركه اولى . قـال ولكن احسن الشعر ما جاء عن هوس اي عن السليقة لا بالتكلف . فاني حين امدح السريّ اجد في ضم لفظة الى اخرى ما يجده المُعاني لضـــم نقيضين مختلفين . وليس كذلك ما نظمته في الحمار . فاني نظمت فيه هذه المرثية في ساعة من الزمن . قلت ولكن الناس لا ينظرون الاّ الى الظاهر . فقصيدتك في الحمار يسمونها حمارية . وابياتك في السري سرية .

قال ان كان الامر كما ذكرت فلم رغبت عن التأليف ولـكن لا في النساء فان ذلك امر مستفيض . قلت اما اولاً فلان المؤلف يوقـع نفسه في كلاليب ألسنة الناس فيمزقون عرضه وجلده كما ذكرت لك آنفاً . والثاني فان حقيقة اسم المؤلف غير محمود . فهو عند من يعلم حقيقة معناه بمعنى الملفـّق واكثر الناس يضحكون من هذا الحرف . فيحسبون انه من التأليف بين شخصين . وانما يقولون لمن تعاطى ذلك شيخ . وهو ايضاً مكروه عند بعض النـــاس وخصوصاً عند النساء . واحسن الالقاب هنـا فيما أرى عند النصارى قسيس وعند المسلمين بيك . اما القسيس فلأن كل الناس تلثم يده وتتـبرك بذلك . وان المرأة من القبط لتغسل رجلي القسيس بيديها بماء الزهر ثم توعي ماءهما في زجاجة . وانه متى جاع حمل امعاه الى دار احد من معارفه فاستقبلتهزوجته بالبشاشة والاكرام فزعبها أي زعب . واذا شاء ان يبقى في بيته لعارض من العوارض بعث غلامه بعلامة الى احد البيوت فجاءه منها بغداء ينظم فيـــه شعراء عصرنا قصائد . فاما البيك فانه وان يكن مقامه بين الناس كريماً الا انه لا يمكنه ان يبلغ من البيوت ما يبلغه القسيس . اذ لا يتأتى له ان يمشي

وحده . فلا بد وأن يمشي معه اثنــان عن اليمين والشمال وهما وان اظهرا له الخضوع والاحترام ففي قلوبهما منه حزازات تبعثهما على مراقبته والتعنت عليه اللهم الا اذا تزيّا بزي خادم له وح فظاهر اللباس يجبىء عنه العين . قـال هيهات ان اصير قسيساً . هيهات ان اصير بيكاً . اما حرفة القسيس فانهـا لا تصلح لي لأني لا احب الركاكة . واما صفة البيك فاني لا اصلح لها فان القدرة الازلية لم ترتض لي منذ الازل بالبوكية للبيكية . وما بقي امامي الا الشيخية . قد توكلت على الله قلت اني مفارقك على ان تخبرني بما سيحدث لك في شيخيتك . قال سأفعل ذلك ان شاء الله .

١٨

في الوان مختلفة من المرض

ثم لازم الفارياق نظم الابيات وهو حريص على الاتسام بسمة شيخ فعنّ له ان يقرأ النحو على بعض المشايخ لما انه رأى ان القدر الذي كان تعلمه منه في بلاده لا يكفي لمدح السري . وفي ذلك الشهر الذي نوى فيه القراءة أصيب برمد أليم . فلما أفاق شرع في العلم فقرأ على الشيخ مصطفى كتباً صغيرة في النحو والصرف . ثم اشتد به داء الديدان الذي سببه فيما قيل أكل اللحم نيّاً . وتلك عادة مشهورة عند اهل الشام . فكان يتمعص منه وقت القراءة والشيخ يظن ان ذلك من اختلاف المسائل وكثرة التعليل حتى قال له مرة سبحان الله ما أحد قرأ عليّ هذا الفن الا ويتمعّص . فقال له ليس التمعّص كله يا سيدي الشيخ من زيد وعمرو . فان لجماعة الديدان ايضاً مدخلاً . فاني لا آكل شيئاً الا وسبقوا معدتي اليه . قال لا بأس عليك عسى ان يخف عنك ببركة العلم . واتفق للفارياق وقتئذ ان سأله احد معارفه ان يقرأ على الشيخ المذكور ذلك الكتاب الذي تقرأه النصارى في الجبل . وهو كتاب بحث المطالب . فلما ختمه التمس من الشيخ ان يكتب له اجازة اقرائه في بلاده . فكتب له اجازة وعرضها على الفارياق . فحين تصفحها رأى فيها خطأ في اللغة والاعراب . فاستأذن من شيخه ان يوقفه على الغلط فلما وقف عليه قال سأكتب له غداً أخرى . ثم كتب له اجازة غيرها فلما امعن الفارياق فيها النظر اذا بها كالاولى . فنبّه شيخه على ما فيها . فقال له اكتب له انت عني ما شئت فكتب له ما اعجب به على ان الشيخ كان مضطلعاً بفن النحو غاية ما يكون . فكان يقضي ساعة تامة في شرح جملة غير تامة . الا انه لم يكن يزاول الانشاء والتأليف فكان علمه كله في صدره

وعلى لسانه ولا يكاد يخرج منه الى القلم شيء .

ثم بعد قراءة النحو على النسق المذكور راجع الفارياق وجع العينين . فلما افاق رأى ان يقرأ شرح التلخيص في المعاني . فشرع فيه مع الشيخ احمد . فلم يسِرْ فيه قليلا حتى اصابته الحكة ولم يكن قد عرفها في مبادئها فلهذا استمر على القراءة . حتى اذا كان الشيخ آخذ مرة في شرح مسألة معضلة ثارت الحكة في بدن الفارياق فجعل يحكّ بكلتا يديه . فالتفت اليه الشيخ فرآه منهمكاً في الحك فقال . له ما بالك تحك وانت على ما يظهر لي غير منتبه لقيل واجيب هل نحن الآن في محاكة الالفاظ او في محاكة الاعضاء . قال لا تؤاخذني يا سيدي فاني ارى لذة الحك مانعة لي من التنبه لغيره . قال أو بك الحك قال لعلها هي .فنظر الشيخ الى يديه فقال هي والله فينبغي ان تقتصر في بيتك وتطلي جسمك بخراء الكلاب فليس لها من علاج سواه . فلزم الفارياق بيته وجعل يطلي بدنه كل يوم بالخراء المشار اليه ويقعد في الشمس ساعات حتى لقي من ذلك عذاب الهون .

ثم لما افاق رجع الى القراءة وبعد ان ختم الكتاب عاودته ضريبة الرمد ثم نقر في رأسه ان يقرأ شرح السلّم للاخضري في المنطق . فشرع في قراءته على الشيخ محمود فاصابته الهيضة وهي الداء المسمى في مصر بالهواء الاصفر فبقي ثلاثة ايام لا يعي ولا يعقل من الدنيا شيئاً ولا يقدر على النطق. سوى انه سمعه خادمه مرة يهذي ويقول كلّية . موجبة كبرى . فظن انه يستعظم مصيبته فيقول انها كبرى . ولم يكن احد اصيب بهذا الداء في مصر . فلما مضت ثلاثون يوماً انتشر في البلد وعمّ بلاوه والعياذ بالله فكان يموت به كل يوم الوف . ووقتئذ عرف الفارياق انه كان المقدّم في هذه البليّة وغيره التالي كما تقول المناطقة . وان الديدان التي كان يقاسي منها هي التي عجلت له بهذا الداء فعجل هوبها.فجعل أي الفارياق يركب حماره ويطوف في الاسواق وكأنه آمن من المقدور . (حاشية لم يكن هذا الحمار ذلك الذي استحق الرثاء . والتأبين بل كان ممن يحق له التقريظ .

فسار الى قرية في الريف ومعه خادمه وخادمته . فعلم به بعض ولاة

البلاد فاستدعى به وبالخادم والخادمة . وقال له لبيب هل هذا وقت الموت او وقت الايلاد حتى جئت بهذه الجارية هنا.قال أنا مدّاح السريّ وقد أتيت لاسرح ناظري في نظرة الريف فاجيد مدحه بعد موت من يموت . فقد ضقت بالمدينة ذرعاً وخشيت على قريحتي العقم . قال ما هذه واشار الى الخادمة . قال هي اخت هذا يعني الخادم . قال وما هذا . قال خوليّ هذا يعني الحمار . فالتفت الامير الى الخادم فرأى عليه طلاوة . فقال له من حيث انك شاعر السريّ او شعروره فلا تثريب عليك . وانما ينبغي ان تترك الخادم هنا فانه يصلح لخدمتي. قال لك على الامرة فخذه.فاستبد به الامير تلك الليلة وسأله عن الفارياق ملحاً . فقال له الخادم والله يا سيدي انه رجل طيب غير اني اظن انه اعجمي فاني لا اكاد افهمه حين يتكلم بلغتنا . فلما اصبح الصباح تأهب الفارياق للرجوع فلم يجد الحمار . فظن انه لحق بالاول . فجعل يبحث عنه فوجده قد خرج مع حمار آخر من حمر الامير الى سهل وهو تحته يزقع وينخر. فلما ان رآه على حالة المفعولية غلبه الضحك فقال قد ورد في الحديث أن الناس على دين ملوكهم .الا انه لم يقل احد قط ان الحمير على مذهب اصحابها. ولكن بالعير ولا بالمِعير .

ثم رجع الى الدار فوجد خادمه وخادمته ينتظرانه . وقال له الخادم قد سرحني الامير فانه لم يرني أهلاً لخدمته الا ليلة واحدة وها انا الآن حرّ . ثم ان الفارياق بعد ان هنّا الامير ومرّأه رجع الى مصر وكان البلاء قد خف. فسأل عن شيخه المنطقي فقيل له انه حيّ لم يقضِ من القضايا فرجع اليه واتمّ معه ما كان ابتدأ به فلما بلغ آخر درجة من السلّم عاودته ضريبة الرمد فلزم بيته . فلما أفاق رأى أن يتعلم شيئاً من الفقه وعلم الكلام . فبدأ بالكنز وبالرسالة السنوسية فمرض . فرآه بعض معارفه من الفرنساوية فسأله عن سبب ضعفه فاخبره الخبر . فقال له انا اشفيك منه بأذن الله ولكن على شرط ان تعلم ابني العربية . فقال حباً وكرامة . فشرع مذ ذلك الوقت في تعليمه وفي تعاطي الدواء من عند أبيه . ولكن لا بدّ لتفصيل ذلك من فصل على حدته .

١٩

في دائرة هذ الكون ومركز هذا الكتاب

كان هذا الرجل طبيباً مشهوراً بمصر . ولكن شهرته في دائه اكثر منهسا في دوائه . وذلك انه كان قد تزوج جارية تارّة على كـبر سنّه فاولدها بنتاً وصبياً . ثم عجز عن اداء حقها فجعل دأبه الملاطفة لها والتملق . وتلك عادة الرجل مع المرأة من انه كلما قصّر في اعتابها وارضائهـــا في الحقوق الزوجية زاد حرصه عليها وكلفه بها وتردّبه لها . توهم ان هذا يسدّ عند المرأة مسدّ ذلك . وكذا حالته معها اذا كان يخونها ويرأم اخرى . كما ان دأب المرأة ان تزيد هشهشتها وعروبيتها لزوجها بزيادة اشباعه اياها واطفاف الكيل لها .او تملقها له اذا كانت تخونه .

وبناء على ذلك قال الطبيب لزوجته يوما من الايام . يا هذي انني ارى ان قد صدىء مفتاحي عن قفلك . وان سنّك وترارتك تقتضيان ان تتخذي لك آلة رصاعية لتتلهّي بها حتى يحين حَيْني فتتزوجي بآخر . والا فاني اخاف ان تتركيني وتطيري من عندي كما يطير الحمام . وقد يهون عــــلي ان أخسر منك شيئاً واحداً ولا اخسرك بجملتك . فانــــك ام ولدي ومحل سرّي من كبدي ، فلا اطيق فراقك . فاختاري لنفسك من شئت آتــك به بقرنيه . فضحكت المرأة عند ذلك . ثم قال ومن حيث اني معروف في هذا البلد باني طبيب فاذا رأى الجيران رجلاً قادماً اليّ بل رجالاً فلا يكون عليك شبهــة . فضحكت المرأة ايضاً لقوله رجالاً . قال فــان الناس يقرعون باب الطبيب ولو في نصف الليل وهنا ضحكت ايضاً . ثم تمادى في الكلام معها الى ان قال ولا تظني اني انا وحدي تفردت بهذه العادة . فان امثالي من اهل بلادي

يفعلون كذلك وهنا قهقهت . فلما فرغ من بقية خطبته على هذا النسق ظنت زوجته اولاً انه قصد بذلك ان يستطلع سرّها ويتصيّدها بزلة . فبكت من شدة الغيظ وقالت له أزعمتني بغيّا حتى تقابلني بمثل هـذا الكلام وتسيء بي الظن . قال حاشا الله من ذلك . وانما تكلمت معك بمقتضى الطبع فتدبري قولي بعد حين وردّي علي الجواب . فانصرفت المرأة من حضرته وهي واجمة مرتابة .

ثم مضت عليهما ايام غير قليلة والرجل لا يهارش ولا يعاظل. ولا يلاعب ولا يباعل . فقلقت جداً لهذه الحال . وضاق صدرها عن صبر الاعتزال. واخذت تفكر فيما قاله زوجها . فتبعّلت له يوماً من الايام وتبرّجت وتعطرت وقصدت غرفته وهي تقول في نفسها . اليوم يكون برزخ الحالتين ، وفيصل الحدّين . فان لم تكن منه مباعلة ذكرته بما قال . فتلقاها بالبشر والبشاشة واجلسها بجانبه وعرف انها كَرِعت . اذ رأى قد علت عينيها حمرة وهما ترارئان وفي صوتها تهدّج اي رعشة واضطراب . فلما استقرت بادرها بالكلام بان قال هل تبصّرت فيما قلته لك منذ ايام . قالت نعم ولكن اما عندك فضلة تغنيني عن هذا الامر . قال ما عندي والله من وَشَل ولا فضلة . ولا ثمد ولا ثملة . ولم يبق لي أمل لاصلاح شاني في ناعوظ ما لا في لحم السقنقور ولا في شحم الورَل دَلكا ولا في الزنجبيل ولا الفلفل ولا التامول ولا القاقلة ولا الراسن ولا الفوفل ولا القرنفل ولا السُنبل ولا المصطكى ولا الجوزبوّا ولا الهـال ولا الرازيانج ولا في عاقر قرحا ولا في حب الصنوبر ولا الحمص ولا الكابلى ولا البليلج ولا دارفلفل ولا السمسم ولا الخولنجان ولا البسباسة ولا دهن البلسان ولا خصي الثعلب ولا في بيض العصافير ولا في دهن السوسن ولا في القلقاس ولا في اصل النرجس منقوعاً في الحليب ليلتين ولا في الكرفس مدقوقاً بزره بالسكر والسمن ولا في لبس الثوب المورّس ولا في اكل اصل اللوف ولا في الضجع معصوراً ماؤه في اللبن الرائب ولا في البورق مدوفا بالعسل او في دهن الزنبق ولا في البندق الهندي ولا في الهَمْقاق مقلوّاً ولا في علـك البطم

واليبنبوت ولا في المسك مدوفا بدهن الخِيري ولا في البَهْمن ولا في الجزرولا في الهليون ولا في الاملج ولا في البسفارذانج ولا في اخضر الباقـلي بالزنجبيل ولا في القلقل مدقوقاً بالسمسم معجوناً بالعسل ولا في صمغ الكَنْدَلى ولا في المُقل ولا في ثمر البطم ولا في التحير بخفيف لحم الرخم مخلوطاً بخردل سبع مرات ولا في حب الزَلّم ولا في لبّ القرطم ولا في معك العَنَم ولا في الموز ولا في مسح دماغ الخفاش بالاخمصين ولا في لحم الحمام ولا في قرفـة القرنفل والا لما ضننت عليك بشيء لما تعلمين من فرط محبتي لك .

فقالت له اذا كان الامر يا سيدي كما ذكرت فاني اختار قسيساً . قال اي وسواس وسوس اليك هذا الاختيار الذي ليس من الخير في شيء قالت اما اولاً فلأن الناس لا يسيئون به الظن اذا رأوه داخلاً اليّ كل يوم . والثاني انه يقال ان مادّة القسيس متوفرة فيه . قال قد غويت ومع ذلك فاني اخشى منه على ولديّ فانه ربما يغريهما بخلافي حالة كوني مخالفاً له في معتقده فالاولى ان تختاري آخر . قالت انت طبيب تعرف الصحيح من العليل والقوي من الضعيف فاختر لي ما تشاء فاني ارضى بكل ما ترضى به انت . قال بارك الله فيك . ثم قبّلها من فرحه ووعدها بانجاز عدته في اليوم القابل . وما كاد يسفر الفجر الا وهو فوق حماره يقصد بعض اصحابه . فلما اجتمع به قال له ان لي عندك حاجة جئت التمسها منك . قال قل لي مـا بدا لك . قال على شرط ان لا تخيّبني . قال سابذل مجهودي كله ان شاء الله في قضائها . فاخذ يده ح توثيقاً للعهد ثم قال له اني اريد ان تكون خليفتي في زوجتي. فقال له الرجل هل بدا لك سفر عن مصر وان تترك زوجتك هنا قال لا وانما تكون خلافتك عني في حضوري . فاستاء الرجل وقال او خامرك ريب في صداقتي لك حتى اضمرت استطــلاع سرّي . وخفي امري . فعند ذلك صرّح له بالقضية والح عليه في القدوم معه .

ولما ان قدما انعقد البيع بحضرة كلّ من الزوج والزوجة وتم التراضي . وصار الرجل مذ ذلك الوقت يتردد على دار الخلافة وبقي كذلك مدة. ثم ان الزوجة لما ملّته كما هي عادة النساء وظهر له ذلك من قـلة احتفالها به مرة

ومن اعتذارها اليه اخرى . جرى هو ايضاً على عادة الرجال من انه افشى سرّها لصاحب له . فجرى هذا ايضاً على جَدَد امثاله وجعل يتودد اليها وقام عندها مقام الاول . ثم ملّته فافشى سرها ، ثم جاءها آخر فقبلته . ثم آخر وآخر حتى صاروا جماعة عظيمة . ثم تراجع اليها احبّاؤها الاولون وانهمكت في التبديل والتغيير حتى صارت دار الطبيب كالمشرعة . ولم تكن هذه القضية قد شهرت في مبادئها عند الجيران اذ كانوا يظنون ان القوم يأتون ليتداووا من علل بهم . ولكنها علمت بعد ذلك . وكان سببه ان الطبيب اتخذ له داراً أخرى خارج البلد ليصيف فيها وترك امرأته في الدار الاولى والزائرون على ما كانوا عليه من الورود والصدور فتنبه ح الناس لذلك .

وفي هذا الوقت اي ورود الخلق الى هذا المغنم البارد كان الفارياق المسكين يتردد على منزل الطبيب ليعلم ابنه ويتداوى . فظن الناس انه من جملة الزائرين . وتقلدوا اثمه في اعناقهم الى يوم الدين . فانه كان معطلاً وفعله مُلْغىً عن العمل . وبقي على تلك الحالة مدة من دون ان يرى فائدة من العلاج فكأن الطبيب اراد أن تطول المدة عليه الى غاية تعليم ابنه . فمن ثم اقتصر الفارياق عن التردد اليه وتداوى عند غيره وشفي .

وفي خلال ذلك سافر الى الاسكندرية لمصلحة ما . فاجتمع فيها بواحد من الخرجيين الصالحين . فسأله هذا ان يرجع معه الى مصر ليعلم عنده بعض تلاميذ فأجابه الى ذلك . وانما رغب فيه لكون الخرجيين لا يؤخرون اجرة من يعمل لهم . وفي اثناء هذا عنّ له ان يقرأ علم العروض . فأخذ في قراءة شرح الكافي على الشيخ محمد . فما كاد يختمه حتى فشا الطاعون بمصر فاشتد بالمولى الخرجي الحرص على حياته ابقاءً للمصلحة الخرجية كما زعم . فمن ثم رأى ان يتباعد عن وهدة الفخ قليلاً لكيلا ينطبق عليه فيفجع الخرجيون امثاله بفقده فيكون فقده سبباً في فقد غيره . اذ قد تقرر عندهم ان شدة الحزن تميت . فجعل الفارياق مع الخريجين الخرّيجيين ومع رجل لبيب ذي خبرة بالعلاج المانع من عدوى الطاعون . ثم استصحب ما لزم له وفرّ الى الصعيد ، وتفصيل ذلك في الفصل الآتي .

٢٠

في معجزات وكرامات

كان عند الخرجي المذكور خادمة رعبوبة من اهل بلاده . فلما عزم على الفرار رأى ان يغادرها في منزله لتصون حاجته فيه . وإنما أبَى ان يستصحبها معه لانه كان متزوجاً بامرأة هي دونها في الحسن . كما جرت العادة في بلاد الافرنج من ان الخادمة غالباً تكون فوق مخدومتها في القسامة والجمال ودونها في الدراية والمعارف . فوقع في خاطر زوجته انه اذا نشبت فيها عوالق الفخ اولا ربما اتخذ زوجها تلك الخويدمة في فراشها وطاب عنها نفسا . وان اول شيء تتعلمه البنت من امها قبل زواجها هو منع الاسباب التي تبعث زوجها على الاستغناء عن شخصها او عن ذكرها . ولذلك كان من عادة نساء الافرنج ان يهدين الى بعولتهن صورهن وان كانت شنيعة ليجعلوها في قمصهم . او خصلا من شعورهن وان تكن حمراء ليتختموا بها . ثم بدأ مشكل آخر وهو ان الخادمة اذا بقيت وحدها في الدار لم تأمن من ان يتسوّر عليها احد في الليل فيقع المحذور . ويحمى التنور . ويكسر المجبور . ويمد المجزور . ويطم المحفور . ويذال المذخور . ويحرث البور . وتفك الطلاسم عن المسحور . ويفتق المشصور . ويسمد الصُعْبور . ويوسع الصُنبور . ويبعثر المطمور . وتذلّل العبسور . ويصدع الفاثور . ويخرب القهقور . وينقر في الناقور فتتثلم شوكة الزنبور . فارتأى بعد ان رفع يديه بالابتهال الى الله تعالى ان يضم اليها رجلا من اهل بلاده نحيفاً قشعوماً اعتقاد انه لا يقدر على ارتكاب شيء من الافعال التي جرّت هذه القوافي المتعددة . وذلك من جملة الاغلاط الفاضحة التي اشتهرت بين الناس اعني انهم يظنون في الغالب من دون مراجعة النساء

والاستشهاد بقولهن ان النحيف لا يقدر على ما يقدر عليه السمين . وكان الاولى ان لا يستبدوا برأيهم في ذلك . فمكث القشعوم مع الخادمة في أهنأ عيش .

اما ما كان من الخُرَيْجيين فان مخرّجهم أي مربّيهم وكّل بهم ذلك الرجل اللبيب . واوعز اليه في ان يحظرهم عن الخروج وان لا يدع احداً من اقاربهم يدخل اليهم . وان يستخدم رجلاً ليشتري لهم ما يلزمهم من الخارج ولا يستلم منه شيئاً الا بعد ان يغمسه في الخل او يبخره بالشيح . وغير ذلك مما عرف في اصطلاح الافرنج لمنع اسباب الوبأ. وكان هذا الوكيل من مشاهير علماء ملّته . وكان في مبدأ امره كافراً لا يعتقد بدين من الاديان. لكنه كان حميد الخصال حسن الاخلاق . غير ان كفره حال بينه وبين رزقه فاضطر الى ان ينحاز الى الخرجيين من اهل بلاده ففرحوا بهدايته كثيراً واحسنوا اليه احساناً وفيراً فانقلب هزله جداً وتمكنت منه الوساوس والاوهام حتى اعتقد أخيراً أنه اهل للكرامات والمعجزات . فكان يتمنى ان تسنح له فرصة لذلك . واتفق في هذا الاوان ان مات بالطاعون ذلك الخادم الذي كان يشتري لوازم الدار . فلما جاء الدفّانون ليحملوه أعترضهم الوكيل من داخل الدار فخافوا ان يخالفوه لكونه من الافرنج فان لهم عند اهل مصر حرمة زائدة . ثم انه مضى الى موضع منفرد وجثا على ركبتيه وهو يدعو الله سبحانه وتعالى لان يحقق له صدق عقيدته . ثم فتح الباب وخرج والقى نفسه على جثة الميت وجعل فمه في اذنه وهو يناديه قائلا : يا عبد الجليل (اسم الميت) اني ادعوك باسم المسيح ابن الله لان تعود من ظلمة الموت الى نور الحياة . ثم اصغى ليستمع الجواب فلم يجبه احد . فأشار الى الدفانين أن اصبروا . ثم سار الى ذلك الموضع الذي صلى فيه أولاً . وغير ركعته بان جعل فمه بين فخذيه وهو يجمجم في الدعاء وذلك على منوال الياس النبي حين صلى لانزال المطر بعد ان قتل انبياء بعل . وكان عددهم اربعمائة وخمسين نبياً على ما ذكر في الفصل الثامن عشر من سفر الملوك الاول. الا أن بين الداعيَين

فرقاً . وهو ان النبي صلى هكذا بعد القتـــل وصاحبنا هذا قبل الاِحياء . وكان الاولى ان يرفع عبد الجليل الى غرفة كما فعل النبي المذكور بابن الارملة التي كانت تعوله. وكان دعاؤه الى الله لاحيائه ان قال ايها الرب الهي اجلبت الشرّ ايضاً على هـذه المرأة بقتل ابنها الخ . ثم انه شبح يديه حتى صارت جثته على شكل صليب . ثم قام ناشطاً مسروراً واسرع في ان القى جثته على الميت واعاد في اذنيه كلامه الاول . فلما لم يجبه احـــد ورأى الميت لم يزل مفتوح الفم مطبق الجفنين ولم يمشِ مرة هنا ومرة هناك ولم يعطس سبـــع عطسات كما عطس ابن المرأة الذي احياه النبي اليشع على ما ذكر في الفصـل الرابع من سفر الملوك الثاني ، ذهب الى المطبخ وامر الطباخ بان يصنع لــــه مرقة على الفور . فلما صبّت المرقة اقبل بها الى عبد الجليل وجعل يفرغ منها في حلقه وذلك مشغول عنه بناكر ونكير . فلما اعياه امره أمر الدفانين ان يحملوه وقال ما عليّ ذنب في كوني لم ارد ان ابعثه وانما الذنب عليه . ثـــم اقبل الى حجرة الفارياق وقال له لا تؤاخذني يا خليلي بعجزي عن احيــــاء الخادم فان زمن الانشار لمّا يبلغ . ولكني لا اتراخى في عقيدتي بان افعـل ذلك المرة الآتية ان شاء الله .

فلما سمع الفارياق ذلك اضطرب باله وثار دمه غيظاً وحزناً. فأصابه في ذلك اليوم الداء الفاشي. فخرج تحت ابطه سلعة كالاترجة وحمّ واخذه صداع أليم. فاما الوكيل فلم يصبه شيء. وذلك من الاسرار التي يعجز عن ادراكها الحكماء. ثم ان الفارياق كان حال مرضه يفكـّر فيما جرى عليه وهو وحيـد غريب لا مؤنس عنده يسليه . ولا طبيب يداويه . وكان يقول في نفسه اذا مت على هذه الحالة فمن عساه يتمتع بكتبي هذه التي سهرت الليالي على نسخها . نعم ان الموت على كل حال صعب مكروه غير ان موت الفتى مثلي غريباً اصعب واني قد ابتليت والحمد لله في هذه المدينة بجميع انواع الادواء المصبوغة بلون الحمام . فاذا فسح الله الآن في اجلي فلا افارق هذه الدنيا الا قرير العين بنجل يرثني . وان لم يكن عندي من حطام الدنيا غير الكتب . كيف لا وقد جاء

عن ابيشالوم ولد سيدنا داود انه نبي له جداراً ليذكر به بعد موته اذ لم يكن له خلف . فلاً تزوجنّ فان لم يأتني خلف فالطوب بمصر كثير . اللهم يسر . غوثك يا كريم . يا رحمـــان يا رحيم . ثم لما كان يمعن النظر في حال الزواج ويتصور مشاقه وشدائده التي كان يرى اودّاءه ومعارفه يقاسونها ويئنون من باهظ حملها ، يرجـــع عن عزمه ويسخر من استحالة عقله وضعف فهمه لضعف جسمه ثم يعتذر لنفسه بان كل انسان اذا عاش مدة حياته على رأي لم يوافق رأي الجماعة وكان يعتقد وهو حيّ صحيح الجسم معافى انهم كلهم على ضلال وانه هو وحده على هدى فاذا ادركه ضعف جسم لم يلبث ان يتغير عقله فيميل عن مذهبه الاول . كما جرى لبيون الفيلسوف ولكثير غيره من الحكماء والفلاسفة .

ثم ان الله تعالى تدارك الفارياق برحمته . ومنّ عليه بالشفاء من علتـه . فقام من فراشه كأنما قام من جدثه واقبل على الطنبور يعزف به ويغني فدعه الآن على هذه الحالة ولا تنغص عليه عيشته . وشمر اذيالك معي لنطفر فوق هذا الأجيج المتأجج امامنا فيما يلي هذا .

الكتابُ الثّالِث

١

في اضرام اتون

او ما كفى بني آدم ما هم فيه من الشقاء والعناء . والجهد والبلاء . والمشقة والنصب واللاواء والتعب . والحرمان والنحس والقنوط والتعس . يحبل بهم في الفرْث والوحم ويولدون في الاوجــاع والالم . ويرضعـون في الضرر . ويفطمون في الخطر . ويحبـون فيعثرون . ويدرجون فيتدهورون . ويمشون فيكلّـون . ويكدّون فيملّون . ويبطلون فيتضورون . اذا جـاعوا خاروا او وهـوا . واذا اكلوا اتخموا وَبجِـروا . واذا ظمئوا ضووا . واذا شربوا غلثوا وغثثوا وخثروا . واذا ارقوا ذابوا قلقاً وكمداً . واذا ناموا ذهب العمر منهم سدى . واذا هرموا ملّتهم اهلهم واخوانهم . واذا احتضروا حسّروهم تحسيراً ربما احانهم . ثم هم بين ذلك في تحصيل اسباب المعاش ساعون . وفي التظاهر باللباس والزينة معنّون . والعزب منهم متهافت على امرأة تكون له اهلاً . وذو الاهل همّه بزوجه . وتربية ولده طفلاً وكهلاً . فاذا مرضــوا مرض . واذا حزنوا حزن وجرض . وويــل له ان تكن زوجته بَزْراً او كانت عاقراً وذماً . ورأى لغيره من المتزوجين بنين ذوي طلعة ناضرة وشمائل سارّة . فيقول في نفسه انما لذة الدنيا البنون . واني ميت بلا خلف وايّ منون . وكم من سقـوط ظفرٍ وهن الجسم كله . وكم لقلع ضرس ذهب الصبر او جلّه . ما عـدا الادواء المتعضّلة . والعلل المتأصّلة . وتخالف الازمان وحول الاحوال . وتعاقب الاحزان ودَوْل الحال . على هذا الجسم الواني البال . ففي الشتاء يكون عرضة للريح والزكام والبلغم والرطوبات . والبوال والعفونات . وفي الصيف للصفراء والحمى والصداع . والترهـل والاستنقاع .

وفي الربيع لهيجان الدم وتبيّغه وثزغته . وفي الخريف لتحرك السوداء وأذى الهواء وندغته . ثم إن منهم من يولد ويعرض من العيوب والامراض

الجَنأ	اشراف الكاهل على الصدر .
او القَسأ	خروج الصدر ونتوء الحَشَلَة .
والقَطأ	دخول الظهر وخروج الصدر .
والحَدَب	معروف .
والحسبة	ان يبيض جلد الرجل من داء فتفسد شعرته فيصير ابيض واحمر .
والحَصْبة	بثر يخرج بالجسد .
والشبّ	داء م .
والضُبُوب	داء في الشفة .
والطَنَب	طول في الرجلين في استرخاء وطول في الظهر .
والعَكَب	غلظ في الشفة واللحى .
والغَضْبَة	بخصة تكون بالجفن الاعلى خلقة
والغِضاب	داء او الجُدَري .
والغَلَب	غلظ العنق .
والقَلَب	انقلاب الشفة .
والقُلاب	داء القلب .
والقُوَباء	الذي يظهر في الجسد ويخرج عليه .
والكَنَب	غلظ يعلو الرجل واليد
والكَوَب	دقة العنق وعظم الرأس .
والناقبة	داء للانسان من طول الضجعة :
والجَوَث	عظم البطن في اعلاه او استرخاء اسفله
والخَوَث	استرخاء البطن :
والضَمَج	آفة تصيب الانسان وهو ايضا هيجان المابون .
والعِناج	وجع الصلب .

والفَحَج تـداني صدور القدمين في المشي وتباعـد العقبين والفجج والفخج اقبـح منه .

واللَّخَج اسواء الغمص .

والمَجَج استرخاء الشدقين .

والجَلَح انحسار الشعر عن جانبي الراس .

والصَفَح عرض فاحش في الجبهة .

والنَّطف علّة يُكوى منها الانسان .

والفركحة تباعد ما بين الاليتين .

والفَطَح عرض الراس والارنبة .

والفَلَح شق في الشفة السفلى .

والقادح أكال في الاسنان .

والقَلَح صفرة الاسنان .

والكَسَح الزمانة في اليدين والرجلين .

واللَّجَح اللخص في العين .

والمَرَح شدة سيلان العين وفسادها :

والمَسَح احتراق باطن الركبة لخشونـة الثوب او اصطكاك الربلتين ومثله المشح :

والوَذح احتراق في باطن الفخذين .

والبَزَخ خروج الصدر ودخول الظهر .

والزُلَّخة وجع يأخذ في الظهر .

والفَتَخ استرخاء المفاصل او عرض الكف والقدم وطولهما .

والنُفّاخ نفخة الورم من داء يحدث.

والجَرَد عدم الشعر .

والدَّرَد ذهاب الاسنان .

والرِدّة تقاعس في الذقن .

والسُوداء داء من شرب الماء .

والقَوَد	طول العنق والظهر .
والكُباد	وجع الكبد .
واللَهْد	داء في ارجل الناس وافخاذهم .
والاَدَر	الآدر والمادور من ينفتق صفاقة فيقع قُصبُه في صَفْنه السخ. وفعله كفرح .
والبَجَر	خروج السرّة وعظم البطن .
والبَخَر	النتن في الفم .
والباسور	م ج بواسير .
والحَثَر	البثور وحثرت العين خرج في اجفانها حب احمر .
والحَدرة	قرحة تخرج ببياض الجفن .
والحُصْر والحَصَر	الحصر احتباس ذي البطن وبالتحريك ضيق الصدر والبخل والعيّ في المنطق .
والحَفَر	سلاق في اصول الاسنان .
والحُمْرة	ورم من جنس الطواعين .
والمُحنجَر	داء في البطن .
والاُخيضر	داء في العين .
والذَهر	اسوداد الاسنان ومثله التذيير .
والزَّحير	استطلاق البطن .
والزَّعر	تفريق الشعر وقلته .
والزَّوَر	عِوَج الزور والازور من به ذلك والناظر بمؤخر عينيه .
والشَّتَر	انقلاب الجفن من اعلى واسفل وانشقاقه او استرخاء اسفله .
والصَّعَر	صغر الرأس .
والصَّفَر	داء في البطن يصفّر الوجه .
والظَّفَر	داء في العين .
والظَّهَر	داء الظهر .
والعَوَر	معروف .

والتقطير	عدم استمساك البول .
والقَصَر	يبس في العنق .
والمَعَر	قلة الشعر .
والناسور	علة في المآقي وعلة في حوالي المقعدة وعلة في اللثة .
والكُزاز	داء من شدة البرد .
والسُّلاس	ذهاب العقل .
والفقاس	داء في المفاصل .
والفَطَس	انفراش الانف في الوجه .
والقَعَس	خروج الصدر ودخول الظهر ضد الحدب .
والقَفَس	عظم الروثة .
والقَنْعسة	شدة العنق في قصرها كالاحدب .
والكَسَس	قصر الاسنان او صغرها او لصوقها بسنوخها .
والنّقْرس	ورم ووجع في مفاصل الكعبين واصابع الرجلين .
والهَوَس	طرف من الجنون .
والحَمَش	دقة الساقين .
والخَفَش	صغر العينين وضعف البصر خلقة او فساد في الجفون بلاوجع او ان يبصر بالليل دون النهار .
والدّوَش	ظلمة البصر وضيق العين .
والرّمَش	حمرة في الجفون مع ماء يسيل .
والطّرَش	اهون الصمم .
والطّشاش	داء كالزكام .
والعُطاش	داء لا يروى صاحبه .
والعَمَش	ضعف البصر مع سيلان الدمع في اكثر الاوقات .
والمَدَش	رخاوة عصب اليد وقلة لحمها ودقتها .
والنّمش	نقط بيض وسود او بقع تقع في الجلد تخالف لونه .

والبَخَص	لحم ناتيء فوق العينين او تحتهما كهيئة النفخة والتبخص انقلاب الاجفان .
والبرص	معروف
والتَّمَص	وجع العصب من كثرة المشي .
والحاصَّة	داء يتناثر منه الشعر .
والحَوَص	ضيق في مؤخر العينين او في احداهما .
والخَوَص	غؤور العينين .
والخَيْص	صغر إحدى العينين .
والرَّمَص	وسخ ابيض يجتمع في الموق .
والشَّوْصة	وجع في البطن او ريح تعتقب في الاضلاع او ورم في حجابها
والغمَص	ما سال من الرمص .
والقَبَص	وجع يصيب الكبد من التمر على الريق وضخم الهامة .
والقِرْماص	قصر الخدين .
والقَفَص	حموضة في المعدة من شرب الماء على التمر وحرارة في الحلق .
واللَّحَص	تغضن كثير في اعلى الجفن .
واللَّخَص	كون الجفن الاعلى لحيا .
واللَّصَص	تقارب المنكبين والاسنان .
والماصَّة	داء يأخذ الصبي من شعرات على سناسن الفقار الخ .
والمَعَص	التواء في عصب الرجل .
والمَغَص	معروف .
والوَقَص	قصر العنق .
والحَرَض	فساد المعدة والبدن والمذهب والعقل .
والهَرَض	الحصف يخرج على البدن من الحرّ .
والخُباط	داء كالجنون .
والاذْوَطيَّة	الاذوط الناقص الذقن .
والاسطية	الاسط الطويل الرجلين .

والسرطان	ورم سوداوي يبتدىء مثل اللوزة واصغر فـــاذا كبر ظهر عليه عروق حمر وخضر شبيه بارجل السرطان لا مطمع في برئه وانما يعالج لئلا يزداد .
والضَّرَط	خفة اللحية ورقة الحاجب .
والضَّوَط	عوج في الفم .
والطَـرَط	خفة شعر العينين والحاجبين والاهداب .
والقَطَـط	قصر الشعر وجعودته .
والمَـرَط	خفة الشعر .
والمَـعَط	عدم الشعر .
والجَـحْـظ	خروج المقلة أو عظمها.
والبَـثَـع	ظهور الدم في الشفتين وانقلاب الشفة عند الضحك .
والجَـلَـع	عدم انضمام الشفتين .
والخَـلع	التواء العرقوب .
والرَّسَع	فساد في الاجفان .
والرَّمع	اصفرار في وجه المرأة من داء يصيب بظرها .
والزَّلع	شقاق في ظهر القدم كالسلع .
والزَّمع	الزيادة في الاصابع .
والصُّداع	وجع الرأس .
والصَلَـع	انحسار شعر مقدم الرأس .
والتصوّع	تشقق الشعر .
والقَـرَع	معروف .
والقَـفَـع	ارتداد اصابع الرجل الى القدم .
والقُلاع	داء في الفم .
والقَـمَـع	فساد في موق العين واحمرار او بثرة تخرج في اصول الاشفار
والكَـتَـع	رجوع الاصابع الى الكف .

والكُنْثُع — احمرار الشفة وكثرة دمها حتى تكاد تنقلب .
والكَلَع — شقاق ووسخ فى القدم .
والكَوَع — اقبال الرثغين على المنكبين .
واللّخَع — استرخاء الجسم .
واللَطَع — بياض في باطن الشفة الخ .
والوَكع — اقبال الابهام على السبابة من الرجل .
والهَنَع — انحناء في القامة .
والبَثَغ — ظهور الدم في الجسد .
والدَلَغ — انقلاب الشفة .
والفَدَغ — التواء في القدم .
والفَوَغ — ضخم في الفم .
والوَبَغ — هبرية الرأس .
والجنف — الجنف في الزور دخول احد شقيه وانهضامه مع اعتدال الآخر .
والحَشَفة — قرحة تخرج بحلق الانسان .
والحَنَف — الاعوجاج في الرجل .
والخَنَف — انهضام احد جانبي الصدر او الظهر .
والسأف — تشقق وتشعث ما حول الاظفار .
والسّعْفة — قروح تخرج على رأس الصبي ووجهه .
والشأفة — قرحة تخرج في اسفل القدم فتكوى فتذهب واذا قطعت مات صاحبها .
والشّنَف — انقلاب الشفة العليا من اعلى .
والطَّرْفه — نقطة حمراء من الدم تحدث في العين من ضربة وغيرها .
والغَضَف — استرخاء في الاذن .
والغَطَف — كثرة شعر الحاجب .
والكُتاف — وجع الكتف .

والكَلَف	شيء يعلو الوجه كالسمسم – وحمرة كدرة تعلو الوجه .
والأرقان	آفة تصيب الزرع والانسان كاليرقان .
والبَخق	اقبح العور .
والبهق	بياض رقيق ظاهر البشرة الخ .
والحَوْلق	وجع في حلق الانسان .
والحَاق	الجدري او شبهه .
والخُناق	داء يمتنع معه نفوذ النفس الى الرئة .
والرَّوَق	ان تطول الثنايا العُلى السُفل .
والسُّلاق	بثر يخرج على اصول اللسان او تقشر في اصول الاسنان وغلظ في الاجفان .
والشَّدَق	سعة الشدق .
والشَّمق	مرح الجنون .
والغَمَقة	داء يأخذ في الصلب .
والفَتَق	علة في الصفاق .
والفَوَق	ميل الفم والفرج .
واللَسَق	لسوق الرئة بالجنب عطشا .
والمَشَق	ان تصيب احدى الربلتين الاخرى .
والوَدَق	نقط حمر تخرج في العين تشرق به او لحمة تعظم فيها او مرض فيها ترم منه الاذن .
والسَّكَك	عيب في الاذن .
والساهك	حكّة العين .
والشاكّة	ورم في الحلق .
والشوكة	داء م وحمرة تعلو البدن .
والفَرَك	استرخاء اصل الاذن .
والفَكَك	انفراج المركب استرخاء .
والألَل	قصر الاسنان واقبالها على غار الفم كاليلل .

والبَدَل	وجع في البأدلة .(اللحمة بين الابط والثندوة)ووجع المفاصل واليدين .
والبُوال	داء يكثر منه البول .
والثَّعَل	تراكب الاسنان .
والثَّلَل	تساقط الاسنان .
والحَذَل	حمرة في العين وانسلاق وسيلان دمع .
والحِقْل	داء في البطن .
والخَلَل	استرخاء ووجع في العصب .
والحَوَل	معروف .
والخَبَل	فساد الاعضاء والفالج .
والخَزَل	الكسرة في الظهر .
والخُمال	داء في المفاصل .
والدَّحَل	عظم البطن .
والدَخَل	ما داخلك من فساد في عقل او جسم .
والسَّبَل	غشاوة العين من انتفاخ عروقها الظاهرة .
والسَّغَل	السَغِل الصغير الجثة الدقيق القوائم او المضطرب الاعضاء او السيِّء الخلق والغذاء او المتخدد المهزول وقد سغل كفرح في الكل .
والسُّلال	م كالسِلّ .
والسَّوْلة	استرخاء البطن وغيره .
والصَّحَل	البحح .
والضَّعَل	دقة البدن من تقارب النسب .
والطَّحَل	داء الطحال .
والطُلاطِلة	سقوط اللهاة حتى لا يسوغ له طعام ولا شراب .
والعَفَل	شيء يخرج من قبل النساء كالادرة .
والعَقَل	اصطكاك الركبتين .

والعقابيل	ما يخرج على الشفة غبّ الحمى .
والغَمَل	فساد الجرح من العصاب .
والقَبَل	اقبال احدى الحدقتين على الاخرى .
والنَّمْلة	بثرة تخرج في الجسد بالتهاب واحتراق ويرم مكانها يسيراً ويدبّ الى مكان آخر .
والأطام	حصرة البول والبعر من داء .
والجُحام	داء في العين .
والجُذام	معروف .
والخَشَم	تغير رائحة الانف من داء فيه .
والرَّحَم	وجع الرحم .
والسَّرَم	وجع الدبر .
والضَّجَم	عوج في الفم والشدق والشفة والذقن والعنق .
والعسَم	يبس في مفصل الرسغ تعوّج منه اليد والقدم .
والغَمَم	سيلان الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا .
والفَقَم	تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى .
والقعم	ميل وارتفاع في الاليتين .
والكَزَم	قصر في الانف .
والكَشَم	نقصان في الخلق وفي الحسب .
والمُوم	اشد الجدري .
والبَطن	داء البطن .
والثَّفن	داء في الثَّفِنة وهي من الانسان الركبة ومجتمع الساق والفخذ .
والدَّنَن	انحناء في الظهر ودنو وتطامن في الصدر والعنق .
والزَّمن	العاهة ونحو الضَّمَن .
والتسوّن	استرخاء البطن .
والقَعَن	قصر فاحش في الانف .

والآمة والماهة	الآمة الحصبة والماهة الجدري .
والجَلَه	انحسار الشعر عن مقدم الرأس .
والشَوَه	طول العنق وقصرها ضد .
والفوَه	سعة الفم .
والقَرَه	القره في الجسد كالقلح في الاسنان .
والقَمَه	قلة شهوة الطعام كالقَهَم .
والمَرَه	فساد العين لترك الكحل .
والبله	قلة الفطنة .
والتَلَه	الحَيرة والوله وهو ذهاب العقل حزناً .
والدَلَه	ذهاب الفؤاد من همّ ونحوه .
والبَزا	انحناء في الظهر عند العجز او اشراف وسط الظهر على الاست.
والجَثْو	سعة الجلد واسترخاؤه .
والجلا	دون الصلع .
والجوَى	داء في الصدر .
والحصاة	اشتداد البول في المثانة حتى يصير كالحصاء .
والحَقْوة	وجع في البطن من اكل اللحم .
والخَذَى	استرخاء الاذن وانكسارها .
والرَثْية	وجع المفاصل واليدين والرجلين او ورم في القوائم او منعك الالتفات من كبر او وجع .
والشَرَى	بثور صغار حمر حكاكة
والشَغا	اختلاف نبتة الاسنان بالطول والقصر والدخول والخروج .
والضوى	دقة الجسم وقلة الجسم خلقة او الهزال .
والطَنَى	طنى لزق طحاله ورئته بالاضلاع من الجانب الايسر .
والفَغا	ميل في الفم .
والقعا	هو ان تشرف الارنبة ثم تقعي نحو القصبة .
والقَطَى	داء في العجز .

واللَّقْوة	داء في الوجه .

واللَّوَى	وجع في المعدة واعوجاج في الظهر .

وغير ذلك من العيوب كأن يكون الانسان قشعوماً او مقرقماً او زَعبلا او سَقَعْطَري او نغاشياً او إزْبا او دميماً . ومن الادواء التي لم يُعرَف لها بعدُ اسم . ومحال ان تحيط بها كلها حالة كونها غير مستقصاة هذه الثمانية والعشرون حرفاً . واصعب ما فيها واضرّ الهُكاع والتشويل . وقد زاد معاصرونا على ذلك الداء الزَرَنبي مما خلت عنه لغتنا الشريفة .

واعود فأقول الم يكفِ بني آدم ان مدى عمرهم قصير . وهمّهم فيه طويل كثير . وامرهم عسير . لكل منهم من العناء والجهد واللوعة ما يكفيه وآخرين معه . فطالب العلم يسهر الليالي في تبيين مشاكل وإيضاح مسائل . وذو الصنعة يقضي نهاره كله مكبّاً على عمله ذا سخط حتى ينال كفافه فقط . وذو الامارة مشغول البال باحكامه وسياسته . والرئيس ذو همّ برئاسته . والملك موجس من وزرائه ان يتحالفوا عليه فيسقوه ما به هلاكه . والوزراء خائفون منه ان ينقم عليهم فتدور بهم افلاكه . والتاجر يبكر الى محترفه وهو مشفق من كساد بضاعته . والطبيب يخشى ان ترشَد الناس فيستغنوا عن براعته ، فتعفن عقاقيره ، وتأجن مياه زجاجاته ويفسد ذروره ، وسَفوفه ولَعوقه ووَجوره . والقاضي يستعيذ من قدوم من تفتنه من الغيد بجمالها . وتربكه في مسائل غير مذكورة في كتابه فيعلق بحبالها . ويتحير من احوالها . والربّان يحذر من عصف الأرياح . والزاجل من شب نار الحرب التي وقودها الارواح . فكلما رأى سلطانه متغيراً ، وخاطره مكدراً ، قال اللهم اكفني غِير الدهر . واجعل هذا الكدر عارضاً يزول قبل العصر . فاني أرى في وجه ملكي واميري سيمياء القتال ، والزسم بمنازلة الابطال . وانا ذو صاحبة وعيال ، واملاك واموال . اللهم اكفف السنة الاجانب عن القدح فيه . والقِ في قلوبهم رعبه وامحُ من صدره ما يوغره ويزفيه . والحارث يوجل من كثرة الامطار ، وهبوب الاعصار . والمعلم من رغبة الناس عن العلم

الى الجهل . والمتعلم من عقبة الكُتّاب . وعاقبة الكتاب ، الشافه لما عنده من ثمد الجَلد ، والحاظر له عن اللهو والدد. والمغنّي والعازف بآلات الطرب من وقوع الغلاء ، او استيلاء الحزن على قلوب الاغنياء . واللاعب من اهتداء الناس الى الجد . والشاعر من الفائه ممدوحه كالحجر الصلد ، او محبوبه ذا جفاء وصد . والمؤلف مثلي من مجانين (اي يشفق من مجانين لا انه هو منهم) يتصدون له فيحرقون كتابه ، ويخرّقون إهابه . والزوج من فرار زوجته وكساد ابنته. وهما من بخله وحرمانها من ثروته. والقسيس من كتب الفلاسفة . والفلاسفة من وعيد القسيس وبوادره العاصفة ، ورعوده القاصفة . وفي الجملة فكل ذي حرفة يخاف من انحراف نفعها عن جانبه . وكل يدعو الله لصلاح حاله ولو بفساد حال صاحبه. اذ لا تكاد تتم مصلحة من هذه المصالح المذكورة الاّ وينجرّ معها مفسدة بالضرورة . كما قال ابو الطيب المتنبي مصائب قوم عند قوم فوائد . ومع ذلك فكل يزعم انه محق فيما سأله . جدير بنوال ما امله . وان لغته في ذلك عند الحق سبحانه وتعالى ، اصدق مقالاً . نعم اعود فأقول ، وإن طال المقول : أوَ ما كفى الناس الخوف من الموت يفاجئهم وهم في دعة واطمئنان ، او يفجعهم بفقد ما لديهم عزيز من اهل وولد واخوان ، وخلان وحيوان؟ اذ بعض الناس يَكلفون بالخيل والطير والسنانير والكلاب . كلفهم بالاهل والاصحاب . او الرعب من ان يسقط احدهم عن ظهر دابته فتندق عنقه . او تسري النار في بيته فيحترق تالده وطريفه فيعدم رزقه . او يقع في تيّار فيجفأ بـه الى ما شاء الله . او تخسف به الارض . او يخرّ عليه السقف من فوق . او تبلغه الوكة من مسافة مائتي فرسخ فتقلقه وتورقه وربما ابكته دماً . او يأتيه سارق فيسرق متاعه الذي هو قوام معيشته . او يفقد ما في كيسه او هميانه في الطريق . او ينشب في عينه عود فيعطلها . أو تتشنج به عضلة فيعد بعدها من سقط المتاع . او يأكل شيئاً ضارّاً فيودي به او شراباً مسموماً فيسقط امعاءه وارابه . او يرى جميلة فيؤرقه جمالها فيصبح وهو هائم متيّم يشكو للطبيب من سقامه ، وللشاعر من غرامه . فلا هذا يطمعه ويمنّيه . ولا ذاك ينفعه ويشفيه . او قبيحة فتدهمه مَرْعبة

ويلازمه القمه عن المأدبة او تنبحه الكلاب وتخرق ثيابه فيبدو وَذَمه . او يسيل دمه او يكون جالساً يومـــاً على التخت ، فيسمع له صريف التحت فيسود وجهه بين اخوانه وعترته واهل قريته وكورته وربما نبزوه بالخَـضْفى او الغـَضْفى او النَـضْفى او الخَـبْقى او الخَـفْقى او العَفْـقى او الغَفْـقى او الحَـصْمى او الخَـضْمى او الرُدْمى او يقـــع عليه الكابوس ليلاً فيقف جريان دمه على قلبه فيهلك ليلته .

نعم ألم يكفهم هذا كله حتى طفق بعضهم يجهّز على بعض كتائب الحدس والتخمين ويجرّد عليه مقانب الخرص والتزكين . فاقبل قوم منهم على قوم برماح الطعن مشرّعة . وبسيوف اللعن مبضّعة . وبنصال الجدال فـــائدة مارقة . وبنبال الجلاد صاردة خاسقة . فقال بعض إلا ان درجات السماء مئة وخمس . فقال غيره إلا انها مئة واربع . فقال آخر لقد كذبتما واستوجبتما قطع اللسان وسمل العينين وسلّ الانثيين . انما هي مئة وست . ثم قـــام آخر وقال الا ان دركات سقر ستمائة وست وستون . فقام غيره وقال الا انها ستمائة وخمسون . فقال آخر لقد كذبتما والحدتما وضللتما واستوجبتما غلّ اليدين والرجلين ونتف الشعرين . انما هي ستمائة وسبع وستون. ثم قام آخر وقال الا ان قرن الشيطان ثلاثمائة وخمسة وخمسون ذراعاً . فقال آخر هـذا افك واضح ، وبهتان فاضح . بل هوثلاثمائة وستة وخمسون . فقال آخر وكسور . ثم قال آخر الا انه من حديد لكونه ثقيلاً على الناس يعنّيهم فأجابه غيره الا انه من ذهب لكونه يضلّهم ويغويهم فقال آخر بل هو من اليقطين لانه ينمى ثم يذوي . ويكبر ثم يصغر . ويطول ثم يقصر . ثم قام آخر على رأس سلم عالٍ وقال بصوت جهير الا ان بكم أيها الناس لجُلَـيْدة ينبغي قطعهـا بحجر محدّد لا كبير ولا صغير . فقال آخر بل بسكّين ماض لا طويل ولا قصير . فقال آخر لقد سفهتما انما هي عزيزة علينا ، كريمة لدينا . لا يصح قطعها بحجر ولا سكّين . ولا خدشها بشيء ولو من رقين . فانما هي متصلة بالوريـــد ومنعقدة بالوتين . ومن قطعهـا فقد كفر . واستوجب نار سقر . فقال آخر

بل قطعها واجب فانها من الزوائد . فاعترضه القائل بعدم القطع أنّا لا نرى شيئاً غيرهايقطع فما وجه تخصيصها بالقطع .قال بل الشوارب تخفَى والاظفار تقلّم . قال ولكنها بعد ذلك تنبت وتلك لا . قال انما دليلي القطعي على وجوب القطع عدم نفعها لصاحبها . قال لم يخلق الله شيئاً عبثاً من غير نفع . قال بل خلقك اياك لغير فائدة . قال لا بل انت مخلوق عبثاً . ثم حشد كلّ من الفريقين بخيله ورَجْله ، وتلاقى كل من الجيشين بسلاحه ومحله . فمن بين قارع بحدّ الحسام ، ورامٍ بالسهام ، وباطش بيده وقاذع بلسانه وهائجٍ بقلمه . فالرؤوس متناثرة . والدماء جارية والاعضاء متطايرة . والعرض مهتور والحرمات مهتّكة . والمال مسلوب والديار مخرّبة . والحزازات في الصدور كامنة . والمشاحنة ظاهرة وباطنة. والخيل مُسرَجه. والكماةمدجّجة والطرق معطلة . والارض ممحلة . والفرص للانتقام مرقوبة . والدعوات في الليالي مشبوبة .

يا ايها الناس اعتبروا بمن فات . كيف صار الى الرفات.وان منهم من كان يذكر اسمه في حياته بالبركات . فاصبح يذكر باللعنات . ومنهم من كانيحسب في قومه سراجاً وهاجاً . فصار يحسب دخانا وعجاجا . ومنهم من كان يأكل حتى ينتفخ بطنه وتجحظ عيناه، ويتلجلج لسانه وترتخي شفتاه. فصار الآن الدود يأكله . وبعض الحشرات يستوبله يا ايها الناس • وجمهوركم في سبات والباقي في نعاس . فرارٍ من غرور النفس وحدارٍ من قرور الرمس . وبدارٍ الى تقديم عمل صالح يقربكم الى الله . ويلأم بعضكم ببعض وانتم في الحياة . اتموتون وفي قلوبكم الحقد على خصمكم. وفي افواهكم اللعن على مخالفكم في زعمكم . ألم يقل لكم الحق كونوا يا عباد على الارض اخوانا فانكم من أب واحد وأمّ واحدة وانكم جميعاً لميّتون . سواء كنتم ذوي وجوه سمر او حمر او صفر او سود او بيض انكم كلكم بشرانكم كلكم فانون . انكم ناظرون ولامسون وسامعون وشامون وطاعمون . ما بال الجُلَيديّ منكم يشنأ اللاجليدي . والحديدي منكم يمقت اليقطيني افلا تتوادعون . ألم اظهر لكم في

طلوع الشمس وغروبها . وفي بزوغ الكواكب ومغيبها . وفي سكون الريح وهبوبها . وفي خمود النار وشبوبها . وفي زخر المياه ونضوبها . وفي صروف الدهر وخطوبه . وهمومه وكروبه . وفي سواد الشعر ومشيبه . وفي هرم الجسم وشحوبه . وفي الازمان اذا توالت . والاحوال اذا حالت . والدول اذا دالت . وفي الغياض اذا أبهجت . والرياض اذا دبّجت . والاشجار اذا اورقت وجرّدت . والاطيار اذا زقزقت وغردت . وفي اللسان اذ نطق . والقلم اذا مشق . ليس لعمري بين الوحوش الضارية والطيور الكاسرة ما بينكم من العداوة والبغضاء . والضغن والشّحناء. اذكروا يوم ان صعدخطيبكم المنبر ، وعبس وبسر . وتوعد وتنكر . وخطّأ وكفّر . وحض على القتال وذمّر. ثم دعا فاستغفر واستخار الله واستبشر فاغرتم على جيرانكم وانتهكتم حرمات اخوانكم وفرقتم بين الأم ورضيعها . والمرأة وضجيعها وبين الأب وولده وسَبَدَه ولبده . اذكروا يوم ان حشد رئيسكم اليه اعوانه وهاج أهله واخدانه على ان يخون سلطانه . واي خيانة وما ذلك الا لمخالفته له في الحزر والتقدير والتأويل والتعبير والتخريج والتفسير . اذكروا يوم ان اعلمتم انفسكم بعلائم الجهاد وقلتم هذه حرب الله هذا قتال لرضى رب العباد هذا يوم كسب الثواب والنجاة من العذاب فافيضوا الى العدو منالبر والبحر واغتنموا عند الله اجر هذا البرّ اذكروا يوم ان تنازعتم على لون طعام تأكلونه . وشكلشراب تشربونه ورحضة جسم تغسلونه ونوع فراش تتوسدونه ورقعة ثوب تلبسونه ووجه كلام تعفكونه ومتاع تستعملونه للخلاففيهذه الدنيا فُطرتم ام بالخصام والمعاداة أمرتم ما بال علماء الرياضة والهندسة والتنجيم لا يختلفون في ادلتهم وان اختلفوا لم يشبّوا النار لتحقيق نحلتهم وانتم تشبونها عند كل فرصة تسنح لكم ووهم يسبق اليه فكركم وكان الاولى ان تتواطأوا على رأي واحد كاتواطأ اولئك وان تُسنّوا لعباد الله مصالحهم لا ان تدخلوهم في هذه الملاحك وتربكوهم في هذه المرابك وان تهدوهم الى اقوم المسالك لا ان تلبّسوا عليهم في هذه الحوالك . دعوهم يشتغلوا باسباب معيشتهم ولا تكلفوهم ادراك مافوق طاقتكم وطاقتهم واعملوا انتم ايضاً بأيديكم ساعتين اذا عملتم بالسنتكم النضناضة

ساعة واجمعوا امركم عند تفرق اهوائكم على الالفة والطاعـة أنسيتم ما جاء في الزبور الذي به تلهجون وتهذّون وتدبرون وهو قوله ما احسن الاخوة ان تسكن جميعاً في بيت واحد كالدهن النازل على اللحية لحية هارون الا ولا تحرّموا ما حلل الله لكم من الطيبات ولا تتلاوصوا الى معرفـة ما لغيركم من الهفوات ولا تبيعوا املاك السموات وانـتم على الارض مـن ذوي البطالة والترّهات .

ليس على السوقي ان يتزوج خرجية من حرج ولا على الخرجـيّ ان يتزوج سوقية من مَرَج فان اختلاف الحرز فيما لا يعلم لا يكون مانعاً للفوز بهـذا المغنم الذي يدريه من تعلم ومن لم يتعلم . او لم تعلموا ان الارحام من الرحمـة اشتقـّت . والى المصاهرة شقـّت . وعلى الانساب انطبقت . والى التآخـي والتآلف خلقت . وبالتواد اختصت . ولانتهاز فرص الحظ فُرصت . فما لكم عنها تتباعدون . وتتقاعسون وتتقاعدون ولمَ انتم هؤلاء في بحر الشك والظن تسبحون وتستبضعون تجارة الخوص وتربحون لا يسمع الله دعاء احد منكم في الشرق الا اذا كان يستصوبه اهل الغرب . ولا يفيزكم بالآخرة الا اذا تألفتم في الدنياعلىهذا الضرب. فليصافحاذاً اخضر الراس منكماسوده ومدّوره ذو القُبّعة مخروطه ذا اللبدة وليُصفِ كل منكم لأخيه نيّته وودّه . ويحفظ له عهده . واذ قد اتفقتم على المخلوق فلا تختلفوا على الخالق.فهو رب المغارب والمشارق. وانه ليريد ان المشرقي منكم اذا سافر الى المغرب يرى اهله فيه له اهلا. وشمله شملا فاقبلوا النصيحة واسمعوا ما يمرّ بكم بعدها من العبارات الفصيحة والمعاني المليحة في هذا الفصل الذي سميته .

٣

في العشق والزواج

قد ذكرت في آخر الكتاب الثاني ان الفارياق ابتلاه الله بامراض كثيرة وكتب وفيرة ثم انجاه منها جميعاً. وانه بعد ان رأى نفسه معافىً منها اطمأن خاطره واخلد الى الغناء . والان ينبغي ان اذكر ختام هذه النوبة وعاقبة هذه الحوبة وتفصيل ذلك ان الدار التي كان فيها الخريجيّون كانت محاذية لدار بعض التجار وكان له بنت تحب السماع واللهو والطرب وترتاح الى الغناء جداً فكانت اذا سمعت الفارياق يغني او يعزف في غرفته تصعد الى سطح دارها وتنصت الى ان يفرغ فتنزل الى حجرتها . فلما علم الفارياق ان صعودها كان لأجله اذ لم يكن احد غيره يظن به التعرّض لها صبت اليها نفسه ونزغه فيها نازغ من الهوى غير انه كان من طبعه النفور من الزواج حتى انه كان يحسب المتزوجين اشقى الناس لأن الحالة الزوجية لا يبدو منها في الغالب سوى صعوباتها ومشاقها . وكان اذا قيل له فلان تزوج تأخذه به رأفة ويرثي له كما يرثي لمن دار به تيّار شديد او رزىء برزيئة كبرى فتنازع فيه حٍ عاملا الهوى والحذر فرجحت كفّة الاول الثاني فرأى ان مجرد النظر اولى من التعرض باشارة تدل على انه ذو صبوة وهيام ومكثا على ذلك مدة وهو احذر من القِبرِليّ حتى اذا كان يوم ورآها تمسح محاجرها بمنديل امّا من حرّ الشمس او من غيره اعتقد بمجامع قلبه انها تمسح دموعها شوقاً اليه فانفتقت بنائق الصبر من صدره وهاج به الوجد لازالة حذره وقال في نفسه أيقابل احدغيره دموع باكية بالاعراض . وهل وراء الدموع غير الهوى كيف لا تذيبني وما قلبي بجلمد ، ولا انا بمخلد ! وقد علمت ان اعظم لذات الحياة ما اذا وجد

الانسان له خدينا نويًّا . وقرينا صفيًّا . وانا غريب محتـاج الى مؤنس في وحشتي ، ورفيق في وحدتي . ومن مؤنسٌ مثل الزوجة . وأي خـير في العزوبة لمن رزقه الله قوته وحَوْجه . وبمثـل هذه الخواطر السريعة وطّن نفسه على تحمّـل اعباء الهوى من اي جهة كانت . فمن ثم فتح باب الاشارة بينهما . فمن بين يد توضع على القلب مرة وعلى الخد اخرى . واصبع تقرن باخرى . وذراعين تشبحان مع تنفس وزفير . وشفتين تضّمان . ورأس يهز وغير ذلك مما يتعلل به المبتدئون في الحب . فأما المتناهون فلا يرضيهم الا الهصر بالفودين كما نص عليه الاستاذ امرىء القيس .

ودامت دولة الاشارة بينهما اياماً مديدة من دون كلام . فلمـا عجزت الأيدي وسائر الجوارح عن ترجمة ما في القلب وخصوصاً لبُعد ما بينهما احتالا على ان يجتمعا في مكان بحيث يرى المحب حبيبه . فلما بصر بها عن قريب وجدها والفضل لمخترع الزي المصري عَنْدلة جَزْلة . اذ لو كانت مترديـة بالزي الافرنجي لما عرف هل كان ما في صدرها عِهْنا او بِرْسا او قطنـا . او خُرْفعا او عُطْبا . او بَيْلما . او قِشْبرا او حريراً او نَوْذلا[١] او كان ما وراءها عُظّامة او لحماً وشحماً قال وهاتان الصفتان اعني العَنْدلية والجزلية احسن ما يراد من المرأة فان الاولى تشفع في الكون الامامي والثانية في الكون الخلفي قلت وقد جاء عن سيدنا سليمان عم مدح العندلية بقوله في الفصل الخامس من سفر الامثال فليروينّك ثدياها في كل حين. ولقائل ان يقول ان العهن واخواته مع وجود اليد والجتّ[٢] اذا جمع الجسمين مكان لا يمنع من تحقق الصفتين المذكورتين . والجواب ان ذلك محظور غالباً في البلاد المشرقية ولا سيما من اول مرة فاما عند غـيرهم فلا محظور منه ولذلك شاع استعمال العظّامات

(١) العِهن الصوف او المصبوغ ألواناً والبرس القطن او شبيه به او قطن البردي والخرفـع القطن المندوف والعطب الصوف المنفوش والبيلم قطن البردي وقطن القصب والقشبر أردا الصوف ونفايته والنوذل الثدي .

(٢) الجَتّ جسّ الكبش ليعرف سِمنه من هزاله .

عندهم بلا نكير . ثم حيث تقدملنا في الكتاب الاول وصف الحمار على اسلوب افرنجي فلا بأس هنا ايضاً في وصف الرجل قبيل الزواج على النسق المذكور فنقول . انه مدة تعلله بغبطة الزواج وتلحّزه من لذاته ، لا يخطر بباله شيء من مستأنف آفاته . وانما يخطر في حدسه ، ويقول في نفسه ان حالتي لا تكون كحالة معارفي وجيراني الذين تزوجوا واخطأتهم الاماني اذ هم لم يؤدوا الزواج حقه . ولم يأخذوا في اسبابه بالثقة . لان منهم من باعل ، وهو غير كفو لهذا العمل . اما لصفر راحته ، او لعدم سماحته ، او لمباينة سنّه عن سنّ زوجته او لضعف في آلته . أو لأنه كان من الزمالقية على شفا . أو كان مُصلفاً أو مُشَفْشِفاً [1] . أو لأن اميره كان يغيّبه عن وطنه . أو لأن جاره كان يخالفه الى عطنه . أو لأن امه كانت رقيباً على امرأته . أو لأن امامه كان ضيزناً له على مائدته . فلذلك ثار بينهما النقار ، وطال النفار . فقُدّ القميصان من قُبُل ومن دُبُر . ونتف الشعران والصخب كثر وخدش الجلدان خدشاً بالظُفُر . وانتن الريحان من فوق السرر .

أما أنا فاني بحمد الله خال عن هذه الخلال . فلا تحول لي مع زوجتي حال . ولا تزاحمني فيها الرجال . ولا يعتريها مني ملال . فرضاي رضاها . ومناي مناها . وما انا بادرم ولا ابخر . ولا احدب ولا اخنب . وان لي يدين اعمل بهما ورجلين اسعى عليهما . وان يكن بي من عيب في خلقي يستره عني حسن خُلُقي . فاني لا اعارضها في طعامها . ولا في لباسها ومنامها . بحيث تنام الى جنبي . وتتخذ من الملبوس ما يليق بها وبي . فما يمنعني من اتخاذ قرينة . تكون على هذه الصفة الميمونة . حتى اذا سمع الناس بان زوجي عَرُوب وعرضها عندي مصون . ووجهها عن المراود محجوب ، حسدوني على هذه النعمة السابغة فكان لي كل غصة من العيش سائغة ولا يخفى كم في كيد الحسود من لذة ، لا تتقاعس عنها الا لذّة ما عدا ارتياح النفس الى الجنس الانيس .

---

(١) المصلف من لا تحظى عنده امرأة وهو أيضاً الذي ثقلت روحه وقل خيره والمشفشف من به رعدة واختلاط غيرة واشفاقاً على حرمه .

الذي قربه للقلب ترويح وللكرب تنفيس . وأن امرءاً يقاسي النهار جهده ، ثم يبيت في الليل وحده . من دون ضجيع له تنفخ في انفه وتسخن دمه من امامه ومن خلفه ، لجدير بان يحصى مع الاموات . ويلقى بين الرفات . هذا واني استغني برضبها عن الشراب . وبشم شعرها عن المسك والملاب . فانهم قالوا ان الرائحة الانثوية تستنشق من منابت الشعر وبها نشوة الحواس. سواء كان في المغابن او في الراس. واجتزىء بحر جسدها عنالوقود للاصطلاء. وبالرنوّ اليها عن الاثمد والجلاء . فيتوفر عليّ كل يوم في الاقل درهم انفق نصفه على الحمام كل غداة فيبقى ليالنصف الآخر وذلكخير عمم.وغني اتم فاما ما يقال في كيد النساء ، واعناتهن الرجال بما يعز على الاسا ، فليس ذلك على عمومه ولا تقرر حكم الا واستثني امور من تعميمه . فلعلي اول من اخرجه هذا الاستثناء وسنّ للاعزاب على الزواج الثناء . كيف لا وانا ذو فصاحة وتبيان ودهاء وجنان . فما يعييني شيء من نكرها . ولا تخفى عني خافية من امرها فاعارضها واحجّها . واريها ان لي عليها قفيّة تضطرها الى طاعتي وتحوجها فان قلت لها اليوم يصوم فيه المباعلون ، ويتبتّل المفاعلون . قالت انا اول من صام ، وآخر من نام . وان قلت لا يجمل بالمحصنة انتتبرّج. قالت ولا ان تتغنّج.وان قلت ان حق الزوجة على زوجها في كلاسبوع مرة. قالت وتبقى ايضاً عفيفة حرة . وان قلت ليس الحليّ بلازم للعرس . قالت ولا الديباج شرّ لـُبْس . وفي الجملة فان عيشي معها يكون رغيداً . وحالي سعيداً . وحظي مديداً . وطعامي مريئاً . وشرابي هنيئاً . وثوبي وضيئاً . وفرشي وطيئاً . وبيتي مأنوساً ومتاعي محروساً . وطرفي قريراً . وشأني مذكوراً . وسعيي ميموناً . وقصدي مأموناً فحيّ هَل الزواج . بلعوب مغناج . طلعتها علاج من الالفاج وضجعتها انهاج . الا الافلاج . انتهى .

وانا اقول ان مما غُرس في هذه الطينة البشرية اللـَّئِية ان الرجل متى وطـّن نفسه على الزواج حبّب الله اليه زوجه على اية حالة كانت حتى يراها احسن الناس خُلقاً وَخلقاً . لا بل يرى نفسه انه قد ترفع عن اقرانه . وتزّى على اخوانه ، حتى يستخسّ ما كان من قبل يستعظمه . وانه قد صار انساناً

جديداً يجدر بان يجدد له وجه الأرض .

وبناء على ذلك لم يعد الفارياق يرضى بالاغاني والاشعار المتعارفة بل استبدل الاولى باخرى جديدة من نظمه . ونظم خلال ذلك قصيدتين حاول فيها اختراع اسلوب غريب فجاءتا طيخيّتين كما سترى ذلك ولو استطاع ان يخترع كلاماً جديدا يعبر به عن غرامه وحديث شأنه لفعل. وكان اذا رأى رجلا متزوجا يهيب به وينشده :

انا في حلبة الزواج المجليّ   انما انت فتّسكل قاشور
ان قدحي يفوز عما قريب   انما قدحك السفيسح يبور

او عزبا قال له

يا ايها الاعزاب اني رافض   دين العزوبة فاقتدوا بمثاليا
ليس الغِنى الا البعال فبادروا   يا قوم واستغنوا بمثل بعاليا

وتهوّس يوماً لان ينظم ديوانا يشتمل على ابيات مفردة تهافتا على احداث شيء غريب فنظم اربعة ابيات ثم امسك . وهي

ساعة البعد عنك شهر وعام   الوصل يمضي كأنما هو ساعه
اتنجم الليل الطويل صبابة   وتنجمي لنجوم ذي تفليك
ويخفق مني القلب ان هبت الصبا   ويذكرني البدر المنير محياك
الا ليت شعري كم يقاسي من   النوى والنحائه قلب يذوب تجلدا

ومن الفضول هنا ان نقول انه كان يقول لخطيبته انك ملأت عيني قرة . واني اراك احسن الخلق . وانّا ليغبطنا الناس . وانك تغنيني عن الغنى . واني بقربك سعيد . وببعدك عميد . وانّا نكون ابداً كما نحن الآن . وانك ذات ملاحة تشغل الخليّ . واني اغار عليك من النسيم يفيّىء شعرك هذا الدجيّ . وانّا لجسمان في روح واحد او روحان في جسم واحد . وانك لترين مني كل يوم محبّا جديدا . وإني لارى فيك كل وقت حسنا حديثا .

وانّا نكون قدوة للمتزوجين والعاشقين . الى غير ذلك من الكلام المتعارف عند امثاله .

قال خير ايام الانسان في حياته هي المدة التي تتقدم الزواج والـتي تليه . قلتُ ومبلغها عند الافرنج شهر يسمونه قمر العَسَل وهو بعد الزواج. ومبلغها عندنا معاشر العرب شهران يقال لهما قمرا العَسَل . حتى اذا امتلأت الخليّة عادت كل نحلة زنبورا ورجع كل شيء الى اصله .

واقول ان المحبة هي ممـا غرس في الطبيعة البشرية من يوم الوضع في المهد الى يوم الوضع على النعش . فلا بدّ لهـذا المخلوق الآدمي من ان يحب ذاتا من الذوات او شيئاً من الاشياء او معنى من المعاني . وكلما زاد حبه في قسيم منها نقص في قسيمه الآخر . وقد يكون احدها سبباً في زيادة حبّه للآخر. مثال ذلك مَن كلف بالشعر او الغناءاو التصوير فكلفه هذا يكون باعثاً له على حبّ الذات الجميلة . ومن كلف بالعلم والقتال والفخروالسيادة فلا بد وان تقل رغبته في النساء بل ربما لهي عنهن بالكلية .ومن كلف بالخيل المطهّمة والسلاح النفيس فقد يكون كلفه هذا شائقا له الى حب الذات أولا. وعدّ بعضهم من هذا النوع السراباتية وهم المنظّفون للمراحيض . واسقطه غيرهم بدليل انها حرفة يحتاج اليها الانسان لتحصيل معاشه لا كلف من هوى النفس . فهـــذه ثلاث حالات متسببة عن ثلاثة اسباب . وهناك ايضاً ثلاث احوال اخرى باعتبار القـــلة والكثرة وما بينها . الاولى متعادلة وهي ان يحبّ المحبّ محبوبه كنفسه .فلا تطيب نفسه بشيء ولا تهنئه لذة الا اذا كان محبوبه مشاركا له في تلك اللذة . وذلك صفة الرجل قبل زواجه وبُعَيده . ولا تخلو هـذه الصفة عن الرشد والبصيرة . الثانية المتعدية اي المجاوزة للمتعادلة.وذلك كان يحب المحب حبيبه اكثر من نفسه . وذلك صفة الاب والام في حبّ ولدهما وصفة بعض العشاق. أما الاب فانه يفدي ولده بروحـه ويحرم نفسه من اللذات والمسرات حتى يتمتّعه بها . فاذا رأى نفسه عاجزاً عن الاكل والبعال ورأى ابنه يأكل ويباعل لذّ له ذلك وهو مع هذا غير خال ايضاً عن الرشد والتمييز . فامـا العاشق

فانه قد يؤثر معشوقه على نفسه غير ان افعاله تكون مختلة في غير محلها ووقتها. والثالثة معلومة وهي ان يحب الانسان محبوبه مع ايثار نفسه عليه وهو الاغلب. وهناك ايضاً ثلاث احوال اخرى مكانية وهي القرب والبعد والتوسط. ولها تأثيرات مختلفة بحسب اختلاف طباع الناس فالصادق الود يحب في حالتي القرب والبعد على حدّ سوى . بل ربما كان البعاد مهيجا له الى زيادة الشوق والغرام . وما احسن قول من قال في هذا المعنى .

كأنّ الهوى شمس ابى ان يردها مهاة نوىً لابل تزيد بها حرا

فاما الطّرف الشّنِق فانه لا يرسل الساق الا ممسكا ساقا. وثلاث اخرى زمانية وهي الصِبى والشباب والكهولة . فمحبة الصبى اسرع واعلق. ومحبة الشباب احرّ واقوى . ومحبة الكهولة اقرّ وادوم . والكهل يقدر محاسن محبوبه ومنافعه اكثر . ومحبته له تكون امرّ واحلى . فالمرارة لعلمه انه قد عرّض نفسه للوم اللائمين وعذل العاذلين من الاحداث والاغرار . ولأشفاقه دائماً من ملل محبوبه اياه . فقلبه ابدا واجب . وهمّه بشأنه ناصب . والحلاوة لزيادة معرفته بقدر محبوبه كما تقدم. ولكون هواه والحالة هذه راهناً متمكناً فهو يعتقد بمجامع قلبه انه ساع في اسباب سعادته وحظه . ولها ايضاً ثلاث حالات اخرى باعتبار الاستطاعة وعدمها اعني اليسر والعسر وحالة ما بينهما. اما الموسر فان محبته ابرد واحول . لان غناه يحمله على استبدال محبوبه والتنقل من حال الى حال . فلتحذر النساء المحصنات هذا الصنف من الناس وان ماس بهن ماسه . الا اذا كنا لا يخفن على سرّهن وعرضهن . لان الغني يستحل افشاء الاسرار . كما يستحل خزن الدينار . وعنده ان كل شيء عبد درهمه . وطوع نهمه . فاما الفقير فان محبته اشطّ وأشد وألوَع . لان فقره من حيث كان مانعاً له من ازالة الموانع التي تحول بينه وبين محبوبه لا يلبث ان يفضي به الى اليأس او الخبال او الى الانتحار . فاما المتوسط فان حبّه اعدل واصحّ . ولها ايضاً ثلاث حالات اخرى وهي الذل والعزّ والمساواة فالذل غالباً صفة العاشق والعزّ صفة المعشوق . ومن اعجب انواع

المحبة الحبّ المختلط بالبغض. وذلك كأن يهوى رجل امرأة وهي تهوى غيره وتتمنع عليه . فيهيج به وجده الى وصالها تشفيّاً منها . فان فاز بـه غلبت محبته على كراهيته والا فلا ولا يزال هذا دأبه حتى يسلو عنـها والغالب ان المحب لا يسلو محبوبه اذا عامله بالصد والحرمان الا اذا ظفر بآخر شبيه له في خلقه وخلقه وهيهات ذلك فاما بواعث المحبة فقد تكون عن نظرة واحـدة تقع من قلب الناظر موقعاً مكيناً فتخلج فيه من محركات الوجد والشوق مـا تخلجه عِشرة مدة مديدة وعندي انه لا بد وان يكون المحبّ قد تصوّر في عقله سابقاً صفات وكيفيات من الحسن فصبا اليها حتى اذا شاهدها حقيقة في ذات من الذوات كما كان تصورها عَلِق بها قلبه وخاطره فكان كمن وجـد ضالة ينشدها وقد تكون المحبة عن طول سماع عـن شخص فيسترسل السامع اليه شيئاً فشيئاً حتى يكلف به . واكثر اسباب المحبة النظر والعشرة . واعلم ان كثيراً من الناس قد عشقوا الصور الجميلة في الذكور والاناث لغـير دعارة وفسق . وانما هو ارتيـاح نفس ووجد بال . ويؤيده مـا ورد في الاثر من عشق فكتم فعفّ فمات مـات شهيداً . والعاشق في هذه الحـالة يرضى من معشوقه بادنى شيء . فالقبلة عنده نصر وفتح وغنيمة . قال الشريف الرضي

سلوا مضجعي عني وعنها فاننـا رضينا بما يخبرن عنـا المضاجع

قلت لو كان لي تصرف في هذا البيت لقلت عنها وعني. وقال ابن الفارض رحمه :

كم بات طوع يدي والوصل يجمعنا في بردتيه التقى لا نعرف الدنسا

وهذا العشق يسمى عند الافرنج العشق الافلاطوني نسبة الى افلاطون الحكيم ولا حقيقة له عندهم وانما هو مجرد تسمية . ويعرف عنـدنا بالهوى العُذْري . نسبة الى عُذرة قبيلة في اليمن لا الى عذرة الجارية اي بكارتهـا وافتضاضها وشيء آخر منها . ويروى عن مجنون ليلى انها اتته يوماً وجعلت تحدثه فقال لها اليك عني فاني مشغول بهواك . وللمتنبي في هذا المعنى

فشُغلتُ عــن رد السلا م فكان شغلي عنك بك

واحقّ النساء بان تُعشَق وتعزّز الــتي جمعت الى حسن خلقهــا الادب وحسن المنطق والصوت واسعد الناس حالاً من كان له حبيب يحبه كما جاء في بعض المواليات المصرية . فانه والحالة هذه يقدم على اصعب الاعمــال واعظم المساعي . ويباشرها من دون ان يشعر بها . لان فكره ابداً مشغول بمحاسن حبيبه . فلو رفع صخرة في هذه الحالة على عاتقه بل فِنْداً لتوهم انه رافــع نعال محبوبه او بالحرى رجليه . ثم انه معما يلحق المحبة من طوارىء التنغيص والخيبة والحرمان وخصوصاً مضض الغيرة فان عيش الخلي لا خير فيه . لان الحب يبعث على المروؤة والنخوة والشهامة والكرم ويلهم المحب المعاني اللطيفة والخواطر الدقيقة . ويكسبه الاخلاق المرضية . ويستوحيه الى عمــل شيء عظيم يذكر به اسمه ويحمد شأنه ولا سيما عند محبوبتــه . وقلما رأيت عاشقاً به جفاء وفظاظــة او رثء وبلادة او دناءة وخساسة . قال بعض العزهين وأظنه من التيتائيين . لو لم يمنع من عشق المرأة شيء بعد التعفف والتورّع سوى الاضطرار الى حبها لكفى لان الانسان متى علم انه مسخّر لحب شيء ومكلّف به ملّه بالطبع ونفر منه . قال فيكون حب المرأة على هذا مغايراً للطبع . هذا اذا كان الرجل شهماً عزيز النفس عالي الهمة . فاما الاوباش من الناس فلا معرفة لهم بقدر انفسهم فهم يتساقطون على حب المرأة حيثما عنّت لهم وكيفما اتفق . قلت هو كلام من لم يذق الحب او من كان مفرّقاً ولو سمع انثى تقول له يوماً احمل يا روحي هذا الحمــل من الحطب على رأسك . او احبُ يا عيني على استك كالولد الصغير للبّاها حاملا وزَحَنْـقَـفَاً [1] .

ثم ان للعشاق مذاهب مختلفة في العشق فمنهم من يهوى ذات التصنــع والتمويه والعجب . ومنهم من لا يعجبه ذلك وانما يؤثر الحسن الطبيعي. وان يكون في محبوبته بعض الغفلة والبلاهة والى هذا اشار المتنبي بقوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرئة وفي البداوة حسن غير مجلوب

ومثل الاول مَثَل مَن يُقدّم له لون من الطعــام وبه قـَمَه فيحتاج الى

(١) الزحنقف الزاحف على استه :

التفحية والتقتيت ومثل الثاني مثل مَن به سيْفَنيَّة وسرْطميَّة[1] فلا يمنعه عدم التفحية والتوابل من ان يلسو ويلوس ويلثى ثم يلحس قعر الجفنة بعد فراغه منها . فاما رغبة بعض الناس في الغفول والبلاهة فانها مبنية على ان المحبّ لا يزال يقترح من محبوبته اشياء كثيرة تبعث اليها الحاجة . فمتى كانت ذات دهاء وذكاء خشي ان تملّه وتحرمه . ومنهم من يزيد في المرأة غراماً اذا كانت ذات عزّة وشرّة ومعاسرة فيكون استرضاؤها ادعى الى النشاط والسعي . وهذا يفعله في الغالب من يتفرغ للهوى ويتصدى له من كل جهة . ومنهم من يعشق المرأة لاتسامها بسمة شرف وسيادة او وجاهة . وذلك دأب ذوي الطموح والاستطاعة . ومن هذا الصنف من اذا رأى امرأة وضيعة تشبه امرأة شريفة عشقها لأجل حصول المشابهة فقط . ويقال لأهل هذا المذهب المشبّهيّة . وهو في النساء اكثر فان المرأة لا تكاد ترى رجلاً الا وتقول لعله يشبه بعض الامراء الغابرين او الحاضرين او الآتين ومنهم من يعشق من بهنا ذلة وانكسار وملاينة . وذلك شأن ذوي الرفق والرقة . ومنهم من يعشق من على طلعتها آثار الحزن والكآبة والفكرة . وهو مذهب ذوي الحنين والطرب . ومنهم من يعشق ذات البشر والطلاقة والانس . وهو خلق المحزونين المبتئسين . فان النظر الى مثل هذه ينفي الهم . ويجلو الكرب والغم . ومنهم من يعشق من بها مرح ونزق وطيش وثرثرة وقهقهة . وهو دأب السفهاء والجهلاء . ومنهم من يعشق المرأة لأدبها وفهمها وحسن كلامها ومحاضرتها وسرعة جوابها . وهو مذهب العلماء والادباء . ومنهم من يعشق من تكون كثيرة الحليّ والتأنق في الملبوس كثيرة الغنج والتمويه وهو طريقة ذوي السرف والشطط . ومنهم من يعشق الماجنة المتهتكة المستهترة . وهو شأن الفساق الفجار . ومنهم من يعشق الخيتعور الشهوانية المتلعجة الطفسة . وهو خلق من بلغ منه العُهر كل مبلغ . ومنهم من يعشق اللاّعة الخريدة العفيفة ابتغاء ان يفسدها ثم يتباهى بذلك بين اقرانه . فاذا رضيت له ملّها او أرادها

---

(١) سيْفَنَّة طائر بمصر لا يقع على شجرة الا أكل جميع ورقها والسرطم الواسع الحلق السريع البلع .

ان تكون على غير تلك الحال وهو عندي شرّ من عاشق المتوهجة . ومنهم من يحب اجتماع هذه الصفات المختلفة كلها في محبوبته بحسب اختلاف الاحوال. هذا في الخُلق فأما في الخَلق فالنحيف يهوى السمينة وبالعكس . والاسمر يحب البيضاء وبالعكس . والطويل يحب القصيرة وبالعكس . والاملط يحب الكثيرة الشعر وبالعكس .

اما النساء فأحب الرجال اليهن الفارس الابتع . الشجاع الاروع . فاما الغنى والفقر فلا ضابط لهما فان الغني يتهافت على حب الفقيرة كما يتهافت على حب الغنية . بل البخيل من الاغنياء يؤثر حب الفقيرة طمعاً في ان يرضيها بالقليل من المال . والغالب ايضاً ايثار حب الجيل الغريب للاستطلاع على ما عنده من الغرائب التي تتصور المخيلة وجودها فيه دون غيره . الا اذا منع مانع جهل بلغته فحٍ يحصل للمخيلة انقباض في تماديها . وكما ان لطف النساء وقلفطتهن تعجب الرجال ولا سيما في الفراش كذلك كان يعجب النساء من الرجال ترارتهم وشَيْظميّتهم . فلا تكاد امرأة ترى رجلا على هذه الصفة الا وتقول في قلبها عند هذا كفايتي وغنائي . وقد لحظت العرب هذا المعنى باشتقاقهم الطَول من الطُول . غير ان النساء على الاعم يجنين اللذات من كل مجنى ويكرعن من مواردها ما ساغ وما اغص فمَثَلهن كمثل النحلة تجني من الزهر وان يكن على الدمن .

فاما الغيرة فهي خلق طبيعي في كل بشر اذا كان سليم الذوق . فان الانسان يغار على متاعه من ان ينتهكه غيره فكيف على حرمته . وما يقال من ان الافرنج ليس لهم غيرة على نسائهم فليس على اطلاقه . فان منهم من يقتل زوجته ونفسه معاً اذا علم منها خيانة . نعم انهم يتساهلون معهن في امور كثيرة ربما تعدّ عند المشرقيين قيادة . الا انها في نفس الامر وقاية من الخيانة . اذ قد تقرر عندهم ان الرجل اذا حظر امرأته عن الخروج وعن معاشرة الغير اغراها بالضَمَد . بخلاف ما اذا ارضاها بهذه اللذات الخارجية.

ثم انه لما علم اجتماع المستعسلين اي الفارياق والبنت خلافاً للعادة المألوفة

ذاقت امها من ذلك مرارة الصاب فاستشارت بعض اصدقائها في امرها فقالوا لها لسنا نرضى بمصاهرة هذا الرجل لانه من الخرجيين . وانت من اعزّ بيت من السوقيين وهما لا يجتمعان . فقالت لهم ليس هو من جرثومة الخرجيين بل هو دخيل فيهم . قالوا لا فرق في ذلك رائحة الخرج ساطعة منه وقد ملأت خياشيمنا وحذّروها منه غاية التحذير . مع اني قد حذّرتهمَ وامثا َلهم في الفصل الذي مرّ من هذا الفصول . فلما علمت البنت بذلك نبض فيها نبض الخلاف وقالت ليست هذه الفروق من مصالح النساء . وانما هي مصلحة من اتخذها وسيله للمعاش والجاه . والمقصود من الزواج انما هو التراضي والوفاق بين الرجل والمرأة . وان ابيتم ذلك فها انا انذركم اني لست من السوقيين في شيء . فرأت امها ان تغيب بها ايّاماً عن ذلك المحل رجاء ان يبعثها البعد على السلوان . فهاجت ح جميع عواطف الهوى في كل من العاسل والمعسول . واليه اشار ابو نواس بقوله : دع عنك لومي فان اللوم اغراء .

فلما رأت الأم ان لا اشارة تمنع البنت من الاشتيارة . ولا جَزْر يكفّها عن الجزر [١] رجعت الى منزلها واستدعت بالفارياق وقالت له : قد علمت ان السوقيين لا يبغون مصاهرتك . فان كان عزمك على ان تتزوج ابنتي ينبغي لك ان تتسوق ولو يوماً واحداً . قال لا بأس ، فعلى هذا تسوق يوم عقد الزواج وقرت عين كل منها ومن البنت . ثم أحضرت آلات الطرب ليلاً وادرت الكؤوس وزها مجلس الانس والسرور . والفارياق مواظب فيه على خدمة ادارة الكاس ومُعيد على العازفين الاطراء وقوله آه وايه واوه . حتى اذا كلّت يداه ولسانه ورأى ان عزم الشرْب ان يسهروا الليلة كلها الى الصباح انسلّ من بينهم وصعد الى السطح لكي يستريح . وكانت الليلة مقمرة من ليالي الصيف .فلما ابطأ عليهم ظنوا انه تفلّت من الارْبة فاخذوا في التفتيش عليه كما يفتش على امرأة فالك او فارك . فلما وجدوه وعلموا ان نيّته مخالفة لنيتهم اخلوا له ولعروسه حجرة وهمّوا بالانصراف . فقالت

---

(١) الجزر شور العسل من خليته .

الامّ لا أوَ تنظروا باعينكم البصيرة . [1] وسبب ذلك ان عادة اهل مصر في الغالب هي ان يتزوج الرجل المرأة من دون ان يعاشرها ويعرف اخلاقها . وانما ينظر اليها نظرة واحدة بان تناوله مثلاً فنجان قهوة او كاس شراب بحضرة امها . فان اعجبته خطبها من اهلها والاّ كف رجله عن زيارتهم . ومنهم من يتزوج ولم يكن رأى امرأته قط . وذلك بان يبعث اليها امّه او عجوزاً من اقاربه ومعارفه او قسيساً فيصفونها له بمقتضى ذوقهم وخبرتهم . والغالب ان امّ البنت ترشي القسيس ليجيد صفة بنتها فيرغب الرجل في التزوج بها . ومنهم من يتزوج امرأة قاطنة في بلاد بعيدة فيبعث الى احد معارفه في تلك الجهة ليصفها له في كتاب ثم يستخير الله ويرتبق . ومع ذلك فان عيش هؤلاء المتزوجين على هذا النمط يكون هنيئاً . فاما في بلاد الشام فعادة اهل المدن كعادة اهل مصر وعادة اهل الجبل مغايرة . فان الرجل هناك يتمكن من رؤية المرأة ومعرفة اخلاقها . هذا ولما كان الفارياق قد تعدّى حدود العادة بمصر في كونه اجتمع بالبنت مراراً عديدة في حضور امها وفي غيابها . ارادت امها ان تنفي عنها العار باظهار علامة البكارة .حتى يشيع خبر براءة البنت في جميع البلاد . فان اكثر الناس لا شغل لهم الاّ الكلام . فاجتمعت تلك الزمرة وراء الباب بعد ان جمعوا بين العروسين . وطفق الواحد منهم ينادي ويقول افتح الباب يا ابا مِزلاج . فظن الفارياق انه يريد الدخول عليها ليعلمه كيف يكون العمل . ففتح له فقال له ما هذا الباب عنيت وانما اردت باب الفَرج . فرجع الى عروسه واذا بآخر يقول لجِ القبّة ياولاّج.وآخر ثجّر الطعنة يا بجّاج.وغيره اروِ الصدى يا ثجّاج . وآخر أزل الزَغَب يا حلاج وغيره افرغ السَجْل يا خلاج – اسرع الوطء يا زلاج – املأ الوطب يا زمّاج – ملل المملول يا متّاج – اغطس في اللجة يا غاطس – افقس البيضة يا فاقس – أجلِ المسواك يا وامس – تسوّرالسور يا معافس – روّض المهرة يا فارس.وما زالوا به حتى شام ابا عُمَيْر وناول

(١) شيء من الدم يستدل به على الرميّة ودم البكر .

امها البصيرة . فتهللت منهم الوجوه فرحاً وحبوراً . وصفقت الايدي استبشاراً وسروراً . ونطقت الالسن بالتبرئة . وختموها بالتهنئة . ثم انصرفوا وكأنهم قد قفلوا من غزوة غانمين . وكادت الام تطول عن الارض شبراً لهذا الفتح المبين .

القصيدتان الطيخيّتان

ما كنت اول عاشق بين الورى	تبع العشيقة من امام ومن ورا
ورأى البكاء له معينا شافيا	يوما ويوما اضحك المستعبرا
ويكون مصروع الغرام مزبّبا[1]	متكسّسا مستقبلا مستدبرا
ومحنبشا ومجمّشا ومدهفشا	ومكنّصا ومزنجرا ومعنجرا
ومرنمّا ومغنّيا ومصفّرا	ومشببا ومطبلا ومزمرا
وُفيَينة متثائباً متمطّيا	وفيينة متقاعسا مقعنصرا
واذا رأى رأيا رشيدا كان في	ابرامه مترهثا متأخرا
فالعشق عقل العقل عن صيّوره	حتى يضل عن الصواب ويبطرا
قد كنت أعْجب ان يقولوا شاعر	ذو جِنّة واخال ذلك مفترى
حتى لَقيتُ صُوَيحْبِيّ كليهما	فاذا هما من طينة قد صُوّرا
خُلِق الجمال لعين صبّ جنّة	ولقلبه نارا تزيد تسعّرا
لا غرو ان يغدو لحمرة وجه من	يهوى وقد حمل الغرام محمّرا
يا ليت يغني المرء يوما واحدا	عنهن من شيء يباع ويشترى
ليت الجمال لهن مثل الملح في	قدر الطعام مهوّعا ان كثّرا
بل ليتهن خلقن اقبح ما يرى	كيلا نهيم تحيّرا وتخيّرا
ليت الكواعب كن هُضْلا حبذا	الطرطبّ مع لايا كبادي منظرا
ياليت ذي الهيفاء درْدِحة[2] وذي	الدهساء فَلْحَسه فيهنئنا الكرى

(١) التزبب التزيد في الكلام كالتزبيب وزبّب فمه اجتمع الريق في صامغيه والتكسس التكلف.

(٢) الدردحة المرأة التي طولها وعرضها سواء والدهساء العجزاء والفلحسة المرأة الصغيرة العجز .

ليت العيون النجل ضيِّقة وما في الثغر من در نظيم صُفِّرا

يا ليت كانت كلّ ساق فعْمة عود الشُكاعي بل ادق واضمرا

يا ليت لم يَصلُت جبين فوقه شعر كلّيْل كل غِرٍ غررا

يا ليت ما في الجيدمن عَنَط بدا وقصا لاعيننا وشيّاً منكرا

والحسن ان القبح احسن ملمحا اذ ليس يبكي العين مامنه يُرى

فلايّ داعٍ كان شغل عقولنا وقلوبنا بهوى الوثائر اكثرا

ولمَ اختُصصن بكل علق مضنّة وبكل حلي فاخر دون الورى

وبمَ ارتفعن على الرجال تطاولاً ولهنّ تحتُ تقدمـــا وتأخرا

والىمَ تصطبر الفحول وقد طغت افعالهـــنّ تحيّر المتصبرا

منا خرجن وعقلنا يخرجن اذ يدخلن او يخرجن سفّه من مرى

ولاي شيء لم يكن قود على من لحظها قلب المتيم قـد فرى

ولاي شيء حل رشف الريق من ثغر الرشوف وكان ذلك مسكرا

وعلى مَ تعتز الشناط على شج يمسي ويصبح بالغرام محسرا

سلها هل التنور فار كما انبغى في كل شهر ام تأخر اشهرا

اين المعالي والمكارم اين من فخر الانام بعزّه وتجبرا

يقتاده اسم الخود ان ذكرت له طوعاً وكرهاوهويهزم عسكرا

واذا تجشأ ساعة في وجهه من أي سمّ قال انشي عنبرا

ولربما عشق الكبير فجُنّ من ريح من الحسناء تفعم منخرا

ولو ان ذا القرنين جارى كيدها لرأى الى قرنيه قرنا آخرا

لولا النساء لما رأيت مخطّأ ومسفّها ومفسقا ومفجّرا

ومفلّسا ومجبّها [1] ومعنّتاً ومكشخنا ومجرّسا ومعزّرا

ومتيما ومهيما ومسهما ومدّما ومذّمما ومشّهرا

(١) التجبيه أن تحمر وجوه الزانيين ويحملا على بعير او حمار ويخالف بين وجوهها وكان القياس أن يقابل بين وجوهها لانه من التجبيه والكشخان الديوث وكشخنه قال له ياكشخان .

ولما تناثرت الجماجم في الوغى تحت السنابك وهي تُوري المغفرا
ولماعفت دول بهن لهَت فبيّتها الدمار فاصبحت تحت الثرى
أمْلت عليّ حوادث الامم التي غبرت فقلت مقال من قد حرّرا
يا رب قد فتن النساء عقولنا فامسح محاسنهن قبحا يزدرى
او فاجعلن غشاوة تغشى على ابصارنا أوْ لا فأعم المُبصِرا
او فانصُنا او فابصُناا او فالصِنا او فاخصِنا طبعابصاء بالحَسَرَى

الثانيـــة

لمن اشكو وقلبي اليـ وم من اكبر اعدائي
لمن اشكو وعقلي اليـ وم معقــول بأهوائي
وطرفي مُبسل لبـّـي ولـــبي جالب دائي
ولوّامي مـــن كانوا اذا غبـــت أودّائي
ولا واي مـن الألو عن الألى من اللائي
وقـــد افسد آرابي جميعـا بعضها اللائي
رأى نار الهوى تذكو لاحــــراق واصـــلاء
فمـــا بالي باصلائي تلظيهـــا واسلائـي
يقول الحتف من لمج وكوني ميت احياء
احبّ اليّ من عيشي يومـاً عيش تيتـــاء
حيــاة الصَر تكدير وصفوتهـــا باصفـــاء
وما ينجع نصح فيه لو كان باتـــلاء
فهل من حكمَ ما بيننا يـــقرو بافتـــاء
عواديـــه ودعـــواه باصبـــاحي وامسائي
وثورتـــه ورثأتـــه لاخزاي واختـــائي
طغا خطبي فما لي اليو م مـن آس واسوائي
فاسواي لا ينفـــك مـــن لهـــج باسواء
فـلا يشغلكم هجوي وتقريـظي واطرائي

فراسي اليـوم امـِّرة لداعي نـكس اهوائي
فـلا مطمع في رشد خليـع رقّ اغـوائي
اذا وقصت بـه عنقي فـلا تشكوا لاذمائي
وان شجت به راسي فـلا تبكوا لادمائي
وان هشمت بـه سنّي فلا تعموا عـن المائي
وان بُخقت بـه عيني فـلا تكروا لاعمائي
جرى المقدور من قِدم بتضليـلي واشقـائي
فـلو شاء لابقـاني معـافىً أيّ ابقـاء
ولو شاء لاعمـاني عن لفـاء سوقاء
دعوا ذا الوجد يشقيني ويمنيـني باشفـاء
وهذا العشق يضنيني ولا تـُعنَوا باشفـائي
فذا عظمي وذا جلدي وذا شأني وانشائي
فما يدخل ما بيـني وبين هوى باحشائي
سوى فـظّ فضولي زنـيمٍ شرّ مشّاء
اذا اسمعتكم عَتَبـاً فعدوني من الشاء
ولا تـُبقوا على طوقي وجلبابي واعضائي
فان القَدْم مَن يَسمع ذا عَذْل باغضاء
وان الحر من يُسمع عَتَباً تِلو ارضاء

الأغاني

يا بدر ما لك ثان في حسنك الفتّان
فارحم فتى ولهان مبلبـل البـال
عذّب بما ترضاه الا الجفا اخشاه
قد طال ما اصلاه وانت لي سالي
يا يوسف الحسن حوشيت من سجن
هددت بالحزن اركان آمـالي

من ذا الذي اغراك بصد من يهواك
الطرف منه باك وجسمه بالي
حتام ذا الهجران والصدّ والحرمان
حسن بلا احسان كالريّ بالآل
محبك الواجد منك الرضى فاقد
يا ليتني واجد اتهام عذّالي
اضناني السهد وعزني الوجد
ما القصد ما القصد سواك يا غالي
يا فاتن العشاق باللحظ والاحداق
تبارك الخلاق لحسنك الكالي
افديك بالمال والروح واللآلي
رضاك اشهى لي من طول آجالي

غيره

ما ترى عيني مثيلك يا رشا فارحم قتيلك
لم يرم الا سلامك ثم ان شئت جميلك
كل ما فيك مليح كبدي منه جريح
بليت تفدي مقامك والهوى فيها صحيح
انت لي يا بدر سالي وانا للهجر صالي
من يذق يوماً غرامك لم يذق طعم الليالي
يا رشا صد دلالا وجوابي منه لا لا
اسمع العبد كلامك وارقب المولى تعالى
فيك تعبيدي وذليّ وهيامي اصل ضلي
ليت من غيري رامك يبتلي بالهجر مثلي
ضقتُ بالهجران َذرْعا ولشوقي كان أدْعى
لم ازل ارعى ذمامك وذمامي لست ترعى

ان يكن وصل فعدني فيك قد احسنت ظني
اسأل الله دوامك فهو لي اشهى تمني
يا مليك الحسن طرّا يعرض المملوك امرا
ادعُه يوماً غلامك ان له اجريت ذكرا
طال بالباب مثولي والتفات منك سولي
من رأى يوماً قوامك راح صبّا ذا نحول
انما بدري غزال فاتني منه الدلال
يا عذولي دع ملامك انما العشق حلال

غيره

اللقا طبيبي يا من لي سبيت والهوى نصيبي من يوم انتشيت
ان في شحوبي شكوى لو رثيت يا صنو القضيب ما هذا الجفا
يوسف الجمال ذا الهوى صعب تهت بالدلال شانك العجب
ان تسل عن حالي ينفع العتب او بقيت سالي لم يفد دوا
من حمل الصدود صرت في ذا الحال من مطل الوعود صار جسمي بال
ادمعي شهودي واشتغال البال ليس من محيد عن حكم الهوى
قدرثى لي اللاحي لما عادني وعلا نواحي مما آدني
وجهك الصّباحي ضلاً زادني يا زين الملاح انعم باللقا
مُرْ بما تشاه تلقني مطيعاً تلقني فداه جهد المستطيع
ولعي اذكاه شكلك البديع جسدي اضناه منك قول لا
من يجد كوجدي يدرِ قصتي ليس غير الوعد منك حصتي
بعض هذا الصد اصل غصتي انا فيك وحدي مبتلي انا

غيره

يا فاتر الجفون ما بدا لك حتى جفوت عاشقا جمالك
ويا قضيب البان ما امالك عن مغرم مؤمّل وصالك

عذّب بما ترضاه يا غزالي　　الا الجفا شماتة العذال
انعم بوصل منك يوما بالي　　انعم طول العمر ربي بالك
علامَ تجفوني وما لي ذنب　　وما لقلبي عن هواك قلب
بحق من اولاك ما تحبّ　　دعني اقبّل مرة اذيالك
لم يبق لي على الصدود طَوْق　　وعال صبري عنك هذا الشوق
وليس لي الى سواك توق　　وهل لعيني ان ترى امثالك
احرمت طرفي في الليالي غمضا　　وقلت ارضى علّه ان يرضى
يا هل ترى صدك عني فرضا　　فمن بقتلي يارشا افتى لك
ناشدتك الله انلني سولي　　وكن رفيقاً بي يا مأمولي
يكفي الذي تراه من نحولي　　يعيذ رب العرش منه حالك

غيره

يا بدر قل لي هذا الهجران　　تغوي اليه ام امنيّه
جُدْ لي بوصل يا غصن البان　　توجر عليه او في النيّه
ما القصد الا يوماً مرآك　　فالصبُّ صار في بليه
لا تخش عذلاً ممن اغراك　　فهو أمّار بالاذيّه
نعمت بالأ انعم بالي　　ياذا الجفون الهنديه
وطبت حالا طيّب حالي　　فلي شجون في الطويه
فقت الاناما بما حويت　　من الخصال الملكيه
ومنك راما عبد سبيت　　بهذا الدلال قرب الطيه
كم ذا المطال ولا وصال　　ليست ترام ذي السجيه
هذي الفعال يا ربّ الخال　　وذا الغرام لي منيّه
انت المرادْ دون الانام　　لاندّ لك في البريه
فما سعاد بين الوسام　　انت مَلَك او حوريه

غيره

الى هنا يابدر لي انت المنى　　كلٌّ جنى منك الرضى الاّ انا

يا فاتــني بالدَّل لما تخطر وشــاجــني اذ جزت شزراتنظر
قد شاقني منك المحيا الازهر واستاقــني وجدي الى حدّ المنا
بي كلّمــا القاك عني معرضا وجد نما لكن جسمي امرضا
ياذا اللمى حتام لاتبدي الرضى صل مغرماً البسته هذا الضنا
سبحان من آتاك ذا الحسن الفريد كم قد فتن صبًّا به امسى عميد
انت الحسن والشوق في قلبي يزيد ان الشجن للعظم مني اوهنــا
كُلّفت في ذا العشق تبريح الجوى حتى تفي لكن هيهات الوفا
هل منصفى مما به يقضي الهوى او مسعفي خدن على نيل المنى
يا بدر لا تسمع مقال العاذل وارع الولا ناهيك وجدي قاتلي
فقت الملا حسناً ففق بالنائل جُد بالطلا من فيك ياحلو الجنى

غيره

اذا امر الهوى رابك فلا تفتــح له بابك
ولا تشغل به دابك يسمك الحزن والهما
اتيتُ العشق من بابه وعلّلت باكوابه
فما قد ذقت من صابه دعاني لم اذق طعما
هو العشق له مبدا ولا تلقى له حدّا
يذيق العاشق السهدا ويبلي الجلد والعظما
ايا من قد كوى قلبي بهذا الدلّ والعجب
اذا لم تستمع عتبي فمن اشكو له السقما
تناهى بي الذي اجد من الشوق الذي يَقِد
فدتك الروح والجسد فكن يوماً معي سلما
لقد افرطتَ في هجري وملّكت الهوى امري
فلا والله ما ادري اسحراً كان ام حلما
عسى اوعلّ ان تشفى عليلا منك يستشفى

وثيران الهوى تطفى   فقل تطفا وخذ مهما
غدا مضناك يا حبّ   له صبر ولا قلب
ودمع فيك منصب   لان يُسقى بفيك الما

غيره

طيري لا غير   لا أسلو عنه ساعه   يا اهل الخير   هلاّ رعتم من راعه
دمعي سَكْب   ونار شوقي لاتخبو   ولي قلب   للهوى يبدي الطاعه
انا الهائم   عن حبّ السوى صائم   ليلي قائم   لا اغفى فيه ساعه
اشكو الوجدا   ولم تزد الا صدّا   فارحم عبدا   قد نوّعت اوجاعه
مالي صبر   وكيف صبري يابدر   وذا الهجر   اشقى نفسي الطمّاعه
طفا الهجران   ومايشفي الصب الولهان   مثل السلوان   لكن نفسي نزّاعه
اراني البين   انواع الضنا والحين   وعشق الزين   مني فوق الاسطاعه
دوام الصد   لم يترك للمضنى جد   ولين القد   ينشي فيه اطماعه

غيره

لو لم تـدم بلوايا   لم تستمع شكوايا
ولادرى مبكايا   من في الهوى يلحاني
اكثرت من صدودي   يا مخلفا وعودي
لم ترعَ لي عهودي   ولم تسل عن شاني
اعرضت عني كبرا   وكان وصلي احرى
لقد عدمت الصبرا   من فرط ما دهاني
حمّلتني اثقالا   وطبت عني بالا
قل لي نعم او لالا   فالمطل قد اضناني
يا مفرد الجمـال   يا بدر احسن حالي
شمّتّ بي عذّالي   امـا كفى اشجاني

سبحان من قد ابدع هذا المحيا الاروع
والحسن طرا اودع في طرفك الفتّان
ان الهوى هوان تضنى به الابدان
ما اختاره انسان الا وكان العاني
مولاي يا مولايا يا منتهى منايا
لا تتخذ سوايا وتسلني بثاني

٣

في العدوى

قد تقدم في المقامة الاولى أن عدوى الشرافشي من عدوى الخير. وان الاجرب قد يعدي اهل المصر جميعاً بخلاف الصحيح فانه لا يعدي احداً من جيرانه. وهذا يرى ايضاً في الامراض العقلية والقلبية. وشاهده على ما قالوه ان معلمّي الصبيان لكثرة معاشرتهم ومخالطتهم اياهم تركّ عقولهم ويافن رأيهم. وكذلك المكثرون من مخالطة النساء فان قلوبهم ترقّ وطباعهم تتخنّث. فيتجردون عن تلك الشهامة والبسالة المختصة بالحَرِدين من الناس. وقد اعرف كثيراً من ابناء جنسي الذين عاشروا الافرنج لم تسترق طباعهم منهم الا الرذائل دون الفضائل. فصار احدهم لا يقوم عن المائدة الا وقد مسح الصحفة التي اكل منها مسحا لا تحتاج معه الى غسل. واذا حضر مجلسا انحى على احد شقيه وزقع زقعة يدوي منها المجلس. وربما غسلها بعد ذلك بقوله سكوزي اي اعذروني. ومنهم من يلبس هذه النعال الافرنجية. ويطأ بها وسادتك هذه العربية او يرخي شعره كشعر المرأة وأول ما يستقر به مجلس ينزع قبّعته ويطفق يزرع في حجرتك ما يتناثر من هِبْرِيَته. ومنهم من اذا ضمه مجلس بين اخوانه ومعارفه او غيرهم ورأى فيه اديبين يتساجلان او يرويان النوادر الغريبة اخذ في التصفير. ولكن تصفيراً مختلاً خلاسيا اي غير افرنجي محَت ولا عربي حَتْم. اذ لم يكن قد عاشر القوم مدة طويلة تمكنه من تحصيل هذا الفنّ الجليل. ومنهم من يمد رجله اذا قعد في وجه جليسه. ومنهم من يأتيك زائراً ولا يبرح ينظر في كل هنيهة الى ساعته اشارة الى انه كثير الاشغال جمّ المصالح. مع انه يلبث عندك حتى يراك تهوّم من النعاس. او يراك قد

حملت وسادتك وقلت شفى الله مريضكم. كما قال الاخفش لمن عادوه في مرضه.

مع ان للافرنج فضائل كثيرة لا تنكر . منها انهم يرون في استعارة المتاع والماعون والكتب وغيرها عيباً. ومنها انه اذا زار احدهم خليلاً له ورآه مشغولاً رجع على عقبيه من حيث جاء فلا يقعد ينتظره حتى يفرغ من شغله . بل لو وجده متفرغا خفّف قعوده عنده ما امكن . واذا رأى على مائدته كراريس او صحفاً لم يتلقفها ليقرأها ويفهم مضمونها . ومنها انه اذا كان للمزور منهم ولد مريض او كانت زوجته قد وضعت او مرضت فلا يترك مريضه ويقعد مع الزائر للسلام والكلام فيما لا طائل تحته . ومنها ان احدهم لا يتزوج امرأة الا بعد ان يراها ويعاشرها . وانهم يبوسون ايدي النساء ووجوه بناتهنّ وما يرون في ذلك معرّة وانحطاط قدر . وانه ليس عندهم أوشن [1] ولا ضَيْفن ولا مُزَرّوٍ . ولا يقول احدهم لصاحبه اعرني منديلك كي امخط فيه او آلتك كي احتقن بها . ومنها تساهلهم مع المؤلفين وحملهم ما يصدر منهم من الجهل والخطأ محْمَل السهو او الاغراب . فلا يتعنّتون مثلاً على من قال فلان شمّ النرجس وحبق . او حبق وشم النرجس. او شم فحبق او ثم حبق . والمؤلفون عندنا لا يجوزون ذلك. وفي كتاب ألفه احد معارفي من الديار الشامية باللغة الانكليزية في احوال تلك البلاد واخلاق اهلها . بعد ان وصف عرساً حضره في دمشق ذكر انهم ختموا العرس باغنية لم يزل ذاكراً لها بحروفها . وقد رأى تفضلاً منه ان يترجمها الى اللغة المذكورة . وهي في الحقيقة مرثية في امرأة اذكر منها بيتين وهما :

بالله يا قبر هل زالت محاسنها ... وهل تغير ذاك المنظر النضر

ما انت يا قبر بستان ولا فلك ... فكيف يجمع فيك الزهر والقمر

ومع ذلك فان الانكليز حملوا روايته على الاغراب ولم يخطئه احد منهم بقوله كيف يمكن لأهل الشام الموصوفين بسلامة الذوق واستقامة الطبع ان

(١) الرجل الذي يأتي الرجل ويقعد معه ويأكل طعامه .

يختموا أعراسهم بالمراثي المبكية .

ولكن لو كانت روايته هذه في اللغة العربية وبلغت مسامع اهلها لعقدوا عليه مجلسين احدهما عامّي والآخر خاصّي ففي العامي يقول احدهم ماشاءالله يا خي مرثية في ختام العرس اسمعوا يا ناس وتعجبوا من حذق هذا الراوي . فيقول الآخر اي والله مرثية بدل الغناء عمركم يا ناس سمعتوا كلام زي دا . فيقول غيره لا حول ولا قوة الا بالله ما لقيش المغفل دى الا الرثاء يجعله في ختام العرس. فيقول آخر حسبنا الله ونعم الوكيل يمكنش غفله اعظم من دي أهل العرس يختموا فرحهم بمرثية وما يتطيروش . فيقول غيره الله على دى الراوي هو مغفّل ولاّ مجنون حتى يكذب على الناس الكذب دا ويملأ كتابه بالهجس والكلام الفارغ . فيقول آخر يا سلام دا والله اغرب ما سمعت ان الناس يستعملوا النواح عوض الغناء والبكاء عوض الضحك والصفع على القفا بدل المصافحة باليد . فيقول غيره ولكن الناس دول اللي قروا كتابه حمير ولاّ مجانين ما كانش فيهم واحد يقول له (اذا كان نصرانياً) يا خواجا (او اذا كان مسلماً او مستسلماً) يا افندي اهل بلادك يتطيروا ويتشاءموا كثيراً فما يصحّش ان الرثاء عندهم يستعمل في الاعراس . فيقول الآخر سبحان الله هو حمار ضحك على حمير يا خي خلونا منه . فيقول غيره لا إله إلا الله نحب نعرف السيره ايه ان كان كلامه دا جدّ ولاّ مزح . فيقول آخر مزح ازّاي اللي هو طابعه في كتاب ينباع في الدكاكين ومصور عليه صورته بسيف وحمايل وازرار . فيقول غيره بقا نقول ازاي يبقى الانكليز يبلعوا كل شي يستفرغه في حلقهم الغريب اللي عنده سيف بازرار وحمايل . فيقول آخر اظن الافرنج كلهم يصدقوا الخرافات . فيقول آخر ياخي دا باب واسع أول الكلام وآخره غفله من الراوي وحماقة من السامعين . الى غير ذلك من الانتقاد والتعنّت .

فأما في المجلس الخاصّي فان القضية تبلغ فيه مبلغاً أعظم من ذلك واخطر فإنهم يصورونها فيصور فتاوى علمية واجوبة فقهية فيستفتى اعظم ادباءالمجلس

قائلا : ما قول امام الادباء ، وتاج الالباء . في مؤلف زعم ان اهل الشام يستعملون المراثي في ختام اعراسهم . فهل تقبل له شهادة أو لا؟ الجواب . لا تقبل له شهادة عندنا على ذنب حمار . وان باع كل نسخة من كتابه عند الافرنج بدينار . صورة استفتاء آخر : ما قول عمدة المصنفين ، وقدوة المؤلفين ، في مدّع ادعى انه سمع بكلتا اذنيه مرثية تنشد في ختام عرس في الشام الشريف . فهل يصدق كلامه وتجوز مطالعة كتابه او لا ؟ الجواب . لا يصدق ولا يوثق بما رآه بعينيه لا في الليل ولا في النهار. ولا بما سمعه باذنيه وان كانتا كاذني الحمار . استفتاء آخر : ما قول من كلامه مزيل للايهام ، وموضح للابهام ، في كاتب أودع في كتاب ألّفه كثيراً من الروايات الهذاهذية [1] والحكايات الاقناسيّة . وزعم في جملة ما قاله ان أهل الشام ينشدون المراثي في ختام اعراسهم . فهل يحمل كتابه كله على هذا الكذب او لا ؟ الجواب . من كذب في قضية معلومة مثل هذه فاحرى به ان يكون كاذبا في سائر القضايا فالاولى حمل كتابه كله على الكذب . استفتاء آخر : ما قول اجلّ النقّاد . وحجة ذوي الرشاد ، في رجل الّف كتاباً ذكر فيه انه يعرف كثيراً من الامراء والوزراء والقضاة والعلماء . وانهم له اصحاب وخلان وانساب واخوان . ثم ذكر في موضع من الكتاب انه حضر عرساً في دمشق المحروسة كان مزيناً بالزهور والرياحين ، والمغنيات والمغنين . وكان ختام ما غنّوا به مرثية قيلت في امراة . فهل على فرض كونه كاذباً في هذه تشفع له معرفته بالوزراء في تصديقه بغيرها ؟ الجواب . ما هو بصادق في هذه ولا في غيرها ولاتشفع له معرفته بالامراء في شيء كما ورد .

لن تنفع الراويَ الافّاك نحلته ... بانه يعرف الاعيان والامرا

استفتاء آخر : ما قول من لا يعلو قول على قوله ، ولا يقطع امر الا بفصله ، في رجل ذي رُواء ، وسراويلات مفرسخة من امام ومن وراء، الف كتاباً ضمنه ما سمعه وما رآه في بلاده . وكان من جملة ذلك قوله انه راى

[1] الهذاهذ الذين يقولون لكل من رأوه هذا منهم او من خدمهم .

عروساً تزف وتنشد بين يديها مرثية في امراة. فهل يعتمد على رُوائه بالاخذ في روايته ؟ الجواب . ليست الروايـــة من الرواء . ولا يعتمد على زيّه في الاخبار عن ميته وحيّه ، كما ورد :

لن تنفع الراويَ الافـّاك حليته ولا سراويله ان فاه او سطرا

استفتاء آخر : ما قول عمدة الانام ، عفا عنه الملك العلام . في رجـــل تصدقه العجم . وتأخذ بكلامه في كل امر اهمّ . وتقرّ عيون نسائهم بالنظر الى لحيتـــه ، وسراويلاته وحليته . وكشرته وجلقته . وخرعته وجلعته . فيخلبهنّ خلباً . ويأسرهنّ غراماً وحبا . الـّف كتاباً اودعه من اخبار اهل بلاده اي بلادنا ما شاقهنّ واعجبهنّ . وشهّاهن وعرّبهنّ . فمن جملة ذلك انه شهد محفلا حفيلا، وعرسا جليلا، قد زين بالانوار الزاهرة، والوجوه الناضرة، والمآكل القدية ، والمشارب الهنيّة . والمشموشات الذكية . فلمـــا شرع في زفاف العروس الى بعلها . واستبشرت الوجوه بفتح قفلهـــا ، واذا بمنشدين ومنشدات . ومطربين ومطربات . وقفوا بين يدي العروس . وعلى وجوههم سيماء الحزن والعبوس . وشرعوا ينشدون مرثية طويلة . في امراة توفيت مذ سنين غير قليلة . فهل يصدق وصفه ويشفع له فيه خلبه الاعــاجم وصرفه . وحزبه منهم وحلفه . وقدامه وخلفه . الجواب ؟ لا يؤخذ بكلامه فـــيما افتراه . وان كان له اخدان من العجم على عدد شعرات قفاه كما ورد .

لن تنفع الراويَ الافـّاك شيعته من الاعاجم لا يدرون ما هذرا

مع ان كلام المؤلف لم يضرّ باهل بلاده شيئـــاً يوجب التحزب عليه . فغاية ما يقال فيه انه نسبهم الى وضع الشيءِ في غير محله . ولكن هذه عادتهم في التعنيت فلا يـــكاد يسلم منهم مؤلـّف . ولو ان صـــاحب هذا الكتاب المذكور قال للانكليز انّ الرجال في بلاده يلبسون الليف والخوص . والنساءَ يتزينّ بالخسف والشقف . ويتكلمن وافواههنّ مطبقـــة . وينظرن وعيونهنّ مغمضة . ويسمعن وآذانهنّ مسدودة . ويرقدن ساعة في الضحى . ونصـــف

ساعة في الظهر . وساعة وربعاً في العصر . وساعتين الا ربعاً في المساء . وثلاث ساعات الاثلثاً في الليل . لعدّوا ذلك منه اغراباً .

ومن هذا القبيل اي من قبيل استراق الانسان مذام عشيره دون محامده كان اظهار البصيرة اي علامة البكارة المشار اليها . فانها عدوى سرت الى نصارى المشرق من اليهود على ما ذكر في كتبهم . مع ان لهذا الجيل ايضاً فضائل كثيرة عرفوا بها من قديم الزمان الى الان .منها درايتهم بجمع الاموال والجواهر ومعاطاتهم الحرف الخفيفة اللطيفة كالصيرفية والنقد والقرض .وصبغ ما هو قديم من الثياب حتى يأتي جديداً . ومن ذلك حبّ بعضهم بعضاً بحيث ان الغريب فيهم من جنسهم لا يحتاج الى ان يتكفف ما في ايدي الناس ممن سواهم . ولا يخاف ان يعوزه المال وهو بين ظهرانيهم فيتقوّت بالجذور . او يكون خَلِطاً فيبيح عرضه للاجانب . بل يلقى في كل بلد نزله وكان فيه اناس من جيله اهلاً وسكنا . ومنها انهم قد اصطلحوا على لغة يعبّرون بها عما يخطر ببالهم من المصالح المعاشية . ولا فرق بين يهودي من اقصى المغرب وآخر من اقصى المشرق في الاخلاق والاطوار والعادات والرأي . بخلاف النصارى فان النصراني المشرقي اذا قدم الى بلاد النصارى الغربيين فاوّل ما يحيونه عند رؤيتهم له قولهم هذا يهودي او تركي . ثم هو اذا احتاج الى مبيت او طعام من عندهم ابلغوه الى رئيس ديوان البوليس فصانه هناك في موضع لا نور فيه ولا هواء الى ان يقضي عليه القاضي . كما جرى هذه السنة على امير القفّة الذي قدم من دير القمر الى باريس . وان يكن موسراً وجاء بلادهم للتفرّج عليها غبنه منهم من غبن وخدعه من خدع وسرقه من سرق وقامره من قمر حتى يرجع الى وطنه منتوفاً مسلوخاً .

فكيف تركت نصارى الشرق جميع هذه الصفات التي اتصفت بها اليهود وتعلموا منهم تلك الخصلة التي لا يتأتى عنها الا الغصّة والحسد فهل يسوغ للغني في مذهب من المذاهب ان يأخذ دنانيره في يديه ويعبث بها في عين الفقير الصعلوك حالة كونه لا يملك منها قراضة. او للشبعان ان يلوّح بثريدته

للجائع اللاهس.فان قلت أن ذلك امر طبيعي وان العلامة انما يراها في الغالب المتزوجون فلا وجه للحسد . قلت لو كانت هذه العادة طبيعية لكنّا نراها مستعملة عند جميع الامم . وهؤلاء الافرنج الذين هم اكثر دراية وعلماً في الطبيعيات لا يستعملونها . لا بل يفنّدون مستعملها ويقولون انالعُقْر يكون غالباً سبباً في العُقْر[1] وان العروس منهم اول ما يحسّ بالانشوطة قد عقدت في عنقه ياخذ عروسه ويعتزل بها في ناحية لا يبصره فيها احد من خلق الله مجانبة لاسباب الحسد ، الموجب للنغص والكمد . فلا يرون ان سرور شخص يكون سبباً في حزن جماعة . وانما قلت الانشوطة لان عقد الزواج عندهم تنحل باسباب كثيرة . فاما قولك ان العلامة انما يراها المتزوجون فلا وجه للحسد فهو كلام من حاول المغالطة والتوريب والمؤاربة. او هو ولا مؤاخذة بما اقول كلام من لا بصيرة له ولا خُبر . فقد اجمع العلماء كلهم المتبلّغ منهم والمقتّر والمتكفف والمعتر والعريان وذو الرعابيل والمسجون والمكبّل والمشكو والمرغم انفه على ان المتزوّج اضيق عيناً بالحسد من العزب . وذلك ان كل انسان يظن ان غيره في حرفته اسعد منه حالاً فلا يفكر الا في وجه اسعديته دون اشقويته .

ولما كانت ليلة الدخول بالعروس من الليالي الغراء وان تكن حالكة كانت مظنّة لان تنشيء الحسد في صدر الخبير بها دون تذكير لما يعقبها . وفي المثل وما ينبئك مثل خبير . هذا واني استميح العفو من الجناب الاكرم . المقرّ الافخم . حضرة الصيِّر المكرم . عما اريد ان اسأله عنه على وجه الاستفادة لا الانتقاد فأقول . من اين تعلم ياذا البصيرة ان تلك البصيرة التي يخضب بها المنديل ويعقد على علم ايذاناً ببكارة البنت هي علامة البكارة . افليس من الممكن ان يكون ليلة الدخول بها قد فار التنّور ، وفاض المسجور او بقيت منه عقابيل ، دبّج بها المنديل ؟ او يكون الرجل قد ذبح عصفوراً او جرح احد اصابعه اذا كان هو الذي سبق الى اقتطاف تلك

---

(١) العقر استبراء المرأة لينظر ابكرام غير بكر

الوردة ؟ او تكون البنت قد ادخرت في ذلك الصوان شيئاً من الدم . فـأن قلت ان الرجل يعرف ذلك بمجرد التذوّق ، قلت لعمري ولعمر ابيك ان تلك الساعة ليست وقت وعْي ومعقول ، بل وقت دهشة وذهول . ولا سيما اذا وقف وراء الباب جماعة يضجّون ويعجّون . ويلحّون ويلجّون فأفِد الجواب عن ذلك . وها انا منتظره من هنا وهنالك .

٤

في التورية

من عادة امثالي من المؤلفين ان يقهقروا احياناً ويطفروا فوق مـدة من الزمان يلفّقوا واقعة جرت قبلها باخرى بعدها . وذلك يسمى عندهم التورية أي جعل الشيء وراء . وانهم ايضاً يبتدئون بذكر صفات الشخص الذي بنوا عليه مؤلفهم منذ ابتدائه مناغـــاة محبوبته الى وقت خفوته في الزواج . ويذكرون خلال ذلك اموراً طويلة مملة وذلك كصفرة وجهه عند لقائهـــا وتغير حركات نبضه وبهره وعيّه عن الجواب وبعثه اليها عجوزاً وكتابـــاً واجتماعه بها في مكان كذا وزمان كذا . وكتخيّفها الواناً عند قوله لهـــا الفراش ، الضمّ ، العناق ، الساق على الساق ، الرضب ، الملاسنة ، البعال وما اشبه ذلك وربما اساءوا الادب ايضاً في حق الاب والام . فانهم كثيراً ما يصرحون بان الام ترضى بان تكون ابنتها فتنة لناظريها . وتتساهل معها في تهنيد زمرة من الرجال لتقاسمها منهم شطراً . وان الاب من حيث ان حجره في حجر امرأته لا في رأسه لا يمكنه منع تلك الاسباب . وان الخـَدَمة لا يكونون الاّ ذوي حَذْل مع المرأة على الرجل . فالخوادم للاقتداء بسيرة سيدتهنّ والخادمون للطمع فيها . وفي الجملة فانهم يجعلون بيت البنت المعشوقة دسكرة وماخوراً وحابوراً ومنبتاً لجميع انواع الفساد والحيل والمكائد وكلّ من اخواني هؤلاء المؤلفين يخترع حيلة من رأسه ويعزوها الى غيره . اما الطفرة الى وراء فعندي انه لا بأس بها اذا كان المؤلف رأى مذهب التأليف قد سدّ امامه ثم يعود الى ما كان عليه . واما تبليغ الرجل الى سرير عروسه ثمّ اطباق الكتاب عليها من دون ملاوصة لمعرفة احوالها بعد ذلـــك فلست

أرضى به . اذ لا بدّ لي من ان أعرف ما جرى عليها بعد الزواج . فان كثيراً من النساء اللائي يحسَبْن اناثا قبل تولي هذه الرتبة الشريفة يصرن بعدها رجالاً كما ان الرجال تصير نساء .

من أجل ذلك رأيت ان اتتبّع الفارياق بعد زواجه اكثر من تتبّعي اياه قبله . اذ الكلام على اثنين أدعى الى العجب منه على واحد. فاما الاسفاف للامور الخسيسة والدعلقة والدنوق فليس من شأني . فائذن لي اذاً يا سيدي ورخصي لي يا سيدتي في ان استعمل الطفرة واقول .

ان الفارياق حين كان مرتبقاً بربقة الحب قبل الزواج كان قد استدعى به احد الخرجيين في جزيرة البُخْر اي في الجزيرة التي يتكلم اهلها بلغة منتنة . ليكون عنده بمنزلة معبّر للاحلام باجرة اكثر مما كان له عند الخرجي بمصر . فمن ثمّ عزم على السفر وطالع به خطيبته قبل الدخول بها بمدة. فقالت لا بأس فان للرجل حقاً على امرأته ان يستصحبها حيث شاء . وانّ كل بقعة من الارض تكون لها في صحبته مغنى ووطناً . ثم اخبر امها بذلك فرضيت . فلما وقع المقدور بالزواج وأحكمت عقدته قال الفارياق لزوجته ينبغي لنا الان ان نتأهّب للسفر . لانّ احلام الخرجي قد تكاثرت في راسه ويخشى ان يفوته تعبيرها . فقالت أوَ ذلك من جدّ؟ هل جرت عادة النساء بان يسافرن عقب الزواج ويعرّضن انفسهنّ للعقم والخطر ؟ اليس في مصر مندوحة عن الغربة والسفر؟ كيف افارق اخواني واهلي واذهب الى بلاد مالي بها من صديق ولا خدين !؟ قال ما غرّرت بك ولا قلت لك شيئاً غير ما قلته من قبل. قالت ما كنت لاعلم من الزواج ما أعلمه الآن. فقد شبهه الناس بالسعوط الذي يعطيه الطبيب للنائم او السكران حتى يفيق . قد علمت الآن انّ المراة لم تخلق للسفر وانما خلق السفر لها . قال: اني وعدت الرجل بان اسافر اليه فلا بدّ من انجاز الوعد ؛ فقد يقال في المثل ان الرجل يربط بلسانه لا بقرنه . ومع ذلك فان خرجيّنا هذا مسافر معنا بامراته فانت مثلها . قالت ما انا كزوجة الخرجيّ فاني الآن حديثة الصبغ وفي برزخ البكر والمتزوجة . ولم

اسأم بعدُ من الارض حتى ادخل الى البحر. فلما علمت امها بذلك الحت عليها في السفر. فقالت دعوني اذاً استشير طبيباً لأعلم هل سفر البحر يضر بالمتزوجة حديثاً او لا . فجيء بالطبيب فلما سمع كلامها ضحك وقال . انكم يانصارى الشرق تنذرون النذور للكنائس رجاء ان يمنّ عليكم صاحب الكنيسة بالحبل او الشفاء من بعض الامراض واما نحن فننذر للبحر . فان النساء عندنا حين ييأسن من الحبل يقصدن ظهر هذا الوليّ ويلتمسن بركته . فمنهنّ من ترجع حبلى بفذّ ومنهنّ من تضع توأمين . ولا سيما اذا كان ربان السفينة ذا رفق بالنساء يطعمهنّ ما يشتهين . فقال الفارياق في نفسه اللهمّ اجعل ربان سفينتنا عنيفاً شرساً نكداً شكساً فظاً عسراً. فلما سمعت ذلك سكن روعها ومالت الى السفر . فمن ثمّ اخذوا له الاهبة وسافروا الى الاسكندرية .

اما السفر من بولاق في القنج فانه من اعظم اللذات التي ينشرح لها الصدر فان النيل لا يكون إلا ساجياً . ورئيس القنجة يقف قبالة كلّ قرية ليتزودوا منها الدجاج والفاكهة الطريئة واللبن والبيض وغير ذلك . وناهيك بماء النيل عذوبة ومصحة . فالراكب في احدى هذه القنج لا يزال طول نهاره آكلا مسروراً قرير العين بما يراه من نضرة الريف وخصب القرى . حتى يودّ ان تطول مدة سفره فيه وان كان في قضاء امر مهم . فاغتنم الفارياق ح هذه الفرصة وامعن في قضاء الاعذبين ونسي مصر ولذاتها . ونعيمها وحماماتها . ورَمَدها وآفاتها . والكتب ومشايخها . والاخراج وتخاتخها . والمكاتب وبرابخها . والطنبور واوتاره. والحمار وفراره . والطبيب وقنزعيته. وصاحب المعجزة وهجرعيته والسرى ورائحته . والوباء وجائحته . وما زال على هذه الحالة حتى وصل الى الاسكندرية شبعان ريان . وقد تزود ما يقوم بحاجة البطالة في البحر الملح . وفاز ونجح اي فوز واي نجح .

٥

في سفر وتصحيح غلط اشتهر

كان الخرجي[٥] رفيق الفارياق في السفر قد كتب كتاباً من مصر الى بعض معارفه بالاسكندرية ليهيىء له نُزُلاً . فلما وصلوا اليها اقاموا فيه مدة ينتظرون ورود سفينة النار التي تسافر الى الجزيرة. وكانوا جميعاً يأكلون على مائدة واحدة ويتفاوضون في المصالح الخرجية وفي السفر وغيره . وكانت زوجة الفارياق لا تدري شيئاً سوى بيت اهلها . ولا تتكلم في امر الا فيما جرى لها مع امها او لامها مع الخادمة او لهذه معها وكانت اذا اخبرت مثلاً بان الخادمة ذهبت الى السوق لتشتري شيئاً تخللت كل جملة بضحكة طويلة . فاقتضى لاخبارها من الوقت نحو ما كان اقتضى للخادمة من الذهاب والاياب وسبب ذلك ان البنات في مصر والشام لا يعاشرن احداً سوى الخوادم واهل البيت . اما امهاتهنّ فلا يطالعنهن بشيء من امور الدنيا مخافة ان تنجلي الغشاوة عن ابصارهن فيعرفن ما يراد منها . فمن ثمّ كان تحصيل معارفهن كلها من الخوادم لا غير . ولما كنّ هؤلاء يرين ان اخبار البنات بما يهوين ويملن اليه بالطبع خيراً لهنّ عظيماً . فاذا رأت احداهن مثلاً فتى جميلاً بادرت من ساعتها الى البنت وقالت لها : قد رأيت اليوم يا سيدتي شاباً مليحاً ظريفاً لا يصلح إلا لك . وانه حين نظرني وقف وشخص اليّ وكأنه يريد ان يكلمني. واخاله عرف انك انت سيدتي . فاذا رأيته المرة الآتية كلمته . واشباه ذلك عن الكلام مما يجعل البنت ذات ضَلع معها اذا غضبت منها الام . ولا يخفى ان البنات اذا كنّ جاهلات بالقراءة والكتابة وحسن المحاضرة وبآداب المجلس والمائدة وغيرها، فلا بدّ وان يتعوّضن عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكايد

التي يتخذنها وسيلة لما يرمن . فان البنت اذا اشتغلت بقراءة فن من الفنون أو بمطالعة الكتب المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل. فأما إذا لم يكن لهنّ شغل غير ملازمة البيت وليس فيه غير الخادمةفانّ افكارهنّ واهواءهنّ كلها تنجمع الى مركز واحد وهو اتخاذ الخادمة وسيلة لهنّ وسنداً . فكلامهـــا عندهنّ اصدق من كلام امهاتهنّ . فالأولى عندي انا العبد الحقير ان تشغل البنت باحدى الفنون والعلوم النافعة سواء كان ذلك عقلياً او يدوياً. ألا ترى ان الانثى مفطورة على حب الذكر والذكر على الانثى ؟ فجهل البنات بالدنيا غير مانع لهنّ من معرفة الرجال واستطلاع احوالهم . بل ربما افضى بهـــنّ هذا الجهل الى التهافت عليهم والانقياد اليهم من دون نظر في العواقب بخلاف ما اذا كنّ تأدّبن بالمحامد والعلم اللائق بهنّ فانهن ح يعرفن مـــا يعرفن من الرجال عن تبصر وتدبر . وهناك قضية اخرى وهي ان النساء اذا علمن من انفسهنّ انهنّ اكفاء الرجال في الدراية والمعارف تترّسن دونهـــم بمعارفهنّ وتحصّنّ بها عنـــد تطاول الرجال عليهنّ . بل الرجال انفسهم يشعرون بفضلهنّ فيرتدعون عن ان يهتكوا حجاب التأدب معهنّ . مثال ذلك اذا اجتمع غلام وبنت في خلوة وكان الغلام قد قرأ ودرى والبنت لم تعرف شيئاً غير ذكر اللباس والزينة والخروج الى البستان . لم يلبث الغلام ان يتعـــدى طور الادب معها لاعتقاده انها لم تخلق في الدنيا الا لقضاء وطره منها. بخلاف ما إذا رآها ذات رأي رشيد . وقول سديد . وفكرة مصيبة . وفهم للامور البعيدة والقريبة . وحسن محاضرة وجواب عتيـد . ومعارضات ومماتنات . فانه والحالة هذه يهابها ويحترمها . وليس كلامي هذا مخالفاً لما قلته في اغضاب الشوافن . وانشاب البراثن . وانما العبرة باختلاف وسائل العـلم . والمراد من هذا الاستطراد كله ان نقول ان زوجة الفارياق وان يكن قد فاتها كثير من معلومات الرجال والنساء فقـــد ابدت من المعارضة لامها عند تصادم مصلحة الزواج بمفسدة خرجية الفاriاق ما افحم المجادل، وابكم المناضل. لكنها بقيت في غير ذلك جاهلة .

قال الفارياق لما كان ذات يوم على المائدة اخبره الخرجي بقدوم سفينة النار وحثه على التأهب للسفر . فسمعت بذكر سفينة النار فقالت ما معنى هذا . فقال لها الخرجي هي سفينة ذات الواح ودُسُر وانما تسير بقوة بخار النار . قالت واين النار ؟ قال في قمين بها . قالت يا للداهية كيف اسافر في سفينة فيها قمين واعرض نفسي للنار ؟ اليس السفر من هنا الى الجزيرة يكون في القنج كسفرنا من بولاق ؟ قال ان القنج لا تصلح للبحر الكبير . قالت اما انا فلا اسافر ويسافر من يريد ان يحترق . فترضاها الخرجي وزوجته فأبت .

فلما حان الرقاد اضطجعت في الفراش وادارت وجهها الى وجه الحائط : وهذا هو المقصود من هذا الفصل تنبيها للناس على ان هذه العادة هي من جملة العادات التي اخطأوا استعمالها اذ ليس في الادبار شيء يدل على الغيظ .

بل الاقبال هو المظنّة له فان المرأة اذا واجهت زوجها عند الاضطجاع وقطبت وجهها في وجهه وزوت ما بين حاجبيها، او شمخت بأنفها او سدّت منخريها او غمضت عينيها كيلا تشم رائحة وتبصر سحنته او غطتها بيدها او بكمها او بمنديل كان ذلك اشارة الى الغيظ . فاما في تولية الدبر فلا علامة تدل عليه . فان قلت انها اذا واجهته ربما غثت نفسها من نفسه . اذ الرائحة الكريهة لا بد وان تفعم المناخر وان سُدّت فلا محيص عنه الا بالادبار قلت الاولى ان تستلقي فيندفع المحذور . وبعد فان الدبر هي من الاشياء التي طالما عُني الناس بتفخيمها وتكبيرها وتعظيمها حسّا ومعنى . امّا حسّا فلانهم اتخذوا لها الزناجب والمنافج والمرافد والرفائع والاعاجيز والغلائل والمرافق والعُظّامات والحشايا والاضاخيم والمصادغ اجتذابا لقلوب الناظرين وفتنة لعقول العاشقين . فكيف يكون شيء واحد مستعملا وسيلة للرضى والغضب معا فهو خُلْف بيّن ، واما معنى فلأن العلماء والادباء وسادتنا الشعراء ما زالوا يتغزلون بها ويتنافسون في عرضها وسعتها ، حتى ان بعضهم قال

من رأى مثل حِبّتي	تشبه البدر اذا بدا
يدخل اليوم خصرها	ثم ارادفها غدا

وقال عمر بن كُلثوم

وما كمة يضيق الباب عنها ‏ ‏ ‏ ‏ وخصر قد جُننت به جنونا

ولقائل هنا يقول ان الشاعر لم يصف الخصر الا بكونه موجبا لجنونه. وان الاشارة الى كونه محيلا بناء على جنون الناس بـه اذا كان كذلك غير ناصّة واخرى ان يكون هذا المفهوم الضمنيّ جاريا على وصف كل عضو . اذ لو قال وما كمة جننت بها جنونا لعلم بالبديهية انها تملأ الباب ويفضل منها شيءوياليت شعري هل الالف واللام في الباب للعهد الجنسي او الذهني . وهـل الامام الزوزني تعرّض لشرح ذلك ، ثم انه من اهمّ مـا يشغل بال المرأة ويسهرها الليالي ، هو ان تفتن ناظرها بتفخيم ذلك الموضع الرفيع العالي . وربما لهيت عن وجهها وسائر جسدها وغادرته بلا زينة من فرط اشتغالها به ولو تضمّر وجهها وذوت غضاضة بدنها لمرضٍ او كبر فقلّ اعتمادهـا على محاسنهالم تبرح معتمدة عليه ومتعهدة له . فهو عندها رأس مال الخلب والتشويق ومـا من امرأة الا وتتمنى ان يكون لها عين في قفاها لتكون ناظرة اليه ومتعهدة له دائما . ولقد يهون عليها ان تقف ساعة او تمشي ساعتين او ترقص ثلاثا ولا ان تقعد هنيهة خشية من ان يخشان او يضمر . وانها حين تنظر الى عطفها وهي ماشية او راقصة فما هو الا رمز الى ما ورائه . وان تهدكرها وتبهكنها هما أنشب مصلاة يعلق بها قلب الرجل. وذلك لانها تعلم ان الحكمة الخالقية رسمت من الازل بان تكون كثرة اللحم والشحم في ذلك الموضع . بالنسبة الى سائر البدن لا بالنسبة الى دكاكين اللحامين ، شائقـة للملوك والسلاطين والامراء والقضاة والائمة والقسيسين. والاحبار والموابذة والهرابذة والعلمـاء والبلغاء والخطباء والادباء والشعراء والعطارين والصيادلة والعازفـين بآلات الطرب ولسائر الناس . لا لانهم يتخذون من لحمه كبابا او من شحمه إهـالة . او يستصبحون عليه او يتخذون من جلده كـُوْبة [١] . ولكن ملاء لعيونهـم وشرحاً لصدورهم . فان عين ابن آدم مع كونها ضيقة لا يملأها ما هو اوسع

---

(١) الكوبة الطبل الصغير المخصر ولعله الذي تسميه العامة الدربكة

منها واكبر بالف مرة . واشعارا لهم بان حكمتهم في هذه الدنيا وتنطّسهم وعزهم ومجدهم وان علت على الاطواد الشامخة والجبال الشاهقة فما هـي الا سافلة عن حضيض هذا الموضع ألا َ وانها تعلم انك اذا جلست مثلا حد هؤلاء الاعزة الكرام امام بعض المناصع [1] على سرير مذهب . وضربت عليه قبّة مموّهة مزخرفة منمنمة منقشة مزوقة مكسوة بالحرير والديباج ومكللة بالزهور والرياحين . استنكف ان يقعد هناك نصف ساعة . على انه لا يستنكف ان يقعد عامة نهاره وليله محاذيا لذلك المقـام المنيف . وهو حاسر الراس ، مشعث ، الشعر ، حافي الرجل ، فاغر الفم مندلع اللسان ، سائل اللعاب : محملق العينين ، مشمر الذيل ، شابح الذراعين معوجّ العنق مؤلـّل الاذنين ، في اقبح هيئة يمكن للانسان أن يتصورها في حق ذي مقـام . حتى لو سمع نأمة من هناك لظن ان السطان قـد بعث اليه بالات الملاهي يهنئه على هذا الفوز العظيم ، والمغنم العميم ،وتصوّر في باله ان صوت العود لم يكن باشجى من غيره الا لكون هذه الآلة قد صنعت على مثال شطر ذلك الموضع .ولو كان كالشطرين لسُمع له منطق باعراب . وان شكل القبة مأخوذ منه . ورائحة الندّ تروى عنه ، وان العرب من زيادة شغفهم به الحقوا حروفه بالافعـال السداسية الدالة على طلب الفعل او التي يعتبر فيهـا الشيء كونه على حال مّا من الاحوال ، وان فردسة صدور الرجال وعرض ظهورهم لا تجدي نفعاً مع عرضه . وان المعاليفي السّراة متى تلح لهم ذات تاكيم يَعُدْنَ مسافلا ، وان هذه الحقيبة مع ثقلها سواء كانت حاملة كما ذهب اليه بعض الشعراء ، اوكانت محمولة كما هو في الواقع فليس ثقلها الا كثقل كيس ذهب على حامله . وانهـا اسخن الاعضاء جميعاً في الشتاء اذ لا تحتاج الى تدفئة وابردها في الصيف . وانها مع كونها اول ماس للارض عنـد القعود فلا تزال انعم من الخدين . واملس من اللديدين ، فلهذا كانت لذة تقبيلها للمقبّل العذريّ اعظم من لذة تقبيل الذقن والانف والعين والجبين . وان الناس يبتذلون لهـا اسماء الملوك

---

(١) مواضع يتخلىّ فيها لبول او لحاجة .

والسلاطين ، وذوي السيادة والمعالي وائمة الدين . وعند قوم (اقول واستغفر الله) تذال لها الاسماء الحسنى ، على ان تسبيحهم كل يوم ان يقولوا ربنا تقدّس اسمك . ألا وانها تعلم ايضاً ان كثيراً من البهائم اعقل من الناس او اسعد حالا من اصل الفطرة . فان الذكر من الحيوان غير الناطق لا يهيج على هبرتين من اللحم في انثاه مع احتوائها على القبل والدبر الا في وقت معلوم .

وهذا الذكر من الحيوان الناطق لا يزال هائجاً عليها مزبداً لا غماً راغياً متزغّماً هادراً محمحماً مبقبقاً مقبقباً زاغداً مُلَسّعباً جالباً لاجباً وربما جنّ ايضاً . وما ذلك الا لمجرد وَهم انهما باهدافها تعينانه على خسق الهدف من قُبُل والا فما سبب هذا الجنون . نعم وتعلم ايضاً ان هذا الموضع مع كونه في حيّز الجسم الاسفل فهو ، موازٍ لخط الرأس ارتفاعاً اشارة الى ان تسفله لا يحط من قدره ورفعته .حتى لو فُرض انه جعل عند الرجلين لبقيت له هذه المنزلة والاعتبار بعينه . حتى ان بعض النساء يرين ان كشفه أَولى من كشف الفم لانه اقلُّ اذى منه . اذ لم يعلم الى الآن ان احداً قُتل بفلتة منه فاما فلتات اللسان القتّالة فلا تعدُّ ولا تحصى . وبناء على ذلك كن يتعمّدن الخروج في اليوم الراح وهو عندهنّ من الاعياد المباركة ، وبعضهن يرين انه جدير بالحلى والزينة والتنقيش سواء كان ظاهراً او مستوراً . قال بعض السّتاهيين .

يا سائلي عن اي جز ء في المليح اجملُ
لقد روى استاذنا نصف الجمال الكفل

قال وذلك لاشتماله على اشكال كثيرة،لانك اذا اعتبرت ذروة الرانفة [1] وحدها ظهر لك الشكل المخروط ، واذا اعتبرتها مزدوجة بالاخرى تبيّن لك نصف دائرة او شكل هلاليّ ، واذا نظرت من نقطة العسيب الى غاية ما يوازيها من سطح الشق الواحد بدا لك المستوى او المسطح ، او منه الى

(١) تنبيه رايت في كتاب (ليس) لابن خالويه النحوي بعد تأليف هذا الكتاب ان الرانفتين يقال لهما الصومعتان والصوفقتان : وذلك مما فات صاحب القاموس

ما دون ذلك قابلك المقبّب والخط المنحني ، واذا اعتبرته مع الاكباب واجبك المجوّف وهلم جرّا . وليس من سائر اعضاء البدن من الاشكال مــا لهذا . قلت ما اشوق قول الشيخ ناصيف اليازجي الاديب المشهور .

وتموّجت اردافهــا فاخو الهوى   بين اضطراب الموجتين غريق .

ثم ان الظاهر من وجود اسم المرفد في لغتنا هــــذه الجليلة ، ومن قول صاحب القاموس المخدّم رباط السراويل عند اسفل رجل المرأة ، ان لباس نساء العرب قديماً كان كلباس نساء الشام الآن .او لعله كان خاصـّاً بالحواريات غير ان قول المتنبّي ، واعفّ عما في سراويلاتها ، يفيد التعميم ، بناء على تغزّله بالباديات كما اشار اليه بقوله ، وفي البداوة حسن غير مجلوب ، وقــد تقدم ، قال في القاموس الدبر بالضم وبضمتين نقيض القبل ومن كل شيءعقبه ومؤخّره – والاست والظهر ، قلت اسماء حروف هذه اللفظة لها معانٍ وهذه الحروف كيفما قلبتها ظهر لك منها ايضاً معنى ، وكذا اذا جمعت بين كل حرفين منها ، وعددها بحساب الجمّل مزدوج اشارة الى ازدواج الجهتين ، كما ان الضمتين اشارة الى الثقل والرزانة ، ومادتها من اغزر الموادّ ، وهل وضعها مؤخر عن المؤخر او متقدم عليه او اشتقاقها من قولهم جئتك دبر الشهراي آخره واشتقاق هذا منها خلاف ، والظاهر ان الامور المعنويــة الاعتبارية مشتقة من الحسّية وبقي الخلاف في اشتقاقها من عقب الشيء ، وقد ورد في القرآن ولـّوا الادبار ، وانكرها المطران اتاسيوس التوتنجي في كتاب الحكاكه ، واعلم ان العرب قد وضعت للدبر ما ينيف على تسعين لفظة ما بين اسم ولقب وكنية . فمن اسمائها مــــا تقدم في اثارة الرياح ومن بعض كناها امّ سُوَيد وامّ العِزْم وامّ خنـّوْر . فــــلولا انهم انزلوا منزل الاسد والسيف والخمر في الباس والفتك والاسكار لما خصّوهــا بذلك لا يَرد هنا ما قاله ذلك الاعرابي في السنـّور لعنه الله ما اكثر اسمــاءه واقـلّ ثمنه . فانـّا نقول ان قلة ثمن الحيوان لكــثرة وجوده لا يقدح في قيمته ومنافعه . وان كثرة اسمائه هي من حمل النظير على النظير لحصول المشابهة بينه وبين امّ

امٍّ سويد . من جهة ان السنّور هو من الحيوانات الكثيرة النتاج . ومن طبعه اللعب والهراش وان يكن يعقبه غير مرة خدش وادماء . وخمش واصماء . وحمش واعماء . وله تحمّل على المكاره والاذى حتى قيل ان له سبعة ارواح ولا يعجزه صعود شرف ولا هبوط هوة . وانه اذا شمّ رائحة شيء أعجبه من الطعام تسلق على جدار ودخل اضيق مـــكان حتى يظفر به . وانه اذا مرّت عليه يد نفّش ذنبه واخذ في خرخرة وهينمة تفصح عن رضاه باللمس. ومن طبعه ايضاً النظافة والاكل بخفوة حياء او خوفاً .فان ابيت الا المشاحة كما هو دابك من اول هذا الكتاب بان قلت ما بال اسماء الداهية والعجوز اذاً كثيرة واسماء الشمس والقمر قليلة اذا كانت التسمية مبنيّة على جلالة المسمى او نفعه . قلت اما كثرة اسماء العجوز فباعتبار انها كانت صبية او انهاتكون ذريعة لها . واما الداهية فباعتبار خشيتها . والاجلال قد يكون عن خشية كما يكون عن مِقَة . فاما الشمس والقمر فأسماؤها كثيرة جداً غير انهـــا لم تشتهر عندنا وليس ذلك باول ظلم فعله الناس في حق اللغة كما بيَّنته في كتاب آخر ثم هذه جملة الاسماء والصفات التي وضعت لامّ ام سويد وقد بذلت الجهد في استقرائها وهي الاثيثة الخَبَنْداة الراجح الرَّجاح الرَّداح الدُلَخة البَهْيَر الشَوْترة العَجِزة العَجْزاء والمُعجَّزه الدَّهاس الدَهساء البَوْصـــاء اللفّاء الركراكه الزكزاكه الوكواكه الضِبرِك الضِّناك العَضَنّك الوَرْكاء الوَركانة الثّقال الجزلة السجلاء المكفال الهركولة المؤكَّمة الأَلياء الأليانة ومن الغريب ان صاحب القاموس ذكر الاستة والسّتاهى ولم يتكرم علينا بمؤنثها فانا انبتها هنا عن اذنه : ومن ذلـــك نفُج الحقيبة . ذات الاهداف . ذات التأكيم ذات الرضراض من نسوة بلاخ. ولك ان تقول بَلخاء وان لم يذكرها الفيروزأبادي الا بمعنى الحمقاء . هذا ما عدا ما يشير الى هذه الغبطة والسعادة من الالفاظ اشارة صريحة نحو

الجَـعباء الضخمة الكبيرة .

الجَلَنْباء السمينـة وكذا الخُنضبة والخَضْعَبة والكبْكابة والحوثاء والوَعثة .

الخِدَبّة	الضخمة .
الدِخْدِبة	المكتنزة .
السَرْهَبَة	الجسيمة .
الطُباخيّة	الشابة المكتنزة .
اللُباخيّة	اللحيمة وكذا الدِعكاية .
المُبرَندة	الكثيرة اللحم ومثلها الهُدكورة .
الثأدة	المكتنزة الكثيرة اللحم .
الشَهْمَد	السمينة العظيمة .
الرَجْراجة	التي يترجرج عليها لحمها .
الضّمْعَج	المرأة الضخمة التامة .
البَيْدَح	البادن وكذا البَلَنْدح .
الدّحوح	العظيمة .
الدُمْلحة	الضخمة التارة .
الصَلدحة	العريضة .
البيدحة	التارّة .
المُرمورة	الناعمة الرجراجة .
الدخوص	الممتلئة شحماً .
الرّضراضة	الرجراجة .
البلِز	الضخمة .
الدَحلة	الضخمة التارة .
الدُحلة	السمينة ومثلها الجَمُول .
الرّبِلة	العظيمة الرَبَلات .
القِصاف	العظيمة .
المُزنـّرة	الطويلة الجسيمة .
المُلعّظة	السمينة الطويلة الجسيمة .
الهَيْكلة	العظيمة .

الضُناكة	الصُلبة المغصوبة اللحم .
الكِناز	الكثيرة اللحم الصلبة .
المُنبزّرة	المتصلبة المتشددة .
المُلزّزة	المجتمعة الخلق الشديد الاسر .
الخَنْضَرف	الضخمة اللحيمة الكبيرة الثديين .
القَبْبَلِس	المرأة الضخمة ومثلها المُشْخَنة .
الشخِيصة	الجسيمة .
الدّيّاصة	اللحيمة القصيرة .
العانك	السمينة .
العَبَيلة	الغليظة .
المألة	السمينة الضخمة .
الوَرِهة	ورهت المرأة كثر شحمها .
وخَظيةبظية	سمينة مكتنزة .

وغير ذلك مما لا يمكن استقصاؤه . فهل لجنـــاب مولانا القاضي المكرم ولاميرنا المعظم نصف هذه الاسماء والنعوت . انتهى البرهان على الخطـــأ في استعمال هذه العادة . واقول الآن انـــه لما كان ما كان من الادبار المشار اليه ترضاها الفارياق في الصباح للسفر واعانه على ذلك الخرجي وامرأته ووعدوها برؤية اشياء بديعة في الجزيرة تنسيها مكارهالفراق . فرضيت بعون الله وحسن توفيقه وسافروا في سفينة النار . وقـــد لطف الله تعالى بان القى القسوة في قلب الربّان عليها . فكان اذا سمعها تئن من الألم يغضب ويزجر ويتسخط على النساء وسفرهن . غير ان بعض الخدمة وكان جميلا حاول ان ينوب عنه فلم يتمّ له ذلك لقصر المسافة اذ كانت عبارة عن خمسة ايام . وهي في البرّ كافية لتصبيّ خمس بنات وعشر نساء متزوجات وخمس عشرة ارملة . ثم وصلوا الى معتزل الجزيرة واقاموا فيه ثلاثين يوماً وبعد ذلك دخلوا البلد ونزل كل منهم منزلاً لائقاً به .

٦

في وليمة وأبازير متنوعة

واخذ الفارياق وزوجته يطوفان في شوارع المدينةوهما في زي اهل مصر. وقد اتخذ هو سراويل واسعة يلتفّ عليه اسفلها من امام ومن وراء عند المشي . والتحفت هي ببرنس ليغطي كميها اذا كانا يكنسان الارض . فجعل المارّون واصحاب الدكاكين يتعجبون منها ولم يكونوا يعرفون زوجته انها امرأة . فكان بعضهم يقول ارجل هذا ام امرأة وبعضهم يتعقبها . وبعضهم يلمس اثوابها ويحدّق في وجوههماويقول ما رأينا كاليوم قطّ شيء لا هو رجل ولا هو امرأة فصادفهما رجل من حذّق فقهاء الانكليز يقال له استيفن . فتفرس فيها فعرف ان الفارياق رجل وان الفارياقية امرأة . فتقدّم اليهماوقال لهما هل لكما يا رجل ويامرأة ان تتغدّيا عندي يوم الاحد القابل . قالافضلت قال ان داري في عِبْر البحر في محل كذا فهلمّا الينا في الصباح قبل الغداء .

فلما كان يوم الاحد ركبا في زورق وقصدا منزله فوجداه قد استعد للخروج فكأنّه اراد ان يأتي ببعض معارفه للفرجة على ضيفيه والظاهر انه سكر في الطريق او عند اصحابه فلم يعد . فلما رآهما قال لهما قد وجب عليّ ان اذهب في قضاء مصلحة . ولكن هذه زوجتي وهؤلاء بناتي فاستأنسا بهن ريثما اعود ونتغدى جميعاً قالا لا بأس ثم قعدا مع زوجته . وكان في المجلس شابّ من الانكليز يناغي احدى بنات الفَرَضي وهو آخذ بيدها . ثم جعل يبوسها بحضرة امها والزائرين . فاصفرّ وجه الفارياق واحمرّ وجه زوجته وبرقت اسرّة الام . فقالت الفارياقية لزوجها كيف يبوس البنت هذا الفتى وما يستحي منا .

فقال لها ليس البوس عند الافرنج مما يعاب . فان الزائر منهم اذا دخل بيت احد من اصحابه تعيّن عليه ان يبوس زوجته وبناته جميعاً ولا سيما اذا كان في يوم عيد . على ان باس عندهم قد ترد بمعنى ما يراد بعدها ولكن هذه عادتهم . قالت ولكن هلاّ يستحي منا حال كوننا غريبين عنه . قال اذا كان الشيء مباحاً كانت اباحته امام القريب والغريب على حد سواء . او لعل الرجل قد ظن انّا لا نعرف هذه الصنعة في بلادنا . قالت ما اجهل من ظن هذا فان القبلة عندنا لا تكون إلا مع زفير وتنهّد ومصّ وشم وتغميض العينين . فاما هذا فاني اراه يرفّ خلوّاً من احساسٍ فعل المستخفّ بما تحت يده . قال قد يظهر لي من القاموس ان المكافحة والملاغفة والمثاغمة واللثم والفَغْم والكعْم والتقبيل انما هو بوس الرجل المرأة في فمها او التقامه له بمرّة فقالت حيّى الله العرب ائمة القِبلة والقُبلة . فان تقبيل الجبين كما يفعل هؤلاء لا معنى له . ولكن لمَ كان التقبيل في غير الفم والخدّ خالياً عن اللذة التي يحسّ بها المقبّل في هذين الموضعين ؟ قال لان الظمآن لا يرتوي من وضع فمه على اعلى القلة او على جنبها . قالت فعلى ذكر الظمأ لمَ تصف الشعراء الريق مرة بانه حلو ومرة بانه يروي الظمأ وهو خُلف؟قال لعل ذلك من مشكلات الشعر او من معضلات النساء . قالت فعلى ذكر المشكلات والمعضلات هل يستطيب العاشق شرب الرضاب من غير الفم ؟ قال اما عند بعض العرب فلا يبعد واما عند الافرنج فينكرونه حتى من الفم . بل لا يعرفون له اسماً غير البصاق . قالت فعلى ذكر اختلاف الاسماء ما يقال لهذه الامّ التي ترتاح الى رؤية ابنتها على مثل هذه الحالة هل يقال لها قوّادة . قال انما القيادة في الاصل صفة الرجل اذا كان يقود على حرمه . قالت ان وقوع هذا الامر في شأن الام اكثر منه في شأن الرجل . اذ الامّهات تنشرح صدورهن عند مشاهدة عاشق لاحدى بناتهن . لان الام عند رؤيتها عاشق بنتها تعتقد ان العاشق لا يرى في البنت جمالاً الا ويراه في امّها حالة كونها هي الاصل . وانه لا يكاد يحب الفرع دون محبته لاصله . ثم تماديا في الحديث حتى حان الظهر فاقبلت احدى بنات الفرضي وبيدها كسرة خبز وقطعة جبن وجعلت

تأكل وهي واقفة . ثم تولت وجاءت أخرى وفعلت مثلها . وكان للفقيه المذكور سبع بنات وعدة صبيان . فلما مضى ساعتان بعد الظهر قالت الام للمدعوّين لعلكما جعتما فان وقت الغداء قد فات . زوجي ابطأ . قالا ننتظره الى ان يجيء . فلما صارت الخامسة اطن جرس الاكل ليجتمع المتفرقون من اهل البيت كما هي عادة ذوي العيال من الانكليز . ثم مضت ساعة واعيد اطنان الجرس وما زالت الساعات تمضي حتى تجزت الساعة الحادية عشرة . وفي خلال ذلك كانت الام تتفقد المطبخ وتسار البنات كانما نزل بهن نكبة البرامكة . فقال الفارياق لزوجته ان لم نذهب الان لن نجد بعدها زورقاً ولا مبيت في هذا العبر يصلح بنا . ثم نهضا ومسّيا على صاحبة البيت وركبا في زورق ودخلا البلد عند نصف الليل فتعشيا في بعض المطاعم عشاء في ضمنه غداء .

ثم لما كان بعض ايام قليلة قالت زوجةالفارياقله رأيت في هذا البلد احوالاً غريبة . قال ما هي؟ قالت اني ارى الرجال هنا لا ينبت في وجوههم الشعر ولا يستحيون . قال كيف ذلك ؟ قالت لم ارَ في وجه احد منهم لحية ولا شاربا فهل هم كلهم مرد . قال اجهلت انهم يحلقون وجهوهم بالموسى في كل يوم ، قالت لاي سبب ، قال حتى يعجبوا النساء فانهن يحببنالخد النقيالناعم قالت لا بل المرأة يلذ لها من الرجل كل ما دل على الرجولية ، وكثرة الشعر في وجه الرجل هي كعدمه في وجه المرأة . قال وما معنى قولك انهم لا يستحيون هل طلب احد منهم منك فاحشة. قالت ما وقع ذلك بعد ، وانما اراهم يحزّقون سراويلاتهم حتى تبدو عورتهم من ورائها ، قال وذلك مما يلذ للنساء على مقتضى تقريرك . قالت نعم ان هذا الزيّ اقر لعين النساء من زي العرب. فانه يظهر الفخذين والساقين والبطن والعجز غير ان المغالاة فيالتزنيق مخلة بالادب عند من لم تتعوّد عليه وان يكن في نفس الامر احسن وافتن . ولكن ما شأن هؤلاء القسيسين فاني أراهم اكثر مغالاة من العامةبتبابينهم هذه القصيرة فهذا لا يليق برتبتهم . واقبح من ذلك حلقهم شواربهم مع ان الشوارب هي زينة لوجه الشاب كما ان اللحية زينة لوجه الشيخ . فما الذي

اغراهم بهذه العادة وهم ليسوا متزوجين حتى يعجبوا نساءهم ؟ لعمري لو أن احداً منهم ذهب الى مصر لظنه الناس بعض هؤلاء المخنثين المدعوّين خَوَلا الذين ينتفون شعر وجوههم ويتحففون تشبهاً بالنساء فاخزى الله كل رجل يتخنث قال فقلت وكل امرأة تتذكر . قالت نعم وكل من يتبع العادات الفاسدة. أنظر العادة هنا كيف جعلت حلق الشعر علامه على الفضل والكمال وعندنا هو سمة النقص والفساد .

قال صدقت ولكن اريد ان اسألك عن شيء من حيث ان الكلام افضى بنا الى ذكر ما يشوق الرجل من المرأة وما يشوق المرأة من الرجل. ومن حيث اني اراك قد نشّمت في علم هذه الفروق فقولي لي بحق السطح (وكان من عادته اذا سألها عن امر مهم ان يحلفها بسرّ السطح الذي كانت تصعد عليه قبل الزواج) وأصدقيني فيما تقولين هل لذة المرأة حين تنظر الى جسم الرجل كلذة الرجل حين ينظر الى جسم المرأة؟قالت هما سيّان ولعلّ الاولى اعظم . قال فقلت كيف ذلك والرجل لا نعومة لبدنه ولا ملوسة . وقد خصت المرأة بمحاسن كثيرة خلا عنها الرجل وذلك كرقة البشرة ودقة الاصابع وتسوية البنان والانامل وقد شبهت بالعِسْوَدّة والاساريع والعُذْفوط والعَنَم . وكالدّسْع ولين الكَعْس والدّخيس والرواجب وتغطية الرواهش باللحم بحيث يبدو في كل اشجع نونة . وكلطف اليدين وصغر الرجلين ورخاصتها . وامتلاء الرسغين والكعبين وسهولة المشطين . ونعومة العرْش والعسيب ، وجدل الذراعين ومكر الساقين وعظم الحماتين ودملجة الداغصتين . وضخم الوركين والماكمتين والفخذين والبتيلة والبطن. وكنحول الخصر ولطف الكتفين وانحطاط المنكب وصقل الترقوة والترائب والمفاهر. وكالعَنَط والعَطَف وصلاتة الجبين وطول الشعر . وكونها رخيمة الصوت ذات نشر خالية عن الحارّ والرّيَش والغفر والشُّربة والأسب[1] وكون اذنها صَمْعاء حَشْرة مشرت تَدْمُرِيّة او

---

(١) العسودة دويبة بيضاءيشبه بها بنان العذارى والاساريع دود بيض حمر الروس يكون في الرمل وفي واد يعرف بظبي الواحد اسروع والعذفوط دويبة بيضاء ناعمة يشبه بها اصابع

مقذّذة او مؤلّلة مُصعْنعّة. وما احلاها يا عيني مشنّفة .واعظم من ذلـــك كله وابدع بروز النهدين ونهودهما . وحَجْمهما ونفجهما. وتكعبهما وتكعثبهما واصرئبابهما وتأوّبهما وتقعبهما وتكبثّهما . واكتيتابهما وتقببهما وتأتبهما وتزيبهما. وتدملكهما وتدملقهما وتزلّقهما وتزهلقهما . وسملكتهما وصعلكتهما . وزَهَلهما وتضافطهما. وتفلكهما وتدملجهما وتمذجهما وتصعنجهما ورتوبهما ونبوتهما. وخظوّهما وتوبهما. ونتوبهما وكعوبهما. وتموكهما ودموكهما. وبزوغهما وصبوغهما . وشخوصهما ودخوصهما ونتوؤهما ونعوجهما وتكوّفهما وتقبيهما ، وتخذّيهما وتكظّيهـــما . وتوهّجهما وتعلجهما ، وتصدرهما وتضبيرهما ، وانتبازهماوتكوّزهما، وتعرّزهما وتلززهما ، وتملها وتشرزهما ، وتعلدهما وتغدهما ، وتأصصهما وتدلصهـــما ، واجعانهما وتنشزهما ، وتجبنهما وتشزنهما ، وتكتلهما وتلملمهما وتزيمهما وتركركهما وارتكاكهما وتشويكهما وترهرهما وتلوّههما . واندماجهما وانفراجهما واقبالهما واعبالهما . وارتبازهما واكتنازهما ، ونصّهما وعصهما. ودَأضهما وَضنَطهما وقد قيل لهما من جملة اسماء كثيرة المرازان لاحتمال رَوْزهما باليد او الفكر . وشبّها بالرمان والقرموط . وشبّهت حلمتاهما بالسعدان . وقد – قالت قف هنا فقد اسهبت في وصفهما وفاتك احسن ما يراد منهما قلت افيدي . قالت لو جئت بكلمة تدل على التقامهما او قفطهما لكانت خيرا من كثير من هـذه الصفات ، قلت ليس الذنب عليّ في ذلك فاني لم اجد هذه الدرة في القاموس. ثم قلت هذا وان المرأة اذا كان في وجهها شعر ناعـــم او زغب ولا سيما على شفتها تستحب عند جميع الناس . فامـــا الاجرد منا او السناط والاَزطّ فمكروه عند الله والناس ، قالت امّا اوّلا فلانّ المرأة من حيث كانت تعلم

الجواري والعنم شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبّه بها البنان المخضوب والدسع خفاء العرق في اللحم والكعس عظام السلامي وعظام البراجم في الاصابع والدخيس لحم باطن الكف والرواجب مفاصل اصول الاصابع او قصبها والرواهش عروق ظاهر الكف والعسيب ظاهر القدم وهو ايضاً عظم الذنب والعرش ما بين العير والاصابع من ظهر القدم والمفاهر لشم الصدر والعطف طول الاشفار والحارّ شعر الانف والريش شعر الاذنين والغفر شعر العنق والقفا والسربة الشعر وسط الصدر الى البطن والداض السمن والامتلاء وان لا يكون في الجلود نقصان .

أنه لا شيء في الدنيا يسدّ عندها مسدّ الرجل كان يشوقها منه ادنى شيء ، حتى لو نطقت مثلا امام امرأة بالرّ بعدقولك اعوذ بالله من الشيطان لسبق وهمها الى الرجل ، فعلاها على الفور الاصفرار او الاحمرار بحسب توجيهات خواطرها اليه. وكذا لو ابتدأت بنطق الرّبعد قولك بسم الله. فقلت اللهم لطفك وعصمتك. هذا قرحان الطبع وقريحته فكيف بيانعه . ثم قالت اما الصفات الحسنـــة الموجودة في المرأة دون الرجل على ما ذكرت انت وشبب به الشعراء وتباهى به المصوّرون فعدم وجودنا فيه ليس بمانع له من ان يحبّ لان المرأة تعلم انه لا شيء يقر عينها غير الرجل فوجوده على اية صفة كانت مشوّق لها كما ذكرت آنفاً . الا ترى ان نساء السودان يحببن رجالهنّ ابلغ من حبّ النساء لبعولتهن في بلادنا وغيرهـــا . ومَثَل ذلك مثل من عنده كتب كثيرة فيها حكايات ونوادر مختلفة . ومثل آخرَ مـــا عنده الا كتاب واحد يطالعه . فصاحب الكتب الكثيرة تراه منتقلاً من كتاب الى آخر حتى يأتي على اخرها ومـــا علق بذهنه منها شيء . ثم يملّ من اعادة قراءتها. وصاحب الكتاب الواحد من حيث كان يعلم انه اذا فرغ من كتابه لا يجد آخر فاذا طالع صفحة منه لن ينتقل منها الا بعد ان يمعن النظر فيها . ويحدّس في معانيها . ويحفظها ويعيها ويترسمهـــا ويتذكرها . ويتمثلها ويتدبرها . ويمتحنها ويتوقها. ويتصورها ويفلّيها ويطفّلها . وانما ضربت لك المثل بالكتب لاني اراك مبتلى بالمطالعة وعندي امثال كثيرة غير ما ذكرت . وبعدُ فـــان في الرجل محاسن كثيرة ذاتية ليست في المرأة . منها فردسة صدره والزّبب عليه . وارتفـــاع كتفيه وسعة صدره وشطط قوامه وشبح ذراعيه وكثرة العضل فيها وعظم يديـــه وكونه قوياً شديداً جَلْدبا زخْزُبًّا شَصْلبا شَنْزبا عِرْزَبّا عُصلبا كنثبا قَسْباقَزبا قَعْنبا هَقَبْقبا إصْليتا صِفتيتا مِصتيتا صنتيتا قنعاتا عَلَنْكدا قِسْوَدّا أزْبرُجحا شِرا ذَيْمريّا سِبَطْرا قَبَعنرا عَبنهرا عَشَنْزرا قَوْعسا صُملاّ عَبَنْبلا جرهامّا بُهْمة حُسَميّا شَيَنْظا عُجْرما عَرْزما عَرْضمـــا عُرْدُمـــانا عَشَرّما فُسْحُما شَرَنْبثا قاهيا قِنْعاسـا مُجَلجـــلا

ذا جهـــارة وجُشّة [1] . فهذه كلها نعدّها نحن النساء محاسن في الرجل . وفيه محاسن اخرى اعتبارية وهي صعوده المنبر مثلا خاطباً . وركوبه الجواد وتقلده السلاح . وما احسن الرجل اذا مشى وسيفه يمسّ الارض . ثم قالت لو كنت اعرف القراءة والكتابة لالتفت على الرجال والنساء أكثر مما التف في جميع العلوم ذلك الشيخ الذي ذكرت لي اسمه سابقاً وقد نسيته لكونـه ميتاً . قلت هو الامام السيوطي رحمه الله . قالت نعم اكثر من السيوطي ومن جميع السوطيين . قلت ومن المسوطيّين ايضاً . قالت ولكن الذنب على من غادرني بغير تعليم . لان العرب يزعمون ان علم القراءة مفسدة للنساء . وان المرأة اول ما تستطيع ضم حرف الى آخر تجعل منهما كتاباً الى عاشقها . مع انهـا لو خلّيت وطبعها كان لها من حيائها وحشمتهـا عاضل اشدّ من الاب والزوج . بخلاف ما اذا حُظرت وحُجرت فانهـــا لا تنفك تحاول التملّص والتغصي مما حُصرت فيه . فمثلها كمثل الماء كلما زاد انبعاثاً وجرياناً زاد صفاء وانسياغاً . او كمثل السائر المسرع فانه كلما زاد اسراعـــاً زاد حسّه ببرودة الهواء اكثر . قال فقلت في نفسي والله لقد احسنوا لو انهـــا تعلمت القراءة والكتابة لما بقي في شعري بيت الا وشطّرته وخمسته على غير ما قصدت . اللهم انقل معارفها الى ما يفيد واكفني شرّ المزيد .

حاشيـــة من مرادف القوي الشديد او الصلب الشديد ومـــا في معناهما العَنْعَث الكُنْبث الكُنْدث المِكلث المِلْيَث المَغِث العُضافـج العَفَضج العُلّج الهَمَرّج الصَلَوْدح الصَلَنْقَح الصَمَحْمَح الصَمَيْـــدح الكِرْدح الكَلَنْدح الدَحْوح الجَلَنْدي الجَلَنْعـد الجَلْمد الصَلَّخد الصَمَقد الضَهْيد العِرْبَد العَصْلد الأقـــود الذِفِرّ الذمِرّ الذِمِري الزِبِر الزِمِرّ الصَمَعَرّيّ الصَّبِر الصِبَطْر الضَبَغْطَري العَيْزار العَشَنْزَر القَبَعْثَرَي القناصـــر الكُنابر التيـــز الجُلَبز الجُلافِز الخُزاخِز التِّرامز الدَّخْـــز الضُبارز العَضَمَّز العِلْكز العَلَنْكز الفِيَزّ القِلِزّ الكِلِزّ المَزّز الحُمارس الدَخْنَس

(١) سيأتي مرادف هذه الالفاظ في آخر هذا الفصل .

الدُّراهس الدَّلَهْمَس المتشمس العَتْرَس العَكَنْدَس العَمَرَّس القلمَّس
القُنَاعِس الهكَلَّس الهملَّس الفُرافِص الكَيِّص المتخمِّط الضَّبَنْطَى
الضِّفَطّ العملَّط المعلَّط الضَّلِيع الصِّنِّق الدَّمَكْمَك الصَّمَكِيك الصَّمَلَّك
العَبَنَّك العَرَك الجَنَعْدَل الحُوَّل العَرَنْدَل العُنُثُل الكَمَتَّل الكُنُبل
الكَنَهْدَل النَّبَتَل البُهْصُم الدِّلَظْم المِرْجَم الضِّرْغامة العَرَنْدَم الفيَّم القِرْشَم
الهَيْزَم الهَيْصَم .

٧

في الحُرتــــة

قد كان الكلام في الفارياق حالة كونه فردا ُمبْرِما فكيف به وقد صار الآن زوجاً . فأرى الآن تركه على الحالة الزوجية اولى.لان حديثهما هذا كان في الليل فلا ينبغي التكدير عليهما فيه الى أن يصبحا ويذهب هو الى معبّره اي موضع التعبير الذي عين له . ولعل الجناب الكريم ايضاً متأهب بعد حُرْتة هذه الابازير الى الفراش . فارقد هنيا . وان حلمت ليلتك شيا فابلغه مسامع الفارياق فانه اصبح اليوم من كبار المعبرين

٨

في الاحلام

ها هو الفارياق جالساً على كرسي وامامه مائدة عليها كتب كثيرة ليس بينها صحفة من الطعام ، وبين اصابعه قلم طويل وبين يديه دواة فيها حبر كالزفت . وقد شرع في تفسير احلام رآها رئيس المعبر في منامه . الحلم الاول رأى الهالج المشار اليه انه سافر الى بلاد الهند فوجد فرسا في الطريق طاعنة في السن ولا سرج عليها . فلما رأته الفرس دنت منه ووقفت وهي تحمحم فجاوزها ببعض خطى واذا بها جرت وراه فلما ادركته وقفت ايضاً فقال ان لهذه الفرس شأناً . اني اريد ان امسك بناصيتها لانظر ماذا يكون من امرها . فلما مسّها تطأطأت له كالمشيرة اليه أن اركب ولا تخف لعدم السرج. فركبها حيث كان قد اعيا من المشي وسار غير بعيد . واذا هو بدكان سروجي فنزل عنها واشترى لها سرجاً ثم ركب وسار في مضيق حَرج فيه اشجار كثيرة . فنشب في رأسه بعض اغصان الشجر ومنعه من السير . فحاول ان يتقدم فلم يمكن له واشفق ان يهمز الفرس للاقدام فوقف يتفكر فيما عرض له وهو متعجب جدّاً . واتفق انه مدّ يده وقتئذ ليحك رأسه فاذا به قد نبت له ستة قرون ، اثنان من امام على كل صدغ واحدٌ واثنان من خلف واثنان في الوسط ، وكان ذلك الغصن مشتبكا بها كلّها . فتوصّل الى ان قطع الغصن من الشجرة لكنه بقي ناشبا في القرون . ثم سار وهو على هذه الحالة فكان كل من رآه يتعجّب منه ويقول انظروا هذه القرون الستة في رأس هذا الرجل ، وهو غير مكترث بهم ، حتى اذا دخل في مأزق مظلم تشرف عليه صخور

وجنادل صدم بعض الصخور اربعة من القرون . فانكسرت وسقطت وبقي له قرنان من امام فقط ، ولكن كان احدهما يميل الى الثاني ويماسه ثم صارا يتحاكان ويصطكان وكلما اصطكا سُمع لهما صوت عظيم، فاقبلت الناس من بعيد تنظر اليه وتتفرج عليه . فلما ضاق بهم ذرعا ورأى كثرة الزحام مانعة له من السير عزم على الرجوع، فأبت عليه الفرس ذلك وصارت تثب وتطفر قُدُما وكلما ركلها برجله ازدادت وثبا وتقدما . فنظر اليها كالمتعجب منها فاذا بلونها قد تغير عن اصله . فقال في نفسه لعل هذه الفرس غير الدابة التي ركبتها اولا ، فنزل عنها ليكشف عن سنها. فلما اراد ان يضع يده في حنكها رفسته وكدمته كدمة شديدة غشي عليه منها. قال فكأنّ الفرس حين ابصرته مجندلا مصروعا رقّت له فجعلت تنفخ في منخريه وتلحس مواضع القرون المكسورة منه حتى افاق قليلا . فطفق يئن ويجأر بالدعاء إلى الله لان ينجيه مما الم به . فاشارت اليه الفرس براسها انِ اركب لنرجع من الطريق التي اتينا منها . فقام متجلداً وركب فلما وصل الى ذلك الموضع الحرج نبتت فيه تلك القرون المكسورة وعادت كما كانت فكان يلمس عليها وهو سائر . فلما امسى عليه المساء نزل في خان ليبيت فيه ليلته تلك . وامر صاحب الخان بان يُعنى بدابته ويحضر له ولها عشاء . ولما انتبه صباحاً وجد السرج قد سرق . فقال لصاحب الخان قد فقدت عندك سرج فرسي وما يتأتى لي ان اركبها بدونه . قال بل انت مبطل فيما تدعيه فانك حين قدمت كنت معرورياً لها . فلجّ بينهما الخصام وتماسكا بالجيوب . فلما علم انه لا ينتفع بشيء رضي من الغنيمة بالاياب . وقام الى الفرس وركبها وبقي سائراً الى المساء فوجد خاناً آخر في الطريق فبات فيه . فلما اصبح الصباح واراد ان يركب لم يجد اللجام . فجرى له مع صاحب الخان هذا ما جرى له مع ذلك ثم بات الليلة الثالثة في محل آخر وعند الصباح وجد فرسه بلا ذنب .. وبقي كلما بات ليلة يفقد عضواً من اعضاء الفرس حتى بلغ مدينته ساعياً على القدم وغابت عنه الفرس بالكلية . فاما القرون فزال منها اربعة بزوال الفرس وبقي منها الاثنان المتقدمان .

تعبيره

لما القي هذا الحلم القرني على الفارياق اخذ يعبث بشاربيه على عادته ويفرك جبينه بيده ويزوي ما بين عينيه . الى ان اهتدى الى تعبيره فكتب بجانبه ما صورته . هذا ما عبّر به العبد الذليل المسمّى بالفارياق لجناب المولى المكرم السيد ذاهول بن غافول عن حلمه الذي رآه في منامه . ان الفرس كناية عن امرأة . والمشي والاعياء كناية عن العزوبة . والسرج كناية عن ادب المرأة . واللجام عن عرضها . والمكان الحرج كناية عن الولائم والمآدب والزيارات التي يتجشمها المتزوج ويدخل فيها رأسه ورأس امرأته . والغصن كناية عن بعض المدعوين الذين ينشبون في الزوجة . والقرون كناية عن الحالة الزوجية التي يكون عليها الرجل والمرأة . ونبتها واضمحلالها كناية عن تغيير تلك الحالة ورجوعها الى ما كانت عليه . ومبيته في الخانات عن سفره بزوجته . وغياب الفرس كناية عن فقدها . وباقي الحلم مفهوم بالفحوى والله اعلم . فلما اخذ التعبير وامعن النظر فيه مليّاً رجع الى الفارياق عجلاً وعلى طلعته آثار الغيظ وقال : ان في تعبيرك خطأ من وجوه . الاول ان عبارتك موجزة بخلاف عادة المعبرين . والثاني ان الفرس ليست كناية عن المرأة فان المرأة عندنا لا تكون دون الرجل اي تحته بل هي اعلى منه . فيجب ان يكون تعبيرك بحسب اصطلاحنا لا بحسب اصطلاحكم . والثالث ان اللجام لا يكون كناية عن عرض المرأة فان اللجام انما يوضع في الفسم وعرض المرأة لا يكون في فمها . ولكن ينبغي الان ان تدع هذا وتأخذ في تعبير الحلم الثاني. فاجتهد في التحرير والاسهاب . فعسى ان تصيب وتحرز الثواب .

٩

في الحلم الثاني

رأى صاحب المعبّر اطال الله بقاه . وعظم مقامه بين الهالجين واعلاه . انه اراد يوماً ان يكتب خطبة يتلوها على القوم في يوم عيد . فاخذ القلم والقرطاس وكتب حرفاً واحداً واذا بامرأة تدعوه من حجرتها ليجوربها . فترك الكتابة وحفد اليها . فلما جوربها ورجع رأى ان قد ضُمّ الى ذلك الحرف حرف آخر بحبر غير حبره . فقال في نفسه ترى من دخل حجرتي وخط هذا الحرف الذي ناسب ما اردت من المعنى . ثم اخذ القلم وكتب حرفاً آخر واذا بامرأته تدعوه ليربط لها شراك نعلها . فقام اليها وفعل ما امرته به ورجع فوجد حرفاً آخر قد اضيف الى الثلاثة الاولى حتى تمت به الكلمة فزاد تعجبه من ذلك . ثم اخذ القلم وكتب كلمة تامة واذا بامرأته تدعوه ايضاً ليمشطها الكُعْكُبة او والله اعلم المقدّمة . فقام ومشطها برفق ولين ثم رجع فوجد كلمة تامة اضيفت الى كلمته متلائمة بها . فاخذ القلم وكتب كلمتين فدعته امرأته ليجمرها . فترك الكتاب وقام ولما رجع وجد كلمتين تامتين . فلما تكامل له سطر دعته امرأته ليعقد لها عظامتها . ثم رجع فوجد سطراً يحملته . حتى اذا تكامل له صفحة دعته امرأته ايضاً ثم رجع فوجد صفحة كاملة . وعند انتهاء الكراس وجد كراساً وقس على ذلك الى ان كمل الكتاب . وكانت امرأته قد فرغت من تفخّلها وزينتها . فحمل الكتاب اليها واخبرها بما جرى له ففرحت بذلك فرحاً لا يوصف . وقالت له انما حصل هذا ببركة خدمتك لي ومساعدتك اياي على الباسي . فينبغي يا عزيزي ان تواظب عليها . فلما كان في الغد فعل ما فعله امس من الكتابة

والخدمة ووقع له فيها عين ما وقع له اولاً . فزاد سرور كل منهما به . فلما حان العيد صعد الى المنبر وتلا الكتاب الاول فادهش السامعين ببلاغته وانسجام عبارته ودقة معانيه ، حتى اذا فرغ اخذ الناس يطرئون عليه ويقولون له ما طرق مسامعنا كلام ابلغ من كلامك قط . فقال لهم هذا بيُمن الشراك فلم يفهموا ثم رجع الى بيته مبتهجاً متهللاً واخبر زوجته بما جرى . فقالت له اني نصحي لك يا عزيزي ان تجتهد في الخدمة والكتابة فاذا تكامل لك خمسون كتاباً نقصد بها بعض البلدان البعيدة فتتلوها هناك . لانه لايمكن لك في هذا البلد ان تتلو خطبة الا في يوم عيد والاعياد هنا غير كثيرة . ويكون من الخسران ان تبقي هذه الكتب الجليلة غير متلوّة . فقال لها الرأي ما رأيت . ثم انهما تجهزا للسفر الى بعض البلاد المشرقية ومعهما تلك الكتب قد ضمّنت صناديق من خشب الساج نفيسة وانفقا عليها مبلغا جزيلا. فلما بلغا طيّتهما اكتريا لهما دارا رحيبة مطلة على الحدائق الناضرة . وارسل منادياً ينادي في الاسواق ان احضروا يا قوم خطبة المولى ذاهول بن غافول في يوم كذا وساعة كذا. ليسمعكم من المعاني البديعة ما لم يطرق مسامعكم قط. فحشدت اليه الناس افواجا افواجا ولما استقروا في المجلس صعد سلمّا كان قد نصب له فيه . وفتح ذلك الكتاب الاول الذي كان اعجب به قومه واذا به ممحو لم يشتمل الا على الحروف التي كتبها بيده.فحاول ان يصل بعضها ببعض ليستخرج منها معنى ما فلم يمكن له . فنزل عن المنبر خجلا وهكذا انتبه من نومه .

التعبير

هذا ما يعبره العبد الفقير الفارياق للمولى ذاهول بن غافول . ان ما توهمته من ضم الحروف والكلمات والسطور والصفحات والكراريس والاسفار الى كلامك الذي اعجب به قومك لم يصلح في غير بلادك لارتباطه بربط العظامة والشراك. والله اعلم فلما بلغت هذه العبارة للمشار اليه اقبل الى الفارياق وهو يخبط الارض برجله ويشمخ بأنفه قائلا . هذا التعبير افسد من التعبير الاول .

وهذه العبارة اخصر من تلك فلا يكاد احد يفهم ما تقول . واذا كان تعبير الاحلام غامضا مبهما كالاحلام فلا موجب لاستخدام معبرين وتكليف النـاس قراءة ما لا يفهم. فقال له الفارياق هكذا جرت العادة في بلادنا التي هي معدن الاحلام ومنبت التعبير. فان رؤوسكم تكتسب هذه الخاصية الا من رؤوسنا . ولولا نحن لما عرفتم ان تحلموا مدة حياتكم كلها ولا حلماً واحداً . قال فكأن الرجل انتبه من غفلته وسكن من ثورتـــه . ثم قال قد بقي عليك الان حلم واحد فهاكه .

١٠

في الحلم الثالث

رأى صاحب المعبر اطال الله مدة نيابته عن الهالجين . وحقق احلامه مع الفالجين . أن قد نصب له ذات يوم سلـّم عال يشتمل على مئة درجة ليصعد اليه ويخطب القوم من اعلاه . فلما حلق لحيته وشاربيه ولبس ثيابه السلـّمية ارسل من جمع القوم الى موضع معيّن . وكانوا كلهم قـد علموا بذلك من قبل وسبقوه اليه لما انه لبث ساعة ينتظر امرأته حتى تقوم من الفراش فيرعـّمها ويعانقها قبل توجهه . ثم تأبّط كتابه واقبل يجري الى ذلك الحشد العظيم ولم يلتفت يمنة ولا يسرة . فلما بلغ الموضع ورأى السلـّم منصوباً والناس مجتمعين حوله كاد يطير من الفرح . فقال في نفسه هذه فرصة ما سمح الزمان لغيري بمثلها . فسأردّ اليوم هؤلاء القوم الى بيوتهم بقلوب مثل قلبي واخلاق كاخلاقي. ولو لم اعمل من الصالحـات غير هذا لكفى . فقد كُتب اجري عند الله. ثم تمادى في الافكار . وثمـل من الاستبشار . واستقبل السلـّم وهو مدهوش . وما كاد يصل اليه الا وقد مدّ رجله متفشّخاً الى اول درجة منه من دون ان يسلم على احد من الحاضرين . ثم افتتح الخطبة بقوله الحمـــد لله الذي امر بنصب السلم وارتضاه له عرشاً . فسمع احد القيام هذا الاستهلال فانكره . وقال لمن كان يليه ما اظن خطيبنا اليوم الا معتوهاً . فلست اشاء ان اسمع منه اكثر من هذا ثم ولـّى. فصعد الخطيب الدرجة الثانية وقال : وجمع الناس الى هذا المحفل المبارك وكلهم فارش اذنيه للاستماع فرشاً . فسمع كلامه آخر من الوقوف فقال هذه الفقرة شرّ من الاولى . فاني لا ابالي بكون السلـّم عرشاً او نعشاً وانما اغضب لاذني ان افرشها ثم ولـّى. وما زال الخطيب يقول عند

صعود كل درجة فقرة ركيكة مثل هذه وينفضّ عنه شخص وهو غير منتبه لما شمله من الفرح الذي اذهله من رؤيتهم حتى بلغ درجـــة المئة وقد انفض الناس كلهم عنه . فلما استقر عليها التفت يميناً وشمالاً فلم يرَ احداً . فقال في نفسه قد الفت خطبتي وجمعت لها القوم . وها هم قد تولوا وبقيت الخطبة معي فما لي لا اتلوها جهراً في هذا الموضع الشريف المترفع عن نجـــاسات الارض وقذرها . فان لم يسمعوها هم يسمعها الله وملائكته . فانه يقـــال كلما بعد الانسان عن الارض زاد تقربه الى السماء . ولست ارى موضعاً يصلح للخطب اكثر من هذا . ولعلّ احداً من المارين يلتقط كلمة مما اقول فتكون سبباً في خلاص نفسه ونفوس ذويه وجيرانه ومعارفه . فان لفظة واحدة من فم واحد قد يكون فيها الموت والحياة .. ومن العيب ان اعود الى زوجتي واقول لها ان الخطبة بقيت غير متلوة . ثم انه مسح عرقه واصلح صوته وثيابه بعد ان جعل الخطبة على الكتاب وجثا يصلي قليلاً ويدعو الله لان يلهم احداً من الناس ان يمرّ به ويسمعه ثم قـــام ناشطاً مسروراً وقال . اسمعوا يا اخوتي الاحباء وانصتوا اليوم لما انا قائله لكم . واتفق وقتئذ ان مر به رجل من الشعراء الغاوين . فلما سمعه يقول ذلك ولم يرَ عنده احداً وقف وقـــال من أطلع هذا المجنون الى رأس هذا السلّم . واين اخوته الذي يخاطبهم ام عساه يكلم الجنّ في الهواء ان في هذا لعجبا . ثم صاح به انزل يا راجل ولا تعرض نفسك للهزء والسخرية اذ ليس يسمعك من عباد الله احد .فلم ينتبه له الخطيب لأنه كان شاخص البصر نحو السماء. فاعتقد الرجل بان به لمماً . فاراد ان ينزله باية وسيلة كانت وأخذ في قطع اوتاد السلم واطنابه . فلم يشعر الا والسلم قد تقوض وسقط وسقط معه الخطيب وكتابه على رأسه أي على رأس الشاعر . فتهشم كل منهما وتحطم.

التعبـــير

لا ينبغي للخطيب ان يكون ثرثاراً . وان داوم المولى الطرّاد على الثرثرة فلا يأمن من ان يسقط سقطة تدق بها عنقه والله اعلم .

فكان هذا التعبير انكى له واقهر مما تقدم وذلك لنهيه عن كثرة الكلام ولوجازة العبارة . فلما كان بعد ايام جاءه برقعة فيها ماصورته : حلمت ان رجلاً من اصحابي قد اهدى اليّ قنبيطا مما ينبت في سهل الاردنّ . فاتخذت منه عشاء وبت فرأيت اني دككت اسوار مدينة في الجوّ تشبه مدينة اريحا في حصانتها ومناعتها . فكتب الفارياق بجانبه .

اذا ما تعشّى القُنَّبِيْط جراضم رمى الجوَّ من برج استه بجلاهق
فيفعم ثقبي منخريـه عجاجهـا فيرجـع ايضاً سبكهـا كالبنادق

فطالع امرأته بذلك فقالت لعلّ الرجل قد ألف الآن هواء البلاد فاني اراه ابتدأ يصيب . وقد ذهبت عنه تلـك الحدّة التي كانت تظهر سابقـاً في حركاته وكلامه . فسأجربها انا الان بنفسي في حلم رأيته البارحة . ثم اخذت رقعة وكتبت فيها . رأت السيدة ورها زوجة السيد ذاهول بن غـافول ان بيدها قفلاً مصقولاً مجلوّاً ذا ثقوب كثيرة . وبيد زوجهـا مفتاح ذو ثقب واحد وقد صدىء . فكتب الفارياق تحته :

المرء والمرأة سيان في الميل الى العشق وحبّ السفاح
لكنّ ذا مفتاحه قد يهي وتلك مأمون لها الانفتاح

فلما اطّلعَت على المعنى قالت لزوجها هذا ما خطر ببالي قبل تعبيره . فما اقربه الان الى الصواب فخذ له هذه الرقعة الاخرى . فتناولها الفارياق واذا فيها : رأت السيدة ورهاان قد كتبت على جبين زوجها عدد اثنين . فلما ابصر نفسه في المرآة حاول ان يمحوهما . فبادرته وامسكت يده فلم يقدر الا على محو واحد فقط ولكن بقي الاخر غير ظاهر ظهوراً بيناً . فكتب تحته :

فرض على الزوج ان يكفي حليلته في كل ليل ونفل بعده يُرضي
فان تبدّل لفظ الفَرض بالرفض تبدّلت هي معنى العِرض بالعَرض

فاستحسنت البيتين جدا ثم ناولت زوجها رقعة اخرى كتبت فيها . رات السيدة ورها سيدة السيد ذاهول بن غافول انها ترى الاسود بعينهـا اليمنـى

أبيض . والابيض بعينها اليسرى أسود . فكتب تحته :

رضاء الزوج صعب اي صعب ولا سيا اذا رات المِعَنّى
فتنظر فيك كل الحسن قبحا وتنظر فيه كل القبح حسنا

فاستظرفتها وقالت لزوجها اراه يحسن تعبير الاحلام النسائية القصيرة . فاحلم لي الان يا عزيزي حلماً قصيراً واكتبه في رقعة وانا اناوله اياها لننظر هل يستمر على هذه الطريقة معك او لا . فلما كان الغد جاءته برقعة فيها . رؤي في المنام شيء مطاول . ثم ظهر لعين الرائي مستديراً ثم مطاولاً ثم مستديراً وهلم جرّا . فكتب الفارياق تحته .

قد كنت احسب هيئة الدنيا نظير الفرج اذ في القدر يشتبهان
حتى استبانوا انها كالاست تد ويراً فقلت تقارب الشَبهان

فلما اطلع زوجته عليها ضحكت وقالت اراه لا يتأدب الا معي . وانه ليشمّ الامور النسائية شما فان هو الا زير نساء . ولكن لا باس في ان تجربه بحلم آخر وبعد ذلك نرى ما الذي ينبغي ان نصنعه معه . فلما كان الغد جاءه برقعة فيها . قد رأيت ان يدا خطت على صدغي عدد ثلاثة ثم توارت . فمددت يدي الى صدغي لاحكّه فمحت من العدد سنّين فصار الباقي واحدا ذا عوج . فكتب الفارياق تحته .

تكلفني زوجي ثلاثا ولم اطق سوى صرعة والعجز من ذاك لامني
فقلبي وطرفي لا يملان بتّة كَمَهْبلها لكن ذلك لا يغني

فاخذ الجواب واقبل يهرول الى امرأته . فلما اطلعت عليه ضحكت وقالت انه لا يزداد معك الا جنونا وسفاهة - فينبغي الان ان تدعه حتى حين وقم انت الى الصرعة . فقاما اليها واستراح الفارياق منهما اياما .

١١

في اصلاح البخر

كان قد بلغ مسامع حاكم الجزيرة ان الفارياق قدم اليها لتعبير الاحلام وانه خبير بهذا الفن جداً . وان به ملكة ايضاً على اصلاح البخر . فبعث اليه ذات يوم بعض حجّابه يقول له ان الحاكم يدعوك اليه اليوم لمسألة مهمة فلا بد من أن تفد عليه . فلما حانت الساعة توجه الفارياق اليه وهو موجس من ان يكون الحاكم قد حلم حلماً حكمياً جليلا يعسر عليه تعبيره . لأن العظماء لا يحلمون الا الاحلام العظيمة . فهم منزهون عن جلاهق القنّبيط ووَهى المفتاح والصرع وغير ذلك من الاحوال الخسيسة اللائقة بالصعاليك . فلما مثل بمجلس الحاكم قال له قد بلغني قدومك الى هذه الجزيرة عند الخرجي. وانه قد ضايقك بكثرة احلامه وما كفاه ذلك حتى علم زوجته ايضاً ان تحلم مثله . فهل لك الان في تعاطي مصلحة لدينا تخفف عنك احلامه وتثقل كيسك . قال ما هي يا سيدي ؟ قال ان عندنا في هذه الجزيرة قوما بخرا لا يطيق احد ان يفهم منهم شيئاً اذا تفوهوا لشدة بخرهم.وقد سمعت انك قادر على علاجهم فهل لك في اصلاحهم ولك عندنا المكافأة الحسنة . قال الامر اليك يا سيدي ولكني كاهن المعبّر . قال اني باعث الان الى الخرجي من يخبره بذلك فلاتخش منه ضيرا . قال جزاك الله خيراً انك اهل للخير والفضل . ثم انصرف من حضرته من غير ان يرجع القهقرى.لان حكام الافرنج لا ينكرون على الرجل ان يروا منه قفاه او ظهره او بطنه لا بل بطونهم اظهر من ظهورهم .

فلما بلغ الى منزله واخبر زوجته بذلك وكانت قد ابتدأت تتهجّى قالت. بورك من يوم اني رأيت فيه بدكان جوهري عقداً نفيساً . وكأني رأيت عليه

حروفاً ظهر لي انها ك س ب ا ل ب خ ر فهل يخرج منها معنى . قال يخرج منها معنى اني اشتريه لك من الدراهم التي تحصل لي من وظيفة البخر . قالت نعم فاني كنت اسمع امي تقول لأبي ان الرجل اذا بذل راس ما يتحصل بيده من الاموال في شراء حلى ولباس لزوجته بارك الله له في ذنبها . اي في ذنب الاموال لا في ذنب امرأته . قال فما الفائدة اذاً من هذا البذل اذا لم تشمل البركة الطرفين ؟ قالت لزيادة جمال زوجته . قال اما انا فراض بما فيك من الحسن الطبيعي فلمن هذه الزيادة . قالت هي تزيدك حباً اليّ . وتبعث غيرك ايضاً على ان يحسدوك عليّ . ويتمنوا لو اني كنت لهم . قال اللهم اكفني شر المزيد . ولكن لا بد من شراء العِقد . فهو اولى من انحلال العقد . فوعدها بذلك فاتّعدت بحمد الله تعالى ولمست جيدها . فلما مضى الشهر وقبض المرتب له انجز لها وعده . فقالت هو من دراهم البخر ولكنه احسن من الندّ . لقد قسم الله بيننا اعدل قسمة خذ انت دراهم الهُلج واعطني دراهم البخر . فقد رضيت بهم . قال فقلت لها لا تقولي بهم ولكن بها . فان بهم يرجع الى البخر . قال فهينمت بكلام لم اسمعه كله وانما سمعت من آخره قولها وأي ضرر من هم. فقلت لها وأي حيزبون انت . فالتفتت الى الباب فلم ترَ احداً فقالت اين الزبون ؟ ثم استمر الفارياق في الوظيفتين المذكورتين معبّراً ومصلحاً مدة مكّنته من حل مشاكل زوجته . واتخذ له متاعاً فاخراً وآنية حسنة وصار يدعو الناس ويصنع لهم ولائم .

وكان للحاكم عادة ان يدعو جميع المعروفين في خدمته الى ليلة عيد يرقص فيها الرجال والنساء بحضرته . وكان من جملة المدعوّين الفارياق وزوجته . فلما رأت الرجال يرقصون وهم يخاصرون للنساء قالت لزوجها . هل هؤلاء النساء ازواج هؤلاء الرجال قال منهن هكذا ومنهن بخلاف ذلك . قالت وكيف يخاصرونهن اذاً . قال هذه عادة القوم هنا وفي سائر بلاد الافرنج . قالت وبعد المخاصرة ما يكون منهم . قال لا ادري ولكن بعد انفضاض الناس يذهب كلّ الى منزله . قالت اشهد بالله انه ما خاصر رجل امرأة الاّ

وباطَنَنسَها . قال لا تسيئي الظن انها عادة قد مشوا عليها . قالت نَعم هي عادة ونِعْمت العادة . ولكن كيف يكون احساس المرأة حين يلمسها رجل جميل في خصرها . قال فقلت لا ادري انما انا رجل لا امرأة . قالت ولكن انا ادري ان الخصر انما جعله الله في الوسط مركزاً للاحساس الفوقي والتحتي. ولذلك كانت النساء عنـــد الرقص والقرص في أي موضع كان من اجسامهن يبدين الحركة من الخصر ثم تنفست الصعداء وقالت يا ليت اهلي علموني الرقص. فما أرى فيه لانثى نقص . فقلت لو فتحت الصاد في كل من المصراعين لكان بيتاً مطلقاً . فقالت يا للفضيحة بين الانام . اتقول هذا الكلام في مثل هــذا المقام . قلت هيت الى البيت . فقد كفاني ما سمعت الليلة وما رأيت . قالت لا بد من أن أرى ختام الرقص . قال فلبثنا الى الصباح ثم انصرفت بهـــا فكانت تقول وهي سائرة نساء مع رجال راقصات .رجال مع نساءراقصون. راقصات راقصونراقصون راقصات. فقلت فاعلات فاعلون فاعلون فاعلات. قالت الرجال والنساء والبنون والبنات . كيف – متى – اين .

ثم بعد ايام ورد على الفارياق حـــلم مشكل في وحش ذي قرون واذناب كثيرة وشيات وبقع شتى في جلده . واراد صاحب المعبر ان يعرف تأويل كل قرن وسرّ كل بقعة.فعسر عليه ايشاؤه فذهب الى منزله مبتئساًمتسخطاً. فقالت له زوجته ما بك . قال همّ ونكد . قالت ما سببه. قال كلما تخلصت من ورطة وحلت في اخرى شر منها . قد كنت من قبل مداحاً للسري بما لم ارد ثم صرت عشير المجانين . ثم معبّر الاحلام . ثم مصلح البخر . وكل ذلك على غير ما اروم فما انكد هذه المعيشة واضيق هذه الدنيا عليّ . اليس في الارض مندوحة عن هذا . قالت خفف عليك يا سيدي ان كل انسان في الدنيا له نصيب من الحزن والهم . حتى المرأة أيضاً لا تخلو من الهمّ فدأبها كل يوم ان تزجج حاجبيها . وتكحل عينيها . وتورد خدّيها . وتخفف خطو قدميها.وتنظر في المرآةمئة مرةكيلا ترى شعرةقد انفردتعنسائر شعرها.ثم تخاطبنفسها في المرآة وتضحك وتتبسم وتُبهلس وتغمز وتلوي جيدها وعطفها

وتَتنفّس الصعداء وغير ذلك لتعلم كيف تبدو منها هذه الافعال في عيون الناس.قال فقلت اهذا وقت الجد ام الهزل انا اقول لك ان للوحش اذناباً وقروناً وشيات لا تحتمل التأويل وانت تذكرين الغمز والابتسام والتكحيل . قالت ليس في كل يوم يأتيك وحش مثل هـــذا وانما همّ النساء في كل صباح ومساء ضربة لازب . وحسبنا بالغربة همّاً وحزناً .

قالت اما انت قريرة العين هنا وقد تمتّعت بالحرّية في الخروج وحدك . وفي رؤية الناس وفي رؤيتهم لك بما لم تعهديه من قبل في دولة البرقع والحبرة. قالت انما ينغّصني كوني لا استطيع ان ابلّغ اهل مصر أي النصارى منهم قبطيّهم وشاميّهم ما يراد من الزواج مما لم يعرفوه بعد فانهم يحسبون ان الله تعالى انما خلق المرأة لمرضاة الرجل في فراشه وخدمته وخدمـــة بيته فترى طلعة الرجل منهم اذا جاء منزله وواجـــه امرأته كطلعته حين غاب عنها سواء . وانه ليقعد بعيداً عنها قعدة المستريب المتفكّن . واذا نظر اليهـــا فما ينظر الا الى شعرها ليرى هل به شعث او لا . ثم هو لا يصلحه لها امام الناس اذا شعثته الريح وغيرها . ولا يلبسها ولا يأخذ بذراعها اذا تماشيا بل قلما يمشي معها الا اذا سارت لتنظر اهلها غـيرة عليها من ان يكلمها احد في الطريق او يراها فترجع حبلى من النظر بفذّ ومن الكلام بتوأمين . فاذا حضر الطعام تعشى وهو ساكت وجم كأنما يأكل شيئاً مسموماً . وربما كلفهـــا غسل رجليه قبل النوم او تكبيسها حتى يجيئه النعاس . وفي خلال ذلك يرمش ويرضـــك ويتثاءب ويتمطى . ثم يرقد دون عَفْز ولا حفز . وكلما كان عيد لاحد مناجيف الرهبان تابّل عنهـا ويلزمها ان تقول له بحضرة الناس نعم يا سيدي . واحسنت يا سيدي . وربما كان ذلك السيد سيداً عملّساً .او كان من اكبر الحمقى وكانت هي رشيدة لبيبة فلا يسعها الاّ ان تتبعّل له.ولا يمكنها اذا رأت منه غواية ان ترده الى طريق الصواب.فقد تقرر في عقول النوْكى المآفيك ان عصيانهن النساء طاعة لله حسنة . حتى اذا وقع منكوساً على ام رأسه رجع الى امرأته باللوم والتبكيت . قال قلت

قد روى عن النخعي انه قال من اشراط الساعة طاعة النساء . فقالت كأني بالافرنج قد حشروا او يحشرون الليلة . ثم استمرت تقول واقبح من هـذا كله ان الرجل عندنا اذا كان كهلا لا يستحي ان يتزوج ببنت لم يأت عليها بعدُ نصف عمره . فاذا استقرَّت عنده شرع في تربيتها وتنبيتها وتوليدها من ذي أُنُف وعاملها بالنفاق والدهان . فقد يكون خبيثاً فاجراً ويوهمها انه ذو صلاح وتقوى يتورّع من اللهو والسماع وعشرة الفتيان الكيّسين . وما يخطر بباله ان مغايرة السنّ بين الرجل وامرأته هي من اعظم الاسباب الباعثة لها على فركه . بل يعتقد ان مجرد كونه فاعلاً وكونها هي مفعولاً يقضي له بالمزية والفضل عليها . فقلت ان دعوى الفاعلية ما اراها الاّ باطلاً . فان المفاقمة والمباضعة والمواقعة واخواتها تدّل على ان الفعل مشترك بين اثنين . وانما الافضلية باعتبار البادىء . قالت ليس الابتداء متعيناً على واحد دون الآخر فايّهما بدأ صحّ . فلا مزية لاحدهما على صاحبه . هـذا وكم من مرة لمجرد هذا الوهم يغادر الرجل امرأته وحدها في البيت ويقضي ليلته عند احد اصحابه . فيتعاطى معه المدام حتى يسكر ويذهب ما عنده من قليل العقل. فلا يقدر على الرجوع الاّ اذا حمل بين اثنين كالجنازة . ثم هو لا يفرق بين ان تكون زوجته حبلى او غير حبلى . فتراه يكلمها وهي في تلك الحالة بعين الكلام الذي كان يكلمها به من قبل . وربما دمق عليها كالضاغب فمناها بمَرْعبة . او اسمعها الضَّبَعْطَى والضَّبَغْطَى والضَبَغْطَرَى واية ودُخْدُخ وهَجاجَيْكَ وهذاذيكَ . او كان عليها دَبُوقاء او لزاقاً وطَباقاء او عَباقاء او عَياياً او عَباماء .

فنهاية رفقه بها وشفقته عليها انما هو ان يشتري لها جارية او يستخدم وصيفة . وليس المقصود بذلك مجرد تخفيف الشغل عنها وانما المقصود جعل الاَمَة او الخادمة رقيبة عليها حتى لا تخونه في عرضه . ولا اقول في ماله لانه لا يخرج من البيت الا بعد ان يقفل صناديقه . مع ان الجارية لا تكون الاّ ذات ضَلْع مع سيدتها عليه وان شتمتها بين يديه واهانتها : لانها لا يهمها

تكون سيدتها تحب واحداً من الرجال او اثنين او عشرة . بل يهمها ان تنال عندها الطيب من المأكول والمشروب · فاذا كانت زلـّة سيدتها كما يقال تحت يدها ادلـّت عليها بتلك الزلة وتجرأت على ان تطلب منهـا ما تشاء . لا بل تتمنى ان سيدتها تكثر من العشاق ما استطاعت . لانها تؤمل منهم الصلة والاحسان . ومعلوم انه كلما كثرت العشاق كثرت الصلات . وبعدُ فان من طبع النساء في كل زمان ومكان الارتياح الى شواغل الهوى وبواعث العشق وان يرين اهل الدنيا كلها مسترسلين اليها ومنهمكين فيها فالجارية التي تكون عند سيدة حرّة على فرض صحة ذلك لا تلبث ان تغاضب سيدتها حتى تغري زوجها ببيعها فيقع نصيبها عند اخرى غير حرّة . غير ان الرجال مغفلون . نعم هم مغفلون . فاما تبجحهم بكونهم يشترون لازواجهم حلياً في ربيع يُسْرهم فذلك عائد الى خبرهم · لانهم لا يلبثون ان يسلبونهن اياها في خريف عسرهم وافلاسهم . فاية امرأة ترضى لنفسها بان تقعد في بيتها كالفرس المسرج المعدّ للركوب وهي محرومة من معاشرة الناس . قال فقلت والله ما قلت كلاماً احسن من هذا . وهذه آثار النجابة بدت تسطع من طباعك فحيّاك الله وبيّاك · قالت وما بياك قلت ليس بشيء . قالت ولكنهـا عندي حسنة للازدواج . قلت كأنك تقولـين انه من قبيل تزويج لفظة باخرى فيشم منه رائحة الزواج . قالت نعم الزواج سارٌ حتى في الالفاظ . قلت ولكن بقي لي عليك اعتراض وهو انك عرّضت في اول خطبتك هذه البليغة التي افادتني اكثر من خطب صاحب المعبّر بأني اصلح شعرك وثيابك امام الناس . او بأنه يلزمني ان افعل ذلك وهو مما فات فكري . قالت انك لمّا تفعله ولكن ستفعله ان شاء الله عن قريب . فأني اراك تقدر النساء ولا تبخسهن حقهن واني واحدة من عباد الله هؤلاء .

١٢

في سفر ومحاورة

ثم لما كان الغد ذهب الفارياق الى المعبر وهـــو موجس من تعبير الوحش. فجاءه الرئيس يقول قد عنّ لي ان اسافر الى ارض الشام لاجل تغيير الهواء. فان هواء ذلك القطر طيب والاحلام فيه تصح ويسهل تعبيرها . واني اراك مثلي ضعيف القوى ناحل الجسم فتجهز للسفر فعسى الله ان يوفق لنا اسبابـه ونعود بخير . فاستأذن الفارياق الحاكم في ذلك فاذن له كرماً وتفضّلاً. فاقبل على زوجته يودعها ويقول : عهدي اليك يا زوجتي بادىء بدء ان تتذكري السطح فيبعثك على حفظ العهد والوداد . وان تعـني بامر ولدي الذي اغادر عندك معه كبدي . واذا اتاك فاسق بنبأ عني فتثبتي . اي اذا قال لك غداً احد ممن حسدني عليك قد مات زوجك في البحر واكله الحوت ولم يبـق في عالم الوجود سوى اسمه فلا تركني اليه قبل ان يرد اليك كتاب مني تعتمدين عليه . قالت ولكن كيف تكتب لي اذا كان الخبر صحيحاً . قـــال فقلت يكتبه لك صاحب المعبّر . ولكني ارجو ان اصل سالماً وتقر عيني برؤيةاهلي واهلك وابلغهم سلامك . قالت الا تعيّن لي مدة لارسال الكتـــاب . قلت شهرين . قالت هذا دهر دهارير اية امرأة تصبر شهرين . قلت نحن سائرون في سفينة الريح فان الطبيب قال لصاحب المعبر انها اوفق من سفينة النار لمـا في هذه من رائحة الفحم التي تضر بالمصدورين. قالت افعل ما بدا لك ولكن احذر من ان تفيق وتهوى غيري . قلت انما احذر من الثانيـة لا من الاولى . قالت لا بل مني فاحذر . قلت انما عنيت اني احـذر من الهوى . قالت نعم اياك واياه فانه يزيدك ضنى . قلت ليست البلاد التي نقصدهـا مظنّة لذلك .

كهذه الجزيرة . قالت النساء والرجال في جميع البـلاد سواء . ولا سيا انك الان في زي غريب والنساء كلهن يتهافتن على الغريب. كما ان الرجال يتهافتون على الغريبة . قلت قد فهمت هذا التعريض غير ان المرأة المصونة اذا دخلت بين جيشين تخرج كما دخلت . قالت نعم تدخـل امرأة وتخرج امرأة . قلت واين المصونة اراكِ حذفتها . قالت في زمن الفِطـَحْل . قلت وما الفطحل . قالت دهر لم يخلق الناس فيه بعدُ . قلت من اين علمت هذه اللفظة الغريبة ، قالت سمعتــك مرة تقولها فحفظتها وهــو دليل على التهافت على الغريب . ثم سكتت مفكرة ثم ضحكت . فقلت لها ممّ تضحكين امن الفطحل ؟ قالت لا وانما ذكرت حكاية عن امرأة سافر عنها زوجها فضحكتُ . قلت وماهي قلت كانت امرأة متزوجة برجل يريبها في بعض احواله ولم تكن على يقين مما رابها منه . واتفق انه سافر عنها فحزنت لفراقه لكنها ظلت واجدة عليه . فجعلت مرة تدعو له واخرى تدعو عليه.وقالت وان كان بريئاً بلغته دعواتي الصالحة والا فيلحقه غيرها . فقلت هل في نيّتك اذاً ان تحاكيهـــا . قالت معاذ الله ان ادعو . قلت قولي لك او عليك حتى يفهم المعنى . قالت عليك قلت لله انت ما ارى لي من يديك مَنْجى . فالتفتت الى البـــاب وقالت ما جاء احد . قلت دعيني بحقّك من الزبون ومن مَن جاء فانا الان على جنـــاح السفر. قالت سِرْ في امن الله ولا ترتـَبْ فان للهزل وقتا وللجد وقتاً وعرض المرأة هو من الاخير . قلت وهذا ايضاً كلام موجّه كأنك تقولين انه ليس من الامور المقدمة . قــالت ألا كن مطمئناً سواء كان من هذا او ذاك فانـــك ستجدني كما فارقتــني ان شاء الله . قال فودّعتها والدمـــع هامل على جيدها وبكت هي ايضاً لفراقي فانها كانت اول غيبة عنها . وكان من خلقهـــا اذا بكت ان تبدو في طلعتها لوائح وجد شائقة . وملامح حسن رائقة . والنساء اشوق ما يكون اذا بكين . ولكن لا يكن كلامي هذا باعثـــاً على ضربهنّ شلّت يـدا من مسّهن عن غضب . قال فتزايد بكائي لبكائها واحسست ح بلوعة الفراق .

ثم اقلعنا وما كادت تغيب الارض عنا حتى ثارت لواعج الاشواق في صدري وخطر ببالي كل ما قالته لي مصبوغاً بالوسواس والهواجس . قال ومن كان حلس بيته لم يفارقه ولم تبرح رائحة زوجته فاغمة منخريه لم يــدرِ ما الم الفراق بعد ليالي الوصل والعناق. ولا سيما اذا جرى ذلك اول مرة . فينبغي اذاً ان اصوّر لخاطر صاحبنا هذا الحلسيّ المفغومي بعض ما يقاسيه المحب من لوعة البين . عسى ان يرق قلبه فيدعو لجميع النائين عن احبابهم بقرب الوصل وجمع الشمل فأقول : ان الفراق طالت مدته ام قصرت قربت طيّتــه ام بعدت عبارة عن فصل احد المتواصلين وحرمانه من انس صاحبه. وقدتكون لوعته اشد من لوعة الموت لان فراق الميت مقرون بالاسف والتحسّر . وفراق الحيّ بهما وبالغيرة ايضا . وهي في مقابلة اليأس المتسبب عن فراق الميت بل هي اشد مضضا منه . هذا في حق المتزوجين المتحابين فأما في حق الكارهين فلا اسف ولا حسرة على كلا الحالين . ثم ان المحب المفارق اذا فارق حبيبه ورغد عيشه في غير وطنه . من طعام لذيذ يأكله او مسامرة مطربة او سماع غناء يتلذذ بهما او رؤية اشياء بديعة ووجوه ناضرة سنيعة تقرّ بهــا عينه . فاول ما يخطر بباله انما هو حبيبه النائي فيقول في نفسه ألاليته الان حاضر عندي ليشاركني في هذا النعيم . فاني احسبه اليوم محروما منه بل ربما كان على قلبه غشاوة من الحزن والكمد . فكيف يتأتى لي ان ألهو وافرح وهــو محزون . وكيف يمرئني الطعام ويسوغ لي الشراب وهو الان لعله مُقْهٍ عنهما وحشة واكتئابا الى غير ذلك من الخواطر المكدرة والافكار المحسّرة. فاما اذا قاسى جهدا ونكدا بعد فراقه فانه يقول وَيْباً لي وويحاً وويخاً وويساً وويلاً وويهاً . ان عيشي الان نكد ذميم . وحالتي موحشة وفؤادي كليم . وقد جرى بيني وبين أليفي الاتفاق على ان نكون شركاء في السراء والضرّاء والنعماء والبأساء . واحسبه الان مفنّقا منعّما . مترفا مترفها بَرِئا بَرِجــا بَرِعا طَرِحا يسامره في الليل كل ربيز ظريف . ويجالسه في النهار كل كيّس لبيب . ألا وكأني به اي بها تبتسم الان ابتسامة رضى واعجاب لمن اطرأ على محاسنها وجمالها فقال لها . ليتك كنت تتخذين عوذة لتردّ عنك عــين

الحسود فاني لا اسمح بهذا الوجه المنير الوضّاح ان يراه كل احد من الناس . ولا ينكر ان يتشهق عليك من ابتلى بامرأة دميمة فان العين حق وان جمالك فريد فما يكون جوابها له الا ان تقول له: ما احسن عينيك فانهما تريان الشيء كما هو . فاما عينا زوجي فان عليهما غشاوة. وان من مذهبه الفاسد ان يقول ان العين اذا ألفت شيئاً مهما كان بديعا في الحسن قلّ اشتياق النفس اليه . او كما تقول العامة ما تملكه اليد تزهد فيه النفس . غير اني اخشى من انك اذا اكثرت من النظر اليّ والقرب مني لا تلبث ان تتمذهب بمذهبه فتراني على غير ما انا عليه الان . فيقول لها معاذ الله هذا كلام الجهال . فاما الصادقون مثلي في الحب وهيهات مثلي . فانهم ابداً يتمثلون بقول ابي نواس :

يزيدك وجهها حسنا اذا مازدتـه نظرا

واني اشهد الله عليّ وهو خير الشاهدين. وملئكته المقرّبين. وانبياءه ورسله المكرمين. انك اذا عاشرتني العمر كله فلن ترى عيني بشراً احسن منك. فتقول له هذا شأن الرجال دائماً من انهم يتملقون المرأة ليفتنوها ويخدعوها . فمرة يقولون لها تبارك الخلاق . ومرة افدي الغزال الشارد . ومرة يـــا سعد من كنت له . او طوبى لمن رأى طيفك في المنام . وتارة ينظرون اليها وقـــد غرغرت اعينهم بالدمع . وتارة يزفرون وينحبون . كل ذلك حتى يتمكنوا منها مرة او مرتين ثم هم من بعد ذلك عنها معرضون . وبسرّها بائحون . فنحن منكم على حذر . ولا يخفى علينا ما بطن منكم وما ظهر . فيقول لها معاذ الله . حاشى لله . استغفر الله . ما شأني شأن المتملـّقين الملاذّين . ولا طبعي طبع الفاسقين. بل ان لساني في هواك ليقصر عن بيان ما تجنه سرائري. وما يخطر بخاطري . فياليتني اعرف لغـــة اعبّر بها عن فرط وجدي بك وتوقاني اليك . ولو اطـّلعت على ضميري لصدّقتني وعلمتِ اني لست كأحد الناس وان غرامي فوق كل غرام . فأطيلي عشرتي ولو بدون وصال ليتأكد لك صحة ما اقول . فتقول له وقد فتحت لهاتها وزال ضَرَسها. وما الفائدة في ذلك فان المرأة ليست نجما يرصد طلوعه وغروبه . ولا برقا يشام ليعلم هل

هو خلّب او ماطر . ولا احجية يحاول فكّها وايشاؤها . وما يهمّها ان تكون اجمل من سائر النساء وجهاً وانما يهمّها ان تكون اشوق للرجال وافتن . فان التشويق لا يتوقف على الجمال قدر ما يتوقف على حسن الشمائل والمحاضرة والملاطفة والمؤانسة والغنج والدلال والافترار والحدقلة والترنجح والغرنقة والوكوكة والترأد . فيقول لهـا نعم سبحان من جمع جميع هذه الاوصاف الحميدة في ذاتك الفريدة . فكل ما فيك شائق وكلّ ما فيّ مشوق. فتقول له وقد ازدهر وجهها سروراً واعجاباً . قد يقال ان نبض العاشق يكون مضطرباً فدعني اجسّ نبضك لاعلم هل ما قلته صدق او لا . فيقول لها نعم نعم خذي يدي فجسّيها واجعـلي يدك الاخرى على قلبي . فتفعل ذلك . فيقول دعيني اذاً افعل بك كما فعلت بي لتنكشف هذه الحقيقة لكلّ منا . فتهجث وتحمرّ عند سماعها قوله افعـل بك ويضطرب نَبْضها ثم تسكن وتمدّ له يدها . فيجسّها بأحدى يديه ثم يضع الثانية على قلبها ثم يرفعها قليلاً وقد احمرّ حملاقه واندلع لسانه . ثم يزفر زفرة طويلة ويقول :

لك الله من قرموطة ملأت يدي   لقابضها قبض على كُسُرة الارض
لا سجمها انسان مقلتي الفدا   وكلّ عزيزٍ من متاع ومن عرْض

فتقول له وقد دُغدغت ولكن عروق الانسان النابضة فيه ليست في يده وقلبه فقط بل هي في سائر اعضائه . فينبغي على هذا ان نجسّ كل عضو فينا لنعلم ايّنا اكثر حركة وانتفاضاً ونغضاناً ونبضا وازاء ونَيْضا وأزوحا وحَبَضا . اذ لا يصح الحكم على شيء الا بعد الاستقراء والاستقصاء. فيقول لها وقد طرب وجداً وحبوراً نعم نعم نعم القول ما قلتِ . غير انه لما كان الانسان يجهل حاله وكان من طبعه ان يلاحظ في غيره مـا لا يلاحظه في نفسه . كان لا بدّ من ان يكون هذا الاستقراء بالتخالف اي — فتبتدره قائلة قد فهمت ما عنيتَ وهو معلوم بالبديهة ومستغن عن التفسير وهذا هو الذي قصدت . فهات يدك وخذ يدي . حتى اذا جالت الايـدي بالجتّ والجس . والمَثّ والمس . والنجث والنجش والبحث والمعش . والضبث

واللمش . والطمث والملش . والفحث والفتش . والقبث والمتش . والمرث والمرش . والمغث والمعش . والنبث والنبش . والنقث والنكش . والنث والنتش . قالت وقد قوي حَبَضها ألاَ هَيْتَ لك . الا هيت لك . فان قولك على ايّ الحالين صدق . فيقول لها لبَّيْك وسَعْدَيْك لقد طالما شبحت يدي بالدعاء لان اسمع هذه الدعوة المنعشة وهذه النعمة المطربة — اعَلى هذا كان الفراق . ام من اجل هذا حسّنت لي السفر بان قلت لي ذات ليلة اني ارى بك يارجل فتوراً . فلو سافرت الى ارض طيّبة الهواء لعاد اليك نشاطك القديم . فعدنا الى ذلك النعيم افكانت هذه حيلة منك على تغيبي ليخلو لك الميدان فتمرحي فيه كيفما شئت وتتعاطي علم جسّ النبض وحركات الاعضاء . الم يكن لي نبض كسائر الناس فتتعلمي به هذا العلم الجليل . ام تزعمين انه ضعيف لا يصلح لان يتعلم عليه . على انه ان يكن قد ضعف فانما ضعف بسببك . وعهدي به من قبل ليلة عرسنا له ضَرَبَان وانتفاض وانتغاض . افهكذا يفعل المتفارقون . وبمثل هذا يخون المترافقون. ايحلّ لك من الله ان تتنعّمي الآن وانا في حالة البؤس والشقاء . بطراً تجسّين العروق وانني عَرَق الجسّة انّ بي عُرَواء الم يكفِ ما كنت اقاسيه معك في البيت حين كنت اغدو منه كادحا وارجع اليه رازحا . وكانت همومك كلها عليّ ولَوْمك كله متوجّهاً اليّ. فكنت انصب لراحتك . وآرق لاجحاحتك [1] والغب لتشبعي . واجهد لترتعي . وابرد لتدفأي . واقلق لتهدأي واتهجّد لتتهجّدي . وانحل لتمغدي . فقد تبين الان أيّنا ذو امانة ومداهنة وخيانة . واذ كنت اقول لك ان الامانة في النساء اقل منها في الرجال . فان الرجل ابداً مشغول البال . مضعضع الاحوال . يلهيه عن اللذات كدّه ونجله . ويصرفه عن هواه رشده وعقله . والمرأة لا همّ لها إلاّ تشويق الرجال . وفتنتهم بها في كل حال . كنتِ تقولين لا بل المرأة اكثر حشمة وحياء . واقل نهمة ورياء . وأميل طبعاً الى التعفّف . وابعد خلقاً

(١) اجحت المرأة حملت فاقربت وعظم بطنها .

عن التكلف . فان جمعنا الدهر يوماً وافضنا في حديث الوفاء . والمودة والصفاء حججتك بما لا تقدرين معه على الجواب . واظهرت فضل الرجل على كل ذات نقاب . الخائنات الحانثات . المائنات الغادرات : فان ابيت الا الجحد والمكابرة . فالهراوة لديّ حاضرة . واليد للّطم واللّكم مبادرة . فاذا امسكت بناصيتي او جيبي . واذعت بين الجيران عيبي ، جعلت لك من الشجاب صليباً او من الذأط نصيباً [1] ومتى خطر بباله ذلك هاج به الغيظ كل هياج . وودّ لو يطير الى بيته مع العجاج . فينقلب فرحه ترحاً وصفاؤه تكديراً . قال غير ان للحزن في مبادئه فائدة . وهي ذود شوارد الآمال المغررة والاماني المحالة الى مراح البصيرة والرشد . بحيث يسكن البال عن الحوم على موارد المحال . ويستقرّ الحال على فطم النفس عن الاحتيال . والى هذا اشرت بقولي :

وربّ حزنٍ يصون القلب عن سَفَهٍ   كما يصون إناءً واهياً صدأه
وما انقضى عن لذاذات الهوى عجلا   سيّان غايته عندي ومبتدأه

قال واروق الافكار وابدعها ما يخطر في ثلاثة احوال: الاول في مبادىء الحزن . والثاني في الفراش قُبَيل النوم . والثالث في بيت الخلاء . فان هذه الحال لما كانت عبارة عن تحليل موادّ متكاثفة تتنفّس عنها الامعاء والاعفاج . كان هذا التحليل والتنفس اسفل مؤثّراً في تحليل ما تعقّد في طبقات الدماغ العليا في وقت واحد ومكان واحد . فيكون بعض الموادّ ذاهباً سفلاً وبعض الصُوَر صعداً . كالبخار الذي يصعد من الارض فيعقد سحاباً ماطراً . فقد عرفت مما مرّ انه يتحصل من الحزن من الفوائد ما لا يتحصّل من الفرح . لان الفرح يبعث على الطيش والذهول وتشتت الخواطر في اهواء النفس واوطارها المنتشرة . فهو عبارة عن تعدّد اهواء وتفريق خواطر . والحزن عبارة عن ضمّها ولمّها ولهذا كان جل العلماء من الصعاليك

---

(١) يقال ذأط وذاط وزعط وظأت ودَغَت وذأت وذَعَت وزَعت وزرت وسأت بمعنى خنق .

المبتئسين وقلّ من نبغ في المعارف من الاغنياء والمترفين . الا ان يكون قد غرس في طباعهم نوع من الزهد والعزوف المقترن بالحزن . قال واحسن ما سنح لي من الخواطر انما كان عن بواعث اشجان ، وخوالج احزان . اما من وحشة فراق او من خيبة وحرمان . او من حسد على علم وبراعة ، امّا على مال وثروة فلا . اللهمّ اذا كان لمصلحة كانشاء مدارس ومؤاساة محتاج .

واني لاعجب من هؤلاء الرهبان فانهم معما هم فيه من الوحشة والحرمان فما احد منهم نبغ في علم او مأثرة . ولو كنت راهباً لملأت الدير نظماً ونثراً والنّفت على العدَس وحده خمسين مقامة . ليت شعري كيف يمكن لبشر اذا خلا في صومعته ورأى تحتها الغياض المدهامّة والبحر الساجي والجواري المنشئات . وعن يمينه وشماله الجبال الشامخة المكللة بالثلج وفوقه الرقيع الصافي وامامه القرى والمنازل ان يقضي نهاره كله وهو يرمش ويُرضك [1] ويتثاءب ويتمطّى ويملّد معدته من دون تأليف ونظم ولا سيما ان من حسن ساكنات تلك الديار ما يشرح الصدر ويروّح عن البال . فاذا كانت هذه المناظر البهيجة كلها لا تهيج هؤلاء النسّاك على تأليف كتاب فايّ شيء بعدها يهيجها . هذا وان كثيراً من المسجونين قد الفوا وهم في الضنك تآليف بديعة ، يعجز عنها سكان القصور الوسيعة . فأما ما قيل عن عبدالله بن المعتز من انه كان ينظر الى اواني داره ويشبّه بها فليس كل عبد كعبدالله . فانّا نرى الناس الآن كلما زاد ثراهم قل حجاهم . والحاصل ان وحشة الفراق تبعث الخاطر على ابتكار المعاني الدقيقة . وكذلك الصدّ والهجران والاعراض والمطل والعتاب والشفون والدلال والتمنع والتعزز من طرف المحبوب . ولكن ليس محصول هذا الحاصل اغراء الحبيب بهجر محبّه حملا له على النظم . او تعمد الفراق بعثاً له على وصف ما يجده من الشوق واللوعة . فان احسنه ما جاءت به المقادير دون تعرض له . وها انا ابرىء نفسي عند العاشقين والمتزوجين واقول: انه اذا جرى بينكم وحشة اوجبت الفراق ، او فراق اوجب الوحشة .

---

(١) ارضك عينيه غمضها وفتحها .

او صدّ او هجر او لجاج . او جدال او اعتلاج او تقافس او تفاقس [1] او صراع بالشَغْربيّة والشغزبية والقرطَّبى والالهاد والنهشرة والظُهاريّـــة والمَبْأشة والبأش والعُرْضة والنُقَض والمراسغة والتنسّف والتعرُّق والاعتقال فما يكون عليَّ في ذلك من عتاب ولا ملام .

انتهى كلام الفارياق وقد احسن فيه . الا انه لم يحكِ عن نفسه انه كان عند الحزن جَزِعاً جَرِعاً كثير الوساوس والهواجس قليل الحيلة والتدبير غير ثابت الرأي ولا مُضبّ على ما في نفسه فانه لم تكد ارض الجزيرة تغيب عنه حتى طفق يشكو من النساء ومن بطرهن عنـــد غياب بعولتهن عنهن . فسمعه الخرجي وزوجته فقالا له مـــا بالك تشكو لا خوف عليك من تعبير الوحش مدة السفر كلها . واذا بلغت ارضكم ان شاء الله فلا احلم الا الاحلام البيّنة . قال ما شكواي من الوحش ولا الجن بل من الانس.فاني سمعت اليوم كذا واوجست كذا ولعلي ارجع واجد كذا او لا اجد كذا او لا ارجع ولا اجد البتّة . فلما سمعت زوجته بذلك ثارت زبانية سقر من انفها فقالت له . هل بلغ من طيشك أن تسيء الظنّ في النساء المتزوجات . قال قد ظنّ فيهن من ذلك من قبلي الحليم الرزين . قالت ليست هـــذه الخلة عندنا نحن معاشر الافرنج هـــذا زوجي ما يخامره ريب فيّ . قال ان السيد مشغول بالاحلام بحيث لم يبقَ في رأسه موضع لغيرها . أليس ان عالمكم بيرون يقول أخْون ما تكون المرأة ما اذا غاب عنها زوجها . قالت انه شاعر وان كلام الشعراء لا يؤخذ به في الحكم على النساء الا اذا كان نسيباً وغزلا . ثم بينما هم كذلك اذا بالريح هاجت الامواج فاضطربت السفينـــة ومادت ايّ ميد . فلزم كل مكانه مدّة اربعة ايام حتى ذهل كل من ركابها عما وراه وقدامه .

وبعد سفر اثني عشر يوماً بلغوا مدينة بيروت وهم جياع تعبون شاحبون مبتئسون . والهالج يترقب اول فرصة من الدهر لهبوط الاحلام . فلما دخلوا البلد كان اول ما طرق مسامعهم من كلام اهلها الركيك قول المخبّر ان اهل

---

(١) تفاقسا بشعورهما تواثبا وفقس فلاناً جذبه بشعره سفلا وهما يتفاقسان .

الجبل قد خلعوا ربقة الطاعة لوالي مصر وتجندوا عليه . فكان اهل المدينة في شغب واضطراب . وكان دُوار البحر والفراق لم يزل يميد براس الفارياق . فصعد الى جهة الجبل ليرى اهله فلقي بظاهر المدينة عسكر الاهلين فخافهم ّل عليه احدهم باطلاق بندقيته فطار نصف قلبه من صدره ولم يزد قلب المهول شيئاً . لكن بعض الناس يرتاح للاذى ان لم يحصل له فائدة . ثم لطف الله به وانقذه من القوم فبلغ منزل اهله . فلما علم قدومه عند اهل القرية اقبلوا يسلمون عليه مثنى وثلاث ورباع فكان ينظر اليهم ويتعجب منهم لبعد عهده بعاداتهم . فان النساء كن يأتين ويقعدن على الارض . فمنهن من كانت تقعد بين يديه القُرْفصاء او الهَبْنقة او الاربعاء او الفرشحة او البرنطة اوالبرقطة او الفرشطة او القَعْفَزى . او ثَبْنجا او احتفازا او امتعاسا او استيفازا او اقعاء كقعدة القرد وهي مشمرة قميصها فتنشفّ سراويلاتها عن ومّاحها . وهي عادة ألِفنها ولا يرين فيها عيبا . واكثرهن تبدي ثدييها سواء كانت كاعبا او هضلاء او طرطبة . ويومئذ افرغ عليه شحن المسائل فمن قائلة مالك يا فارياق نحيلا . ومن قائلة وقد صرت ضئيلا. واخرى ما لسحنتك قد كلحت .وغيرها ولطلعتك قد قَبُحت . ولاسنانك قد قَلِحت . وجبهتك لَتِحت . وارنبتك فُطِحت . واساريرك ازَحت . وبشرتك قَسَحت . وشفتك تقرّحت . وعنقك شَقَحت . وعينك لَجِحت . وقامتك تقنّحت . وشعراتك تصوّحت . وعجيزتك رَسِحت . وذقنك طَحَّت . ولهجتك قَحْقحت . قال فتشاءمت من هذه القوافي وقلت لم يبقَ بعد تعدد هذا الحت الا ان يقلن وتلك قد نكحت . ثم قالت واحدة منهن ايه وهذه هَنَة قد زادت فيك . فقالت اخرى اوه وهذا شيء نقص منك . ثم جعلن يقلبنه ويعرضنه كما يقلب الشاري السلعة . وكلهن يقلن بنغمة واحدة يافارياق يافارياق اين الطنبور واوقات السرور . اين ابياتك في العقوص والطنطور . انسيت يوم كذا وليلة كذا . قال فكنت مسروراً بمؤانستهن وسلامة ضمائرهن عن المنكر كما هو خلق نسا تلك البلاد فانهن لايابين من لمس الرجال والدنو منهم ومماسة الرُكَب دون الركب . الا انه كثرت مسائلهن عليّ . وطال قعودهن

بين يدي . وانا محتاج الى الراحة والانفراد . ومع ذلك فمجلس النساء مؤنس على كل حال ولا سيما لمن مضى عليه في البحر اثنا عشر يوماً من دون رؤيتهن. فلو نتفن بعد هذا العهد الطويل لحيته وشواربه بالمسائل لما لحقه من ذلك اذى.

قال واعجب من ذلك اني كنت ارى الامراء يقعدون على الحصير وعند النوم يرقدون فوقه على فراش واحد . وربما اجتزأوا بالبيض والارز واللبن عن الحمام والفراخ والدجاج من دون شراب ولا فاكهة ولا نقل . وأرجلهم ظاهرة فاذا قعدوا على الحصير خلعوا نعالهم بالقرب منه فتبقى بمرأى منهم . وترى بعض خدمهم يقوم على رؤوسهم اي بازائها لا فوقها وفي حزامه الملعقة. وآخر في جيبه الطاس من فضة اشارة الى غنى الامير والى كونه كأحدالناس غير مستغن عن اللعق والشرب . وهو قاعد مطرق لا كتاب عنده فيطالعه ولا سمير له فيسامره ولا آلة لهو تطربه . وقد يقضي ساعات من النهار هكذا بل يوماً واياماً ولا يرى من امرأة اصلا حتى تعمش عيناه ويظلم فكره وتلقس نفسه وتحرض معدته . فأين هذا من مجالس الافرنج التي تزين بالمتكآت النفيسة وتفرش بالزرابي الفاخرة وتوطأ بالنعال . ولا تزل الحسان مقبلات عليها مدبرات . فمن هيفاء تشرفها بوطأة . ومن غيداء بطفرة . ومن زهراء بزفنة . ومن وطباء بحركة . ومن دهساء باضطجاعة . فمن يصبر على هذه الحال فيا امير الناد . وواحد الامجاد . وراكب الجواد . ورامي الجريد على العباد . قل لخادمك حامل الطاس ينح نعليك من امامك بل البسها وتعال معي الى بلاد الافرنج لتنظر الامراء منهم مخاصرين لازواجهم واولادهم سائرين بهم الى المنازه والحدائق ومواضع اللهو واللعب والطرب . ولا حرج على ازواجهم ان يبتسمن او يملن اعناقهن او يتفرّسن او يوكوكن او يحدقلن او يحرجلن او يفرجلن او يهرجلن او يهركلن او يتبازين او يُكَـبِّن . ولا على اولادهم ان يطفروا ويمرحوا . حتى اذا كحلوا اعينهم برؤية الكَحل باتوا ليلتهم تلك على الوثير من الفرش مع وثائرهم . ليت شعري لم لا تضم اليك مع جملة هؤلاء الحفّان والوُصفاء والبساتقة والنساتقة والهبانقة والمَهَنة والمناصف والنَصَف والحَفَد والمقاتِوة والخدم والحشم الذين حولك ثلاثة نفر من العازفين

بآلات الطرب ، ليجلوا عن خاطرك صدأ همّ الوحدة والاعتزال في كل يوم عند الاصيل او في العشاء. واذن لي في استعطافك لان تاذن لجيرانك في ان يأتوا هم ايضاً ويطربوا لطربك. فيدعوا لك بتأييد دولتك، وتخليد غبطتك. ودوام بقائك وسمو ارتقائك. وفي ان اسألك لمَ لا تعيّن في العام عيداً لمولدك او لمولد السيدة او الاولاد المحروسين . فيكون يوم فرح وحبور لك ولجميع من ينتمي اليك . بحيث تصطنع فيه مأدبة وتدعو اليها دعوة جَفَلى لا نَقَرى ، أيّ خير في رمي الجريد واصابتك به كتف خويدمك العبد الحقير او ضرسه حتى تعطله من الاكل وانت لاه عن احسن الرمي واصوبه واصرده وامرقه . وانت آمن هناك من ان يقال لك بَرْحى برحى بل يقال لك مرحى مرحى . هذا ما عدا ايلام ابطك الفاخر العاطر برمي الجريد . وما الفائدة من وقوف الخويدم بين يديك وفي حزامه الملعقة او على رأسه الخوان او على صدره القصعة والباطية او بيده العُسّ والقعب او على عاتقه المائدة او على عنقه القدر . وانت لا تأكل مع السيدة واولادها ولا تأخذ ولدك وتضعه على ركبتك. ولا تحمله على ظهرك ولا تتطأطأ له ليثب فوق رأسك . ولا تحتجره ولا تحتضنه ولا تتوركه ولا تعانقه ولا تحول له خدك ليبوسك . ولا تمكنه من ان يعبث بشاربيك او يعض اصبعك او انفك ليضحك قليلاً فأضحك انا كثيراً . ولا تطعمه بيدك ليعرف انك محسن اليه . ولا تأكل شيئاً مما يلوكه . ولا تركبه على جحش وتقود به الجحش ولا تغني له في الليل ليرقد على نغمتك فيقوم في الصباح يغني لك غناء اطرب من غناء الفقنّس ومعبد وابي البَدّاح وسِواط والعَثْعث وخليلان وعمر بن بانة والزّنام ومسدود بن عبد الواسط الرباني وزلزل وعرفان والجرادتين وابنة عفزر وسَلامة وشَمُول وابن جامع السهمي ودُبيس ورقيق وابن مُحرز والمشدود وهاشم بن سليمن ودحمان الاشقر وطُوَيس وابن شريح والدلال بن عبد النعيم وابن طنبور اليمني وحَكَم الوادي وابراهيم الموصلي . واشجى من الرُّنم ومن صوت كل دُعْبب غريض الرنم المغنيات المجيدات والغريض المغني المجيد ومثله الدعبب .

ولا تبابئه ولا تغازله	باباه قال له بابي أنت .
ولا تناغيه ولا تباغمه	باغمه حادثه بصوت رخيم .
ولا تنادغه ولا ترأمه	نادغه غازله ورئمت الناقة ولدها عطفت عليـــه ولزمته .
ولا تنغّره ولا ترخمه	نغّر الصبي دغدغه كنغّزه ورخمت المرأة ولدهـا لاعبته .
ولا تهينم له ولا ترعّمه	رعّمه مسح رعامه اي مخاطه غير ان صاحب القاموس خصه بالمرأة بل المتبادر من عبارته انه مسح رعام الرُعموم للمرأة الناعمة فالعفو مرجو منها على كل حال .
ولا ترزم لِرَزَمته	ارزمت الناقة حنّت على ولدها والرزمة صـوت الصبي .
ولا تتجنّث عليه	تجنّث عليه رئمه واحبه وتلفف على الشيء يواريه
ولا تقرّمه ولا تسمّته	التقريم تعليم الأكل والتسميت الدعاء للعاطس [١]
ولا تُفدى له ولا تُصهّيه	افدى فلان رقص ابنه واصهاه دهنـــه بالسمن ووضعه في الشمس .
ولا تدسم له نونته	النونه النقرة في ذقن الصبي الصغير وكذا الفحصة وتدسيمها تسويدها كيلا تصيبها العين .
ولا تبدي له البجبجة	البجبجة شيء يفعل عند مناغاة الصبي .
ولا الحَوْفَزى	الحوفزى ان تلقي الصـــبي على اطراف رجليك فترفعه .
ولا تقول له حَلْقة	قولهم للصـــبي اذا تجشّأ حلقة اي حلق رأسك حلقة بعد حلقة .

(١) في تعريف التقريم ابهام على فان التعليم هنا يحتمل ان يكون من العلامـة فيكون الأكل بمعنى الطعام ويكون المراد به ما اراده بقوله في ر س م الرسم خشبة مكتوبة بالنقر يختم بهـــا الطعام وفي ر ش م رشم الطعام ختمة والا فهو في محله .

ولا بَحْباح	بحباح كلمة تنبي عن نفاد الشيء وفنائه .
ولا مَحْماح	هو كقولهم بحباح ومثله حَمْحام وهمهام .
ولا كخْ كخْ	يقال عند زجر الصبي عن تناول شيء .
ولا تعَنى بدَنَعه	دنع الصبي جُهد وجاع واشتهى وطمع وخضع وذلّ ولؤم .
ولا بقَقَته	صوت يصوت به الصبي او يصوت به اذا فزع .
ولا تكترث لبأبأته ولا لببّته	بأبأ للصبي قال بابا وببّه حكاية صوته .
ولا لتغتغته ولا لثغثغته	التغتغة حكاية صوت الضحك والثغثغة عضّ الصبي قبل ان يتثّغر .
ولا لتأتأته ولا لدأدأته	التأتأة حكاية صوت وهي ايضاً مشي الطفل والدأدأة صوت تحريك الصبي في المهد .
ولا لدَعْبعَه ولا لحَتارشه	دعبع حكاية لفظ الطفل الرضيع وحتارش الصبي حركاته .
ولا لادْرامه	ادرم الصبي تحرك اسنانه ليستخلف اخرَ .
ولا لفصيصه ولا لانتداغه	فصّ الصبي فصيصاً اذا بكى بكاءضعيفاً. وانتدغ ضحك خفيّاً .
ولا تبالي بمِعْقاده	المعقاد خيط فيه خرزات تعلق في عنق الصبي .
ولا بقرْزَحْلته	من خرز الصبيان .
ولا بدرّاجته	الدراجة الحال التي يدرج عليها الصبي اذا مشى.
ولا بحقابه	الحقاب خيط يشد في حقو الصبي لدفع العين .
ولا بصُمتته	الصُمتةما أصمت به الصبي من طعام ونحوه ومثلها السُكتة .

فبحق عبوديتي لك يا سيدي ودالّتي عليك الا ما وضعته يوماً على ركبتك او أركبته على ظهرك. ثم لا بأس في ان تدعه يلعب مع اولاد من هممتّسمون بشرف خدمتك فانه لم يزل بعدُ صغيراً لا يعلم هذه الفروق . ثم لا بأس ايضاً

في ان تسهر هذه الليلة في حريمك المحترم مع بعض رجال قريتك وازواجهم ممن يتأدبون في المحاضرة بحضرة النساء . فاني أرى صدر السيدة قد ضاق من الوحدة وما عندكم من كتب او لهو حتى ينشرح بها. ولا غرو ان تستفيدا كلاكما من مسامرة رعيتكما شيئاً . فان رأس الفقير ليس باضيق ولا اصغر من رأس الامير عن ان يشتمل على اراء سديدة مما يخلو عنه رأس غيره وان يكن اكبر عمامة منه واغلظ قذالاً . وكيف ترجو ان تكون السيدة وبناتها ذوات رشد ودراية وهن مقصورات في الدار العامرة . ام كيف ترضى لهن وحاشاك الجهل والغباوة .

وانتم يا سادتي الحكام والمشايخ والكبراء والمطارنة جربوا مرة ان تجتمعوا باهلكم وازواجكم مع اهل جيرانكم. (ولكن المطارنة ليس لهم ازواج لتنزههم عن الواج) وان ترفعوا فرق المذاهب من بينكم فذلك ادعى لكم الى الحظ والسرور . انما الدنيا النساء انما الدنيا البنون . اعلموا رحمكم الله ان الاجتماع بالنساء لا يخل بشرف المنصب . اعلموا هداكم الله ان فرق الآراء في الاديان لا يمنع من الألفـــة والمخالـّة اعلموا أصلحكم الله ان في حمل الانسان ولده على ظهره وتطوّقه برجليه اللطيفتين للـذّة اعظم من لذة تطويل الجُـبب وتوسيع الاكام وتكوير العمامة ومن وقوف الخدمة وايديهم على صدورهم . اعـــلموا فقهكم الله ان العرب لم تخصّ حركات الطفل باسماء الا وهي تريد ان تلاحظوها وتتنبّهوا لها . حتى انها وضعت لحدثه حرفين غريبين في التركيب لا ثالث لهما في اللغة كلها وهما الصّـصَـصُ والقـقـقَـقُ . اعلموا وفقكم الله ان مستر ومسيو وهر وسنيور انعم منـكم بالا واحسن حالا اعلموا نصركم الله ان الفارياق رجع الآن الى بيروت واني انا العبد الحقير كاتب سيرته مفكر في انشاء مقامة تسرّ العزب منكم والمتزوج معاً .

(حاشية اظن سادتنا المشار اليهم ما سمعوا النصيحة فراح كلامي معهم في الريح) (تنبيه قد اطلت الكلام في هذا الفصل المؤذن بالفراق ليقابل فصل الزواج) .

١٣

في مقامة مقيمة

حدس الهارس بن هشام قال سوّل لي الخناس ، (اعوذ بالله من هــذا الافتتاح) الذي يوسوس في صدور الناس كل غميس وغماس . ان تزوجت امرأة خرّاجة ولاجة هيّاجة نبّاجة مِرغامة معذامة . لوّامة رطّامــة . خُبَعة طُلَعة . خليعة جلِعة . تجاوب ولا سؤال وتبارز ولا قتال وتقترح علي اشياء يعجز عنها الدينار وترميني في مهالك دونها النار فكان دأبي ان اصبر مرة عليها عذيراًواخرى ان اشكو اليها فلا تزداد الاشرة ونفوراً. او لا ينجع العتب فيها نقيراً . فقلت تالله لأجْفرنّ عنها واوهم ان بي جفورا او لأضربن في الارض لاعلم هل ارى لها نظيراً . فاخترت الرأي الثاني . بعد التعوذ بالمثاني . وخرجت من بيتي كئيباً مبتئساً ، ساخطاً على جميع النساء . فبينا انا في بعض الطريق ، اذ مر بي سِرب منهن يخطر بالثوب الصفيــق ، والحلى ذي البريق . وقد ارجت الارجاء بطيبهن العتيق فرأيت من بينهن الهيفاء والبدين . والغرّاء الزهراء ضرة حور العين ، ومهندة العينين . فتاقت نفسي الى وصالهن . وتبلبل بالي بجمالهــن . ونسيت ما لقيت من لكاعي في البيت . وقلت ليتكنّ لي لو تنفع ليت . ثم انشدت :

اری للنساء الماشيات حلاوة فهل هن حلوات كذا في المقاصير
ولستاریفي إلـْقي انمشت وان اقامت سوى مقت وكره وتمرير
اراها بعيني حيث كانت بعينها فهل ذو عمى غيري يراها من الحور

فابتدرت اليّ واحدة منهن لها عنق كعنق الغزال ، وحاجب كالهلال .

وقالت خفف عنك فما أنت وحدك في الرجال . ان زوجي قد قال .

افكـّر في لئامة طبع زوجي فاكره كل انثى في النســـاء
واحسب انهـــن مغايرات لهـــا فاحبّهن على السواء

ثم التفتت اليّ اخرى وجبينها يلمع كالصباح ، ولحظها يدمي كالصفـاح . وقالت اسمع ما قاله زوجي فيّ . ولاتك من قارفيّ :

تخوض زوجي في كل الفنون وما تخشى خطاء ولا ردّا مع الظرفا
تـكون غالطة في كل مسئلة وليس تغلط يوما ان تقول كفى

ثم تقدمت اليّ اخرى وحبب عرقها كاللآلى . وحالك فرعها كالليالي . وقالت دونك ما نظمه فيّ بعلي . وانظر هل يصدق ذلك في مثلي .

تودّ زوجي شططا انني عبد مخيليق لمرضاتهـــا
وان تشهت حاجة لم تُنَل اكون خلاّقا لحاجاتها

ثم دنت مني اخرى وهي تهتز عُجباً ودلالا . وتبسم عن شنب مـا رأى الناظر له مثالا . وقالت هاك ما انشدنيه كفيحي من أول ليلة . آذن منهـا بالثبور والويله .

لزوجي خلقة اضعاف ما لي من الشفتين والفـــم واللهاةِ
فكيف يُتاح لي اشباعها وهي تصرخ كل وقت هات هات
فأما ان تضعّف لي اداة والاّ فارتـكاب الترهات

ثم اقبلت عليّ الخامسة . وهي من الخفر كالظبية المكانة . وقالت انشدك ما قال في شيخي في الليلة السادسة . وهو

ان قال غيري قد يقال زوجة فانني اقول زوجي دون ها
اذ لا ارى التأنيث في اخلاقها بل الفحول في العراك دونها

ثم تقدمت السادسة ، باشة آنسة . وقالت اروِ هذين البيتين، عن حليلي

الذي اعتاد قول المين . وهما

تراقبني زوجي عليلا وسالما نهاراً وليلا نائيـــا وقريبا
فصرت اذا عانقت في النوم طيف من أحبّ اراها بالوصيد رقيبا

ثم دلفت السابعة وكانت ذات حقيبة سابغة وطلعة رائعة . وقالت وفي معناهما قال زوجي المفتري. واجترأ عليّ بما لم يكن رجل على امرأته يجترىء. وذلك قوله :

تغار زوجي عليّ حتى اذا رأتني مرضت تمرض
فما رأتني في حالة ما الا ّ وكانت لها تـَعَرّض

ثم انبرت الثامنة وهي على ما ظهر لي رافنة زافنة . وقالت قـد سمعت زوجي يتغنى بهذين البيتين ، بعد اسبوعين . وهو مطرق الى الارض كمـن فقد العين . وبُشّر بالحين . وهما :

تودّ زوجي ان لي شانين من مفاضحـا
مَن حمــارٍ قازحاً وقرن ثور ناطحـا

ثم استقبلتني التاسعة وهي تفتر عن لالىء ناصعة . وقالت ونحوهما ما قاله في ابو ولدي . وقد حفظه كثيرا في بلدي وفي غير بلدي .

ان زارني عالم او جاهل بدرت زوجي اليه وخاضت معه في الجَدَل
فان تجده خبيراً بالبعال تقل كل العلوم انطوت في صدر ذا الرجل

ثم تصدت لي العاشرة . وهي ذات قامـة معتدلة وعين جائرة . وقالت وافظع من ذلك . ما ينشده رجلي في المنازل والمسالك . وهو قوله :

ان يزرني يومـا فتى ذو صلاح افسدته زوجـي فراح خليعا
او خليـع مستهتر اطمعتـــه وعليه غارت وحامت ولوعا

ثم دعتني الحادية عشرة ، وهي متمايلة مسبكرّة . وقالت ان زوجي

السيء الظن قد جازف الكلام فيّ بما لاح في باله وعنّ . فقال :

ترى زوجـي الرجال فلتّقيهم   وليس الامر عـن حبّ الصلاح
ولكن خوف ان يغشى عليها   من القرم الشديد الى السفاح

ثم مالت اليّ الثانية عشرة . وكانت قصيرة حادرة . تارة حارة. وقالت عُقماً وعقرا . عن مثل زوجي الهرّا . فانه هجا النساء طرّاً . اذ قال :

ليس العَفاف من النساء سجيّة   لكنــه سبـب الى الافساد
كالضرس تقلعه ليسلم غــيره   وعلى الذي باينت حزنـك بادِ

فقلت لا جرم لاقصدنّ منتاب هؤلاء الشعراء . ولا تخذنهـم لي عشراء . فعسى ان آنس منهم رشداً . واجد عند نارهم هدى . فان من كلامهم الحِكماً ومن أمّهم لاممـاً . وكان من عادتهم ان ينفردوا عـن القوم في كل يوم . ويتذاكروا امور الدنيا من العصر الى المساء. ولا سيما امور النساء. فاستقصيت عن محشدهم . ودُللت على مقصدهم . فاذا هم بجملتهم قاعدون على دكة عنـد البحر ، وقد ضربوا لهم سرادقاً يقيهم من الحر . فسرت اليهم . وسلمت عليهم . وقلت هل لكم في ان تجالسوا من يمُتّ اليكم بالوداد . وقد بلغه من كلامكم مـا وخّاه اليكم عن رشاد . قالوا مرحباً بالقادم . وان يكن غير منادم . فلما استقر بي المجلس انبرى واحد منهم ينبس . قال : لا بدّ لي من ان انهي ما شرعت فيه . وظهر لكم مكنونه وخافيه . نعم لمن خُلق هـذا الكون الا لهن . وايّ رجل مـا ناله محالهن . وعنّاه وصالهن . ومنّاه محالهن . فهن المتمتعات بدرز الدنيا ونعيمها . ولذّاتهـا وطعومها . وحليها وجواهرها . وتحفها ونوادرها . يقترحن علينا الممكن والمحال . ويكلفننـــا اموراً دونها دق اعناق الرجال . لكل عضو من اعضائهن حَلي يزينه . وربما اتخذن له اثنين وثلاثة ولا تزينـه . ثم ابتسم كاشراً عن نابـه . واستمر في خطابه . وبكل جارحة جراح منهن لا توسَى . وحزازات لا تنسَى يتهالك في حبهنّ المالك والمملوك . وسواء في الحاجة اليهن الغني والصعلوك . وانهـن يرمين الرجال في مهالك ومضايق ومرابك . ليكفوهن مؤنة الاطيبـين .

ويفيزوهن بفرص البين . فيخوضون البحار . ويقتحمون الكفار . ويعرضون انفسهم لحد السيف . ولحرّ الصيف . وبرد الشتاء . وذل الاختتاء . ودهمات الاعداء . ودغمات الارداء . ومقاساة الظما والسغب . ومعاناة الشقاء والتعب ومداراة الرقيب . ومباراة المعيب . والاغضاء عــن الشين . والافضاء الى الحين وطالما قفل احدهم الى بيته فوجد فيه قفل عرضه مفتوحــاً وسر امره مفضوحاً . فرأى في موضعه ضَيْزنا وزبونا . وقرينا وقرونا . وكثيراً مــا آب وقد شُتر شدقه . او وُقصت عنقه . او كسرت ساقه . او إيف حملاقه اوضاع ماله . وساءت حاله . فاول ما تبتدره به من الكلام . قولها له قبل السلام . اين الطـُرقة . وكم من نـُحْلى وتحفة . ولو انك كسوتها حلة بوران . واسكنتها قصر غمدان . واطعمتها افخر الالوان . وسقيتها من الرحيــق من يد الولدان . وطربّتــها بالعيدان ونزّهتها في رياض الجنــــان . وحملتها على الاكتاف . وواليت عليها الالطاف . لمــا رأيتها عنك راضية . ولا لحاجتك قاضية . والويل لك ان ناهزت الخمسين . وعجزت عن التموين . او بــــدا الشيب في عارضك عند الاربعين . أو اصابك مرض في بعض السنين . وهي عند ذلك تتفتّى وتصبَى . وتتصبّى مَن يرضى ومن يــأبى . فتغادرك في الفراش منهوكاً . وتلازم الشباك وتشير منــه الى من يلبّيها وشيكاً . ان اغتنم من الدهر هذه الفرصة . فما من دونها غصّه . اذ هو في الفراش لا يعقل ولا يعي . ولا يبصر من يكون معي . ثم تأتي اليه فتقول اوص يا رجل فقد ازف رحيلك . وجفاك طبيبك وخليلك . وملـّك عائـدك ومقيلك . وانت خبير يا ذا الحليلة . بانه لن يعجزها في الاجهاز عليه حيلة . وانها اذا رامت ان تتخذ في كل يوم خليلا ألفته وراء الباب عتيداً فعولاً . معاوداً وصولاً . فوسيلتها اليه غمزة بعينها . ومُنيتها لديه شُخبة تطفي اوام غينها . بخـلاف الرجل فانـــه لا يزال بحرفته مشغولاً مكبّلا بهمه معقـولاً . او يخشى انقباضاً وترويــلا . او صرف درهم ان يجد منه بديـــلا . فكيف يقال ان الرجل والمرأة في التكفّل بأدل المعارم سيان . وفي التكلف لحـمل المغارم عديلان . فهل فيكم من مجيب عن هذا الامر المريب . فتصدي له الذي

هجا النساء جميعاً . وقال دونك الجواب سريعاً . فكن له سميعاً ، وللحق مطيعاً . اني انما هجوت النساء لا من حيث انهن اسعد منا واسلم آفات . او اقدر على اللذات . وافوز بالمسرات . بل من حيث انهن خلقن لنا فتنة وضلالاً . وعذاباً ونكالاً فما قلته فيهن فقد قلته عن حسد . وما اقوله الان فهو عن تحرّ ورشد . ان المرأة ما دامت في بيت ابويها عانسا لا تزال محظورة لا ترى لها أليفاً ولا مؤانساً . واخوها اذ ذاك يرتع ويلعب . ويلهو ويطرب ويسافر ويتغرب . يألف من يألف ويصحب من يصحب وكلما زاد مرحا زاد أبوه ابتهاجا به وفرحا . فاذا تزوجت صارت تحت حظر بعلها وصار هو مالك ناصيتها وولي فعلها . فلا تكاد تخرج من بيتها الا باذنه . ولا تأتي أمرا الا اذا استوثقت فيه من أمنه . فان قال لها لك ان تفعليه . كان كالممتنّ عليها بتراث ابيه . وان قال لن تفعلي رجعت وعبرتها كالوَلِي وبنار حسرتها تصطلي . ثم ان عليها ان تتملقه اذا سخط مخافة بطشه . وان تقوم بخدمة رحله وحفشه وتطبخ له كل يوم ما يقترح عليها . وتجدد له من قديم متاعه ما يلقيه اليها . وتحفظ نَضَده . وتقوم اوده وتربي ولده . فكم ليلة تبيت تداريه فيها وهو يملأ المكان غطيطا . وجخيفا ونخيطا فهي التي ترضعه وتفطمه وترشّحه وتسرهده . وترعاه وتتعهده . وتوقظه وترقده . وتلعّبه وتلهّيه . وتعلله وتراضيه . وتؤانسه وتسليه . وتجالسه وتمنيه وتنظفه وتمشطه . وتمرّضه وتحوّطه . وتمشيه وتحمله وتستدرجه وتنقله . وتغسله وتلبسه وتعطره وتطوسه . وتدفئه وتُلْبئه . ألبأه اطعمه اللِبا لاول اللبن. وتدأدئه وتُهْدئه الدادة التحريك والتسكين والاهداء التسكين .

وترقزقه وتباغمه الزقزقة الترقيص كالزهزقة والمباغمة تقدم ذكرها .

وتربّته وتهمهمه التربيت ضرب اليد على جنب الصبي قليلاً لينام والهمهمة تنويم المرأة الطفل بصوتها .

وتهدهده وترعمه هدهد الصبي حركه لينام والترعيم تقدم ذكره .

وتداعبه وتطايبه وتدندن له وتقاربه . قاربه ناغاه بكلام حسن .

وتهدّنه وتصربه　هدّن الصبي ارضاه والصرب عقد بطن الصبي ليسمن .

وتدغره وتضبّبه　الدغر رفع المرأة لهاة الصبي باصبعها وضبّب الصبي اطعمه الضبيبة . وهي سمن وربُّ يجعل له في عكّة .

وتدرّبه وتذرّبه　التذريب حمل المرأة طفلها حتى يقضي حاجته .

وتقرّمه وتجوربه　التقريم تقدم شرحه وجوربه البسه الجورب .

وتجلسه وتنسسه　نسّس الصبي قال له إسْ ليبول او يتغوّط.قلت والقياس ان يقال ايسه .

وتعوّذه وتنجسه　التنجيس تقدم ذكره في الفصل السادس عشر من الكتاب الاول .

وتقمّطه وترسَعه　رسع الصبي شد في يده او رجله خرزاً لدفع العين .

وتزينه وتزهنعه　هذا ولو لم يكن للمرأةمنغصّة في الاجل غير الحبل لكفى

وذلك لمقاساتها بعده اذا كان من بعلها.ما لا يقدره غير مثلها.ولافتضاحها به من غيره . على فرض عدم شعورها بضيره . فقد قالت العلماء ان وضع المرأة جنينها من غير حليلها غير ذي ألم . لكنها يعقبه بعض السَدَم . ثم ان المرأة ممنية ما عدا ذلك باحوال عسيرة ، واخطار كثيرة . وذلك كإحمالها وحِسّها وعَنيفتها وأفلها وتوجيبها وكاحشاشها ودِحاقها . واسقاطها وازلاقها . قبل الوضع وبعده[1] وكنفاسها مدّه .هي برزخ بين الموت والحيوة وعدّه . وكالقرء الذي ياتيها في كل شهر . وغير مرة يمنيها بالبُهر . لانه اذا تأخر عن وقته اضنى ظهرها . وان قل او كثر اضنك صدرها . واذهب صبرها . وكوحمها وتفرّثها . وتأنفها شهوات في مدة الحبل كثيرة . لايمكنها الصبر عنها وان تكن ذات مريرة . وهي حٍ جائشة النفس ضَبِستها .

(١) الاحمال ان ينزل لبن المرأة من غير حبل والحسّ وجع يأخذ النفساء بعد الولادة والعيفة هي ان تلد المرأة فيحصر لبنها في ثديها فترضعها جارتها المرة والمرتين والافل ذهاب لبن المرضع والتوجيب انعقاد اللبا في الضرع والاحشاش يبس الولد في البطن والدحاق تخرج رحم الناقة بعد ولادها والتفرث غثيان الحبلى .

وجاشيئتها ولقستها. واهية القوى . واهنة الشوى ؛ وغير ذلك من العلل والاحوال . التي سلمت منها الرجال . ومن نظر بعين الرشد والانصاف . لم يتمحّل للخلاف .

قال الهارس فكأن الخصم انكسرت شوكته وفترت سوْرته فعارض بالمواربة ثم خشي المشاغبة . فقام احدهم وقال حسبنا يا قوم ما سمعنا.ودعوا الفصل اذا ما رجعنا . ثم انفضّوا والادلة معتلة والعقدة غير منحلة . فقلت عسى ان اصادف من عنده بذلك الخبر اليقين . واكفى مؤنة السؤال والتخمين فقد رأيت الاثنين كفرسي رهان وفارسي علم وبيان بيد اني اخالهما قد نطقا عن الهوى . ولم يتحريا الصدق الذي ينبغي لمن حدث وروى واذا بالفارياق يهرول في بعض الاسواق . وبيده زنبيل يودعه من الماكول ما حسن لعينيه وراق . فامسكت من فرحي بالزنبيل . وقلت الدليل الدليل . قال هوجوع بُرْقوع . يبُرْقوع بركوع . لا ينبغي ان يقام عليه دليل ولا برهان . ولا بيّنة ولا شاهدان . وان القاضي نفسه لأجوع الناس الى اللُمْجة . واسبقهم الى الغُمجة . وان شئت فقل الى الغَنِجة . فقلت انما الدليل على تلك . ولك الامان على ما في زنبليك من المِلك . قال ما خطبك . ومم كربك . أفي حديث النساء كنت تخوض مع الخائضين . وتحرض مع الحارضين . قلت بلى لامر ما جدع قصيرٌ أنفه . وللمقدور غادر الاليف إلفه.ثم اخبرته بما جرى لي في البيت ومعالنساء وعند الشعراء . وقلت افدني الجواب بغير مِراء . فاطرق ساعة . وقال هاكه على قدر الاستطاعة . فان الجوع قد ابدى فيّ خراعة . ولم يغادر بي للشعر خواطر صداعة . وهو :

تكافأ الزوجان في اللذّات	واستويا في أرَب الحياة
قومي اقعدي مِثْلُ لهاتِ هاتِ	وطاوعي ندٌ لآتِ اتِ
والمرء في الصبى على النِزّات	اقدر او أجْرا من الفتاة
لانها كثيرة العِلات	غير القروء ساء من شكاة

حتى اذا ما قيل كهلٌ عات   دار لها الدَّوْرَ الى ميقات
غايته الستون للشطات   وبعدها عُدًّا من الرُفات
نعم يسوء المرء بين النات   ضعف له اذ ذاك في الاداة
لكن لها من اعظم الغصّات   المجرضات جَرَض الممات
أن تبتغها يأتي من اللّدات   وهي تريده فتى الأرّات
كل له سهم من الهنّات   مُؤرِّبٌ حتى الى الممات

ثم عدا بزنبيله ، وجعل يتحوّفه ويعيث في قليله . قال فصَدَعني بالحق أيّ صدع . وعلمت أنه غير ذي ضلع . فملت الى موادعة زوجتي . وتسكين هَوَجي ونوجتي . فأتيت منزلي . فوجدتها دائبة في عملي . فأكببت على عناقها معانقة المشتاق . وانبأتها بما قاله الشاعران والفارياق . فقالت جزاه الله عني خيراً . ولا اراه في غربته ضيرا . ثم اقمنا على الوفاق . وتعاهدنا على حفظ الرفاق .

١٤

في جوع دَيقوع دهقوع

لما رأى الخرجي ان سكناه في بيروت لا تصلح لجسمه ولا لرأسه عزم على الشخوص منها الى الجبل . فألقِي في روعه ان يسكن في دير الروم . فسار بزوجته وبالفارياق فاقاموا في قرية تحت الدير يومين . وكان يأنس بالفارياق بعض الحسان منها ويواكلنه . فلما علمت احداهن انه صاعد في الغد الى الدير طفقت تبكي. فكأنما ظنت انه نوى الرهبانية . فظهر له انها خالفت عادة النساء لانهن يحببن الرهبان اكثر من العامة . فان فتنة النساك العباد تتوقف على رَوم وكيد ابلغ وهو مما يلذ النساء او بالعكس . حتى اذا رأينهم طوعاً لهن رجعن بعد ذلك الى ما كنّ عليه ليختبرن جميع ضروب الحبّ فلا يفوتهن منه شيء والحاصل ان الفارياق بُكي على فراقه هذه ثاني مرة في عمره حتى صار يحسب في عداد المحبوبين . وانه ذهب في الغد الى الدير واتخذ له فيه صومعة بلا قفل ولا مفتاح فصار من جماعة باعِرْ بايْ (الذين ليس لابوابهم اغلاق . قلت وهو بناء غريب) وكان ذلك الدير منتاباً لجميع اهل القرى المحيطة به . فانهم كانوا يودعون فيه امتعتهم خوفاً من هجوم العساكر المصرية عليهم . لان الدير حَرَم آمن . وكانوا اذا جاءوا اليه يدخلون جميع الصوامع من غير محاشاة ومن جملتها صومعة الفارياق . فكانوا اذا وجدوا على فراشه اوراقاً فيها تفسير حلم او غيره تلقفوها وقرأوها . فمنهم من كان يفهم منها قدر ما يدور به لسانه . وآخر قدر ما يدور به رأسه . وآخر قدر ما يدور به جسمه كله فيوليه ظهره ويخرج . ومنهم قدر ما تدور به يده فيرفعها ليبطش بالكاتب والمكتوب معاً . ومنهم من كان يسخر منها ويقول

انما هي اضغاث احلام . ومنهم من كان يقول انها لا تصلح لوقت الحرب ولم يجد منهم من استحسنها . وكان يدخل ايضاً مع هؤلاء الدامقين دامقات فيهن من يحب تلقيها باهلا وسهلا ومرحبا . وفيهن من تجدر بواحد من ذلك فقط . وفيهن من تجدر باثنين مواترة . وفيهن من لا تصلح لشيء .

وكل ذلك كان يمكن تحمله اذا حُمل بعضه على بعض . الا الجوع الذي تسبّب عن تعطيل الطرق فانه كان لا يطاق . مع ان الفارياق كان قد خرج من عناء سفر البحر الذي مناه بالصيام اياماً متوالية . فكان لا بدّ له من اللمج فمن ثم كان يذهب الى القرية وينادي يا من عندها دجاجة للبيع فتبيعني اياها. فكان بعض النساء يجبنه هذه الدجاجة السارحة مع الدجاج في الحقل اريد بيعها . فان اردتها فاسع اليها واقبضها بيدك . فكان يسعى وراء الدجاج ويطفر معها على الجدران . فان ساعده الحظ على كسر ساق احداها او اعيائها قبض عليها . وكان عند جريه وراءها يجري معه خاطره فيقول في نفسه .. انا اجري الآن وراء دجاجة فهل زوجتي تجري في الجزيرة وراء ديش .

وينبغي لي ان اقف قليلاً عند هذا الجري واقول . قد ذكرت سابقاً ان الفارياق كان ذا هوَج ونزق وجزع . فكان من طبعه اذا غاب عن اهله ان لا يزال يقابل حاله بحالهم بالمقابلة الاطّرادية وبالمقابلة الامتّية . مثال الاولى قوله انا اجري وراء دجاجة فهل زوجتي تجري وراء ديش . وقوله مثلاً وهو لابس هل هي في هذا الوقت عريانة . وفي حالة كونه قائماً هل هي الآن مضطجعة . وقس على ذلك . ومثال الثانية انا اجري الآن وراء دجاجة فهل يجري وراءها ديش .

على ان خبز الدير والقرى ح كان مخلوطاً بالزؤان . فكان الفارياق اذا اكل منه خيّل له انه لم يزل في السفينة عرضة للتنانين . ويتأكد عنده ذلك بدخول احد الرهبان عليه وهو على تلك الحالة . فلما ضاق بها ذرعاً نظم ابياتاً وبعث بها الى رئيس دير غير الدير المذكور وكان يظن ان عنده

غناء . وهي .

ليت شعري ماذا يفيد البيان مع خواء البطون والتبيان
وفنون البديع من غير أكل تستشيط اللهى بها واللسان
هاك الف استعارةٍ برغيف وبخسٍّ تجنس تفتازان
ايها المعربون هبّوا فما من ضرب زيد عمرا يرص الخوان
اين اين الكباب والرز والبر غل تصغو من فيضهن الجفان
ذهبت دولة الطبيخ وجاءت نوبة الجوع امّها لبنان
يا لها من معرة نبعث الدينا ر ما ان يعبا به انسان
ليس بيع ولا شراء بارض قد قضى عيشها وعاش الزوان
طال مكثي في الدير حتى كأني راهب لا ترضى به الرهبان
اذ رأوني وحولي الكتب والاق لام ممّا عنه نهى المطران
انا في وحشة من الانس وحدي لا تراني فلانة وفلان
عيشة لو اريتها في منام ما شجتني من بعدها الالحان

فبعث اليه الرئيس بارغفة لازوان فيها ومعها هذان البيتان :

وصلتني الابيات يا فرقيان انما نحن في الدنيا رهبان
ما عندنا طعام كما تشتهي ولا نبيذ ولا نسوان

فهرول اليه الفارياق ليعاتبه على تغيير اسمه . فرأى في الدير احدى نساء الامراء كانت قد جاءت الى الدير استئماناً من العساكر فلما رآها قال له قد شفع الخبز يا سيدي في وزن البيتين ولكن لمَ غيرت اسمي . ثم تذكر السيدة فقال وقلت ايضاً انكم رهبان وما عندكم نسوان . وها انا ارى عندكم سيدة زهراء قد ملأت الطنفسة شحماً ولحماً قال انما غيرت اسمك لاجل القافية وهو جائز للشعراء . واما قولي ما عندنا نسوان اي ليس لنا ازواج . ولكن لا ننكر ان عندنا نساء غيرنا يزرننا احياناً للبركة . قال من ايكم يحصل ذلك . فلم يفهم لكن السيدة فطنت لذلك ودعته الى الاركيلة المعروفة فلبث عندها ساعة شفعت في تغيير اسمه ايضاً .

وآب الى صومعته راضياً . فوجد رئيس المعّبر قد تعكبش في رأسه غصن من اغصان الحلم الاول فزاده خبالا . فكان يقول اذا سمع صوت الطبول من خيام العسكر واذا ابصر بريق سلاحهم . ألا تسمعون طبـــل الشيطان . يضرب به بعض الرهبان . الا تبصرون قرون الشيطان . كيف تتقد منهـا النيران . اذ تحتك بها النسوان . والسيدة زوجته غير مكترثة بصراخه ولا بتخييم العسكر قرب الدير لان حب الغصن لم يدع في قلبها موضعاً لغيره ثم منّ الله تعالى باصلاح الحـــال فسارت العساكر من البلاد وامنت الطرق والمسالك وسكن صاحب المعبر . فرأى ان يذهب الى مدينـة دمشق ويمر ببعلبك ليرى قلعتها العجيبة . فاكتروا لهم خيلًا وبغالاً وعزموا على السفر .

١٥

في السفر من الدير

ركب كل من الفارياق والغصن بغـلا وكل من السيدة وزوجها فرساً . وانضم اليهم ركب وساروا يقصدون دمشق . حتى اذا كانوا في بعض الطريق اجفل بغل الفارياق لوهم خطر له فقمص به وشمص . فالقاه على ظهره فوقع على وركه على صخر فقام يخمع مـع الخامعين . فجزع عليه صاحب المعبّر اشفاقاً من تعطيل مصلحة التعبير . وشمتت به زوجته اذ كانت تحسبه رقيباً عليها وعلى غصنها . وكذا مساءة الرجل قد تكون مسرة المرأة. وهنا ينبغي ان تضيف الى معلوماتك الواسعة هـذه القضية . وهي انه لا شيء من انواع السفر اشق من الركوب على هذه البغال العاتية فانهـا بلا سرج ولا لجم ولا ركُب .وقد جعل لها هؤلاء المكارية الحمقى بدل اللجم حبالاً تتصل بسلاسل من حديد جافية . يمسك الراكب بيده سلسلة فاذا شرد البغل وهنت يـد الممسك بها عن كبحه . والعـادة انه متى شرد بغل شرد سائر البغال . ثم اجفل بغل الغصن فمال عن ظهره وتعلقت رجله بحبل فتدلى رأسه يخبط على الارض . فذهب ما عند السيدة من قليل الصبر عنه . ولم يقدر احد على رد البغل . فكنت ترى عينها في جهة وقلبها في جهة اخرى . وكبر منها مـا كبر . وصغر ما صغر . وجف ما جف . وقف ما قف . وابتل ما ابتل . وانحل ما انحل .واقشعر ما اقشعر . وازبأر ما ازبأر . وتنغّض ما تنغّض. وانتفض ما انتفض . وتنضنض ما تنضنض . وتلمظ ما تلمظ وتلظلظ مـا تلظلظ . وضجم مـا ضجم . وشخم ما شخم . وغدت تتململ وتتلوّى . وتتقلب وتتحوى . ودخل في رأسها اول مرة في عمرها مُنيةُ أن تكون

رجلاً لتجيره . ثم هون الله الصعب ووقف البغل فاستوى عليه الغصن وساروا حتى وصلوا الى بعلبك والفارياق على رمق فذهب وتفيأ في ظل شجرة فهوّم به النسيم فنام فقام منهوكاً . ثم ركبوا وبلغوا دمشق وهو مريض فاكترى غرفة في خان وبقي أياماً لا يقدر على الخروج فلما نقه توجّه الى منزل اهل زوجته وعرّفهم بحاله ففرحوا به . ثم عاودته الحمّى ثم افاق فرأى ان يذهب الى الحمام ليغتسل فلمّا رجع رجعت اليه . واتفق انه نزل يوماً الى المرحاض فأغمي عليه فيه فوقع وقد دخل رأسه في شق المرحاض فجعل يصرخ ويقول: ألا ان رأسي في الشق . الا ان الشق في رأسي . فبادروا اليه فرأوه على تلك الحالة . فمنهم من ضحك منه ومنهم من رقّ له . ثم عوفي قليلاً فبدا له ولصاحبه السفر . ولكن لا بدّ لي قبل رحيله من هذه المدينة الشريفة ان ارهقه واعسره حتى يصف لنا محاسن نسائها اذ هو لا يحسن شيئاً غيره .فاما الكلام على خوّاص نبات الأرض ومعادنها وهوائها وعدد سكانها وعلى الامور السياسية فليس من شأنه .

قال دخلت دمشق وبي حمّى صحبتني من بعلبك . وما كدت انقه حتى سافرت منها فلا استطيع وصف نسائها الا وصفاً سقيماً . فان رضيتم به اقول . اني لما دخلتها نزلت في خان يسمى خان فارس . فعيّن لي صاحب الخان عجوزاً لخدمتي فلحظت من طبّها وشَمْظها اي خلطها الكلام الليّن بالشديد. ان للعجائز يداً طويلة في المعاملات النسائية. اعني انهن يدخلن الديار بحيلة انهن يبعن للنساء ثياباً ليكتسين بها . فيخرجن من عندهن وقد تعاهدن على تعريتهن رأساً فهن السبب الاقرب والذريعة الوثقى في الجمع بين العاشق والمعشوق . فاما نساء المسلمين فقد ظهر لي في بادىء الرأي انهن اجمل من نساء النصارى . كما ان الرجال من المسلمين اجمل من النصارى وافصح لهجة وكذا هم في سائر البلاد الاسلامية . ولون النساء عموماً البياض المشرب بالحمرة . والغالب عليهن الطول والشطاط . غير ان هذا الازار الابيض الذي يتزرن به عند خروجهن من ديارهن لا يحلو للعين كحبر نساء مصر . وكلاهما مخفٍ

لمحاسن القد ولعلهن يلبسن ذلك عمداً لتأمن الرجال فتنتهن فلهنّ الشكر عليه . ولكن ما هذه المغازلة والاتلاع . وما هذا التبهكن والتبدح . افليس للقلب عينان يبصر بهما ما وراء ذلك الازار ؟ أيخفي الشمس غيم وهي لولاه لم يمكن لعين ان تراها . فاما زين في الديار فاشوق وافتن ما يكون . قال وقد ظهر لي ايضاً وانا موعوك بالحمّى بعد ان خرجت من الخان وشممت رائحة الزائرات من النصارى انهن مؤانسات حلوات الحديث والشمائل مناطيق . حتى اعتقدت ان شفاي يكون بذلك . ولولا اني خشيت من التبخيل بالاستغناء عن الطبيب ولا سيما ان ابي كان قد توفي بدمشق فالقى في روعي اني الحق به لما احتجت الى علاج آس . وحين كنت اسارق النظر اليهن وانا على الوسادة كنت المح في صدورهن حين يتنفسن شيئاً يربو ويشبو. ثم رأيت بعض اعيان المسلمين يزورون رب الدار وينبسطون معه في الكلام . وهم من الهيبة والوقار بمكان . فلا ادري ما الذي حسّن للمطران جرمانوس فرحات حتى قال في ديوانه :

فكأنني حلب برقة طبعها   وكان طبعك بالغلاظة جلّق

ولهذا القائل الاحمق ان يقول الحلبي شلبي . والشامي شومي . مع ان اهل الشام أرق طبعاً من اهل حلب وازكى اخلاقاً واطلق لساناً ويدا ومحيا واوفر سخاء وكرما . والدليل على ذلك ان دمشق مع كون النبي شرفها بقدمه وكانت مثوى لبعض الصحابة واصبحت وصيداً للكعبة وما زالت من ذلك العهد منزلا للحجاج . فان النصارى فيها يتبوأون داخلها الديار الرحيبة والمنازل الفسيحة . بخلاف النصارى في حلب فانهم لا يمكنون من السكنى الا بخارج المدينة ولا يدخلونها الا للبيع والشراء . هذا وقد حرس الله قطر الشام عن الزلازل التي يكثر وقوعها بحلب . وعن هذه الحبّة المشئومة المتسببة عن مائها . حتى انها كثيراً ما تشوه وجه من يصاب بها . فهل مراد المطران ان يقول ان نصارى حلب وحدهم ارق طبعاً. أم يصح ان نبخس الناس حقوقهم لاجل السجع والتجنيس . فيقال مثلا الجاثليق هَندليق . والمطران قَطران

والقسيس لهيس والراهب ناهب . والسوقي بوقي . والخرجي دُرجي . فامـا اللغة فليس لعمري من مناسبة بين فصاحة اهل دمشق وركاكة اهل حلب . لان حلب لما كانت متاخمة لبلاد الترك دخل في كلام اهلهـا كثير من الالفاظ العجمية . كقولهم انجق بيكفي يخرجون الجيم في انجق مخـرج الجيم التركية ويتقلّـنه اي يستعمله وخوش خيو وما اشبه ذلك ما عدا لكنتهم ولخلختهم في نطق الالفاظ العربية .

ثم ان الفارياق سافر هو وصاحبه الى بيروت ومنها الى يافا . فدعاهـما وربان السفينة نائب قنصل الانـكليز بها (هو غير الخواجا اسعد الخياط اللبيب البارع) ليشربوا عنده الماء بالسكر المعروف بالشربات مما اشتهر ايضـاً بهذا الاسم عند المؤلفين من الافرنج واستعملوه في كتبهم لا في ديارهم فساروا معه فاحضر لكل منهم كأساً تليق به بحسب ضخامة جثته . فلما فرغت الدعوة اقلعوا الى الاسكندرية ثم الى الجزيرة واقاموا في معتزلها . فبعث الفارياق الى زوجته يخبرها بوصوله ويستدعيها للاعتزال معه . فقالت انا لا احب الاعتزال ولا الكسل . ثم وافت بعد ذلك ولما استراح الفارياق من الم السفر استروح منها رائحة النساء

١٦

في النشوة

هي رائحة امّ دَفار . استوى فيها مادبّ وطار . وسلك في البحـار . وتفضيلها في العنوان فهل أنت ذو استذكار .

١٧

في الحض على التعري

ثم دخلا البلد ورجع الفارياق الى التعبير واصلاح البخر . وبعد مدةوجيزة قدم على صاحب المعبّر رجل من العجم قيل انه كان مسلما ثم تنصّر وانــه شاعر مفلق ذو شهرة بين علماء فارس . فسار ومعه الفارياق ليسلما عليه في المعتزل واذا به جحشوش حتروش حزقّة ألحَي . فلما دخل البلد اقام في المعبّر فرأى الرئيس بادىء بديء ان يحلق لحيته . فجيء بالحلاق واعمــل فيها الموسى فلمـا انتهى الى شاربيه سترهما الشاعر بيديه فاقبل اليه صاحب المعبر وبيده كتاب ليحجّه منه على لزوم حلق الشوارب . فدار بينهما البحث والجدال حتى رضي الرئيس بنصف الشعائر. فلما كان ذات يوم من الايام المشئومة ذهب الفارياق الى المعبر فوجد الرئيس قــد تعرّى من ثيابه بالكلية وجعل يطوف في الدار على هذه الحالة ويحض الناس على الاقتداء به . ويقول يا ايها الناس ما جعلت الثياب الا لستر العورة . ولا عورة لمن كان طاهراً بريئاً من الذنوب والمعاصي . فأن آدم لما كان في الفردوس في حالة العصمة والبراءة لم يكن له حاجة بالثياب فلما انتهى الى زوجته ليغريها بالتعرّي قالت له ان النساء لا عصمة لهن الا في الليل فلا بدّ لهن من الستر نهاراً . فرآه العجمي على تلك الحالة فسأل الفارياق قائلا ما بال صاحبنا قد غيّر اليوم زيّه الاسود وتردّى بهذا الزيّ الاحمر. قال هو من جنود الخرج والجند هنا يلبسون اللباس الاحمر . ثم اشتد اللمم بكل منهما واستحكم . فخافت الزوجة ان يتلاقيا في مأزق وينشب مسا بينهما الجدال او الجلاد . فرغبت الى الفارياق في ان يضم اليه العجمي . وكان الغصن قد قدم اليها في اثناء ذلك من الديار الشامية وهو

مترجم عن جنى شهي ، وجذع قوي . فبوّأته عندها مقاماً كريماً .وحاولت ان يخلو لها معه المعبّر خلوّاً مستديماً . ولو بدوام لمم بعلها . وفقد اهلهافاقام الغصن في ارغد عيش وأهنأ حال . وظلت هي معه اشغل من ذات النحيين في اصفى بال وظل زوجهـا يحض على التعري . وانه من شعار المتزكي المتبرّي .
ولبث العجمي في منزل الفارياق . وانمـا قبله عنده لدمامته وضعفه ولغلبة السكوت عليه . فلما كان ذات ليلة وقد رأى عند زوجة الفارياق نساء حسانا انحلّت عقدة لسانه ونطق بكلام دلّ على انه لم يتنصّر عن هدى وانما اضطره الى ذلك ابو عمرة ثم بات تلك الليلة وقـد اضطرم الغرام في قلبه فخرج ليلا يقصد غرفة الفارياقية . فأحسّ به زوجها فبادره بمجبل وهو لا يستطيع دفاعاً عن نفسه فلما كان الغد شاور زوجته في امره . فقالت اظن ان هذا العجمي انما جنّ لعدم الزواج وكذا سائر المجانين . الا ترى انه لما رأى البنات عندنا البارحة تهلل وجهه وتكلم ؟ فقلت مـا ارى الحق معك هذه المرة فان صاحبنا الخرجي جنّ من بعـد الزواج قالت لكن عقله كان قبل ذلك مختلاّ بالاحلام . ولما تزوج لم يؤدّ الزواج حقه فاقتصّ الحق منه فليعتبر به غيره . قلت من اين علمت هذا ؟ قالت ان المتزوج لا ينبغي له ان يكون فضوليا يتعرض لغير ما هو فيه . قلت هـذا تعطيل لمصالح الخلق . قالت لا تعطيل فاني لا امنعهم عن العمل بل عن فضول الكلام . واللهج بالاحلام . فان التمحّل لعلم خرق العادات ، اجهد من التحمّل لعمل عادات الخرق . ألاّ ولو كان الامر الي لداويت المجانين كلهم بالنساء ومن النساء وعن النساء . قلت أكل حروف الجرّ للنساء . قالت نعم كل الجرّ في النساء . قلت قد حذفت الحروف. قالت بل هي باقية قلت دعيني من المطارحة وافتيني في امر هـذا المجنون . قالت ردّه الى المعبّر واني اكره طول مكثه عندنا مخافـة ان احبل فيأتي الولد على شكله . قلت ما مدخل الجنون في الجنين . قالت اوليس الاولاد يأتون بيضا صباحا ووالدوهم قباح . فلو لم يكن لعين الامّ من فاعلية عند توحّمها لمـا كان ذلك . قلت هذا رأي يودي الى الكفر والمحال اما الكفر فلانك تزعمين ان المرأة مشاركة في خلق الانسان . واما المحال فلانّ المرأة لو كان لهـا

فاعلية في ذلك لاشبهت الاولاد آباءهم أو لجاءوا كلهم صباحا. قالت اما جواب الكفر فلا ينكر ان يكون الله عز وجل قد خلق هذه الخاصية في المرأة وهو مسبب الاسباب. بمعنى ان القوة الوحمية التي اودعها فيها الخالق القدير تكون مؤثرة في كونية الولد . واما جواب المحال فلأن المرأة ابـداً تشتهي ان يأتي ولدها على غير هيئة أبيه . ومـا تراه منهم مشبها أباه فالغالب انه البكر . قلت كثر الله من امثالك ما كأنك قرأت الكلام الا على الاشعري قالت نعم الكلام هنا في الاشعري لا في الجيش ولا النميص قلت المجنون المجنون ودعيني الى المجون فقــد كدت تلحقيني به بكلامك هذا المعصود قالت متى كنت تكره العصد ، وهو لك غاية القصد . اما المجنون فليس الا" ما قلت انطلق به الى المعبر ودعه هناك من غير ان تخبر به أحداً. قال فانطلقت به وادخلته في احدى الحجر وقفلت عليه الباب. فلما جاع طفق يعالج الباب ليخرج فسمعه الخادم فاخرجه . فتوصلت زوجة صاحب المعبر في ان رجعته من حيث جاء وعزمت على السفر بزوجها الى بلادها . وناب عنه آخر من بلاده في المصالح التعبيرية ولكن لم تطل مدته لأسباب يأتي بيانها. وقبل ايرادها ينبغي ان نختم هذا الفصل بما نظمه الفارياق حين كان رئيس المعبّر يحض على التعرّي وهو

الا تريــد صاح ان نجنّا	ونخلع اليوم الثياب عنــا
ولا ننــام ليلنا ان جنّا	ولا نسي بالنســاء الظنّا
ولا نرى متى يجي حنــا	وان يغب نقل مريض مَنّا
وان أتانا فاسق وزنّا	نركبه الخيــل فلا يعنّى
ونجعـل الزوج له مجنّــا	تقيــه من كل معَنّ عنّا
ولا نبالي ان رأينا قرنا	قـد طنّ في اصداغنا ورنّا
فقد رأيت العقل يضنى الطُنّا	ويحـــرم الحرّ الذي تمنى
ولن ينــال الحظ مطمئنا	الا الذي باح بمـا اكنّا
مه ايها الشيخ الذي اسنّا	ما انت والغنّاء والاغنّــا
تدخل في مضايق وتعنى	وما تبالي لو لقيت وهنا

ماذا لقيت من نزير جنّا ومن طواف ههنا وهنّا
وافيتنا في شهر نحس اخنى على المحبين فقلنا انّا
لم تخل دار بتّ فيها معنا من حادث غارة سوء شنّا
يشكوك كل ذي عيال منا اوردتهم من كل رزء فنّا
فمن مجانين اباتوا الهنّا ومن مصاب بالحمام أطْنى
ومن عليل دنف قد انّا حتى رثى الضدّ له وحنّا
قدك اتّئد اوقدت فينا الحزنا وقد شحنت المصر همّا شحنا
فاظعن هداك الله وارحل عنا من قبل ان تقطع عنه الطحنا
وتنضب الماء وتنفي اليمنا عن بلد من قبل كان امنا
واختر بغير ذا المكان كنّا تأوي اليه مستريحا طمْنا
فما عليك ان اصبت غبنا ثمّ ودَعّا او لقيت زَبْنا
او كنت تأتي هَذَرا وأفنا وتنظر القبيح منك حسنا
بحيث لا تبصر يوما قرنا وكاشحا اخفى عليك ضغنا
كما اصبت ههنا خُبُنّا أصدأ منك الضرس ثم السنّا
لو استطاع لقراك سجنا تصبح فيه للرزايا رهنا
شيطانه عليك قد تجنى يقول من تبغك قد اسنّا
جعلت في دار الصلوة قرنا دخانه عمّ واعمى الرعنا
وقال قوم تُفْله اصنّا ولحنه يبلغ ضرّا منّا
فليبغ في دار سواها خدنا وما علينا ان سخا او ضنّا
وان بكى من شؤمه او غنّى او اخلص الدعا لنا او لعنا
او خار من جوع وذلّ وهنا او قال صرنا بعد ما قد كنّا
انك يا مغرور لم تعشقنا ولم تعرّ بنا ولم تَشُقنا
فلا جزاك الله خيراً عنا

١٨

في بـــلوعـــة

لما فرغ الفارياق من تعبير الاحلام كلّف ان يترجم كتابا لِلجْنة في بلاد الانكليز فترجمه لهم بلغتنا هذه العربية على ما اقتضته قواعدها. واتفق وقتئذ ان سافر المطران اتناسيوس الحلبي التتونجي مؤلف كتاب الحكاكة في الركاكة الى تلك البلاد في بعض مصالح ترتمية . فتعرف باللجنة المذكورة وافادهم ان لغة الفرياق فاسدة رأسا . وذلك لخلوها مما اشترطه على المترجمين والمعربين في كتابه المذكور . وان النصارى يحبّون الكلام المسلط المسطل . وانه قد ربا في هذه الصنعة مذ عهد طويل وربى فيها كثيرين في مدرســـة عين تراز وفي غيرها .

وان لاسفار الكنيسة منهجا يخـــالف اسفار الورى ويغاير
وان لفي اللفظ الركيك تبرّكا ويُمْنا لقوم عنهم العار ظاهر
وان غَناء اللحن في القول عندهم لكَـاللحن في الايقاع والاصل ظاهر
وان نسبة المولى الى الله منكـَرٌ ومن ولوُا الادبار كلٌّ يحاذر
وان تكاة جمع متـّكيء اتى وان مَصُونا لا مصانا لنـــادر
وللشعب دون القوم معنى مشّهر وفي ملك لا في ملاك كبائر
وان عبيداً لا عباداً مضافةً الى الله أوْلى ما لذا الحكم ناكر
وان عذاباً كالركاكات جمعه وان لم يرادف باقي الشيء سائر
وما واعظيها قيل بل موعظينها ومن قال ادّوا دون ودّوا مكابر
ومن ردّ قل ان شئت صوغ اسم فاعل مُردّ كذا قال النصارى الاواخر

ويظهر يُلغيه يبان نظيره   وصرنا بَنَيْنَا بالتذخّر كاثر
وجمع مَصَفّ للاله مسبّح   وبعد كما للعطف واو تباشر
ومن بعد اذ جزم المضارع واجب   ونعت المثنى بالذي متواتر
واثبات باء الامر من ناقص كما   حكاه له قس الشوير المعاصر
واثبات نون الرفع في الفعل بعد كي   وأن مستفيض هكذا نص زاخر
ومن بعد يعطى نصب نائب فاعل   وجوبا وحذف الفاء في الشرط دائر

وطلب من اللجنة المذكورة ان يفوضوا اليه تعريب الكتاب الذي مرّ ذكره ليحظى عند النصارى بالقبول والاّ فلا . فلما رأوه ذا لحية ولا سيما انه متحلّ بحلاء مطران والمطران عندهم لا يكون الاّ عالماً فاضلاً اعتقدوا فيه الفضل والعلم وفوضوا اليه العمل . ولهذا السبب خاصة بطل المعبّر ولم يبق للفارياق الا مرتبه من وظيفة اصلاح البخر . وهنا ينبغي ان يلاحظ ان الانكليز اشد الناس حرصاً على الالقاب . فاذا زارهم احد من البلاد الاجنبية متصفاً بلقب امير او شيخ او مطران حظي عندهم الحظوة التامة . ولا سيما اذا كان يتكلم باللغة الفرنساوية . اما لقب المطران فهو عندهم من الالقاب التي تغني صاحبها عن توصية وتنويه . اذ ترجمة هذه اللفظة تجري لديهم مجرى قولهم رئيس اساقفة . ومن حصل على هذه الدرجة منهم حصل على دخل اربعة آلاف ذهب من الليرة . فاما طول اللحية فهو عند العرب ليس بدليل على الحلم والنباهة كما يتبين من حكاية المأمون مع الفقيه علويه . ولكن عادة العجم غير عادة العرب .

ثم ان الفارياق لما آن وقت بطالته من اصلاح البخر وهو ثلاثة اشهر الصيف في كل سنة عزم على ان يسافر الى تونس . فركب في سفينة رئيسها من اهل الجزيرة الذين هم بين السوقيين والخرجيين مرة . ومرة بينهم وبين الفلاسفة . وبعد سفر اثني عشر يوماً كلها خطر وعناء بلغوا حلق الواد . فكان بعض الملاحين يقول في اثناء الطريق انه انما وقع لهم ذلك بخلاف العادة لكون الرئيس سافر يوم الجمعة خلافاً لسائر الربّانيين فانهم لا يسافرون فيه اصلاً

اما احتراما له او تشاؤما منه . لكن الفارياق كان يعلم حقيقة السبب وهو هبوط طالعه . وان نيّة سفره سواء كانت قريبة او غير قريبة لا يبلغ اليها الا في مدة اثني عشر يوماً . وانما كتم ذلك عنهم . قال اما المدينة فانها ضيقة الاسواق صغيرة الحوانيت . غير انها طيبة الهواء والمأكول والمشروب كثيرة الفواكه . واهلها طيبون خيرون يكرمون الضيف ويحبون الغريب . وفيها من المغنين والعازفين بالات الطرب كثير ومعظمهم من اليهود .ونساؤهم حسان سمان بيض دعج برغم النصارى القائلين ان الله لعنهم ومسخهم بعد صلبهم سيدنا عيسى عم ونزع منهم كل حسن باطني وظاهري . غير اني اظن ان القسيسين اذا نظروا يهودية جزلة بضّة ربحلة يبدّعون صاحب هذا المذهب ويفنّدونه . وانما يقول ذلك منهم من كان لزق النصرانيات ولم يرَ غيرهنّ . ومعلوم ان النفس ترغب في الحاضر الموجود عن الغائب المفقود . او لعلهم يريدون ان المسخ انما نزل بالرجال دون النساء فليُسألوا . وان كثيراً من هؤلاء الغير المسوخات غير بعيدات عن الغَصن والهصر . ومن عادتهنّ ان يمشين غير متبرقعات مكشوفات السوق . ثم لمّا ازف رحيل الفارياق من المدينة قال له بعض معارفه من اهلها لو مدحت واليها المعظم . فانه اكرم من اعطى وانعم . واكثر الناس ارتياحا الى الجود والمعروف . قال قد نويت الان السفر فلم يعد لي ممكنا غيره . ثم رجع الى الجزيرة وكان من جملة الركاب الذين رجعوا معه رجلان نمساويان احدهما ابن احد التجار الاغنياء والآخر من قواد عسكر البابا . وكان هذا قد اخذ من الفارياق واحدة منهذه النبخات الدقاق فردها عليه بعد يومين . فلما استقر الفارياق بمنزله خطر بباله ان ينظم قصيدة في مدح جناب المولى المشار اليه . فأنشأ قصيدة طويلة ذكر فيها كل ما شاقه هناك من المحاسن ولكن من دون تعرّض لذكر محاسن نساء اليهود . فلم يشعر بعد ايام الا والمولى المشار اليه بعث له بهدية من الماس تضن بها الملوك على ندمائهم . ومعها كتاب من ناموسه المعظم ووزيره المفخم مصطفى باشا خزندار . هذه صورته .

«الحبّ الذي رعى المودة شأنه . والكمال سجية قام بها عمله ولسانه»

الاديب الاريب . الآخذ من كل فنٍّ اوفر نصيب . حسن الاخلاق . والحائز في مضمار البلاغة قصب السباق . البـــارع الفارياق . لا زالت محاسنه نيّرة الاشراق . وبلاغته كواكب آفاق . اما بعد فان ولي نعمتنا ومولانا وسيدنا المشير احمد باشا باي امير الايالة التونسية . لا زالت بوجوده محمية . بلغ لرفيع جنابه من آدابكم قصيدة تحلّىّ بها شعركم . واتضح بها فخركم . ويدوم بهـا ذكركم . فلله در منشيها ومبدعها وموشيها . حيث ملك من البلاغة دانيهـا وقاصيها والقت لديه مقاليدها ونواصيها . والمولى ايده الله حسن لديه موقع خطابكم . واثنى عن بلاغتكم وآدابكم . ووجه لكم من حضرته العليا حكة تتذكر بها وداده واىالته وبلاده . فاقبلها من افضاله ومن نزر نواله . والله يحرسكم بعين عنايته . ويسبل عليكم ستر عاقبته . وكتبه الفقير الى ربه تعالى مصطفى خزنة دار الدولة التونسية في الرابع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة ١٢٥٧ . »

وفي اثناء ذلك قدم المطران التتونجي الى الجزيرة فبلغ الفارياق قدومه ولم يكن عرف ما افتأت عليه به عند الانكليز فذهب ليسلم عليـــه وادبه الى وليمة اعدّها له . واقام المطران في بعض المنازل يشتغل بترجمة ذلك الكتاب الذي زاحم الفارياق عليه . وظل الفارياق ينتابـــه حيناً بعد حين وهو غير موجس منه شيئاً . فلما كان بعد ايام ثارت في الجو حاصب ومتشغزبة ومنسبة منشبة ونكباء وَهبُوبة وحُرجوج وخجَوْجاة ودرّوج وَسهُوج وشجوجاة وبارح وسَناخة وخِنذيذ وصَرْصَر ومشلكرة واعاصير ومعتكرة وُهباريّة وروامس وزوابع وُزعزعان وَهيْرع وجَفجف ورَفْزاف ومسفسفة ومُسْنفة وعواصف وخَرْفا وزِحْلِق وزهلق وسَهْوق وحاشكة وساهكة ورَعْبَليل وطَيْسل وعَياهل وسَهام وسَفُون وَوَرْهاء وميْلاء وسافياء . ثم جاء على عقبها روائح هنبيّة صُهاحية زنخية سنخية إفاخيّة عَبَاديّـة خَجرية ذفرية عدارية امدرية امذرية خُنازية طَفاسية ُحطاطيّة عفّاطية عفَطانية شِياطية ناِضفية زَهْمَقية خبراقية صَليّة خَيْغامية صَنَمية قنمية عجانيـــة لخنية

نَـجْوية مختلطة بُطـُمطانية ولخـُلخانية ورتيـّة ولغلغانية وقلقلانية وكسكسية وكشكشية . واذا بالمطران المزبور قد غاص في بلوعة فوهاء في تعريب ذلك الكتاب. ولما كان جاهلاً تصليح الطبع زيادة على جهله باللغة كان لا بد من تبليغ هذه الروائح الخبيثة منزل الفارياق. فان مدير المطبعة كان من اصحابه فكلـّفه بان يصحح غلط الطبع من دون تعرض لتصحيح الغلط في الترجمة وحين عرف سبب قدوم المطران ومكايده . فصرّ بعض هبّات كريهة من تلك الروائح وبعث بها الى اللجنة المذكورة واقام ينتظر الجواب .

ثم اتفق بعد مدة أن قدم الى الجزيرة السيد المعظم سامي باشا المفخم المشهور بالمناقب الحميدة . وكان للفارياق دالـّة عليه فسار اليه ليهنئه بقدومه . فكلفه المشار اليه بان يمكث عنده مدة الاعتزال فاخبر زوجته بذلك. فقالت له كم مرة اقول لا خير في الاعتزال . قال لا بأس به اذا كان مع امير فان شرف الاسم يكفي. قالت لا يغني الاسم عن الفعل شيئا . قال فقلت بل اجتزا به كثير . قالت أمع جارٍ له . قلت لا ادري. قالت لو كان الاسم يغني لكانت المرأة تكتب على موضع من جسمها لفظة امير . قلت اعوّض ما يمضي . قالت والا فامْض على العوض . قلت ما أعجل النساء . قالت وما احبّهن للابطاء . قلت قد كنت اودّ لو ان الله خلقني امرأة او انه يصيرني امرأة اما الآن فلا اريد اذ لا صبر للنساء كالرجال . ومن يعش في هذه الدنيا فلا بد وأن يكون صبوراً . قالت لو لم تكن النساء اصبر من الرجال ما كنّ يعمرن في الارض اكثر منهم على ما يلحقهن من اوجاع الحبل والولادة . قلت ليس هذا هو السبب وانما هو ان الصالح من الناس لا تطول حياته على الارض بخلاف الطالح . قالت هل في الرجال صلاح وما من فساد الا والرجال مخترعوه . هل تفسد الاناث في الاناث ما تفسده الذكور في الذكور . وهل يفسد النساء غير الرجال. ومن ذا الذي يتصبّاهن ويتالفهن ويتنقشهن ويغازلهن ويغويهن بالمال والوداد والوفاء غيرهم . حتى اذا استوثق احدكم باحدنا فأحرز سرّها ذهب في الحال وباح به وربما سكر مع بعض معارفه او تساكر

فافتخر امامهم بافشاء ما يجب كتمانه وبهتك ما يلزم صونه . الا وان الرجل الرجل منكم ليعتمد على ما خصه الله به من القوة والبأس فيعتقد ان له الفضل على المرأة في كل شيء ولو كان الفخر بالقوة لكان الفيل افضل من الانسان .

نعم انا ليسرنا ان نرى الرجل شيظما ايّدا ولكن لا يليق به والحالة هذه ان يأتي امرأتَهُ الضعيفة المسكينة فيعاملها بالخيعرة والدغمرة والدنقرة والزنترة والزنخرة والزمجرة والزنهرة والشنزرة والشنصرة والشنظرة والشمصرة والعجهرة والغذمرة والغشمرة والغيثرة والخزربة والخطلبة والخظلبة والدحقبة والدعربة والدنحبة والزغدبة والسقلبة والشغزبة والشهجبة والصرخبة والصعنبة والطغربة والعثلبة والعصلبة والغسلبة والقحطبة والقرطبة والنيربـــة . ثم اذا ذهب الى اخرى اوهمها انه اسيرها وعانيها وقنّها ورقيقها وقَيْنها وَقنّورها وماهِنها وُقنْجلها ومملوكها وذليل حبّها ودنف غرامها وعميد عشقهـــا وصريع هيامها وميت هواها وشهيد حبّها . وان الله تعالى لم يخلقه في الدنيا الا لمرضاتها. قال فقلت اذا كان الرجل مخطئا في ذلك فالمرأة غير بريئة ايضا لتصديقها اياه وانقيادها له . قالت انما تصدّقه من صفاء سريرتها وسلامـــة صدرها . فان الصادق لا يرتاب في كلام غيره وان الكريم ينخدع . ولو ان الناس سمعوا مثلا بان امرأة متزوجة تحب غير زوجها لانكروا عليها ذلك كل الانكار . واستفظعوه غاية الاستفظاع . فتطبّل به الطبول وتزمر الزمور وتكاتب الكتب . ولا يبقى في البلد احد الا ويروي عنها حكاية او ترّهة . فاما اذا سمعوا عن الرجل انـــه يحب غير زوجته فانهم يحملون فعله على وجه مرضي ويعتذرون عنه بقولهم ان امرأته غير زافنة . او انهـا جُخنّة مِنفاض . او ميراص او منشاص . او خذنفرة او غَـبوق او زخّاخة خقوق . او فتقاء غقوق . او رتقاء غفوق . او نجّاخة فشوش . او منخار حَضُون . او جَخْواء أخْجَى . او جُخراء وَهْوَى . او مُجخْرة ضحياء . او ضَهْواء ضهياء . او هَرِعة رفغاء . او سَلَـقْلق او مبتكاء . او قَـشْوَرا او مصواء . او ناسعة شقّاء . او مهلوسة او لصّاء أو لثية. او لـَخْجم. او خَفَيْفق ذات عَفْلَق او قَـلـْذم. او حَمَق وعَفَل او ذقناء . او ميقاب او فجواء أو لـَقْوة او خَشْواء . او قَنْشورة

أو ذَنْثاء . او قرثع او سلتاء . او خرُور او قعاء . او عائط او شرماء .
او عُنبلة او لخواء أو مجيّأة او رَمِيضة وغير ذلك من العيوب ولا يرون في فعله
هذا سماجة . مع ان للمرأة أسبابا تحملها على الشطح اكثر من اسباب الرجل .
قلت تفضلي بذكرها كي اجانبها . قالت اوّلها ما اذا لم يقم الرجل بوفاء حق
زوجته . وهو حق الزواج الذي من اجله تترك اباها وامها واهلها ووطنها
وبلادها وغير مرة دينها . قلت اللهم لطفك وعصمتك ثم ماذا . قالت ومنها
اهماله امورها وقلة اهتمامه بما فيه راحتها وانشراح صدرها وتطييب خاطرها.
وتلهيتها وتسليتها وترويتها وتحليتها وتدفئتها وتطريتها وتأسيتها وتقويتها وتمشيتها
وتغديتها وتعزيتها وتمنيتها وتمليتها وتهنئتها وتوقيتها. قلت نعم وتعريتها وتمذيتها
وتمريتها وتنديتها وتنفيتها وتمسيتها وتنجيتها. قالت نعم كل هذا واكثر حالة كونها
اسيرة بيته طول النهار قائمة بخدمته متعهدة لاموره. وهو يطوف في البلد من
مكان الى مكان وينتقل من سوق الى سوق . حتى اذا جاء منزله انطرح
كالمغشى عليه وقال ان الشغل جهده والجهد شغله وانه عرض له كذا وجرى
عليه كذا . مع انه هو الذي تعرض لذلك الكذا وجرى على ذلك الكذا .
ومنها رقة فؤاد المرأة والشفقة التي فطرها عليها الباري تعالى . فلا يمكن لها
ان تقابل رجلا عن مودته لها الا بالوداد او عن تملقه اليها إلا بالميل اليه والاقبال
عليه . وناهيك ما في الرحم والرحمة من الاشتقاق والمجانسة . قلت واعجب
من احتجاجك بهذا الاشتقاق التناسب بين معاني الكَيس . قال في القاموس
الكَيْس خلاف الحمق والجماع والطب والجود والعقل والغلبة بالكياسة. وبين
التمز والتزور والبسط والشرح والبُضع والبضاعة والشعور والمشاعرة واللمج
والقمط. وخصوصا بين ابي ادْراس وابي ادريس دامت الفتها في اللفظ والمعنى.
فقهقهت وقالت شرف الله لغتنا الجامعة بين كل متناسبين ومتجانسين . قلت
ولكن قد يلازم ذلك احيانا ما يسوء او ما لا يليق . نحو ارّ فانه بمعنى
جامع ورمى بالسلح . وجنّح رمى ببوله ومسح جاريته . ومعط جامع ونتف
الشعر وحبق . وجلخ جامع وبطنه سحجه وفلانا بالسيف بضع من لحمه
بضعة . ومتخ جامع وبسلحه رمى . وملخ جامع وجذب الشيء قبضا او

غضا وتردد في الباطل. وملق جامع وضرب بالعصا وجظ جامع وطردوصرغ وبالغصة كظّة . وخج جامع وبسلحه رمى . ولخب جامع وفلانا لطمه . ومتر جامع وبسلحه رمى . وجلد جامع وفلانا ضربه بالسوط واصاب جلده . وعصد جامع ولوى وفلانا اكرهه على الامر . وضفن جامع وبغائطه رمى . ومحن جامع وضرب. ومشن جامع وخدش. وأسْوى احدث وخزى وفي المرأة اوعب . وكذا حشأ وحطأ وحلأ وخجأ ورطأ وزكأ ولتأ وغير ذلك مما لا يحصى . قالت كل صعب في جنب ذلك يهون . ولا بدّ لجاني العسل من تأبره النحل. ثم اني فهمت من فحوى كلامك ان هذه الافعال في لغتنا الشريفة اكثر من أن تعدّ . وان اكثر المعاني قد وضع له فيها الفاظاً كثيرة تسميها العلماء اردافية على ما ذكرت لي سابقاً . قلت لم اقل لك هذا وانما قلت مترادفة . وان هذا الفعل بخصوصه له اكثر من مايتي لفظة . فكل لفظ دل على دفع أو نهز او ضغط او ادخال دل عليه ايضاً . قالت فهل تستطيع ان تذكر لي حرفاً يدل بالخصوص على الامتناع عن النساء عفّةً وتقوى . قلت لم يمرّ بي حرف بهذا المعنى والا لحفظته فاني مُولَعٌ بحب الحروف النسائية . والظاهر ان العرب لم تكن تعرف ذلك . غير ان تبَتّلَ وبَكُمَ يدلان عليه في احد معانيها . قالت في احد لا يغني شيئاً . ثم استمرت تقول ومنها وهو مستفيض عند اكثر النساء ان المرأة اذا احسّت باعراض زوجها عنها او بفدوره أو بالجفوة لها مع تحببها اليه واقبالها عليه وحالة كونها له عطيفاً هلوباً بعيجاً عروباً متبعّلة رعبليباً آنسة باهشة متبشبشة متهشهشة ذات رشرشة ومشمشة ونشنشة ووشوشة مدربخة وازكة منصعة واكعة مصوصا حارقة ان لم اقل عَلوقا وغير عازمة مالت الى غيره لتغيره وترده الى قديم محبتها . فان من الرجال الحمقى من لا يعرف قدر امرأته الا اذا رأى الناس يحبونها . فتكون محبتها لغيره علاجاً لمحبته هو . وهذا يسمى عندنا دغدغة وزغزغة وسغسغة . فأما عيوب الرجل فهي لعمري اكثر من عيوب المرأة ولو لم يكن به غير الزمالقية لكفى . وهل والحالة هذه يجب حل عقدهما أو يجوز او يمتنع اقوالٌ . فالنصارى على منعه مع انهم يقولون ان المقصود من

الزواج بالذات الانتاج وحفظ النسل . والطبائعيون والفلاسفة على وجوبه اخذاً بهذا القول عينه ومراعاة لأداء حق المرأة الواجب على الرجل وهو أمر طبيعيّ لا بد منه ولا محيص عنه . وبقي الجواز في عهدة غريمي الزواج . ان شاء بقيا على ما هما عليه والا افترقا وهو الاصلح . ولعمري ان المرأة التي ترتضي بأن تقيم مع زوجها من دون قضاء حقها لجديرة بأن يعيّد لها عيد في رأس كل سنة . أليس ان استاذك صاحب القاموس الذين تستشهد بكلامه في كل مشكل نسواني قد قال الرجل م والكثير الجماع . فاذا كان الزوج غير رجل فانـّى يحل له ان يحوز عنده امرأة لا يؤدي لها حقها . ايحل لرجل ان يقني دابة اذا لم يقدر على علفها . استغفر الله عن هذا التشبيه . أو لصاحب أرض ان يغادر ارضه غير محروثة ولا مزروعة ولا مسقية . افلا يجب ح على الحاكم الشرعي ان يشتريها منه ويولـّي عليها من يتعهّدها ويستغلها . واذا كان الانتاج وحفظ النسل مشتركاً بين الرجل والمرأة بل جلّ اركانه مختص بها ومتوقف عليها فلمَ لا يكون الطلاق مشتركاً بينهما ايضاً اذا اقتضت الاسباب ذلك . اذ الطلاق عندي من غير سبب ان هو الا بطر وسفه. واقبح من ذلك ان رؤساء النصارى يأذنون في مثل هذه الحال في فراق الزوجين . ولكن لا يأذنون لهما في الزواج وإن يكن داء الرجل عضالاً لا يرجى له علاج في مدة انفصاله عن زوجته . فأي حكمة في ذلك واي ضرر من تزوجها بغيره ليولدها البنين والبنات . فلعلما يأتي من بنيها من يفوق غيره بالكسل والركاكة فيصير راهباً او مطراناً . وعسى أن يأتي من بناتها من تتحمس بالوساوس والهواجس والاحلام فتصير راهبة. هذا وقد ورد في التوراة حكاية عن الباري تعالى انه قال تكاثروا واملأوا الأرض على مبالغة فيه . فان مَلء الارض بشراً يوجب خرابها لا عمرانها . وقال مار بولس ان المرأة تخلص نفسها بتربيتها البنين الصالحين . فهل تعليق الزوج والزوجة عن الزواج مطابق لنص هذين الحكمين . انظر الى اهل هذه الجزيرة فانك تجد اكثر الرجال منفصلين عن ازواجهم وعائشين بالسفاح . وقسيسوهم مصرّون على ان ذلك اوفق من الزواج الشرعي. مع ان القسيسين لا يعرفون الحقوق الزوجية لانهم غير متزوجين.

أيصح ترئيس رؤساء على الجند ممن لا يحسنون صنعة الحرب والمبارزة . فقلت لله درّك من اين لك هذا كله وقد طالما اشتبه عليك الامرد والمحلوق اللحية عند قدومنا هذه الجزيرة . قالت ربّ شرارة اضرمت اتوناً. اني كنت اعرف من نفسي اني لا البث ان انبغ في هذا . وذلك لكثرة ما كنت ارى واسمع عن المتزوجين من الخلاف والمعاسرة . والشكو والمنافرة . لا سيما وقد رأيت الآن بلداً غير بلدي واناساً غير ناسي . واختبرت عادات جديدة واحوالاً غريبة . فتوهّجت تلك الشرارة التي كانت مودعة في خاطري تحت دمان الوحدة والانفراد حين هبت عليها نكباء الاحوال المتغايرة والشؤون المتباينة. ولا سيما في ليلة الرقص التي لا تنسى. ومنذ خطر ببالي ان املي عليك كتاباً في حقوق الرجال والنساء ولا بد من الشروع فيه . قال سأفعل ذلك ان شاء الله ولكن الامير ينتظر قدومي عليه في المعتزل غداً فلا بد من التوجه اليه قبل انشاء الكتاب . قالت قد تشفّيت الآن قليلاً بما قلته فاذهب اليه وارجو ان لا تعاودني هذه الاهتقاعة إلا وأنت هنا . فاستغاث واستوزع . واستعاذ واسترجع. ثم ذهب الى الامير المشار اليه وبعد ان قضى معه مدة الاعتزال سافر معه الى ايطاليا ثم رجع الى الجزيرة محفوفاً باكرام الامير وانعامه.

١٩

في عجائب شتى

بُلَعْبيس حدَنبَدَى علمص خُزَغبله . فلَق فليق عبرة آدْب بَطِيْط فِتَكِر عجب َفنْك ضحنك بَهْرِ هتْر هَـكْـر إذْ بُجْر . زَوْل عَيْثى بَجَل طِمّ اَفْت غَرْو فَرِيّ . ان الانسان لا يعرف نفسه . هذه سيدتي الرسحا المسحا الرقعا الرفغا الرصعا المردا المصلا المزوا العصلا الجخرا الزلاّ القعوا النقوا الثطّا الضهيا الجخوا الجبّا المِزْلاج الكَرْوا العَصُوب المِنْداص الفلحسة تتخذ المراقد والحشايا وكبّة قطن تنفج به قميصها عن ثدييها لتوهم الناس انها دهساء وطباء . ولكن من اين جاءتك يا سيدتي هذه الحلية المباركة وهذا اللحم القَدِي . ونحن نرى ذراعيك كاليراعة او كعود التُكاعى . وعنقك كالعصا ويديك كالمشط ووجهك كالصابونة التي غسل بها القصّار ثياب القَديديين والفَدّادين والداجّ والداجَة وترائبك كالقفص وكتفيك مؤلّلتين مهلهلتين مرققتين مدققتين محدّدتين مقدّدتين مسربطتين مسمرطتين. فكيف غلطت فيك الطبيعة وسمّنتك في هذين الموضعين الكريين وعميت عن الباقي . وهذه سيدتي البُلْقوطة الدُعْشوقة الزُلُنْقطة الجَحَنْبرة الزّبازاء الجَعْبرة الخُرَنْقفة الدِنّامة الزَفيان العَشَبة الحُدُحّة الزُحَنة الضرزّة الزّونة البُهْترة الجُبّاعة القُمَهْزَية القَهْقَزية البُهْصُلة الدَّرّامة القَفَنْزعة القُرُنْبضة الفِنْثِل القنثل القَعْنبة القُنْبُعة القَزَمة القُنْذَعْملة الحَبَنْطاة الدَوَدْرَى القَرْزُحة الكَعْنَبة القُلّى الجِلِنْز الزعْنقة القُنْبُضة القِرْزِحْلة الحُنْزُقّة اذا مشت تطفر وتثب وتَنطع وتتالع وتعسج وتَهبع وتتطالل وتشرئب وتصلهبّ وتشمعلّ وتترقص وتزمهلّ . وتحسب ان الناظرين لا يشبّرونها باعينهم . ولا

يفتّرونها ولا يدرغونها بخواطرهم . ولا يدرون أي فراش يليق بها . وهذه سيدتي السوداء المسخّمة المدلهمّة المطرخمّة الفاتحة القاتمة الدهماء المدهامّة الحَتَنْاء المبرطمة الدلماء المدلامة السحماء الدجناء الدخناء الحَنْفَدْلَس تطلي وجهها بالحُمْرة والغُمرة والغمنة والحَوَر والزَّيْنة . ثم تصعّر خدها للناس وتنظر اليهم شزرا . وتتيه عليهم دلالا وكبرا ؛ فاذا حاولوا ان يروا موضعا آخر من جسمها ادارت لهم ذلك الموضع المطلّي المحمّر المنقش المزوّر ، . وجعلته شافعا في سائر اعضائها ، واوهمتهم ان المغطّى منها اشد بياضا من المكشوف وان لونها في الليل يكون ازهى منه في النهار . ولا سيما عند الخلوة ، فانه يزداد بهاء وجلوة . وربما حكت حكاية طويلة تدل على انها لما قامت في الغداة لم يكن لها وقت لاصلاح شأنها . فلبست ثيابها على عجل وخرجت وهي لا تدري كيف خرجت . وهذه سيدتي العجوز المتهدّمة . القُحِلة الشَهْربة . الطَهْمل اللَّحِبة . العَفْشَليل الصهصليق . الجلفزير الشفشليق. الخَنْظير الشمشليق. الدردبيس الطرطبيس. الشَلَمَّق الجحْرط. الشمّلق الجخْرط . الحِرْبِش اللطلط. الهَيْغرون الكُحكح . الهِرْشَفّة الجِلْبح . ذات القنثلة والنقثلة . والنعثلة والنغظلة [1] . لم تزل حَشْوَرة عزهاة تتفتّى وتتصبّى وتحزّق ثوبها من عند خصرها . وتُهلس اذا جلس اليها فتى في وكرها . وهذه سيدتي الجميلة البضة الغراء . السنيعة الغضة الفرا الصبيحة الزهراء العبهر الغيداء. الخُضُلّة الدعجاء. الخريدة الموقونةالعجزاء. الرشوف الشنباء . الخُنبة الذلفاء . السَّلِمة الكاعب . المصقولة الترائب . الحلوة الابتسام . الرخيمة الكلام . التي تسكر بمغازلتها . وتفتن بمباعلتها . وتصبي فؤاد من لم يصبُ عمره . وتتبله وتتيّمه . وتعبّده وتهيّمه . وان اخذ منها حذره واستحصر رشده وصبره ودينه وحجره . تراها تمشي والخفر قد نكس رأسها وغضّ طرفها فاذهلها عن ان تحس خطوها وتبدي زهوها . وليس بها شيء من التغنج والتضرج والتبرّج والتغوّج والتحلّج والتدبّج

---

(١) اسماء العجوز اكثر من ان تعدّ .

والتخفج والتدعلج والتدحرج والتبغنج والسترجرج والترجج والتسرج والتموج والتنفج . مع انها لو دخلت على حضرة الملك لقام لها احتفالاً . وناولها الميحار والمخصرة اجلالا . وانشدها

فديتك من مملكة علينا يحق لتحتها تحت الخلافة
خذي تاجي بادنى لثمة من ملاغم فيك او ادنى ارتشافه

او على حضرة ناموسه المفخم . ووزيره المكرم . لدهش عن شغله اكبارا لها واعظاما . والقى اليها الخاتم استسلاما . وانشدها

اليك الفصل في كل الامور على أسرى امير أو وزير
فما الدستور الا دس تَـوْر اليك فهـــل سبيل للشغور

ولو دخلت مجلس قاضي القضاة . لاهدى اليها الكنز والدر وما ملكت يداه . وانشد :

لها عليّ في الهوى حظان لا للذكر
فـــان لي سؤالين منهـــا ذا وذاك وطري

ولو دخلت على طبيب يعالج تيتاء لوصف له مسّ رأنفتها . وشم سالفتها . وانشد :

دهن السقنقور والترياق للعلل رضاب فيك وللعنّين ذي الفجَل
حتى اذا لم يدع في الريق من وشل ارشفته الخمر نعم الخمر من بدل

ولو خطرت على منجم لرمى الاسطرلاب من يده حيرة وذهولا ، وبلبلة وغفولا . وانشد :

لسنا نرى الا جمالك في الضحى فهو المنير يجنح ليـل اظلما
قد بلبلَ الفلكيَّ منك مفلّك فعليك تقويم الذي مـا قوّما

أو على فيلسوف لذهبت معه حكمته سدى . ولم يجد للصبر عنها رشدا . وانشد :

من حكاك الجسمين تقتدح النار كذا مذهب الذي قد تفلسف
وهي دعوى فان جسمي اذا احتك بهذي اسال ماء فانزف

أو على مهندس لاشكلت عليه الاشكال . وتبلبل منه البال . وانشد :

يفدي المكعّب منك كل مكعب ومحدّب ومقعر في العـالم
يا ليت ذا الشكل الهلالي الذي فيك استقرّ على عمودي القائم

أو على منطقيّ لخرج عن القياس . وخبط في الالتباس . وانشد :

على اللديدين مني ساقها وضعت يا حسن ذلك موضوعاً ومحمولا
اصبحت تاليها ابغي مقدّمها اذ كان كل سرور فيه مأمولا

أو على نحويّ لما ميّز الفاعل من المفعول . ورأى ان معرفـة ذلك من الفضول . وانشد :

رويدك إنني ما جئت نكرا لديك وليس لي ذنب فيذكر
برئت من النحـاة وحق ربي لقولهم بتغليب المذكر

او على عروضي لتقطع فؤاده، وكثر زحافه واسناده . وانشد :

هنـّدتني يا ذات كل ملاحـة وتركت قلبي بالغرام يعلل
ارعى النجوم الليل فيك واني مستفعل مستفعل مستفعـل

او على شاعر لدلع لسانه تلزّحاً . ثم تلمظ وتعطق ثم عض بنـانه قسحا . وانشد :

كم تاه صبّ بفرط العجب والتيه لكن حياؤك تأليهي وتوليهي
ان يولني منك تجنيسي مجانسة احمدت توريتي واخترت توجيهي

الا ولو انها مسحت على عنق كل مني ومنك ايها القارىء لاغنـاهما عن الحضيض . ومصح ما بهما من الورم والنـُفاخ والنفـَطة والغـُدد والعـُقد والقـَمد والقـَفد والحثـَر والعـُجر والعاذور والبـُجر والجـُدر والغبـَر والكـُمر والثغر والزّوَر والحبـَر والقـَصر والنعفـه والسـُلع . والنـَكف والغـَبب والغـَلب والذربه والترؤد والعصل والمقط والقسط والتشنج والتحجّن والتغضف التغضن

والتصعفر والتقبض والقفص والرّدن والتشنّن والكنع والتكريش والتكرش والتكمش والاشخاص والقره والقله والثأي والجما والحروة والتنبج والذّباح والرثيه والضواة والزرّة والخضعة والشاكة والادل والاجل والحدل والصمغة والقروح والخراج والدمل والعنبه والبثور والثآليل والخنازير والالتواء والهنع والحبون والندب والعثم والوكس والحبط والأجور والندم والعرب والعازر والاثر والطليا والعلب والعصب والقوباء والجرو والدغام والخدش والجلف والحشفه والحفت والقطوف والزرف والكدم والنسوف والغلصمة والحولق والحلاق والفرك والكتاف والهيض والخناق .

وهذه سيدتي الزّمّرة العنجرد الدّلعوس الالقة السلقة الملقاع الحنفس الخنفس العنفص البلقع السلفع الهروم المهضهضة الشنظيان البنظيان البهرج الطّليف المسجل الظلف الفانكة المنملة المتياح المزعاج المعنّة الخطّالة الخالجة الرّدة الزلزة المخناث الهلوك المتهالكه المتهتكة المستهترة الباغزة الحوّسة العواسة الدردم الدرّدب المتوهجة المتلعجة اللّفوت العجينة المقفاطّة الجلوط الخروط الخلطة الجليع الجلعة الخريع الجلقة الشنقه الشنيقة المعفاص المعقاص الجنبثة البيطريرة البظرير الدمراء القاشرة الجلبانة العنقفيز السّحلوت السّلخوت الهمرى النعّارة الهيعرة الهيرعة الهوزورة الزاغية السعوة الساعية الخيتروع الخيتعور العسوس الضّنوط المهاجن الخجأة الملألئة الشروب القعرة المستعربة المستضربة المستنخبة القفخة الوذاح المدرجة المردّة الضامد المستعقدة الفخذاء الثامدة المستدرة المستذرة المستضورة المستطيرة المستظئرة الشفرة القعرة القرور الهوسة المبلاس المنعظة الكرعة الواكعة التبعى المختلعة القمعة الهكعة الهقعة المنهقعة الضّبعة الظالع الوتغة الهينغ المستولغة المراغة الصارف الحلقيّة المستحلقة المستودقة الحارقة الشبقة المتفككة المداركة المفلكة المستجعلة المستوبلة المبنذم المدقم المبلم المهدم القسطمة الهدمة العظمة المستحرمة الغيلم المتوسنة المستأتية الحانية المتسداة التي قد علم كل واحد من اهل البلد حين

تخطر في اسواقه وشوارعه وازقته ودروبه ودروبه انها تدعوهم بعينيها وبجميع جوارحها الى التمشير الى القراب الى الاشغار الى الاقلعفاف الى الاشمعطاط الى الاشتهاذ الى الافضاء الى الاقتعاء الى الكفاح الى العراض الى التلفيع الى الدهفشة الى النشنشة الى الهكاع الى السباع الى التشيّط الى الحصحصة الى الاسواء الى الايعاب الى الرفش والقفش الى المحش الى المسح الى الاجفان الى الافطاء الى الانقاش الى القزْب الى الرّكّ الى البكّ الى المهك الى الهك والهكهكة الى الرهك الى الحرث الى الهقّ الى الزجل الى الاماهة الى الزعب الى الخوق الى الدعم الى الرّطم الى الكَوس الى الاقحاط الى الوَمس الى الدَعظ الى الدعمظة الى السّغم الى الاكسال الى الاطهار الى الغَفق الى الخفق الى الوَجس الى الافهار الى الظّلم الى التداؤم إلى التسني الى التقمقم الى التجبيبة الى الابراك الى التدبيخ الى الانسداج الى الانسراح الى الانشداح الى التنوّخ الى الدربخة الى الدهشرة الى المَشق الى السّلق الى الصلَق الى السّلقاة الى المزد الى الحرش الى الشقيّه الى المحارقه الى الكَشر الى النخب الى التفنشخ الى الظّهاريّة الى الترفغ الى التفشغ الى الفشاغ الى المُزمّعة الى القرفطة الى القرفصة الى الكابوس الى الخط الى لَيّ العرفجه الى التكويذ الى الشّفر الى التشفير الى التدليص الى التفخيذ الى التحييض الى الحَسَف الى التلجيف الى دحّ دح الى أرّ الى ازّ از الى باظ باظ تقعد في مجلس رئيسة بنات النّقَرى وتطفق تعيب على جاراتها انهن ينظرن من الشباك ويضحكن ويلبسن ويتعطرن ويتحلين ثم يخرجن ويمشين الخيلاء . ولكن أنسيت ياسيدتي يوم قلت لشيخك ما احد يعشق إلا ويتغير لونه عند ذكر معشوقه. فقال لك ليس ذلك بمطرد. فكابرت واصررت على قولك فكابر هو ايضاً واصرّ على انكاره . فقلت له حتى تحجيّه لو انك ذكرت لي اسم – انتبهت وسكت . فقال لك وقد طنّ قرن دماغه اسم مَن . فضحكتِ وقلتِ لا ادري . ويوم خرج بك ليفرّج عنك الهمّ في يوم راح فخرجت وقد كشفت نصف صدرك ولمعت الترائب والمفاهر واللعوة وهو لا يدري لغفلته . فلما التفت اليك ووجدك على هذه الحالة قلت ان الريح فعلت ذلك . ويوم كان يماشيك فقلت وانت ذاهلة

لغلبة الهوى افدي بروحي وجه من اهوى . فلما سألك قلت ما هو الاّ انت وما انت الا هو . ويوم ارسلت خـــادمك . ويوم بعثت خادمتك . وغداة كتبت رقعة دعوت فيها من شاقك . وضحوة تأخرت . وعشية تعطّرت . وساعة اعتذرت ، وفينة فرّمت . وليلة أوهمـــت وجمجمت . وفتّة همـت وهمهمت وهينمت . وتوّة تزبرجت وتعلمت . وتفئة أرتمت . وفيئة زمـمت وسلمت . وحينه استحرمت حتى دُعمت . الم تكن هذه القوافي كلها مكافئة لنظر جارتك من الشبّاك .

وهذا المطران اتناسيوس التتونجي قد صار الآن مترجماً معربا كاتباً منشئا وهو اضيق استا من ان يفعل . ولم يبال ان جرّ عليه بتعريبه است الكلبة وقـد حسب مضايق الحرف كلهـا سواء . وتعنّى وتعمّل . ولهوج ولهوق . وطرمذ وطرطر . وتفيّش وتحرّش . وقرمش وفشفش . وهربج وهلـج . وسفسف وهمرج . واخترص وتمثم . وتورّه وضهيأ . وانهأ ونيّأ . وتكسّس وتزبب وتنفج ولبلب . وخرشب وخشرب . وتحذلـق وتأبب . وتصوّك وترنح.وتندخ وتزنخ . ومردل وافجس. ومرطل وغطرس . وتفيهق وتشدق وعفك وبشك . وخرق وحزق . وربك ولبك . وعصد ولفت . وهو اعظم في نفسه من المتّشمـة [١] اليس في الكون من مرآة وزجنجل وسجنجـل وعناس ومنظار ووذيلة ولُجة وماريّة وزلقة ومَذية او زجاجـة او صفيحة فتنظر سيداتي هؤلاء فيها وجوههن وما هنّ عليه من الاحـــوال . اليس في الشرق من سيبويه فيصفع . امـا في الغرب من ابن مالك فيقدع . الا اخفش فيغار على هذه اللغة . ويرض رأس هذه الوزغة . كيف يظن الانسان انه عالم ولم يتعلم . وأديب ولم يتأدب . وفقيه ولم يتفقه . نعم انـه لا يرى جهله في مرآة كما يرى وجهه ولكن اليست الكتب هي مرآة العقـــل . فمتى قرأ كتب العلماء ولم يفهمها عرف حد ما وصل اليه من العلم . غير ان المطران اتناسيوس التتونجي مطران طرابلس الشام المقـيم في جميع البلدان الا فيها لم

(١) المتشمة امرأة وشمت استها ليكون احسن لها وفي المثل هو أعظم في نفسه من المتشمة .

يطالع شيئاً من مؤلفات العلماء . فغاية ما علمه من النحو باب الفاعل والمفعول ومن البيان نوع التجريد . ومن الفقه باب النجاسات . ومن العروض الوتــد المتحرك . ومن البديع رد العجز على الصدر . هذا حد ما عرفه وتبجح بـه في مدرسة عين تراز حين كان قيم تلامذتها. فاما سبب فراره منها الى رومية ثم من رومية الى مالطة ثم من مالطة الى باريس ثم فراره من باريس الى لندرة ثم فراره من لندرة الى مالطة. ثم فراره هذه السنة الى لندرة من بعض مدن النمسا حين كان يطوف فيها وعلى عاتقه الشلاق . وتشهيره هناك وتجريسه في الاخبار اليومية حتى حرم من تعاطي هذه الحرفة التي الفها مذ سنين كثيرة . وتسببه في زمن موسم لندرة في ان جمع جماعة مغنين ومغنيات من بيت اشق باش بحلب . واغواؤه اياهم على ان يقصدوا الموسم طمعاً في الربح . ودخوله معهم ومــع شركائهم اولاً في شروط المصروف والتجهيز . ثم استرجاعـه المبلغ الذي كان اداه اليهم واشتراطه عليهم اشراكهم اياه في الفائدة من دون ان يشاركهم في التعب . وذلك في مقابلة اغوائه وسعيه هذا الذميم الذي كان سبباً في تخسير رئيسي هذه الزمرة خسارة زائدة فلا يمكن شرحه في هذا الكتاب . وربمـا قال قائل هنا انك ايها المؤلف قد عبت على النـاس جهلهم انفسهم . وقــد اراك جهلت نفسك في هذا الفصل فاوردت فيه كلامـاً لا يليق بالنساء فقد تجاوزت ابن ابي عتيق وابن حجاج . قلت الحامل على ذلك امران . احدهما ابراز محاسن لغتنا هذه الشريفة . والثاني اني قصدت تشويق القارئين ممـن ملأوا حيطان ديارهم من قصب التبغ الى شراء كتاب في اللغة . فيا قارئاً ويا سامعاً . ويا راقئاً ويا عامساً . قل للمتعنت ان من كان فيه مرارة لم يستطب الحلاوة. وبعد فاني اترامى على اقدام سيدتي المدقم وسيدتي الدعشوقة وسيدتي الفلحسة وسيدتي المسخمة واطلب منهن العفو عن طغيان القـلم اذ لا يمكن لي ان ابيت هذه الليلة وهنّ عليّ غضاب .

٢٠

في سرقة مطرانية

لما رجع الفارياق من عند الامير المشار اليه اخبر زوجته بما احسن به اليه وبانه وعده بوظيفة حسنة في مصر . فقالت انا اسبقك اذاً وانت تنتظره هنا فاني قد اشتقت الى اهلي فدعني اسافر اليهم . قال لا بأس . فلما ازف الفراق اخذ يودعها ويقول : اذكري يا زوجتي ان لك في الجزيرة حليلاً يرعاك وخليلاً لا ينساك . فقالت من لي بهذا .. قال فقلت ايّ هذا تعنين . قالت انما اعنيك . قلت بل المتبادر غيري . قالت هل الحقائق تتوقف على بوادركم انتم العرب . وما زال دأبكم نبش ما في صدور النساء من الاسرار . وفقس ما في بوافيخهن من الافكار . ومؤاخذتهن بالدثّ والوهم . ومعاملتهن بالحدس والقسم . ومعالجتهن بالهجس والزعم . والرضخ والرجم . والتذقح واللغم . والرسيس والوغم . بدل العَمس والعَسم . والجلهزة والرأم . والحزم والوزم والجمش والفغم . والضم والدعم [1] ولو ان الله تعالى يؤاخذ العباد باللغو مثلكم لما بقي على وجه الارض من بشر قلت اكثر هذه المشاحنات ناشىء عن لغتنا فان كل عبارة منها تحتمل عدة معان لسعتها . قالت ليتها كانت ضيقة قلت وهذا ايضاً من ذاك . قلت وكذا ذاك في هذا . قلت وكذلك عليه .

---

(١) الدث الرجم من الخبر والقسم أن يقع في قلبك الشيء فتظنه ثم يقوى ذلك الظن فيصير حقيقة والرضخ خبر تسمعه ولا تستيقنه وتذقح له تجرّم وتجني عليه ما لم يذنبه والوغم واللغم بمعنى.وهو الاخبار بالشيء لا عن يقين والرسيس خبر لم يصح والعمس ان ترى انك لا تعرف الامر وانت تعرفه ونحوه الجلهزة والعسم انطباق الاجفان بعضها على بعض والوزم قضاء الدين والجمش المغازلة والملاعبة والفغم التقبيل والدعم مابعده .

قالت وتحته ايضاً فالاولى اذاً السكوت . قلت ليس عند ذلك . قالت انتم الرجال كلكم منخاريّون فطافطيون رفثيون . قلت من اين علمت ذلك . قالت قد رجعنا الى الوهم والقسم . قلت بل فلنعد الى الوداع . قالت نعم اني اسافر وليس لي من آسف عليه . قلت هل انا في جملة غير المأسوف عليهم قالت ما انت كأحد الناس . قلت وهذا ايضاً كلام مبهم الست برجل .قالت في احد المعنيين . قلت هل بقي لك عليّ شيء . قالت جمعهُ . قلت أعندك حساب ذلك في دفتر . قالت نعم قد غرّتنا تلحزكم في الشعر يا شعراء فزعمنا كم قوالين فعالين . فاذا بكم لا تحسنون الا الوصف . قلت ومن يحسن الفعل . قالت ومن لا يحسن الوصف . قلت واين حق الادب . قالت في مجالس العلماء لا في مجالس النساء . قلت ذلك يفضي الى الانبتات . قالت وهذا الى الانبتات . قلت كيف يمكن الفراق اذاً . قالت ان شئت الوزم الآن والا فدعه الى ان تأتي مصر . قلت كيف يتأتى وزم اعوام في ساعات او ايام ؟ واشفق ان احين وعليّ ذبابة . قالت اذا كنت لم تخش من الدين ، فما اخالك تخشى من الحين . قلت لقد اذكرت ناسياً وطالما حسبت الناس كلهم مثلي . قالت وانت انسيت ذاكرة لكوني لم ار لي مثلاً . قلت اذكري السطح واصفحي . قالت ليس الصفح الا من ذكر السطح . قلت اني اردت السطح القديم . قالت انما اريد الحديث . قلت يقال في الامثال لا بركة الا في القديم قالت يقال في الامثال لكل جديد لذة . قلت كيف الفراق وفي قلبك ضغن قالت يا حبذا الضغن . قلت اذا كان بمعنى الشوق اليّ . قالت نعم هي من الالفاظ الغريبة التي تعلمتها منك كالعِقَيون والفِطَحل والحبرة . قلت لعلك انست من العقيون العقيان ومن الفطحل الفحل ومن الحبرة الحِبَرة . قالت لا تأنس الحِبرة بالحبرة . قلت قد وقع ذلك فانهم قالوا النعمة من النعومة . قالت وقالوا ايضاً التسديد من السداد . قلت لم يرد في النهي عن ذلك امر . قالت هو مقيس على نقيضه . قلت هذا بذر في ارض سباخ . قالت وذلك قراح بلا حرث . قلت الكلام على البذر . قالت لا يمرؤ الطعام ما دام في

الحلق ولا يسوغ الماء الا اذا مرّ على الزلقوم ؛

ثم توادعا بعد مباراة الذمم وشيعها الى سفينة النار ثم رجــع الى منزله كئيباً مستوحشاً . لانهـــا كانت كثيراً ما تدله على الرشاد وتنهج له الرأي السديد . ثم لم يشعر بعد ايام الا وروائح المطران قد انتشرت وهي اشد اذى من الاولى . فبعث منها قدراً آخر الى اللجنة المذكورة وكتب لهم . ان لم تقطعوا هذه الرائحة من هذا الجو شكاكم كل ذي خيشوم . فلما بلغهم كتابه وعرضوه على طلاب العلم عندهم وجدوا ان قوله الحق . فبدا لهم ان يسدوا مسام المطران عن اخراج ذلك الخبث . وان يحضروا اليهم الفارياق لاعــادة ترجمة الكتاب الذي تقدم ذكره . هذاوقد كان الفارياق الـّف في احوال اهل الجزيرة كتاباً وعاب عليهم فيه بعض عادات ورسوم دينية ودنياوية ممــا تفردوا به على نصارى بـلاده . وذلك كتغطيسهم اجراس الكنائس في ماء المعمودية واطلاق اسماء القديسين عليها . وكخروجهم بالدمى والتماثيل نهاراً وايقاد الشموع امامها وما اشبه هذا . وكان قد اعار الكتاب المذكور رجلاً من المسلمين ممن كان المطران يتردد عليه . فاتفق ان زاره المطران يوماً فرأى الكتاب على كرسي وقــد عرف خط مؤلفه . فغافل الرجل حتى خرج من الحجرة وتناول الكتاب وقطع منه الاوراق الــتي اشتملت على ذكر تلك العادات . ثم بعث بها الى رئيس مصلح البخر وكتب عليها باللغة الطليانية . انظر ايها الرئيس ان كان قائل هذا الكلام يصلح لان يكون تحت رئاستك أو لا.الا ان الرئيس المذكور لما كان لا يعرف ما اشتملت عليه تلكالصحائف مع عدم قدرته على عزل المتوظفين في خدمـــة الدولة . كان لا بد من اعادة الاوراق الى المؤلف . وكان المطران قد فر من الجزيرة قبل اعادتها وطهر الجوّ من روائحــه . ولو بقي بعد ذلك لعوقب على هذه السرقة معاقبة تليق بامثاله . ووقتئذ عزم الفارياق على السفر لقضاء تلك المصلحة اعني ترجمــة الكتاب وارسل الى زوجتــه يعلمها بما استقر عليه الرأي . واشار عليها بالرجوع اذ كان يرجو انه يبقى في بلاد الانكليز بعد انهائه الكتاب . غــير

انه جرت العادة في بلاد الافرنج بأن مدرسي اللغات في مدارسهم الجامعة لا يكونون الا منهم وان كانوا جاهلين . وبعد ان رجعت الفارياقية تأهب الفارياق للسفر . وها هو الآن يوعي القاموس والاشموني في صندوقه . وها انا منطلق لقضاء حاجة لا بد منها فاسمحوا لي ان استريح قليلاً .

(تم الكتاب الثالث)

الكتابُ الرّابع

١

في اطلاق بحر

من لم يسافر في البحار ويقاس فيها الانواء والامواج فلا يقدر ترفه المعيشة في البر حق قدرها . فينبغي لك ايها القارىء البريّ ان تتصور في بالك كلما اعوزك الماء القراح واللحم الغضيض والفاكهة الطريئة والبقول الخضلة والخبز اللين ان اخوانك ركاب البحر محرومون من هذا كله . وان سفينتهم لا تزال تميد بهم وتتقلب وتصعد وتهبط . فدون كل لقمة يسترطونها غصة . وفي كل رقدة يرقدونها مغصة . وانه متى وضع بين يديك لون واحد من الطعام فلا تفكر الا فيه . واعتقد ان غيرك يغتذي بمثله في تلك الساعة بل باقل منه . فبذلك يحصل لك التأسّي والتسلي . فاما اذا نظرت الى قصور الملوك والامراء وصروح الوزراء وفكرت فيما يأكلون ويشربون فانك لا ريب تتعب نفسك وتعنيها لغير فائدة . ولكن اتحسب ان المعتقة التي يشربها الامير الذّ من الماء الذي تشربه انت . حالة كونك عارفاً بامور المعاش والمعاد . مضطلعاً بادارة مصلحة لك تكفيك واهلك المؤنة . وحالة كون زوجتك تجلس قبالتك او عن يمينك وشمالك . وولدك الصغير على ركبتك . تارة يغني لك . وتارة يناولك بيده اللطيفة ما سألت عنه امه . واذا خرجت شيعاك الى الباب واذا قدمت صعدا معك واجلساك على انظف متكأ في الدار .

فاما انت يا سيدي الغني فالاولى لك ان تسافر من مدينتك العامرة حتى ترى بعينك ما لم تره في بلدك . وتسمع باذنيك ما لم تسمعه . وتختبر احوال غير قومك وعاداتهم واطوارهم وتدري اخلاقهم ومذاهبهم وسياستهم . ثم تقابل بعد ذلك بين الحسن عندهم وغير الحسن عندنا . ومتى دخلت بلادهم

وكنت جاهلا بلغتهم فلا تحرص بحقك على تعلم كلام الخنتى منهم اولاً . او تستحلي الاسماء من اجل المسمّيات . فان كل لغة في السكون فيها الطيب والخبيث . اذ اللغة انما هي عبارة عن حركات الانسان وافعاله وافكاره . ومعلوم ان في هذه ما يُحمَد وما يذم فأجلك عن ان تكون كبعض المسافرين الذين لا يتعلمون من لغات غيرهم الا اسماء بعض الاعضاء وعبارات اخرى سخيفة . لا بل ينبغي لك حين تدخل بلادهم سالماً ان تقصد قبل كل شيء المدارس والمطابع وخزائن الكتب والمستشفيات والمخاطب،اي الاماكن التي يخطب فيها العلماء في كل الفنون والعلوم فمنها ما هو معد للخطابة فقط ومنها ما يشتمل على جميع الآلات والادوات اللازمة لذلك العلم. واذا رجعت بحمده تعالى الى بلدك فاجتهد في ان تؤلف رحلة تشهرها بين اهل بلادك لينتفعوا بها ولكن من دون قصد التكسّب ببيعها . ويا ليتك تشارك بعض اصحابك من الاغنياء في انشاء مطبعة تطبع فيها غير ذلك من الكتب المفيدة للرجال والنساء والاولاد ولكل صنف من الناس على حدته . حتى يعرفوا ما لهم وما عليهم من الحقوق . سواء كانت تلك الكتب عربية او معرّبة . ولكن احذر من ان تخلط في نقلك عن العجم الطيب بالخبيث والصحيح بالمعتل . فان المدن الغنّاء تكثر فيها الرذائل كما تكثر الفضائل . نعم ان من هؤلاء الناس لمَن يأبى ان يرى أحداً وهو على الطعام . واذا اضطر الى رؤيته وهو في تلك الحالة فلا يدعوه للنَوْس شيء مما بين يديه . لكن منهم من يدعوك الى صرحه في الريف فتقيم فيه الاسبوع والاسبوعين وانت الآمر الناهي . وان منهم لمن يبخل عليك برد التحية . واذا دخلت دار صديق منهم وكان في المجلس جماعة من اصدقائه لم يعرفوك من قبل فما احد يتحلحل لك في القيام. ولا يعبأ بك ولا يلتفت اليك . لكن منهم من اذا عرفك اهتم بامرك في حضورك وغيابك على حد سوى . واذا ائتمنته على سرّ كتمه لك طول حياته . وان منهم ان ينبزك بالالقاب اول ما يقع نظره على شاربيك ولحيتك او على عمامتك او يجذبك من ذيلك من وراء . ولكن منهم من يتهافت على معرفة الغريب . ويرتاح الى الرفق به والاحسان اليه ويرى اجارته وحمايته

فرضاً عليه متحتماً . وان منهـــم لمن يسخر منك اذا رآك تلحن في لغته ، ولكن منهم من يحرص على ان يعلمك اياها مجاناً اما بنفسه او بواسطة زوجته وبناته . وعلى ان يعيرك ما يفيدك من كتب وغيرها ويرشدك الى ما فيه صلاح امرك وتوفيقك . وان منهم لمن يحسبك قد وافيت بلاده تسابقه على رزقـــه فيكلح في وجهك وينظر اليك شزرا . لكن منهم من ينزلك في بلده مـــنزلة ضيف يجب اكرامه واحترامه والذبّ عنه بحيث لا تفصل عنه وفي قلبك ادنى ألم من اهـــله . وان منهم لمن يسخرك ان تترجم له او تعلمه ثم لا يقول لك احسنت يا مترجم او يا معلم . لكن منهم من لا يستحلّ ان يكلمك من دون ان يؤدّي اليك اجرة فتح فمك وضم شفتيك . وان منهـــم لمن اذا اضطر الى ان يدعوك الى طعامه ثم أراك قـــد سعلت سعلة او مخطت مخطة او فنخرت فنخرة قال لزوجته ألا إن ضيفنا مريض. فلا ينبغي ان تكثري له من الطعام. فتقوم عن المائدة متضورا ويمتنّ هو عليك بين معارفه بانه صنع لك وليمة في عام كذا وشهر كذا ويوم كذا فيجعل تلك الليلة تاريخا . لـــكن منهم من اذا عرف إنك مقيم في احدى قرى بلاده حيث لا بيع ولا شراء ولا شيء ينال من البقول والاثمار بعث اليك من مباقله وحدائقه ما سد فاك عن الشكوى . كما كان مستر دراموند يبعث الى الفارياق حين قدر الله عليه بالسكنى في بعض تلك القرى فكانت شكواه منها تسمع مع دوي الريح .

ليت شعري أليس وجود مئة كتاب بدارك في الاقل خيراً من وجود كذا وكذا قصبة للتبغ وكذا وكذا اركيلة . مع ان ثمن المئة كتاب لا يوازي ثمن ثلاث قطع من الكهرباء. أليس وجود مطبعة في بلادك اولى من هذه الطيالس الكشميرية وتلك الفراء السمورية وهذه الآنية النفيسة والحلى الفـــاخر . فان الانسان اذا نظر الى الحلى لا يستفيد منه شيئاً لا لبدنه ولا لرأسه . وغايـــة فرحه به انما هو الشهر الذي اشتراه فيه فاذا مضت عليه اشهر استوى عنده وسقط المتاع فلم يبق منه ما يسره من وجوده سوى بيعه. فأما الكتاب فانه كلما مرت عليه السنون زادت قيمته وكثرت منافعه. او ليس اطلاعك على التاريخ والجغرافية

وآداب الناس زينة لك بين اخوانك ومعارفك تفوق على زينة الجواهر أليس تعليم اهلك وذويك شيئاً من ذلك ومن قواعد لازمة لحفظ الصحة من كتب الطب يكسبك عندالله اجراً ويؤمنك من مضار كثيرة تتطرق اليهم لجهلهم بها. فان قلت انه ليس عندنا كتب في العربية تصلح للنساء . قلت هب ما قلته حقاً ولكن أليس عند الافرنج كتب مختصة بالنساء والاولاد يؤلفها الرجال الفاضلون المهذّبون . فلمَ تشتري من الافرنج الخزّ والمتاع ولا تشتري منهم العلم والحكمة والآداب. ثم انك مهما بالغت في ان تبرقع زوجتك عن رؤية الدنيا فلن تستطيع ان تخفيها عن قلبها . فان المرأة حيثما كانت وكيفما كانت هي بنت الدنيا وامّها واختها وضرّتها ، لا تقل لي ان المرأة اذا كانت شريرة لا يصلحها الكتاب بل يزيدها شرّة ، واذا كانت صالحة فما بها من حاجة اليه ، فاني اقول ان المرأة كانت اولاً بنتاً قبل ان صارت امرأة . وان الرجل كان من قبل ولداً. ولا ينكر احـــد ان التعليم على صغر كالنقر في الحجر . وانك اذا ربّيت وُلدك في العلم والمعارف والفضائل والمحامـــد يربون على ما ربّيتهم عليه . وتكون قد ادّيت مـــا فرضه الله عليك من تأديبهم . فتفارقهم بعد العمر الطويل وخاطرك مجبور وبالك رخي مطمئن . فلم يبق لك الا ان تقول ان ابي لم يعلمني وكذا جدي لم يعلم ابي واني بهما اقتدي . فاقول لك ان الدنيا في عهد المرحومين جدك وابيك لم تكن كما هي الآن . اذ لم يكن في عصرهما سفن النار ودروب الحديد التي تقرب البعيد ، وتجدد العهيد . وتصل المقطوع . وتبذل الممنوع . ولم يكن يلزم الانسان في ذلك الوقت ان يتعلم لغات كثيرة فكان كل من يقول خوش كلدي صفا كلدي يقال فيه انه يصلح لان يكون ترجماناً في باب همايون . وكل من كان يكتب خطاً دون خطي هـــذا الذي سودت به هذا الكتاب ، لا الذي تقرأه الآن فاني بريء من هذه الحروف ، كان يقال عنه انه كاتب ماهر يصلح لان يكون منشيء ديوان فاما الآن فهيهات .

هذا الفارياق حين نوى السفر من الجزيرة الى بلاد الانكليز كان بعض الناس

يقول له انك سائر الى بلاد لا تطلع عليها الشمس . وبعضهم يقول الى ارض لا ينبت فيهـــا القمــح ولا البقول . ولا يوجد فيهـا من المأكول الا اللحم والقلقاس . وبعضهم يقول اني اخاف عليك ان تفقد فيها رئتك لعدم الهواء . وبعضهم يقول امعاك لعدم الاكل . وبعضهم صدرك او عضواً آخر غـيره . فلما سار اليها وجد الشمس شمساً والهواء هواء . والماء ماء . والرجال رجالاً والنساء نساء . والديار مأهولة والمدن معمورة. والارض محروثة اريضة كثيرة الصُوَى والاعلام . خضلة الغياض والربُض والاجام . ناضرة المروج . زاهية الحقول . غضة البقول . فلو انه سمع لاولئك الناس لفاته رؤية ذلك اجمــع . فان خشيت ان تفوتك هناك لذة الاركيلة ولذة تكبيس الرجلين قبل الرقاد . فاعلم ان ما ترى هناك من العجائب ينسيك هذا النعيم . ويلهيك عمّا ألفته في مقامك الكريم . كيف ترضى لنفسك ان تفارق هذه الدنيــا ولم ترها وأنت قادر على ذلك . وقد قال ابو الطيب المتنبي

ولم ارَ في عيوب الناس شيئا   كنقص القادرين على الـــتمام

ام كيف تقتصر على معرفة ربع لغة ولا تتشوق الى علم ما يفكر فيـــه غيرك . فلعل تحت قبعته افكاراً ومعاني لم تخطر بمـا تحت طربوشك . بحيث انك اذا استوعبتها تودّ لو انك عاصرت صاحبها وتشرفت بمعرفته وصنعت له مأدبة فاخرة زينتها بصحاف الرز والبرغــل . وكيف تبلغ من عمرك ثلاثـين سنة ولم تؤلف شيئاً يفيد أهل بلادك . فما ارى بين يديك الا دفاتر بيـــع وشراء وفناديق دخل وخرج . ورسائل فاسدة المعاني ركيكة الالفاظ تنظر فيها في كل صباح ومساء . فأما اذا قصدت السفر لمجرد التفاخر فقط بان تقول مثلاً في مجلس زارك فيه اصحابك الكرماء واقرانك العظماء . قد رأيت مدينة كذا وشاهدت شوارعها النظيفة الواسعة وديارها الرحيبة ومراكبهـــا الحسنة واسواقها البهيجة وخيلها المطهمة ونساءها الرائعةوعساكرها الجرارة . وأكلت فيها في اليوم الاول كذا وشربت في اليوم الثاني كذا . ثم ذهبنا بعد ذلك الى بعض الملاهي ثم الى احدى الملهيات . وبت معها على فراش وطيء .

وكان قبالة السرير مرآة كبيرة في طول الفراش وعرضه فكنت ارى نفسي فيها كما كنت في الفراش . ثم قمت في الصباح وجاءتنا خادمة صبيحة بصبوح او فطور . ثم عدت الى محلي فوجدت فيه فلانا ينتظرني وكان ذلك نحـــو الساعة الحادية عشرة اي قبل الظهر بساعة . فتوجهنا معاً الى البستان المسمى بالبستان السلطاني وبيـــنا نحن نمشي فيه وننظر الى الشجر الباسقة والزهور المديحة اذا بالفتاة التي بت عندها تماشي رجلاً يغازلها . فلما رأتـــني تبسمت وسلمت عليّ . وكأن سلامها لم يسؤ الرجل فانه نزع لي قبعته فعجبت جداً من عدم غيرته . اذ لو كانت الفتاة عندي لحجبتها عن النور . فذلك كله يسمى في العربية هذراً وهراء وهفتا وهرجا وهلجا وسقطا وهيشا ووتغا وخطلا واخلاء ولخى وطفانين وهذيانا وثرثرة وفرفرة وحذرمة وهبرمة وهثرمة وخزربة وخطلبة وغيذرة وشمرجة ونفرجة وهمرجة وثغثغة وفقفقة ولقلقة ووقوقـــة وهتمنة وفي المتعارف عند العامة فشارا وعلكا . اذ لا فائدة فيــه لاحد من الناس . بخلاف ما اذا قلت لهم ان الغيساني من الرجال هناك اذا حضر مجلساً فيه نساء لا يغمز احداهن بعينه ولا يتبظرم ولا يبتهر [1] . ولا يقول لهـــا انه يزور النساء المحصنات بعلم بعولتهن وبغير علمهم ويأكل عندهن ويشرب . ثم يخـــلو بهن في مضاجعن ويرجع الى منزله مسروراً . وكأي من مرة وضع يده في جيبه فوجد فيه كيساً ملآن من الدنانير او كاغد حوالة على بعض الصيارفة . وانه اذا مرّ في الاسواق تتهافت على رؤيته البنـــات من الرواشن والشبابيك والكُوى والسماء والاجلاء . فمنهم من تشير اليه بيدهـــا او برأسها . ومنهن من تهجله بعينها ثم تضع يدها على قلبهـــا . ومنهن من ترميه بوردة . واخرى بباقة من المنثور او برقعة فيها شعر . او انه يقول بحضرتهن قد انحلت تكتي او حكني رفغي لكون حشو سراويلي غليظاً . او يحك استه او يرطل عياره او يتمطى ويتمتى ويتمطط ويتمده ويتمطل ويتمتأ ويتمتت ويتمأى ويتنطط

---

(١) تبظرم اذا كان احمق وعليه خاتم فيتكلم ويشير به في وجوه الناس وابتهر ادعى كذباً وقال فجرت ولم يفجر .

ويتمعط ويتمغط ويتبسط ويتبأط . بل انما يكلمهن متأدباً محتشماً غاضّ الطرف خافض الصوت . ويسأل كبيرتهن عما طالعت يومها ذاك من الاخبار والحكايات والنوادر الادبية وانه شرع في تأليف كتاب مفيد يشتمل على ذكر آثار الاقدمين واخبارهم ثم يلقي على صغيرتهن احجية ادبية ليلهيها بها وبمثل ذلك يدخل مكرماً ويخرج محموداً . وبخلاف ما اذا قلت لهم ايضاً ان التاجر المثري هناك لا يتختم بخواتم الماس والزمرد. ولا يتحلى بسلاسل الذهب . ولا يقتني النادر من الاثاث والماعون والفرش . بل انما ينفق امواله في سبيل البر واغاثة الملهوفين وامداد الارامل واليتامى وفي انشاء المدارس والمستشفيات . وفي تصليح الطرق وتحسين المدينة وازالة الاوساخ والعفونات منها . وفي ان يربي ولده بالادب والعلم والفضائل . فترى منهم من سنّه اثنتا عشرة سنة يكلمك بما يكلمك به من سنّه منا اثنتا عشرة سنة بعد العشرين . وبخلاف ما اذا تفضلت بذكره فقلت ان لكل انسان عندهم ممن لا يعد من الاغنياء والفقراء خزانة كتب نفيسة في كل فن وعلم . وما من بيت الا وفيه اضبارة من صحف . وان الرجل منهم اخبر بالبلاد الاجنبية من اهلها . وان اكثر فلاحيهم يقرأون ويكتبون ويطالعون الوقائع اليومية ويعرفون الحقوق الرابطة بين المالك والمملوك والحاكم والمحكوم وبين الرجل وامرأته . وان من هذه الوقائع المطبوعة ما تبلغ عدة نسخه أربعة عشر مليوناً في العام . وما يدفع عليها لخزنة الدولة على طبع اجازتها يبلغ اكثر من خمسين الف ليرة . وانها لو عرّبت نسخة واحدة منها لجاءت اكثر من مائتي صفحة. وانصاحب العائلة منهم اذا جلس صباحاً على المائدة مع زوجته واولاده يقبّل كلا منهم ويسألهم عن صحتهم . ويفيدهم بعض نصائح وتنبيهات تكون لهم اماماً في ذلك اليوم . وانهم يكلمونه وهم مبتهجون فرحون ويرون حضوره فيهم سلواناً . وانهم لا يخالفون له امراً ولا يستثقلون منه تكليفاً . وهم مع ذلك يدلون عليه بالبنوّة ويهابونه للابوّة .

فهذا وامثاله اصلحك الله ينبغي ان تشنّف به مسامع اصحابك الكرام .

عسى ان ينشطوا الى انشاء مدرسة او ترجمة كتاب او لارسال ولدهم الى بلد يتأدبون فيها بالآداب المحمودة والمناقب الكريمة . واياك يا سيدي من ان تميل قبل هذا كله الى ان تأخذ عن بعضهم الخصال الذميمة كالطيش والنزق والبخل والفسق والكبر ومد الرجلين في وجه جليسك فقد ذكرت لك آنفاً ان البلاد التي تكثر فيها الفضائل تكثر فيها الرذائل ايضاً وانه ليس من انسان الا وفيه عيب بل عيوب . غير انه ينبغي لكل منا ان لا يزال يجد ويسعى في طريق الكمال وفي تهذيب اخلاقه وحواسه الباطنة بكل ما يبدو لحواسه الظاهرة . وكما ان لذة الحواس لا يشعر بها الانسان الا في مقـــدم جسمه دون مؤخره كذلك ينبغي لكل ذي جسم من الحيوان الناطق ان يعتمد على التقـــدم في المعارف والدراية . والمحامد الى الغاية . وكنت اود لو ان احداً من اهـــل بلادنا نقـل فضيلة او مأثرة عن هؤلاء النـــاس الى اخوانه ومعارفه كما تنقل الاخبار والروايات . وبودي لو تستحيل اصناف الماس والزمرد واليـــاقوت والدهنج والشعشع والدر والعقيان والكهرباء والمها وقلنسوة الراهب معها حالة كونها معدودة من الجواهر والتحف الى كتب ومدارس ومكاتب ومطابع .

٢

في وداع

لما حان سفر الفارياق أخذ يودع زوجته بعد أن أوعى القاموس والأشموني في صندوقه ويقول . أذكري يا زوجتي أنـّا عشنا معاً برهة طويلة من الدهر. قالت ما أذكر الا هذا . قال فقلت أذكر ناكرٍ أم شاكر . قالت نصف من هذا أو نصف من ذاك قلت يرجعنا النحت الى الاول قالت أو يرجع الاول الى النحت . قلت أي اول اضمرتِ ؟ قالت ما لك ولتأويل المضمر . قلت حسبي أن تبيّني لي حقيقة ذلك . قالت اذا فكرت في انك لي ولغيري كنت من الناكرين والا فمن الشاكرين . قلت انك كنت نهيتني عن المعاملة بالقسم وها انت الآن تأتينه . قالت بل هو يأتيني . قلت اما فيك لفظة لا . قالت ان لفظتها كانت نعم . قلت إن لا من المرأة الى . قالت وان نعم نعم . قلت اجعلت هذا دأبك . قالت ودأبت في هذا الجعل . قلت هذا لا يليق بذات ولد . قالت ولا تـــلد من لاتليق . قلت من مادة واحدة . قالت ان كانت المادة غير زيادة متصلة احوجت الى اختـــلاف الصور . قلت وكيف تبقى متصلة على اختلاف الاشكال . قالت لا اشكال في كيفية الاشكال فان واحداً منها يغني عن الجميع . وانما الكلام على رسم الكمية . قلت ما الحدّ . قالت في الجد الهزل وفي الهزل الجد . قلت ارأيتك لو أقمت نائباً عني في ذاك مدة غيابي . فضحكت وقالت على ما أحب انا أم على ما تحب انت . قلت بـل على ما تحبين انت . قالت لا يرضى الرجل بذلك الا اذا كان غير ذي غيرة ولا يكون غير ذي غيرة الا اذا كره امرأته وكلف بغيرها فانت اذا كلف بغيري . قلت ما انا بالكلف ولا بالطرف . الكن الرجل اذا كان شديد الحب

لامرأته ودّ لو انه يرضيها في كل شيء . على ان الغيرة لا تكون دائماً المحبة كما نصّوا عليه . فان بعض النساء يغرن على ازواجهن عن كراهية لهم واعنات . مثال ذلك اذا منعت المرأة زوجها عن الخروج الى بستان او ملهى او حمّام مع عدة رجال متزوجين . وهي تعلم انهم في هذه المواضع لا يمكنهم الاجتماع بالنساء فهي انما تفعل ذلك تحكماً عليه ومنعاً له من ذكر النساء مع اصحابه والتلذذ بما لا يضيرها . وكذا اذا حظرته عن النظر من شباكه الى شارع او روضة حيث يكثر تردد النساء وكذا الحكم على الرجل لو فعل ذلك بامرأته . فهذا عند الناس يعد غيرة لكنه في الواقع بغضة . او ربما كان آخر الغيرة اول البغض كما ان افراط الضحك هو اول البكاء وكيف كان فان الرجل لا يمكن ان يحب زوجته الا اذا اباح لها التلذذ بما شاءت وبمن احبّت قالت ايفعل ذلك احد في الدنيا . قلت نعم يفعله كثير في بلاد غير بعيدة عنا . قالت بابي هم ولكن ما شأن النساء ايفعلن ذلك ايضاً لأزواجهن . قلت لا بد حتى يعتدل الميزان . قالت اما انا فلا ارضى بهذا الاعتدال فالميل عندي احسن . قلت وكذا هو عندي في بعض الاحوال . قالت ولاحوال البعض . قلت فلنعد الى السفر انني اسافر اليوم . قالت نعم الى بلاد فيها البيض الحسان . قلت اتعنيهم ام تعنيهن . قالت اعني نوعاً ويعنيني آخر . قلت ولمَ يعنيك وانتن المطلوبات في كل حال ولذلك يقال للمرأة غانية . قال في القاموس الغانية المرأة التي تطلب ولا تطلب . قالت ما أحسن كلامه هنا لولا انه قال قبل ذلكِ العواني النساء لانهن يظلمن فلا يُنتصرن . غير ان هذه النقطة شفعت في تلك . قلت حبكن التنقيط دأب قديم . قالت مثل دأب الرجال في التحريف . وكيف كان فان مطلوبيتنا هي أصل العناء . فان المطلوبة لا تكون الا ذات العرض والاحصان فويل لها ان خانت محصنها . وويل لها ان حرمت طالبها وباتت تلك الليلة مشغولة البال بحرمانه وخيبته وبكونها صارت سببا في ارقه وجزعه وحسرته . والطالبة تعود غير مطلوبة . قلت ليست اخلاق الرجال في ذلك سواء. قالت انما اعني الرجال الذين يطلبون ويكلفون بمن يطلبونه لا أولئك الطَرِفين

الشنقين المسافحين الذين دأبهم التذوّق والتنقل من مطلوب الى آخر ونفع أنفسهم فقط دون مراعاة نفع سواهم . ولكن هيهات هل في الرجال من يقيم على الوداد ولا يميل عنه كل يوم. لعمري لو لكانت النساء تطلب الرجال طلب الرجال للنساء لما رأيت فيهم غير مفتون.قلت هل في النساء من تقيم على الوداد ولا تجنح عنه كل يوم ألف مرة هذه الكتب كلها تشهد للرجال بالوفاء وعلى النساء بالخيدعية.قالت من كتب هذه الكتب أليس الرجال هم الذين لفقوها . قلت ولكن من بعد التحرّي والتجربة ، قالت من يأت الحكم وحده يفلج قلت بل اوردوا على ذلك شواهد وكفى بما ورد عن سيدنا سليمان برهانا ودليلاً . فانه قال قد وجدت بين الف من الرجال صالحاً فاما بين النساء فلم اجد صالحة . قالت ان سيدنا سليمان وان يكن قد أوتي من الحكمة ما لم يؤتَه غيره غير ان افراطه في النساء شوش عليه الصالحة منهن من غير الصالحة . الا ترى ان بائع المسك لطول ائتلافه بالرائحة القوية تضعف منه حاسة الشم بحيث لا يعود يشم الرائحة اللطيفة . واما ايراد الادلة من الرجال على النساء دون ايراد ادلة النساء على الرجال فمحض ظلم وبطر . قلت نعم كان الاولى مناصفة هذا الايراد ولكن سبحان الله انتن تتهمن الرجال في كل شيء ثم تتهافتن عليهم . قالت لولا اضطرار الاحوال لما شغلن بذلك الأبوال . قال فضحكت وقلت اي جمع هذا قالت قسته على غيره . قلت وهل استوى المقيس بالمقيس عليه . قالت لا فرق . قلت بل كله فرق فان اللغة لا تؤخذ بالقياس . ولو صح ذلك لم تكن مناسبة بين الذكر والانثى ولا بين الانثى والذكر . ولا بين تذكير حقيقة التأنيث وتأنيث ما هو غير مقابل بمثله . قالت وهذا ايضا من بطر الرجال وتشويشهم فلا يكادون يأتون أمراً مستقيما . قلت قد رجعت الى لومهم . قالت والله ، لقد حرت في الرجال . قلت والله لقد حرتُ في النساء .

ولكن فلنعد الى الوداع اني اعاهدك على ان لا اخونك . قالت بل تخونني على عهد . قلت ما يحملك على سوء الظن بي . قالت اني ارى الرجال اذا

كانوا في بـلاد لم يُعرفوا بها افحشوا غايـة الافحاش . . ألا ترى الى هؤلاء الغرباء الذين يأتون الى هذه الجزيرة كيف يتهتكون في العهر والفجور . فاول ما يضع احدهم قدمه على الارض يسأل عن الماخور . ولا سيا هؤلاء الشاميين ولا سيا النصارى منهم ولا سيا الذين المّوا بعـــلم شيء من احوال الافرنج ولغاتهم فانهم يخرجون من المراكب كالزنابير اللاسعة من هنا وهناك.قلت لعلهم كانوا في بلادهم كذلك قالت ليس عندهم اسباب الفحش هناك . قلت او كانوا فاسدين بالطبع . قالت نعم هو عرق فساد كامن فيهم فاول ما يستنشقون رائحة بـلاد الافرنج ينبض فيهم . ولذلك تراهم ابداً يتلمظون بذكر بلاد الافرنج وعاداتهم واحوالهم . مع انك اذا سألت احدا منهم عن طعامهم قال لا يستطيبه . او عن الحانهم قال لا تطربه . او عن كرمائهم قال لم تأدبه . او عن حمّاماتهم قال لم تعجبه . او عن هوائهم قال لم يلائمه . او عن مائهم قال لم يسغ له . فيكون لهجهم بذكر بلادهم وتنويههم بمحاسنها انمـــا سببه الفحش . وانت من يضمن لي طبعك عن الفساد وقـد اسمعك كل يوم تُهَيْنِم بذكر الرجراجة والرضراضة والبضباضة والفضفاضة والربحـــلة والرعبوب والعطبول . وهي لعمري الفاظ تسيل لعاب الحصور وتشهّي الناسك . قلت ان هو الا كلام . قالت اول الحرب كلام. قلت اترين اعدّي عن هذه الصنعة الشائقة ، والحرفة العائقة . قالت ان لم تتصور ذاتا بعينهـا عند الوصف فـلا بأس . قلت ان لم اتصور ذاتا لم يخطر ببالي شيء . قالت اذن هو حرام . قلت ما كفارته . قالت تصورك اياي لا غير . قلت ولكن انت خاليـة عن بعض الصفات التي لا بد من ذكرها قالت اذا كان الرجل يحب امرأتـه رأى فيها الحسن كله ونظر من كل شعرة منها امرأة جميلة كما انـه اذا احب امرأة غيرها احبّ لاجلهابلادها وهواءها وماءها ولسان قومها وعاداتهم واطوارهم. قلت او كذلك المرأة اذا احبت رجلا . قالت هو في النساء اكثر لانهن اوفر حبا ووجدا . قلت ما سبب ذلك . قالت لان الرجال يتشاغلون بـا ليس يعنيهم . فترى واحدا منهم يطلب الولايـة وآخر السيادة وآخر البحث في الاديان وفي ما غمض من السفليات والعلويات .والنساء لا شيء يشغلهن منذلك.

قلت ليتك تشاغلت مثلهم . قالت ليت لي قلبين في شغلنا . قلت افتنظرين فيّ الحسن كله كما زعمت . قالت أُحْسِن فيك النظر : قلت فلنعد الى الوداع لا بل فلنعد الى التشاغل . فاني اريد ان انهي هذه المسألة قبل ان افصل من هنا والا فتكون لي شاغل الطريق وربما افسدت شغلي عند القوم فارجع باللوم عليك وعلى سائر النساء . قالت إعلم ان المرأة تعلم من نفسها انها زينة هذا الكون كما ان جميع ما فيه انما خلق لزينتها لا لزينة الرجل . لا لكونه مستغنياً عنها بذاته او لكونها هي مفتقرة اليها لتحلو بها في عين الناظر واذن السامع ، بل لعدم جدارة الرجل بها . فان الزينة نوع من الاخـــذ والتلقي والاستيعاب والزيادة وهي احوال انسب بالمرأة منها بالرجل . وبناء على هذا اي على ان جميع ما في الكون خُلِق لها بعضه بالتخصيص وبعضه بالتفضيل والايثار . كان من بعض اعتقادها ان نوع الرجل ايضا مخلوق لها . لا بمعنى انها تكون زوجة لجميع الرجال . فان ذلك محال من وجهين . احدهما انها لا تطيق ذلك لان سرّية ذلك اليهودي (على ما ذكر في الفصل التاسع عشر من سفر القضاة) لم تطق اهل قرية واحدة (هى جبعة) على قلتهم ليلة واحدة. بل ماتت في الصباح وسيدها يحسبها نائمة . وهذه الحكايـة ذُكِرت رَدْعاً للنساء . والثاني انه اذا ثبت لامرأة حق في حكر الرجال والاستبداد بهم ثبت الحق الباقي . ولكن بمعنى انها أهل لان تعاشر جميع الرجال وتتعرف ما عندهم. فتتلـّهى من واحد بتمليقة ومن آخر باطراءة ومن غيره بمغازلة ومن آخر بمطارحة وما اشبه ذلك . مما لا يمنعها من محبة زوجها والكلف به . لا بل — قال فقلت اتمنى هذه اللابلـّية فاني اراها ترجمة لداهية من دواهي النساء وعنوانا على مكيدة من مكايدهن . فضحكت وقالت ربّما دلت على الرأي الظنون . غير اني اخشى من ان تاخذك لبيانها شفشفة ورعـدة فتتأخر عن السفر . او ان تظن ان هذا دأبي معك . معاذ الله . اني لم اخُنْك بضَمْد ولا بغيره . وانما علمت ما علمت من النساء لان النساء لا يكتم بعضهن عـن بعض شيئا من أمور العشق واحوال الرجـال . قلت اوجزي فقـد قلقت وفرقت وعرقت . قالت اعلم ان بعض النساء لا يتحرّجن من وصال غـير

بعولتهن لسببين . الاول لعدم اكتفائهن بالقدر المرتب لهن منهم . فانهم يعودونهن اولا على ما يعجزون عن أدائه اليهن آخراً. ولا يخفى ان من النساء المُدقِم وهي التي تلتهم كل شيء . ومنهن الشفيرة وهي القانعة من البعال بأيسره . ومنهن الضامد وهي التي تتخذ خليلين . ومنهن المِطْماع وهي التي تُطمع ولا تمكّن . ومنهن المَرْيم وهي التي تحب حديث الرجال ولا تفجر وهو خُلقى . قال فقلت اللهم امين . قالت واللاعـة وهي التي تغازلك ولا تمكنك .والسبب الثاني لاستطلاع احوال الرجال واختبار الابتع وغير الابتع منهم لمجرد العلم كيلا يفوتهن حال من أحوالهم . ومنهن من تعتقد ان زوجها يخونها عند كل فرصة تسنح له . لما تقرر في عقول النساء ان الرجال لا شغل لهـم الا مغازلتهن ومباغمتهن . فهي على هذا لا تجد سبيلا للشطح الا وتزّف فيـه . اعتقاداً انها اخذت بثأرها جَزْما اي قبل وقته الموقوت. ومعذلك فلا يحلن عن محبة بعولتهن . بل ربما كان ذلك الشطح ادعى لزيادة حبّهن لهم . قلت لا متّعني الله بحبٍّ ناشىء عن مدقمّية ولا ضمد . ولكن كيف يكون هذا التخليط ادعى الى زيادة الحبّ والمرأة اذا ذاقت البكبك والعُجارم والقازح والكُباس لم تقتنع بعد ذلك بزوجها حالة كونه لا يحول عن الصفة التي فطر عليها . وكذا الرجل ايضاً اذا ذاق الرشوف والرصوف والحزنبل والعُضُوض والاكبس فانه يرى زوجته بعد ذلك ناقصة . فضحكت وقالت لو كانت هذه الصفات لازمة للمرأة وكان عدم وجودها فيها نقصاً لما كنت تراها في افراد قليلة من النساء . فان معظمهن على خلاف ذلك . فاما سبب زيادة المحبة فيما زعمن مع التخليط فهو انالزوج لطول الفته بزوجته وضراوته عليها وحالة كون مسّ احدهما الآخر لا يحدث في جسم الماسّ والممسوس هزة ولا رعشة ولا ربوخيّة . يمكن له معها المماتنة والامعان والوقوف بخلاف الغريب فانه لشدة نهمه ودهشته او لفرط مراوحة المرأة اياه على العمل . او لكون الحرام لا يسوغ دائماً مساغ الحلال تفوته الصفتان المذكورتان . فاللذة معه جلّها ناشىء عن التصور . أي عن تصور كونه غير زوجها. كما ان نغصها مع زوجها جلّه ناشىء عن تصور كونه غير غريب . والا فالواقع ان اللذة في الحلال أقوى .

غير ان التصور له موقع يقرب من الفعل . وبيانه لو اعتقد رجل مثلاً أن امرأة غير امرأته تبيت معه ثم باتت معه امرأته بعينها وهو لا يعلم ذلك كما جرى لسيدنا يعقوب عم . لوجد امرأته تلك الليلة متصفة بجميع الصفات التي تصورها في غيرها . وكذا شأن المرأة . فبناء على ما تقدم من اعتقاد المرأة بان جميع ما في الكون من الحسن والزينة والبهجة يناسبها كان تصورها صفات الحسن وتشاغلها به مطلقا عاما. غير انه اذا كان لها خاصّ قريباً منها تناولت ذلك الخاص متناول العام . حتى انه كثيراً ما يخطىء فكرُها واحدا منهم بخصوصه . فيتجاذبه اثنان او ثلاثة حتى تذهل عن الشاغل والاشغل . وهو في الواقع تحوّف من اللذة كمن يريد ان يشرب من ثلاث قلل يضعها على فيه في وقت واحد . قلت كلامك هذا ينظر الى قول الشاعر :

اذا بت مشغول الفؤاد بما ترى   من الغيد عيني والجمال مفرق

اركّب في وهمي محيّا يشوقني   على قامة اولى بـه ثم اشبق

ولكن قد نهيتني آنفاً في التغزل عن تصوّر ذات بخصوصها وقلت انه حرام فهلاّ قلت بحرميّة هذا ايضاً . قالت انما حرمية ذاك لكونه ذاهباً في الكلام سدى وسرفا . على ان الغزل كله كيفما كان لا خير فيه ولا جدوى . فاما في الفعل من قبل النساء فانه ينشأ عنه صباحة الاولاد. ولذلك ترى انف بعضهم كأنف زيد وفمه كفم عمرو وعينيه كعيني بكر . وهو ايضاً جواب لمن قال ان في رؤية الرجل نساء كثيرة مصلحة تعود على امرأته لاكتسابه منهن التمشير عند الاياب . بخلاف خروج المرأة فان التمشير ملازم لها . فأما هؤلاء الحمقى الزاعمون أن تصوّر الرجل مؤثر في توزيع الولد فيلزمهم ان لا يروا امرأة أصلا غير نسائهم. لئلا تأتي ذريتهم كلها أناثا او في الاقل خناثا. وذلك لمناعفة التصوّرين من قبل الاب والام . ألا وان امرأة لا تستبدل زوجها الا بالفكر والتخيّل لجديرة بان تكون قِبلة كل مطرىء . وان لا يفكر زوجها الا فيها . قلت مقتضى كلامك ان النساء المقصورات عن رؤية العموم لا لذة لهن مع الخصوص . قالت امـا بالنسبة الى ناظرة العموم فلا .

واما بالنسبة الى العدم فنعم ، فان الماء مهما يكن سخنا يطفي النـار ، قلت وبالعكس أي أن النار مهما تكن باردة تسخن الماء . قالت يصح العكس لكن الطرد أولى . قلت الى كم قسم تقسم اللذة . قالت الى خمسة أقسـام ، الاول تصورها قبـل الوقوع . الثاني ذكرها قبله . الثالث حصولها فعلا بالركنين المذكورين . الرابع تصورها بعد الوقوع . الخامس ذكرها بعده . وكون لذة التصور قبل الوقوع اقوى او بعده اقـوال . فذهب بعض ألا ان الاولى اقوى . لان الفعل لما كان غير حاصل كان الفكر فيه اجول وامعن فلا يقف على حدّ . وزعم آخرون ان الحصول يهيّىء للفكر هيئـة معلومة وصورة معينة يعتمد عليها في قياس ما يترقب من الاعادة والتكرير . وكما حصـل الخلاف في وقتي التصور حصل ايضاً فيه وفي الذكر . والعبرة بجدّة التصوّر وذرب اللسان . فأما اصلح الازمنة لها فالصيف عند النساء والشتاء عنـد الرجال. فاما الكمية فمن الناس الموحدون ومنهم المثنوية ومنهم اهل التثليث . قلت ومنهم المعتزلة والمعطّلون . قالت هؤلاء لا خير فيهم . وما هم جديرون بان يعدّوا مع الناس . قلت ما شأن من يتزوج اثنتين وثلاثا . قالت هو أمر مغاير للطبع . قلت كيف وقد كانت سنّة الانبياء . قالت هـل نحن نبحث الآن في الاديان او نتكلم في الطبعيات . الا ترى ان الذكور من الحيوانات التي قُدّر لها ان تعيش مع اناث كثيرة قُدّر لهـا ايضاً القدرة على كفايتهن كالديك والعصفور مثلا . وغيرها انما يعيش مع واحدة ويكتفي بها . ولمـا كان الرجل غير قادر على كفاية ثلاث لم يكن اهلا لان يحوزهن. وبعد فلأي سبب حُظرت المرأة عن ان تتزوج ثلاثة رجال . قلت إن في كثرة النساء للرجل كثرة النسل التي يتوقف عليها عمران الدنيا . وذلك مفقود في كـثرة الرجال للمرأة الواحدة . على اني قرأت في بعض الكتب ان هذه العادة لم تزل مستعملة عند بعض الهمج . قالت مه مه أهؤلاء هم الهمج وانتم المتمدينون الكيّسون . فاما دعواك بتكاثر النسل في كثرة النساء فهل سكان الارض الان قليلون . ألم تضق بهم البسيطة وتثقل بهم بطونها ويمزّق اديمها . فـما الموجب الى هذا الاكثار سوى البطر والنهم . قلت قد عدت الى لوم الرجال

فلنعد الى الوداع. اني مسافر عنك اليوم وتارك عندك فؤادي حتى اذا زارك احد أحسّ به . قـالت كيف تحس وما فؤادك معك . والناس يخصّون القلب بالحس والشعور . والحزن والسرور . قلت ان حسي برأسي . قـالت من اي جهـة . قلت من الجانب الاعلى من الرأس . قالت نـعَـم الشيء الى جنسه اميل . ولكن اين تتركه . قلت على العتبة كيلا يخطوها احد . قالت فاذا طفر فوقها . قلت في الفراش . قالت فان يكن في غيره . قلت فيك . قالت ذلك احسن مقرّا .

اني اعاهدك على ما كنا عليه من الحب والوداد من ايام السطح الى الان . ولكن حين احسّ واشعر من هنا بانك تبدلت السطح بالشطح اقابلك بفعل مثل فعلك والبادي اظلم . قلت انك كثيرة الوساوس شديدة الغيرة . فلعـل شعورك يـكون عن وسواس . قالت بل الاولى ان الوسواس يكون عن الشعور . قلت دار ما بيننا الدور . قالت حاوِل اذاً فكـّه. قلت هو فرض فلا بد من قضائه . قالت وقضاء لا بد من فرضه . قلت ايعقَد بـه العهد . قالت اذا ُعهد به العقد . قلت لا أرضى بهذه الصفـة . قالت ومن لي بوصف هذا الرضى . قلت هل كان العقد في الشرط . قالت وهل كان الشرط بلا عقد . قلت مَـثّـلنا مثل ذلك الجنون . قالت لولا الجنون ما جمعنا الزواج : قلت اكثر الناس على هذا . قالت اكثر الناس مجانين . فقلت الحمـد لله رب العالمين .

٣

في استرحامات شتى

من كان من طبعه المين والافتراء او من كان جاهلا بالنساء ارتاب في هــذا الوداع ونسبه الى ترقيش الشعراء ومبالغاتهم. ولكن اي منكر على من جعلت دأبها وديدنها وشنشنتها ونشنشتها ومُهوأنها وهُذيرباها وأُهجورتها وفَعِلتهــا ومَطِرتها المحاضرةوالمفاكهة والمساقطة والمطارحة والمحارزة والمجارزة وسرعة الجواب . بل كثيراً ما كان يجتمع بالفارياق اثنان او ثلاثة من اصحابــه فاذا خاضوا في حديث انتدبت لهـــم وجارتهم فيه وعارضتهم وماتنتهم . فكل فصيح ان تعارضه لم يُبن وكل بليغ ان تساجله يرتكّ . وقد علم بالتجربة ان جواب المرأة اسرع من جواب الرجل . وأن المشتغل بالعلم يكون ابطأجواباً من غير المشتغل به . لانه لا يقدم على ذلك الا بعد الفكر والروية . على ان هذه العبارات التي نقلتها عن هذه المرأة المبينة من غير قراءة البيان هي دون الاصل بمراحل . فاني لم اقدر في نقل الكلام على نقل الحركات التي تبـــدو منها . وعلى ان اصوّر للمطالع عيوناً تغازل وحواجب تشير . وانفا يرمع . وشفاها تزمع . وخدوداً تتورد . وجيدا يلوي . ويداً تومىء . ونـَفَســا يربو ويخفت. وصوتا يخفض وينبر. وزد عليه مسح المآق اشارة الىالاستعبار . وتوالي الزفرات رمزاً الى الحزن والانبهار . والتبلـّد ايذانا بالاسف . والتنقل من جنب الى جنب اعلانا بالجزع واللهف . وغير ذلك مما يزيد الـكلام قوة وبلاغة . وهــذه ثاني مرة ندّمتني على جهلي صناعة التصوير . والمــرة الاولى كانت في الفصل الرابع عشر من الكتاب الاول عند ذكرى الحسانعلىاختلاف جمالهن . ويمكن اني اندم مرة ثالثة .

وهنا ينبغي ان اقف على قدمي منتصباً واستميح الاجازة من ذوي الامر والنهي لان اقول . انه قد جرت عادة جميع الولاة والملوك ما عدا ملك الانكليز بان لا يدعوا احداً يدخل بلادهم او يخرج منها ما لم يدفع لدواوينهم او لوكلائهم المعروفين بالقناصل قدراً من الدراهم بحسب خصب ممالكهم ومحلها. وذلك بدعوى ان المسافر اذا نزل بلادهم ساعة او ساعتين فلا بد وان يرى قصورهم الفسيحة وعساكرهم المنصورة او خيلهم النجيبة ومراكبهم الفاخرة . فيكون كمن يدخل ملهى من الملاهي . اذ ليس يدخلها احد من دون غرامة. فان اعترض احد بقوله إنّا في الملهى نسمع اصوات المغنين والمغنيات وآلات الطرب . ونرى الانوار المزدهرة والاشكال المتنوعة ووجوه الحسان الناضرة وحركاتهن الباهرة . ونضحك حين يضحكن . ونطرب حين يرقصن. ونشغف حباً حين يغازلن . فاما في رؤية احدى مدنكم فإنا لا نرى شيئاً من ذلك . بل انما ندخل لكي يغبننا تجّاركم فتكون فائدتنا في الدخول بالنسبة الى فائدتهم في الدخل قليلة . قالوا قد يتفق وقت قدومكم بلادنا ان تكون عساكرنا قد شرعت في العزف بآلات الطرب فهذا مقابلة في الطرب في الملهى . اما النساء فانا نأذن لكم في التمتع بكل من اعجبتكم فاجروا وراء من شئتم بحيث يكون النقد على الحافر . ومع ذلك فلا ينبغي ان تشبه مدائننا التي تشرفت بحضرتنا ببعض الملاهي . ولا سيا ان هذه سنّة قديمة قد مشت عليها اسلافنا طاب ثراهم . وتقادمت عليها السنون والاحوال حتى لم يعد ممكناً تغييرها . فان الملك اذا امر بشيء صار ذلك الشيء سنّة وحُكما. ويشهد لذلك قول صاحب الزبور ان يد الرب على قلب الملك. بمعنى ان الملك لا يفكر في شيء الا ويد الله عاصمة له فيه . هكذا شرح هذه الآية العلماء الربانيون في بلادنا ومن خالفهم فجزاؤه الصلب . وبعد فان الملك اذا اخذ في تغيير العادات وتبديل السنن فربما افضى ذلك الى تغييره . فيكون مَثَله كالديك الذي يبحث في الارض عن حبة قمح فيثير التراب على رأسه . وصَغُر ذلك تشبيها . فالاولى اذاً اقرار كل شيء في محله . ثم لا فرق بين ان يكون قاصد بلادنا غنياً او فقيراً. صالحاً باراً او لصاً فاجراً رجلا كان او امرأة. فكلهم ملتزمون باداء

الغرامة وتحمل الغبن - ولكن يا سيدي ومولاي انا امرأة معسرة قد اضطررت
الى المرور بمدينتك السعيدة . لان زوجي المسكين كان قد قدم الى بلادكم
الملكية ليدير مصلحة فقضى عليه الله تعالى بالوفاة . فتركت صِبْية لي في البُيَيت
يتضورون جوعاً وجئت لأرى زوجي الميت حالة كونه لا يراني . ومع ذلك فاني
أُعدّ من الحسان اللائي يحق لهن من امثالك العناية والالطاف . فكيف التزم
بالغرامة فضلا عن نفقة السفر وفقد زوجي الذي كان لي سنداً - ارجعي
من حيث جئت فما هذا وقت الاسترحام . لان القواعد التي تقرر في دفاتر
الملوك لا تقبل التبديل ولا التحريف ولا يستثنى منها شيء - وانا ايضاً يا
مولاي رُجَيْل فقير رماني الدهر بصروفه لامر شاءه الله . فوافيت بلادكم طمعا
في تحصيل وُظيّفة تقوم باوَدي . وما انا من ذوي التغاوي والفتن ولا من
الباحثين في سياسات الملوك وايالاتهم . فقصارى منيتي تحصيل المعيشة . على
اني اعرف شيئا لا يعرفه اهل بلادكم العامرة فربما كان مقامي فيها مفيداً لدولتكم
السعيدة . ولو صدر الامر العالي بامتحاني واختباري فيما ادّعيه لاكرمتم
مثواي فضلاً عن الرخصة لي في الدخول بغير غرامة - يا طائف يا عسس
يازِبْنية يا جلواز يا شرطيّ يا عَون ياذِبّي ّيامِسحَل يافارع ياقيْلع يا تُوْرور
يا ثؤرور يا أثرور يا ترتور اودع هذا السجن . ان هو إلا جاسوس قدم
يتجسّس بلادنا . وفتّشوه عسى ان تجدوا معه اوراقاً تكشف لنا عن خبره -
وانا كذلك يا مولاي وسيدي غُلَيّم مُسَيْكين قد جئت لانظر ابي اذ
بلغني انه كان قادماً من سفره فدخل بلادكم فأصابه هواؤها الحميد بمرض شديد
منعه من الحركة . فلمّا علمت امّي بمرضه وهي مريضة ايضاً مما شملها من
الحزن والكرب لطول غيابه بعثتني اليه لعلي اخدمه وامرّضه فيطيب خاطره
برؤيتي ويخف ما به . فان رؤية الاب ابنه حال مرضه تقوم له مقام الدواء -
ما نحن بمربّي الاولاد ولا بلادنا مكتب لهم حتى يأتوا اليها ويخرجوا منها
من دون غرامة . اذهب وكن رجلاً باداها على الفور - وانا ايضاً يا عتادي
وملاذي . وثمالي ومعاذي . وملجإي وملتحدي . وسندي ومعتمدي .
وركحي وركني . وعزي وامني . رجل من الشعراء الادباء كنت قد مدحت

بعض امرائنا الكرام بقصيدة فاجازني عليها مئة دينار . فاشتريت بنصفها مؤنة لعيالي . ووفيت بربعها ما كنت استدنته لكسوتهم وبقي معي ربع . واذ سمعت بمحاسن مملكتكم الخصيبة البهية البهيجة وبما فيها من التحف والطُرف التي لا توجد في بلادنا رمت ان اسرّح ناظري وانزه خاطري في هذا النعيم اياماً قليلة . عسى ان يخطر ببالي عند رؤيته معاني بديعة ما سبقني اليها احد فاصوغ منها بادىء بدىء مديحاً بليغاً في جنابك الرفيع . ومقامك السنيع . وانشر الثناء عليك في جميع الاقطار . في الليل والنهار . واجيد وصف مكارمك في الاسفار – ما اكثر الشعراء الغاوين العاوين في بلادنا وما اكثر اقاويلهم واقل رزقهم . اما ان تدفع الغرامة واما ان ترجع على عقبك واما ان نؤويك الى دار المجانين . ولكن هيهات ان تشرف مسامع المسترحم الحقير من سيده الجليل الخطير بمثل هذه الاجوبة السلبية . فان السلب من مقام الكبير منّة . وانما الغالب ان يكون جوابه برغم الانف او بالقفد . او باللكم على الخرطوم . او بهتم سن . او ببقر بطن او باطنان ساق . او بانقاض ظهر .

ولهذا لما عزم الفارياق على السفر وكان ممن لا يستغني عن احد اعضائه التمس من خمسة قناصل ان يشرفوا جَوازه بختومهم . فختم عليه كل من قنصل نابلي وليكورنه ومدينة اخرى في مملكة البابا وقنصل جينوى وفرنسا لان سفينة النار تمرّ على مراسي هذه المدن كلها وترسي فيها بعض ساعات . اما مدينة نابلي فهي مشهورة بكثرة ما فيها من العجلات والمراكب والحدائق والغياض . واما ليكورنه فبطيب هوائها وارتفاع بنائها وكذلك مدينة جينوى . قال وهي عندي احسن منهما . وانحس ما يكون مدينة البابا اذ ليس عليها رونق المُلك ولا الملكوت وما بها شيء يقرّ العين .

فلما وصل الفارياق الى مرسيلية اخذ صندوقه الى ديوان المكس واشير اليه ان يتبعه . ثم طلب منه المكّاسون ان يفتحوه ليفتشوه فظن انهم يريدون ان يفتشوا في كراريسي ليعلموا ما فيها فقال. أنا ماهجوت سلطانكم

ولا مطرانكم فلم تفتشون في كراريسي . فلم يفهمه احد منهم وهو لم يفهم احداً . فلما فرغوا اشاروا اليه ان اقفل صندوقك فثلج صدره . ثم انبرى واحد منهم يمسح بيديه على جنبه فظن انه يتمسح به اي يتبرك لكونه وجد كراريسه بخط غريب . لكنه علمَ من بعد ذلك انهم كانوا يفتشونه ليعلموا هل كان مدّخراً شيئاً من التبغ والمسكر .

ثم سافر من مرسيلية الى باريس ففُتش ايضاً هو وصندوقه في ديوان مكسها . فكان مكّاسي هذه المدينة كما يحسبون ان رفاقهم في تلك قدناموا عن قيام الليل . فبال الشيطان في آذانهم فعمشت عيونهم عن رؤية ما في الصندوق . او انهم يرتشون كسائر اصحاب الوظائف . فاقام في باريس ثلاثة ايام في دار سفارة الدولة العلية وفيها حظي بتقبيل ايدي الوزيرين المعظمين والمشيرين المفخمين رشيد باشا وسامي باشا .

ثم سافر من باريس الى لندن وسيأتي الكلام على وصف هاتين المدينتين العظيمتين . ثم من لندن الى قرية في بلاد الفلاحين وفيها القى العصا وعندها اقف انا ايضاً .

٤

في شروط الروايـــة

لم يمضِ على الفارياق في مدى عمره مدة هي انحس واشقى من المدة الـتي قضاها في تلك القرية . لان قرى بلاد الانـكليزليس فيها من محل لهو واجتماع وانس وحظ البتة . وانما اللهو والحظ في المدن الكبيرة . وفضلا عن ذلـك فليس في القرى شيء يباع للمأكول والمشروب سوى ما لا احتفال به . ومن كان عنده دجاجة او طرفـة بعث بها الى احدى المدن القريبة . فمن شاء ان ينقطع عن الدنيا او يترهب فعليه بها .

اما النساء هناك ففيهن من تشفي من القمة بل تمني بالقرم . الا ان الغريب محروم منهن . اذ كل ذات ظلف ملازمـــة لفحلها فليس من سائب مبهّل الا العجائز .

ثم بعد مضي شهرين عليه وهو على هذه الحالة المشؤومة انتقل الى مدينة كمبريـج مصدر القسوسة وعلم الكلام . فان جل قسيسي الانـكليز يمضون اليها او الى اكسفورد ليتعلموا فيها الالهيات والمناظرة . وفي هاتين المدينتين ايضاً سائر طلاب العلم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم. ومن احدى مدارس كمبريج نبغ نيوطون الفيلسوف المشهور . فاكترى الفارياق فيها مسكنين في دار كما هي العادة ومكث يترجم بقية الكتاب الذي مرّت الاشارة اليه سابقا .

وكان في تلك الدار جارية دعجاء كاعب وكذا سائر الوصائف غالبـاً . فكان الفارياق يراها كل ليلة تطلع الى غرفة احد السكان ثم بعد هنيهة ليست باطول من قولك عمت مساء يسمع لهـا نغمة ايغافية . وكانت صاحبة المنزل

تراها نازلة من عند الرجل في الساعة العاشرة ونحوها من الليل ولا تكترث بطلوعها ولا بنزولها . فاذا جاءت في الصباح لتصلح فراش الفارياق حملق فيها وحدق فلم يرَ فيها علامة تدل على انها كانت هي صاحبة النغمة . فيظن ان ذلك كان وهماً منه نشأ عن اللهج بالايغاف. فاذا جاء الليل عادت النغمة وعاد اليقين . فاذا كان الصباح عادت الحلقة وعاد التصاون وعاد الشك والحيرة وهلم جرا. حتى كاد ذلك يشوش عقل الفارياق ويفسد عليه الترجمة التي طالما كان يخشى عليها الخلل والفساد من قضية مانسائية .وهنا ينبغي ان اقرفص واقول.

ان هذه المزية السنورية اي الاكل خفوة وان يكن وجودها ملحوظاً في النساء على الاعم الا انها في نساء الانكليز على الاخصّ . فان المتّصفة منهن بما اتصفت به السيدة المدقم في فصل حدنبدي تتظاهر في النهار بصفات الورع والتقوى والنفورية والقذورية وتنظر الى تبعها نظر المتجاهل . وتوهم الناقد انها متبتلة معتزلة للرجال . وربما حفظت احاديث دينيـــة وروايات نسكية تلقيها على الناس فيعظمونها ويعتقدون فيها الصلاح. واذا دخلت بيتها وجدت على مائدتها التوراة والانجيل وكتبا اخرى في العبادة والزهد . وربما وسّخت الظاهر من ورقها لتوهم انها كثيرة الدراسة لها ولا يمكن للرجل ان يذكر بين يديها اسم عضو من اعضائه .فتكون لذة هؤلاء على مقتضى قاعدة الفارياقية غير تامة وذلك لخلوها عن ركن الذكر . وعنها ايضا ان ذكر اللذة لا بد من ان يكون مطابقا للواقع فان كان الوقوع مثلاً من ذي مقام ليلاً ذُكرت فيه لذات مقام . وان يكن من دونٍ صباحاً ذكرت فيه لدون من النساء. وقس على ذلك سائر التباين في الاوقات والاشخاص . اللهمّ إلاّ ان خشي فوات الفرصة . اي اذا حصلت مثلا ليلا ولم يمكن ذكرها في الليل فيصح الذكر في الفجر او الصباح . او ان حصلت من ذي مقـــام ولم يتهيأ وجود نظيره فيصح ذكرها لدون ولا تفسد لذة الذكر بذلك . فاما على فرض كونها لم تجد احدا من هذه الاصناف فيصح ذكرها لنفسها . وذلك بان تدخل رأسها في زير فارغ او في بئر او جبّ او قبوة ونحو ذلك مما له صدى وتنطق بلسان

فصيح مبين بما مرّ لها . حتى اذا رجع الصدى قام لها مقام النديم الكليم .
فاما اذا بقي الذِكر في صدرها فيخشى عليها من الصّدارة والذباح. ويشترط
ايضاً عندها ان تكون الرواية مطابقة للفعل . فللنبرة نبرة . وللهمز همزة .
وللحركة حركة.وللسكون سكون . وللمد مدّ . وللهذ هذ وللترخيم ترخيم.
وللترسّل ترسل . وان يبلّغ التشديد على الذال اذا كانت الرواية بلغتنا هذه
الشريفة . وان يكون في العينين مغازلة . وفي اللعم فيضان . وفي اللسان
بلّه . وفي اليدين تلقح.وبما تقرّر علمتَ من ان هذه الخلة المذكورة الموجودة
في نساء الانكليز اخلال بشروط اللذة . ويمكن ان يقال ان لذة التصور
عندهن قوية جداً بحيث تقوم مقام لذتين . او انهن يضعن رؤسهن في
خابية ونحوها . وعن الفارياق ان الجمال في النساء على اختلاف انواعه له نطق
ونداء ودعاء واشارة ورمز . فمنه ما يقول لناظره لست ابالي بالمراود . ومنه
ما يقول الا اغتنم الآن الفرصة – للتأخير آفات– لن تراني من الكثير ملولا–
لا يغرّنك الشفون – هيتَ لك – مَنْ لي به الساعة – ما ارى كفايتي عند
احد – ان دواء الشقّ ان تحوصه – اين ابن المشبع – اين ابن الغز – اين ابن
بني اذلغ – لديّ يذل الصعب – بعد جهدك لا تلام – لكل مجتهد نصيب –
من اطعم اشبع – من ذاق عرف –من مسّ هرف–من سبق فقد ربح–العود
احمد – من عدّ عاد – من وصل وُصل . ومنه ما يشير ان استعمل الحيلة –
تلطف في الزيارة – كن من الجسار على حذر – من تأنى نال ما تمنى – بكر
بكور الغراب وغير ذلك .

فجمال نساء الانكليز هو مما عنوانه اين ابن الغز . أين ابن المشبع . لدي
يذل الصعب . فانك ترى المرأة منهن تمشي وهي صفوح منزة سامدة
مساندة شاردة معبدة شامرة نافرة جافلة جامزة آبزة نافزة ناقزة معتزة ساربة
عاسجة طامحة جامحة شامخة خانفة مشمّة شافنة مُهْطِعة مُرشقة منتالعة هابعة
متعاطفة متطلقة مخرنطمة مسحنفرة مجلوّذة مجلوّظة مذلعبّة مجرهدّة مرمئدة
مشمعدّة مصمعدّة مسبئرّة مسبكرّة مسمهرة مشفترة مسجئرّة مسجهرّة

متمهلّة متمثلة مشمعلّة مصمئلة مقلهفّة مزلئمّة . ومع ان القــدرة الخالقية قد خصتهن بآلاء ألايا سابغة ضافية على ما روت الرواة فانهن يتخذن لهـا المرافد ويعظمنها بها تعظيماً يوقف المستوفز بحيث يقف كالجـابه الحيران . فلا يتماسك عن ان تصطـك ساقاه تعجباً واعظاماً لهذا التعظيم . وان تحـــترق اسنانه ويندلع لسانه . وتنضنض لهاته . وتلتوي عنقه . وتنتفخ أوداجـــه ويحمرّ حملاقه . ويُغـان على قلبه ويَطنَى . وتأخـــذه القشعريرة والرعدة والافـكل والهزّة والاضطراب والرجفان والنغشان والغشيان والغميـــان والفَشيان والنُحَواء والدُوار والمَيَدان واللبَم والاختلاج والترنح والارتعاج والارتعاش والارتهاش والرّغس والارتعـــاس والترأد والترجيد والاصِيص والبَصيص والكصيص والارْض والعُسوم والنِفـيْضَى والقِـــلّ والارْزيز والزّمَع والزقزقة والشفشفة والصَعْفة والقرقفة والقفقفة . وتهيج به الاخلاط الاربعة فيطلب كل خلط عظـّامة. وتنهال عليه الخواطر والوساوس. وتتجاذبه عوامل الاماني . وتجرضه مجرضات النزّة . وتطفره خوالج الشهوة . ويميل به ميل التشوق والتلهف على حد قول الشاعر :

علمتك الباذل المعروف فانبعثت   اليك بي واجفات الشوق والامل

فيبقى حائراً بائراً مبهوتاً مهفوتاً سادراً داهلاً مدهوشاً ذاهلا . بحيث اذا رجع سالماً الى منزله يحسب كل شاخص فيه عظـّامة او ما عُظـّم بها .

وكان الفارياق اذا خرج وابصر هـذه الروابي الخصيبة عاد الى مأواه وفي رأسه الف معنى يشغله . فمما انشده في بعض هذه الفتن .

يا للعجـــاب وكلّ عُجْب   فليقل يا للعجابِ
ما ان يرى في ذا المكان سوى المرافد من روابي
كلا ولا من غوطـــة   من دون ذياك الجناب
كلا ولا قرموطـــة   تشرى سوى كعب الكعاب
من كل ذات تبهكن   تدعو الحصور الى الدعاب

الشوق يقدم بي وخوف العجز من غَمَلَم ناي بي
ماذا يقول الناس عمّن خار عن مَلْءِ الوطاب
ام كيف تضعف معدة عربي عن قحف القعاب
من لي بصُنبور فاترعــه بنزفــة الحباب
من لي بقبّة مرفد في ليلتي من ذي القباب
من لي بحتّ أليّة من ذي الالايا في مآبي
هذا لعمرك شأن ذي قـَطـَم وهذا الداب دابي

٥

في فضل النساء

وكما ان نساء تلك البلاد اختصصن بهذه المزية كذلك اختصت رجالها بالطافهم الغريب بعد معرفتهم له . فاما قبل المعرفة فانه اذا حيّى احداً منهم فما يكون جوابه الا الشزر والشصر . ولهذا لما سمع احد طلاّب العربية منهم بوجود الفارياق وكان قد قُرِي عليه حسبه ونشبه اتى ليزوره . وطلب منه ان يذهب معه الى منزله فيقيم عنده مكرماً معززاً وكان مقامه بعيداً عن كمبريج . فاجابه الفارياق الى ذلك لان اهل المدينة على كثرة المدارس عندهم والمعالم هم اشدّ الناس نفوراً من الغريب . ولا سيما اذا كان مخالفاً لهم في الزيّ . فكانوا يسخرون من قبعته الحمراء حتى كان كثيراً ما يقتبع في غرفته ولا يخرج منها الا ليلاً . وقال في ذلك .

رمتني النوى في كمبريج ملازما لبيتي نهاراً ان تراني اوباش
فتعبثَ بي حتى اذا الليل جنّني خرجت على أمْن كاني خفاش

ولان الكلاب ايضاً كانت تشم فروته وتلازمه . فقال فيها .

ولي فروة تأتي الكلاب تشمها ولم تندفع عنها اذا ما دفعتها
تهرّ على تمزيق جلدي وجلدها كأني من آبائها قد صنعتها

ولان اهل الدار التي نزل فيها كانوا يشاركونه في طعامه ولا يشركونه في لحمهم وشحمهم . فقال فيهم :

ولي عيلة في كمبريج خفيّة تؤاكلني من حيث ليس عيان
فعهدي باسم الآكلات فلانة وعهدي باسم الآكلين فلان

ولأنه لم يقدر على ان يجرّد الى احدى تلك القبب . فقال فيها :

وما نفع الوثـير من الحشايا وليس عليـه وَتْر اذ تهش
وما نفع الشعار بـلا شعار وحسن الحفش ان لم يلفَ حفش
وما نفع الحيـاة بغير حيّ فنعشك دونه ما عشت نعش

فسارا في سكة الحديد وبلغا المنزل ليلا وما كاد الفارياق يدخل حجرته التي اعدت له حتى رقشها بهذين البيتين :

لله درب الحديد كم كفل ربا به والثديّ قد رجفت
لو لم يكن غير تلك فائدة لنا به دون اتوه [1] لكفت

ثم لما قام في الغد رأى المنزل بعيداً عن الدار . فاستعاذ بالله واسترجع واضبّ على ما نفسه . لان هذه الشكوى ليس لها عند هؤلاء القوم اذن واعية .

حتى انه لما شكا يوماً طول غيبته عن زوجته قال له صاحبه بعد ايام قد فرط منك بالامس كلام فقلت اني مشتاق الى امرأتي . وكان الاولى ان تقول الى اولادي . فقال له الفارياق ما المانع من أن يذكر الرجل امرأته كما يذكر ولده . ولولا المرأة لم يكن الولد بل لولا المرأة لم يكن شيء في الدنيا لا دين ولا غيره . قال مه مه قد افحشت . قال ارغن لما اقول . لولا بنت فرعون لم ينج موسى من الغرق . ولولا موسى لم تكن التوراة . ولولا المرأة لم يمكن ليوشع ان يدخل ارض الموعد ويستولي عليها. ولولا المرأة ما حظي ابراهيم عند ملك مصر ونال منـه الصلات والهدايا فتمّهد لليهود النزل الى مصر من بعده . ولولا المرأة لم ينجُ داود من يد شاول حين اضمر قتله وان كان ذلك قد تمّ بحيلة وضع صنم في فراشه . ولولا داود لم يكن الزبور . نعم ولولا المرأة اعني زوجة نابال ما تقوى داود على اعدائه ولولا حيلة بت شبع على داود لم يملك سليمن ابنه ولم يبن هيكل الله باورشليم. ولولا المرأة لم يولد سيدنا عيسى

---

(١) الاتو الاستقامة في السير والسرعة .

ولم يذع خبر انبعاثـه . ولولا المرأة لم يستتبّ مذهب الانكليز كما هو اليوم . هذا وان المصوّرين عندكم يصوّرون الملائكة بصورة النساء . والشعراء عندكم ما زالوا يتغزلون في المرأة ولولاها لم ينبغ شاعر .

قال ان اراك الا هائجاً على النساء وكان العرب كلهم على هذه الصفة .قال نعم انا راموزهم وقطاطهم وكل من ينطق بالضاد يكلف بالضأد. فاطرق مليّا ثم قال لعلكم ارشد ممن عدل الى الميم . فقد بلغني ان في بلادكم قوماً ميميّين يعدلون عـن سواء السبيل الى مضايق ذميمة وهو اقبح ما يكون واقبح من ذلك ان بعض المؤلفين من العرب قد ألفوا في ذلـك كتباً وتمحّلوا لايراد ادلة على تفضيل الحرفة الميمية . قال نعم ومن جملتها كتاب عثرت به في خزانـة كتب كمبريج ورأيت مكتوباً عليه عنوانه بالانـكليزية كتاب في حقوق الزواج . فكأن شاريه لم يفهم مضمونه . ومن اسخف مـا ورد من الادلة على ذلك قول بعضهم :

انا لست اجزم باللواط ولا الزنا   لـكن اقول مقال من قد حررا
ان اللذاذة كلها في اقذر الـ   ـجارَين فاختر ان عرفت الاقذرا

وسبب تأليف هذه الكتب من مثل هؤلاء العتاولة إما للعّنينية فان النساء يعرضن عمّن يبتلى بذلك . او للبخل لان النفقة على المرأة اكثر . او لقصر اليد عن هصرهن او لفساد آخر . اما سليم الطبع فلا يميل عن هذا المذهب اصـلا .

ثم ان الفارياق لبث عند صاحبه مدة في خلالها آدب الى مآدب فاخرة عند بعض الاعيان . ومن عادتهم في الولائم ان تقعد النساء عـلى المائدة مكشوفات الاذرع والصدور بحيث يمكن للناظر ان يرى المفاهر واللبّـان والبادلة والبَهْو . واذا تطالل واشرأب وكان حسن الاهطاع رأى اللّعْوة ايضاً أي آية الحلم . وهي من جملة العادات التي تحمد من وجه وتذم من وجه آخر . حيث كان هذا الكشف مطّردا للصبايا والعجائز بـل العجائز عند الافرنـج ولا سيا الانـكليز يكتشفن ويتفتّين ويتعيّلن اكثر من الصبايا . ثم

قلّت الدعوات وكثر قلق الفارياق لان من نظر الى سحنته مرة لم يرد أن ينظر اليها مرة اخرى . فرأى الرجوع الى كمبرج اوفق . فسافر اليها فوجد القبب قد ربَت نحو ثلاثة قراريط. وذلك إما لبعد عهده بها او لكون زيادة قرصة البرد اوجبت ذلك .

وهنا ينبغي ذكر فائدة وهي ان كمبريج واكسفورد لما كانتا مشهورتين بمدارس العلم كما ذكرنا آنفاً وكان جلّ الطلبة فيهما من الاغنياء وفي كل منهما نحو الفي طالب . كانت البنات الحسان من قرى الفلاحين المجاورة ينتبن سوق هاتين المدينتين لترويج ما عندهن من الصبى والجمال . فترى فيهما من الجمال الرائع والحسن الباهر ما لا تراه في سائر المدن . غير انه لكل ساقطة لاقطة. فلهذا كانت مشايخنا الطلبة ينظرون الى من زاد به عدد أهل البلد نظر الهرّة التي يؤخذ منها جراؤها . فمن ثم ترحّل الفارياق عن هؤلاء السنانير وهرّاتهم لا سيما وقد ورد في الامثال اذا دخلتَ ارض الحُصَيب فهرول واقام في لندن نحو شهر .

وصف لندن او لندرة عن الفارياق

ها هي ذات التيه والدلال . الخاطرة على الفحول من الرجال. تنظر اليهم شزرا . وتجر اذيالها وشالها جرا . كما قلت من قصيدة

قامت تجر من الدلال ذيولا   جرّا اضاف الى العميد نحولا

وهي لا ترى لها من بينهم كفؤا . وتهلس منهم سخرية وهزؤا ألا فاذكري ان بينهم الاقوى الاقدر . الاسرى الايسر . الاسرع الاعسر . الاقرش الاقشر . الاصرع الاعصر . الامرد الادسر . الارشف الاشفر . الابرز الازبر . الذي اذا ضمّ زفر . واذا شمّ نخر . واذا هيج زأر . او غمز بدر . واذا رأى طبلا زمّر . او ذات تدهكر دهشر. اذكري ان بينهم عربياً ذا غرام . وهيام وأوام . ومغازلة وبغام. ومداعبة وكعام . وتمشير وانكماش. واندساس في الاعشاش. علامَ تتملّقكِ وانت معرضة كبرا . ونعدك فتتخذين

كلامنا هِتْرا . ألم تعلمي أنا اليك متودّدون . وعلى مثلك متعوّدون . كم من صعب رُضْناه . ومتحكّم ارضيناه . وأبيّ أملْناه . وقَرِم اشبعناه . وجامح استوقفناه وشاكٍ اشكيناه . وعاتب اعتبناه . وكم من متعنّتة آبت وهي شاكرة . ثم انثنت زائرة. ألا لا يغوينّك الشطاط الى الشطط. والعَيَن الى الشَحَط . والعَيَط الى اللغط . وصهوبة الشعر . الى انكار القدر. وتفليج الثنايا الى ألتُت المزايا . وتورد الخدين . الى احتقار اللجين . وتفليك الكعب . الى التيه والعجب . وبضاضة البشره . الى النهم والشره . وفعومة الساعدين . الى عنجرة الشفتين . وجدل الساقين . الى الاستنكاف من مِض لناقـد عين . وعميد غين . يكفتها ويتطوّق بها او يعتمّ بها على زَنَبها . وينزه زغبها عن الحلت والنتف . والحصّ والحفّ . وعن مسّ السقف . ألا ولا يضلنّك الجاهض من وراء الازدراء . ولا النافج من امام الى منع التحية والسلام . ان لدينا من المِزْر والفُقّاع . ما يروي كل مَقّاع . ويسكر كل ذات قناع . ومن الشِوا ، ما يزيل الخَوا . ومن الدينار ، ما ينفث في عقد الازار . فيحلها حلاّ . ويبلّها بلاّ . فمن البلّ بَلَل . ومن الحَلّ حُلَل . فبحق من اولاك هذه المحاسن . فتنة كل سامع ومعاين . الا ما احسنت في عشاقك الظنّ . واقللت لهم من هذا التزليق والفَتْن . فكلهم الى وصالك حنّ ومن صلفك انّ . وبعدُ . فان هي الا مرّة . فان احمدت اللقاء فاجعليها عادة وانت على كل حال حرّة . والا فما اكثر طرق هذه المدينةوما اطولها ، وما اوفر القادمين اليها . وما اوسع حوانيتها وساحاتها . وندحاتها وباحاتها : وحدائقها وغياضها، ومماشيها ورياضها.وما ابهج ملاهيها وملاعبها . واجرى عجلاتها ومراكبها . وما ارحب كنائسها وما احفل مجالسها . وما اعمر مساكنها . وامخر سفائنها . فاجر فيها حيث يعجبك من هنا ومن هنا. كل امرىء يسعى ليدرك الهنا .

٦

في محاورة

وبعد ان فرغ الفارياق من عمله في هـذه المدينة الغاصة بالغواني سافر الى باريس فاقام فيها ثلاثة ايام لا تكفي لمعرفة وصفها. فلهـذا نضرب هنا عن ذكره فان حق الوصف ان يكون مستوعباً.ثم سافر منها الى مرسيلية ومنها الى الجزيرة واتاح له الله بفضله العميم ان رأى زوجته في نفس الدار التي غادرها فيها . وقد كان يظن انها طارت مع عنقاء مغرب او مع الغُنْشجول وبَنَى بها هذه المرة السادسة . فان المرة الثانية كانت بعد قدومه من الشام والثالثة بعد رجوعه من تونس والرابعة بعد خروجه من المعتزل مع سامي باشا المفخم والخامسة بعد رجوعها من مصر . ثم انشد :

من يُرد في زوجه ينكح ازواجاً عديدة
فليَغب عنها زمانا يلقها عِرْسا جديدة

فقالت لكن المرأة لا ترى من زوجها بعد ايابه عِرسا جديدة . قال فقلت انما هو من مخالفتهن الرجال في كل شيء قالت نعم ولولا هذا الخلاف . ما حصل الوفاق . قلت كيف يكون عن الخلاف وفاق ؟ قالت كما ان المرأة خُلقت مخالفة للرجل في الخَلق كذلك كان خلافها له في الخلق . وكل من هذين الخلافين باعث له على شدة الكلف بها والحرص عليها . الا ترى ان المرأة اذا كانت تفعل كل ما يريد زوجها ان تفعله كانت كالآلة بين يديه فلا يكترث بها ولا يقبل عليها لاعتقاد انها موقوفة على حركة يده او عينه او لسانه زيادة على حركة يده في الآلة . بخلاف ما اذا عرف منها المخالفة والاستبداد

بأمرها فانه حرٍ يعلق بها ويداريها . قلت هذا غير ما عُهد عند الناس . قالت بل هو معهود عند النساء من القديم . ولذلك تراهن جميعهن متحليات بهذه الحلية . قلت ولكن اذا كثر الخلاف وطال اورث التقاطع والملال. قالت ان عيني المرأة لا تبرحان ناظرتين او حقهما ان تكونا ناظرتين الى موضعي القطع والوصل . والا استطال احدهما على الآخر فوقع ما قلت . قلت بل في دوام الوصل دوام الوفاق . قالت لا بل هو باعث على السآمة والضجر. فان الانسان مطبوع على ذلك . قلت اي سآمة من وصل الحبيب . قالت السآمة غالبة على الانسان في كل شيء بحيث يود تبديل حالته الحسنى بحالة سَوْأى . قلت او قد سئمتِ من حالتك هذه . قالت ثم حلت عن السأمة قلت ما بال الناس كلهم يقولون يا قرة العين. قالت نعم ان العين تقرّ بشيء ريثما يعنّ لها آخر فتَطرَف اليه . قلت وما شأن القلب قالت هو متقلّب ومتحيّز معها . قلت فما شأن العميان . قالت ان لهم في بصائرهم عيونا اشد حملقة من العين الباصرة . قلت مَن اسرعُ الناس تقلّبَ قلبٍ . قالت اكثرهم فكرا فان العجماوات اثبت واصبر من الناس اذ ليس لها فكر . قلت فاذاً ينشأ عن النفع ضر . قالت نعم كما انه ينشأ عن الضر نفع : قلت اي نفع في المرض . قالت سكون العقل والدم والفكر عن الهوى والشهوات . قلت اي نفع في الفقر . قالت الكف عن الشراهة والسرف المهلكين. فان الذين يموتون من زيادة الاكل والشرب اكثر من الذين يموتون لقلتها . قلت اي نفع في الزواج بامرأة دميمة . قالت كف رجل جارك عن دارك وصرف عين اميرك عن مراقبة حالك. على انها لا تعدم طالباً مثلها ولكن بعض الشر أهون من بعض. قلت اي نفع في دمامة الاولاد قالت اذا علموا ذلك من انفسهم رغبوا عن اللهو الى العلم ·واقبلوا على تحسين خُلقهم ليشفع في خَلقهم . قلت واي نفع من مشيب اعلى الانسان قبل اسفله مع ان شعر الاسفل ينبت قبل شعر الاعلى . قالت اشعاره بان الحيوانية المطلقة اقوى فيه من الحيوانية المقيدة . ولذلك كان اول ما يشيب فيه رأسه الذي هو محل الناطقية . واقوى ما يحسّ منه باللذة اسفله . قلت وما نتيجة ذلك قالت اقلاله من الفكر . قلت وما الفائدة في كونه يعوز الى اوقية من اللحم

يملأ بها وجهه فيجد رطلاً في عجزه. قالت هو من النوع الاول. قلت كانك تقولين ان الرجل لم يخلق الا لاجل المرأة . قالت نعم كما ان المرأة لم تخلق الا للرجل. قلت اي نفع في تحتّت الاسنان . قالت الاكل على هينة فيمرؤ الطعام . قلت اي نفع في تعميش العينين . قالت عدم رؤية الحسان ليلاً فانهن اروع فيه وافتن . قلت واي نفع في العَرَج . قالت الراحة من الجري وراء القرصافة الزقزاقة . قلت اي نفع في السدّة . قالت الذهول عن العَبِقة . قلت وفي الصمم . قالت عن الرُمُم . قلت وفي الجهل . قالت توفر الصحة للبدن والراحة للبال . فان الجاهل لا يفكر في الامور الدقيقة المتعبة . فاذا نام أهنأه النوم واذا طُعِم شيئاً امرأه . لاكدابك في الهينمة اناء الليل واطراف النهار فما اسمع منك الا تعديد قوافي . وذكر نؤيٍ واثافي. ودوارس عوافي . وظعائن خوافي . واذا جلست للطعام اتيت بالكتاب معك فجعلت الصفحة تلو الصفحة . فتأكل لقمة . وتقرأ فقرة . وتكرع من الشراب كرعة وتتلو أسطورة . ولذلك – قلت قد فهمت من هذا الاكتفاء عدم الاكتفاء . ولكن كثرة القراءة ينشأ عنها كثرة التصور الباعثة على كثرة التشوق . قالت ولكن كثرة التشوق ينشأ عنها الترويلية او الزمالقية والمقصود الجحّادية اللّحِكية . وقد طالما احوج وجود الاولى الى البحث عن وجود الثانية . ولكن دعنا من هذه الملاحك والمغامس .

كيف وجدت مدينة لندن . قلت رأيت فيها النساء اكثر من الرجال واجمل . قالت لو ذهبت اليها امرأة لرأت بعكس ذلك فان نساء الانكليز في هذه الجزيرة لسن حساناً والحسن كله في الرجال . قلت هؤلاء نخبة البلاد انتقتهم الدولة حساناً ليخيفوا العدو في الحرب . قالت بل الامر بالعكس فان الجميل لا يخيف وان يكن عدواً وانما القبيح هو الذي يخيف . ألا ترى انهم يقولون رجل باسل ومتبسّل اي شجاع وهو في الاصل الكريه المنظر . قلت وقد قالوا ايضاً راعه بمعنى اعجبه واخافه . قالت المعنى واحد فانه مأخوذ

من الرّوع اي القلب فرؤية الجميل تُصيب القلب بل وسائر الجوارح . ثمقالت وكيف رأيت دكاكينها واسواقها . قلت اما الدكاكين فلآنه من الخز والحرير والتحف البديعة . قالت هل مَن هو فيها كما هو فيها . قلت فيها نساء بيض حسان . قالت انا اسألك عن شيء وانت تخبرني عن غيره . قد عرفت انك زائغ البصر فلن اسألك بعدُ عن الناس وما اسأل الا عيني . هذه خصلة فيكم معاشر الرجال انكم لا ترون في جنسكم حسناً . قلت هي مثل خصلتكن معاشر النساء في انكن لا ترين في جنسكن جمالا.قد تكافأنا . قالت كيف تكافأنا وبيننا خلاء . قلت كل آت قريب . قالت وكل قريب آت . قلت لا أرضى بهذهالكلية بل قولي بعض القريب . قالت اذا ساغ البعض لم يُغَصّ بالكل .

ثم قالت اخبرني عن الاسواق . فقلت طويلة عريضة واسعة نظيفة كثيرة الانوار بحيث لا يمكن للرجل ان ينفرد بامرأة اصلاً . حتى كان الضباب ينجلي بها في الليل ايضاً قالت هو من بعض المنافع الضارّة . ألا ليت لي جداً فانظر مرة محاسن هذا المصر من قبل ان اقضي . قلت لا تقنطي فاني ارجو ان نسافر اليها جميعاً بعد مدة . قالت حقّق الله لنا هذه الامنية . فلما امسى المساء وبات كل منهما ثملا بذكر لندن على ما مال اليه خاطره قامت في الغداة تقول قد رأيت لندن في المنام واذا برجالها اكثر من نسائها . وطرقها واسعة كما قلت كثيرة الانوار . ولكن يمكن للرجل فيها ان ينفرد بامرأة وكأنك انما تقوّلت هذا لكيلا اسيىء فيك الظن . ولكن ما كنت لاصدقك من بعد ان تحققت انك غير امين في الرواية الاولى ثم بعد محاورة طويلة باتا تلك الليلة على اسم لندن . فاصبحت تقول : قد حلمت اني اشتريت من احسن دكاكينها ثوب ديباج احمر احمر احمر . قال انك لا تزالين لاهجة بهذا اللون واهل لندن لايحبّونه لا في الحرير ولا في الآدميين . قالت ما سبب ذلك ؟ قلت لان الحمرة في الناس تكون عن كثرة الدم وكثرة الدم مظنة بكثرة

الاكل والشرب . وهي دليل على الرُغْب والنَّهَم. وانما يحبون اليلق الامهق. وكذلك العرب يحبون هذا اللون فقد قال اعظم شعرائهم :

كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الحيّ غير محلّل

فقالت ان كان هذا الاستكراه من طرف الرجال فهو لخشية عزة النساء عليهم باللون الاحمر الدال على القوة والنشاط والاشر والبَتَع والكَرَع . فيوهمهم ذلك عجزهم عن كفايتهن . وان يكن من النساء وقد نطقن به فما هو الا مواربة ومغالطة . فان الانسان بالطبع يحب اللون الاحمر كما يشاهد ذلك في الاطفال . وناهيك ان الدم الذي هو عنصر الحياة احمر . قال فقلت ولكن خلاصة الدم وصفوته هو في ذلك اللون الذي يرغب فيه اهل لندن . قالت فهذا هو السبب اذاً . الآن قد حصحص الحق وبان . اما انا فعلى مذهبي لن احول عنه . وللناس فيما يعشقون مذاهب . فقلت بودي لو كنت احمر احمر احمر حتى تحبيني وان كنت احمق احمق احمق . قالت وما انتفاعك بالمحبة اذا كنت احمق . وانما يعود النفع لي في تركك اياي مع الاحمر .

قلت اتزعمين ان العلم يمنع المرأة عن اجراء ما تضمره وان الحمق يمكنها منه. قالت لا والله بل ربما كان في الحمق لها اكثر . فان الاحمق يلازم امرأته ويظل محلقاً فيها والعالم يحملق في كراريسه وكيفما كان فلم ارَ اسفه ممن يحرّج على امرأته ويلازمها . فان الرجل كلما اعنت المرأة ونكنك عليها بالملازمة والكنكنة زادت هي في تماديها فلا يردها شيء عما ارادته سوى حشمتها وحيائها . واكثر الرجال حمقاً وسخافة من اذا اوجس من زوجته الميل الى شخص قال لها تزهيداً فيه . ان فلاناً متهتك مستهتر فاحش لا يبالي بما يقول ويفعل . فاذا حضر مجلس ذوي الأدب فأول ما يفوه به قوله قد راودت فلانة وخلبتها وفتنتها . وقد عشقتني وعشقتها . كأنه اي الزوج يحذرها من الاسترسال الى هواه مخافة ان تنفضح بين الناس او ان يقول لها ان فلاناً ورع تقيّ يتقي مغازلة النساء اتقاء الافاعي كأنه يقول لها انك ان تعرضت

له في الهوى جبهك وندمك وفضحك. فقد تقرر في عقول الرجال ان كل امر من امور الدنيا والآخرة يشين عرض المرأة ويهتك حجابها . مع انه لا شيء يدغدغها مثل سماعها عن رجل انه مسرف مشط في حال من الاحوال بحيث لا يلحقها منه اذى : فهي والحالة هذه تزيد حرصاً على فتنته لتصرفه عن تلك الحال اليها فيرجع اسرافه في محبتها . قال فقلت نعم ان كيد النساء كان عظيماً .

٧

في الطباق والتنظير

الانسان كما قالت الفارياقية مجبول على السآمة والملل . ومتى ظفر بالغرض استحوذ عليه الغرض. وما دام الرجل المتزوج حِلْس بيته ويسمع من زوجته هات واشترِ وجدّد واصلح ودّ لو انه يكون عزباً ولو راهباً في صومعة فاذا تغرّب عنها ورأى الرجال يمشون مع النساء سواء كن حليلات او خليلات أنِف من الصومعة. وهاج به الشوق الى ان يكون له امرأة يماشيها مثل اولئك وان كان مشيهم وقتئذ للتحاكم والتخاصم لدى جناب القاضي. فينبغي للزوج الملازم لِكِنّه والحالة هذه ان لا يزال متصوّراً انه غريب في ارض بعيدة عند اناس يخدعونه ويغبنونه ويهيجونه بمرافدهم أو انزوجته قد سافرت عنه الى اناس يعاقرونها المدام ويرقدونها على فرش من ريش النعام . ويغازلونها فتغزلهم . ويباعلونها فتبعلهم . فاذا فعل ذلك هانت عليه نغمات هات واشترِ وهذا جدول عن الفارياق بيّن فيه الاحوال التي يقول فيها المتزوج :

يا ليت ما عندي امرأة	ويا ليت عندي امرأة
اذا تزبرقت وتزبرجت وتزلقت وتبرجت وتعطرت وتبغنجت وقالت له قم بنا الى المثابة والمحافل والمحاشد والملاهي والمراقص .	اذا سار وحده الى المثابة والمحافل والمحاشد والملاهي والمراقص ورأى النساء فيها متزبرقات متزبرجات الخ.
اذا خرج معها وقد نفّجت صدرها واحكمت مرفدها ثم طفقت تتبازى وتوكوك وتميس وتزوزك وتميل عنقها ورأسها .	اذا سار وحده ورأى من قد نفجت صدرها واحكمت مرفدها ثم غدت تتبازى وتوكوك الخ .

اذا مشى معها فرأت نقطة ماءفي الطريق فشمّرت عن ساقيها لتبدو حماتاهما .

اذا مشى وحده فرأى من شمرت عن ساقها عند رؤيتها نقطة مـــاء في الطريق الخ .

اذا سار معهـــا في يوم ذي ريح وعمدت الى كشف الثوب عن صدرها وعجزها .

اذا سار وحــده في يوم ذي ريح وابصر من عمدت الى كشف الثوب عن صدرها .

اذا جعلت دأبها ان توقع منديلها او تربط شراك نعليهاثم تكبّ فتبدي عجيزتها .

اذا سار وحده فرأى من تكب لتربط شراك نعليها او تلتقط منديلها فتبدي عجيزتها .

اذا جعلت شيئاً في فمهـا تلوكه وهيماشية توهمن يعجبها من الفتيان انهـا تشير بقبلة او اذا غمزت احداً ورمزت ولمزت .

اذا ابصر من تلوك شيئـــاً وهي ماشية وحسب ذلك اشارة اليه بقبلة ثم غدتتغمز وترمز وتلمز وتابز وتنفز وتنقز .

اذا صادفت رجلاً من معارفها في الطريق فطفقت تعاتبه على طولغيابه عنها ثم امسكت بيده وغمزتها غمزاً شديداً .

اذا رأى امرأة تعاتب رجلا على طول غيابهعنها ثم اخذتيده وغمزتها غمزاً شديداً حتى احمر الغامز واصفر المغموز او بالعكس .

اذا لقيت امرأة في الطريق عليها ديباج نفيس فجعلت تسألها عن سعره وعمن يبيعه .

اذا لقي امرأتـــين تمس احداهما الاخرى وتلك الملموســة تشير بيدها اللطيفة الى مكان .

اذا صادفت احداً في الطريـــق فاشارت اليه ان اتبعنا فاخذ يمشيعن يمينها فحولت وجهها عن زوجهـــا وجعلت جلّ الكلام مع الزبون .

اذا وجد رجلا بـين امرأتين او امرأة بين رجلينففي الحالة الاولىطلباً للمرازمة وفي الثانية ثقــة بالكفايــة لان طعام اثنين يشبع ثلثة .

اذا رجعا الى البيت وصرّحت له

اذا رجع الىالبيتورأي ان عنده

او عرضت بشراء الديباج ولم يكن عنده دراهم تكفي .

اذا قالت له وهما على المائدة لتغصّصه ما اجمل فلانا الذي ماشانا وما الطفه وابرّه واطرّه واحرّه وادرّه .

اذا بات تلك الليلة وهو تعب موجع الراس حتى اذا اغفى قليلاً احسّ بحركة منها في جنبه فقضى دينه متكارها .

اذا سكن منزلاً وكان جاره الادنى منه فتى جميلا فجعل يتردد عليه بعلة الجاريّة .

اذا مرض ولزم فراشه وهو يشكو ويئن فلزمت هي الشباك وهي تمكو وتحن .

اذا جاء وقت الصيف ففتر وفدر وجفر وحَصِر واسترخت عروقه فأثر ان يبيت وحده .

اذا عنّ له سفر لا بد منه ولم يمكن له مصاحبة زوجته

اذا غاب عن زوجته او غابت هي عنه فجعلت تكتب له ما تغيره به وتكيده وتقهره

اذا قرأ في الكتب ان النساء كلهن

مالاً وليس من تلبس الديباج وتجلس الى جانبه .

اذا جلس للطعام وحده وجعل يفكر ويقول في نفسه ما اجمل فلانة التي رأيتها تمشي مع فلان وما الطفها واترّها واطرّها وادرها .

اذا بات تلك الليلة وهو مستريح ناشط ثم احسّ بحركة منه فمد يده فجأة على الحائط او على مسمار او وتد فدميت .

اذا سكن منزلاً وكانت جارته فتاة جميلة ولم يمكن له ان يمتّ اليها بوسيلة الجاريّة .

اذا رأى جاره مريضاً في الفراش يشكو ويئن وزوجته بجنبه تحنّ وتهنّ .

اذاجاء وقت الشتاء فاشتد واستد وامتد واختد ونبضت عروقه فآثر ان يبيت مع من تنفخ في وجهه .

اذا رأى جاره قد سافر وترك زوجته خبعة طلعة راغية ثاغية .

اذا غاب رجل عن زوجته او غابت هي عنه فجعلت تكتب له ما تصبره به وتسليه وتمنيه .

اذا سمع عن امرأة انها لم تخن

خائنات وان عقولهن في فروجهن .

اذا ركبه الضَعَف فلم يقدر على كفاية عائلتــه ولم تكن امرأته جميلة لتنفعه .

اذا جاء من محترفه وقابلته امرأته بالصخب والمشارزة والنقار والضجيج والجؤار .

اذا غاب عن بيته ورجع فوجــد فراشه مشوّشاً وشعر امرأته مشعّثاً بعد ان كانت اصلحتها قبل خروجه .

اذا رآها تسارّ الخادم او الخادمة وتأنس بها وتتساهل معهما . وتحسن اليهما .

اذا رآها تتوقف في المشي كلـّما مرّ بها جميل بدعوى ضيق نعليهـــا او غيره .

اذا اضطجعت حتى ينظرها من هو اعلى منها او اسفل واشوق مـــا تكون المرأة ما اذا اضطجعت على جنبها .

اذا كانت ذات هوى وضلع مــع جميل بخصوصه ولا تزال تلهج بذكره .

اذا غاب عن بيته ثم رجع فلم يجد زوجها وانهـــا ردّت في حبه هدايا عشاق كثيرين .

اذا رأى امرأة جميلة تماشي ولدا لها صغيراً ابزيعاً فيقع في الارض فتنهضه بيدها فيبكي قليلاً حتى يحمر خداه .

اذا رأى جاره قد آب من محترفه فسمع له ولزوجتـــه رَتـَلا وزَجَلا وهَمْساً ورِكزا ومباغمة ثم رَفشاً .

اذا رجع الى بيته فـــائزاً بوطر ووجد فرشه موضونا وليس من تملاه شحماً ولحماً ثم رأى في جملة ذخائره خصلة شعر .

اذا رأى امرأة لا تسارّ الخـادم ولا الخادمــة ولا تبتسم لهما ولا تخلو باحد منهما .

اذا رأى امرأة تماشي زوجهـــا وطرفها اليه ولا يزعجها من يمرّ بها كائناً ما كان .

اذا رأى امرأة قد اضطرّت الى الاضطجاع وابت ذلك حياء وحشمة سواء كان ذلك في حضور زوجها او في غيابه .

اذا كانت المرأة غــير ذات ميل وحذل مع احد وعندهــا ان زوجها يغنيها عن غيره .

اذا رأى جاره كلما رجع الى منزله

امرأته او اذا قرع الباب فلم تفتح له في الحال .

اذا سمعت آلات الطرب فغدت تترنح وتترقص وتقول آه اوه ايه .

اذا كانت تسهب مع الفتيان في الكلام وتضحك معهم حتى تقول طيخ طيخ وعيناها اذ ذاك مغازلتان ووجنتاها محمرّتان .

اذا كتبت على قميصها حروفاً انكرها او رأى في شفتيها أثر العض والكعام .

اذا سمعها تذكر اسماء رجال في المنام او اذا تحالمت فذكرت ما كان يعجبه ويرضيه .

اذا رآها تكره ولدها وتلهى عنه وعن امور البيت بزينتها وتبرجها .

اذا قعدت بالشباك لتخيط شيئاً فجعلت تدرز درزة وتنظر منه نظرة حتى جاء عملها فاسداً فاضطرت الى فتقه واصلاحه .

اذا وضعت القدر على النار لتطبخ شيئاً ثم شرعت في الغناء حتى تهوست فنسيت القدر والطبيخ فتشيّط .

وجد امرأته مقبلة على الشغل ولا يكاد يطرق الباب الا يُفتح له .

اذا سمع امرأة تقول وقد سمعت آلات الطرب ان صوت ابنها الصغير اشجى منها .

اذا رأى امرأة تكلم الحاضرين كلاً بحسب مقامه ولا يسمع منها طيخ طيخ ولا يبدو في سحنتها احمرار ولا اصفرار .

اذا سمع ان امرأة تكتب على قميصها اسم زوجها ولم يُرَ في شفتيها او خدّيها اثر ما قط .

اذا بلغه ان جاره يكاعم امرأته ويشاعرها فلا تحلم له ولا يحلم لها .

اذا رأى امرأة تحب ولدها وتحمله ولا تلهى عنه ولا عن بيتها .

اذا رأى امرأة تخيط لزوجها او لولدها شيئاً من غير ان تتخلل الدرزات نظرات وظفرات فجاء عملها محكماً من اول وهلة .

اذا رأى امرأة تضع القدر على النار ولا تلهى عنها فيأتي الطعام . قديا مشهّياً معيناً على الباه والرقاد .

اذا تمنت ان تكـون في المواضع التي يكثر فيها تردد الرجال كفندق وخان ونحوهما.

اذا كانت تصرّح او تعرّض لزوجها بأنها تحب السمان الطوال من الرجـال مثلاً وهو ليس منهم .

اذا كانت تعيب على زوجها انـه غير متصف بالمِلثية ولا بالقـمُـدية .

اذا وافى منزله وقت الغـــداء او العشاء ساغباً لاغباً فلم يجد شيئاً يأكله لان زوجته لهيت عن الغداء بتصليح ثيابها وتغيير زيّها وعن العشاء بلبسها وجلوسها بالشباك لتنظـــر وينظرها المارون .

وما اشبه ذلك .

اذا كانت تبتعد عن المثابـة ولا تشتهي ان تدخل في زحـام ليقرصها واحد ويغمزها آخر .

اذا كانت المرأة تقول أمام زوجها او غيره بأنها لا تحب الطوال من الرجال حالة كون زوجها قصيراً .

اذا كانت امرأة مفسّلة تعفـّفـــاً وشكت من ملثية زوجها وقمديّته .

اذا وافى منزلـه وقت الغداء او العشاء فوجد على مائدته كل ما تشتهيه النفس فأكل وشرب وطابت نفسه ثم رأى من شباكه جارته تلبس ثيابها وتنظر الى ما ورائها لتعلم هل الثوب والعجيزة هما كشنّ وطبقة او لا

وما اشبه ذلك .

★



في سفر معجّل وهَينوم عُقْميّ وَهْبل

وظل الفارياق معالجاً للبخر وقد ضاق بهم ذرعاً . اذ لم يحصل من علاجهم فائدة فأصبح يحاول التملص من هذه الحرفة ولا سيما انــه كان مطبوعاً على الملل والجزع . واتفق في غضون ذلك ان سافر الى فرنسا المولى المعظم احمد باشا باي والي ايالة تونس المفخم . وفرّق على فقراء مرسيلية وباريس وغيرهما اموالاً جزيلة شاع ذكرها ثم رجع الى مقامه .فرأى الفارياق أن يهنئه بقصيدة فنظم القصيدة . وبعث بها على يد من بلغها لجنـــابه . فلم يشعر بعد أيام الا وربان سفينة حربية يطرق بابه . فلما دخل واستقر به المجلس قال للفارياق قد بلغت قصيدتك لجناب سيدنا الاكرم . وقد أمرني ان احملك اليه في البارجة. فلما سمع ذلك استبشر بالفرج من حرفته وقال لعمري ما كنت احسب ان الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيه . ولكن اذا اراد الله بعبد خيراً لم يعقه عنه الشعر ولا غيره . ألا فــاهزقي يا فارياقية المهزاق . واسلنقي فما يضرني اليوم اسلاق . ونفجي مــا استطعت ان تنفّجي . وضرّجي وضمّجي ودبّجي . هذا يوم يعبق فيه المكتغن . ويشبق فيه من وهن . ويشمق منه ذو الددن. ويفاز بالغدن . هذا يوم تستحسن فيه الرّبوخ . ويلقح فيه من مُلوخ . وتتشم الجلهوب والسلقلق . وتـُنجب الشريم ثم العَفلق . هلمّي فاتخـــذي مذ اليوم ظيرا . فاني ارى في الزند إيرا .

فقال الربان وقد استعجم عليه الكلام ما هذه اللغة التي تتكلمون بها لعمر الله ما فهمت شيئاً مما قلتم ، اهذا اللسان تحمل في رأسك الى تونس . وبهذه الالفاظ تخاطب سيدنا وأهل الفضل من رجال دولتــه . قال لا وانما هذه لغة

أصطلحنا عليها فلا نستعملها الا نادراً. فقال الربّان ينبغي ان تتأهب الى السفر ولك أن تستصحب ايضاً عائلتك اذا شئت. فان سيدنا اكرم الناس لا يسوءه ذلك . فتأهب الفارياق هو وعائلته وركبوا في السفينة وبعد مسير اثني عشر يوماً والريح مخالفة كما جرت العادة بذلك بلغوا حلق الواد . فأمر المولى المشار اليه بنزولهم في دار امير البحر .

وهنا ينبغي ان نلاحظ مزية الكرم التي خص الله تعالى بها جيل العرب دون سائر الاجيال . وذلك ان استدعـاء المولى المومأ اليه لم يكن لجميع من دبّ ودرج بمنزل الفارياق بل كان خاصاً به وحده . الا انـه لما بلغ مسامعه الكريمة قدوم مادحه باهله لم يستأ من ذلك ولم يقل ما اقل ادب هذا المدعو وما اصفق وجهه لقدومه علينا مزوياً . ولم يقـل لربانه قد خالفت القوانين السياسية والاوامر الملوكية فلننزعن عن كتفيك هدّاب منصبك حتى تكون عبرة لمن اعتبر . بل بقي الربان متشرفاً بهدّابه . والفارياق متمتعاً باهدابه . وبوّىء اكرم مبوّأ في دار أمير البحر واجرى عليـه الرزق الكريم . والخير العميم . ولو ان احد اعيان الافرنج دعا شخصاً واتاه ذلك الشخص ومعه غير نفسه لجبهه عند اللقاء بل لم يكن ليلقاه قط . لا بل نساؤهنّ لما كن يدعون الفارياقية كن يقلن لها انك انت المدعوة فقط اشارة الى عدم ازوائها بخادمتها وطفلها . وليت شعري اين من تكرم من ملوكهم بارسال بارجة لاستحضـار شاعر ولغمره اياه بالمال والهدايا النفيسة . فلعمري ان مادح ملوكهم لا جائزة له من عندهم غير تسفيهه وتفنيده . مع انهم اشد الخلق حرصاً على ان يشكرهم الناس ويمدحوهم . ولكنهم يأنفون من أن يمدحهم شاعر يريد نوالهم فلمن هذا المال الذي يدّخرونه . ولأية داهية من الدواهي يعتدونه ، وهم الطاعمون الكاسون . الحاسون اللاسون . ام يخشون ان يـلمّ بهم ضفف او قشف . ام يحسبون ان صلة الشاعر من السرف . ولهذا اي لكون الكرم مزية خاصـة بالعرب لم ينبغ في امة من الامم شعراء مجيدون مفلقون كشعرائهم على اختلاف الامكنة والازمنة . وذلك من زمن الجاهليـــة الى انقراض الخلفاء والدولة العربية .

فان اليونانيين يفتخرون بشاعر واحد وهو أوميروس Homère والرومانيين بفرجيل Virgilius والطليانيين بطـاسو Tasso والنمساويين بشلـَر Schiller والفرنسيس براسين ومولير Racine et Molière والانـكليز بشكسبير وملطون وبيرون Shakespeare, Milton et Byron. فأما شعراء العرب المبرزون على جميع هؤلاء فأكثر من أن يُعدّوا . بل ربما كان ينبغ في عهد واحد في زمن الخلفاء مائتا شاعر كلهم بارع فائق . وذلك لان اللّهى كما قيل تفتح اللّهى . على انه لا مناسبة بين الشعر العربي وشعرهم . لانهم لا يلتزمون فيه الرويّ والقافيـة وليس عندهم قصيدة واحدة على قافية واحدة ولا محسنات بديعية مع كثرة الضرورات التي يحشون بها كلامهم . فنظمهم في الحقيقة اقل كلفـــة من نثرنا المسجّع . وما احد من شعراء الافرنج استحق أن يكون نديماً لملكه . فغاية ما يصلون اليه من السعادة والحظوة عنـد ملوكهم انما هو ان يرخّص لهم في انشاد شعرهم في بعض الملاهي . فأي هوانٍ يلحق جناب الملـك المعظم من اتخاذه الشاعر نديماً وكليماً. ام يقال ان شعراء الافرنج كثيرون بحيث لايمكن للملك ان يختار واحداً منهم على غـيره . اروني اين هم هؤلاء الكثيرون على خزنته السعيدة . كم في بلاد الانـكليز الآن من ناثر . وكم في بـــلاد فرنسا من ناظم . وهنا ينبغي ايضاً ان اضيف ملاحظـة اخرى فأقول . انه قلما ينبغ شاعر عربي او عجمي ويعجب الناس جميعاً . فان من الشعراء من يحب الكلام الجزل الفخم دون ابتـكار المعنى. وبعضهم يعنى بالمعاني دون الالفاظ. وبعضهم يتحرى اللفظ الرقيق والعبارات المنسجمة . وبعضهم الغزل وغير ذلك . ولا تـكاد تجتمع هذه المزايا كلها في شاعر واحد او تجتمع عليها اخلاق الناس كلهم.
فان من كان من بني نـَظـَري ذبٌ الرِياد شـَحِيا لحِيا مُخضعا متصندلا زِير النساء وِخلـْبهن وِشيْعهن وِنسأهن وِحدْثهن وِطلـْحهن وِطلـْبهن وِخدنهن وعَلـّهن ورَنـْوهن وحُرْقوصهن[1] فاقحـا اياهن حيث سرن . وكارزا لهن

(١) الحرقوص بالضم دويبة كالبرغوث حمتها كحمة الزنبور او القراد تلصق بالناس او اصغر من الجعَل تنقب الاساقي وتدخل في فروج الجواري .

ايان برزن . لا تهمه الحماسة ولا منازلة الأقران . فعنده ان قال امرؤ القيس:

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم تحوّل

احسن من قول عنترة :

فطعنته بالرمح ثم علوته بمهند صافي الحديدة مِخذم

ومن يكن عِرْوا او عَزِها او حصورا او عِتْوَلا مُقطَما او متأبدا او عَنكشا عَتْيلا او صيْقماصمكسكا كيْكآ ليس به حمضة الى العَبْهرة العجَنجرة والعياذ بالله من ذلك . صرف ذهنه الى الزهديات والحكميات . انتهى .

ثم ان الفارياق انتقل الى المدينة وهناك تعرّف بجماعة من اهل الفضل والادب . منهم مَن ادبه ومنهم من اترفه وهناك حظي بتقبيل يد المولى المعظم ونال منه الصلات الوافرة . وسأله وزير الدولة هل تعرف اللغة الفرنساوية . قال لا يا سيدي ما عنيت بها . فاني ما كدت اتعلم لسان الانكليز حتى نسيت من لغتي قدر ما تعلمته منه . فقد قُدّر على رأسي ان يسع قدراً معلوماً من العلم فمتى زاد من جهة نقص من اخرى . فلما اخبر زوجته بذلك قالت له . الم اقل لك غير مرة عَدّ عن الغزل بالنساء وتعلم هذه اللغة المفيدة وما كنت لترعوي عن هواك. ماذا تريد من الغزل وعندك زافنة . قال فقلت نعم ورافنة . ثم قالت ماذا يفيدك وصف العين بالحَوَر ولست منهن تقضي الدهر من وطر . اليس وراك مني رقيب قريب . قلت بلى والله اني ما خلوت قط بامرأة في الحلم الا ورأيتك وراءها . حتى كثيراً ما شاهدتك تمزقين ثوبها وتنتفين شعرها ثم تتبوأين مكانها وترسلينها فارغة . فقالت الحمد لله على ان القي رُعبي في قلبك في اليقظة والمنام . قلت قد بدا لي ان انتقل من التغزل بالنساء الى هجوهن فعسى ان انتقل بذلك الى حال احسن . قالت افعل ما بدا لك ولكن اياك من ان تدخلني في الجملة .ولكن قف قف لا تذكر النساء لا في النسيب ولا في الهجاء . فانك اول ما تذكر اسمهن يدور رأسك وينبض فيك العرق القديم ، كلا ثم كلا . قلت ولكن

في مدح سيدنا الامير قد ذكرت اسم امرأة . فقالت وقد أتقدت عيناها من الغيظ . مَن هذه الفاعلة الصانعــة . قلت هو اسم عربي . قالت آه هو من ضلالك القديم . ولو كان اسماً عجمياً لقمت الآن واحرقت ديوانك هــــذا الذي هو عليّ اشد من الضرّة لانك تصرف فيه نصف الليالي . فقلت لكن هذا النصف ليس بمانع من كله . قالت لكن ذاك الكل حق لي وضعفـيَ مثله . قلت صدقت ما خُلق الليل الا للنساء وما خلقن هن الا لليل . قالت سلمتُ بالاولى ولا اسلّم بالثانية . فان النساء خلقن للنهار ايضاً . قلت نعم ولكل ساعة منه وليس للرجل همّ في الدنيا غير امرأته . قالت الاولى ان تقول اهتمام . قلت في كل اهتمام همّ . قالت هذا عند الرجال من فشلهم وليس كذلك عند النساء . قلت هو من خفة عقولهن وثقل نهمهنّ فان اللذة تذهلهن عن الدين والدنيا معاً . قالت بل هن يجمعن بين الثلاثة في مكان واحد وآن واحد . واما انتم فمتى كلفتم بواحدة منها اغفلتم الاخرى . وهذه من المزايا التي مزّانا بها الباري تعالى عليكم ألا ترى ان المرأة اذا سمعت مثلا خطيبـــاً جميلا يخطب في الناس ويزهدهم في الدنيا تلذذت بكلامه وشغفت حباً بجماله وبكت زهداً في العالم . قلت بودي لو كانت النساء يخطبن على المنابر كالرجال قالت لأبكينهم دما . ولكن هيهات فان الرجال من اثرتهم استبدوا بجميع الامور المعاشية والمعادية وبمراتب العز والجاه . وحرموا النساء من ان يشاركنهم فيها . فما كان ابهج الكون واعمره لو كانت النساء تتولى هذه الرتب . وكمــا ان الدنيا مؤنثة وكذا السماء والارض والجنة والحياة والروح والنفس والنبوة والرسالة والسعادة والحظوة والغبطة والعزة والنعمة والرفاهية والابّهة والعظمة والخطابة والفصاحة والبلاغة والسماحة والشجاعة والفضيلة والمروءة والحقيقة والملة والشريعة والايالة والولاية والزعامة والرئاسة والحكومة والسياسة والنقابة والنكابة والعرافة والامارة والخلافة والوزارة والمملكة والسلطنــة واخص ذلك المحبة واللذة والشهوة . فما كان اجدرها بان تشرف بالنساء . قلت قد نسيت العفة والحصانة . قالت لم تخطر لي ببال والا لذكرتها . قلت ولكن

البعال مذكر . قالت أين انت من المباعلة . قلت والهكهكة . قالت ومـــا الهكهكـة . قلت مضاعف هكّ هك اي هني هني اي طحز طحز اي فعل فعل . قالت هي احسن مما تقـــدم . قلت فقولي اذاً اخيرّا والا فهو كفر وخمج . قالت على النساء لاحرج فان منهن الفرج .قلت نعم للفرج اذا ابصرن ذا فرج . قالت والارج . قلت والمرج . قالت وهنّ احق بذي برج . قلت وبمن نيرج . قالت الجمع بينهما بلج . قلت والثاني عند تعذر الاولى هو الافلج. قالت وبه اللسان الهج .

ثم عزما على الرجوع فسفرهما المولى المشار اليه في سفينة النار .

٩

في الهيئة والاشكال

وبعد ان وصل الفارياق الى منزله جاءه بعض معارفه وسأله عن سفره . فاسرّ اليه وعينه ناظرة الى باب غرفة زوجته ان نساء اليهود في تونس مازلن حساناً . وانه وان يكنْ قد انزل بهذا الجيل مسخ كما تزعم النصارى فانه انما نزل بالرجال فقط . فقالت امرأته من وراء الباب قد سمعت ما تقول بل المسخ وقع على النساء . قال حيث قد سمعت نجوانا ولا يخفى عليك مني خافية فضمي نفسك الينا لنخوض في هذا الحديث المستحب . قالت اجل انه ما يخفى عن اذني همهمة . ولا عن عيني سمسمة . ثم انها تصدرت في المجلس وقالت . قد اعجبني من زي الرجال في تونس ان سراويلهم قصيرة بحيث تظهر سيقانهم . قال فقلت بل زي النساء اعجب واشوق . فان الرجال قد يكسون سيقانهم من الجوارب ما يغطيها ومع ذلك فالسراويل تخفي خصورهم وما يليها . فاما النساء فسوقهن بادية ولا شيء يستر حقائبهن . فترى المرأة تمشي في اوان الحر وثوبها يشف عما تحته من مكبّب ومقبّب . ومعقب ومقوّب . ومكعّب ومكعثب . فقالت بودي لو كان زي النساء كهيئة اجسامهن . قلت هذا يكون فاحشاً من وجهين . لان المتزيية به ان كانت ركراكة عندلة لفّاء كانت فتنة للناس وعطّلت عباد الله عن اعمالهم . وان كانت دردحة او رسحاء كانت وباء على الناس واجحرتهم في بيوتهم تطيراً منها . قالت ما سبب كون الرجال في هذا البلد يتزيون بزي كهيئة اجسامهم ولا لوم عليهم ولا محظور من رؤيتهم . افكل ما تفعله الرجال يسوغ وما تفعله النساء يغصّ به . لعمري ان هذا الزي احسن من زي رجال بلادنا .

فانك ترى من له سراويل منهم يمشي ويفحج كالشاة للحلب . وكثيراً مـــا تلتف عليه من قدام ومن خلف فتعوقه عن المشي فضلا عن الجري. ولو انه كان مثلا في محترفه وقال له قائل قد زارك اليوم في منزلك فتى غسّاني فرهد . ولمّا لم يجدك لبث ينتظرك وها هو الآن هناك — وقد احتفلت به زوجتك وهشّت اليه وبشت وهي التي ثبّطته وامرت الخادمة بان تمرض او تتمارض حتى تنفي عنك الشبهة . اذ لو بعثتها اليك وخلا لهما المكان لرابك امرهما واعتقدت ان زيارته لها انما كانت عن موعد. وانها هي المقصود بهذه الزيارة لا التشوق الى رؤية سحنتك . وغير ذلك من الكلام الذي يفور به الدم وينتفخ منه الحلاق . فكيف يمكن له والحالة هذه ان يحفد الى منزله وبين فخذيه مايذهب به هنا وهناك. ثم ضحكت وقالت نعم وترى منهم من له جبة يمشي ويكنس الارض بأذيالها فيلصق بها كل ما في الارض من النجاسة والقذر حتى اذا وافى بيته ملأه بالرائحة الخبيثة فعلق بزوجته منها ما يرد الطرف عنها وان كانت عبقة. لأن الرائحة الخبيثة تغلب على الرائحة الطيبة كما يقال. وفضلا عن ذلك فان جبه واحدة يعمل منها كثير من هذه التي تلبسها الافرنج الى خصورهم . وليس للرجل اذا لبسها من هيئة ولا شارة فانها تخفي قوامه كله فلا يرى له خصر ولا غيره . وما خلق الله الانسان على هذه الصورة الا واراد ان تكون ظاهرة كما هي . قلت قد رأيت الافرنج في بلادهم صيفاً وشتاء فاذا هم يسترون ادبارهم بهـــذه الجبب المزنقة . ولا يمشي احد منهم في الخـــارج ظاهر الدبر كما يمشي هؤلاء القوم القليلو الحياء في هذه الجزيرة . قالت والبطون والافخـاذ قلت ظاهرة قالت قد شفع هذا في ذاك فاما سترهما معاً فشنيع . لعمري ان الناس لم يهتدوا الى الآن الى زي حسن يوافق هيئة الجسم ويلائم للعمل وبـه شارة . فان هذه البرنيطة لا تعجبني وليست ملائمة للوجه لا في النساء ولا في الرجال لانها اشبه بالقفة أو الزنبيل او القِرْطالة او السلّة او العَيْبة او العِكْم او المرجونة او الجوالق او الخُرْبة او التّبيد او الجُرْجة او الغَفَر او الجُفّ او القَفْعة او الجُلّة او القَشْع او المُدارة او القَلْع او الكنف او القَنْبع او المِخرف او القِنْع او الزكيبـــة او الجِواء او القَوْصَرّة او القَوْد او

التلبّيسة او الوَقيعــــة او الجِلْـف او الخصَفة او الدَوْخلـّة او السَفَط او الحَـفْص او المِيْضة او الصَنّوت . وهذه العمائم دونها في القبح . وهذه الحبر التي تلبسها نساء مصر لا حسن فيها فضلاً عن غلائها. واقبح من ذلك كله هذا الحزام الذي تتحزم به الرجال فانه يملأ الخصر والصدر ويمنع الطعام عن الهضم. واقبح منه هذا الشريط الذي يربطون به سراويلاتهم من تحت ركبهم فانه يوقف الدم عن سريانه في الارجل. وليس في زي نساء الافرنج حسن الا كونه ملائماً للمرافد وقد طالما بتّ مشغولة البال بهذا وحاولت ان اخترع زيا يكون فيه حسن وتشويق وخفة وطلاوة وجلالة مع موافقة هيئة الجسم ما امكن فلم يفتح الله عليّ الى الان وعسى ان يتجه الى ذلك عن قريب فاكون معدودة من جملة المستنبطين في هذا العصر . قلت وهل لم يخطر ببالك الاقتصاد قط في استنباطك . قالت لا فان خير المال ما انفق على المرأة . قلت بل على هــذه الخزانة واشرت الى سهوة الكتب . قالت او تعـــانق الكتاب في ليــــلك وتشاعره . قلت ان الرجل حين يشاعر زوجته ليلا لا تكون متزينة باللباس والحلي بل تكون عريانة عند قوم . وفرجا او متفضّلة او هلا عند آخرين . فيصدق عليها ما قيل شعر

يتفخّل الانسان جل نهاره	حتى يفوز بغادة في ليله
فاذا استقر في الفراش بدت له	جهواء مثل التيس تحت ذييله

قالت بل في تبرج المرأة وزينتها نهاراً تشويق وتهييج لزوجها ليلاً . قلت نعم ولجارها ايضاً . قالت بل ولنفسها كذلك . قلت مــا فهمت هذا المعنى البديع هل المرأة اذا نظرت الى زينتها تكرع . قالت لا شك فــان الزينة حسن وكل حسن فانما يذكر بالحسن . حتى لو نظرت جواداً مطهّماً او متاعاً نفيساً او شيئاً آخر من زينة السماوات والارض لكان اول ما يخطر ببالهــا شخصاً متصفاً بالجمال . قلت فهو اذاً تصور مطلق غير معين . قالت ان كان الاشوق في العيان . فهو الاسبق الى الاذهان والا فأي كائن كان . قلت وعلى فرض حضور الزوج وشرط كونه عليه مسحة من الجمــــال ، فهل له خطور

بالبال . قالت اذا وفق الى التمليق والتعريب فقد يخطر ولكن لا بالصفة العينية بل بالصفة المطلقة . قلت قد لمحت الى هذا المعنى سابقاً وفهمته حق فهمه . ولكن أسألك سؤال متحرّ غير ذي ضلع ولا صفا . هلا يجب على المرأة ان تقدم زوجها في الذكر والتصور من حيث ان له المزية والقفيّة . وحالة كونه شيخها وأباها وحليلها ونفاحها وكمعيها وكفيحها وضجيعها وعقيدها وعهيدها واكيلها وشريبها وجليسها وسميرها وحليفها وعشيرها واليفها ونجيها وضمينها ووليّها وكفيلها وكليمها وعنيقها ونديمها وخليطها وعميلها وشريكها وخليلها . قالت نعم ورقيبها وسبيبها وشغيبها وعقيبها وغضيبها وكليبها ولتيبها ووثيبها وفحيصها وخصيمها ولزيها وزحيمها ونبيزها ولقيسها وفقيسها وقفيسها وجاسوسها وعاسوسهاوجاروسها ونقوسها وفانوسها وكابوسها وناطورها وناقورها . قلت قد قال مولانا صاحب القاموس دل المرأة ودلالها تدللها على زوجها تريه جرأة عليه في تغنج وتشكل كانها تخالفه وما بها خلاف . وقال ايضاً تبعلت المرأة اطاعت بعلهااو تزينت له . وفي موضع آخر تقيأت تعرضت لبعلها والقت نفسها عليه (انتهى) فهذا دليل على ان حركاتالمرأة كلهاينبغي ان يكونمقصوداً بها الزوج لا غير. قالت لا غرو ان يكون صاحبك قد قيد هذه الحركات بالزواج تفرداً بها من عنده . او انه تابع بعض اهل اللغة المشفشفين على ذلك . فان الرجال دأبهم ان يدّعوا ان المرأة لم تخلق الا لارضاء زوجها وتعليله وتمليقه . وان اللغة انما وضعوها استبداداً منهم عن النساء وافتئاتا كما هو دأبهم في غير ذلك . مع ان اللغة انثى ولو كانت من وضع النساء وهو الاولى اذ كل انتاج ووضع لا بد له من ماهية انثوية لكن وضعن الفاظاً تدل على من لا يفكر في غير امرأته . وعلى قصر طرف الرجل عن النظر الى سواها وعلى مرضه لمرضها وزحيره لزحيرها وعلى الباسه اياها ونضوها من ثيابها . وعلى تمشيطه شعرها واحراز مراطة منه للنظر اليها اذا غاب عنها ساعة ما .وعلى بذل جميع ما تحت يده لرضاها وعلى من يرى زوجته احسن النساء ومن يزيد حبه لها بازدياد رؤيته لغيرها او على من يغمض عينيه اذا تعرضت له اخرى او يغشى عليه او يكبّ على

وجهه او يأخذه الدُوار او الهيضة. وعلى من يتخذ صورتها فيعمّ بها حيطانه وكتبه ومتاعه . فتكون مرة قائمة ومرة مضطجعة ومرة مستلقية واخرى مكبة .

وبعد فقد تركنا لكم اللغة تتصرفون فيها كيفما شئتم فلمَ لا تتركون لنا خواطرنا وافكارنا وهي ليست من الحركة ولا السكون . فاما دعواك بالمزية والقفية فاني اخبرك خبر من لا يجمجم عليك رثاءً او حياء . انه لا مزية للرجل على المرأة في شيء . اذ ليس من قفية للرجل الا وللمرأة مثلها . فاما كفالته اياها فينبغي ان اقول لك هنا دقيقة قلّ من تنبه لها . وهي انه قد يجتمع مثلاً شخصان في شركة أو دعوة أو زواج ويكون قد تقرّر في بال احدهما ان لـه مّنة على صاحبه . وذاك الممنون عليه يعتقد باطناً وظاهراً انه مظلوم . مثال الزواج ما اذا كانت البنت قبل زواجها تهوى شاباً ولم يمكنها ان تتزوج به فتزوجت آخر . فرأت من افعاله واطواره ما انكرته ، فيخطر ببالها ذلك الذي فاتها فتقول في نفسها لعله كان مستثنى من هذه الاخلاق . فلو اني تزوجت به لكنت الآن في اهنأ عيش . وزوجها يظن اذ ذاك انه اسدى اليها منة عظيمة بكونه تزوجها بعد أن فاتها خليلها الأول ، فكان ينبغي للرجال والنساء ان يمعنوا النظر في احوال الزواج قبل ان يرتبقوا فيه . وعلى الرجل ان لا يتزوج من كانت تهوى آخر قبله. وعلى المرأة ان لا تتزوج بمن كان يعاف الزواج خوف الانفاق والاملاق . أو من كان يهوى أخرى وهو اعزب . ومثال الشركة ما اذا كان أحد الشريكين هو الذي قدّم رأس المال من عنده والقى عبء المصلحة على رفيقه ، فكل منهما يحسب انه ذو منة على شريكه . ومثال الدعوة ما اذا دعاك أحد الى الغداء في العصر وكانت عادتك ان تتغدى في الظهر . أو إذا قدم لك من الطعام ما تعافه . فقد ركز في طبع كل انسان ان يحسب ما يستحسنه هو حسناً عند غيره . أو إذا تكرم عليك وقت الغداء بقُديرة وكُسيرة وجُرَيعة غير عالم ان المأدوب تكبر معدته عند الآدب وتتسع

امعاؤه . أو اذا دعاك الى منزله وكان بعيداً عن المدينة فلزمك ان تكتري مركباً بما يساوي غذائين وعشائين عنده . أو إذا كنت مثلاً عند احد اكابر الأفرنج لمصلحة له وعلم انه قد مضى عليك عدة ساعات من غير أكل فأمر خادمه بان يقدم لك لهنة من الخبز ومن هذا الجبن اللَّخْنيّ . وبك اذ ذاك قرَم الى أكل دماغه فأيّكما والحالة هذه الممتنّ والممتن عليه. او ان يكون احد في خدمة امير فالمخدوم يعتقد ان خادمه ممنون له لكونه يأخذ ماله . والخادم يرى ان مخدومه هو الممنون لكونه يأخذ منه شبابه وصحته . او ان يكون احد قد زار صديقاً له ليسامره وبالمزور همّ وقلق فكل من الزائر والمزور يحسب انه متفضل على صاحبه وقس على ذلك المعلم والمتعلم والمادح والممدوح والمغنّي والمغنّى له . فمن ثم لا ينبغي للرجل ان يحسب ان مجرّد اطعامه المرأة والباسه اياها منّة منه عليها . فان حقوق المرأة اكثر من ان تذكر .

قلت قد لحنت ذلك على طوله وعرضه فقولي لي اي الرجال احب الى النساء . قالت ان اقل لك تعربد . قلت قولي لا بأس فانما هو بساط حديث نُشر فلا يطوى حتى نصل الى آخره . قالت يوم النشر اذاً . فاعلم ان الكاعب من النساء تحب الغلمان والاحداث بشرط كونهم حساناً . والمُعصر تحب الشبان بالشرط المذكور . وقد تأنس بالكهل اعتقاد ان يكون بها ارفق واعشق . ولكن ذلك لا يسمى محبة لانه يؤول الى نفع نفسها . ومن شرط المحبة ان تكون مجردة عن الاستنفاع . ولكن هيهات فان كل محب اذا تحقق دوام حرمانه من محبوبه وعدم الانتفاع به ملّه بل ربما كرهه فعلى هذا فالمحبة عندي لفظ يرادفه الفائدة . فقول القائل انا احب فلانة حقيقة معناه انا استفيد منها . فأما العانس فتحب الصنفين المذكورين ومن جاوزهما في السن قليلاً بالشرط المذكور . واما النّصف فتحب الثلاثة والكهل ايضاً بذلك الشرط . واما العجوز فتحب الجميع .

قلت ما قولك في الشوارب . قالت هي زينة الفم كما ان الحواجب هي

زينة العيون . قلت وفي اللحى . قالت حلى الشيوخ . قلت وفي العـارضين . قالت بخ بخ هما زينة الناظر والمنظور اليه . قلت اي حسن فيهما وخصوصاً مع حلق الشاربين قـــالت هما بمنزلة الاكام للزهر . او الورق للغصن . او القطيفة للثوب . او السياج للحديقة . او الهالة للقمر .

وبينما هما في الكـــلام واذا بطارق يطرق الباب ففتح له واذا برجـل معه كتاب من اللجنة المذكورة سابقاً يتضمن استدعاء الفارياق واهله اليهم . فلما طالع زوجته بذلك كادت تطير فرحاً وسروراً . وقالت ما احلى صباح هذا اليوم وما ايمن شمسه. ثم قامت الى الصندوق فأوعت فيه لوازم السفر ما عدا القاموس. فقال لها الفارياق: رويدك فان دون هذا السفر اموراً كثيرة. فاقعنفزت وقالت اذكرها لي جملة حتى آلي بنفسي جُلها . قال اطمئني واصبري فانك قد شوشتِ عقلي بكلامك الأخير . واعوذ بالله من ان يكون سبباً في فساد ترجمة الكتاب . فتركته واشتغلت بامرها . وانا كذلك اتركه الى وسواسه في العارضين اذ ليس علي ان اشاركه فيه .

١٠

في سفر وتفسير

من جملة ما لزم لهذا للسفر ما عدا القاموس كان هـذا الشرط . وهو ان يغيب الفارياق عن الجزيرة عامين واذا رجع يوظف في وظيفته الاولى . فمن ثم كتب عرضاً للحاكم واقـام ينتظر الجواب . وبعد ايام ورد الجواب بقبول هذا الشرط . فوجد كل شيء ناجزاً للسفر لان زوجته لم تكن في تلك المدة تهمل شيئاً . فلم يبق عليها الا تشريف الجواز بختم القناصل واداء الغرامـة الحتمية الحتمية . الا انه بقي غير مختوم عليه من قنصل ليكورنه . فلمـا بلغوا مرساها اراد الفارياق ان يدخل البلد فاعترضه صاحب ديوان المكس . فقال له انا اعطيك هنا ما كان يحق ان اعطيه للقنصل في الجزيرة . قال لا بل تعطي هنا ضعفين فابى وعزم على الرجوع الى السفينة . فرآه وزوجته رجل يدير زورقاً فلما علم بقضيتهما قال لهما انا ادخل بكما البلد بنصف مـا طلب منكما هذا المكاس الحرامي . فركبا في زورقه وعرج بهما من مكان خفي حتى دخلا البلد . ثم رجعا الى السفينة فسارت بهما الى جينوى ثم الى مرسيلية ثم سافرا الى باريس . وفيها اجتمع بمسيو لامرتين الشاعر المشهور في اللغة الفرنساوية . واقاما فيها اياماً تحوفت من الكيس جانباً (فائدة اذا كنت في بلاد فرنسا فلا تنزل خاناً للانكليز واذا كنت في بلاد هؤلاء فـلا تنزل خاناً لأولئك) ثم سافر الى لندن المحلوم بها . فلما رأت المدينة وما فيها من التحف العجيبة . والرغائب الغريبة . ومن الانوار المزدهرة . والحوانيت

النضرة.قالت ايه ايه لقد قصرت الاحلام عن اليقظة · نعم الدار هي مقاماً . وحبذا العيش فيها دواماً غير اني رأيت من نسائها امراً بدعاً . قال فقلت الحمد لله على انك بدأت بالنساء فهو من جدّ طالع الكتاب الذي يراد ترجمته. ولكن اي بدع هو . قالت كنت اسمعك تحكي عن بعض الائمة ان عقول النساء في فروجهن . وقد ارى نساء هذه الدنيا الصغرى عقولهن في ادبارهن قلت فسّري فاني لم افهم ما اردت . قالت اذا كانت المرأة توقع نفسها بين تهاتر الصنعة والفطرة مع الاستهتار . اي انها تفخم شيئاً بالصنعة وهو في الخلقة غير عظيم المقدار . وتهيج الناس على اكباره والفضل كله للجار . اي اذا كانت تقول بلسان الحال ان لديّ عنصر عصار كالاعصار ، لا يجدي معه الاعتصار . وطبلا فيه زمارة لكل زمار. وصفارة في حالتي الشبع والصفار ودنّا مقعاراً يحتاج الى صمام اذ قد ملىء الى الاصمار وزوراء تستدعي بالزيار . وَخرتا حريا بالدسار . وجَحْراً او دحلا ينجحر فيه الحاذر اي انجحار . وحشة ذات اكوار واوكار وَوَربا يأوي اليه من ليس له وجار . ووأبة مؤئبة في الليل والنهار . ونُقرة ذات تنقير ونقر على ابتدار. وصرف فرث ذات صرير وصرار.وانقوعة اشتملت على صلّة ولا سيما عند الاهجار . وعزلاء لو انحل وكاؤها لمَنَت بالدمار. ووَطْبا لوفشّ لاكفهر منه الجواريّ اكفهرار . وكيْرا يتطاير من نفخه الشرار · وَهيْفاً اذا هبّت في الصيف قال الناس الفرار الفرار . اي اذا كانت خلقت وما تارَبَها احد فاتخذت لها تربا وراءها . ليغني غناءها . اي اذا جعلت دأبها كـــه في تنسيم المسطح . وتقبيب المفلطح اي اذا استحمقت الناظرين اليها . واشارت اليهم ان عندي قعيدة او نضيدة يقعد عليها . اي اذا رمزت اليهم ان الرّكاز . تحت الجراز اي اذا استحقبت المصادع ثم جعلت تمشي وتنظر الى حقيبتها وتعجب منهـا وتزهى بها وتنافس فيها وتحرص عليها وترتاح لها وتشوّق اليها . فوجدت اخرى تفخرها في ذلك ثم وجدت هذه ايضاً من غلبتها في الاستحقاب فاجدر ان يقال ان عقولهن في الحقائب . هذا معنى ما قالته والجرار عبرت عنه بالقرع ، والترب بالردف والحقيبة بالعدل . ولفظة اي في الاصل . قلت هذه

عادة لهن فلا تشاحني في العادات فان لنسائنا ايضاً عادات كثيرة مكروهة في هذه البلاد . وذلك كالتكحيل والتزجيج والتخضيب والتحنية واليرنأة والثمغ والتسيير والتوقيف والاغتماس والترقّن والترثن والتقفّز والتطريف والوشم والتنوّر والامتهاش والجَمش والتحفّف والنّمص والحلْت والاستعانة والتفريب والضياق والفرْم والالهاط والاستطابة والتصنيع والتسمين وعقص الشعر وتقليم الاظفار وتدريها . وكشف الصدر وتحريك الخصر لمن قرصت او قرزت او مرصت او مرزت او غمزت . والحقي به ايضاً العُقْر وبيضة العقر والاختفاض والاهتجان وغير ذلك .

قال فما كدت اتمّ كلامي هذا الوجيز حتى استشاطت غيظا واحرنفشت . ثم قالت لقد ابسلك الى التهلكة مقولك وفضحك عندي وعند الناس فضولك. من اين علمت انهن لا يغنجن ، اذا خُلجن . ولا يرقصن ، اذا قُرصن . ولا يستعملن الضياق والفرم ، اذا كان الفَلْهم ذا لهَم . او اذا كان قوأبا، ذا بقبقة مقبقبا . او اذا كان العفلق ، يسمع لـــه جَلَنْبلَق . والخُنُق احب الى الهُقَق لولا انك جرّبت منهن ذلك . قلت هـذا امر شائع مستفيض نَبَهُ مشهور منوه به ذو دالة وبُنْلة وتشرير لا يخفى على احد . فهو كقول القائل السماء فوقنا والارض تحتنا وهو عند النحاة ليس بكلام افتغضبين مما لا يصح ان يسمى كلاماً.قالت مالي وللكلام انما غضبي عن الفعل . انك عندي قوّال. وعند غيري فعّال . ما هـــذه صفة المتزوجين . ما هذا شأن المحصنين . يا للعجب انت لا تستحي ان تطلب . وانا استحي ان اطلب . الا ليت قاضيا يقضي بين الرجل وامرأته حتى يبين للناس كافة مَن الظالم والمظلوم منا قلت فقولي اذا ليت قاضية.لان القاضي من حيث كونه والحمد لله ذكرا يحكم للرجل على المرأة . قالت بل الامر بعكس ذلك فان القاضي لا يرى الحق الا للمرأة على الرجل ولا سيما اذا جأشت اليه واجهشت وكذا كل رجل الا امرأة نفسه قلت لله درك من امرأة خبيرة بامور الرجال ومن رجل خبير باحوال النساء . اني على مذهب سيدنا القاضي . فأني حين كنت احضر خصام رجـل وامرأة

وأرى الرجل منتوف اللحية مخرّق الجيب ما كنت لأنظر الى المرأة الا نظر المبرّي . ولاسيما إذا اجهشت فكنت اود لو افديها بروحي.ولكن رويدك لا تزبئري ولا تزمخرّي ولا تجذئري ولا تجظئري ولا تحزئري ولا تقدحرّي . اني لم يبق لي الآن الا النظر فاما التفدية فلا حكم لي اليوم على نفسي .

ولكن اخبريني ما هذه الخصلة الغريزيـة فيكن معاشر النساء . انكن تبكين وتضحكن ايان شئتن من اي شيء كان . ونحن معاشر الرجـال لا نبكي الا منكن ولا نضحك الا لكنّ ومن اجلكن . قالت سبب ذلـك هو كون النساء ارق طبعاً واكرم خلقـا . وادق فهما والطف تخيّلا . وارأف قلبا واحنى فؤاداً والين جانبا واسرع سمعا ونظرا . وانفد فكراً واعجـل تأثرا . واخف يدا واعلق بالدنيا والدين. واقبل للتلقين وابدر الى الرسيس . وألقف للعلق النفيس . قلت مهلا مهلا . قالت وأروق بالا . قلت وبعالا . قالت وابلغ حيَلا . قلت وتململا . قالت وأوفى صلة . قلت وغربـلة قالت واعجل الطافا . قلت وايغافا . قالت واكثر ترفقـا . قلت وشبقا . قالت واوفر كرما . قلت وغلما . قالت واطول حبّا . قلت وقنبا . قالت وابقى وجـدا . قلت وزردا وعصدا . قالت واشهى عتابا . قلت وقرابا . قالت وابدع شمظا.قلت ولمظا . قالت وارخم منطقا قلت وحمَقَا.قالت واسبق شعوراً. قلت وشغورا . قالت واحـلى تحدثا . قلت ورفثا . قالت واغرب رَتَلا . قلت وعَفَلا .

ثم قلت قد كان حديثك اولا في الحقائب بما يذهب بصبر ايوب . وينزّي المثمود والمنجوف والمنجوب . والآن اخذت في تفضيل النساء على عادتك وفي تعداد محاسنهن وستنتهين الى كشف المغطّى منهن . فهل تريدين ان اقدم على صاحبنا مجنونا او ذا لمم فتفسد ترجمة الكتاب . قالت ان كنت تجن هنا فلا يكون لك في البيت قرصعة كما في الشام . فان المجانين الذين هم في بيوتهـم هناك اكثر من الذين هم في اديار الرهبان . قلت لعل ذلك هو الذي اغراك بهذا التشويق المعذب . فكفّي عن هذا الحديث الملهب المحرب . بحـق من

أعطاك هذا اللسان الذَرِب وتاهي للاشخاص الى من يكون عنده شغلي.

قالت أليس هو بلندن . قلت لا بل هو في الريف.قالت ويلي على الريف. وعلى الفلاحين.من يطيق السفر من هذه المدينة ليسكن بين الهمج فان الفلاحين في جميع البلاد سواء . قلت ثم ننتقل من هنالك الى مدينة غاصّة بالرجال قالت فيها رجال بلا نساء . قلت بل فيها نساء . وانما هن قليلات بالنسبة الى كثرة الرجال . قالت ان القليل من النساء كثير .

ثم انهما سافرا في غد ذلك اليوم واذ كانا سائرين في درب الحديد ذكر المنبّه اسم القرية التي كانا يقصدانها فلم ينتبه الفارياق لاشتغال باله بتلك المساجلة . حتى اذا سارا طويلا وسأل احد السكوت عن رُحلته قال له قد فاتتك . فخرج ح وهو آسف على غفلته عن تذكير المنبّه . وما بلغوا القرية الا بعد مشي مسافة طويلة وتعب كثير .

(تنبيه دروب الحديد في بلاد الانكليز مثل خطوط الكف يسير فيها المسافر الى اي موضع شاء طولا وعرضاً شرقاً وغرباً)

١١

في ترجمة ونصيحة

ثم لبثنا في تلك القرية وشرعت الفارياقية في تعلم لسان القوم . فقال لها زوجها ذات يوم اني اريد ان انصح لك في امر يختص بتعلم هذه اللغة الجليلة. قالت هات ما عندك فهي لعمري اول نصيحة خرجت من فمك الى مسمعي . قال ومن قلبي ايضاً . قالت قل . قال من شأن المبتدئين بعلم اللغات الاجنبية ان يتعلموا بادىء بدءٍ ما يؤول الى جسم الانسان من العروق والعضلات والربلات الى اخره . قالت قد لحنت ما تعنيه فما هذه بنصيحة . قال فقلت سبحان الله خُلق الانسان من عجل . انما اريد ان اقول لك ان من شاء ان يتعلم هذه اللغة ينبغي له اولاً ان يبتدىء باسماء من في السماوات لا بمن على الارض . فان القوم يتظاهرون بالتقوى والصلاح . حتى ان البغيّ منهم تجأر وهي مستلقية بالدعاء مرة وبالرَفَث اخرى . قالت وقد قلقت أوَ هنا بغايا؟ قلت لا فان اهل القرى الصغيرة في هذه البلاد يتزوجون كسائر الناس ولا يمكنهم السفاح . ولكن المراد ان اقول انهم جميعاً يبدون التورّع . فلاينبغي الآن والحالة هذه ان تسألي عن اسماء الربلات . وستعرفين ذلك كله بعد قليل. بل لا ريب عندي في انك تعرفينه دون معرّف وتحفظينه دون محفّظ وذلك بطريق الافتحار او الالهام . فان لقَنَك وحدّة ذهنك وقوة قريحتك يسهّل عليك كل امر عسير . قالت لعمري لو كان مثل هذا الكلام نصيحة لكانت الحكمة ارخص ما يكون . اناشدك الله كم بلغت من السنين . قلت ما هذا الاستفهام عقب هذا الكلام . قالت اي فصل هذا الذي نحن فيه . قلت فصل الخريف . قالت فالذنب اذاً على الفصل . قلت اتزعمينني قد خرفت . قالت

والا فما هذا القول الذي زخرفت به وتحسبه نصيحة . قلت فافعلي ما بدا لك فلقد وعظت من لم يتّعظ وزجرت من لم ينزجر .

ثم لما مضت ايام جاءت ذات غداة تقول للفارياق . ألا ما احسن هـذه اللغة موقعاً في السمع والخاطر وما اخفّها على اللسان . فلقد حفظت اليوم منها بيتي شعر من دون تكلف غير اني لم افهم معناهما . فهل لك ان توقفني عليه . قال اهلاً بك اليه ان شئت الآن فأبرقي حتى أمطر . قالت اي لُقَعة انت ما عنيت الا المعنى قال فقلت وما المعنى الا ما عنيت فاني اعلم عين اليقين انك لم تضمري غيره ولكن انشديني ما حفظت فقالت :

Up up up thou art wanted,
She is weary and tormented,
Do her justice she is hunted
By her husband , she has fainted.

أب اب اب ظاو آرْت وانتِد   ِشي از وِيَري أنْد طُرمانتِد
دُهَرْ جَسْتِس ِشي از هَنْتِد   َبيْ هر هَزْ بَنْد شي هَز فانتِد

فقلت ان الشاعر هنا يشكو من شطط امرأة عليه . ولكن لست ادري اية امرأة هي فيقول ما معناه

تبغي لكاعي َسدّ سمّيها معا   اذ يفتح الثاني لسدّ الاول
كالاذن ان حكّت تهيج اختها   وتظل هائجة اذا لم تفعل

فتمعّر وجهها غيظاً وقالت ما هو الا تقوّل منك . فانكم معاشر الرجال ابداً لهجون بالسدّ . فقلت كما انكن معاشر النساء ابداً لهجات بالفتح. قالت ان القوم لا يقولون هذا الكلام وليس في اشعارهم هُجر وفحش كما في اشعار العرب . قلت اليست اجسامنا واجسامهم سواء . قالت الكلام هنا على الكلام لا على الاجسام . قلت من اين يأتي الفحش الا من الاجسام . فحيثما وجد الجسم وجد منه الفعل .وحيثما وجد الفعل وجد عنه القول . هذا دين سويفت مع انه كان في درجة هي دون درجة الاسقف فقد الـّف مقالة طويلة في

الأست . وكذا استرن فانه كان قسيساً والـّف في المجون . فاما جون كليلأند فانه الـّف كتاباً في اخبار فاجرة اسمها فـَنِي. هل جاء فيه من الفحش والمجون بما فاق به ابن حجاج وابن ابي عتيق وابن صريع الدلاء ومؤلف كتاب الف ليلة وليلة. فمما ذكره عن فحش اهل لندن ان زمرة من اعيانها كانوا قد انشأوا ماخورا جمعوا فيه عدة زواني . وكان بعضهم يفجر ببعضهن بمرأى من الباقي مناوبة . واول من نهج طريقة المجون فيما أظن كان ربلي الفرنساوي المشهور وهو ايضاً من اهل الكنيسة . قالت الم تقـل لي آنفاً انهم متلبسون بالورع والتقوى ؟ قلت بلى ولم ازل اقول غير ان هذا التلبس قد جرى عندهم مجرى العادة . فان الملـّبس عليه يعلم ما انطوى عليه الملـّبس . ليت شعري لو ان احـداً لبس مثلاً عشرة اثواب ليوهم الناس ان ليس له قبُل ولا دبر افيخفي علم ذلك عن الناظر . قلت لا فاذاً هم مدهونون بالدهان . قلت نعم هـذا النوع ينمي في هذه الارض كثيراً .

فتأوّهت وقالت ويلي على المداهنين . كيـف اطيق عشرتهم وانا كسائر اهل البلاد المشرقية منبسطة النفس واللسان . لا اكتم ما في صدري عـن عشيري . قلت اياك وذلك . وانما ينبغي لك التكتم والتحرز دائماً . واياك ايضاً والاهزاق فان ضحك القوم اهمات وغـَتّ وإهلاس وإهنـاف وإرتاء وانتداغ وارتاك وزقزقة وهرنفة وانتاغ وهنبصة . والا فكوني من التاغيات. قالت كيف تأمرني ان اكون من الطاغيات . وانت لا تزال تشكو من النساء طرّا حتى من العادلات . قلت بل المراد ان تغالبي الضحـك يقال تغت الجارية – فابتدرتني وقالت يكفي يكفي ما اريد ان تذكر لي الجارية ولا الجارة . قلت نعم واكلهم نأج وتدلـّس وتوجـّس وهـَمْس ومَدش وتبرض وهرمزة ومَطـْع وتذوّق وتطـّعم وتغذّم . وشربهم غنثرة . ولماظ وترشف وتزحّن وتزنـّج وترنـّح وتقنـّح وترمق وتمقق وتمزّز وتمزّر وتمصص . ومتى تكلمتِ يجب ان تغضي طرفك وتخفضي صوتك وتبدي غاية ما يكون من التزن والتوقر والتحرز والتحذر. والتظرف والتكيس . والتلطف والتنطس.

والتأدب والتخضع . والتعزف والتخشع . والتخمر والتقزز . والتعوذ والتعزز . والتنزه والتقوش . والتمنع والتجهُّش . والتنسك والتنقع . والتأوّه والتنطع . والتجوب والتذمم . والتحرج والتـــأثم . والتحنث والتحشم . والتدلس والتكتم . والتخنث والتأنق . والتودد والتملق . والتحسب والتحري . والتوقي والتحشي . والتوخي والتخشي . والتبري والتذكي . والتحذلق والتحصي . والتوقف والتحمي . والتصلف والتكلف . والتأسف والتلهف . والتجشف والتحنف . والتعفف والتأنف . والتخيف والتخوف . والتنطف والتنظف .

فقالت ويك ويك ما هذا لعلك اتيت بي هذه البـلاد لتسبكني وتصوغ مني امرأة أخرى . قلت فديتك فاسمعي ولا يكن كلامك في هذا الفصل من السنة الا إخفاساً أي قليلا . وفي الفصل القابل تزيدين عشرين في المئة . وان حدثك رجل او امرأة وجب عليك ان تستحسني المحدث وتحبّذيه عند ختام كل جملة . وتؤمني له وتهيمي أي تقولي له آمين آمـين بسْلا بسلا . وتنعّميه أي تقولي نعم نعم . وتبجليه أي تقولي بجل بجل . وتوجليه أي تقولي اجل اجل وتبسليه أي تقولي بسل بسل . ولا ينبغي لك في يوم الاحد ان تطبخي شيئاً واذا نأكل مما فضل من يوم السبت بارداً كما تفعل اليهود . لأنّ الطعام السخن يسخن الدم ويهيج الحرارة . ولان سيدنا موسى رجم رجلا وُجـــد يجمع حطبا في السبت ولا ينبغي لك الحركة في يوم الاحد . ايّة حركة كانت الحنت ذلك . قالت لحنت . قلت ولا ترفعي فيه الستائر عن الشبابيك لئـــلا يراك الناس فيكون ذلك باعثاً ايضاً على الحركة . الحنت هذا ايضاً . قالت وقد لحنته وزكنته . وفهمته ولقنته . وعلمته ودريته . وادركته ووعيته . ولكن ما سببه وهذا اليوم عنـدنا يوم الفرح والسرور . والتزاور والحبور . قلت انهم يموتون فيه لكون سيدنا عيسى أُنشرَ فيه من الموت . ثم ان عليك ان لا تفتري من ذكر يوم السبت اي الاحد . فان المسمى قـد يتغير بتغيير اسمه . وذلك بان تقولي مثلا ما كان اشرف السبت الماضي وما اجلـّه . من لي بالسبت القابل حتى اخـــلو فيه مع ربي . ياليت كل يوم فيه ساعة من

ساعات السبت ان ان يوم السبت ليوم عظيم . مهيب كريم . جليل وسيم . كيف كان النـــاس يعيشون ولا سبت لهم . كم من سبت في السنة . وكم في ساعات السبت من دقائق . وكم في دقائق السبت من ثواني . الا مـــا ابهى شمس السبت وقمره . وغلسه وسحره وازهاره واطياره. وحره وازمهراره.

واذا انكرت فعلة من فعلاتهم فاياك وان تذكريها لهم . وأطرئي مــا امكن على عاداتهم واطوارهم ومعالمهم ومشاعرهم ومآكلهم ومشاربهم ومآدبهم وملابسهم .وعلى طول أظفارهم واظفارهن وعلى عظم مرافدهن وعلى تفتيل سوالفهن . وعلى المنفش من شعرهن اعني على قُنذلهن . وعلى كشف ادبارهم للاصطلاء . وكلما رأيت شيا في بيوتهم من اثاث وغيره فاستحسنيه واعجبي بـــه فقولي وانت مدهوشة . آه ما اجمــل هذا . آه ما اجمل ذاك . ما ابهى هؤلاء آه ما املح تلك الا ما اذكى مراحيضكم . واشذى بواليعكم وانقى مرافقكم . وانقى مثاعبكم . وانظف اعتابكم وُوصدكم . وابهج نفْقكم وسَرَبكم . فهذه هي الذريعة التي يتذرع بها الغرباء هنا لاستجلاب مودتهــم وكسب رضاهم . واعرف كثيرين قد استعملوها ونجحوا بها ثم ينبغي لك اذا دعينا الى وليمة عند أحد أكابرهم ان تأكلي هنا من قبل ان تذهبي . فان المدعوين لا يأكلون عند آدبهم حتى يشبعوا ولكن يشبعون حتى يأكلوا . وكما ان ادب الآدب عندنا ان يغصب ضيفه على الأكل ويحلفه برأسه ولحيتــه وشواربه ان يأكل فخذ دجاجته او ست كُبيبات او يلقمه اياها في فمـــه . كذلك كان ادب الآدب عندهم ان يراعي حركات فم الآكل ويديه ليعلم هل هو سرطم او ذو لَقْف ونقف . وكلما تحرك فم او يد على المائدة — قـــال فابتدرتني وقالت وخصر . قلت وكفل بل اي عضو كان . وجب عليك ان تقولي لذي العضو المتحرك انت مشكور على ذلك . انت ممدوح . انت محمود. انت مفضل . انت محسن . انت برّ . انت ذو منّة وما اشبه ذلك مما يؤذن بضعة المأدوب ولمَده وحقارته اهَوانه وذلّه وخساسته وهَطرته وكَفْره[1]

(١) الهَطرة تذلل الفقير للغني والكفر تعظيم الفارسي ملكه .

وتسكسكه . في مقابلة رفعة الأدب وعظمته وجلاله وأبهته وشرفه وكرمه وبذخه وعزّته . والحذر الحذر من ان تمدي يدك الى زجاجة الخمر او الى جفنة الطعام فتأخذي منهما ما شئت . فان ذلك يكون انتهاكاً لحرمة المائدة والمجلس والقرية بل وللمملكة بأسرها . وانما ينبغي ان تنتظري من كرم الآدب ان يوعز اليك في ذلك . واذا قُدّم لك بُضيعة من ارنب قد خنق مذ شهر وعلّق في الهواء حتى انتن فأثني على الارض التي نشأ فيها جنس هذا الحيوان النفيس وعلى خانقه وطابخه . واذا رأيت شيخاً ذا وقار وهيبة يخدم عجوزة فلا تنكري ذلك كما انكره بعض الشعراء المفرّكين بقوله

وربّ عجوز تحاكي السّعالي ... تشير وتنهي وتأمر أمرا
يقابلها شيخها بامتثال ... ويسعى لخدمتها مستمرّا
وتقعد تحكي كلاماً سخيفاً ... ومستمعوها يقولون سحرا
تقول بداري كلب وهرّ ... وللهرّ ذعر اذا الكلب هَرّا
ويرقبني الهرّ ان كنت آكل ... يمُنى ليمنى ويُسرى ليسرى
وبلتي ليزا تؤاسيه مما ... لديها فمنها يلازم حجرا
وقد كان عندي من قبلُ جروٌ ... تلوّن بطنا وصدرا وظهرا
وكنت عليه لفي غاية الحر ... ص اسقيه ملء كؤوسي درّا
فجاءت عزيزة قوم البنا ... فرامته مني والعين شَكرى
وكان ينام على فخذيّ ... ويلحس رُفغي اذا ما اسبطرا
وكان فلان أتاني عام كذا ... بُجرَيّ فما عاش شهرا
وتسأل ان تنسَ تاريخ ... ذاك النهار المعظم زيدا وعمرا

الى ان قال .

فأما النساء فمما اختصصن ... به أكل ما اشبه التين نحرا
ويأكلن والراح منهن بالجلد ... مستترات ويمضغن سرّا
وتسمع للشاي قرقرة من ... معاهن تحكي هنا قرّ قرّا
وتأخذ في صحنها بالمشكّة ... قدرا من اللحم يشبه ظفرا

فتعلكه برهة من زمان ليمرأ من بعد ان يتهرّا
وزوج المضيف تقول له خذ عزيزي مما امامك وَزْرا
فيشكرها ويقول لقــد كثر الفضل منك عليّ ودرّا
وتجلس تقسم أكل الضيوف فتعطيك من ذاك نزرا فنزرا
وفي كل نزر تنال تطاطىء رأسك رغما وتشكر شكرا
وان يك لونان قالت لك اختر نصيبك ممـــا هنّا وتحرّا
كان لم يجز بين ذينك جمع كأنك ناكح اختين تَترى

فقالت هذا تكليف فوق الطاقة فما انا بالذائقة عندهم شيئا ولو كان المنّ والسلوى . قلت ومع ذلك فهم ذوو محامد شهيرة . وفضائل كثيرة . ليست في غيرهم من الافرنج منها انجاز الوعد وصدق الوفاء في الحضرة والغيبة . وتوفية اجر من يعمل لهم ومراعاة حرمته اي اكرامه لا انهم يعفّون عن زوجته . قالت لا تتكلف التفسير فما ذلك بشذوذ عن القاعدة .

قلت ومنها انهم قليلو الكلام كثيرو الفعل. حسنو المعاطاة للامور بالترتيب والسياسة . والرشد والكياسة . ومن يأت الى بلادهم فلا يسأل عن جَواز ولا اجازة. ولا يهمه ان كان جاره قاضي القضاة او وزير الوزراء او شرطياً اوجلوازا. ولا يخاف ان يسكن داراً او يدخل مثابة فيها بعض الشرطة فيرهقوه بكلام ونحوه مما يكون سبباً في سجنه او غرامته فكل الناس في الحقوق البشرية عندهم متساوون . هذا وانهم يحبون الغريب ما خلا اوباشهم . ويشفقون على الفقير ويغيثون المحتاج . ويكرمون ذوي السيادة والمجد ويعرفون قدر ذوي العلم . ويعينون على ادراك العلوم والمعارف في البلاد الاجنبيـــة . وعندهم جمعيات منعقدة لاجراء كل نفع وخير . وازالة كل شر وضير . وكثير من الاطباء هنا يداوون المرضى مجاناً ما عدا المستشفيات المبثوثة في كل قطر وصقع من بلادهم. ومن ينزل نزلاً لديهم أو يستأجر غرفة في منازلهم فان صاحبة المنزل تؤانسه وترفق به وتحفه وترفّه وتمرّضه . وتـدعوه الى مسامرتها ومجالستها من غير ان يستاء زوجها لذلك . واذا اتفق وقتئذ ان زارهـا بعض معارفها تعرّفهم

به وتنوه باسمه. وانه اذا قدم الى بلادهم احد بكتاب توصية احتفل به الموصّى الى منزله وجعل اسمه نَبَهاً عند اخوانه ومعارفه . ولا يدع شيئاً في وسعه الا" ويبذله لراحته ورفاهيته ونخله له الود والنصح حاضراً وغائباً . فرُقعة وصاة بيد صاحبها تفيزه عندهم بأب وام واهل واخوان . وفي الجملة فان كفة محامدهم ترجح كفّة مذامهم . وليس الكامل الا الله وحده سبحانه وتعالى . وليس شيء من هذه المزايا الحميدة موجوداً في غيرهم من الافرنج لان غيرهم محاحون ملثبون مراوغون ، ذوو ايادي مغلولة والسنة مطلقة . فهم ليسوا كاصحابنا في الرشد والاستقامة ولا مثلنا في الانس والكرم . قالت قد فهمت هذا كله فينبغي ان نعود الى تفسير البيتين بشرط ان لا تأتي بشيء من عندك فاني اعرف تزيّدك في الكلام . قلت كانك تقولين اني ذو فضول غير فعول كما ذكرت ذلك غير مرة . قالت اذا كنت قد الفته فما يضرك الان والا" فعدّها فلتة . قلت دونك تفسيرهما من دون تزبّب .

قم عجلا قم سؤلى عندك　　　وابلغ اربا منها جهدك
فلقد ضجرت ولها بعل　　　يبغي ان يعسلها بعدك

فقالت انت قلت ان الشاعر يشكو من امرأة وها هو يشكو من نفسه . وليس المرأة بملومة على ضجرها في مثل هذه الحال . قلت لمثلك تلقى مقاليد الشرح . قالت ومنه يرجى تخفيف البَرْح .

١٣

في خواطر فلسفية

ثم لما مضت مدة على الفارياقية في بلاد الفلاحين حيث لا انس للغريب ولا حظ غير خضرة الارض عيل صبرها وضاق صدرها وعرتها السآمة والقلق . فقالت لزوجها ذات يوم : يا للعجب من هذه الدنيا ومن احوالهـا . واعجب ما فيها هذا الحيوان الناطق الماشي على ظهرها كيف تمـر عليه الليالي والايام والاماني تغره . والامال تشغله وتعلله . وكلما جرى وراءها ليدركها تقدمته وبعدت عنه كظله . وكل يوم يحسب انه في يومه أعقـل منه في امسه . وان غده يكون خيراً من يومه .

قد كنت احسب ونحن في الجزيرة ان الانكليز احسن الناس حالاً .وانعم بالاً . فلما قدمنا بلادهم وعاشرناهم اذا فلاّحوهم اشقى خلق الله . انظـر الى اهل هذه القرى التي حولنا وامعن النظر فيهم تجدهم لا فرق بينهم وبـين الهمج . يذهب الفلاح منهم في الغداة الى الكد والتعب ثم يأتي بيته مساء فلا يرى احدا من خلق الله ولا يراه احد . فيرقد في العشاء ثم يبكر لما كان فيه وهلم جرا . فهو كالآلة التي تدور مدارا محتتنا فلا في دورانها لها حظ وفوز ولا في وقفها راحة . فاذا جـاء يوم الاحد وهو يوم الفرح واللهو في جميع الاقطار لم يكن له حظ سوى الذهاب الى الكنيسة . فيمكث فيهـا ساعتين كالصنم يتثاءب ساعة ويرقد اخرى ثم يعود الى بيته . فليس عندهم مثابة ولا موضع للسمر والطرب . وليست ايضاً عيشة المتمولـين في الريف بانعم من عيشة الفلاحين اذ لا يعرفون من المطاعم غير الشواء وهذا القلقاس . ولكن هيهات اين المتمولون في القرى فانك لا ترى فيها مثريا الا القسيس وخولي

الارض وهو الذي يضمن المزارع والحقول من مالكها . وهما ايضاً بمثابة الفلاحين .

ومع ذلك فاذا دخلت قصور الملوك وطفت في اسواق المدن وعاينت ما فيها من الصنائع البديعة والتحف العجيبة والالات الظريفة والفرش النفيس والثياب الفاخرة والاواني المحكمة ولا سيما مدينة لندن، علمت ان صناعها هم القائمون بالدنيا وهم منها محرومون فان دأب الصانع كدأب الفلاح من جهة انه يشقى ويكدّ النهار كله ولا حظ له في الليل سوى اغماض عينيه . فكيف يزين هذا الصنف من الناس هذه الدنيا ويبهجونها ويعمرونها وهمعطل عنها ومحدودون منها . والمترفون فيها لا يحسنون عمل شيء وربما لم يكونوا ايضاً يحسنون الكلام . واذا كان الناس عباد الله في ارضه على اختلاف احوالهم ومراتبهم هم كالجسم الواحد باختلاف ما فيه من الاعضاء الجليلة والحقيرة فلم لا يجري العدل بينهم كما يجري بين الاعضاء . فان الانسان اذا أكل شيئاً او لبس شيئاً فانما يفعل ذلك لاصلاح الجسم كله . ام يزعم المثرون اذا وسعوا على هؤلاء الضناك الصعاليك . ونفّسوا عنهم الكرب الذي يكابدونه من جهد المعيشة ومن عدم قدرتهمعلى تربية اولادهم انهم يحملونهم على اهمال شغلهموعلى تركهم الارض بوراً فتتعطل وتمحل فيهلكون جوعا فما بال ذي الدولة اذايولي المبالغ الجسيمة والجوائز الجزيلة لمن يقلده عملا ويرقيه مرتبة ولا يخاف ان يفسد عليه بكثرة ما يعطيه. لا بل ان الفقير اذا كفاه والِيه او سيّده المؤنة وهو شيء بالنسبة اليه هيّن فانه يؤدي ما يجب عليه من الخدمة والعمل عن طيب نفس . ويدعو له بزيادة الخيرات والبركات بدلما انه يبيت اللياليشابحا يديه بالدعاء عليه لتيقنه ان حقه ضائع عنده وان هزاله وضواه ذاهب في تسمين غيره . وفي حمله على البطر والعتو واقتناء ما لا تلزم قنيته من الخيول المطهمة والمراكب النفيسة والاثاث المنضد . فيأكل الغني لقمته والحالة هذه مغموسة بدعاء الفقير عليه. ام يحسبون ان الله تعالى انما خلق الفقراء لخدمتهم فقط . لعمري ان حاجة الغني الى الفقير اشد من حاجة الفقير الى الغني . ام

يانفون من النظر من مقامهم الرفيع السامي الى ذوي الضعة والخمول خشية ان يسري اليهم من بؤسهم ما يسوءهم . كمن ارتقى شرفاً باذخاً وتحته هوّة عظيمة فهو يأبى من ان يتطأطأ وينظر اليها لئلا يلحقه من ذلك دوار او غشيان فيهبط من شرفه. ليت شعري هل جرّب الاغنياء حينا من الدهر ان يسعدوا الشقي بمالهم وينعشوه برفدهم . ثم وجدوه مقابلا نعمتهم عليه بالكفران والبطالة وباهمال ما فرض عليه من قِبَل الله والطبيعة . وانما هو محض وَهْم دخل في رؤسهم مع الرحيق فخرج هذا ولم يخرج ذاك. الا فليمكّنوه من ان يذوق لذة العيش ويرى الدنيا كما هي عليه شهراً واحداً في عمره في الاقل او يوماً في العام حتى يموت راضياً قرير العين . واذا كانوا يخشون منه الفساد لكسله وتعطّله فخوفهم من فساد نيته لفقره ومن كراهته اياهم اولى . لان الشقاوة ادعى الى الفساد من السعادة .

الا ترى الى هؤلاء الالوف من البنات اللاي يجرين في اسواق لندن وجميع المدن العامرة باخلاق من الثياب ، كيف يتهافتن على الرائح والغادي رجاء ان ينلن ما يتقوّتن به ويتجملن به من الثياب . ولا سيما هؤلاء النواشي اللاي لم يبلغن بعد من العمر خمس عشرة سنة . فهذا لعمري الاهتجان بعينه. فكيف يعيبون علينا هذه العادة في بلادنا وهي مستعملة عندنا على وجه الحلال وعندهم بالحرام . فلو كنّ مكفيات المؤنة لما فعلن ذلك . لان البنت في هذا الحدّ من السن لا تكرع الى الرجال . ولا تضبع للبعال . ولا سيما في البلاد الباردة . وَلَسَلِم من كيدهن وتهافتهن جشعا الى المال اناس كثيرون جلب عليهم شرههم اليهن مضارّ كثيرة . وما عدا ذلك فان هؤلاء البنات الحسان لو كانت الدولة واهل الكنيسة يُعنون بتجهيزهن بما يقدرن على الزواج الشرعي بعد تربيتهن وتهذيبهن ، لكُنّ يلدن الاولاد الصباح فيزينّ المملكة باثمار ارحامهن كما تقول التوراة . بخلاف ما اذا بقين على حالة السفاح فما يتولد منهن الا الخبائث والرذائل . فهن كالشجرة الناضرة التي فضلا عن كونها لا تثمر تَلَثَّى بالسمّ الناقع لمن تذوّقها . وكم لعمري من بنت حبلت اوّل مرّة من مبادىء شوطها في

ميدان العهر . ثم اسقطت جنينهـا خوف الفقر . وان منهن لمن تلد في طرق المدينة في ليالي الشتاء الباردة لعدم مأوى لها . او انها تبيت مع بنت اخرى على فراش واحد وهي عادة مستفيضة في لندن . وذلك لعدم قدرتها على ان تستقل بفراش وكِنّ خاصّ بها . فلا تأمن والحالة هذه من ان يلحقها اذى من ضجيعتها ليلا . نعم ان أولاد الزنا يأتون في الغالب شياظمة جبابرة كيفتاح الجلعادي الذي حلّ عليه روح الرب فانقذ اسرائيل من بني عمون . وكولِتْيَم الفاتح الذي فتح هذه البلاد اي بلاد الانجليز. الا ان النفع الاكثري مع الاقتصاد والاعتدال احق بالمراعاة والتقديم من النفع الاندريّ مع الاسراف والارْغال(١) اليس يعاب صاحب ارض اريضة يغادرها بوراً ومتمرغاً للوحوش، او صاحب اشجار مثمرة يتركها دون سياج ولا ناطور عرضة لنهم كل متفكّه .

نعم لا ينكر ان وجود الغني والفقير في الدنيا لا بدّ منه كوجود الجميل والقبيح . ولولا ذلك لوقف الكون عن الحركة وتعطلت المصالح كما افـــاده المتكلمون . الا ان الكلام هنا في الفقر الذي لا يقال فيه انه عيش مؤدّ الى الشره والبطر . لا في الفقر المدقع الذي يلقي الهموم والاحزان الدائمة في قلب صاحبه . فيفضي بـه مرة الى الانتحار ومرة الى الاغراق او الخنق كما شاع فعل ذلك في هذه البلاد . اليس من العار على الرجال في هـــذه الارض ارض العلوم والصنائع والتمدن والتحضّر انهم لا يتزوجون المرأة الا اذا كان عندها الجهازان. واقبح من ذلك ان الكبراء هنا لا يتزوجون عن حب بل عن طمع في زيادة المال . فان من كان دخله مثلاً مائة دينار في كل يوم يريد ان يتزوج من دخلها مائة دينار ايضاً تماماً . ولو كان تسعة وتسعين لم يصح . ولذلك فكثيراً ما ترى شاباً جميلاً قد تزوج نَصَفاً شوهاء . وهيهات فان الرجال هنا اكثرهم مصاييف . اي لا يتزوجون الا اذا دخـــلوا في حيّز الكهول فيقضون شبابهم في السفاح ومن حدّ الثلاثين الى الاربعين في البحث عمن عندها جِدَة وغنى . وتبقى الجميلة الفقيرة كاسدة وما عليهم من الاصافة

---

(١) الارغال وضع الشيء في غير موضعه وهي لعمري جديرة بالاشتهار والاستعمال

من عار . مع ان مراعاة الولد في حق الزوجة من اعظم الاسباب الباعثة على الزواج على ما ذهب اليه الربانيون . وان يكن توزيع الولد يتمّ بمرة واحدة في مدة تسعة اشهر . اعني ان اولاد النَّصَف الشوهاء لا يأتون صباحاً اصحاء كاولاد الفتيّة الجميلة. وفضلاً عن ذلك من تزوج وهو في سن ثلاثين سنة مثلا امرأة في سن ثماني عشرة فمتى بلغ الخمسين وكانت امرأته بعدُ لَفُوتاً متلعجة كان له من ولده رقيب عليها . فلاي شيء زيادة المال لمن اغناه الله بفضله . ومن يكن له في كل يوم مائة دينار فما الفرق بينه وبين من له خمسون او عشرون . فان من لم يكتف بهذا القدر لم يكفه ملء الارض ذهباً . هذا وان المرأة اذا كانت غنية فلا بدّ وان يتبع غناهــا عناء . لانها تتعمّد حضور الولائم والمآدب والمحافل وان تزور وان تزار . وان تتخذ لها من الخدّام من تقرّ عينها بترارته وبضاضته .. وكلما اختلج منها عضو تمارضت وتوحمت على السفر او الارافة . وهناك حالة كون زوجها فائر الدماغ بالامور السياسية او البواعث المالية في مقره تخلو بمن تخلو وتلهو بمن تلهو . وبيد خادمها من الدينار ما يعمي عينه ويصمّ اذنه ويقطع لسانه . اليس هؤلاء الاغنياء يُمنون بالامراض والادواء كالفقراء . اليس الموت يفاجئهم وهم في غمرة لذاتهــم منهمكون . وان كثيراً منهم لسرفهم ورغبهم ونهمهم وفسادهم واستهتارهم في الشهوات يموت عن غير ولد . او انه اذا رزق ولداً يعيش ما عاش ضاوياً نحيفاً شقوة له وكمدا على ابويه . وقد قال احد مؤلفيهم ان من ترى من اولاد الاعيان والامراء هنا تارّاً قوياً فانما هو من إلقاح بعض الحشم . وترى اولاد الفلاحين صباحاً اقوياء يلهمون الرطب واليابس . ولعمري لو لم يكن لهم هذا الجزاء من الله تعالى اي رؤية اولادهم حولهم معافـين محبّبين لكانوا في عداد الموتى .

كيف بُني هذا العالم على الفساد . كيف يشقى فيه الف رجل بل الفان ليسعد رجل واحد . واي رجل . فقد يكون له قلب ولا رحمة . ويدان ولا عمل . ورأس ولا رشد ولا نهية . وكيف يقع هـذا في هذه البلاد التي

ضربت بعدلها الامثال . لا جرم ان فلاحي بلادنا اسعد من هؤلاء الناس بل التجار هنا اشقياء على غناهم وثروتهم . فان احدهم يقضي النهار كله وهزيعاً من الليل واقفاً على قدميه . وقد سألت واحداً مرة فقلت له لم لا تقعد على كرسي وعندك كراسي كثيرة . فقال لي انها للذين يشرفوننا بالزيارة ليشتروا من عندنا . فاذا قعدت مثلهم صرت منهم . فاما في يوم الاحد فيلبثون خدري الابدان والافكار . سدري البصائر والابصار فاين هذا من التاجر عندنا يعقف احدى رجليه على الاخرى بعض ساعات على اريكته . ثم إذا حان العصر كبّب جبته وراءه وذهب الى بعض المنازه وهو يمشي الخُيَلاء . فان كان التمدّن والعلم قد سبّب هذا فالجهل اذاً سعادة . غير ان الفلاحين هنا في غاية الجهل زيادة على بؤسهم .

ومن اين يأتيهم العلم وهم ملازمون للكدّ والترقح وليس عندهم مدارس . قد كنت اظن انهم جميعاً يحسنون القراءة والكتابة فاذا هم لا يحسنون النطق بلغتهم . فاني اقرأ في الكتاب شيئاً واسمعه منهم مخالفاً لحقيقة استعماله . وناهيك ان اكثرهم لا يعرف اسم بلادنا ولا جنسنا . وقد قيل لاحدهم مرّة ان الملك امر بتسفير خيل في سفن لحرب العدو . فقال اني اعجب كيف يقاتل الناس في البحر على الخيل . وكأني بهم لجهلهم يحسبون ان سكان الأرض باسرها دونهم . او يظنون ان الرجال في غير البلاد يبيعون نساءهم او يأكلونهن اكلاً . او انهم يتقوتون بالجذور والبقول . ولو انهم عرفوا احوال الأمم وخصائص البلدان لعلموا انه لو كان لهم من لذات العيش اضعاف ما لنا مع شدة بردهم ومنكر هوائهم ودكنة جوهم لما وفى ذلك لهم . وان غناء الصنعة عندهم لا يقوم مقام غناء الطبيعة عندنا من طيب الهواء والماء وصفاء الجو وزكاء الأرض وعذوها ومراءتها ولذة المطعوم والمشروب والتنزه في الرياض والحدائق . والأكل عند المياه الجارية تحت الأشجار الناضرة والتردد على الحمامات والسهر في السَمَر واستماع الات الطرب . يعرف ذلك منهم من زار بلادنا والِف حظنا ونعيمنا .. غير ان اللبيب من استخرج من كل ضر

نفعاً ، واعتبر بكل ما جرى عليه فاستفاد وأرعوى :

قد تعلمت الآن مما لقيت من الوحشة والتقشف في بلادهم كيف اعيش في بلادنا ان رجعت اليها سالمة . وكيــف ان الطخطخة والقرقرة والهزر والكركرة والتجلق والهرهرة والاغراب والكدكــدة والآهى والهزرقة والانزاق والزغربة وطيخ طيخ وعِيط عيط وتِـغ تغ وهاه هاه لافرج للهم عن القلب من اواني موضونة ومباني مرصونة . فخير البلاد ما الفت هواءها والفيت فيها مخلصاً لك ودّه . وكيف يكون خلوص الود من دون كشف السرائر . وكيف تنكشف السرائر وتعلن الضمائر من دون اطلاق اللسان في ميدان الكلام . والقوم هنا يتكتمون ويرون ان في ذكر الانسان ما يحس به وما يحبه وما يكرهه طيشاً وهوجاً . انما مَثَلي كمثـل الثعلب الذي كان يسمع لطبل تضربه اغصان شجرة صوتاً عظيما . فلمـا اتاه وعالجه حتى شقه وجده فارغاً . لاجرم لا عدت املــك خاطري سمعي . او كراكب البحر وهو ظمآن يرى الماء حوله ولا يمكنه ان يروي غليـله منه . اني ارى وجه الارض هنا اخضر ولكن لا شيء من هذه الخضرة يبيّض الوجه عند الأكل. اذ ما به من الطعب شيء لأن كل ما ينبت عندهم فانما تغصب الأرض تنبيته غصباً من افراط التدميل .فلو كان احد هنامن اللاطة لسألناه عن طعم بقولهم ما هو . هذا ما عدا خلطهم المأكول والمشروب وغشهم وافسادهم ما من الله تعالى به عليهم سائغاً طيباً . وناهيك ان الخبز الذي هو قوام هذا البدن لا طعم له . فانهم يخمرونه برغوة نبات ويخلطونه بهذه البطاطه ثم يخفقونه بعد الاختمار خفقاً . فماذا يفيد القائل قوله اني كنت في بلاد الافرنج وهو لم يجـد فيها الا الوحشة والنكد . بل ذكر ذلــك له فيما بعد غصّة . الى مصر الى الشام . الى تونس ذا العام . فهناك تلقى من يزورك او تزوره . وهناك تلقى البشر دون تصلّف والفضل دون توقف وتـكلف . الى آخر ما ذكرت لي من التأنف والتأفف .لا يطيب العيش للانسان الا اذا كان يتكلم بلغته .ليس العيش بطول الليالي ولا بكثرة الايام ولا برؤية ارض خضراء ولا بمشاهـدة ادوات وآلات . وانما باغتنام انس الاحبــاب . وعشرة ذوي الآداب الذين تصفو

منهم السرائر في الحضرة والغياب . وتخلص لك مودتهم في الابتعاد والاقتراب.
انما الدنيا مفاكهة . قال فقلت ومناكهة · قالت ومنادمة قلت ومشامة .
قالت وملاءمة . قلت ومطاعمة . قالت وملاينـــة . قلت وملاسنة . قالت
ومطايبة . قلت ومراضبة. قالت ومخادنة. قلت ومحاضنة . قالت ومراءمة.
قلت ومفاغمة . قالت وملاطفـــة . قلت وملاغفة . قالت ومخالقة . قلت
ومعانقة . قالت ومحاضرة . قلت ومحاصرة. قالت ومباغمة . قلت ومكاعمة.
قالت ومعاشرة . قلت ومشاعرة . قالت ومؤانسة . قلت وملامسة . قالت
ومساجلة . قلت ومباعـــله . قالت ومخالطة . قلت ومخارطة . قالت
ومطارحة . قلت ومشارحة . قالت ومجـــارزه . قلت ومراهزة . قالت
ومداعبة .قلت ومزاعبة . وهنا كان ختام الملاعبة .

١٣

في مقامة ممشية

حدس الهارس بن هشام قال . كنت سمعت كثيراً عن النساء حتى كدت أمنى بالنساء. فمن قائل ان المحصن اطيب عيشاً من العزب . واسلم عاقبة من المزاحمة على منهل دونه مــــذب . او المكابدة لِلوْب واللهب . او التعرض للتجبية والعطب . وانه كلما صدى قلبه من الكـُرَب ، جـلاه بابتسامة من زوجه عن شنب وارتشافه من رضاب كالضَّرَب. وسماع نامة تغني عن آلات الطرب ومدام ذات حبب . فان مما خص الله تعـــالى به المرأة من المزايا ، وفضلها به من السجايا ان صوتها الرخيم لا يمرد عليه نكد . ولا يبدو معه هم وكمد . فاول ما تحرك شفتيها . تسكن القلوب اليها . وعند مغازلة عينيها ، تنهال المسرات على من هو بين يديها . فيحنبش ويمحش . ويحفش وينتعش . ويدركل ويدرقل . ويسجل ويدوقل . ويبحشل ويدربل [١] وحين تمشي في بيتها متبدحة . تقول لها الاقدار فديناك من مغناج مَرِحة . ان شئت رفعنا زوجك الى قرن الغزالة . لينعم بالك باحسن حاله . وان شئت بقاءه عنــدك الليلة . لم تُعينا من ذاك حُويلة . وان شئت ان نزيّن له السفر عاماً او اكثر الى طَرَح ذي أمن او خطر . فانت لدينا اكرم من نهى وامر . فما عليك الا نضنضة لسان . او اشارة بنان . وحسبنا بطرفة عين من بيان . قــــال وان الزوج متّعه الله باحصانه .وهنّاه بنظرة بستانه . وجنى تفاحه ورمانه.

---

(١) حنبش رقص ووثب وصفق وتزا ومشى ولعب وحدث وضحك . والمحش شدة النكاح وشدة الأكل والتحفيش لزوم البيت الصغير.ودرقـــل رقص وتفحج وتبختر ونحوه دركل وبحشل رقص رقص الزنج .

وزاده من آلائه واحسانه . يعبث بحضرة زوجه باللذات كما شاء . ان توخى
مساً مس وان اشتهى نشوة نشا . وان شاء داعب ولاعب وان ابى الى الجد
فالجد طوع له كما احب . وان له منها منزهاً (ولكن غير بعيد عن المـاء)
تغيب فيه الاتراح . وتطلع منه الافراح . وبشائر النجاح . وسرا تُزَفّ به
الدنيا اليه بمعرض بشر. ومِهْدى كُشْبَر .ان التوى عليه امر قومته بمهارتها.
وسددته باشارتها . وانها اذا تدعّبت عليه وتقيــأت. وتبعّلت له وفيأت .
زاده الله نضرة ونعيما . وزادك صبراً وجوماً . خُيّل له انه مَلَكَ الدنيـا
بحذافيرها . وفاز بجميع لذاتها وحبورها . وانه قد قام مقام العاهل الاعظم.
خليفة باري الامم . فلو رأى وقتئذ قاضي القضاة مــاراً على بغلته ، حسبه
من اتباعه وخدمته . ولو رأى كافها او وافها ،لانف من ان يكلمهما مشافها .
فبعث مكانه الى جناب الاول وصيفاً والى حضرة الثـاني وصيفة . وقال لهما
ان لديَّ لكل فاتح قاهر ولاية شريفة ولكل سائل شاكر وظيفة . ولو ان
امرءاً اغلظ له وحاشاه في الكلام . وسفه فبادره بالتقريع والملام . او رأى
والعياذ بالله ان يمس له قذالا . ويسومه عليه قفدا واذلالا . فزع الى زوجته
اعزها الله فنفت عنه كل كرب . وامنته من كل رعب. وردّت عليه حجْره
من حجْرها . وصدارته من صدرها . وقالت له لا تخشَ من كيده وغِلّه .
فانما يدفع كل استحصاف بمثله . فرجع الى ما كان عليه من الانفة والفخار .
والعز والذرار . حتى لو رأى قَيلا او ردفا ، لهاء بنفسه عن ان ينظر اليهما
نظر الاكفاء . فهو الراتع المفتّق . المترف المتملّق . الآكل وتلقاءه من درر
الثنايا ومرجان الفم ، ما يخيل اليه من الكامخ خير مطعم . والمسيخ اهنـأ
مغنم . وان الاجاج والزعاق . اشهى من مدام الاغتبـاق . ألا ولو انه بات
معها على فرش حشوه شظايا . وماسّ منها زغابة لكان له من اوطأ الحشايا .
فكل ضرّ معها يستحيل الى فَنَع ونفع . وكل شَظَف بقربهـا فهو قصوف
ورَتْع : ومن قائل لا بل عيش العزب اهنأ . وللّذات اجنى. فان السيدات
يحسبنه في كل وقت ذا جموم. وعندهن ان نبّة واحدة منه تنفي جميع الهموم.
اذ ليس له من تلزّه كل ليلة للعظال . وتؤرّقه هزيما من الليل على مثل ذي

الخال . ليتذكر دائماً انه محصن ذات قُرطَق وخلخال . فهو على هذا محبّب عند البنات . محروص عليه من السيدات المتزوجات . مشار اليه بالبنان من الارامل الهائجات . وانه اذا رجع الى منزله رجع ويده خفيفة . ورانفقته نظيفة . فلا من تقول له هات . او تلومه على ما فات . ولا من تستوحيه عن المستقبل وتستفتيه في مصالح المَهْبل . ولا من تزجره عند قَسْيَق غيرها له وحلجه اليها بحَفْ حَفْ . او تنجفه قبـل مفارقته اياها أي نجف . او تقول له نَزاف نزاف . وإلا فالازهاف [1] . ولا من يبـكي بين يديه وهو عاجز عن كفالته كما يحق عليه . فتراه أبد الدهر مَيّاحا مفراحا . متعرضا للنساء متياحاً . شرّاحاً سدّاحاً . رفيقاً بالمُجح منهن مساحاً . وقد قيل في الامثال السائرة سير العَجاج ، في كل فجاج . من لم يكن ذا زوجة كان ذا ازواج . قيل فمن ثم كانت خطوات العزب اوسع . وحركته اسرع . وكلامه انجع . واناؤه اترع . ونغمته ارخم . ونهمته اضرم . ونهزته اقوى . ومَزته اروى . وسنانه اذلق . وسهمه اخسق . ونشره اعبـق . وحبه اعلق . وطعمته اطيب واوفر . ومادته اسكب واغزر . وقد نسوا ان تبعق حوضه في غير سقي واحد هو عين السبب في تنكيز نزه ونزته . وتفتير شرزه ولزته الى غير ذلك مما لا يليق ان تقابل به مومسة ولا حَصان . ولا يوصف بـه دالف ولا تَـيقان . قال الهارس فلما تراجح المذهبان . وتكافح المطلبان . قلت في نفسي من لنا اليوم بالفارياق . فيفتينا في هـذا الامر الربّاق . فانه اعلق بالنساء من الريبة . واعرف باحوالهن من ذي شيبة وشبيبة . فلقد ذاق منهن الحلو والمرّ ولقي من حبهن النفع والضر . فلو كان حاضراً لدينا لجَلا عنّا مـا التبس علينا . فسرت الى بعض اصحابي . لاطلعه على مـا بي . فما

---

(١) القَسْيَق صوت الدّجاجة اذا دعت للسفاد وحلج الديك نشر جناخيه ومشى الى انثـاه للسفاد وحف حف زجر للديك والدجاج والنجف منع التيس حتى لا يقدر على السفاد وذلك بان يشد جلده بين بطنه وقضيبه وذلك الجلد يسمى النجاف ونزف ماء البئر نزحه كله وازهف القى شرّاً ـ وعليه اجهزو بالشراغوى ـ والخبز زاد فيه وكذب ونمّ ..

كدت اقرع الباب . حتى هوى اليّ وبيده كتاب . ثم قال بشرى بشرى .
فهذا كتاب من الفارياق بلغني امس ولم يحوِ إلا شعراً فتلقفته من يده فاذا فيه.
اما بعد فان :

القرطبان هو الذي　　　يقرو البلاد بعرسه
وبها الحسان الغيد　　　يستنشين نفحة فلسه
من كل ذات تدهكر　　　شحاذ نابى ضرسه
شدّاد رخو فقاره　　　نعّاشه من تعسه
وبها الفحول الهائجو　　　ن الى تسدّي عَنْسه
والى اشتفاف جميع ما　　　في قعبه او عُسّه
ولربما نبزوه بالاد　　　ساف اقبح رجسه
حتى يعود وما له　　　آسٍ لمعضل ألسه
ان اللبيب من استشا　　　ر منجّذاً في لَبْسه
لا سيّما شأن الزوا　　　ج وحمل فادح وقسه
من شاقه تمويهه　　　ومذاق لذة رغسه
فليبعلن في قَسّه　　　كي يستبد بجلسه
حيث السفاح مغصّص　　　من يشرئب للحسه
ان الغريب اضر من　　　متهتك في جنسه
أو لا ففي حال العزو　　　بة وهو مالك رأسه
صون لدرهمه وحر　　　مته وراحة نفسه
بل من تزوج يومه　　　خير له من امسه
اذ كان في حال التعزّ　　　ب موحشاً من انسه
لكن بشرط نفوره　　　عن ريبة في حدسه
فالبضعَ ثم البضعَ لا　　　تتشاغلن عن قَسّه
ما ان يضر ختام ما　　　قد طاب نافع رَسّه
لكنما يجب التحرّ　　　زمن بواعث نحسه

قال الهارس فلما تصفحت الابيات . وزكنت ما فيها من الاشارات .قلت لله دره ما افصله لامور النساء ناظماً وناثراً . وما احوجنا الى استفتائه فيهن غائباً وحاضراً . لكنه لم ينبس عن حاله الا فيما هو من مشكل الزواج . فكانه رأى كل امر دونه فانما صوانه الاعفاج . ثم انصرفت مثنياً عليه .. وقد زاد تشوقي اليه .

(حاشية : صفا الهارس مع الفارياق فلذلك لم يعب عليه بعض ابياته فانها مضطربة العبارة . وليس من شأني التدليس على القاري فقد صار بيننا صحبة طويلة من اول هذا الكتاب . فليتنبّه لذلك) .

١٤

في رثاء ولد

قد غُرس في طبع كل والد ان يحب ولده كلهم على كثرتهم وبرقحتهم وعيوبهم وان يراهم احسن الناس. وان يحسد كل من يفوقه في المحامد والمكارم الا اباه وابنه . ومتى شاخ الرجل وضعف عن التمتع بلذات الدنيا فحسبه ان يرى ابنه متمتعاً بها . ولا لذة للمتزوج اعظم من ان يبيت مع امرأته على فراش واحد وبينهما ولد صغير لا يؤرّقه ببكائه وصراخه ولا يبلّه ببلبله . كما انه لا شيء اوجع لقلبه من ان يراه مريضاً غير قادر على الشكوى بلسانه ليعلم ما ينبغي ان يداوى به . بل الاطباء انفسهم يحارون في مداواة الاطفال وقلما يصيبون الغرض . وكان الاولى ان يعيّن لعلاجهم اطباء اختصوا بمزاولة ذلك عهداً طويلاً . وان ينوّه بمن نبغ منهم فيه في كل كلام مستطر ومطبوع. ويجب على الوالد أول ما يرى ولده قد مرض ان يتعهده ويراعي احواله وما يطرأ عليه ويقيد ذلك في كتاب ليخبر الطبيب به اخباراً مبينا . فربما اغنى ذلك عن كثير من الدواء الذي يجازف به الاطباء احياناً لامتحان حال المريض . ومن أهم ما يستنهض عناية الوالدين في حق ولدهما امر الطعام. لان الطفل لما كان لا يدري حدّ الشبع الذي يقف عنده الراشد كان اكثر أسباب مرضه من الأكل . فليس من الحنوّ والشفقة ان تطعم الام ولدها كل مايشتهيه. وانما الاولى ان يلهّى عنه بأشياء من اللعب والصور المنقشة والآلات المزوقة وما أشبه ذلك . وما أحلى الولد يطلب شيئاً من أبيه وقد حمّر الخجل وجنته او غض الوجل طرفه . وما احبّه وهو مطوق عنق والده او والدته بيديه اللطيفتين ويقول اني اريد هذا الشيء لآكله . ومن سوء التدبير ايضاً ان يحرم

ما يشتهيه . ويبكي لأجل ما لا ضرر فيه . ولعمري ان من اغفل رضى ابنه حتى ابكاه وأجرى دموعه لغير تأديب كان بمعزل عن الابوة . وينبغي ان يدرّب الطفل على الخفيف من الطعام بعد ولادته بستة اشهر مع بقاء الارضاع قليلاً . فان الطعام يغذّيه ويقوّيه فضلاً عن انه يحفظ صحة والدته . بل ربما مناها طول ارضاعها اياه بمرض ولم يفده شيئاً كما هو مذهب الافرنج وهم إكثر الناس ذرّية . ولا ينبغي ان ترضعه وهي غضبى او مذعورة او مضطربة او مريضة . ...

ثم انه ما دام الرجل عزباً او كان لم يربّ ولداً قط لم يشعر حق الشعور بالحنو على اولاد غيره . بل لم يقدر والديه اللذين ربّياه حق قدرهما الا بعد ان يصير هو والداً مربّياً . والامّهات اللاي يرضعن اولادهن يكنّ بالضرورة احنّ فؤاداً عليهم من اللاي يستأجرن لهم المراضع . ولا جرم ان من كان له ولد وقرأ قول الشاعر . وربّ امّ وطفـــل حيل بينهما كما تفرّق ارواح وابدان . لم يتمالك ان يذرف الدمع لوعة وتحسّرا . وكذا لو قرأ قصصاً فيها فجع الآباء بقتل اولادهم الصغار الابرياء كقتل اطفال مدين بامر موسى على ما ذكر في الفصل الحادي والثلاثين من سفر العدد سواء كان ابوا الطفل مؤمنين او كافرين . ومن لم يكن قد تحلّى بصفة الابوة كالراهب وامثاله ودعاك : يا بنُي او يا ولدي فلا تثق بكلامه ولا تعول على دعائه لانه لا يعلم معزة البنوّة الا من كان ذا ابوة . . . . . .

وكان الفارياق ممن اذاقه الله حلواء البنين ثم تجرع مع ذلك مرارة الثكل. فقد كان له ولد بلغ سنتين وكأنه قد سَبك في قالب الحسن والجمــال فجاء لم يَعْدُه شيء ممــا تقر به العين . وكان على صغر سنه ينظر نظر المميز بـــين المؤنس والموحش ويألف من تملق له ولو باشارة . فكان ابوه اذا رنا اليه ينسى في الحال جميع اشجانه وهمومه . ولكن لم يلبث ان يغشاه عارض من الكآبة اذا كان يوجس انه لا يدوم له على عين الدهر اللامّة . ويرى نفسه انه غــير جدير بان يتملى بتلك الطلعة الناضرة . وكان يحمله على ساعديه مسافة ساعة

وهو يناغيه ويغني له . حتى ألِفه الطفل بحيث لم يعد يشأ ان أحداً غيره يحمله او يلهيه او انه يأكل وحده على انفراد . الى ان قدر الله ربّ الموت والحياة ان أخذ الصبيّ سعال في تلك القرية .ولما كانت قرى الانكليز الصغيرة كغيرها من قرى البلاد من انه لا يوجد فيها اطباء مهرة وكان لا بدّ من مشاورة طبيب على اية صفة كان ، استشار أبواه أحد المتطببين هناك. فأشار عليهما بان يتداركاه بالاستحمام بالماء السخن الا رأسه . فعملا بوصيته اياماً . ولم يزدد الصبي الا سقاما . حتى كان اذا انزل في الماء بعدها يُغشى عليه ويُرَى فوق قلبه لطخة حمراء كالدم على شكل القلب . ثم اشتد به الداء حتى احتبس السعال في صدره وخفت صوته . وكان يعاوده مع ذلك الرعدة والهزّة . وبقي في حالة النزع ستة ايام بلياليها وهو يئن انيناً ضعيفاً وينظر الى والديه كالشاكي لهما مما يقاسيه. فاستحال الورد من خديه عبهراً . وغارت عيناه النجلاوان . ولم يعد شي من الغذاء والدواء يسوغ في حلقه الاّ تكلّفاً. وكان الفارياق في خلال ذلك يذرف العبرات ويجأر بالدعاء الى الله ويقول : ربّ اصرف هذا العذاب عن ابني اليّ ان كان ذلك يرضيك . انني لا مأربَ لي في الحياة من بعده ولا طاقة لي على مشاهدته في هذا النزع الاليم . فأمِتْني قبله ولو بساعة حتى لا أراه يجود بنفسه . آه عظمت ساعةً . وان كان لا بدّ من نفوذ قضائك به فتوفّه الآن ولعل الفارياق هو اوّل والد دعا على ابنه بالموت عن شفق وحنوّ . فان رؤية الطفل يغرغر ستة ايام مما لا يطاق . وبعد ان تُوفّي الولد ، وابقى في قلوب والديه الحسرة والكمد ، استوحشا من مقامهما اذ كان كل شيء فيه يذكرهما فقده ويزيد في لوعتهما . ففصلا منه الى لندرة على حين غفلة وقد وضعاه في صندوق فلما دفناه واستقرا في منزل قال ابوه يرثيه :

الدمع بعدك ما ذكرتك جارِ	والذكر ما وارك تربٌ وارِ
يا راحلاً عن مهجة غادرتها	تصلى من الحسرات كل اوار
خطأ وهمتُ فأين بعدك مهجتي	ما في حشاي سوى لهيب النار

رَمَقاً اقلَّ الجسمَ مني فادحا	فكأنّه وقر من الاوقـــار
ما كان ضرّ الدهر لو ابقاك لي	عينـــاً على الآثار والاذكار
ما بعد فقدك رائعي او رائقي	شيء من الظلمـات والانوار
سيان ان جنّ الظلام عليّ او	طلع الصباح وانت عني سار
يا بئس ذاك الليل اذ لم يبقَ لي	من مطمع فيه الى الاسحار
ارّقتني من قبله ستّاً وفيـه	حُرمتُ خمسي واستطبت شعاري
أبُنيَّ ما يجدي التصبّر قولهم	حكم المنيّة في البريـة جار
كلاّ ولا بي قرّ بعدك من حمى	ما هذه الدنيـا بدار قرار
كم قد حملتك فوق راحي اذ غدو	ت ورحت نُمتَ حُرُتُ خير محار
ولكم سهرت الليل من جزع فما	اغنى بكاي عليك او اسهاري
ولكم جأرت لبرء دائك ضارعاً	ولغير نفع كان طول جُؤاري
ولكم حضنتك في الحنادس خوف ان	يطرا عليك من الحوادث طاري
وجمال وجهك لي يخيّل انني	في روضة أُنُف ضحاء نهار
ان لم يصوّرك المصوّر لي فقد	صُوّرت بالمأثور من اشعاري
او ان يكن واراك لحد ضيّق	فالارض عندي اليوم اضيق دار
او ان تكن عني حُجبتَ فانما	بَقِيَتْ حِلاك خوالج الافكار
لا انسينّك او احين فما اتى	حين عليّ خلا من استذكار
ولارثينّك ما بقيت وان أَمُت	فليتلونّ رثاك عني القاري
يا حسرةً عُدم التبصر بعدها	عَدَمَ التبصّر في احتمال خساري
كثر المعاين لي وقـل معاوني	وكوت حشاي شماتة الزوار
فرويتُ بيتاً قاله من ذاق ما	قد ذقت من ثكل ووحشة جار
جاورت اعدائي وجاور ربّه	شتان بين جواره وجواري
يا فجعة نزلت فحطّم كاهلي	تأويقها وابان قصم فقاري
في ليلة فارقت فيهـا ناظري	ابدا وفارقني على اجبار
لاغرو ان يك قد سرى جنح الدجى	عن ناظريّ فكل نجم سار

قد كنت اطمع ان يعيش مهنّأً ... بعدي ويبلغ اطول الاعمار
وودِدت لو ان ذقت حتفي قبله ... لكن خيار الله غير خياري
وسّدته بيديّ رغماً ليته ... هو كان وسّدني على ايثاري
عيني اليه رنت وما لي حيلة ... ياليت من نَظَرٍ مُنَى إنظار
قصرت يدي عن كف ما أودى به ... ان القصور مظنّة الاقصار
لهفي عليه وطرفه لي يشتكي ... اذ كان لم يقدر على الاخبار
لهفي عليه على السرير مؤسّداً ... ولو استطعت لكان فوق يساري
لكنّ ادنى اللمس كان يزيده ... ألماً فكان يؤوه من اشعاري
ويئنّ انّة مستجير واجفاً ... كالطير قُرّ فبات دون قرار
حتى خشيت الدمع يؤلم جسمه ... لما عليه همى كودْقٍ جار
يا رعشة اودت به قد اورثت ... قلبي الوجوب ولوعة التذكار
ليت النفوض اقرّ عيني بعد ان ... سخنت بنفض فيه ذي اقرار
لهفي عليه في الظلام معانقي ... وكرايَ من شفق أليم غِرار
لهفي عليه والغناء ينيمه ... واذا سكتّ صبا الى الاكثار
لهفي عليه وهو يأخذ من يدي ... ويعيد ما يعطوه لاستغفار
لهفي عليه وهو لائك رُدْنه ... بـلآلىءٍ وضاحة ودراري
يا يوم انشبت المنيةُ فيه ... طفلاً لا يطيق عوالق الاظفار
يا خطة عالت فسوّت بين ... حتفي والحياة الى مدى مقدار
قد كان يحلو العيش حين يلوح لي ... والآن مرّ فصار ذا امرار
لا البعد يسليني ولا طول المدى ... وتخالف الاعصار والامصار
ماتنقضي الحسرات او اقضي اسىً ... فبذا عليّ جرى قضاء الباري
كلا ولا تطفي اواري عبرتي ... ولئن هَمَت في الصبّ كالامطار
فالنار الا النار ثكل تنطفي ... والماء الا الدّمع ضد النار
يا ليت راهي العيش يوماً راجع ... وفـداء مربوب ابوه الهاري
فاكون فاديَ عمر نجليَ لاقيا ... حتفي لقاء القانع المختار
داريت مالا ضير فيه لاجله ... فاليوم لست لما يضير اداري

ان المنيـــة والاماني بعــده سيان مستويان في استئثاري
فلتفعل الايام بي مـــا تشتهي ما بعد هــذا الخطب من اضرار
ولتذهب الامـــال عني انني لم يبق لي في العيش من اوطار
من ذاق ثكلا مثل ثكلي فاجعا فليُقصرنْ اليوم عن اصْباري
وليبكينّ معـــي ويحملني على فرط البــكاء بمدمع مدرار
ماهدّ ركنَ الصبرمثلَ الثكلاو حَسَم المطا كحسامه البتّار
الطفــل يقضي مـــرة لكننا يقضي ابوه قبـــله بمرار
تعروه في نزع ابنه وخفوتـــه ادوار حين ايّـــها ادوار
هيهات من قد اشبهت اطواره في فقــده اوطاره اطواري
او انّ في سوء الاسى لي اسوة او ان في طول الحياة قصاري
لن ينفع الانسان شيئاً حرصه كلٌ الى أجـــل على مقدار
الموت غاية كل حيّ يستوي فيــه ذوو الايسار والاعسار
والسابقون يضمهم يـــوم مع المتأخرين الى ثرًى منهار
لكن يوم الطفل افجع حيث لم يعرف له مضمار سعي دار
ما لذّ طَعم العيش الاّ من عدا ه الثكل لا من كان ذا ايسار
فالرزء في الاموال مثل الشعر تر زأه فينبت خِلفة الاطوار
فلـيَهْنِ من عاشت بنوه عيشه وليصفُ مورده عن الاكدار
بعض الرزايا قــد يساغ وبعضها يبقى شجا يشجي مدى الاعصار

١٥

في الحِداد

ثم لمّا لم يكن بدٌّ للفارياق من السكنى بالقرب من تلك القرية المشؤمة سافر باهله الى كمبريج . وبقوا مدة طويلة يمشون وجفونهم مـا بين منطبقة ومنفتحة .لان شدة الحزن تصرف القلب عن الشهوات او بالعكس . ثم تراخت عقدة الحزن قليلا عـن العيون لا عن القلوب . لان العينين لا تطاوعان القلب دائما . كيف وقد قيل وضعيفان يغلبان قويا.فاستحلّ كل منهما اولا الصأصأة والوصوصة والتبصيص والتيضيض والتجصيص والتبصيص والوَبْص والتبصير والتفقيح . ثم اللوح واللمح والنَقـد والخزر والتخازر والشُّطور والمخاوتـة والمخاوصة والملاوصة والتحشيف والعِرَضْنة والرَّمْـق والحَدَل والزَّر والايماض واللحظ والالتفات والدنفسة والتشاوس والمغاضنة والمخاوتـة . ثم الايشام والنظر والبَغْو والصَّرو والاجتلاء والتجلية والرَّنْء والبصر والمعاينة والمشاهدة والرؤية والبَغي والبقـاوة والبَقْي . ثم الرأرأة واللألأة والتبريق والبَشْق والتحديج والتحديق والتجحيظ والتبجيم والتحجيم والتجحيم والتحميج والحملقة والعسحرة واللَـتء والضَّبْز والتبخُّص والاسفاف والارغاف والوروزة والحتر والطنفشة والاتـآر والحدقـلة والطرفسة والزنهرة والبندقة والبنق والتجنيص والتفصيص والتهصيص والارشاق والرعام والبرشمة والبرهمة والجرسمة . ثم الشخوص والطمس والجحم والاشصاء والتطاول والتطالل والاشرئباب والاسلطاء والاشتياف والاستيضـاح والاستشراف والاهطـاع والتدنيق والترنيق والحتء والحتش والصدء والاسجاد والتأمـل والتكلثة والتفرس والتطلع والرنوّ والترني . ثم تصالحت العيون والقلوب ، فغدت تلـك تترجم

عن هذه والكمد مع ذلك مخيم في اطرافها .

غير ان الانسان خلق من نطفة امشاج وركب من عدة اخلاط وجواهر واعراض مختلفة . فهو لا يزال ابد الدهر ماشجاً هذا فيذاك وخالطاً جداً بهزل وفرحاً بترح . فتراه ساعة قانطاً واخرى كأشعب . وآونة مفراحاً واخرى مبتئساً . ويوماً طرباً شنِقاً ويوماًاو بعض يوم عَزِها . فهو بشر خَلقاً وغول خُلقاً . واكثر ما ترى منه غَمْلَجيَّته هذه في امر النساء . فانه ان تزوج بمليحة قال ليتني كنت تزوجت بقبيحة وسلمت من ضيزنية معارفي وجيراني . وان تزوج قبيحة قال ليتني تملّحت بمليحة لاكون ذا وجاهة ونباهة . وان كانت امرأته بيضاء قال ليتها كانت سمراء . فان السمر اخف حركة واسخن في الشتاء. وان كانت سمراء قال ليتها بيضاء فان البيض ارطب ابداناً في الصيف . وان كانت كمكامة مكتنزة قال ليتها كانت ممشوقة هيفاء . فان الهيف اقل مؤنة . وان سافر عنها قال ليتها هي التي سافرت وبالعكس . الا في مدة وضعها فانه لا يتمنى ان يكون في موضعها وقس على ذلك من الاحوال النسائية ما لا يمكن حصره . اذ اخفى شيء من المرأة انما هو بحر لا يمكن البلوغ الى قعره . والحاصل ان للقلب شؤوناً كثيرة واحوالاً متباينة لا يزال يتقلب بها . او لا تزال هي تتقلب به. وعلى كل فتسميته قلباً دالّة عليه . ويستثنى من هذه القاعدة شيء واحد وهو ثبات الانسان في كل حال وشان . واصراره في كل زمان ومكان على تفضيل نفسه على غيره . فلو كان فاجراً حسب ان لا بره عند الله الا برة. وان كان فظّاً غليظاً رأى كل كيّس ربيزدونه . وان كان بخيلاً ظن ان كل حرف يفوه به هو منّة كبرى . وان كان دميا ذميا لم يرَ اللوم الا على نظر الناظرين له . وكما ان عين الانسان تنظر كل ما واجهها ولا ترى نفسها كذلك كانت بصيرته مبصرة بعيوب الخلق كافة الا عيب نفسه . ولو طاف الدنيا باسرها لما رأى فيها من المحاسن ما في مدينته او قريته . ثم ليس من المحاسن في بلدته ما في بيته . ولكن ليست هي في احد من اهله كما هي فيه . فتحصل من ذلك انه افضل

من في العالم كله . ولو انه كان شاعراً او بالحري شعروراً لا يحسن الا الاطراء على بخيل او التغزل بهند ودعد . ثم رأى علماء الرياضة والهندسة يخترعون من الادوات مثلاً ما يطوي شقة خمسمائة فرسخ في يوم واحد . لحسب ان شعره انفع من ذلك والزم . ولو كان مغنياً او لاعباً بآلة من آلات الطرب ورأى جاراً له طبيباً نطاسياً يداوي في كل يوم خمسين عليلاً ويبرئهم باذن الله لاعتقد ان صنعته اشفى وانفع . ولم يخطر بباله قط ان الانسان يمكنه ان يعمّر في الارض دهراً طويلاً من دون سماع غناء او عزف بآلة . فمتى يتعلم الانسان ان يعرف نفسه . وان يفرق بين الحق والباطل وان لا يخلط الحزن الكامن في القلب بالتحديق والحلقة .

واقبح من ذلك ان كل واحد من الناس يظن ان غيره ايضاً يفعل كذلك فهو معذور عند نفسه بكونه حاذيا حذو غيره . ومثله قباحة شأن من تلبس الحداد على ميّت لها وهي في خلال ذلـــك يزدهيها الرثاء ويستخفها ذكر الذكران . وترتاح الى رؤية غير اللون الاسود وتطربها نغمة القائل لها ان فلانا مشغوف بحبك . وانـــك جديرة بان تقعدي على منصبة وتأمري وتنهي الوصائف من حولك او بالحري الوصفاء. وان لا تتناولي شيئاً بيدك هـــذه الرخصة . وان لا تخرجي من دارك ماشية على رجلك هذه اللطيفة. وان لك في كل مكان عشاقاً كثيرين بحيث لا تعدمين في كل وقت من يحوطك ويخدمك ويلاطفك وينسيك حزنك . وغير ذلك من الكلام الذي هو انتهاك لحرمة كل من الموت والميّت . قال الفارياق قد رأيت كثيراً من النساء الحوادّ في بلاد الانكليز وغيرها وهن اكثر خفة وطربا وازدهاء وضحكاً من العروس وامها ولم ارَ بينهن من كانت تنظر الى ثيابها السوداء اذا ضحكت لتتذكر ان كركرتها في غير محلها . اما في امر الزوج فربما يطلب لهن الحليم عذراً بان يقول مثلاً: لعل زوجها كان يخونها في الليالي الحالكة فتردبها بالسواد انما هو لتتذكر سوء افعاله معها في سواد تلك الليالي . او ان ايامها معه كانت كلها سوداً كالليالي . فاما في امر الولد والاب وغيره فلا عذر لمن احدّت وهي مرارئة مهزقة . ثم

ان المحدّ عند الافرنج مطلوبة للرجال مرغوب فيها بمنزلة العروس . اذ الفحول يتزاحمون على تسليتها وتلهيتها لعلمهم بما تحت ذلك السواد . وبان هذه العادة هي من جملة العادات التي خالف استعمالها وضعها . والظاهر ان لفظة المُحدّ في لغتنا هذه الشريفة مشتقة من حدّ السكين واحدّها وحددها اي مسحها بحجر او مبرد فحدّت تحدّ . فكأن لابسة الحداد تحدّ شهوة الناظر اليها اذ يرى عليها آثار الحزن والكآبة والانكسار وهو اشوق ما يكون في النساء . ويؤيده ان صنفاً من الثياب السود يُسمّى إسْبادا . وهذا الحرف يجيء ايضاً بمعنى حَلق الشعر كالسَّبْد وانت بتمام المعنى ادرى . وتسمى ايضاً سِلابا والسليب هو المستلب العقل . فكأن المرأة اذا تسلّبت اي احدّت ولبست السّلابا سلبت عقل ناظرها . فأول ما يقع نظره عليها يقع قلبه معه فيقول لها أو في نفسه . فديتك بأبي انت وامي . لله انت . وقاكِ الله . وهبني الله فداك . ان شئتِ ان اكون اول من توسّل لمحو هذا الحزن من صدرك فعلت فاني انا أقدَر منك على تحمل المكاره . فالقِ عليَّ هذا الهمّ القادح وكوني أنتِ مهنأة مسرورة . ان لدي آلة طرب عظيمة وخزعبيلات كثيرة تفرّج عنك الكرب . فلو زرتني مرة او سمحت لي بان ازورك لم يَعُد يخطر ببالك شيء من الاشجان . انك رخصة رعبوبة وأرى هذا الخطب قاسحاً عليك فلا يزول إلا بقاسح مثله . ليتك تعلمين ما عندي من الأسى والوجد لأجلك . واني عتيد لان احرم نفسي من جميع المسرّات بحيث أراك تفترّين عن ذلك الشنب الاشهى . وتبدين في خديك عند الضحك تلك النقرة التي طالما نقرت قلوب العشاق . أي قلب لا يذوب لهذا الانكسار . واية عين لا تنزف الدمع على هذا الازار . قَدْني حزنا لحزنك وحسبي ان اجلو عنك صدأ هذا الهم .

وكذلك المرأة المحدّ فانها تعلم وهي ماشية ما يخطر ببال ذلك المشفق عليها فتقول له او في نفسها . نعم والله اني محتاجة اليك لتخفف عني ما اجده اليوم من الوحشة والسدم . وقد بت البارحة وانا غريقة في بحر الافكار

والاكدار . واراك جديرا بأن تعاقرني وتسامرني وتعاشرني وتبادرني وتباكرني وتجاورني وتحاضرني وتخــاصرني وتذاكرني وتساررني وتسايرني وتداورني وتشاعرني . فالحمد لله الذي هداني اليوم اليك وهداك اليّ وقيّضك لي . لأني امرأة منكسرة الخاطر ولا بدّ لي ممّن ينفّس عني ويؤنسني . حتى اذا نسيت ما اكابده وألمّ بك كرب كان عليّ ان افرّج عنك فــان عندي مصدر اشتقاق الفـرَج . ومني تنال اتمّ الحبور ، واعمّ السرور . فهلمّ اذاً الى المخالطة والمراوحة . والمساجلة والمكافحة . فهذا ما ينشأ عن لبس الحِداد. ولذلك كان كثيراً من النساء يؤثرن الثياب السود ثقة بانها تقوم في تشويق من يلاقينهُ من الرجال مقام الحِداد . ولذلك كانت الافرنـج ايضاً يحبّون اللون الاسود في الملابس ولا يتجاوزونه . ولذلك كان لباس القسيسين والائمة اسود.

١٦

في جود الانكليز

لما فرغ الفارياق من عمله في كمبريج سافر الى لندرة على عزم ان يرجع الى الجزيرة واستصحب معه حمى نافضا . غير ان احد الاطباء الخيرين في هذه المدينة نفضها عن ظهره ولم يتقاضه شيئاً . ثم اصيبت الفارياقية بخفقاني القلب واللسان . فانها كانت وقتئذ مهرت في لغة القوم . ثم اصيب هو بخفقاني العقل والرأي . وذلك انه لما تصرمت مدة غيابه عن الجزيرة وازف وقت رجوعه رأى ان العود اليها غير احمد . لان احوالها تغيرت عما كانت عليه من الخصب والبحبحة في المساكن . وتلك عادة للفارياق انه لا يدخل بلداً خصيباً الا ويفارقه ممحلا كما تقدمت الاشارة اليه. ولانه فاته فيها بعض فوائد فحرم منها لطول غيابه . فمن ثم قصد مدينة اكسفورد ومعه كتاب توصية الى احد اعيانها وعلمائها وهو من اهل الكنيسة . فرأى الوصول اليه متعذراً فان العلماء في هذه المدينة ليسوا كعلماء مصر في رقة الجانب وبشاشة اللقاء . بل هم اشد فظاظة من العامة . وعندهم ان الغريب لا يأتي الى بلادهم الا والشلاّق على عاتقه . ولذلك لما ذهب الفارياق ذات ليلة ليرى بعض هؤلاء العلماء صادفه احدهم بباب المدرسة فقال له: من تقصد ? قال فلانا . قال اين تسكن ? قال في محل كذا . قال اعندك دراهم لتفي اجرة المسكن . قال ما انا بمطران ولا راهب حتى تزعمني اني قدمت اليكم متسولاً .

ثم لما تعذر عليه الوصول الى جناب ذلك القسيس المعظم ولم يجد فيها اهلا للخير سوى رجل من الطلبة يسمى وليم سكولتك Williams Scoltock وآخر من التجار كان الفارياق اشترى منه قطعة حبل ليربط بها صندوقه فأبى التاجر

ان يأخذ منه ثمنها فكأنه ظن ان الفارياق لم يشترها الا بعد ان استخار الله في ان يخنق بها نفسه . رجع الى لندرة وفاوض زوجته في ذلك فقالت له ان الجزيرة اقل خيراً من اكسفورد واني مللت منها كل الملل . فقد اضعنا فيها زهرة عمرنا ولم نحصل منها على ثمرة . فما الرأي ان نعود اليها . فقرّ رأيه حينئذ على ان يستعفي من خدمته فيها وكتب كتاباً الى كاتب سر الحاكم يؤذنبذلك. ثم اشتد بالفارياقية الخفقان فرأى ان مقامها بباريس خير لها . وذلك لما شاع عند الناس ان هواء باريس اصحمن هواء لندرة.وان المعيشة فيها أرخص والحظ اوفر . وان الفرنسيس ابش بالغريب من الانكليز وابر . وان لغة العرب عندهم اكثر نفعاً واشهر . وغير ذلك من الاوهام التي تدخل احياناً في رؤوس الناس ولا تعود تخرج الا مع خروج الروح .

ولكن ينبغي قبل سفر الفارياق منهذه المدينةان نعيد عليكبعبارةوجيزة وصف ما فيها من المحاسن والجود على اهلها اي على اهل الجمال . لتعلم هل رحيل الفارياق حلال او حرام . وليكون ذلك وداعاً من الانكليز . فان الكتاب قارب ان يتم ولم يبق من مجال للاسهاب . لاني اخشى من ان يأتي هذا الكتاب الاخير اكبر من الاول فيكون ذلك موجبا للقدح فيّ منوجهين. احدهما ان مطالعيه يقولون ان المؤلف كان يؤلف الفصول في اوله قصيرة والان ينشئها طويلة . فكأنه كان أولاً غير ذي دربة بالتأليف او انه يريد ان ينسب اليه مضمون قولهم جري المذكيات غِلاء . والثاني انه كاد ان يلحق نفسه بالطرّادين وهو لم يشعر ولم يدرِ . فلقد مللنا من كلامه واعادة قوله قيل وقال وكان وصار فهو قد تبوّأ صهوة الجَدَل منه واليه . ولم يغادرنا نراجعه ونعترض عليه . فما جزاء الثرثار من المؤلفين إلا القاء كتابه في القمين .

قال الفارياق تصوّر في عقلك انك ساكن في حارة من حارات لندره ذات صفين متوازيين متصاقبين متناوحين . في كل صف عشرون داراً. ولكل دار باب ولكل باب عتبة . وامام كل عتبة درج او وصيد مبلّط . ثم مثّل لعينك هداك الله أربعون بنتاً من الرُّمُم النواهد. والجُثُم الخرائد . والعُبُن

المواغد . والوُجُح الثوامد . ذوات التبهكن والمرافد . والمراضب والمشائب ، والصلوتة والسجاحة . والاسولة والصباحة . واللباقة والملاحة . والكلثمة والترارة . والوثامة والنضارة . والوضاءة والبشارة . والقسامة والشارة . والطلاوة والوثارة . والوثامة والبضاضة . والطراوة والغضاضة . والغرَض والمسألة . والمَلَد والعبالة . ومن الزُهْر والغُرّ والفُرّ والصهب والصُبّح والصُحْر والعُفر والفُضح والمُغْر والأُدم والخُلس والبُره والوده والعِين والنُّجل والشُّهل والبُرْج . والشُّكل والدُعج والجُود والبُج والفُرق والزُّج والجُبه والبُلج والبُلد والذُّلف والخُنس والشمّ واللُّعس والحُوّ واللُّمى .

ومن كلّ

رُغبوبة	شطبة تارّة او بيضاء حسنة رطبة حلوة او ناعمة . وكان حق هذا الحرف ان يوضع في جدول الكتاب الثاني لكن رأيت الجكبّاكات اولى به لتحقق معناه فيهن .
ولَبّة	لطيفة .
وذات وجه مُصفَح	المصفح من الوجوه السهل الحسن .
وبهْصَلة	شديدة البياض .
ورَبِلة	عظيمة الرَبَلات والرَبْلة ويحرّك كل لحمة غليظة والربالة كثرة اللحم .
ورِبَحْلة	ضخمة جيدة الخلق طويلة .
ورَيْبل	ناعمة لحيمة .
وذات شعر رجِل	بين السبوطة والجعودة .
ورَفِلة	اي تجرّ ذيلها جرّاً حسناً .
وزَوْلة	خفيفة ظريفة فطنة .
وذات عين سَبْلاء	طويلة الهدب .
وذات صوت خريد	ليّن عليه اثر الحياء .
وسِبَحْل	ضخمة كالسبحلل .

واسْحلانية	المرأة الرائقة الطويلة الجميلة ؛
وطَفْلة	رخصة ناعمة .
وعَبْلة عَثْلة	ضخمة فخمة ؛
وعَيْطل	طويلة العنق في حسن جسم ،
وعُطْبول	فتيّة جميلة ممتلئة طويلة العنق .
وعيطَبول	طويلة القدّ .
وعَمَيْثلة	البطيئة لعظمها وترهّلها ومن تسبل ثيابها دلالا .
ومكتنّلة	مدورة مجتمعة .
وهَيْضَلة	الضخمة الطويلة .
وهيكلة	عظيمة .
وهُوْلة	المرأة تهوّل بحسنها .
وعَيْهل	طويلة ومثلها العَيْطَبول والغِلْفاق والعنشطة والعَنَطْنطة والعَلْهبة والسَّلهبة .
وعَنْدَلة	ضخمة الثديين وهي ايضاً الطويلة .
وعَرْطَويلة	حسنة الشباب والقدّ .
وعَرَنْدَلة	طويلة صُلبة شديدة .
ومَجْدولة	لطيفة القصب محكمة الفتل .
وخثْلة	ضخمة البطن .
وهِرْكيل	حسنة الجسم والخلق والمشية كالهِرْكَولة .
ومأرومة	حسنة الخلق مجدولته .
وجَرية	عظيمة الجسد ونحوها الجسيمة .
وجمّاء العظام	كثيرة اللحم .
وحَسامة	جميلة .
ودَرْماء	لا تستبين كعوبها ومرافقها (من تغطية اللحم لها) .
ورُعْموم	ناعمة .

وسُلِمة	ناعمة الاطراف .
وشُغْموم	طويلة مليحة كالشغمومة .
وضِخَمَّة	عريضة اريضة ناعمة .
ومطهّمة	السمينة والبارعة الجمال والمدوّرة الوجه المجتمعته .
وفَعْمة	استوى خلقها وغلظ ساقها .
وقسيمة	جميلة وكذا الوسيمة .
وكَشَمة	ريّا من شراب وغيره .
ومكلثمة	مجتمعة لحم الخدين بلا جهومة .
وكمكامة	قصيرة مجتمعة الخلق .
ووثيمة	مكتنزة لحما .
ومُوشِم	اوشمت المرأة بدا ثديها .
وهَضِيم	الهَضَم خمص البطن ولطف الكشح .
وبَثْنَة	حسناء بضّة .
وبَخْدن	ناعمة .
وبادن	معروف كبادنة .
وبَهْنانة	الطيبة النفس والريح واللينة في عملها ومنطقها والضحاكة الخفيفة الروح
وبَهْكنة	شابة غضة ويقال للعجزاء تبهكنت في مشيتها .
وجُهانة	شابة .
وحَبْناء	ضخمة البطن .
ذات شعر حَجن	متسلسل مسترسل .
وخَليف	المرأة التي اسبلت شعرها خلفها .
وراقنة	حسنة اللون .
ومسنونة الوجه	حسنته سهلته او في وجهها وانفها طول .
ومَشْدونة	العاتق من الجواري .

وذات عَسَن	الطول مع حسن الشعر .
وعَكنْاء	تعكّن بطنها .
وغَيْسانة	ناعمة .
وفينانة	كثيرة الشعر .
وقَتِين	جميلة .
وملَسّنة القدمين	الملسّنة من الاقدام والنعال ما فيها طول ولطافة كهيئة اللسان .
ووَهْنانة	بها فتور عند القيام .
وبَرَهْرَهة	البيضاء الشابة والناعمة أو التي تُرعَد رطوبة ونعومة والبره الترارة .
وذات رَهْرَهة	الرهرهة حسن بصيص لون البشرة ونحوه وترهره جسمه (والاحرى جسمها) ابيض من النّعمة وجسم رَهْراه ورُهروه ورَهْره ناعم ابيض .
وفارهة	الجارية المليحة والفتيّة .
ووَدهاء	المرأة الحسنة اللون في بياض .
ومُوَهْوهة	التي ترعد من الامتلاء.
وسَجْواء الطرف	ساجيته اي ساكنته .
وعابية	حسناء من عبا يعبو اي اضاء وجهه .
وحسنة العُرية	أي المجرد والمعاري حيث يُرَى كالوجه واليدين والرجلين.

تأخذ بيديها اللطيفتين مكشطا وصابونة ودلواً فيه مـــاء حميم . ثم تجثو على ركبتيها المدملجتين وتطفق تحك عتبة الدار ووصيدها وهي تتذبذب وتضطرب وتتحثحث وتتعثعث وتتمثمث وتتبعج وتتحلـج وتتخلج وتترجرج وتتمخج وتتمعج وتتنجنج وترتجج وتتضحضح وتتأوّد وتتخضّد وتترعد وتميد وتتأطر وتتدهكر وتترزز وتسجهرّ وتتمرمر وتتملـــل وتمور وتتحيّز وتترجّز وتتلزلز وتتمزمز وتتهزز وتتحسحس وتترهّس وتتمخس وترخش وتتنغش

وترتهص وتــترقص وتلصلص وتنصنص وتوخص وتتخضخض وتلضلض وتمخض وتنغض وتتريّع وتتريّه وتلسيع وتنوّع وتتغضف وتترقرق وتتريق وتتركرك وتروه وتريــه وتتلوّه وتتلوّى وتـضّرى . وربما اتفق مع رؤية ذلك سمـــاع آلات الطرب يعزف بها في الشوارع فيا حسن ذلك منظراً ومسمعاً .

ولكن يا اغنيـــاء لندن وأعيانها ألم يكن لكم من وسيلة لمشاهدة هذه الشواخص والجواهض الا باذلة عزة الحسن المصون . ايحل لكم انتهاك حرمة الجمال وأمجال ايدي هؤلاء الحسان وركبهن لتملاسّ اعتابكم . ما بال جيرانكم الفرنساوية لا يفعلون ذلك وانمـــا يسومون خدمتهم تنظيف درج الديار من داخل فقط . فيضع الخادم شيئاً كالقبقاب او النعل في رجله ويكشط به ما قدر عليه وما لم يقدر عليه يتركه الى المرة الثانية او الثالثة . ونحن كذلك لا نكلف نساءنا هذا التنطّس الذي لا معنى له . وانما نـكِّل اليهنّ ما آل الى القفش والرفش اي الطعام والفراش . ومع ذلك فتزعمون انكم تحترمون النساء وتعرفون قدرهن اكثر منا . لقد كبر ذلك قولاً . فاما تسريحهن في الليالي الحالكة ليطفن في كل زقاق وشارع وتسفيرهن الى البلاد الشاسعـــة وحدهن فلا يعدّ عندنا من الاكرام لهن في شيء : بل هو احرى ان يكون دَيْبوبيّة وقرطبانيـــة وقلطبانية وكلتبانية ودُؤثية وديّوثية وُقمعوثية وقوّادية وتـوْريّة وسَقْريـــة وصَقْرية وعَزْورية ولِياسيّة وطَرْعِية وطـَسعية وقنْدعية وقنذعية ودُسفانيـــة وإدْسافية وإمذائية ومُماوية ، وشـغْنبيّة وشقحطبيّة وادفائية وارفحيّة . ليت شعري كيف يكون قلب الخادمة حين تأمرها مخدومتها في كل يوم قائلة حكّي العتبة . او حين تسألها رفيقتها هل حككت اليوم عتبة سيدتك . نعم لو كانت العتبـــة وردت عندكم بمعنى المرأة كما هي في لغتنا هذه الشريفة لكان لا يبعد ان يسبق وهمها عند السؤال الى ذلك الا ان لغتكم يابسة قاسحة لا تحتمل التأويل ولاالتخريج. ولست ارى لهذه العادة المشطة من سبب سوى ان احد كبرائكم كان قد

اتخذ خادمة رعبوبة والله اعلم منذ ثلاثمائة وخمسين سنة . وكانت امرأته دميمة فغارت السيدة منها فكلفتها حك العتبة والوصيد في كل يوم اذلالاً لها في عين سيدها كأنّ القلب لا يعلق بهوى الجميلة المسكينة كما يعلق بهوى الفُنُق . او كأنّ الشيء المجمج يحتاج الى مرفد . او الشيء المتدملك الى وشيعة من القطن . او الغَيْل الى غلالة من الخز . او المَكْنرة الى جوارب من حرير . فسرت هذه العادة الذميمة في جميع كبرائكم الى عصرنا هذا عصر التمدن والرفق بالنساء . وانتم اسارى العادات والتقليد . فمتى الفتم فَعِلة لم يمكنكم ان تنتقلوا عنها . وذلك كتكليف الفتيان من خدمتكم ذرّ رمـــاداً ابيض على رؤوسهم حتى يكونوا كالشيوخ من فـــوق . وككشف عجائزكم في الولائم عن ترائبهن واذرعهن . مع انه لا مناسبة بين اوقـــات القصوف والحظ ورؤية ترائب منجردة تمـــني القوم بالقَمَه . فاما مواطأة الناس على ما اخترعه الامراء والاعيان على اجراء العادات السيئة فهو غـــير خاص بكم . بل هو عام ايضاً عند سائر الامم الافرنجية .

١٧

في وصف باريس

كان وصول الفارياق الى هذه المدينة الشهيرة في ذات ليلة ضباب فكانت عيناه معمشتين عن رؤية ما فيها من الخصائص . فلما اصبح اخذ يطوف في شوارعها كالمتفرّغ المتبطل فاذا بها ملآنة من المزالج والمزالق والروامج والروامق[١] والجَرائي والاطناء والرَّبّاي والمَلْمُوات والجَذّابات والرُجَب والرُوب والفُخوت والحِراج والسُبَج والبَيّاحات والنِصاحات والمصايد والفخاخ والشواصر والنوامير والقحّازات والدحاحيس والمفاقيس والشصوص والبيضاوات والقُفّاعات والمجازف والخواطيف والعواطيف والكُفف والربَق والطبَق والعوادق والنُشَق والعلاليق والاوهاق والشباك والأشراك والشَوْدكات والاحابيل والكوابيل والشهوم والمصالي . فظهر له ان قوام كل شيء وعتاده وملاكه وقطبه في هذه العاصمة متوقف على وجود امرأة . فجميع الصُؤب والكُلَب والحوانيت والكُفُت والقرابج والكرابج والكناديج والمفاتح والمحاسب والمثابر والانبار والمخازن والمحارف والمصانع والفناتق والفنادق والدكاكين والقرابق والبلاّنات والمنامات والحانات والخانات والافدية والمطاعم والمشارب تديرها نساء واي نساء . وما من كَعْب او تأريجٍ او أوارجة او أنجيدج او بُرْجان او جُذاء[٢] او بَرْنامِج او عهده او محضر او جَذر او

(١) الرامج ملواح يصطاد به الجوارح وكذا الرامق .

(٢) عبارة القاموس في ب ر ج وحساب البُرجان قولك ما جُذاء كذا في كذا وما جذر كذا في كذا فجذاؤه مبلغه وجذره اصله الذي يضرب بعضه في بعض وجملته البرجان انتهى غير انه لم يحك في باب الباء غير الجداء بالدال المهملة وعبارته الجداء كغراب مبلغ حساب الضرب ثلاثة في ثلاثة جداؤه تسعة . واضرب عن ذكر الضرب بهذا المعنى في موضعه .

وصَر او قِط او فنداق او صَكّ او فذلكة او سَيّال او ترقيم او ترقين او جداء الا وتتعاطاه المرأة هنا . واللبيب من الرجال من اتخذ في حانوته او محترفه رامجا مليحاً يلوّح به للشارين والمجتازين في السبيل . ولا فرق بين ان يكون ذلك الرامج من اهل بيته او غريباً وانما العبرة بانفقاس الفخ على اعناقهم .

هذا وقد اختصت نساء باريس بصفات لا يشاركنهن فيها احد من نساء الافرنج . فمن ذلك انهن يتكلمن بالغنّة والخنّة والنشيج والهَزَج والهُزامج والترنجح والتطريب والسَكْت والحَبرة والنبرة والاجَش والتعثيث والترجيع والاضجاع والقُطْعة والتغريد والتهويد والمدّ والترسيل والترتيل والفصل والوصل والزّجَل والهلهلة والادغام والترخيم والتدنيم والترنيم والرّوْم والاشباع والتفخيم والامالة والتنعيم والتنغيم والتحزين والحنين والجَدَن والتلحين والطَّنَن والشجو والترنية . حتى ينتشي السامع فلا يعلم بعد ذلك هل هن يفككن ازراره او فقاره . ومن ذلك تغيير الزي في كل برهة وبهن تقتدي سائر النساء فلو لبست احداهن مثلا عَبْعبا او حزّقت ثوبها لعبّ الناس حب ذلك العبعب وصار التحزيق سنة فيهم . وعنهن يؤخذ ايضاً تقصيب الشعر وسَبْته وتسريحه وتسميده وتجميره وضفره وتطريره وتنفيشه وعقصه وتصفيفه وزرقلته وتشكيله وفرقه وكَسْحه وكدهه وادّراؤه وجدله وتفتيله وتغبيته ومشطه الكُعْكُبّة والمُقدّمة واتخاذ قصّة منه او قزّعة او قُنزعة وجعله مكرهفّا او مسبلا . ومن ذلك انه لطول ترددهن على مواضع الرقص يحسبن كل مكان يطأنه مرقصاً . فترى المرأة منهن تمشي في الاسواق والشوارع وهي تميد وتميل وتتخلع وتتفكك . ويا ليت مولانا صاحب القاموس كان يعرف البُلْكَى والمازركَى والسّوتشكى والكدريل والريّدوقَى والفلس وغيرها من ضروب الرقص حتى كنت أرويها عنه هنا في حق الماشيات في باريس . ومن ذلك تحكّمهن على الرجال وتعزّزهن عليهم في كل حال وبال . فترى الرجل يماشي المرأة وقلبه بين رجليها . واذا خلا معها في البيت فهي الآمرة الناهية المستعلية

القاضية . وهو المُصحِب المِصحاب المُدَربح المُدَلبح المُدمّح المكبـوح المعنوج المصوّب المدبّخ المتزيّخ المختضَد المُسجد المعتسَر المشروس المتّضع . ولا يزلن طول الدهر وحـاماً ولا حَبـَل . وبرمن ان يكون لهن كل شيء صِهابيّا مؤرّبا مرفـّلا موفـّرا مؤثّفلا مسبغا ضافيا مرتـبزا وافيا تامّا كاملا . حتى ان اللغة الفرنساوية مبنيّة على هذا الوحم.وذلك انهم يحذفون في اللفظ اواخر جميع الالفاظ المذكورة وينطقون بها في المؤنثة . وعلى ذلـك قول الفارياق

عند الفرنسيس المؤنث واجب	تبليغ آخره الى الاسماع
وهو الدليل على تؤوق نسائهم	طبعاً على التبليغ والاشباع
او انه صفة الكمال لهن ان	يك ممكنا يوم الذات قناع

وكان احد التيتاثيين من نحاتهم غاظه ذلـك فجعل من بعض قواعد لغتهم تغليب المذكر على المؤنث . ولكن هيهات فـان امرأة واحدة هنا تقوى على عشرين ذكراً . ومن ذلك ان عنوان جمالهن مكتوب على جباههن نظما ونثرا. فمن النظم

مَلـَكُ الجمال اعزّ من ملك له	جند واعوان وعرش ارفع
ذو المُلك تتبعه الجنود تكلفا	ولذي الجمال الناس طوعاً تتبع

ومنه

من حارب العين خانته مضاربه	وليس يجديه شحذ السيف عن جلده
فمضرب السيف مشحوذ على حجر	ومضرب الطرف مشحوذ على كبده

ومن النثر . الكلام بالغنّة ، شفاء من العُنّة. فرط التنهيد أبلغ في التهنيد. الخـَدَل جلاء المقل . ضخم الحماة يفتح اللهاة . صغر الاقدام يقزح الادام . كم صريع في السوق من كشف السوق . ان ابراز الترائب كاشف غمّ النوائب ان العَبعَب املأ للعين واحب . ان الاعجان داعي الافتتان . ان التّوّق اصل الشَنَق . لا تفكن الا ويزيله التبهكن . التهيم ادعى للتهييم والتتيّم

المفاضنة دليل المحاضنة . غلائل الصيف امضى من السيف . لافرار بعدّ الافترار . لا عاصم بعد كشف المعاصم . توهج الطيب . اشوق للحبيب . رب ابتسامة جلبت غرامة . العين غزّالة . والقامة فتّالة . الحسن معبود . والدينار منقود . الدينار فكّاك الازرار . من اكثر من الصله نال ما امله البضع لذي الدنيا والدنيا لذي البضع . من ذاق عرف ومن غازل هرف . الى الملهى الى الملهى . فبادر ثمّ لا تله . وعللها بكاس ثم عما شئت فاسألها .

والحاصل ان الفرق بين عنوان جمال الفرنساويات وجمال الانكليزيات هو ان الاول من قبيل التداوي من الشيء بضده . والثاني من قبيل التداوي منه بجنسه . وذلك ان العنوان الاول هو ناطق عن الونى والفتور والترهل والتربخ والاسترسال والاسترخاء والاسترخاخ والاسترخاف والرشرشة والنشنشة والانخرار والثملطة والثلمطة والختت والهنبتة واللوثة والهلاث والابثجاج والطرشحة والامرخداد والترترة والتختر والفيشوشة والتسمّة والخراعة واللخع والطريقة والرهوكة والثرطلة والغدن والانثطاء المستدعية لنقائضها من الاشتداد والتصلّب والاتمرار والتأتّب والتقسّح والتقسّب والتوتر والتعلّب والتعرّد والتعلّد والانزاز والتأدّد والعصّ والاستعزاز والتأيّد والكأن والاتكاع والتكلد . وجمال اولئك عنوان على هذه الصفات المستدعية لنظائرها وكلاهما في المرأة حسن . ومن ذلك انهن يرين التقليد في الحب والزيّ معرّة فكل واحدة منهن تجتهد في فنّها حتى تصير قدوة لغيرها . اما في الزي فمنهن من تقبّب صدرها بقدر ما تقبّب نساء الانكليز بتائلهن . ومنهن من تتخذ لها قبّتين من قبل ومن دبر . حتى تكون اذا مشت عائقة اساتها ومواجهها . وكشف الساق لابراز الحماة ونظافة الجوارب مطرد لهنّ . فاما في الحبّ فمنهن من تريد على صفات المدقم الصفة التي ذكرها ابو نواس في الهمزية . ومنهن من يوثر التجضّم الكري أو الامتلاج القنبي . واكثر الناس حرصاً على هذا الشيوخ المحنكون . فامصاصهم وتبظيرهم ليس من السب في شيء . ومنهن من تجمع بين اللذتين الخرنوفية والفنقورية ولها سعران .

ومنهن من تزيد على ذلك ما أراد الشيخ جمال الدين ابن نباتة من شوص الفرخ وله ثلاثة اسمار . ومنهن من تزيد عليه الشوص بالاخمصين وله اربعة . ومنهن من تمكن من قفط النَوْدلين وثغر ما بينهما مجردا . ومنهن من تضيفـــه الى اللذتين المذكورتين مع شوص الفرخ بانامل واخامص وهو اغلى ما يكون . ومنهن من تتفاحل وتتقمّد على اخرى مثلها . وهــذا النوع عزيز لا يراه الا الموسرون . ومنهن من تتعاطى الحرفة التترسية وهو قرع الترس بالترس .

ومن اغرب ما يكون أن بعض شيوخ الفرنساوية الذين يشب فكرهم وتخيلهم لهرم اجسامهم ووهن حركتهم يوثرون على جميع الانواع المذكورة التلمُّـــظ بالعذرة وذلك بان يتضجع أحدهم وهو عريان ويامر من تستوي فوقه وتمــلا فمه . ومنهم من يستغني عنه بشرب الزغرب من مشخبه زُغلة زُغله أو بمص القنب . وقد يجتمع رجال بواحدة فيقيمونها بـــين ايديهم عريانة ويقعد لدى قبلها ودبرها اثنان . ويأخذ آخر في صب الشراب من فوق صدرها وظهرها. فيبادر إليه الرجلان فاغرين افواههما ويشربانه عند مروره على السَّمَّين والنساء المثريات المغتلمات يستعملن رجالاً يقودون اليهن كل من رأوه ابتع من الرجال ولا سيما مناهل الريف . فيدخلون عليهنفي بعض الديار وهن متبرقعات كيلا يُعرَفن ثم يأجرنهم على ذلك . وفي الجمله فان كل ما يخطر ببال النحرير من أمور الفسق يراه الانسان في باريس بعينه بالعَيْن .

واعلم ان اهل باريس قد اصطلحوا على أمور في المعـــاش والنساء تميزوا بها عمن سواهم . اما في امر المعاش فان من يأكل منهم في المطاعم الشائعة فانه يشارط صاحب المحل أو بالحري صاحبته على ان يعطيها في الشهر قدراً معلوماً ويأكل عندها شيئاً معلوماً . فتعطيه تذاكر توذن بعدد المرات فيدفع ثمنها ثم يعيدها عليها فيودّي عن كل غداء أو عشاء تذكرة . فيتوفر عليه في ذلك ربع المصروف . وقس عليه الحمامات والملاهي وما أشبهها . فأما أمر النساء فان أصحاب البيع والشراء لما كانوا قـــد اتخذوا لادارة اشغالهم نساء حساناً كما سبقت الاشارة اليه ، فاذا خرجن في الليـــل بعد انقضاء اشغالهن

ترصدتهن الرجـــال ودعوهن الى مواضع الاكل والقهوة والرقص واللعب . فتذهب كل واحدة مع من تحب . فمتى رافقته الى احد هذه المواضع علم ان حقه عليها صار ضربة لازب . فاما ان يستوفيه منها تلـــك الليلة فقط أو يوافقها على اعادة الوصل في كل اسبوع مثلاً مرتين او ثلاثا وان يعطيهـــا في آخر الشهر اجرة معلومة . وما بقي لها من الساعات فانهـــا توجره لآخرين باجرة معيّنة . فترى للواحدة منهن عدة عشاق تواصلهم في اوقات مختلفة من الليل والنهار . ومع ذلك فلا تزال تلقب بُدمُوازل وهي كلمـــة تطلق على الابكار على وجه التعظيم . ومعناها سيدة غير ذات بعل. ومنهم من يتصدى لمعرفة هؤلاء البنات من المراقص . فيعمد الرجل الى بنت ويدعوها للرقص. فاذا اعجبته واعجبها دعاها للشراب في موضع مخصوص في المرقص وعقـد عليها عقد الزيارة الشهري . ومن عامل واحدة منهن مشاهرة لم ينفق عليهـا نصف ما ينفقه لو قضاها على كل مرة على حدتها وللنساء رخصة في باريس ان يدخلن جميع المراقص العمومية من دون ان يدفعن شيئاً اجتذاباً للرجـــال بكثرتهن . ولكن عليهن ان يرقصن معهم اذا استرقصوهنّ . الا اذا اعتذرن لهم بعذر يقبلونه كأنْ تقول المدعوة مثلاً قد دعاني آخر من قبلك فلا بد لي من ان ارقص معه أو نحو ذلك . ثم لا حرج ايضاً على من اكترى في منزل بيتاً مفروشاً كان او غير مفروش ان تزوره صاحبتـــه في مسكنه . سواء كانت من النوع الذي ذكرناه اعني من النساء اللائي بمنزلة بين الحرائر والزواني أو من غيره . وان تبيت عنده على علم من الجـيران والسكان . فان منزلة هذا عند منزلة أهل باريس كمنزلة المتزوج . ولا فرق عند اهـل باريس بين امرأة متزوجة لها سبعة بنين وسبع بنات تربيهم في تقوى الله وطاعة الملك وبين قحيبة تبيع عرضها لكل ابن سبيل وتتفنشخ لكل مجتاز في الطريق كما تقول التوراة .

وهناك اسباب اخرى كثيرة للفساد في الديار . وذلك انه لما كانت جميع الاشغال في باريس تديرها النساء وكان منهن غسالات وخدامات لهن يأخذن

ثياب السكان وخياطات وفرّاشات وبياعات للمأكول والمشروب والملبوس ، امكن للرجل ان يصاحب واحدة منهن فتأتيه مياومة اذا شاء بحجة انها تقضيه شيئاً او تبيع له حاجة او ملايلة او مشاهرة او مساوعة او محاينة وذلك ممنوع في لندرة . بل ربما صاحب الرجل امرأة من نفس الدار التي يسكنها . لان ديار هذه المدينة العامرة لما كانت تشتمل على عدة طبقات وكان أصغرها يحوي في الاقل عشرين نفساً ما بين رجال ونساء . امكن الرجل ان يعاشر احدى جاراته . بل المتزوجون المقيمون في هذه الديار لا يأمنون على نسائهم وبناتهم لان الرجل اذا خرج من بيته وخالفه فيه جاره الى زوجته مئة مرة في اليوم لم يمكنه ان يعلم ذلك لقرب ما بين المسكنين . ولهذا كان اهل باريس اقلّ غيرة على نسائهم من جميع الناس . لانهم ربوا على هذا ولا مناص لهم منه . ولا يمكنهم ان يربوا اطفالهم عندهم خوفاً من تضجر الجيران منهم . وانما يبعثونهم الى الريف من اول اسبوع ميلادهم فيربون في احجار المراضع وهي عادة حميدة من جهة ان الاطفال يتقوّون هناك بطيب الهواء . وهناك سبب آخر وهو ان المُطفل بترشيحها ولدها وتربيته تخسر من نفع حرفتها أكثر مما تعطيه للظئر لان نساء باريس يباشرن جميع الحرف ولا يرين في التكسب عاراً باي وجه كان . وهنّ في البيع والشراء اشط من الرجال ومن تكن جميلة تتقاضَ على النظر الى جمالها شيئاً زائداً على الثمن . ثم ان حالة الرجال مع النساء على المنوال الذي ذكرناه تعد عند هؤلاء الناس من المصالح المهمّة المرتّبة المطردة . بمعنى انه ليس من دار الا ّ ويحصل فيها وصال بين الرجال والنساء مع مراعاة حرمة كل من الزائر والمزور . ومع عدم الاخلال بالوقت الموقوت لكيلا يحصل تعطيل للمزور في شغله . ومع مجانبة ما يسوء الجيران من لغط وعربدة .ولا تكاد ترى في باريس كلها فقيرة او مومسة تطوف في الليل وهي سكرى كما ترى في لندرة . وندر وجود احداهنّ في متأخر الليل . وقلّ من آذت زائرها او قاصدها .

وهناك فرق آخر بين نساء الفرنسيس والانكليز من جهة الخُلق لاالخَلق

فالظاهر من نساء الانكليز في الغالب الكِبر والأنَفَة والصلف . والظاهر من نساء الفرنسيس اللين والبشاشة . الا ان نساء الانكليز لا يتدللن على الرجال ولا يجشّمنهم الترف والتحف والولائم والملاهي والمنازه والفرج . فأكلة من الكباب وكرعة من المزر تكفيان في استجلاب رضاهن . وليس عندهن من الروم والمحال . والخلب والاختتال . والدها والنكر والاحتيال ما عند نساء باريس .فاما ان تحب احداهن مثلا شخصاً وترضى معه بالكثير والقليل واما ان تصرمه . فاما نساء باريس فمهما يظهر منهن من الملاينة والمباغمة ، والملاطفة والملاءمة . فاذا عاشرت واحدة منهن وشعرتَ بانك ارتبقت في هواها ورُقبت تبغنجت عليك وتدللت . وتصلّفت وتمحّلت . واوهمتك ان مجرد كلامها معك منّة . . وان ارضاءها والخضوع لها سنة . وان كثيراً في عشقها متيمون ناحلون . هائمون ناسمون . حتى تستقل عليها كل كثير من الصلات والهدايا فتقبل منك ما تقبل وانت لها من الشاكرين . واذا دعوتها لوليمة فلا بد من اروائها من الرحيق المختوم . وتوحيمها بافخر المطعوم . فتلتهم ما تلتهم وتشتفّ ما تشتف وهي متشبعة متعففة . متمنعة متظرفة . فاذا ضحكت حسبت ان ليس لضحكها من نظير . واذا مشت ودت لو كان خطوها على الديباج والحرير . حتى ان هذا التصلّف ايضاً صفة ملازمة للمتزوجات . فان المرأة المتزوجة في باريس تغرّم زوجها على كسوتها فقط ما ينفقه المتزوج من الانكليز على جميع اهله . فدأب الرجل في باريس وهمه وشغله ارضاء زوجته وهيهات ان ترضى وما احسن ما قيل في هذا المعنى :

لا يعجب الزوج الا ان تكون بمن   تحب محفوفة أولا فاعنات
وكيف يرضى امرء يحمي حقيقته   بالقِرن والقَرن افتوا ايها النات

وقال

وداخلة الانسان تفسد كلها   اذا اصبحت زوج له أم خارجه
ويخرج عنه الحلم لو قيل مرة   له هي في البيت الفلاني والِجه

ولهذا يقال في المثل السائر عند الفرنساوية أن باريس نعيم النساء ومطهر الرجال وجحيم الخيل . ولما كانت حالة الرجال مع النساء هكذا كان ثلاثة ارباع سكان باريس مسافحين . ونصف الربع الاخر متزوجين زواجاً شرعياً والباقي منقطعون عن النكاح . كذا اخبرني من يوثق بكلامه . ثم ان المومسة من الانكليز تعرف نفسها انها غير حرة وتعرف ايضاً ان الناس يعرفونهـــا كذلك.فلا تكلفهم احترامها . ولا تسومهم اعظامها.فاما البغي من الفرنسيس فعندها ان مجرد استبضاعها للبضع يؤهلها لان يكرمها الناس ويداروها . ويجلوها ويسانوها . وذلك لعدم استغنائهم عنها . وجرّهم النفع منها . وقد تقدم ان الفرنساوية لا يفرقون بين الحرة والبغي وبقي هنا ان نقول انهم اشد الناس شبقاً الى البعال . واقرمهم الى السفاح . وناهيك انهم في الفتنة الكبيرة التي حدثت في سنة ١٧٩٣ اقاموا امرأة عريانة على مذبح احـدى الكنائس وسجدوا لها . فصوّر لخاطرك ايها القارىء كيف تكون الرجال والنساء في هذه المدينة في ليالي الشتاء البارد الطويلة وكم من ملهى يغص بهم وبهن وكم من مآب . وكم من مائدة تميد لهم بالطعام والشراب.وكم من سرر تهتزّ . ومضاجع تأزّ . واجناب تلزّ . واوطاب تمزّ . واوتار تنزّ . انشدني الفارياق لنفسه في وصف باريس واجازني روايته :

وفي باريس لذات كما في جنان الخلد حير وحور عين
ولكن شأنهن دوام طمث لكل اربعون من القرين

وقال في الراقصات

لله در الراقصات لنـــا على نغم المثاني حيث تجلى الكوب
لو كان يوماً وطؤهن عليّ لم تثقل لديّ من الزمان خطوب

وقال في رامج

ذي البارزية طلعتهـــا كالصبح بهـــا قلبي مغرم
في الليل اريـــد تحيتها فاقول لها بُن جُورْ مادم

قال وكما أن الغريب المسكين ينشرح صدره وينجلي بصره بمشاهدة تلكم الحكاكات للاعتاب في لندرة على الصفة التي تقدم ذكرها . كذلك تقرّ عينه برؤية امثالهن في باريس طائفات في الشوارع والاسواق من دون غطـــاء على رؤسهن ولا ساتر لخصورهن وما يليها . بخلاف عادة النساء في لندرة فانهن لا يخرجن الا ملتحفات . قال وعندي ان هاتين الخلتين وهمـــا حك الاعتاب والخروج من دون التحاف هما السبب في قلة وجود العميان في هاتين المدينتين السعيدتين . وقلما ترى في رجالها احول او ازور او احوص او اخوص او ارمص او اكمس او أعشى او اخفش او اعفش او اعمش او اعبش او اغمش او ارمش او املش او ذادوش او مـــدش او طخش او غطش او غفش او طَـفَـنْـشـْاً او غطمّشاً او مغطرشاً . او مطغمشاً او مطرفشاً او مطفرفشاً او مطنفشاً او مدنفشاً او مدنقشاً . فعلى كل من كان في بلادنا اعمش ذا عين ان يقصد هذه البلاد ليجلو بصره بهذه المناظر الانيقة . وليستصحب معـــه أيضاً لهذه الجلاء جلاء اي لقباً ينبي عن شرف وسيادة . فان القوم يعظمون هذه الزنمة ولا يرون للانسان فضلا بغيرها . وعلى فرض تحرّجه من الانتحال والتزوير فان غناه يكسبه اياها من عندهم . لانه متى كان غنيـــاً وجعل دأبه ان يتردد على مواضع اللهو والحظ لم يلبث ان يتعرف بزمرة من الكبراء السعداء وان يزورهم في مغانيهم. و ح ٍ يسمونه بسمة شرف تشريفاً لهوتشرّفاً به اذ لا يزورهم الا الشريفـمثلهم. فاما حرصالنساء على هذه الزنمة وخصوصاً نساء الانكليز فهو اوسع من ان يحصر في هذا الكتاب .

١٨

في شكاة وشكوى

ثم رام الفارياق ان يستأجر شقة دار يسكنها هو واهله فرأوا عدةاماكن لم تخل من عيوب . وكانت الفارياقية في خلال ذلك تتمعص من ارتقاء الدرج فان بعضها كان يشتمل على مئة وعشرين درجة فاكثر . حتى اذا تبوأوا محلاً وجدوا موقده رديئاً . فلم يمض على ذلك ايام حتى طفقت تشكو وتقول :

يا للعجب كيف تنخدع الناس احياناً بشيء وتنوه به دون تحقق معرفة حاله . ومتى يستقر ببالهم وجوده على حال من الاحوال يعد تغيير وهمهم عنه محالا . حتى ان تغيير الوهم من الخاطر يكون اصعب من تغيير اليقين . لان من تيقّن شيئاً فانما يتيقنه عن علم. ومن طبع العالم ان ينظر دائماً في الحقائق واضدادها ولا يزال باحثاً عن الصحيح والاصح . فاما الوهم فلا يدخل الا رأس الجاهل. ومتى دخل فلا يكاد يخرج منه. مثال ذلك وَهْم الناس ان مدينة باريس هي اجمل مدينة في الدنيا. مع اني رأيت فيها من العيوب ما لم اره في غيرها. انظر الى طرقها والى ما يجري فيها من الدم والنجاسة ومن المياه المتنوعة الالوان . فمن بين اخضر كماء الطحلب واصفر كماء الكركم واسود كماء الفحم . ويتلاحق بها جميع اقذار المطابخ والمرافق. ورائحتها ولا سيما في الصيف اشد اذى من رؤيتها . فهلا جعل لها مثاعب تحت الارض أو أبيات تنفذ منها الى نهر او غيره كما في لندن . وانظر الى مبلّط هذه الطرق حيث تجري المراكب والعجلات . فانك ترى حجارته قد اختلت وتباعد بعضها عن بعض حتى عاد سير العجلات عليها كطلوع عقبة او درج فهي لا تزال تهتز وتضطرب. وسبب ذلك ان البلاط هنا يفرش فرشاً غير مرصوص ولا منضم بعضه الى

بعض فاذا اتت عليه سنون زاد تباعداً وتخلخلاً . فأما في لندن فانه يرض بعضه الى بعض قائماً فتسير عليه العجلات سيراً سريعاً سهلاً بلا قرقعة ولا اضطراب . وانظر ايضاً الى برازيق الطرق هنا اي حيث تمشي الناس . فما اضيقها واقذرها واقل جدواها . ففي كثير من الحارات لا يمكن لاثنين ان يمشيا معاً على حافة واحدة منها . بل هي لا توجد رأساً في كثير من الطرق أو توجد غير كاملة من الاول الى الآخر فتراها قد تعطلت في موضع واختلّت في آخر . وانظر الى هذه الانوار القليلة في الاسواق والى فوانيسها البارزة من الحيطان والى بعد المسافة ما بينها . فقد يمشي الانسان في أكثر الطرق من فانوس الى آخر اكثر من مئة وعشرين خطوة . وانظر الى صغر هذه الحوانيت وقلة أنوارها وبؤس اهلها وشحّهم . فقلما تجد عند احدهم ناراً . مع ان هذا الشهر هو من أبرد الشهور . وتأمل هذه الديار وعلو طبقاتها وكثرة درجها ووسخها وفساد ترتيب مرافقها ومراحيضها. فقد تجد في الدار الواحدة عدة مراحيض بجانب المساكن وعدّة مصاب للماء والاقذار . وناهيك ما يخرج منها صباحاً من الروائح الخبيثة . ومع كون هذه المراحيض قذرة نجسة خالية عن لوالب الماء فليس لها مزاليج من داخل ليأمن الانسان في حال خلوته من انبعاق احد عليه . فكثيراً ما يدمق عليه دامق ولما يكن اتى على آخر ما عنده فيلحقه بالبدغ والامذَر أو الماصِع أو الجازم أو الراطم المزرَم[1] وقد سألت عن سبب ذلك فقيل لي ان صاحب الدار اذا كان متورعاً يتحرّج من وضع المزاليج خيفة ان يدخل بعض الساكنين والساكنات معاً ويتحصنوا بها . ومن اقذر ما يرى في حيطانها آثار اصابع مختلفة فكأن الفرنساوية يستطيبون الاستطابة باصابعهم . وحين ينظفونها ليلاً تخرج رائحتها الخبيثة وتنتشر في الحارة كلها ، فلا يمكن للانسان ان يبيت الا مسدود المنخرين . ثم ان هذه الديار ما عدا كونها تشتمل على ست طبقات فاكثر . وعن ذلك وعن فساد التبليط يسمع لمرور العجلات قرقعة زائدة كما لا يخفى. وما عدا كونها تحوي سكاناً كثيرين

(١) البدغ الخاري في ثيابه ونحوه الامدر ومصع بسلحه على عقبيه اذا سبقه من فرق أو عجله وجزم بسلحه اخرج بعضه وبقي بعضه ورطم السلح حبسه وازرمه قطع عليه بوله .

ما بين فاجر وفاجرة ومستهتر ومستهترة . فان كثيراً من مساكنها لا يصلح للسكنى لخلوه من النور والهواء . ولا يكاد الانسان يستريح في محل منها . فانه اما ان يجده قريباً من المرحاض . او يجد موقده رديئاً . او يجد فيه فاراً او جرذاناً . أو يجد جاره ذا صخب ووقاحة يغنّي النهار والليل أو يعزف بآلة طرب . او يخلو بالمومسات على هرج ومرج وقرقرة وكركرة . وان من داخلها ما يضحك ويبكي . فالمضحك ما يرى من الخلل في هندمة الابواب والشبابيك وفرش المبلّط بالآجُرّ واتصال بعض المساكن ببعض . والمبكي رؤية هذه المواقد فانها مبنية على شبه القبور وذلك اول ما يخطر ببال الداخل الى مسكنه . فهي جديرة والحالة هذه بأن تكون صوامع للرهبان المتبتلين لا مضاجع للناس المتزوجين . واغرب من ذلك ان ابواب الديار لا تزال مفتوحة . وان البوابين يتعاطون الحرف والصنائع في كنّ لهم يلزمونه ليلاً ونهاراً . فمنهم من يشتغل بالخياطة ومنهم بحذو النعال ونقلها أو غير ذلك . بحيث ان كل انسان يمكنه ارتقاء الدرج بلا مانع. وقل ان يبصر البواب من كنه احداً لان عينيه ابداً ملازمتان للابرة او الاشفي . ولذلك كانت دواعي الفساد في باريس اكثر منها في لندن.وما يرى هنا من الديار البهية والطرق الواسعة الحسنة فانما هو حديث عهد.فكيف كان لباريس شهرة في الزمن القديم وديارها العتيقة وطرقها العهيدة مما ينبو عنه الطرف وتقذره النفس فاين هذا من شوارع لندن الرحيبة الوضيئة ومن دكاكينها الواسعة الظريفة المزجّجة باحسن الزجاج وانفسه . ومن ديارها النظيفة المهندمة . قال فقلت ومن حكّاكات اعتابها . فقالت ومن اعتاب حكّاكاتها . ثم استمرّت تقول ومن مساكنها الانيقة ومن درجاتها الحسنة التي لا تزال مكسوة بالزرابي الفاخرة . أيم الله ان صعود خمسين درجة منها لاهون عليّ من صعود عشر درجات هنا . واين تلك المواقد البهية المصفّحة بالحديد اللمّاع المجلو في صباح كل يوم . وتلك الشبابيك والطيقان المحكمة التزجيج . واين تلك المطابخ التي لا يزال فيها نور الغاز متوقداً والماء الساخن عتيداً للسكان .وكم فيها من وصائف خُرَّد يتمنى اعظم المخدومين عندنا ان يكون لاحداهن خادماً او طبّاخاً .

قلت بل لاجاً . قالت او لاحساً .

الا واين حسن نهر تامس ومـــا فيه من سفن النار التي تسير الى ضواحي لدن في الصيف وفيها آلات الطرب . فتراها ملآنة بالرجال والنساء والاولاد فكانما هي رياض مزينة بالازهار . واين تلك الحدائق الكثير وجودها في كل جهة في المدينة وهي التي يسمونها ترابيع . ومن يسكن في غرفة مطلة عليها يخيل له انه مريف .فاذا مشى بعض خطوات ورآها رأى الناس وازدحامهم اقبالا وادبارا . ثم اين تلك الانوار المتوقدة في كل من الطرق والدكاكين بحيث انــك اذ كنت في اول الشارع وسرحت نظرك الى آخره ادهشك حسنهـــا وازدهارها . وظننت أنها نسق كواكب قد نظمت في سلك واحد وانما يمدح باريس من لم يكن قد رأى لندن او من رآها بعض ايام ولم يعرف لسان اهلها . ثم اين ملاطفة مكريات المساكن ورفقهــن بالنازل عندهن غريباً كان او لا . فان الغريب اذا تبوأ منزلاً عندهن يصبح وقد صار واحداً من اهــل البيت . لان كلاً من صاحبة المنزل ومن الخادمة ومـا ادراك ما الخادمة . تلاطفه وتؤانسه وتقوم بخـــدمته وتطبخ له وتشتري له ما شاء من السوق . وتطلع اليه كل يوم بالماء السخن وتضرم له النار وتمسح نعـاله . لعمري ان النازل عندهن يمكنه ان يتعلم اللغة الانكليزية بمحاورته معهن في اقصر مدة. فاما في باريس فان النازل في احد هذه المساكن قد يموت في ليلته ولا يعلم بــه احد . فان بينه وبين البواب بعداً باعداً . وفي اكثر المساكن هنا لا يجـــد الانسان جرساً ليطنّه فيتحرك له البواب . ثـــم اين استقامة تجار لندن وصدقهم في البيع والشراء وتودّدهم الى الشاري واناتهم معــه من تجار باريس الذين لو قدروا على سلخ جلد المشتري ولاسيا اذا كان غريباً لما تأخروا .وانهم قد حاكوا تجار لندن في وضعهم بطاقة الثمن على البياعات . ولكن هيهات . فان من سعر حاجة بمئة فرنك مثلا يبيعها بثمانين . وقـــد يضعون في وجوه الحوانيت اصنافاً من البضاعة مسعرة فاذا اردت ان تشتري شيئاً من ذلــك الصنف جاءك بصنف دونه في الجودة . وحلف لك انه من عين ذلك الراموز

ولا يزال بك مبربراً ومثرثراً وحالفاً وحانثاً حتى تشتريه حياء او خصما للنزاع.وغير مرة يعطون الشاري فلوساً او دراهم زائفة . فاما باعة المأكولات والمشروبات فانهم اكثر غشاً وشططاً في هذه المدينة من سائر الناس . ولهم في الوزن لباقة لم أرها عند غيرهم . وذلك ان من باعك شيئاً موزونا يطرحه في كفة الميزان بعجلة وهوج كالغضبان من رؤية سحنتك او على الميزان.واول ما تميل به الكفة يرفعه بلباقة ويسلمه لك. ولو ارسلت اليه خادمك او ابنك لباعه نفاية ما عنده وكان على السنَّجة اشد غضباً . هذا ما عدا غشهم المأكول والمشروب وتغييرهم الاسعار بتغيير الاوقات والاحوال . وهذه اللباقة معروفة ايضاً عند باعة الاصناف كيْلاً وذَرْعاً .

فأما ما يقال في مواضع التنزه والحظ في باريس وذلك كحديقة قصر الملك وما يليها فلعمري ان من رأى حدائق كريمون وفكس هال ورُجفيل التي في ضواحي لندن ماعدا Cremorne Gardens, Vauxhall Rosherville حدائق كثيرة في حاراتها فلا يطاوعه لسانه بعدها على ذكر غيرها . نعم ان حديقة القصر هنا حسنة على صغرها لكونها في قلب البلد وتلك منحازة عن الوسط . ولكن آه من قلب هذا البلد . كم من فاسدين وفاسدات تجمع هذه الحديقه في كل يوم فهي عبارة عن حابور . لأن النساء ينتبنها ليتصيّدن منها الرجال . اذ تجلس المرأة على كرسي بجنب رجل ممن اعجبها وهي لا تعرفه . ويكون بيده كتاب يطالعه وبيدها منديل تخيطه او نحو ذلك . فيطفق هو يقرأ في الكتاب كلمة وينظر اليها نظرة وهي كذلك تملّ ملة وتهجل هجلة فلا يقومان الا وهما متعاشقان . حتى اذا كان اليوم القابل تبدّل كل منهما مقامه وعشقه . أما الجمال فليس من مناسبة بين جمال نساء باريس ونساء لندن فالذأبة او الخَفُوت هناك تعد هنا عَبْهرا [١] ولعزة الجمال هنا صار عزيزا فان الشيء متى عزّعزّ فكان كلف الناس به اكثر وتنافسهم فيه اشد . ومن اعجب العجب عندي ان

(١) الخفوت المرأة تستحسن وحدها لا بين النساء .

الجميلة الرائعة في لندن تطوف باخلاق من الثياب .والدميمة الشوهاء في باريس ترفل بالحرير والكشميري فاما مواضع الرقص فانها في لندن تفتح كل ليلة وفي باريس ثلاث مرات في الجمعة لا غير . وفي اكثر شوارع لندن تسمع الغناء من جواري حسان وآلات الطرب ليلا ونهاراً من دون غرامة ولا كلفة. وليس كذلك في باريس الا ما ندر .

وغاية ما يقال في التنويه بباريس وفي تفضيلها ان فيها مواضع للشراب والقهوة ظريفة يجلس داخلها وخارجها الرجال والنساء متقابلين ومتدابرين . فهل لمجرد القعود على كرسي يحكم لها بالفضل وتشهر عند الخاصة والعامة من اعصر متعددة بانها اجمل مدينة في العالم. ثم اين حشمة فتيان الانكليز وتأدبهم مع النساء سواء كانوا في البيوت والشوارع من فتيان الفرنساوية هؤلاء الهصاهيص الذين يهصهصون ويهصصون [1] في وجوه النساء حرائر كن او بغايا . ومتى ينظروا امرأة مكبّة لربط شراك نعلها يطيفوا بها فيصيروا لحلقتها حلقة ولحِتارها حتارا . ولا سيما حين يأتون الى هذه المناصع ويبدون فيها منادفهم – قال فقلت استمري في الحديث وقولي ما شئت بحيث لا تقفين على المنادف . قالت اتغار علي ايضا من الوقوف بالكلام . وانما وقفت بُهْرا من هذه الدنيا المبنية على النادفية والمندوفية . لا جرم لو اني كنت في مقام ملك او امير لما اكلت ممّا مسّته ايدي الرجال شيئاً .

وبينا هما في الكلام اذا برجل يطرق الباب ففتح له الفارياق وهو مستعيذ من دخوله على ذكر المنادف . واذا به يقول . قد سمعت بقدومك فاتيتك رغبة في ان اقرأ عليك في العربية شيئاً واعطيك في مقابلة ذلك خمسة عشر افرنكا في الشهر . فلما سمعت الفارياقية اغربت في الضحك على عادتها وقالت لزوجها . دونك اوّل دليل على كرم اصحابنا هؤلاء الذين طبّل بذكرهم العالَم وزمّر . فقال له الفارياق ما اريد منك مالاً وانما تبادلني الدرس في لغتك عن لغتي . فرضي بذلك . ثم زاره احد علماء باريس بعد

---

(١) الهصهاص البراق العينين وهصهصه غمزة .

ايام وقال له قد بلغني قدومك وانك مُوْلَع بالنظم . فلو نظمت ابياتا على باريس وذكرت ما فيها من المحاسن لقام ذلك عند اهلها مقام توصية بك . لان الناس هنا يحبّون الاطراء والتمليق اي يحبون أن الدخيل فيهم يطرّيهم بالاطراء . واذا كانوا هم دخلاء في غير بلادهم اطرأوا على حكام تلك البلاد ونالوا عندهم الوجاهة والمكانة. فأجابه الفارياق الى ذلك ونظم قصيدة طويلة في مدح باريس وأهلها سمّاها الهرفيةلانه مدحهم مجازفة من قبل ان يعرفهم. وستأتي مع نقيضتها الحرفية ومع نبذة مما نظمه بباريس في الفصل العشرين . فلما وقف العالم المومأ اليه على معانيها استحسنها جدا وترجمها الىلغته. وتوصل في ان طبع الترجمة في احدى الصحف الاخبارية وجاء بنسخة منها الى الفارياق وهو يقول . قد طبعت ترجمة قصيدتك في هذه الصحيفة وقدوعدتني جمعية العلم الآسياوية (نسبة لاسيا) بان تطبع الاصل العربي في صحفهم العلمية. لكونك اول شاعر مدح باريس باللغة العربية.فشكره الفارياق على ذلك وقال له اني اريد نسخة من هذه الترجمة. قال انها في مكان كذا بنحو ثلثيافرنك فسار واشترى نسخة .

ثم قدم عليه بعد ايام بعض من قرأ تلك الصحيفة وهو يقول . قد قرأت ترجمة قصيدتك واعجبتني . فهل لك فيان تبادلني الدرس؟قال هو كما اريد . فاستمرّ يتردد عليه اياماً في خلالها عرّفه بالعالم المشهور مسيو كترمير Quatremère وهذا العالم عرّفه بمدرّس اللغة العربية مسيو كسّان دُبرسُفال Caussin De Perceval ثم تعرف ايضاً بالمدرّس الثاني مسيو رينو Reineaud ولكن كانت معرفته بهم كاداة التعريف في قولك اذهب الى السوق واشترِ اللحم . ثم زاره ايضاً احد الاعيان الذين يتقدم اسماءهم اداة دُ وهي علامة النبالة والشرف وهو مسيو دُ بوفورت De Beaufort وكان له اخت في دارها مدرسة تعلم فيها بعض بنات الكبراء . فلما حان وقت امتحانهن في العلم صنعت مأدبة في بعض الليالي وأدبت اليها الفارياقية وزوجها . فقال الفارياق لزوجته . هاكِ مثالاً على كرم القوم فقد مضى عليك مدة وانت تشكين من

الوحدة ومن بخل من تعرّفت بهم وتقولين انهم لم يأدبوك قط. وقد كان يأدبك في بلاد الانكليز من كان يعرفك ومن لم يعرفك ، حتى انك كثيراً مــا كنت تتضجرين من ذلك . لما انه كان يلزمك له تغيير زيك ووقت غذائك وحرمانك من الدخان . فابشري الان ان اصحابنا بالخير قمينون حريون . قلت كل منهم قمين حريّ. ثم سهرا تلك الليلة عند اخت «الدّ» الموما اليه على احسن حال واصفى بال . فرجعت الفارياقية الى منزلها بقلب آخر وهي تقول . نعم لقد تفضل بوفورت واحسن كل الاحسان . وقد رأيت من نساء الفرنساوية من البشاشة والطلاقة ما لم اكن اصدقه . نعم ويعجبني منهن هــذه الغنة والخنة التي تكثر في كلامهن وهذا هو الذي جعل اللغة الفرنساوية فيما اظن مستحبة. وهي من الاولاد اشجى واطرب . فقلت الظاهر ان العرب ايضاً تحب هــذه الخنخنة . فقد قال سيدي صاحب القاموس نَخِم وتنخّم دفــع بشيء من صدره او انفه . ونَخَم لعب وغنى اجود الغناء . فضحكت وقالت اظن صاحبك كان يهوى مخنخنة واني اشفق من انك لا تلبث ان تسري اليــك عدْواه . سلمت بان الغنّة بل اللثغة بل اللدغة تستحب من الغلمان والجواري. ولكن هل يطيق فتى ان يسمع عجوزاً خفخافه تخنخن عليه في انفه . وهل تطيق شابة نُخنّة شيخ هرم في خياشمها .

نعم ويعجبني من العامة في باريس انهم لا يسخرون من الغريب اذا رأوه مخالفاً لهم في زيه واطواره بخلاف سفلة لندن فانهم يسلقونه بالكلام. بل ربما تكلف الواحد منهم ان يناديه من مكان بعيد حتى يبح وما ذلــك الا ليقول له انك يا غريب دموي ملعون . ولعلي في ذلك مخطئة . قال فقلت بــل مصيبة فان جميع الناس يثنون على ادب الفعلة وسائر العامــة في باريس وعلى حسن كلامهم . لبثا مدة وهما يقابلان محاسن باريس بمحاسن لندن . فمما كرهت الفارياقية في باريس غاية الكراهة هو ان النساء يرخّص لهن في دخول الديار مهما يكن من تخالف انواعها . وزعمت ان ترتيب الديار في لندن بهــذا الاعتبار احسن . فقال لها الفارياق لا ينكر ان ديار لنــدن احسن ترتيباً

باعتبار ان درجها قليل وان سكانها قليلون ملازمون للسكون . وان اعتابها تحك في كل يوم . وانفي مطابخها ربلات قدية وان داخلهـــا مهندم مفروش بالبسط الجيدة الا انها بلون النار . فاما ديار باريس فانهـا ابقى على الاحوال ومنظرها في الخارج ازهى . فاما مع المومسات عن دخول تلك وترخيصهن في دخول هذه فهو في ظني دليل على اتصــاف المومسات في باريس بالادب . بخلاف مومسات لندرة فانهن يتهتكن في الشرب والومس . ولذلك منعن من الدخول الى السكان . وهناك سبب آخر وهو ان بغــايا باريس معروفات في ديوان البوليس واسماؤهن مقيَّدة فيه . فلا يتجرأن على التفاحش والتهتك وان كن فواحش . فاما بغايا لندره فقد ُخلـّين وطباعهن .

ثم مضت مدة على الفارياقية وهي تقاسي من الخفقان الما مبرّحاً . فكان يلازمها اياماً متوالية ثم يخف عنها . وفي خلال ذلك ادبت مرة اخرى عنـد اخت «الدّ» فسارت مع زوجها وهما متعجبان من هذا التكرم الذي لم يجدا له في باريس نظيراً . ثم اشتد بالفارياقية المرض ولزمت الفراش فاحضر لهـــا طبيبين من النمساوية فعالجاها مدة حتى افاقت قليلا . وكانت اخت الدّ قد تزوجت برجل اسمه Ledos فلما جاء اخوها ذات يوم الى الفارياق على عادته وجد الفارياقية تئن وتشكو من بلوغ الالم منها. فقال لزوجها لو استوصفت صهري دواء لزوجتك فانه خبير بخصائص النبات وقد ابرأ كثيرين من هذا الداء . فسار اليـــه الفارياق وسأله ان يأتي معه ليرى زوجته . فقال له اني غير مرخص لي من الديوان في مداواة المرضى ولكني لا آبي ان آتي معك رجاء ان يحصـل شفا امرأتك على يدي . ثم اتى ووصف للفارياقيــة ان تشرب ماء بعض اعشاب تغلـَى وبعث لها من ذلك بستة قراطيس . فلما فرغت وطلب الفارياق غيرها جاءت اخت الدّ اعني زوجة المتطبب تقول . ان زوجي يتقاضـــاكم خمسين افرنكاً ثمن القراطيس . فلما سمعت الفارياقية ذلك تراجع اليها نشاطها وبادرتها اجمع وقالت لها . اما تستحيين ان تطلبي هـــذا المبلغ على ستة قراطيس من العشب وزوجك ليس بطبيب . فقال لها زوجهـــا ولكن اذكري ان المرأة

ادبتنا الى شرب القهوة والشاي مرتين وقد تخللناهما باشياء من الحلواء والكعك فلا ينبغي مقابحتها . ثم بعد جدال طويل ونزاع وبيل رضيت اخت الدّ بأن تأخذ نصف المبلغ المذكور فاقبضها اياه الفارياق فولت وهي مدمدمة وانقطع اخوها عن الزيارة . ومن هؤلاء المتطببين من اذا رأى غريباً بش في وجهه واحتفى به ودعاه الى منزله وواصل زيارته الى ان يراه يشكو من سعال او غيره فيصف له دواء . ثم يتقاضاه غرامة رابية على كل زيارة جرت بينهما من أول تعارفهما . ويأتي بجيرة المحل شهودا على الرجل في انه كثير التردد على منزله وادعى ان مرضه كان مزمناً . وحامل لواء هـذه الزمرة اللئيمة هو دلكس D'Alex المتطبب المقيم في لندرة في Berner's Street, No 61 Oxford Street ثم رجع الطبيب النمساوي الى مداواة الفارياقية فلما نقهت اشار عليها بالسفر من باريس فاستقر الرأي على تسفيرها الى مرسيلية. فقالت لزوجها قد طاب الآن لي السير من ارض ما فيها خير . هؤلاء معارفك الذين اتيتهم بكتب توصية من لندن والذين تعرفت بهم بعد ذلك هنا بوسيلة علمك لم يدعك احد منهم الى الجلوس على كرسي في بيته . وهذا لامرتين الذي ابلغته كتاب توصية من الشيخ مرعي الدحداح في مرسيلية كتبت اليه تسأله عن امر فلم يجبك ، مع انك لو كتبت الى الصدر الاعظم في دولة الانكليز لاجابك لا محالة سواء بالسلب او الايجاب . وهذا المتطبب صهر الدّ غرّمنا على ستة قراطيس خمسة وعشرين افرنكاً مع ان هذا الطبيب النمساوي وصاحبه قد عالجني مدة وعنيا بي ولم يتقاضياك شيئا . وكذلك تفعل اطباء لندن جزاهم الله خيرا . افكل الناس يكرمون الغريب ويرفقون به الا اهل باريس . لقد كنت اسمع انه يوجد في الدنيا جيل ملاذون وملاّثون ملاّقون ولاّذون ولثيّون محّاحون مُرامقون ذَمَلَّقيّون مماذقون غَمَلَّجيّون مبذخون مطرطرون مطرمذون خَيْتَعوريون مُبهلقون مُرامقون مذّاعون طَرِفون خَيْدعيون قَشِعون مِقْطاعيّون اَعفكيّون مِجْذاميّون جُذامِريّون كمُوصيّون هَمَلَّعيون مَنبجيّون تِلِمّاظيّون بَذلاخيّون وما كنت ادري اي جيل هم .

فالان اغنى الخُبْر عن الخَبَر . وتحققت ان هذه الصفات التي كنت استكثرها ان هي الا ّ بعض ما يقال في اهل هذه المدينة . فان مودتهم يقطينية اي تنبت سريعاً كاليقطين ولا تلبث ان تذوي . ومواعيدهم عرقوبية طالما وعدوا فاخلفوا . ومنّوا فازهفوا . وحالفوا فحنثوا . وعاهدوا فنكثوا يبشّون بالمغترّ بهم ويهشون . ثم هو ان لازمهم ملوه . وان غاب عنهم نسوه. وما ينجزه غيرهم بنعم ولا فهم يرتبكون فيه اياماً وليالي يبدأونه باساطير طويلة . ويختمونه بتهاتر وبيلة. فاما بخلهم على غير المراقص فيضرب به المثل. وناهيك ان نارهم في الشتاء كنار الحباحب . ولو انهم اوقدوا ناراً كنار الانكليز لرأيت جوّهم اكثر دُجُنّة ودُكنة من جوّ اولئك . وانهم في الصيف لا يستسرجون وما عندهم غير هذين الفصلين من فصول السنة . فاما برد عارم واما غتّم ملازم . الا وان احدهم لينزل الافرنك اجرة من يعمل له منزلة الدينار عند الانكليز . على ان بلدهم اغلى اسعاراً من لندن في لوازم المعيشة او مثلها . ارأيت انكليزيا يعمل حسابه بالفلس كما يعمل اهل باريس حسابهم بالصنتيم ؟ بل ان كثيراً من الانكليز لا يعلمون كم في صلديّهم من فلس . نعم وان احدهم (أي اهل باريس) ليكتب اليك مكتوبا في شأن مصلحة تقضيها له ولا يدفع جُعله . ولقد يضحكني من فخرهم انهم يأكلون ابشع المأكول ولا تزال امعاؤهم ملأى من شحم الخنزير . ثم هم اذا خرجوا الى المحافل والمثابات بالغوا في التفخل والرّفلان غاية ما يمكن وان كثيراً منهم يغلقون في الصيف كواهم وشبابيكهم ولا يفتحونها ابداً . يوهمون الناس انهم قد ساروا الى بعض منازه الريف ليصيفوا فيه كما تفعل كبراؤهم. وان كثيراً منهم ليتقوتون بالخبز والجبن نهاراً ليبدوا في الملاهي والملاعب ليلاً . وان اشرافهم وذوي الدّ منهم يأكلون مرتين في اليوم ويفطرون على محار البحر . والناس كلهم يأكلون ثلاث مرات والانكليز اربع مرات .

ولكن معاذ الله ان تكون الفرنساوية كلهم كاهل باريس . والا فياخُسْر ما ضاع الثناء عليهم كما ضاع ماء الورد في غسل مرحاض .

فاما نساء باريس المضروب بادبهن وظرافتهن المثل فلعمري انهن جُخْر مجخرات [1] واكثرهن لا يستوغلن ولا يتلجمن ولا يعتركن ولا يشمذن ولا يستنجين ولا يتخذن الفِرام ولا المعابىء ولا الفِراص ولا الثَمَل ولا الجدائل ولا المماحي ولا الربذ . وليس لهن من نظافة الا على ما ظهر منهن من نحو قميص ومنديل وجورب. ولذلك تراهنّ ابدا يكشفن عن سيقانهن وهن ماشيات في الاسواق صيفا وشتاء. بدعوى رفع اذيالهن عن ان تمس النجاسة في الارض. فمن تكن منهن سوقاء افتخرت بساقها وبجوربها معا ومن تكن نَقْواء افتخرت بالثاني. وليس في نساء الارض كلها اكثر منهن تيها وعجبا وزهوا وإرْبا وتعنفصا اخداعا ومجابة وغطرفة وتبغنجا. سواء كن قباحا أو ملاحا. طوالا او قصارا وهو الغالب فيهن. عجائز او صبايا. حرائر او بغايا. ذوات لحىّ وشوارب او نقيات الخد . مذكرات الطلعة والسحنة أولا . على أني لم أرَ في جميع النساء تذكيراً الا في نساء باريس وارلندة غيران هؤلاء لسن مزهوّات مغانيج كالباريسيّات وانما الذي صيّرهن الى ذلك هو شدة شبق الرجال عليهن . وقرمهم اليهن . فترى الفرهد الغساني مخاصراً لسعلاة منهن ومتذللا ومطيعاً لها . فلقد اصاب الذين يتزوجون منهم في بلادنا الجواري السود تخلصاً من اسرهنّ وسرفهن . وقد رأيت عامتهن لطّاعات اي يمصصن اصابعهن بعد الاكل ويلحسن ما عليها . فاما ذوات الشرف فانهن يغسلن ايديهن في فنجانة على المائدة بحضرة المدعوين ويتمضمضن بالماء ثم يقذفنه فيها. فهل ذلك يعد من الظرافة والادب. اليس فعلهن هذا افظع من التجشىء عندنا . وانما يمدح محاسنهن ويهيم بهن من الفت عينه النظر اليهن بعد مدة . وهب ان نساء باريس ظريفات كيّسات

---

(١) الجخر محركة رائحة مكروهة في قبل المرأة وهي جخراء واجخر غسل دبره ولم ينق فبقي نتنه واستوغل غسل مغابنه واللجام ما تشده الحائض وقد تلجمت واعتركت احتشت بخرقة وشمذت المرأة فرجها حشته بخرقة خشية خروج رحمها والفرام دوا تتضيق به والمعبأة خرقة الحائض والفراص جمع فرصة وهي خرقة او قطنة تتمسح بها المرأة من الحيض ونحوها الثمل جمع ثملة والربذ والجدائل جمع جديلة وهي شبه اتبا من أدم تأتزر به الحيض والمماحي جمع ممحاة وهي خرقة يزال بها المني ونحوه .

ولكن ما شأن هؤلاء النساء اللائي يقذمن من السواد والبراغيـــل والراذانات والرساتيق والمذارع والدساكر والفلاليج . فمنهن من تغطي رأسها بمنديـــل فلا يبين منه الا شعيرات من عند فوديهـــا . ومنهن من تلبس طرطورا من القماش على رأسها . حتى ان اهل باريس لا يتمالكون ان يضحكوا حين يرون واحدة من هؤلاء الباديات . واقبح من ذلك لهجتهن . وفي باريس كثـير من النساء يكنسن الطرق ويتعاطين اعمال الرجال . وفي بولون وكالي ودياب وهافر وغيرها من الفرض تجد النساء يحملن اثقال المسافرين على ظهورهن ورؤسهن . وليس في بلاد الانكليز كلهـا من حمالات الا لاصحاب الاثقال . وزيهن كلهن سواء . فكيف يزعم الفرنساويون انهم جميعاً متمدنون . ولعمري لو كانت النساء في بلادنا يخرجن في الاسواق سوافر ويبدين قوامهن وخصورهن وسوقهن كنساء باريس ، لما تركن لهن ان يذكرن معهن بالجمال والظرافة اصلاً . الى مصر الى مصر بلاد الحظ والأرَب . الى الشام الى الشام ، معان الفضل والادب . الى تونس نعم الدار فيها اكرم العرب . كفاني من الافرنج ما قد لقيته وعندي ان اليوم في قربهم عام . ألا دعني اسافر من بلاد اسقمت بدني بمأكلهـــا ومشربها وبرد هوائها العفن . فقال لها الفارياق ان كنت تطيقين السفر فشأنك . فقالت لموتي في الطريق إلي اشهى من التخليد في دار اللئام . فمن ثم تأهبت له . غير انه حصل لها في غد ذلك اليوم من الضعف والالم ما منعها عن الحركة . وتفصيل ذلك يأتي في الفصل التالي :

١٩

في سرقة مطرانية ووقائع مختلفة

لمّا نُكبت نصارى حلب وجرى عليهم من نهب المـــال وهتك العرض ما جرى ، اجتمعت رؤساؤهم في الدّين وارتأوا ان يبعثوا من طرفهم وكلاء الى بلاد الافرنج ليجمعوا لهم من دولها وكنائسها ومن اهلها الخيرين مدداً يقوم باودهم. فاختارت الكنيسة الرومية الارثوذكسية الخواجا فتح الله مرّاش واختارت الكنيسة الرومية الملكية المطران اتناسيوس التتونجي مؤلف كتاب الحكاكة في الركاكة. ورجلاً آخر معه يقال له الخواجا شكري عبود. فاقبلوا يجولون في البلاد حتى انتهوا الى مملكـة اوستريا فجمعوا منها مبلغاً . وكان معهم منشور من مطراني الكنيستين المذكورتين في حلب يؤذن بوكالتهم من الطـائفتين في هذه المصلحة . فلمـا فرغوا من بلاد النمسا قدم الخواجا فتح الله المزبور ورفيقه الخواجا شكري عبود الى باريس ومعهما ذلك المنشور . وبقي المطران هناك على عزم ان يجتمع بهما في بلاد الانكليز . وانما لم يقدم معهما الى فرنسا مع انه هو وكيل الكنيسة الملكيّة وهي على مذهب الكنيسة الفرنساوية . لما انـه كان سابقـاً ارتكب فيها من اساءة الادب وتعدّى طور امثاله ما اوجب حبسه ثم طرده منها مدحوراً . فخشي والحالة هذه ان يشهر امره هذه المرة فيها فيحيق به سوء عمله . فلما ابرز رفيقاه منشور الوصاة لمطران باريس والتمسا منـــه المعونة عجب من رؤيته اسم المطران التتونجي مذكوراً فيه دون رؤية سحنته . فقال لهما ما بال وكيل الكنيسة الملكية لم يحضر معكما . فاعتذرا عن غيابه باعذار لم يقبلها منهما المشار اليه . وتذكر ما كان فعله التتونجي من قبل فردّهما خائبين . وكان الخواجا فتح الله

مراش ورفيقه يترددان على الفارياق مدة مكثها في باريس . لكن تردد الأول اكثر . وانما انس به الفارياق مع علمه بانه رفيق التتونجي لكونه رآه منذوي المعارف والدراية ما عدا كونه متزوجاً وله عيال . وقلّ من كان على مثل ذي الحال وانطوى على غش وَدخل . لان العلم بلطف العقل والعيال ترقق القلب . ثم ارتبك المطران في رُطْمه في بلد من بلاد اوستريا وهو فيما اظن بولونيا . ففصل منه على نكظ وخزيٍ وسار الى بلاد الانكليز مجتديا . ويومئذ ارسل الى رفيقيه المذكورين ان يلحقا به . فما مضت بعد سفرهما أيام قليلة حتى ورد الى الفارياق كتاب من كاتب اللجنة (اي جمعية اخوية) وفي ضمنه كراسة من كتاب كان قد عربه الفارياق من كتب العجم وفيها ما يسوء اللجنة . فايقن حينئذ بان احد رفيقي المطران عند ترددهما عليه سرقها من مخدعه باشارة المطران . وانه لما اجتمع به في لندن سلمها له فاهداها المطران الى اللجنة طمعاً في ايصال الضرر من جانبهم الى الفارياق . غير ان اللجنة المذكورة لما كانت منطوية على اخلاق كريمة ردّت الكراسة على الفارياق . اذ لم يكن لهم بحفظها من مصلحة . وكان ورود الكراسة يوم عزمت الفارياقية على السفر . فبلغ منها الغيظ والحزن كل مبلغ حتى لزمت الفراش . فاما المطران فانه تصدّى له في لندرة بعض رؤساء الكنيسة البابا وية ومنعوه من تعاطي الحرفة الساسانية . حتى ان شنعته وشهرته هناك عطّلت ايضاً على غيره ممن كان يجتديهم لمصلحة من مصالح الكنيسة . فحسبوا كل قادم اليهم من بلاد الشرق منافقاً .

أما الفارياقية فانها نقهت بعد ايام وصممت على السفر فكتب لها زوجها كتاب توصية الى المولى المعظم سامي باشا المفخم في مدينة القسطنطينية . ثم شيّعها وسفر معها اصغر اولاده تسلية لها . ولما حان الفراق تواعدا وتباكيا وتواجدا حتى اذا لم تَعُدِ العين تجيبها بالدمع وهي العَسْقفة والعَسْقبة والتغبيض رجع الى منزله مستوحشاً مكتئباً . وسافرت هي الى مرسيلية فزال ما كان بها وشفيت اتم الشفاء . لكنها لم تغير نيتها عن السفر الى

أسلامبول . ثقة بأن هذا الفراق يكون سبباً في وشك اللقاء . فلما بلغت مقام المولى المشار اليه وادت كتاب التوصية لولده النجيب الحسيب صبحي بيك اذ كان والده حينئذ غائباً ، اكرم مثواها واحسن اليها غاية الاحسان . وهذا مثال آخر على الكرم الشرقيّ ينبغي ان يبلّغ مسامع الامراء الغربيين من الافرنج . وفي غضون ذلك نظم الفارياق للمومى اليه قصيدة يمدحه بها على كرمه ومعروفه . ولزوجته ابياتاً اودعا ذكر ما لقي من وحشة النوى وستأتي كلها في الفصل التالي الذي هو خاتمة هذا الكتاب . ثم انتقل من منزله ذاك الى غرفة وجعل دأبه في كل يوم نظم بيتين على بابها . ثم بلغه قدوم السيد الاكرم الامير عبد القادر الى باريس فأهداه ايضاً قصيدة وتشرف بمجلسه . ثم عيل صبره من الوحدة فاستماله بعض معارفه الى اللعب بهذه الاوراق المزوقة فصار من زمرة المقامرين . لكن جهله بها كان غير مرة يبعث شريكه على العربدة عليه . فكان يرضى بان يكون حرضة فقط . (الحرضة امين المقامرين) ثم تعرف برئيس تراجم الدولة وهو الكونت ديكرانج فاما غيره من التراجمين وشيوخ العلم ومدرسي اللغات الشرقية فلم يطأ لهم عتبة . لانهم نفسوا عليه بمائهم وبضيحهم وبودهم وكلامهم ولقائهم حتى انهم ابوا ان يطبعوا له قصيدته التي مدح بها باريس بعد ان وعدوا بذلك. وما كان خُلْفهم إلا حسداً ولؤماً.

٢٠

في نبذة مما نظمه الفارياق من القصائد والابيات في باريس على ما سبقت الاشارة اليه

اي فارياق ، قد حان الفراق . فان ذا آخر فصل من كتابي الذي اودعته من اخبارك ما أملـّني والقارئين معي . ولو كنت علمت من قبل الاخذ فيه بأنك تكلفني ان ابلغ عنك جميع اقوالك وافعالك لما ادخلت رأسي في هذه الربقة . وتجشمت هذه المشقة . فقد كنت اظن ان صغر جثتك لا يكون موجباً لانشاء تأليف كبير الحجم مثل هذا . واقسم انك لو تأبطته ومشيت به خُطـّى على قدر صفحاته لنبذته ورآك وشكوت منه ومن نفسك ايضاً اذ كنت انت السبب فيه . وما تمنعني صداقتي لك اذا وقفت على احوالك بعد الآن ان اؤلف عليك كتاباً آخر . ولكن اياك وكثرة الاسفار ، والتحرش بالقسيسين والنساء في الليل والنهار . فقد مللت من ذكر ذلك جداً . ولقيت منه عناء وجهداً . والآن قد بقي عليّ ان اروي عنك بعض قصائدك وابياتك . ولكن قبل الشروع فيه ينبغي ان اذكر حكاية حالي .

وهي اني لما كنت في هذه السنة بمدينة لندرة وشاعت اراجيف الحرب بين الدولة العلية ودولة روسية نظمت قصيدة في مدح مولانا المعظم وسلطاننا المفخم السلطان عبد المجيد ادام الله نصره وخلد مجده وفخره وقدمتها لجناب سفيره المكرم الامير موسورس فبعث بها الى جناب فخر الوزراء سيدي رشيد باشا بلغه الله ما شاء فلم تمض ايام حتى بعث المشار اليه الى الامير السفير يخبره

بأنه قدّم القصيدة للحضرة السلطانية في وقت رضى وقبول ووقعت لديهـــا موقعاً حسناً . وانه صدر الامر العالي بتوظيفي في ديوان الترجمة السلطاني . فكان هذا الخبر عندي اسرّ مـا طرق مسمعي . فينبغي لي الآن ان اتأهب للسفر لاتشرف بهذه الوظيفة . ولكن اعلم ايها القارىء العزيز انه لما كان همي وقصارى مرامي كله انجاز طبع هذا الكتاب قبل سفري الى القسطنطينية وكان مكثي في لندرة موجباً لتأخيره . لان اجزاءه المطبوعة كانت ترسل اليّ فيها لاصححهـــا آخر مرة من قبل الطبع . اشار اليّ الخواجا رافائيل كحلا الذي وَلِي طبع الكتاب بنفقته ان اسافر الى باريس تعجيلاً لطبعـــه فاجبت الى ذلك . وكان وقتئذ في مرسى لندرة سفينة نار للدولة العلية يراد تسفيرها بعد مدة . فالتمست من صاحبي الخواجا نينه الذي قدم مع الخواجا ميخائيل مخلع في مصلحة متجريه بان يراقب وقت سفر السفينة ويخبرني بذلك لئلا تفوتني فرصـــة السفر معها . وكان للخواجا نينه المذكور بعض حاجات ومآرب في باريس جُلها يختص بامرأته فوكّل بشرائها بعض معارفه هناك . حتى اذا اشتراها له اوعز اليه في ان يسلمها لي وكتب اليّ كتاباً يقول فيـه ان السفينة لا تلبث ان تسافر فالاولى سرعة رجوعك الى لندرة . فصدقت قوله واقبلت اسعى الى لنـــدرة وانا موجس ان تكون السفينة قد سافرت دوني . وتركت التصليح على عهدة الخواجا رافائيل المومأ اليه . فلما وصلت الى لندره تبيّن لي ان نصح صاحبي لم يكن مقصوداً بهحاجة حضوري ولكن احضار حاجته معي ليتوفر عليه بذلك جُعلها ومكسها ولتتزيّن بها زوجته قبل انقضاء اوانها . فان السفينة بقيت في المرسى مدة طويلة لتصليح آلاتها على علم من ناصحي . فكان قدومي الى لندرة هذه المرّة الثانية سبباً في تأخير الطبع ايضاً لاجل لزوم ارسال الصحائف اليّ لانظرها قبل الطبع كما سبقت الاشارة اليه . ولولا ذلك لنجز الكتاب سريعاً . غير اني احمد الله تعالى على انه لم يعرض له من الامور النسائية الا ما اوجب تأخير طبعه فقط دون ابطاله ونسخه بالكلية . فقد طالما اشفقت عليه من ذلك كما ان الفارياق يشفق على فساد ترجمته من امثال هذه العوارض . وهذه القضية مصداق على مـــا

قالته الفارياقية في الفصل التاسع من الكتاب الرابع من انه قد يجتمع اثنان في زواج او شركة او غير ذلك ويكون قد تقرر في بال احدهما ان له منة على صاحبه . فمتى وردت على سمعك يا صاحبي نصيحة من احد فانشر طيّها واسبر غورها لتعلم هل الغرض منها نفعك خاصة او نفع ناصحك وحده او نفعكما معاً . ولكن لا تبتدىء بنصيحتي هذه فاني لم اقصد بها الا مجردنفعك فقط . واعلم يا فارياق انه قبل تشرّف قصائدك وابياتك بادماجها في هذا الكتاب يجب عليّ ان اشرّفه والقارئين ايضاً بالقصيدة المشار اليها وهي :

الحق يعـــلو والصلاح يعمّرُ ... والزور يمحق والفساد يـــدمّرُ
والبغي مصرعه ذميم لم يزل ... آتيه عرضة كل سوء يثبر
والوغـــد تبطره من النعم التي ... يغنى بها الحرّ الكريم ويشكر
طغت الطغاة الروس لما غرّهم ... في الارض كثر سوادهم وتجبّروا
كادوا ويرجع كيدهم في نحرهم ... فطُلاهم دون القواضب ينحر
المعتدون ولا نُهى تنهـــاهم ... الظالمون القاسطون الفجّر
نقضوا العهود وكان ذلك دأبهم ... لؤماً وللعدوان بغيا اضمروا
حتى رأى بعضَ المآثر رأسُهم ... بخس الحقوق وساء مَن يستأثر
ايظن أن الدولة العُليا السويـــد ... وانّه هـــو بطرس المتأخّر
كلاّ لَيرتدعنْ ثـــمّ لَيعلمنّ ... أن ربّها من يبتغيها يثأر
يا مسلمون تثبّتوا ان جاءكم ... نبأ عن الروس العِدى وتبصّروا
لا يغررنّـــكم كثير جموعهـــم ... فالحق ليس يضيره المستكثر
يا مؤمنون هو الجهاد فبادروا ... متطوعين اليـــه حتى تؤجروا
هذا جهاد الله يحمي عرضكم ... فاسخوا عليه بكل علق يُدخَر
في لَنْ تنالوا البِرّ حتى تُنفِقوا ... مِمّـــا تُحِبّون الدليل الاظهر
وتمسّكوا بالعروة الوثقى من الصـــبر الجميل على القتال وذمّروا
يغنيـــكم التكبير والتهليل عن ... ان تعملوا فيهم سلاحا يبتر
فالقومُ بهما كفاحـــا تظفروا ... وعليهم صولوا وطولوا وانفروا

وأغزوهمُ بحراً وبراً واحشدوا ركبا وفرساناً ونسرَهمُ انسروا
لو لم يكن منكم سوى نفر لما غُلبوا فكيف بكم وانتم اكثر
من كل َفتّاك اذا اعترضت له يوماً شعوبٌ بل شَعوبُ يُدمّر
انتم عباد الله حقا فاعبَدوا للدّين فهو بكم يعزّ ويجبر
واحموا حقيقتكم فحفظ ذماركم فرض عليكم ليس عنه تأخر
غاروا على الاسلام حتى ترفعوا اعلامه فلكم به ان تفخروا
لا تُسمع الاجراس في اوطانكم بدل النداء ولا ينجّسْ منبر
وليُسمعنّ اليوم في ارجائكم قرع القوانس بالظُبَى او تحدروا
فَلَذاك اشجى من غناء مطرّب بسامع القوم الذين به ضَرُوا
لكن يد الله القوية معكمُ توليكم أيْداً فلن تتقهقروا
ما ان يقاويكم بهم من عسكر لو ان ملءَ الارض طرّاً عسكر
قد قال في الذكر المفصّل ربكم حقا علينا نصرهم فتذكروا
ما الله مخلف وعده لعباده ان هم بعصمته اتقوا واستنصروا
قد كان مولاكم وها هو لم يزل وَزَراً لكم ايّانَ كنتم تخفر
ولربما شرعوا الرماح عليكم لكن على انفاذها لن يقدروا
لن يعمل البتّار الا ان يشا الله ما شيء سواه مؤثر
والنار منهم ان يُرد اطفاءها برد فلا تلظى ولا تتسعّر
واذا يشاء يثلّ عرشهم فلن يستقدموا عنه ولن يستأخروا
غاروا على حُرَم مخدّرة لكم قد طالما أُحْصِنّ عمن يعهر
ايقودهن اليوم علج فاجر وسيوفكم بدمائهم لا تقطر
ولئن يكن نجسا ورجسا مَسُّها فبخوضها قد حلّ ان تتطهروا
الصبر محمود ولكن حين تنتهك المحارم لا أرى ان تصبروا
لا خير في عيش يقارف ذلّة حاشاكم ان تفشلوا او تدبروا
شهد الاله بانه مولاكم ونصيركم فبحمده فاستظهروا
والله قد وعد المجاهد منكم فتحاً مبينا في الكتاب فأبشروا
ويبوّىء الشهداء خير مبوّإ جنات عدن ملكها لا يغبر

الحرب بينكم سجال فاثبتوا والنصر عقبى امركم فاستبشروا
في اهل بدر عبرة لكم ألا يا قوم فليتذكر المتذكر
أبلُوا ليرضى ربكم عنكم فمن أبلى فعند اللائمة يُعذَر
كم بين من يأتي القتال تطوعاً ومسخر كرهاً عليه يُجبَر
يقتاده ويسوقه مولىً له فظ زنيم غاشم متغشمر
ويبيعه لو شاء للنخاس مع ولدٍ له وبزوجه يتسرّر
لا عرض يمنعهم ولا كرم لهم يثنيهم في الناس عن ان يفجروا
يتترعون الى الفواحش حيث مع اهل المحامد فاتهم ان يُذكَروا
وكذا الطغام اذا عدَتْهم مدحة ودّوا بأيّة شهرة ان يُشهروا
سعدوا ولكن ربّ سعد ذابح للفائزين به اذا لم يشكروا
ولعل نسرهم المدوّم واقع فمن الهلال علاه ضوء يبهر
لن يفلح العاتون ما عاشوا ولا العاتون ما رغدوا ولن يتيّسروا
أوَ لم يعُوا ما جاءهم عمن طغى من قبلهم بطراً وانى دُمّروا
ام يعجزون الله اذ يُملي لهم عن ان يغار لقومه أن يُنصَروا
او ان يمُدّهمُ بجند لا تُرَى وبمنشئات مُخَّرٍ لا تُبْحِر
لو ان تخرّمهم وهم مرحون في أمْن رخيّو البال ريح صرصَر
او يرسل الطير الابابيل التي قد اهلكت امثالهم لاكثروا
ما كان عبّاد البعيم ليغلبوا قوماً على ايّاك نعبد يُحشر
من كان يُرضي الله خالص سعيه في الناس فهو بكل خير يجدر
من لم يصخ اذنا لنصح وليّه ركب الضلال ولم يُفِدْه المنذر
من ابطرته نعمة المولى عتا عَسْفا وغشمرة يمين ويغدر
من لم تكن تغنيه قسمة رزقه فاذا اشرأبّ الى الزيادة يخسر
من يتكل سفهاً على جند له دون الاله يَحقُ به ما يحذر
من ظن ان يقوى بقوة باسه وسلاحه وذويه فهو مغرّر
من غالب القهّار عاد مخيّسا مستضعفا وَكِلا يُذَلّ ويقهر
من سرّه في يومه كفرانه وافاه في غده العذاب الاكبر

من كان يوماً راغباً في عاجل … عن آجل أودى به ما يؤثر
من كان من بين الورى سلطانه … عبد المجيد فانه لمظفر
سلطاننا الاسمى الذي سعدت به … ايامنا وزهت فدته الاعصر
نشر العدالة في البلاد فكلنا … مستأمن في ظله مستبشر
ولكل جيل في ممالكه يد … منه وآلاء تعم وتغمر
ما ان عداهم عدله وامانه … سيان ان هم اعسروا او ايسروا
انا اذا اتخذ العدى طاغوتهم … ربا لنأتمر الذي هو يأمر
لسنا نروم بغير طاعته الى … الرحمن من زلفى ولا نتخير
كلا ولا في غير خدمتنا له … عِرْض واخلاص لنا وتبرر
كفر المبايع غيره والمعتدى … بغيا وطغيانا عليه اكفر
من ذا يحاكيه علىً ومناقبا … ومن الذي فَضْلى حلاه ينكر
لو انه اقترح الوجود تحكما … ما زاد فيها غير ما نتنظر
من جوهر الاخلاص صور ذاته … رب قدير كيف شاء يصور
ولاه امر الدين والدنيا معا … فهو الامام الحاكم المتأمر
وهو الذي بين الملوك مقامه … الاعلى يكرم هيبة ويوقر
وهو الذي بين العباد محبب … ومعظم ومبجل ومعزر
يستدفعون الضر فيهم باسمه … وعلى المنابر حمده المتكرر
ان قال لم يستثن مما قاله … احد وان يفعله فهو مخير
ليس الفرنج مشايعي اعدائه … ما هم لهم حزب ولا هم معشر
افمن يكون على هدى من ربه … كغوي استهواه جبت منكر
ام من له الخلق الكريم يقاس م … بالنكد اللئيم جبلة وينظر
ام يستوي في العرف والامكان من … يهب الجزيل ومن يشح ويضمر
ايه امير المؤمنين ومن دعا … ايه امير المؤمنين فقد سرُوا
سُدْ بالمعالي فائقا كل الورى … مجدا وشانئك البغيض الابتر
وَسِعَت عوارفك العميمة سؤلنا … الاقصى وما بالبال منا يخطر
حتى لقد كلت خواطرنا بما … اقترحت وانت منفل لاتضجر

نطق العيي بفرض مدحك مفصحا حتى الجماد يكاد عنه يعبّر
ولقد أضاء الكون مجدك كلّه حتى استوى في ذا العَمِي والمبصر
نظر الطغاة اليك نظرة حاسد فتجرعوا مَضَضاً بها وتحسّروا
ان يجلبوا فالله ماحق جيشهم او يمكروا فلَمكرُ ربك اكبر
ان المحال من المحال اذا جرى بخلاف طيّته وحقّ مقدّر
ما كان جمعهم سوى كسف هَبَت والشمس ليست بالهباء تستر
ليست فرُوق[1] لغير عرشك وهي ما بقيت على الفرقان ليست تقفر
انت الذي بمديح وصفك تنجلي عنا الهموم وافقنا يتعطر
وتصحّ احلام الاماني في غد اللاّهي بها والدهر انكد اعسر
ما ان يفي نظم اللآلىء مدحةً لك باللهى من سحب كفك تنثر
لم يبقَ ما بين الورى من ناطق الاّ وعن آلاء فضلك يخبر
حرس الاله جنابك الاعلى ولا زالت عبادك في حماه تخفر
وادام دولتك العلية ما سرى نجم وما زخرت كجودك ابحر
انشدت تاريخين هجريّين في ختمي مديحك وهو حظي الاوفر
عبد الجيد الله أركى ضده سلطاننا خير مجد ينصر

سنة ١٢٧٠ سنة ١٢٧٠

القصيدة الحرفية في مدح باريس

اذي جنّة في الارض امهي باريس
ملائكة سكّانها ام فرنسيس
وهل حُورعين في منازهها تُرَى
وإلا فكل حين تخطر بلقيس
وهل ذي نجوم ترجم الهمّ في الدُّجى
عن البال ان يخطر به ام نباريس
وهل زَهرة الدنيا ترى في هوادج

القصيدة الحرفية في ذمها

اذي عبْقَر في الارض ام هي باريس
زَبانيةٌ سكّانها ام فرنسيس
وهل ذي نساء في مواحلها ترى
وإلا فكلّ حين تخطر جاموس
وهل ذا شرار يجلب الهمّ في الدجى
الى البال ان نبصر به ام نباريس
وهل زفرة الدنيا ترى في هوادج

---

(١) قسطنطينية

تمرّ كبرق خاطف ام طواويس
نعم انها خُلْد النعيم وشاهدي
رياض وحوض دافق وفراديس
ونهر وعلّيون فيها كواعب
على سرر مرفوعة واعاريس
وفاكهة مع لحم طير ونضرة
وراح وريحان ورَوح وترغيس
واعمدة تحبو السحائب دونها
كان لها فوق السماكين تاسيس
هنيئاً لمن منها تبوّأ منزلا
وطوبى لمن فيها له تاح تعريس
اذا شدة او كربة بك برحت
فحجّ اليها فهي للكرب تنفيس
فتونس منها وهي تونس غبطةً
فبين المقامين اتحاد وتجنيس
وإن تكُ يوماً قانطاً من لُبانة
فرؤيتها اطلاب ما منه ميئوس
بها ما يقر العين من كل اربة
وما تشتهي نفس وما تألف التوس
وفي ذكر ما فيها تلذ لذاذةً
تطيب بها عن غير وهو محسوس
هي المنهل المورود من كل ظامىء
وللزائريها الخير اجمع مبجوس
هي الامن من جور الخطوب فما على
عرير بها ضيم يُحاذر او بؤس
نعم هي من عين الزمان تميمة

تمرّ كعير ظالع ام مطافيس
نعم انها مأوى الجحيم وشاهدي
شقيّون في ساحاتها ومناحيس
وفسق وعلّيون فيها فواجر
على سرر مرصوعة وتناجيس
واكل من الزقّوم يخبث طعمه
وشرب من الغِسْلين يسقيه ابليس
واعمدة تلقي الشياطين عندها
كان لها فوق الخبائث تأسيس
شقاء لمن منها تبوأ منزلا
وتعسا لمن فيها له تاح تعريس
اذا شدة او كربة بك برّحت
بها فانأ عنها فهو للكرب تنفيس
وبرّز عليها ان يفتك مبرّز
فبين المقامين اتحاد وتجنيس
وان تك يوماً طامعاً في لُبانة
فرؤيتها يأس لما هو محدوس
بها ما يسوء العين من كل اربة
وماتجتوي نفس وما تكره التُوس
وفي ذكر ما فيها يسوء اساءة
تفوق على ما خفته وهو محسوس
هي المنهل المسموم حتف لظامىء
وللزائريها الشر اجمع مبجوس
هي الخوف من كل الخطوب فما على
عرير بها الا المخاطر والبوس
نعم هي في عين الزمان قذّى فما

فما امّها ذو عسرة وغدا في سو
فما نعمة فيها تشان بحاسد
ولا صفو لذات يقانيه تسجيس
ولا بخس ذي حقّ من الناس حقه
فيا حسن دار حيث لا حقّ مبخوس
فلا ذأم فيها يستبين لعائب
سوى هادم اللذات ما دونه طوس
عليها بهاء الملك والعز والعُلَى
ومنها سخاء المجد والفخر مقبوس
الى مثلها يُنضي الرشيد مطيَّه
اذا كان يُلفَى مثلها وتجي العيس
هو العيش فاغنم طيبه في ربوعها
فانك فيها ما اقمت لمرغوس
وانك منها لست يوماً بواجد
بديلا ولو امسى وراءك برجيس
وانك فيها ضارب كُرَةَ الاسى
بمحجن بشر ليس يتلوه تعبيس
وانك منها مجتن ثمر المنى
فان بها اصل الفوائد مغروس
اذا رثّ ثوب العمر منك فانّ من
قشيب حظاها ريّق العيش ملبوس
فبِتْ آمناً فيها وقم باكراً الى
مراتع لَهْوٍ لم تشبهُ وساويس
ولا ترغبَن عنها الى غيرها تكن
كمن شاقه بعد السعادة انكيس
فدهرك فيها ما اقمت مسالم

اتاها امرؤٌ الا ومنها غدا في سو
فما نعمة فيها خلت عن محسّد
ولا وطر إلاّ وقاناه تسجيس
وتبخس ذا حق من الناس حقّه
فيا قبحها دارا بها الحق مبخوس
فلا رَوح منها يستبين لناصب
سوى هادم اللذات ما دونه طوس
عليها ظلام الكفر والظلم والخنى
ومنها أوار الفسق والفحش مقبوس
وعن مثلها ينضي الرشيد مطيّه
اذا كان يُلفَى مثلها وتجي العيس
هو العيش فاغنم طيبه في سوائها
فانك فيها ما اقمت لمنحوس
وانك لا تلقى لها من مُشابه
بر جْسٍ ولو أمسى وراءك برجيس
وانك فيها ضارب كرة المنى
بمحجن ياس تلوه الدهر تعبيس
وانك منها مجتن ثمر الاسى
فان بها اصل المحارم مغروس
اذا كان ثوب العزّ عندك معلَما
فمن نغص في عيشها هو مطلوس
فبت صابرا فيها وقم باكراً الى
نعيم سواها لم تشبه وساويس
ولا ترغبن فيها ولو ليلة تكن
كمن شاقه بعد السعادة انكيس
فدهرك في دار سواها مسالم

وقدرك مرفوع وشملك محروس
فآثر بها ليلاً على عام غيرهـا
على فرض ان الليل اذ ذاك ادموس
ولا غرو ان تزداد في العمر حقبة
ففي الصفر للفرد العقيم تخاميس
لقد كنت اخشى الحَين في غير منشأي
فقَدْني بها بشرى اذا انا مرموس
وقد طالما عللت نفسي برغدها
فبتّ ولي احلام خير وتغليس
فالفيتها يربو على الوصف حسنها
فما ثمّ اشباه لها ومقاييس
وفيها من الغرّ الكرام اعزّة
جَحاجح ضرّابون يوم الوغى شوس
لقد فُطروا طبعا على الودّ والوفا
جميعا فما يعروهما عوض تلبيس
لئن سُبقوا سَبْق الوحود فانه
لَيسبقُ جسماً ظله وهو مدعوس
لهم في سماء العلم شمس براعة
وفي الادب الطامي العباب قواميس
فكم فيهم من عالم متقن له
لتطليس آثار المعارف تطريس
اذا اغطشت آفاق امر فانما
يجلّيه لفظ موجز منه مهموس
وكم فيهم من فاضل ذي استقامة
تقيم قوام الدهر اذ هو منكوس
وتمسكه ان لا يجور كأنما

وقدرك مرفوع وشملك محروس
فآثر بها ليلاً على عمر بذي
على فرض ان الليل اذ ذاك ادموس
ولا غرو ان تزداد في العمر حقبة
ففي الصفر للفرد العقيم تخاميس
لقد كنت اخشى الحَين في غير منشأي
فيا شقوتي فيها اذا انا مرموس
وقد طالما حذّرت نفسي فسادها
فبت ولي احلام سوء وكابوس
فالفيتها يربو على الوصف قبحها
فما ثمّ اشباه له ومقاييس
وفيها من القوم اللئام ثعالب
ولكنهم ان يؤدَّبوا اسد شوس
لقد فطروا طبعاً على الغدر والجفا
جميعاً فلا يغررك في ذاك تلبيس
لئن سبَقوا سبق الوجود فانه
ليسبق جسما ظله وهو مدعوس
لهم في بحور الشك خوض وطالما
تغشّتهم منه ضلالا قواميس
فكم فيهم من مدّع صَلِف له
لتطريس آثار المعارف تطليس
اذا ما انجلت آفاق امر فانه
ليخفيه لفظ موجز منه مهموس
وكم فيهم من فاضل من فضوله
اعتدال قوام الدهر احدب منكوس
يحاول لؤماً ان يميل به فلا

تُعدّل في كلتا يديه قساطيس
وربّ خطيب لفظة فوق منبر
يبين ولو بُلنّغتَه وهو معكوس
يشفّ خفي الغيبِ عما يقوله
فيبصره من طرفه بعد مطموس
وكم فيهم من خيّرٍ صالح لـه
انا الليل تسبيح طويل وتقديس
وكم فاتح منهم وما بارح الحمى
كتائبه اقلامه والقراطيس
وكم بينهم من ليث حرب اذا سطا
جريء له فيها احتناك وتضريس
حمام اذا هيجوا حياة اذا اتّقوا
اسود اذا صالوا جبابرة هيس
اذا سمحوا لانوا وان حمِسوا قسَوا
ويَربُون فضلاً ان بغيرهم قيسوا
اولو همّة دانت لها همم الورى
وفخرهم في ذاك كالدهر قدموس
بشاشتهم للضيف خير من القِرَى
وما لقراهم لو تأخّر تبنيس
واكرامهم مثوى الغريب سجية
فيغدوا وقد اقناه اهل وتأنيس
مديحهم يشدو به كل رائح
وغاد ويرويه رئيس ومرؤوس
لقد اكرموا هذا اللسان واهله
فما زال يحظى عندهم وهو مدروس
وقد التّفوا فيه تآليف جمّة

تعدّل في كلتا يديه قساطيس
وربّ عييّ لفظة فوق منبر
يسوء ولو بلّغته وهو معكوس
يشفّ خفيّ العيبِ عما يقوله
فيبصره من طرفه بعدُ مطموس
وكم فيهم من فاسق عاهر لـه
انا الليل تجديف طويل وتنجيس
وكم طامع في الملك منهم سفاهة
كتائبه اقلامه والقراطيس
وكم من طفيليّ لكل وليمة
جريء له فيها احتناك وتضريس
حمام اذا زيّروا حياة اذا اجتدَوا
اسود اذا لاسوا جبابرة هيس
اذا سألوا لانوا وان سُئلوا قسُوا
ويربون شحّا ان بغيرهم قيسوا
اولو جَشَع من دونه جشع الورى
وصيتهم في ذاك كالدهر قدموس
بشاشتهم للضيف في زعمهم قرى
وفي وعدهم مَيْنٌ ومطل وتبنيس
واكرامهم مثوى الغريب سجية
اذا كان ذا زوج وبالزوج تانيس
هجاؤهم يشدو به كل رائح
وغاد ويرويه رئيس ومرؤوس
لقد جهلوا هذا اللسان واهله
فما زال يخفى عنهم وهو مدروس
وقد لفّقوا فيه اساطير جمّة

وجلّت لهم فيه شيوخ وتدريس
يعزّ الفتى بالمال عند سواهم
وعندهم تغنيك عنه الكراريس
فقل للمباريهم تحدّوا لغيرهم
فان مجاراة الجلسّين تهويس
شِعارهم حرّية وأُخوّة
وتسوية كلّ بذلك ناموس
فلا فرق بين الدون والدون في القضا
وإرّيسهم في اليُسر والرّفه ارّيس
ترى كلّ فرد منهم كيّسا له
مشاركة في العلم والفضل ماكيسوا
وان لهم من سيمياء وجوههم
دلائل ان الخير منهم مانوس
وان لهم رزقا كريما رضوا بـه
فما هم مسفتّى ما رب فيه تدنيس
فتحسب كلاّ حلّ صَرْحا ممرّدا
تحيّته فيه سلام وتقليس
فما نظرت عيناي فيهم صاغرا
ولا من عن الخيرات والرشد مرجوس
اراني سعيدا مخبَرا في جوارهم
ومن لم يزر هذا الحمى فهو منحوس
عفوت عن الايام سالف ذنبها
فقد شفعت فيها وفي الناس باريس

وشطّت لهم فيه شيوخ وتدريس
يعزّ الفتى بالعلم عند سواهم
وعندهم ليست تفيد الكراريس
فقل لذوي الدعوى المبارين منهم
لعمري مجاراة الجلسّين تَهويس
شعارهم حرّية واخوّة
وتسوية لكن عدا ذاك ناموس
فلا فرق بين الدون والدون في القضا
وارّيسهم في الامر والنهي ارّيس
ترى كل فرد عاتيا طاغيا له
مشاركة في الحكم مع انهم خيسوا
وان لهم من سيمياء وجوههم
دلائل منهم ان الشرّ مانوس
وان لهم رزقا حراما رضوا به
فشانهم اسفاف ما فيه تدنيس
فتحسب كلاّ حل ماخور ريبة
تحيته فيها سِلام وتلقيس
فما نظرت عيناي فيهم فاضلا
ولا من عن الآثام والرجس مرجوس
اراني كئيبا نادما في جوارهم
ومَن زار يوماً ارضهم فهو منحوس
وجدت على الايام عتبا بعيشها
فقد اخبثته والبريةَ باريس
وقد كنت في مدحي لها قبلُ مخطئا
فهذا له كفارة وهو مركوس

القصيدة التي امتدح بها الجناب المكرم الامير عبد القادر بن محيي الدين المشهور بالعلم والجهاد

مادام شخصك غائباً عن ناظري ... ليس السرور بخاطر في خاطري
يا من على قرب المزار وبعده ... حبّي له والشوق ملء سرائري
ان كنت لي يوماً فديتك وافياً ... ماضرني ان كان غيرك غادري
فاذا رضيت فكلّ سخط هيّن ... واذا وصلت فلم ابالِ بهاجر
واذا بقربك كنت يوماً نافعي ... لم اخشَ شيئاً بعد ذلك ضائري
يا فاتني بدلاله وشماله ... وكماله وجماله ذا الزاهر
عقلي سلبت ومهجتي فارددهما ... لاجيد مدح شمائل لك باهري
وليعلم العذّال اني صادق ... في وصف حسن حلاك وصفة شاعر
يا محرقي شوقاً بفاتر جفنه ... ارأيت قبلي محرقاً بالفاتر
يا بدر تمّ لاع قلبي حبّه ... يا شمس حسن قد تملّك سائري
يا ظبي انس شاق عيني شكله ... لكن له طبع الغزال النافر
هلا رثيت لحالتي ورفقت بي ... ووعدتني عدة ولو في الظاهر
كلّم الحشا مني وعيدك قَسْوة ... قبل الفراق بان تكون معاسري
وفطرت قلبي بالجفا عمداً فلا ... عجب اذا ما قلت انك فاطري
افهكذا فعل الحبيب بحبّه ... ام صرت بعدي عاذلي لاعاذري
لو كنت تدري مالقيت منالنوى ... لرحمتني وودت انك زائري
مذغبت عنك ارتدعن طرفي الكرى ... من بعد ما هدى ارتداد الكافر
وازداد سقمي واستثيرت لوعتي ... وبدا بحبّك ما تكن ضمائري

أنّي وحق هواك غاية مطلبي وسنا محيّاك الصبيح الناضر
من يوم لحتَ لناظري ما لاقنى شيء ولم يملأ جمــال الناظر
ما كان حسن سواك يوما شائقي كلا ولا لحظ لغيرك ساحري
أهوى لأجلك من حكاك بشكله لا شكله اذ ذاك دون النادر
كيف اصطباري اليوم والاجل انقضى وابيت ارضائي بطيف زائري
وبهجتي اني اراه ساعة قبــل الممات معانقي ومسامري
هَبْه اتى فلقد يراني ساهراً والطيف ليس براقد مع ساهري
انسيت عهدي حيث ملت مع الهوى ولقد عهدتك ما ذكرتك ذاكري
اما انا فكما علمت على النوى والقرب صبّ فيــك غير مغاير
شيآن لست اطيق صبراً عنهما ذكري هواك ومدح عبد القادر
هو ذلك الشهم الذي شهدت له كل البرية بالفعال الفاخر
ومناقب محمودة وشمائل مرضية ومحامــد ومآثر
هو ذلك المولى الممدح سعيه عند الاله وعند كل مفاخر
هو ذلك الفرد الذي افعاله أمْدوحة البادي وفخر الحاضر
وهو المهيب لدى الملوك نزاهة والنازح الصيت الكريم الطاهري
من معشر العرب العريق نجا رُهم اهــل المكارم كابرا عن كابر
العاملين بحكم التنزيل في التحريم والتحليــل حزب الحاشر
الناحرين اذا دَعوا واذا دُعوا يا للبراز فنحرهم للناحر
المؤثرين على خصاصتهم وقد نظروا الى الدنيا كشيء غابر
ولَرُب قوم يحسبون خلاقهم فيها وغابرَ لهوهــا كالغابر
ولديهم ردُّ التحية مِنّة كبرى بها احيــاء عظم ناخر
يُحيي الليالي بالدعاء تهجداً فيميت في الاعداء أي جماهر
ويروع افئدة الرجال لقاؤه حتى يخوروا عن نــداء الناصر
في قلب كلّ محنّك من رُعبه ماعنه يحجم كل ليث زائر
وبكل حرف من بليغ كلامه حرف يفلّهم كحرف الباتر

الفضل شيمته وسيمته التقى لله واسترباح اجر الصابر
يولي الندى قبل السؤال وبشره للزائريه مؤذن ببشائر
يغنيهم عن ان يمتّوا عنده بضرورة وَخُتُنهم وأواصر
جهد الزمانَ غلاؤه فكبا ولم يبرح لديه وفيه سورة آفر
ولقد يكون النسر يوماً واقعاً ويعود بعدُ الى مطير الطائر
فالله ينصر من يغار لدينه والله يخذل كل عات فاجر
والله عز يداول الايام ما بين العباد لسابق ولقاصر
سكن الامير وطار في الدنيا اسمه وروى المعالي عنه كل معاصر
فالعجم بين موقر ومبجل والعرب بين مُفاخر ومنافر
يا ناصر الدين العزيز وحزبه يا خير صبّار واعظم شاكر
يا خير ناهٍ عن تعاطي مُنكَر وبخطة المعروف افضل آمر
لا تخش من بأس فربك قاهر بدعائك الميمون جيش الجائر
كن كيف شئت فان اجرك ثابت في اللوح وهو اجل ذخر الذاخر
لك حيث شئت عناية صمدية ترعى حماك ونصر ربّ قادر
فاذا مدنت فانت اعظم خادر واذا ظعنت فانت اكرم سافر

القصيدة التي امتدح بها الجناب المكرم النجيب الحسيب صبحي بيك في اسلامبول

اری الدهر صافاني ومال الى الصلح ... ومن بعد حرماني اتاني بالنُجح

واصغى اليّ الجد حين دعوته ... ولاحت تباشير المنى لي من صُبحي

اتاني على الابحار والبرّ برّه ... باسرع من شكوى احتياجي الى سمح

فلم تكُ الا دعوة فأجابني ... اجابةَ صِنوٍ وهو لي سيدٌ لحّ

ولو لم يُجرني من زماني بفضله ... لاصحت في بؤس وامسيت في برح

وحنت باشجاء التمني فان لي ... لَجَرْحا مُمِضا دونه الم الجرح

فلي في نهار جهد سبح وخرفةٍ ... وفي ليلتي حبس وحُرف عن السبح

اذا كنت لا اشكو اليه فمن عسى ... يكون اليه مشتكى الضرّ والترّح

ومن ذا الذي تلقاه في الناس مسجحاً ... سواه اذا اضطُرّ المضيم الى السجح

خلائق لا يوفي الثناء بوصفها ... ولو كنت حسّان البلاغة والفصح

اغار على اوصافه الغر انهـا ... تشاركها اوصاف آخر في المدح

هداني له جَدّي وقد كنت غاويا ... مع الشعراء البائرين ذوي الكسح

وكان زماني مازحاً فمزحته ... فلما تعاطى الجدّ ملت عن المزح

فصار لشعري رونق وطلاوة ... وحُقّ له الاملاء في ملأ فصح

وقد كان في سوق الاعاجم كاسدا ... مقالي واطرائي عليهم بلا ربح

فكم بتُّ أُنضي خاطري لمديحهم ... فقمت وبي رَنّح واعييت كالطلح

ولم يغن عني ما مدحتهم به ... فتيلا وما ازدادوا سوى البخل والشح

ولم ينقدوا كفارة الكذب الذي ... عليّ باعلى اللوح ما هو بالمَمْحي

ولو أنني راسين[١] عصري فيهم ... وملطن[٢] ما استلثقت منهم سوى النشح
فهـا انا ذو ربح ولست بمفتر ... ثناء واطراء وكنت بها أُلحي
فحل يا زماني بين فوزي ومطلبي ... ان اسطعت واستعد الخطوب على فدحي
فلي باسمه استفتاح كلّ قضية ... وبناه اقليد السعادة والفتح
ألا فليزرني اليوم من كان مزريا ... بشأني يجدكوخي اعزّ من الصرح
علا بمعاليه مقامي ورتبـتي ... وصرت الى اقصى الاماني ذا طمح
اذا ابصرت عيناي من هو مخفق ... كدأبي من قبل انتخلت له نصحي
وقلت له ابشر بمـا انت طالبٌ ... فمن يدع يوماً باسمه فاز بالسنح
هو الماجد النائي مدى الدهر صيته ... قريبٌ من الداعي على القرب والنزح
فليس علي بعد يؤخر رفـده ... وليس على قرب يمل من المنـح
هو الحازم النحرير طلاّع انجد ... كريم نزيه النفس ذو خلق سجح
سليل اجلّ الخلق سامي الذرى الذي ... مناقبه الغرّاء تغني عن الشرح
اميري ومولاي الكريم وسيدي ... ومن هو بعد الله لي سند الرُكح
تظنّيت فيك الخير والفضل كلّه ... فحققت ظني فهو دوني في صح
اتاني وعدٌ عنك انك منزلي ... لديك كما انزلت اهلي في ندح
ولا ريب عندي ان وعدك منجز ... واني لا احتاج معه الى[٣] فسح
فهاك مني المدح خدمة مخلص ... فجد بالرضى عنه فديتك والصفح
ودم كهف عزّ للذليل وملجـأ ... لقاصده ما انجاب ليل من الصبـح

---

(١) اعظم شعراء الفرنساوية

(٢) اعظم شعراء الانكليز

(٣) شبه الجواز يقال فسح له الامير في السفر كتب له الفسح .

وكتب الى الفاضل اللبيب الخوري غبرائيل جباره ارسلها اليه من باريس الى مرسيليه وهو اول شعر مدح به قسيساً

قف بالطلول ان استطعت قليلا واسأل عن الركب المغذّ رحيلا
ساروا وابقوا وحشة لك دونها غصص المنون وحسرة ونحولا
طللٌ عهدت به الخلاعة والصبى وشربت فيه سلسلا مشمولا
وجررت اذيالي وتهت على المنى واقتدت منها ما استعزّ ذليلا
وخلعت من نعم ولذّات على اهل الهوى ما كنت منه ملولا
واحسرتاه متى يعود العيش في عرصاته والذّ فيه مقيلا
لم يبقَ الاّ ذكر افراحي به ومضى كأمس نعيمُه مبتولا
ان غيّرت آثاره الايام او ان عطلت اعلامه تعطيلا
فبخاطري تذكاره متجدد ولقد يظلّ بانسهم مأهولا
من بعد حسادي عليه الريح قد حامت لديه بكرة واصيلا
تبدي الحنين به وأنّه ثاكل فازيد فيه زفرة وعويلا
تسقي تراب فنائه وكأنما تهفو به لتحله الاكليلا
عجباً وقد بلّته مني عبرة ان صار فوق عنانها محمولا
ام قد درت نكب الرياح بانه أولى بان يثوي السماء مقيلا
ام مثل عيني اعين الجوزاء قد رمدت فتستشفي به تكحيلا
ما كدت ادري رسمه لولا شذا عرْف اليه كان منه دليلا
نؤي الحبائب للمحبّ اعز من صرح لديه لا يصيب خليلا
وسويعة مع من تحب اجل من دهر به تلقى اخاك عذولا

قلبي السَّمَنْدل يصطلي نار الهوى   وسلوه العنقاء عز وصولا
لله كم منه يعــذّب عاشق   ولـكم به يمسي البريء قتيلا
لو رقّ من عشقٍ كلامٌ رتّل   القرّاء قولي في الدجى ترتيلا
او لو تداوَى الناس منه بالبكا   لشفيتُ كلَّ شجٍ يبيت عليلا
حاولت قلبالقلب عن علل الهوى   فأجاب انك قد ضللت سبيلا
مني ابتداء الشوق كان وختمه   بي لست عن دابي احول حؤولا
قد قانني المولى عليـه كما على   حب المكارم قان غـبرائيلا
هو ذلك الحبر المهذّب خلقه   وعليه يبـدو خَلقه دلّيلا
الطيّب الاصل الكريم الفعل لن   تلقاه الا مرشداً ومنيلا
يهب الجزيل وعنده كالجزل ما   يحجوه جزلاً غـيره منفولا
المرتدي ثوب العفاف مطرّزاً   بتقّى يقي التحريم والتحليلا
طلق المحيا واللسان طلاقة   تـَدَع الاسى من قيده محلولا
يستدرك الاشكال فصل خطابه   وبعلمـه يستخـرج المجهولا
فلكل ريب قضية ما زال مسئولا   وللراجي ندّى مأمولا
صافي السريرة حيث آي وفائه   لن تقبل التحريف والتبديلا
ما ان يزال اذا دنا واذا نأى   بَرّاً نصوحـا واصلا مسئولا
كانت مشورته هدى وسعادة   للمستشير ونصحـه منخـولا
ودعاؤه في الضرّ اعظم عاصم   لك فاطمئنّ به وكن مكفولا
ليس المنيسخ ببابه قَنِطاً ولا   من يستغيث بجـاهه مخذولا
مولى تحرّى الزهد في الدنيا وقد   دانت له لو شاءهـا تبتيلا
فنجاره ما زال ملجـأً لاجىء   يلقي الامـاني عنده والسولا
جبر الخواطر من جبارة يرتجي   وبفرعه كل الفخـار انيلا
سمح الزمان بقربه لي سبة   ما كان أحلاها وعاد بخيلا
حتى ارى قِصَر الايادي بعده   ومن استطال بفضله مفضولا
ولقد علمت اوانَ كل الطرف مق   صورا عليه ذلك التأويلا
مارست دهري واختبرت صروفه   فـاذا به لا يستفيق غفـولا

هلاّ اتاني سائلاً من قبل ان يقضي الفراق وكان فيه عجولا
هل من ممارٍ ان شخصاً واحداً يحوي الفضائل كلها تكميلا
ام منكر ان ليس يذكر سيدٌ مع ذكره الا وكان ضئيلا
ولئن افض في ذكر آلاء له فاضت عليّ امِلّ عنه طويلا
ادب واحسان وبشر دائم وسماحة تستفرق التمثيلا
ما كنت في مدحي له بمبالغ ما قلت الا بعض ما قد قيلا
ولو استطعت لكنت انظم كل درّي له مدحا او التنزيلا
من حاول الاسهاب فيه فانما هو موقد وقت الضحى قنديلا
بشرى لمن يحظى بقرب جنابه ولمن يقبّل ذيله تقبيلا
ولمن له يهدي التحية والثنا والحمد والتعظيم والتبجيلا

القصيدة القمارية

جمعتنا الشيوخ ما بـــين اص ٍ وكول وفرشخ هو شَقصي
في مقام جيرانه لا يبيحو ن هُتاف المغلوب او بعض نبص
بعضنا شاطـــر وآخر غِرٌ خصيٌ اثنين غابن ثم لصّ
لم أقم قطّ غالباً غـير ليل بات فيه للاصّ ظفري كشصّ
ظل سعدي يقوى على النحس حتى خلتني في القمار شيخ ابن بعص
وشريكي له نشاط الى قنص ملوك يدينهـــا ايّ قنص
فانثنى ساحر المـزوق حيرا ن عليه تأليفه متعصّي
وبعد من سماته ما يحاكي بعضه خاتماً وبعضٌ كفص
بلغ اللعب منه ما يبلغ الجِدّ والهاه عن مـداراة خِلْص
ففدا بالكلام يقرص والاصبع مَن جاد رميه كل قرص
لم يبت ليلة واصبح يشكو من دُوار امضّه مـع مغص
جاره ذو الزلاّت وهو انا لم يبدُ منه في الرمى خطة نقص
بعد ستّ واربعـين ولم يبلغـــه عن بندة احتجاج بنصّ
ما عليه ان كان يَغلب او يُغلَب او لزّه الشريك بشِرص
فكره في اختلاق اكذوبة عن ذي علاء ما ان يجود بحص
يسهر الليل مطرئنا فاذا مـا اصبح الصبح خار من فرطخمْص
لو اطاق المسير من هذه الار ض لما حلّ غير بلدة حمص
ربمـا ينفـع التغفل يومـا ويضر الانسان زائـد حرص
ليس يدري ما اللعب الا بشِعر عنه ما عاش ليس بالمتفصّي
وبشعر مـن شاربيه اذا حا ول شعراء ينحى عليها بنمص

واذا سامه امرؤ سهرَ الليل اتاهـا من غيظـه بالمقص
لم يدعها تطول حتى تحاكي نصّة الخود ذات ضفر وعقص
عن قريب يخضّب البيض منهـا بمدادٍ أو زعفران وحُصّ
ليس ينفكّ ذا ملال وشكوى وعلى كل نعمـة ذا غمص
وشريك له تربّع في الدّست كشيـخ مسائل العـلم يُحصي
او كمن ينقـد الدراهم للسلطان من شأنه تمـام التقصّي
ان يجـدْ هفوة يصح ويولول ويُقم للجـدال قيّـم فحص
يبذل الاصّ بذله المال لكن ثمّ فرق في بذل هذين اصّى اصلي
حيث في الاول اضطراراً وفي الثا ني اختياراً لغير كسب ورَبْص
اخذ العلم عن شيوخ مشاهير ذوي حكمة ومَحْض ولحص
لا كبعض الغواة خرّيـج بصّا قين كلّ اعمالهم عـن خَرْص
ليس يدري سوى الخديعة والمكر وما يجمُل الخداع بشخص
يفرز الغالبات في اللعب لكن يتعاطى جدّ الامور بخبص
ليس في حارة اليهود سواه من يجيز الحرام والحقّ يعصي
قد حكام في أكله ذات ظِلْف فوق ساق وفي الدهاء الاخصّ
ان يكن غالباً تجده طروباً ضاحكا ذا غمز وقرص ورقص
واذا فاز خصمه ودّ لو كلّ خبير سواه باللعب مخصي
ولذات الثلث يعطو بكلتا راحتيه وللـثماني بقبص
فاغراً فـاه كالذي لاح ماءٌ ثم لم يرو منـه غلّا بمص
ما لعمري دهاؤك اليوم مُنج لك ان كدت شيخنا او محصّي
قـد حباك المزوّقات ولكن ليس يعفيك من نـكال مغص
انّ بعض العطاء حلو شهي ثم من دونـه مرارة عفص
يا لهـا زمرةً قماريّة مـا عابهـا جهبذ ولا حبر قص
غير كون اجتماعها خارجا عن غرفتي فالحرام فيهـا بقَفْص
شكلها شكل بيضة ولهـذا فالمعاصي من جوفها ذات فَقْص
من بناها اوصى بهذا وشأني كل حين امضاء عهد الموصي

الغرفيات

انا الولي على كل المفـاليس　　وغرفتي ذي مزار للمناحيس
يأتي بهم زُحَل القوّاد سدّتها　　وثم تصرعهم ريح الكراريس

ومنها

لا يدخلنّ مقامي ذو حجىابدا　　فانما هو منتاب المآفيك
يلفون فيه اكاذيب المديح على　　زمّارة او على نذل من النُوْك

ومنها

يا طالعاً درجات قدرها .مئة　　الىّ ماذا ترجيّ بعد ذا الدرج
ان كنت من حركات طالباً فرجاً　　فانني بسكون طـالب الفرج

ومنها

ما زارني الاّ خليـع مـاجن　　فدع الحياء اذا حضرت حصيري
ان الحياء اخو النفاق وما صفت　　دون المجون سريرة لعشـير

ومنها

يا زائري رأسك احفظ　　من ضرب زيـد وعمرو
فما بكسري هـذا　　يصاب جابر كسر

ومنها

ايهـا الزائري لفائدة لا　　ترم المستحيل ما ذاك عندي
راح علمي في طلب الجدّ　　والجدّ شرود فضاع علمي وجدّي

ومنها

للناس نار بـــلا دخان　　ولي دخـــان بغير نار

فها انا اليوم منه قار ضيفي وفيه ابيت قاري

ومنها

ان للصالحين معجزة ان يجملوا ان شاؤوا الضرير بصيرا
عكسُ ذا اليومَ معجزاتُ دخاني انه يجعل البصـــيرا ضريرا

ومنها

تجود عليَّ زواري ولكن اكافئهم بَواء وهو شأني
تُقلّ نعالهم لي تربَ كُحْل فاكحلهم بشيء من دخاني

ومنها

نعم لي غرفة عليا ولكن باسفل سافلـين هبوط نجمي
فكيف اطيق اصعد مرتقاها واحمل حمل اشجاني وهمي

ومنها

ومن يكن مثلي رفيع الدرجات فهو اولى بمفاعيل السّراة
من معاطاة فضول الشعر في فاعلات فاعلات فاعلات

ومنها

كل زوّاري ذكور ليس فيهم من اناث
انها في الكون من انثى ولا جنس الخناث

ومنها

قصرت عن الورى وامنت منهم سَبّة غدْرا
فلا عجب اذا ما قلت صارت غرفتي قصرا

ومنها

اذا زارني مُلوٍ نظيري امنته وان يك ذو مَجدٍ حذرت محاله
فاني ادرى بالمناحيس كلهم وما فيهم من اجهل اليوم حاله

ومنها

من أوى الى بيت مثل بيتي الحرج
ضــاق صدره سدمــا وانزوى مع الهمج

ومنها

ولي داخل البيت جثة قطّ وخارجه صيت فيل عظيم
وقد كنت أحسب ان بالعظام تكون العظام واهل العلوم

ومنها

تعالوا وافقهوا عني ثلاثا تعلمكم مراعاة النظير
خلاقي ثم جسمي ثم بيتي صغير في صغير في صغير

ومنها

امسى بيتي قبرا حرجاً لكن زواري احياء
مع اني لست ارى فيهم حيّاً لي منه إحياء

ومنها

اذا عصفت ريح وثارت زوابع وهدّت رعود والغيوم مواطر
ومادت زوايا غرفتي وتزلزلت علمت بأن عندي يشرّف زائر

ومنها

ارفعوا لي حاجاتكم فأنا اليو مَ رفيع المقام والدرجات
ان يكن مُفْلسون فليستعيروا مُدْيتي لانتحارهم او دَواتي

ومنها

يقولون اني لضنك وجاريَ قد رك شعري وصار ركيّا
واجدر بشيء اذا ما تبعّث من ضيق ان يكون قويا

ومنها

مقامي بذي الغرفة لحرمان ذي الحرفة
فمن زارني فيها فلا يُرجون ترفه

ومنها

اصبحت في غرفتي رهن الهموم فما يعتادني غير اشجاني واوطاري
اري لكل امرىء انثى تؤانسه وليس عندي من انثى سوى النار

ومنها

الا لا يطمعن احد لكوني صاحب الغرفة
بانّ لديّ مأدبــة له من فيضها غرفــة

ومنها

حقّ المزُور على الزوار انهم يؤمنون له في الصدق والكذب
وما عليه لهم حقّ ولو جلبـوا اليه من سبأ وسقا من الذهب

ومنها

ولي حرفتان فلا احذر البطالة عندي ان ترسخا
اصوغ القوافي في ليلتي وفي الصبح استقبل المطبخا

ومنها

طبخ المحاشي رائج في عصرنا لكنما طبـخ القوافي كاسد
من اجل ذلك صرت طباخاً فما انا شاعر فالشعر شيء فاسد

ومنها

حوت غرفتي كتبي ورزقي كله فبرنطني فيها عزاء وسلوان
اذا غبت عنها خلتني افقر الورى وان جئتها أوهمت اني سلطان

ومنها

يفوح من حجرتي عرف الشواء على عرف القريض ومعه عرف ميّان
فمن يكن جائعاً ينعشه اوّلهـا ومن يكن كاذباً ينعش من الثاني

ومنها

ارى في الحلم اني ساقط من مهدّم طاقتي في مثل غار
فأصبح في الفراش ولا قوى لي فلست الى المعبّر ذا اضطرار

ومنها

بيني وبين دخاني ألفة ثبتت ان نمت نام والا فهو لم ينم
وان يزرني امرؤ غطّى على بصري اذ عنده رؤية الزوّار كالسقم

ومنها

لي غرفة ملأى من الكذب الذي انفقته في مـــدح كل بخيل
لم يبق فيهـــا من محلّ فارغ للزائريّ ولا مقيـل خليـل

ومنها

قالوا نزورك حيث كنت خليلنا فأجبتهم لا ريب فيـه زور
قد محّص العرفان عن اخلاقـكم وخـَلاقـكم فلكم بذا التعزير

ومنها

اقول لزائريّ قفوا قليـــلا الى ان البس الثوب القشيبا
فاني في الخليـع ارى خليعاً وفي لبس القشيب أرى اديبا

ومنها

لبابي صريفٌ حين يفتح هائل يقول لزوّاري دعوني مغلقا
فهذه عَدْوى كفكم فيّ قد سرت ولم يُعْدِكم داب افتتاحي مطلقا

ومنها

كانت مقاماً للكواعب غرفتي والآن صارت معدن التشبيب
ما زال فيها من عبير العشق ما هاج المحبّ الى عناق حبيب

ومنها

يراني الناس في كِرح حقير فيحتقرون منزلتي احتقـــارا
فهل يا قوم عندكم المعـــالي علوّ مبـاءة تحوي حمـــارا

ومنها

من زارني ورأى مكاني ضيقا فلبِرِّه صدري يكون رحيبا
اهلاً به للنار والاصلاء مـــع كِسف الدخان ونعم ذاك نصيبا

ومنها

طوّقت بابي بأبيات منمّقة لمّا بدا عـُطـُلا من خير زوّاري
فصار كنز علوم غير ذي رصد تنقير اظفاره في نقر اظفار

ومنها

الا يا داخلين اليّ مهــلاً لاسالكم سؤالاً عن مزاري
أأعجبــكم له شكل فجئــتم لتبنوا مثله دار القِمار

ومنها

نعمَ المهندس من بــنى كوخي باشكال وهندس
هو كالمثلث والمربّــع والمخمس والمســدس

ومنها

من جاءني تَـعِباً وابصر سدّتي نسي الذي قاساه من اتعابه
فالناس تعرف من تزور اذا هم نظروا ولو لمحا الى اعتابــه

ومنها

لا يطلعنّ اليّ اليوم مشئوم فطالعي بضروب الشؤم موسوم
ومن يكن واحداً مثلي فليس له لطالعين احتيــاج قاله البوم

ومنها

يحسدني الناس على غرفــتي لشبهها اعينهم ضيقــا
مع انها تحوي جهــازا له طول وعرض بلغا الشيقا

ومنها

قرَوْتُ المصر بيتاً ثم بيتــا فلم ارَ مثل مجلسي الشريف
يرد الشمس إنْ تدخُـله كبراً لرؤيته لها فوق الكنيف

ومنها

ولي في غرفتي ادوات طبــخ على مقدار اسناني جميعا
وان يُكَسر من الادوات شيء اصاب الكسر اسناني سريعا

ومنها

ليس بالرفس فتح بابي ولا بالقرع فاعلم لكن بنقر خفيف
فهو من جوهر الزجاج لطيف لا يسنّى الا لكل لطيف

ومنها

مقامي اوّل في القدر لكــن اتى في الصف عن خطأ اخيرا
فلا تلووا على شيء سواه اذا جئتم اليه ولو كبيرا

ومنها

اذا صعّدت في درجات كوخي وجاوزت الأخيرة وهي اعسر
يخيّل لي بأني طـــالع كي اؤذّن صارخـــاً الله اكبر

ومنها

لا يراني الناس في غرفتي لا ارى من غرفـــتي الناسا
ربّنـــا يعلم مَن لذّ من بيننا البَيْنَ ومَن قاسى

ومنها

سمّوا على منزلي قبل الدخول ولا تستعجلوا بعدفتحالباب واحتشموا
فانه حَرَمٌ ذو حُرمة ولئن لم يُلفَ لي حرمة فيه ولا حُرَم

ومنها

ان قلت سمّوا على مقامي فلست اعني سمّا يميتـــه
وانما القصـــد ان تقولوا تبارك الله عزّ صيتـــه

ومنها

لا تنظرنّ ملاوصا يا زائري من ثَقْب مفتاحي الى اعراضي
كالعرض لي عَرضي ومن ينظر الى الاعراض لم يأمن من الاِعراض

ومنها

بشرى لمن ينظر المفتاح في بابي دليـــل اني موجود باثوابي
او لا فاني في فرشي اغطّط او اني خرجت وامن الله اسعى بي

ومنها

انا ساكن في غرفتي متحرك لزلازل العجلات تجـري تحتها
لكن بحمد الله ليس بواطىء من فوق راسي مَن يحاول نحتها

ومنها

الى الله اشكو ما ارى تحت طاقتي　　امورا غدا تكليفها فوق طاقتي
ارى كل يوم الف ماش مخاصراً　　لانثى على اني مخاصر فاقتي

ومنها

لي غرفة ما شانها شيء سوى　　ان ليس تجري تحتها الانهار
وغنيت عن هذا بما يجري من　　العجلات تحسد من بها الاقمار

ومنها

عجبت لكم يا قوم مع ضعف دينكم　　وشدة برد كيف لم تعبدوا النارا
كأني بكم تلهون عنها بحرّ من　　تذيقكم في حبها النار والعارا

ومنها

شرط الزيارة من بعد الطعام على　　حكم المزور وان لا تمنع الشغلا
ومن يزرني صباحاً فهو في خطر　　ان لا اقول له اهلا ولا سهلا

ومنها

رأوا دخان قميني صاعداً فجرى　　بالماء قوم ليطفوا سورة اللهب
فقال بعض اقينٌ انت قلت نعم　　اقين شعراً وعندي معمل الكذب

✱

الفراقيات

خليليّ لا تستنكرا عائل الوجد ... اذا كنتما ممن درى لائع البعد

ولا تعذلاني في الغـرام فانني ... على غير ما اهوى غريم له وحدي

ومن ذا الذي يرضى البلاء لنفسه ... وتزكو له حال مع الحزن والسهد

وهل ينعمن عيشاً مُكابد وحشةٍ ... مشتت شمل ضائع السعي والقصد

نأى سكـَني عني وعوّضت عنهم ... بجيرة مقت ليس قربهم يجدي

كأنّ زماني شاء في كل حالة ... يراني فرداً يا لشأني من فرد

فماضي نعيمي لم يكن من مضارع ... له حيث هم في الحسن جلوا عن الندّ

فماذا دهاني بعد حظٍّ غنمته ... وقد كنت في عيش بقربهم رغد

وماذا على الايام لو كان طولهـا ... له لا سواد من مطـالعها يُعدي

افي الناس مثلي في مقامٍ فؤادُهُ ... وفي غيره جثمانـه واجدَ الفقد

وغيري اراهُ فاقدَ الوجد وهو في ... نعيمٍ له جَدّ مُعين بلا جـِدّ

وهل في سبيل الله راحم لوعة ... تعاودني لا بل غرتني كالجـِلد

وهل مبلغ عني النسيم تحيـة ... اليهم وما بي من غرام لهم يبدي

اهيم بمـا كانت تراه احبتي ... وان يك من بعض الجماد او الضد

والهج بالقول الذي لهجوا به ... فتذكاره ذكري وايراده وِرْدي

يحق لي التشبيب ما دمت شاعراً ... بهم لا بهند او بمية او دعد

ولو لم يكن لي مطمع في لقائهم ... لآثرت توسيدي مذ اليوم في لحدي

ولكنني ارجو زمـاناً يسرّني ... بهم عن قريب وهو اشهى المنى عندي

يقولون لي صبراً وكيف تصبري ... ولست الى نور التبصّر استهدي

لعمرك سلطان الهوى قاهرٌ فما نجا من مغاويه الرشيد ولا المهدي

ألا ليت دمعي حيث هم واقفون قد جرى ولدى اقدامهم قام كالحد

فيمنعهم عن ان يسيروا ويبعدوا فحسبي من سير وحسبي من بُعد

أأحبابنا هل ودّكم بعدُ سالمٌ وهل انتم باقون مثلي على العهد

ارى بكم الدنيا ولست اراكمُ بها ان شأني اليومَ حَيْرة ذي الرشد

اتى العيد بالافراح للناس كلهم وما اعتادني فيه سوى الهمّ والنكْد

وما لي لا اشكو وقد طال بُعدكم وما بيننا ما ليس يُبلَغ بالوخد

وماذا الذي ارجوه بعد فراقكم وعندي استوى شأنا الترفه والجَهْد

فياحبذا عيــد انبعاثي اليكم كما يُبعث الطيرُ الغليل الى الورْد

ولو زارني قبل اللقاء خيالكم وعانقته ليلا فذلك من جدّي

اذا نظرت عيني البريد فانّ لي لَقلبا من الايْجاس يخفق كالبند

فان كان لي منكم كتابٌ لثمته واقررته من بعد ذاك على كبدي

فما كان من آثاركم فهو مؤثَر على العين والعينين والعَين والنقد

فليس سواه اليوم عندي تعلّة وما غيره أُلفى لحرّي من برد

وان لم يكن تجرِ الدموع لماجوى وارتدّ عنه كالعديم عن الرقد

وقـــال

اوَ مـا كفاني اليوم طول تناء عمن احب ولات حـين لقـاء
ياراحلين وفي الفؤاد مقامهـم كم ذا اقول سكنتم احشائي
ولـكم اعاتب سوء حظي فيكم لكن دهري لا يجيب ندائي
سافرتم للبرء ممـا نالـكم فمتى يكون بقربـكم ابرائي
ومتى يتيح لي الزمان لقاءكم ويكف كف البين عن ايذائي
شرقتم فانا بغُصَّة غربتي في الغرب ذو شرق وذو اشجاء
يا من يرق لذي جراحٍ مدنفٍ انا ذو الجراح مـلازم الادواء
فـَصِفنّ لي ما انت واصفه لمن اشفى وكن فطنا الى الاشفاء
لا يغررنـّك ما ترى من بزّتي تحت القشيب طهامل[1] الاعضاء
انا والذي يحيى ويفنى لست في الهـَلـْكـَى أعدّ ولا مـع الاحياء
انا ان سلت عني الاحبّة لم اكن اسلوهم في البؤس والضراء
اني على مـا بي ارقّ لعاشق مثلي وان هو كان من اعدائي
ما البعد يخمد نار شوقي انمـا بُعد الغزالة علـّة الاحمـاء
ما ان يحل حشاشتي من بعدهم حب وليس يحلّ نسخ وفائي
حال الورى طـُرّاً تحول وحالتي هي ما ترى في غدوتي ومسائي
الدمع موقوف على جـَريانـه والعين مُعفاةٌ من الاغفـاء
وارى الذي مثلي بكى من فرقة مـع من مناه بعده ببكاء
عجبا لدهري لم يزل بي مُبْصرا وضناي واراني عـن الرقباء
عجبا لدمعي مدنفي استحمامُه والناس يشفيهم حميم المـاء
عجبا لعمري كيف طال من النوى والارض ضاقت عن مدار رجائي
عجباً لليل الناس يسرع صبحه وصباح ليـلي دائم الابطاء

---

(١) الطهمل الذي لا يوجد له حجم اذا مس

ثبنى الرجاء خواطري فيه على اس المحال فبئس اس بناء
ويخيل الشوق المقيم باضلعي لي انني مغف وهم ضجعائي
حتى اذا اصبحتُ بانت انها لي لم تكن الا حبال هباء
يا أهل ودي ليس من داء لكم عَدوَى فعودوا وائمنوا من دائي
سقمي من الطرف السقيم ومنحلي الخصر النحيل عداكم اعدائي
ما ان اكلفكم سوى ذكر اسم من اهوى فحسبي ذاك عن اسماء
لو كان يجدي الفال كنتُ اليوم من احظى الانام واسعد السعداء
اذ كل غاد باسمهم متفوه ام ذاك وسواس الهوى الغواء
ام بعض ما ذا الوجدُ يوجد أنه يُلهى بمعدوم من الاشياء
يا ليت قلب الناس لي او جَدهم ان عز طعن فالتزام عزاء
اوليت احبابي بما بي قد دروا فيسارعوا شفقا الى انجائي
حاشاهم ان يهجروا كلفاً بهم يكفيه . ما يلقى من الاقصاء
ومع النوى يرى النوى سهلا كما ان الدنو مع الجفو تناء
لهفي على زمن تولى وانقضى معه السرور لديهم وهنائي
فلأي بث بعدها ورزيئة ابقتني الايام شر بقاء
كيف التصبر للفراق وما ترى عيني شبيههم من الارناء
ان اشك لم اجد امرأ لي مشاكيا وشماتة المشكين شر بلاء
واذا سكت توهم السلوان بي الرأي وذلك دون فعل الرائي
يا ليت شعري ما امال احبتي عني من التحذير والاغراء
بَخِلوا عليّ بنفحة من فيهم تأتي الصبا نحوي بها لشفائي
ان استمر حديد قلبهم على نار الهوى بي لم يلن لدعائي
العلهم وجدوا علي ملامة فأرتهم الحسنى من الاسواء
هبني اسأت فها انا مستغفر والعفو مأمول من الكرماء
يُرثي عليهم هين وهو الرضى سيان فيه من دنا والنائي
ان لم يصرح فيه قول فلينب اضمار ذكر عنه فهو كفائي
اني بحسن القصد منكم قانع ولئن يكن قد فاتني ارضائي

وقال في المعنى

اتاني كتاب من خليل منمق | على كل حرف منه حسن ورونق
تنشّيْتُ وجدا اذ تنشّيت عرفه | ولم لا ومنه عاطر الورد يعبق
فيا حبذا ذاك العبير وحبذا | نسيم به نحوي التباشيري يسبق
الى الله اشكو ما لقيت من النوى | وحرّ جوى كادت به النفس تزهق
اقمت واحبابي ابروا وانجروا | على غير ما اهوى وشملي مفرّق
فما زلت مذ بانوا حليف صبابة | اذ حان سبح كدت بالدمع اغرق
ففي قلبي المأسور ادّخر الهوى | ومن ظرفي المسجور دمعي انفق
كئيب نحيل واجد متشوف | غريب عليل فاقد متشوّق
ولست بذي صبر فيؤمل اجره | ولست بذي سلوى اليه موفق
وليس بمأمون زماني على اللقا | وهل يؤخذن يوماً على الدهر موثق
احن الى لقياهم متلهفاً | اذا ما سميري النجم لاح واقلق
وان ذرّ قرن الشمس اوهمت انها | تبلغني عنهم سلاماً وتنطق
فاني ارى فيها علامات حسنهم | وفي كل حسن ذكرٌ ما القلب يعشق
اعلل قلباً بالاماني هائماً | ولم يبق فيه للتمني مصدق (١)
يطير اشتياقاً بي اليهم وانني | اسير هوى فيهم ببيني موثق
ويخفق من ذكر اسمهم فكأنما | يخيل لي ان مضجعي منه يخفق
واسكب دمعاً كان يجري بقربهم | فكيف وباب الوصل دوني مغلق
متى يجمع الله المحبين ساعة | وحجب النوى بعد الوصال تمزق
ورب بعاد كان منه دوام ما | يؤمل من قرب الاحبّة شيّق
فلله اسرار يعزّ بيانها | وللدهر اطوار تسوء وتونق

(١) هذا المعنى مسروق من الفارياقية وقد تقدمت الإشارة اليه .

وقـــال

امودّعي والدمــع كاد يحولُ ما بيننـــا ولظى الغرام تهول
كيف التصبّر بعد بعدك موحشا وبقيت لا ارب ولا مأمول
قد كان يشجيني غيابك ساعةً واخال ان قد عزّ منك قفول
والآن غبتَ على حساب صبابتي دهراً فليل المبتلينَ طويـل
ان تنسَني اذكرْك أو ان تشجني اشكرك لست الدّهرَ عنك احول
ياليت طيفك في الكرى يعتادني او كان يغفى الطرف حين أليل
فـلـزورةٌ منه احبُ اليّ من لذّات وصلٍ من سواك يطول
أذهلتُ في حبّيك عن ألم النوى ولقـد يريح العاشقين ذهول
انسانُ عيني انت جَيرِ ومهجةٌ للقلب ما لهما لديّ بديل
لوفي رضاك بذلتُ كل جوارحي كنتُ الضنينَ وما بذلتُ قليل
القاك في كل الجمال مصوّراً فيطول فيــه منى التأميـل
واذا سمعتُ بمفرد في حسنه ايقنتُ في هذا لك التأويل
وابيتُ اسال عنك سيّار الدجَى لو كان ينفع سائلا مسئول
يافاتني بدلاله لم يبـقَ لي في العيش بعدك بتّةً تعليل
ما كان غيرك مالئا طرفي ولا اعتقدَ الضمير بان سواك جميل
واذا الورى شغلتهم دنياهُمُ فانا الذي بك دائماً مشغول
فيك الدليل على توحّد مبدعٍ إن عزّ عند الفلسفيّ دليل
ارسلتُ دمعي مع كتابي عالماً ان لا ينوب عن الحبيب رسول
يا عاذلين على الهوى لا تعذلوا فبلائي هذا اصله التعجيل

سبق الفؤادُ الطرف مني في الهوى فهويت فيه فعاذلي معذول
اسفاً على وقت الوصال فياترى للبين يغدو مثله تأجيل
لولا ادّكار نعيمه لقضيتُ من وجدٍ فكم بالوجد طُلَّ قتيل
ساعُ التعانق ليس يُنسي ذكرَها وخطورَها بالبال قطّ حؤول
ولربَّ يوم مسرّة يغنيك عن عمر باكدار البعاد يطول
فلا فطمنّ النفس عن لذّاتها وليشجني بعد الغناء عويل
يا منكراً لحقيقة الغول اعتقدْ انّ النوى هي في الحقيقة غول
من لم يذُقْ ألم الفراق فما له يوماً الى عتب الزمان سبيل
فلكل رزءٍ غيره سلوى لذي رشد وطبٌ بالعزاء كفيل
يالوعة الشوق اسكني في مهجتي ما فاتني ممّن احبّ وصول
خفَقانُ قلبي من سكونكِ دائم ولعلّ عن كثَبٍ بلاي يزول

هذا ما انتهى الينا من اخبار الفارياق . مما اقضى الان ايداعه بطون الاوراق . فمن شاء ان يدعو له او عليه فجزاؤه يوم تلتف الساق بالساق . ويقال الى ربك يومئذ المساق . فامّا من دعا له يعود زواجه هذه المرّة وفي الحياة ارماق . فاني اضمن له ان يدعوه الى مأدبة حولها وفيها كل ما شاق وراق . مما ذكر في هذا الكتاب بالانتساق على سرر واطباق .

ذنب للكتاب

ينتظم به لآلىء أغلاط الرؤوس العظام الاساتيذ الكرام مدرّسي اللغات العربية في مدارس باريس

قال الكسندر شدءزكو (Alexandre Chodzko) في فاتحة كتاب ألّفه في نحو اللغة الفارسية سنة ١٨٥٢ ما ترجمته « حصلت بلاد اوربا منذ زمن طويل على كل ما يلزم لعلم اللغات الشرقية اذ فيها خزائن كتب ومدارس وعلماء جديرون بادارتها حتى انه باعتبار فن أدب لغات آسية وما يلحق بها من الفلسفة والتاريخ أصبح استاذ الفرس ومعلم العرب وبراهميّ الهند وبهم افتقار الى ان يتعلموا من أساتيذنا كثيراً» (انتهى).وأنا أقول ان هذه الدعوى كذب ومين وافك وافتراء وترّهة وتزوير وبهتان وابعاط وشحط وشطط وفرَط وهتر وعضيهة واختلاق وزغف وتزهّق وتصلّف وتزبّب. وان قائلها ينبغي ان يدمج مع من جهلوا أنفسهم في فصل حدنبدى لانه جهل نفسه بل حمل غيره ايضاً على الجهل بنفسه . اما أولاً فلأنه أي قائل هذه المقالة لا يعرف اللغات الشرقية ولا يعرف مقدار ما نتف منها هؤلاء الاساتيذ حتى يشهد لهم بالفضل والبراعة . وانه في نقله للرسائل الفارسية التي أثبتها في كتابه ارتكب أغلاطاً كثيرة فاضحة سواء في النقل والترجمة . فمن ذلك قوله في صفحة ١٩٨ قانع صفصف وهي في الاصل قاع صفصف اقتباساً من قوله تعالى ويَسْألونَكَ عَنِ الجِبالِ قلْ يَنسِفها رَبّي نَسفاً فَيَذَرُها قاعاً صفْصَفاً . فلما جهل

المعنى بدّل قاع بقانع وترجمه باللغة الفرنساوية بقوله ويُقنع نفسه برمل البرّية. فكيف استحلّ هذا العالم ان يملأ الكلام بالرمل واستكبر ان يسأل أحداً من أهل العلم عن المعنى . لكنها عادة له ولأسلافه ولأساتيذه في انهم حين يشتبه عليهم المعنى يعمدون الى الترقيع والترميق والتلفيق . والثاني ان هـؤلاء الاساتيذ لم يأخذوا العلم عن شيوخه أي عن الشيخ محمد والملاّ حسن والاستاذ سعدي وانما تطفلوا عليه تطفلاً وتوثبوا توثباً . ومن تخرّج فيه بشيء فانما تخرج على القس حنا والراهب توما والخوري متى. ثم ادخل رأسه في اضغاث أحلام او ادخل اضغاث احلام في رأسه وتوهم انه يعرف شيئاً وهو يجهله . وكل منهم اذا درّس في احدى لغات الشرق او ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء فما اشتبه عليه منها رقّعه من عنده بما شاء . وما كان بين الشبهة واليقين حدّس فيه وخمّن فرجّح منه المرجوح وفضل المفضول. وذلك لانه لم يوجد عندهم من تصدّى لتخطئتهم وتسوئتهم . وقد قال ابو الطيب :

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الحرب وحده والنزالا

ولانهم انما اعتمدوا على اتصافهم بنعت مدرسين فاجتزأوا بالاسم عن الفعل وعن حقيقة ما يراد من التدريس . فان المتصدي لهذه الرتبة الجليلة ينبغي ان يكون صادق النقل متثبّتاً في الرواية . متخرجاً من التهافت على ترجيح ما استحسنه هو دون مراد المؤلف . مترويّاً في سياق الحديث وسباقه وقرائنه وعلائقه . مضطلعاً باللغة والنحو والصرف والأدب . فأين هذه الصفات كلها من هؤلاء الاساتيذ الذين يفسدون عبارة المؤلف ويحمّلونها معاني بعيدة يأباها الطبع والذوق . ويوردون ما يوردون من شرحها مزاينة ومجازفة . ولعمري لو انهـم كانوا من ذوي التورّع لما تصدّروا في هذه المراتب ولما أقدموا على ترجمة شيء مرقّع مزوّر . فان كان كلامك ايها الشيخ الرمليّ في حق هؤلاء الاساتيذ كلام ذي جد فقد وجب عليك بعد قراءة جدول أغلاطهم الفاضحة ان ترجع عما تبهلقت فيه وتزببت من دون علم . وان تكذّب نفسك في طالعة كتاب آخر تؤلفه في نحو اللغة العربية ان شاء الله. والا فان اثم افجاسك هذا

في عنقك. فاما ان كان مزاحاً وأردت به السخرية من هؤلاء الاساتيذ المشاهير والاساطين المذاكير فهم أولى بان يجيبوك . غير اني أراهم قد سكتوا عنك . فكأن دغدغة هرفك هذا لهم قد أعجبتهم . فما مَثَلك ومثلهم الا مَثَل ذلك الأبله الذي عشق امرأة ولم يقدر على وصالها حتى ادنفه عشقها وهيّمه فلم يستطع بعده حراكاً . فعاده رجل داهٍ مثلك واخذ يهنئه على قضاء وطره منها . فقال له الأبله كيف وأنا مغرم بها وكلما زدت شوقاً اليها ووجدا زادت اعراضاً عني وصدّا ؟ قال قد رأيتك بعيني تعانقها بالامس ثم خرجت من دارها وانت مبتهج متهلل. ورآك غيري ايضاً وهم كثيرون. فان انكرت فها هم كلهم يشهدون لي ، وما زال به حتى اقنعه وحمله على ان يسلوها . فافاق من مرضه . الا ان بينك وبين هذا الداهي فرقاً عظيماً وذلك انه انما استعمل دهاءه للاصلاح . وانت انما استعملته للافساد . لان كتابك هذا ربما يقع في يد بعض ارباب السياسة الذين يجهلون الفارسية والعربية . ولغفلته يظن ان مشايخ مصر وأساتيذ الفرس محتاجون الآن الى أخذ العلم عن اصحابك . ومتى تهوّر أحد هؤلاء الوجوه في ضلال تهوّرت معه الرعية بأسرها .

فاما قولك ان في البلاد الافرنجية خزائن كتب كثيرة . كأنك تقول أنه يوجد فيها من الكتب ما لايوجد في بلادنا لأن نوّاب الدول لا يزالون يشترون من بلادنا أنفس الكتب . فهو ليس بدليل على وجود العلم عند وجود الكتب فأين حمل الأسفار هداك الله من العلم . لأن العلم في الصدور لا في السطور ولكن افدني ما بال هؤلاء الاساتيذ لم يؤلّفوا في اللغات الشرقية شيئاً قط . فغاية ما صنعوا انما هو أحدهم ترجم من لغتنا لغة الأطيار والازهار فخمّن فيها وحدس ما شاء . وآخر ترجم محاورة يهودي سمسار وأحمق من التجار . وآخر مسخ امثال لقمن الحكيم الى الكلام الركيك المتعارف في الجزائر . وآخر تعنّى لطبع اقوال سخيفة من رعاع العامة في مصر والشام . وترك ما فيها من اللحن والفساد كما هو استدراعاً بقولة كذا رأيتها في الأصل . فيظن بذلك انه تنصل من تبعة اللوم والتفنيد . فما سبب هذا التهافت على ترجمة

مثل هذه الكتب وطبع مثل هذه الاقوال من لغتنا الى اللغــة الفرنساوية سوى توحُّم ملفقيها على الانخراط في سلك المؤلفين . ولمَ لم يتعن أحــد منهم لترجمة شيء من الكتب الفرنساوية الى العربية ليظهر براعته في هــذه حالة كونه شيخ طلبتها وإمام آمّيها. على ان في اللغة الفرنساوية كتباً جليلة القدر في كل فن . وأعجب من ذلك انه لم يخطر ببال أحد منهم قطّ ان يترجم نحو لغتهم الى لغتنا . فهل من سبب آخر غــير التحذّر من أن يعرّضوا أنفسهم للتحقيق والتفنيد والتحمير. فان عبارة النحاة والمعرّبين لا بدّ من ان تكون محرّرة صحيحة ولا عذر لهم معها ان يقولوا كذا وجدناه في الاصل. ويا ليت شعري ما الفائدة في كون أحد هؤلاء الاساتيذ يؤلف كلاماً معسلطا فاسداً في لغة اهل حلب ويسمّيه نحواً . ثم يذكر فيه انجق بيكفي وايشلون كيفك خيّو وهلكتاب وقوي طيب . وفي كون آخر يكتب بلسان اهل الجزائر كان في واحد الدار طوبات بالزاف الطوبات كشافوا وكينا كل وراهي وانتينا وانتيّا ونقجم وخمّم باش وواسيت شغل المهابل ويوالم أي يلائم وماجي اي جاء وكلّي اي كأنه وحرامي اي بستاني والستّاش اي السادس والدجاجة ترجع تولّد زوج عظمات وما أشبه ذلك من المشوّ . فما بالكم يا اساتيذ لا تؤلّفون كتباً بكلامكم الفاسد الذي تسمونه بنوّى . وهل تشيرون على عربيّ أقام بمرسيلية مثلاً ان يتعلم كلام أهلها او كلام اهل باريس . ولو كان فعلكم هذا فعل رشيد لوجب ان تقيدوا جميع الاختلافات والفروق الموجودة عند المتكلمين بالعربية . فان اهل الشام يستعملون ألفاظاً لا يستعملها اهل مصر . وقس على ذلك سائر البلاد الاسلامية . بل ان لاهل صقع واحد اصطلاحات شتى . فكلام أهل بيروت مثلاً مخالف لكلام أهل جبل لبنان .وكلام هؤلاء مخالف لكلام أهل دمشق . وذلك يفضي بكم الى الهوس والى افساد هــذه اللغة الشريفة التي من بعض خصائصها انها بقيت ثابتة القواعد قارّة الاساليب على انقراض جميع ما عداها من اللغات القديمة . وان المؤلفين فيها يومنا هذا لا يقصّرون عن اسلافهم الذين انقرضوا مذ الف ومايتي سنة . فهل حسدتمونا على ذلك وحاولتم ان تحيلوها وتلحقوها بلغتكم التي لاتفهمون ما ألف فيها مذ

ثلثمائة سنة . ويا ليت شعري هل تأذن أرباب السياسة عندكم لرجل أراد ان يفتح مكتباً يعلّم فيه الصبيان في ان يتعاطى ذلك من دون ان يُمتَحن اولاً . فمن الذي امتحنكم أنتم ووجدكم أهلاً لهذه الرتبة التي هي ارفع من رتبة معلم كتّاب ومن ذا الذي عارض ما ترجمتم ولفّقتم ورمّقتم بالمترجم منه . وكيف رُخّص لكم في ان تطبعوا ذلك من دون الوقوف على صحته . ولعمري ان مدرساً لا يحسن ان يكتب سطراً واحداً صحيحاً باللغة التي يعلّمها لجدير بان يرجع الى المكتب من ذي أنف . على ان من هؤلاء الاساتيذ من لا يفهم اذا خوطب فضلاً عن جهل التأليف . ولا يفهم اذا قرأ . ولا يقوّم الالفاظ في القراءة وقد سمعت مرة بعض التلامذة يقرأ على شيخه في مقامات الحريري ولا يكاد ينطق بحرف واحد نطقاً بيّناً من هذه الحروف التي خلت منها لغتهم . وهي الثاء والحاء والخاء والذال والصاد والضاد والطا والظا والعين والغين والقاف والهاء . وشيخه ساكت لما انه يعلم ان تصحيحه له لا يكون الا فاسداً . فكيف يمكن لمن لم يسمع اللغة من أهلها ان يحسن النطق بها . كيف لا وان من الف منهم في نحو لغتنا شيئاً فانما بنى نحوه كله على فساد . فانهم يترجمون عن الجيم بلساننا بحرفي الدال والجيم بلسانهم . وقد جهلوا انه ليس عندنا في العربية حروف مركبة كما في اليونانية . فان الابتداء بالساكن مرفوض عند العرب اذ لم نقل انه ممتنع ، ويترجمون عن الثاء بالتاء والسين وعن الذال بالتاء والزاي وكذا عن الظاء . فاما سائر الحروف فالعين والهاء والحاء عندهم همزة والخا كاف والصاد سين والضاد دال والطاء تاء والقاف كاف . وينطقون بالسين اذا تقدمتها حركة كالزاي وعلى ذلك قول ذلك المطران الخطيب اقطعوا الأزباب كما مرّ . فاما الهمزة فانها وان وقعت عندهم في اوائل الالفاظ فلا تقع متوسطة ولا متطرفة ولا يمكنهم النطق بها الا مليّنة . بل اعظم مؤلفيهم لا يدري ان الألف في أول الكلام لا تكون الا همزة . وليس الغرض هنا تعليمهم الهمز فانهم همازون . وانما الغرض ان ابيّن لهذا الرملي الهارف المتملق مناضلة عن شيوخي الذين اخذت عنهم من العلم ما أخذت ان شيوخه لا يحسبون في عداد العلماء وانه ليس من علماء مصر وتونس والغرب والشام

والحجاز وبغداد من هو محتاج لأخذ حرف واحد عنهم . نعم انّ لهم باعاً طويلاً في التاريخ فيعرفون مثلاً ان أبا تمام والبحتري كانا متعاصرين . وان الثاني أخذ عن الأول . وان المتنبي كان متأخراً عنهما . وان الحريري الّف خمسين مقامة حذا بها حذو البديع وما أشبه ذلك . الا انهم لا يفهمون كتبهم . ولا يدرون جزل الكـلام من ركيكه وثبته من مصنوعه . ولا المحسنات اللفظية والمعنوية . ولا الدقائق اللغوية . ولا النـكات الأدبية ولا النحوية . ولا الاصطلاحات الشعرية . فغاية ما يقال انهم نتفوا نتفة من علوم الصرف بواسطة كتب السّفت بالفرنساوية . فهل يسلـّمون لعربي تعلـّم لغتهم من كتب لغته بانـه كعلمائهم وانهم محتاجون الى التخرج عنه . ثم لا ينكر ايضاً ان مسيو دساسي (De Sacy) حصّل بقوة اجتهاده ما أقدره على فهم كثير من كتبنا بل على الانشاء في لغتنا ايضاً ولكن ما كلّ بيضاء شحمة. على انه رحمه الله لا يُنظم في سلك العلماء المحررين . فقـد فاته أشياء كثيرة في الادب واللغة والعروض . واني طالما والله أثنيت على براعتـه وأعظمت علمه وفضله . الا انه لما صارت مهارته وبراعته هذه سبباً للفساد فانها هي التي جرّأت غيره على التصدُّر للتدريس بلغتنا وسوّلت لهذا المفتري ان يتطاول على اهل العلم ، كان من الواجب عليّ رعاية لحق العلم وأهله ان اسطر اسمه من بين اسماء الشيوخ في البلاد الاسلامية كافة . فدعا لمن تترس باسمه واستذرع بعلمه عن الدعوى والانتحال ولولا فحش قول هذا النقـّاع المتحذلق وكذب دعواه لما تعرضت لتخطئة أحد منهم . فاني اعلم انهم لن يرعووا عن غيّهم وما يزيدهم كلامي هذا الا غروراً . بـل الشيوخ الذين قضوا عمرهم في طلب العلم يتورّعون من ان يقولوا مقالته. لأن الانسان كلما زاد علمه زادت معرفته بجهله . ولعل كتابي هذا يقع في يد استاذ فارسي او هندي فيكون باعثاً لهما على الانتداب لتخطئتهم ايضاً في هاتين اللغتين. لأني أعلم عين اليقين انهم فيهما أشد جهلاً . لأن الذين سافروا منهم الى بلاد العرب اكثر من الذين سافروا الى غيرها . ومع ذلك فلم يتعلموا منها سوى الركاكة والخطل واعلم ايهـا القارىء العربي اني لم أجد من بين جميع ما طبعوا بلغتنا جديراً بالانتقـاد

سوى مقامات الحريري. واني لضيق وقتي حالة كوني على جناح السفر لم يمكن لي النظر الا في أبيات الشرح فقط . وقد وكلت غيري في نقد الباقي كما وكلني العلماء في نقد الأبيات ثم عثرت بعد ذلك برحلة العالم الاديب الشيخ محمد بن السيد عمر التونسي مطبوعة على الحجر عن خط مسيو بيرون وقد شحنها كلها بالتحريف والغلط بما لا تصح نسبته الى ادنى تلامذة الشيخ المذكور . أيمكن لأحد من الطلبة فضلاً عن العالم أن يقول جوده ناسخ لكل الوجود أي لكل الجود . وان يكتب العصا بالياء غير مرة — وأعلى افعل التفضيل بالالف نحو عشرين مرة —ونجا باليا—واتعمى العالمون عن الضياء أي أيعمى العالمون—وآمنين مطمئنين حاله كونهما مرفوعين - وفلاحين مصر - ومحمودين السيرة—واستوزر الفقيه مالك—ولا يعصا—ولا أرى سوء رأيك أي لا أرى سوى رأيك ويتعدّا رأيه — وانني عشر ملك — ومن حيث ان ابا ديما والتكنيساوي متعادلين لم أي متعادلان فلم — وتجد الرجـــال والنساء حسان — ودعى لنا — وعجوبة — وصواحبتها وصواحباتها — ولغة فيهـــا حماس — وانها متقاربتي المعنى — وحتى تأتي أرباب الماشية فيقبضون — فهل احدى منكم — ويرفعون أصواتهم بذلك حتى يدخلون — وماشيين — والمسمين — وحتى يشقون — ومنحنيون — وانهم يكونوا — ولا اعتاض — أي لأعتاض . أو انه يجهل بحور الشعر فيجعل الكامل هزجاً والطويل مديداً وما أشبه ذلك . ومن العجب ان الشيخ الموما اليه أورد هذين البيتين وهما :

أبرك الأيام يوم قيـــل لي هذه طيبة هذي الكُثُبُ
هذه روضة طه المصطفى هذه الزرقا لديكم فاشربوا

قـــال والياء في هذى بدل عن الهاء فلما قرأهما بعض التلامذة على مسيو كُسان دُبرسُفال (Caussin De Perceval) أحد المدرّسين العظام أصلح قوله طه بوَطْناً وفسرها بوَط الرِجْل . وأبدل الهاء من قوله هذه الزرقا ياء وذلك لقول الشيخ والياء في هذى بدل عن الهاء فانكسر الوزن . وترك لفظة الزرقا غير مصححة فان مسيو بيرون وضع بعد الألف همزة فانكسر بهـــا

الوزن أيضاً . وحق وط ان تكتب بغير ألف . فانظر الى الناقل والمصحّح والى هذا التخليط وتعجّب :

بيان ما وجدته من تحريف الالفـاظ العربية في نقل الرسائل الفارسيّة في كتاب الشيخ الكسندر شدزكو الرملي (Alexandre Chodozko)

صفحة	سطر		
١٩٢	١	في ما	صوابه فيما كما هو بأصله
—	٤	التيام	صوابه التئام كما في الاصل
١٩٢	٩	شخامت	صوابه شهامت كما في الاصل
—	٢٢	به مملكت	صوابه بمملكت كما في الاصل
١٩٣	٦	عظّام	صوابه عظام كما في الاصل
—	١٧	استخضار	صوابه استحضار كما في الاصل
١٩٦	٢٣	جناب اقدسي ألهي	صوابه جناب أقدس الهي كما في الاصل
—	٢٦	خلافا الاخفش	صوابه خلافاً للاخفش كما في الاصل
١٩٧	٤	براء الساعة	صوابه برء الساعة كما في الاصل
١٩٨	—	قانع صفصف	صوابه قاع صفصف وقد تقدم ذكر ذلك
٢٠٠	—	(أول الرسالة) ومبارك سلطانه	صوابه وتبارك ليقابل قوله أولا تعالى شأنه
٢٠١	١٨	مولات	صوابه موالات

على اني لم أتقصّ معارضة هذه الرسائل كلها بالاصل اذ الغرض اظهـــار كذب هذا المدّعي وفيما أوردته كفاية

جدول أغلاط أبيات الشواهد في مقامات الحريري التي طبعت ثانية بعد وفـــاة دساسي (De Sacy) بتصحيـــح الشيخين الجليلين رينو ودرنبورغ (Reineaun et Darenbourg) وذلك سنة ١٨٤٧ فأما غلط الشرح فأكثر من أن يعد

صفحة	سطر		
٥	١	تَرب في موضعين	والصواب بالضم
—	٤	المجلَس	وصوابه بالكسر
—	١٠	غضاباً	صوابه بغير تنوين لانه وقع قافية
ح	٤	قالوا العواذل	الوجه قال العواذلفان العواذل جمععاذلة
—	٩	خَدَرَت	والوجه خَدِرت
—	١٣	في النثر ذميماً	والصواب دميا
	١٠	في صفحة العنوان	
		تكتب •	والاعرف نكتب
٦	••	وان أصدق بيت	الاظهر أحسن بيت
١١	١٧	الكرا	والوجه الكـَرَى لانه يائي
١٨	••	ثنّى	الاعرف ثَنَى
٤١	••	فيظلموني	حقه فيظلموني
٤٩	١٧	يا طلحَ أكرمُ من	والوجه اكرمَ من
٥١	١٥	فانه بنَتٍّ	والوجه يُنَتُّ
٥٢	••	اقترحتُ العشاء عليه	
		يوما	وصوابه اقترحت العشاء يوماً عليه
٥٢	١٥	قال لِيَ العشا والوجه لي العشاء لانه اخرج مخرج الامثال فلا تتغير كقوله :	

الصيفَ ضيّعتِ اللبن

صفحة	سطر		
٢٩		مبرّاء	وصوابه مبرّءًا
٧٠		نراه	وحقه تراه
٧١		أحسنُ من	وصوابه أحسنَ لانه خبر ليس
٧٥	١٣	نيل المنا	وصوابه المُنَى لانه جمع مَنية
٧٦	١٠	الأفلاس	وصوابه الإفلاس
—	١٢	فيعُسْر وفي يُسَر وصوابه ويُسُر	
٧٨	٢١	سُلّماً	صوابه سُلّما بغير تنوين لوقوعه قافية
٨٠	٨	في ما	الوجه فيما
—	..	سبيلٌ	صوابه سبيلُ ومثله دليل في البيتالثاني
٨٢	..	رَكِدُ	صوابه رَكَدَ
٨٤	..	وكونٌ	حقه بغير تنوين
٨٦	١٠	جُمَّة	صوابه جَمَّة
..	..	امره	الوجه امرأ
..	١٧	فانياً	صوابه فانيا بلا تنوين

٨٩ ومن يلقَ ما لاقيت لا بد يأرقُ أرقت فلم تخدع بعيني نعسة والصواب تقديم المصراع الثاني وتأخير الأول والعجب ان هذه النعسة اغمضت عين كل من دساسي ومن هذين الشيخين الجليلين فهل سمعتم يا معاشر العرب ويا أمة الثقلين ان الفعل المضارع يقع عروضاً من غير تصريع وان التنوين في نعسة وأمثالها نحو تعسة وحمقة وحبقة وسلحة وفقحة يقع قافية أليس قوله ومن يلق مفرّعـــاً على المصراع الاول ومخرجاً مخرج المثل

٩٢	١٩	البلاقعَ	صوابه البلاقعا بالاطلاق لكونه قافية

صفحة	سطر		
٩٣	١٣	بدناً	صوابه بدنا بغير تنوين وهلاّ انتبه المدرسون لذلك بقوله في العروض أنا
٩٧	٢٢	اليهُم	ما سبب هذا التبلتع
١١٠	١٨	يغدو	صوابه يَغْدو وفيه مهمومٍ ومهدومٍ وكلثومٍ والصواب حذف التنوين منها
١١١	٧	ارءَف	حقه أرأف
—	٩	بنْةُ	صوابه أبْنة
—	١١	مجذب	صوابه مجدب
١١٣	١٧	مراحاً – مقاحاً	صوابه بغير تنوين
١١٥	••	متيّمٌ أثرُها	صوابه أثرَها اذ كيف يصح نسبة التتيّم للأثر واعجب من ذلك تنوين متبول ومكبول فكيف تفعلون يا اساتيذ بالغول أرأيتم كيف يوقع التحذلق في المخازي مع ان قصيدة كعب أشهر من نار على علم
١٢٣	١١	شيئاً	والصواب شيّا ليوافق قوله يديّا وحيّا
١٢٤	••	الادِبُ	والصواب الادبَ لانه مفعول لقوله لا ترى
١٢٥	••		جميع قوافي القصيدة المسمّطه ينبغي ان تكون مقيدة
١٣٢	••	دنى	الوجه دنا لكونه واويّا
١٣٤	٥	كتاني	صوابه كتانِ
١٣٧	••	ناصبٍ	صوابه ناصبِ
١٤٦	١٦	نـُثني	صوابه َنثني
١٤٧	••	أسفار	صوابه أشـْفار فما للأسفار هنا وللعين يا أيها المبصرون

صفحة	سطر		
١٥٢	٠٠	حسراناً	صوابه حسرانا بغير تنوين
١٥٧	١٦	صَناعة	صوابه بالكسر
—	٢٥	مظهراً	صوابه بغير تنوين
١٥٩	٢٦	سَنـًا	صوابه سَنـًى
١٦٩	١٢	ورُبّت	حقه وربـّتَ
١٧٤	١٣	خَمْسَ كفّك	صوابه خَمْس
١٧٧	٠٠	بَكور	صوابه بالضم وفيه أيضاً تشميتاً وصوابه بغير تنوين
١٧٩	٠٠	في الدعوة ـ الى الجفوةِ	والصواب الوقوف على الهاء
١٨٣	١٧	خَيارهم	صوابه بالكسر
—	١٨	تَسْتَـل فسَل	الوجه تسألْ وَسَلْ
١٨٣	٢١	وصُحبه	صوابه بالفتح
١٧٥	١٣	المنطَق	صوابه بالكسر
—	١٦	عنه	الوجه منه
١٨٩	٠٠	البَصْرِ	الوجه البَصَر
—	٠٠	نجىء مكررة مرتين	صوابه تجىء
—	٠٠	فطورا	صوابه وطورا
—	٠٠	بجميثة	صوابه بجاة
١٩٥	١٣	دنى	صوابه دنا
١٩٩	٠٠	المِشتاة	صوابه الفتح
—	٠٠	ينتقرُ	صوابه ينتقر
٢٠٤	٧	جُمّة	صوابه نجَمّة

صفحة	سطر		
—	..	غمامٍ – زنامٍ	صوابه بغير تنوين
٢١	١٢	لاقى الاحبّةِ	الوجه لاقى الاحبّةَ
—	١٥	أبغِض	صوابه أُبْغِض
—	١٨	البِهيمُ	هي من التبلتع بمكان
٢١٥	..	إن	الوجه أن
٢١٨	٢٤	صروفه	الوجه صروفها إلا اذا كان الضمير يرجع الى مذكور قبله
٢٢١	٢٤	قُنبُرة	الاولى قُبّرة.البيت في آخر الصفحة
٢٢٢	١٨	يمنعَ - فترتع	صوابه يمنعُ فترتعُ
٢٣٢	١٧	يصنعُ	حقه يصنعِ
—	١٨	بدوُه	صوابه بدؤه
٢٣٦	..	أرْبِـهِ – أدْبِـهِ	صوابه أرَبِـه أدَبِـه
٢٣٧	..	وانّ منّى لوّا الوجه وان لـوّا عَناءٌ وكأنه ظن ان عناءهنا	جار ومجرور وان تأخيرهـا عن لوّا يكسر وزن البيت فأبدلها بمنّىوجعل الضمير مفردا
٢٣٩	١٣	يا عابثَ الفقر	حقه يا عائب الفقر مع ان لفظة العيب المذكورة في المصراع الثاني تهدي الاعمى الى فهم البيت ولكن أساتيذنا يحبّون العبث
٢٤٥	٢٣	إنمّا	حقه أنمّا
٢٤٧	١٤	قوسا	حقه قوساً
٢٤٨	١٢	منَ ابن	حقه منِ ابن
—	..	مامةَ كعب	حقه مامةِ للاضافة
٢٥٢	..	ولها	صوابه وَلَها أي ولها عليه رنين

صفحة	سطر		
٢٥٥	٠٠	المقانعَ	صوابه المقانعا
٢٥٨	١٩	َتسْلَمْ مِنْ أنْ	صوابه َتسْلَمْ مِنَ ان بحذف الهمزة للوزن
—	٢٣	تجَرَّبْ سبيل القصد	حقه تحَرَّ فتصحفت الكلمة على الجميع والذي أوقعهم في ذلك قول الشاعر في البيت الثاني لم تجرّبْ . وقوله ولا تُسيء الظنا حقه تسيء فينكسر الوزن وقوله لدى الَخبر حقه الخُبْر أي الاختبار
٢٦٠	٠٠	ضَلَّتْ	صوابه ضَلّتِ
—	٠٠	َبرغوثا	صوابه ُبرغوثا - لولَّتْ صوابه لَوَلّتِ فليراجعه الاساتيذ في محلها فاما فتح البرغوث فهو عجيب من أمثالهم اذ ليس في الكلام َفعْلول إلا َصعفوق
٢٦٢	١٠	َتهامة	صوابه ِتهامة بالكسر
٢٦٣	٧	الكاس	صوابه الكاسي
—	٨	فانك انت الآكل اللابس	صوابه اللاسي من لسا أي أكل أكلا شديداً فكيف يمكن أيها المدرسون العظام أن تكون اللابسُ قافية مع الكاسي مع انهما بمعنى واحد فان الكاسي هنا من كسِيَ لازماً ولو كان من كسا المتعدي لكان مدحاً وهو غير مراد أفلا تشعرون
—	٢٤	يحفِظ	صوابه يحفَظ
٢٦٤	١٨	ممكنا	صوابه ممكّنا
٢٦٧	١٨	وهْنٌ	صوابه بالفتح

صفحة	سطر		
٢٦٩	٢٣	قـُليبَ	حقه قليبا
٢٧١	١٥	شتـّانِ	حقه شتانَ
٢٧٦	٢٠	اللهُ	صوابه اللهَ
٢٧٩	٢١	قبلـَنا	صوابه قبلـُنا
٢٨٠	٢٣	لا يستقيم البيت بقوله وتـُنقـَب فلا بد من ان تكون وتنتقب	
٢٨٧	١٩	وعَمري	الاولى بالضم فان الشاعر غير متنطـّع
٢٩٣	٢٢	وشُرب	صوابه بالفتح
—	٢٤	لجهنـّمَ	صوابه في جهنـّمِ فليراجع
٢٩٥	١٤	المـُغـْزَل	صوابه المِغـْزَل
—	١٥	ويَعرِي استـُه	الاولى ويُعرى استـُه
٣٠١	٠٠	فانك الطاعم	صوابه فانك انت الطاعم
٣٠٣	١٩	والدَرّ	صوابه والدُرّ
٣١٢	٠٠	ضَبارم	صوابه بالضم
٣١٦	٠٠	قبلـُهُ ـ بَعْدَهُ	صوابه قبلـَهُ ـ بَعْدَهُ البيت بآخر الصفحة
٣١٩	٠٠	دُرْنا درْنى	الاولى الاقتصار على احداهما
٣٢٣	٢٧	جلاجلَ	صوابه جلاجلِ فان ذا الرمة لم يكن من المتبلتعين
٣٢٤	١٢	جِلاجلَ	عين ما تقدم من اللهوقة وفي البيت الاول نظر
٣٢٦	١٦	ويُسْهِرُ	صوابه ويَسْهَرُ وحَرّاها الظاهر انه تَجرّاها
٣٢٩	١٧	صئيلة	صوابه ضئيلة
٣٣٢	١٩	مَنْجا	صوابه منْجَى

صفحة	سطر		
٣٣٨	١٢	حُنانَيْك	صوابه بالفتح
٣٣٩	٠٠	الى خيبرا	لا يستقيم به البيت فلا بد من ترقيعه بلفظة سوق أو نحو ذلك
٣٤٢	١٨	مرتهِن	صوابه مرتهَن بالفتح
٣٤٣	١٨	عرب	صوابه غرب
٣٤٤	٢٠	فآخَر	صوابه فآخِر بالكسر
٣٤٦	٨	ظفَرت	صوابه ظفِرت بالكسر
	٩	القرونُ	الوجه بالفتح وقوله مَنائِنيا ملفوت
٣٤٧	٠٠	في أبيات المتنبي لهوقة كثيرة	
٣٤٨	٠٠	وقبلُك	صوابه وقبلَك قد تكرر ذلك غير مرة ولا أدري كيف يصح رفع الظرف عندالاساتيذ
٣٤٩		ايُّما	صوابه أيَّما وقوله الرزّ لعله بالفتح وهو صوت السماء
٣٥٠	٥	أو أشرَخَ	حقه أو اشْرخ
٣٥٣	٠٠	عنّيت في الخدرُ عشرا الظاهر غيّبت في الخدر عَشرا	
٣٥٣	٠٠	والأنس	صوابه والإنس بالكسر
—	٠٠	عنه	حقه منه
٣٥٨	٢١	يغشون حتى ما تهرّ	صوابه تهرُّ
—	٥٠	الصُّواد	صوابه بالفتح
٣٦١	١٣	إنّ	صوابه أنّ
٣٦٦		امن تذكر جيرانَ	صوابه جيرانِ
٣٥٨		النُّعْما	صوابه النعْمى
٣٧٠	١٨	يسلِم	صوابه بفتح اللام

صفحة	سطر		
—	٢٥	انى	الوجه أنى
٣٧٣	٩	ركَبت	صوابه ركِبت
٣٧٨		سريعةُ	حقه سريعةِ البيت بآخر الصفحة
٣٨٧	٣	محتقِرا	صوابه محتقَراً اسم مفعول
—	٥	انّ العزْ	صوابه أنّ
—	٦	بلوغُ	صوابه بالفتح اسم أنّ
٤٢٥	٢١	اغيدَ	صوابه اغيدِ للوزن وكان ينبغي للاساتيذ أن يفطنوا لذلك لقول الشاعر في القافية أحورِ
٤٣٣	١٢	ظفركَ - أمركَ - بقدركَ والصواب فيها كلها الوقف بالسكون على الكاف	
—	٢٣	فالنّعْشُ أدنى لها من ان اقول لَعا والصواب فالتعس فان مراده أن أقول لها تعساً أولى من قولي لَعا وانما تهور الاساتيذ في ذلك لذكر النعش قبله حيث قال ويقال لا لعا لفلان اي لا أقامه الله من عثرته ولا نعشه غير ان العبارة صريحة في ان لعا ونعشا بمعنى واحد فكيف يتخرج قوله اذا فالنعشُ أدنى لها من أقول لعا	
٤٣٨	١٥	نَسبتي	صوابه بالضم او بالكسر
٤٥٢	١٣	وحُبٌ بها مقتولةِ صوابه مقتولةٌ	
—	٢٥	فأظهِرَ في الالوان مِن الدّمِ الدمُ وهي عبارة مختلة لا يستقيم بها وزن البيت فلا بد من ترقيعه بلفظة ذا بعد قوله من اونحو ذلك والا فكيف يسوغ تسكين نون من وبعدها اداة التعريف	

صفحة	سطر		
٤٥٢	٢٧	آدَمَ	صوابه آدمٍ للوزن وفي المصراع الثاني نظر
٤٥٥	٥	أغلى السَّباءَ	صوابه بالكسر
—	—	َختَامها	صوابه ِختامها
٤٥٩	٩	كـَلَّا	حقه كلاٌّ
٤٦٣	١٨	زُبرقان	والصواب بالكسر
—		قبلـُك	والصواب بالفتح وهذه خامس مرّة فهل تتورّكون على الطبّاع كما هو شأنكم اليوم وفي قوله عَولُ نظر
٤٧٧	١١	تعاقبُ	صوابه تعاقب
—	١٩	الأنثى	حقه التليين للوزن
٤٨٠	٢٥	ضوء	الوجه بالفتح
٤٨٤	٢٤	البُسَيطة	صوابه البَسيطة فأما المصغّرة فلا يدخلها ال
—	٢٥	زجاج	الوجه بالضم وكذا قوله سابقاً الضّرّ
	٢٨	قبلُهُ	صوابه بالفتح لكونه ظرفا لكونه ظرفا لكونه ظرفا فهل تتورّكون على الطبّاع
٤٨٧	١٩	يبدو محاسنه	حقه تبدو
٤٩٣	١٩	مناهِلُ	صوابه مناهلٌ لكونه وقع عروضاً فليراجع
—	٠٠	وفي البيتين الآخرين تلهوق وخروج عن الفصيح	
٤٩٤	٠٠	في بيت المتنبي تنطّع . ويا لكِ من خد اسيل في البيت الآخر صوابه ويا لكَ	
٥٠١	٠٠	اشتوا	صوابه شَتَوا وقوله مثلَ حقه بالرفع
٥٠٣	١٣	ِجنَائي وخياره صوابه جنايَ وخِياره	
٥٠٨	٢٢	لذُوي الالباب وذي صوابه لذوي الالباب او ذي	
٥٠٩	١٢	والنّجح	صوابه بالضم

صفحة	سطر		
—	١٣	تُقاذف	صوابه بالفتح اصله تتقاذف حذفت التاء الاولى للتخفيف
—	١٩	وكلّ يوم	صوابه وكلّ منصوب بحذف الخافض
٥١٥	٠٠	خندَب	صوابه خندف البيت بآخر الصفحة
٥١٦	٦	يُفنِي	صوابه يَفني
—	١١	معتَب	صوابه معتِب
—	٢٢	كِثرة	صوابه كَثرة
٥١٧	١٥	بنُ	حقه بنَ
٥٢٠	٢٢	فُنّ	صوابه فَنّ
—	٢٩	نُفذت	حقه نَفذت
٥٣٢	٥	خَدَع	الوجه خُدَع
—	١٠	وعصرُه	صوابه وعصرِه
٥٣٥	٩	تَساقِ	صوابه تُساقِ
—	١٠	مِثلَ فِيءِ	صوابه مثلُ فَيءِ
—	١٤	قنَعوا	صوابه قنِعوا
٥٣٨	٠٠	غرَى	صوابه عُري
—	٠٠	الشّرك تعلِمه	صوابه الشِرك تعلَمُه
—	٠٠	عِماها	صوابه عَماها العمى بالفتح يا أساتيذ
٣٥٩	٠٠	تُجهَل	صوابه تَجهل
٥٤١	١٩	كانوا الاكارمُ	صوابه الاكارمَ . وفي البيت الثاني لهوقة
٥٤٢	٠٠	المغيظ المحنَق	حقه المحنِق بمعنى الحاقد فاما المحنَق فانه بمعنى المغضب فيكون بمعنى المَغيظ
٥٤٨	٠٠	فُمي	صوابه فَمي البيت بآخر الصفحة
٥٤٩	٩	تَنَكَر	صوابه تُنكِر

صفحة	سطر		
—	—	ابتَلَيْت	صوابه ابتُلِيْت
—	١٩	غدت بلتُ	الوجه بلتَ
—	٢٤	قبلُ	صوابه قبل لكونه ظرفا لكونه ظرفا لكونه ظرفا وهذه سابع مرة فهل تتوركون على الطباع
—	٢٥	الزّبدَ	صوابه الزُّبد وقوله يا عقار فيه نظر
٥٥٥	٠٠	أنَس	صوابه إنْس
—	٠٠	يحمُدُ	صوابه يحمَدَ وقوله خِمساً قبله فليراجع
٥٦١	٠٠	فوق رؤوسهمُ	حقه رؤوسهِم ومثله كثير في هذا الكتاب
—	٠٠	جلاّل	حقه اجلال
٥٦٦	٠٠	لم يَلُذّ	صوابه يَلِذّ لان المضاعف اذا جاء لازماً تكون عينه مكسورة الا في أحرف نادرة
٥٦٨	٠٠	لأسقيهم	صوابه لأسقِيَهُم البيت بآخر الصفحة
٥٦٩	٠٠	فيمرُض	حقه فيمرِض
٥٧٠	٢٣	كلام	صوابه كَلام
٥٧٥	١٤	وزَهَدّ	صوابه وزُهد
—	٠٠	يساوي	صوابه يساوَى
—	٠٠	نحو مبرّد	حقه المبرّد
—	٠٠	هاكِيها	صوابه هاكَيها
—	٠٠	تطنُن	الوجه تطِنّ
٥٩٠	٠٠	تفهيموا	صوابه تفهَموا
—	٠٠	ذُور	صوابه ذَوو وكان الاساتيذ قاسوا الجمع على المفرد
—	٠٠	بالِ	حقه بالْ فان القوافي كلها مقيدة
٥٩١	١٣	تعليم	صوابه تعلم

صفحة	سطر		
٥٩٧	٠٠	بالمَشرفيّ	صوابه بالفتح
٦٠٨	٢٣	أرْحَمْ	صوابه إرْحم
٦١٠	٢٢	ويُحْسَنُ ذلّها	صوابه ويَحْسُنُ دلّها
٦١١	٠٠	أكارعَه	حقه أكارعُه
٦١٤	١١	قبلَ الأجَلَ	صوابه من قبل الاجل ليستقيم الوزن
—	١٣	لَيْلا	الوجه لَيْلى
٦٢٦	٠٠	جعلنا عوارضُ	صوابه عوارضَ البيت بآخر الصفحة
٦٢٧	٠٠	ينْصَحان	صوابه ينصَحا
—	٠٠	واصبُرْ	صوابه واصبِرْ وكذا في الثانية
٦٢٨	٠٠	يجيء	صوابه يجي مليّنة للوزن
٦٣٣	١٠	جَسْم مكررة مرتين والصواب جِسم	
—	٠٠	في الابيات الاخيرة منع مسلم من الصرف اولى من كسر البيت	
٦٣٣	١٠	وقوله باردِ	صوابه بالتنوين والطّهور بالفتح لا بالضمّ
٦٣٥	١٥	الاشقِينَ	حقه الاشقَينَ
—		مطبُخُه	صوابه مَطْبَخَه وساباطَ حقه بالكسر أو بالالف
٦٣٩		نائلك	حقه نائلكم لانه واقع عروضا
٦٤١		سعادٌ	صوابه سعادُ وأثرها صوابه بالفتح وهذه ثاني مرة
٦٤٥	١٠	ضَرغام	صوابه بالكسر
—	١٣	ومصابحُ	صوابه مصروفاً لوقوعه عروضاً
—	١٩	ودارَ وفارَ	حقها السكون للقافية
٦٤٦	٠٠	السعلات	حقه السعلاة وعمرو بن مسعود شرار الوجه فيها كلها النصب

صفحة	سطر		
٦٤٩	١٥	اربعةٌ	صوابه اربعةً وفي جبرئيل تلهوق ونَصل حقه فصل
٦٥٠	••	تزوّجَ ابن	الرواية تزوّج ابن
٦٥٣	••	مُعاذ الله	صوابه مَعاذ
٦٥٨	••	شديد	الوجه بسكون الآخر
٦٦٠	••	ترين	صوابه ترَينَ واعلِم صوابه واعلَم
—	••	من الحرفةِ	الوجه من الحِرفَة
٦٦٢	••	وطياً	حقه وطيئاً
—	••	فقصّركا	صوابه فَقَصّرُ كاي غايتكما ومصيركما
—	••	وتَلِدَ	صوابه تَلِدا
٦٦٢	••	فتى هو احيا	الرواية كان احيا
٦٦٤	••	لعلّ الله	صوابه اللهَ البيت بآخر الصفحة
٦٦٨	••	يَخزني	صوابه يُخزني
٦٦٩	••	مزيد	صوابه مزيد لوقوعه عروضاً
٦٧٢	••	أحبّ	أُحِب
٦٧٤	••	شوامش	صوابه شوامس وشوامس الثانية ينبغي ان
٦٨٤	••		تكون مجرورة بالكسرة او بالف الاطلاق
٦٧٨	••	خَبَزُه	صوابه خُبْزه
٦٧٩	١٤	شيا تـُجَر	حقه يُجر
—	٢٢	اخفُّ	صوابه أخفّ
—	٢٣	وابصر	صوابه وابصرَ

وما زال الشيخان ماشين على هذه الطريقة الى آخر المقامات ولو تقصيت كل ما وقع من الغلط والتحريف في المتن والشرح لكان مقداراً عظيما وكفى

بما أوردته شاهداً على علميّة المشار اليها وكذب دعوى صاحبها فأما ما انتخبه الاستاذ الاعظم مسيو كسّان دبرسفال من قصة عنتر وما الفه في كلام اهـل حلب وما نقله غيره أيضاً من الحـكايات السخيفة الركيكة فغير جدير بأن يضاع في نقده الوقت اذ كله فاسد .

تم الذنب

تنبيه من عادة الاساتيذ المزبورين ومن اشبههم ممن الف في العربية شيئاً ان يعتذروا عن اغلاطهم الفاضحة بالتورّك على الطبّاع أو على صفّاف الحروف بأن يقولوا ان وقوع الغلط انما ينشأ عن جهلها باللغة كما ذكر لي ذلك الكنت الكس دكرانج (Allix Desgrange) نقلاً عن الاستاذ كسّان دبرسفـال وهو عذر أقبح من ذنب فان الصفّاف كيفما وجهته اتجه ومهما ترسم له يمتثله ألا ترى أن المسيو بيرو (M. Perrault, rue de Castellane, 15, Paris) مع كونه لم يعرف من اللغة العربية شيئاً فقد امتثل كل ما رسمنـا له في كتابنا هذا من التصحيح والتبديل بغاية التأني وبذل مجهوده في صف الحروف وجودة الطبع حتى جاء بحمد الله أحسن ما طبـع بلغتنا في البلاد الافرنجية فلهـــذا ننوّه باسمه عند كل من شاء ان يطبع شيئا بالعربية ولا شك انهم يحمـــدون سعيه ويرضون عن صنعـــه وان لم يكن في المطبعة السلطانية وكفى بحسن العمل وصاة .

بسم الله الرحمن الرحيم

يا سيدي الشيخ محمد يا سيدنا المطران بطرس يا ابونا حنا يا ابونا منقريوس يا صير ابراهام يا مستر نكتن يا هر شميط يا سنيور جوزبى هاديني انا عملت الكتاب دي يعني الفته لا طبعته ولا جلّدته وحطّيته بين اياديكم انا اعرف طيّب ان سيدي الشيخ محمد يضحك منه اذا كان يقرأه لانه يعرف من روحه انه يقدر يعمل احسن منه ولانه يعتقد انـــه شيء فارغ وان كنت مليته بالحروف لكن سيدنا وابونا وصيرنا ما يقدروش بل ما يقدروش يفهموه وعلى شان دي اطلب منهم انهم قبل ما يولعوا النار حتى يحرقوه يسألوا عن الطيّب فيه وعن غير الطيّب فان كان الطيّب اثقل يخلّوه لي والا يحرقوه بجـلده واذا كانوا يجدوا فيه بعض هفوات فما يكونش من العدل انهم يحرقوه لان كل واحد منا فيه هفوات كثيرة والله تعالى لا يحرقنا بنـار جهنم بسببها يا ابونا حنا انا احلف لك اني ما ابغضكش ولكن ابغض تكبرك وجهلك لاني لمـــا اسلّم عليك تلقمني ايدك حتى ابوسها فكيف ابوسها وانت جاهـل وعمرك كله ما عملت كتاب ولا موّال روحي يا سيدي الشيخ محمد انا اعرف ان كتب الفقه والنحو اجلّ من كتابي دي لان الواحد لما يقرأ كتاب من دول يقطّب وجهه ويعبّس حتى يقدر يفهم معناه ومعلومك ان الهيبة والجلالة ما تكونش الا في التعبيس ولكن كتب الفقه ما تقولش ان الضحك حرام او مكروه وانت ما شاء الله كيس لبيب قريت من كتب الادب اكثر مما اكل سيدنا المطران بطرس من الفراخ المقمّرة وفي كل كتاب ادب ترى باب مخصوص للمجون فلو كان المجون ضدّ الادب ما كانوا دخّلوه فيها واهون ما يكون عليّ ان اقول في آخر كتابي دي زي ما قال غيري ومن الله استغفر عما طغى به القلم وزلّت به القدم فنحن دي الوقت والحمد لله صلح فاما مسيو ومستر وهر وسنيور فما همّاش ملزومين ان يطبعوا كتابي لان كلامي ما هوش على البقر والحمير والاسود والنمور بل هو على الناس بني آدم ولكن هـذا هو والله اعلم سبب غيظـكم مني . تم الكتاب

الخاتمة

تم الجزء الأول من كتاب الساق على الساق في ماهو الفارياق.
ويتلوه الجزء الثاني بعد رجم المؤلف أو صلبه
بمن الله وكرمه آمين

بيان ما في هذا الكتاب من الالفاظ المترادفة والمتجانسة

الكتاب الاول

صفحة

الكتاب الثاني

صفحة

صفحة

الكتاب الثالث

صفحة

صفحة

الفهارس

فهرست الاعلام

— ت —

— ث —

— ج —

— ش —

— ص —

— ض —

— ط —

فهرست الأماكن والمدن والبلاد

– ت –

– ث –

– ج –

– ح –

الفهرست العام

مطابع بيبلوس الحديثة
فرن الشباك – شارع مار نهرا
تلفون ٢٨٤٥٢٩٠

AL SAQ ALA AL SAQ

BY

AHMAD FARIS ALSHIDYAQ



DAR MAKTABAT AL_HAYAT
BEYROUTH